نثر الصحابة

أغراضه وخصائصه

دكتور

محمد شمس عقاب

نثر الصحابة

أغراضه وخصائصه

نثر الصحابة
أغراضه وخصائصه

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع
٢٠١٦/٥٧٤٧

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-6546-13-4

الأمل
للطبع والنشر والتوزيع

0112 0774 990 - 0100 0282 166
Daralamal2014@gmail.com

نثر الصحابة

أغراضه وخصائصه

دكتور

محمد شمس عقاب

دار الأمل
للطبع والنشر والتوزيع

إهــداءٌ

إلى أخي الحبيب الدكتور محمد يسري سلامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ

نبتة أسهمت في غرسها، وها هي الثمرة!

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، وأصلِّي وأسلم على نبيِّنا محمدٍ المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن اتَّبع سُنَّته واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أمّا بعد؛

فإنَّ الأدب في عصر صدر الإسلام أدبٌ ذو مقدارٍ ضخمٍ وفير، وإنَّ فيه من الجزالة والرونق ما أضحى به جديرًا أن يَنزل القرآنُ ليَتحدى أهلَه قبل إسلامهم، وإنَّ فيه من الروح واليقين ما غذاه الإسلامُ به بعد أن أسلموا. إنه أدبٌ جامعٌ بين صفاء العربية وفطرة الإسلام، وتلك خصلةٌ لا تكادُ تجتمع لأدبٍ غيرِه.

وإنَّ للنثر على خصوصه من هذا الأدب منزلةً ناهضتْ منزلةَ الشعر في ذلك العصر، إذ فُتن الناس بالقرآن حقًّا وما جاء فيه ـ وإنْ لم يسكتوا عن قول الشعر ـ واستمعوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاعرًا ـ وإن كان يُنْصِتُ إلى الشعر ـ ثم إنَّ الدولة الوليدةَ التي أنشأها الإسلامُ وهي تتوسَّع وتنمو، أخذتْ حاجتُها إلى النثر تزدادُ يومًا بعد يوم، وكان هذا النثرُ خيرَ مُعينٍ لها في رحلتها المتداخلةِ بين شُعَبِ الحياةِ وفروع الجهاد والسياسة والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

إنه باستطاعتنا تقسيمُ النثر في عصر صدر الإسلام على أقسام:

أحدُها: نثرُ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وثانيها: نثرُ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

وثالثها: نثرُ غيرهم ممن أسلم ولم يُدرك الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يره، ممن عاش في حياته أو وُلدَ بعده بقليل، أو ممَّن لم يُسلم ولكنه عاش في ذلك العصر، وهؤلاء فئةٌ قليلة.

أما نثر الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقد دُرِس أو دُرِستْ بعضُ فنونه، وأما نثر غيره صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الصحابة أو غيرهم، فإني لم أرَ أحدًا خصَّه بدراسةٍ منفصلةٍ عن دراسة النثر أو الأدب في ذلك العصر. ذلك ما حدا بي إلى جمع نثر الصحابة ودراسته دراسةً مفردةً مفصَّلةً، وكنتُ امرءًا مشغولًا - ولما أزل - بدراسة أدب الصحابة وإخراجه من شعرٍ أو نثرٍ، بل لعلي أجعله مشروعَ عمري الذي أستكمل لَبناته يومًا بعد يوم، سائلًا الله عَزَّوَجَلَّ التوفيقَ والإعانة.

ولقد اختُلف في تعريف (الصحابيِّ) على أقوال أحوطُها أنه: «مَنْ لقي النبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُسْلِمًا، ومات على الإسلام»[(١)]. وهو التعريف الذي ارتضيته في هذه الدراسة، وقد عَنيت بنثرهم ذلك الذي قالوه: حالَ كونهم صحابة، لا قبل ذلك قبل أن يُسلموا[(٢)]، ولا بعد ذلك في شأن من ارتدَّ منهم[(٣)]، وهؤلاء قِلةٌ معدودون لا ذكْر لهم، ولا أثر لهم يُروى.

وقد خصصْتُ الصحابة بهذه الدراسة؛ لأنَّ نثرهم لم يوفَّ حقَّه المرجوَّ له، بينا وُفِّـيَ نثر غيرهم ممن لحقهم حقَّه أو كاد[(٤)]؛ فعزَّ عليَّ أن يُترك نثر هؤلاء القوم الذين كانت تتنزَّل عليهم الآيات المعجزات، والذين كانوا يستمعون إلى رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المؤيَّدِ بالوحي، ويدرسون في مدرسته وهو أفصحُ العرب، والذين هم قريبو عهدٍ بأصول أدبنا الجاهلية، ذلك الأدب المتين المنقَّى. أليس كلُّ أولئك داعيَ حقٍّ إلى الاهتمام لدراسة

(١) شرح التبصرة والتذكرة، للعراقيّ، زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين٢/ ١٢٠ حققه عبد اللطيف الهميم، وماهر ياسين الفحل، دار الكتب العلمية، بيروت ط/ ١٤٢٣هـ. وانظر: تفصيلَ الأقوال الأخرى فيه. وانظر: المراثي النبوية في أشعار الصحابة: توثيق ودراسة، لمحمد شمس كامل عُقاب ١٤-١٧ رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١٠م.

(٢) من أمثلة نثرهم قبل الإسلام هذا المَثَل لأبي سفيان: «لا في العير، ولا في النفير» قاله يوم بدرٍ كافرًا، انظر: مجمع الأمثال، للميداني، أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ٣/ ١٦٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط٢/ ١٤٠٧هـ.

(٣) كعُبيد الله بن جحشٍ مثلًا الذي رُوي أنه ارتدَّ بالحبشة، فتنصَّر، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني ٧/ ٦٥١، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١/ ١٤١٢هـ.

(٤) مثل فئة الكتَّاب في العصرين الأموي والعبَّاسي، وكذا الخطابة فيهما.

هذا النثر دراسةً متأنِّيةً مستقصية، لا دراسةً عجِلةً، خابطةً فيه خبطَ عشواء، تنقر هنا قليلًا، وهنالك قليلًا، تخلطُ ما صحَّ منه ـ وهي تعلم أو لا تعلم ـ بما لم يصحَّ منه، فتفسد من الأدب، وتظلم التاريخَ والرجال والعصرَ، بقصدٍ أو بغير قصد، ولكنَّ الظلم في نهاية مطافه قد وقع، وعند الله عَزَّوَجَلَّ تُختَبَرُ النوايا.

إن أدب الصحابة النثريّ، أدبٌ عظيمُ المادَّة، ضخمُ المقدار؛ لا يُجمع إلا في الأسفار الكبيرة، وإنَّ تنقيةَ مصادره لما يُشكل كبير الإشكال، ولذا فقد صرفتُ همِّي إلى ما يُوثَق فيه من تلك المصادر، ولم أُلقِ بالًا إلى ما لم يوثَق فيه منها، مما ناله شكٌّ أو قدحٌ أو تضعيف. وقد وجدتُ في المصادر الصحيحة غَناءً أيَّما غَناءٍ عما ورد في المصادر الضعيفة وكفاية.

وقد جُمع بعضُ هذا النثر، أو كثيرٌ منه ضمن بعض المجاميع الأدبية المعاصرة؛ فأما الخطابةُ والوصايا، فقد جَمع طائفةً حسنةً منها الأستاذأحمد زكي صفوت رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ديوانه الجزل: (جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة)[1]، وجمع أيضًا قدرًا من الكتب والرسائل في ديوانه الجزل الآخر: (جمهرة رسائل العرب)[2]، ولكن لما كان الكتابُ متقدِّمًا زمنًا في هذا العصر، وظهرتْ كتبٌ بعده ونشراتٌ أجود من تلك التي كانت في عصره؛ ولما كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد اعتمد بعضَ المصادر الموهَّنة أو الضعيفة ـ ولم يكن يخفاه ذلك ـ ككتاب (نهج البلاغة)، وكتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة، ولما كان يمزج بعض النصوص ببعضٍ، ويُدخلُ بعضَها في بعضٍ، حتى تكتمل صورةٌ تامَّةٌ للنصّ ـ وفي هذا ما فيه من جفوةٍ لمنهج التحقيق الصحيح ـ وقد عرف هو ذلك[3]، ولكن أدخلَه هذا المدخل

---

(١) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.

(٢) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، لأحمد زكي صفوت المكتبة العلمية، بيروت.

(٣) يقول: «ولم أقتصر على إيراد الخطبة بإحدى الروايات الواردة فيها، بل عُنيتُ بالتوفيق بين الروايات المختلفة، وإتمام بعضها من بعض؛ لما في ذلك من زيادة الفائدة للقارئ. فإذا ما رأيتُ الخطبة مرويةً بصورتين يتبيَّن فيهما الاختلاف، أوردتُ الصورتين جميعًا»،جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت ١/ ٥.

انبتارُ بعض النصوص، أو نقصُها، أو اعتماده على مصادر ضعيفة؛ لمَّا كان ذلك كلُّه رأيتُ أن أستأنس بكتابيه العظيمين، وأن أجعلهما مِفتاحًا لي في البحث، وهاديًا إلى غيرهما من المصادر مما لم يرجع صاحبُهما إليه. وهل الباحثُ إلا بانٍ على بناء غيره! على أنني لم أجعل الكتابيْن عمدةً لي في دراسة هذا النثر، بل تعمَّدتُ في جُلِّ الأمر أن أرجع في نصوص (الجمهرتَيْن) إلى المصادر التي أحال عليها المؤلِّف، أو إلى مصادر أخرى لم يُحِلْ عليها، حتى أتحقَّق من سلامة النصِّ وحدوده وضبْطِه. ولمؤلِّف الجمهرتين مني خالص الدعاء بالرحمة والمنزلة الكريمة عند الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن المجاميع المتْقنة منهجًا وترتيبًا السِّفْرُ الذي ألَّفه الدكتور المحقِّق محمد حميد الله الحيدر آبادي عليه رحمة الله، وسمَّاه: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة)[1]، وقد أفدتُ منه في باب الكتابة أيَّما إفادة، وجعلتُه أحدَ المصادر التي أحيل عليها؛ لاتباعه منهج التحقيق العلميِّ في تأليفه. على أنني لم أكتفِ به في هذا الباب، بل رجعت إلى المصادر الأصول مما يظهر في كل موضعٍ من هذا البحث، وزدْتُ عليه في مواطن كثيرة.

هذا في باب الجمع. أما في باب الدراسة فإنَّ نثر الصحابة لم يُفرد كما سبق بدراسةٍ وحدَه، بل دُرستْ بعضُ نصوصه في غضون دراساتٍ كُتبتْ عن الأدب في ذلك العصر، ولكني أشيرُ إلى دراسةٍ جيدةٍ للترسل على خصوصه في عصر صدر الإسلام، هي دراسة الدكتور محمود المقداد التي سمَّاها: (تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام[2]، وهي لم تُفرِد رسائل الصحابة بالدراسة كما مرّ، بل مزجتها بدراسة رسائل

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله الحيدرآبادي، دار النفائس، بيروت، ط٧/ ١٤٢٢هـ.

(٢) تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، للدكتور محمود المقداد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/ ١٤١٣هـ.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كما أنه اقتصر على الرسائل فحسب، ولم يُدخل أنواعًا أخرى من الكتب، كالعهود والأمان والإقطاع ونحوها، وهي أنواعٌ لا تنفكُّ عن موضوع الكتابة بحال. كما أن هذه الدراسة لم تنقِّحْ المصادر، بل رجعت إلى مصادر مشكوكٍ في صحتها[(١)].

ومع ذلك فقد انتفعتُ بهذه الدراسة في جوانب التأريخ للكتابة، والإحالة على مواضع بعض الرسائل في مظانِّها من المصادر.

ذلك، ولما كان النثرُ داخلًا فيه كلُّ كلامٍ منثور رأيتُ أنْ أَحُدَّ ما سوف تتناوله هذه الدراسة بمصطلح (البنية الفنية)، وهو كلُّ نثرٍ بدتْ عليه علاماتُ الفنِّ أو الصنعة، مما لم يكن كلامًا من كلام العامة، أو كلامًا أُلقي من غير أن يأبه له صاحبُه، أو كلامًا مما تستدعيه حاجةُ الناس اليومية. بل هو كلامٌ تتوافر فيه عناصرُ الفنّ، أو عناصرُ من عناصر الفنِّ من حيث الصورةُ أو النظم[(٢)].

(١) بنى الدكتور المقداد ترتيب كتابه على صاحب الرسالة أو الجهة التي تُبعث إليها الرسائل، أو تأتي منها؛ وليس على مضمون الرسالة نفسه، ما أفضى به إلى التكرار والإعادة، ومع ذلك ينقطع السياق الزمني الذي اختطَّه لكتابه؛ لأن جوابَ الرسالة كثيرًا ما لا يُذكر في موضعه، بل يُؤخَّر حتى يكون في الجهة. كما أنه لم يُعنَ بنقل النصوص تامَّة، إنما كانت غايتُه الانتخابَ منها ليُحقق بُغيته في كثرة التقسيم والتشقيق وتوليد الموضوعات. ولعل دافعَه إلى هذا عنوانُ الكتاب نفسه الذي هو تاريخ الترسل، فهو مبني على الترتيب التاريخيّ وتوالي الأحداث زمنيًّا، وليس بها تُمليه الرسائل من الموضوعات. أما دراستُنا هذه فهي مَعنيَّةٌ بالموضوع أولًا، لنضعَ أيدينا على فنون هذه الرسائل وهذا النثر قبل كل شيء؛ فنؤرخَ للأدب قبل أن نؤرخ للعصر.

(٢) البِنْية: من البَنْي، والبَنْيُ نقيضُ الهدْم، بَنَى البِناءَ يَبْنيه بَنْيًا، وبِناءً، وبِنًى، وبُنْيانًا، وبِنْيَةً، وبِنايةً. والبِنْيةُ والبُنْيَةُ: ما بَنَيْتَه، انظر: لسان العرب: بني. وبِنْيَةُ الكلام: صِياغتُه، ووضْعُ ألفاظه، ورَصْفُ عبارته، انظر: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، للدكتور أحمد مطلوب، ص ١٣٠، مكتبة لبنان، بيروت، ط١/ ٢٠٠١م. وينبغي أن يُشار إلى أنَّ استعمال تعبير البنية أو البناء Structure لا يقتصر على أصحاب البنيوية Structuralism وحدَهم، «فالمعتاد مثلًا أن يُشار إلى الفارق بين العمل الأدبيِّ وحبكته، فالحَبْكةُ هي الترتيب السَّردي للقصة ... في حين يُشير البناء إلى تنظيمه العام»، المصطلحات الأدبية الحديثة، للدكتور محمد عناني، ص١٠٤، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، القاهرة، ط٢/ ٢٠٠٣م.

وثمةَ أساسٌ في وصف عملٍ ما بأنه أدبيٌّ، هو (القصديَّة) يقول ريفاتير Michael Riffaterre: «إنَّ الأسلوبَ الأدبيَّ هو كلُّ شكلٍ مكتوبٍ وفرديٍّ قُصِدَ به أن يكون أدبًا». ثم قال: «والأفضلُ أن يُقال: كلُّ شكلٍ ثابت، بدلًا من: كل شكلٍ مكتوب؛ حتى تدخل فيه أساليبُ الآداب الشفويَّة». على أنه فسَّر المقصود بالقصدية في اصطلاحه فقال: «أما عبارة: قُصِدَ به، فلا تعني ما أراد المؤلِّفُ قولَه. وكذلك لا أريد أن أقابل بين ما هو أدبٌ وما هو دون الأدب، ومن باب أولى لا أُقابل بين أدبٍ جيِّدٍ وأدبٍ رديء. فهذه العبارة يجب =

وقد جعلتُ (المنهجَ التحليليَّ الفنّي)[1] سبيلي إلى دراسة هذا النثر، موضوعًا وفنًّا، فقسَّمتُ النثرَ إلى فنونه، والفُنونَ إلى أفرعها التي يُمليها الاستقراء، ثم نظرتُ إلى عناصر الفنِّ في تلك الفنون، فدرستُ البناء، والعقل والاحتجاج، واللغة، والصورةَ، والتجويدَ والصناعةَ، وما يتَّصلُ بكل ذلك من المباحث أو القضايا التي تفرضها طبيعةُ ذلك النثر، كقضية المصادر، وأثر الإسلام في ذلك النثر، وآثار الشفهيَّة والكتابيَّة فيه.

وعليه فقد وضعتُ عنوانًا لهذه الدراسةِ هو: (البِنْية الفنيَّة في نثر الصحابة: دراسةٌ تحليليَّة)[2]. وقسمتُها على بابَيْن كبيرَيْن وفصول. ونَعم كان بعض فصول هذين البابين متداخلًا نوعًا من التداخل، ولكني رأيتُ تقسيمَها هذه القسمةَ الآتية لأسبابٍ تتعلق بالترتيب، واتصال الفصول، وإفادة بعضها من بعض:

= أن تنصرف إلى أن ثمة خصائص معيّنة في النص تُشير إلى ضرورة اعتباره عملًا فنيًا، لا مجرَّد كلماتٍ متتابعة... ويبدو لي الآن أنَّ الأسهل هو أن نُسمِّي أدبًا، كلَّ كتابةٍ تتَّسم بخصائص أثرٍ فنّي، وأعني بذلك أنها تستوقف النظر بها لها من شكل»، من مقالة له بعنوان: معايير لتحليل الأسلوب، مترجمة ضمن: اتجاهات البحث الأسلوبي، للدكتور شكري محمد عيَّاد، ص١٢٤-١٢٥، دار العلوم، الرياض، ط١/ ١٤٠٥هـ.

(١) التَّحليل: مأخوذٌ من «حلَّل». ومادَّةُ الحَلِّ في اللغة بالفتح من «حَلَّ العُقْدَةَ» يحُلُّها حلًّا، إذا فتحَها ونقضَها فانحلَّت، لسان العرب: حلل. وانظر أيضًا: الـمَنْزَع البديع في تجنيس أساليب التجنيس، للسجلماسي، أبي محمد القاسم محمد بن عبد العزيز الأنصاري، ص٣٥٣، تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط١/ ١٤٠١هـ، والمقصود بالمنهج التحليلي تتبُّع الظاهرة، وتفسيرها، ونقدها، واستنباط الأحكام الفنية منها. ومما هو داخل في هذا المعنى قول عبد القاهر: «لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصِب لها قياسًا ما، وأن تصفَها وصفًا مجملًا، وتقولَ فيها قولًا مرسلًا، بل لا تكون في معرفتها في شيءٍ حتى تُفصِّل القول وتُحصِّل، وتضعَ اليد على الخصائص التي تعرِض في نظم الكَلِم، وتعدَّها واحدةً واحدةً، وتسمِّيَها شيئًا شيئًا، وتكونَ معرفتُك معرفةَ الصَّنَع الحاذق الذي يعلم علم كلِّ خيط من الإبريسم الذي في الدِّيباج، وكلِّ قطعةٍ من القطع المنجورة في الباب المقطَّع، وكلِّ آجُرَّةٍ من الآجُرِّ الذي في البناء البديع»، دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، ص٣٧، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣/ ١٤١٣هـ.

(٢) هذا هو عنوان الرسالة، ولكن رأينا تغييره إلى «نثر الصحابة: أغراضه وخصائصه». وقد نالت الرسالة ـ بفضل الله ـ مرتبة الشرف الأولى من قسم الدراسات الأدبية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٤٣٦هـ.

فجعلتُ البابَ الأول في (**فنون نثر الصحابة**)، وثمةَ فنَّانِ كبيران هما الخطابةُ والكتابة، وقد خصصتُهما بفصلين كبيرين، وبينهما أغراضٌ شفوية أخرى جعلتُها في فصلٍ وحدَها هي: السرد، والوصايا، والجَدَل، ووصْفُ الأناسيِّ، والأمثالُ، والمراثي النثريةُ، والأجوبة. وقد أخَّرت الكتابة لأنها تاليةٌ بالمنطق للأغراض الشفوية. وأرفقتُ كل غرضٍ له بناءٌ مخصوصٌ بدراسة بنائه، ومددت الحديثَ شيئًا في الخطابة والكتابة فتحدثتُ عن سُنن الصحابة فيهما مما له أثرٌ في تاريخ النثر في كلا الفنّين.

ثم جعلتُ البابَ الثاني في (**خصائص نثر الصحابة**). بدأته بفصل عن المصادر، ثم فصولٍ أربعةٍ متتاليةٍ، عن العقل والاحتجاج، والظواهر اللغويَّة، والصورة الفنيَّة، والتجويد والصناعة.

وعرضتُ في الخاتمة لأهم النتائج والتوصيات.

وقد حرَصتُ على ضبط الألفاظ المشْكِلة، أو التي قد تعوق جَرَيان القراءة، وضبطتُ أسماء الأعلام والمدن والأيام والوقائع، وفسَّرتُ الغريب قدر الطاقة. وحرَصتُ على العناية بالصَّفِّ وعلامات الترقيم التي تجلو المعنى، وتُعين على تِبيانه. وعرَّفتُ بكل صحابي ظننتُ أنه يحتاج إلى تعريف، ولم أصنع ذلك مع المشاهير كأبي بكرٍ وعُمر. ووضعتُ عنواناتٍ صغيرةً مفصَّلة لدى كلِّ مسألة رأيتُ من الصالح إبرازها، وربما لا أضع ذلك أحيانًا إذا تداخلت المسائل، أو إذا اتصلتْ اتصالًا لا يحسُن قطعُه. كما أنني لم أضع جملتي الدعاء: صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولا الثناء على الله تعالى؛ بين معترضتين؛ لتكرُّرها كثيرًا في هذه الدراسة[1].

---

(١) وكذا لم أختصرها أو أكتفِ برمزها لكراهة علمائنا رَحِمَهُمُ اللهُ ذلك، انظر: تصحيح الكتب، لأحمد محمد شاكر ص٢١، اعتنى به وعلق عليه وأضاف إليه عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة السنة بالقاهرة، ط٢/ ١٤١٥هـ.

ولم أجمحْ إلى تقطيع الخطب أو الرسائل لاستخلاص كل معنى تضمَّنتْه، فإنَّ هذا كثيرٌ يدعو إلى الإملال ولا طائل كبيرًا من ورائه؛ ذلك أن المعاني الجُزئية الصغيرة كثيرةٌ في كل شيء، ولكني آثرتُ الوقوفَ على المعاني الكبار التي تتوالد منها فروعُ المعاني. ومع ذلك قد أُشير إلى بعض فروع المعاني إنْ رأيتُ الحاجةَ إليها قائمة.

وإني في فاتحة هذا البحث، وفي خاتمته، وفي غضونه وما أنفقته فيه من الأيام والعمل؛ مَدينٌ بالدعاءِ والثناء والشكر لأستاذنا العالم الجليل الدكتورعبد الحميد شيحة ـ أدام الله فضله ـ، وبارك في أيامه، ونفعَنا بعلمه ـ فإنَّه ـ أكرمَه الله تعالى ـ لم يكن مشرفًا على هذا البحث فحسب، بل كان نِعْمَ الأبُ لصاحبه والمُربِّي؛ وقد كنتُ طويلًا ما أقتبسُ من علومه وآرائه العِلْم، مثلما أستلهمُ من فِعاله وآدابِه الأدب. ولسوف يظل تواضُعه، وطلاقةُ وجهه، وانبساطُه لتلاميذه مثالًا يُحتذى لي مدى العُمر.

فاللهمَّ اجْزِهِ خيرَ ما جزيتَ أستاذًا عن تلميذه، ووالدًا عن ولدِه
وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

دكتور
محمد شمس عقاب
الإسكندرية

البَابُ الأوَّل

فُنُونُ نَثْرِ الصَّحَابَة

- الفصل الأول: خَطَابَة الصَّحَابة.
- الفصل الثاني: فُنُونٌ شَفَوِيَّةٌ أُخرَى.
- الفصل الثالث: كِتَابَةُ الصَّحَابَة.

الفصل الأول

خطابة الصحابة

في (لسان العرب) الخِطابُ والمُخاطَبَة: مُراجَعَة الكلام، وقد خاطَبَه بالكلام مُخاطَبَةً وخِطابًا، وهما يَتخاطَبان، والخُطْبَة مصدر الخَطيب، وخَطَب الخاطِبُ على المِنْبَر، واخْتَطَب يَخْطُبُ خَطابَةً، وخَطَبْتُ على المِنْبَر خُطْبَةً، بالضم، وخَطَبْتُ المرأَةَ خِطْبَةً، بالكَسْر، ورَجُلٌ خَطِيبٌ: حَسَن الخُطْبَة، وجَمْع الخَطِيب: خُطَباءُ، وخُطُبَ، بالضم، خَطابَةً، بالفَتْح: صار خَطِيبًا[1].

والخطابةُ مشتقَّةٌ من الخَطْب، وهو الأمرُ الجليل؛ «لأنه إنما يُقام بالخُطَب في الأمور التي تَجِلُّ وتعظم؛ والاسمُ منها خاطبٌ مثلُ راحم؛ فإذا جُعل وصفًا لازمًا قيل: خطيب، كما قيل: في راحم: رحيم، وجُعل رحيمٌ أبلغَ في الوصف وأبينَ في الرحمة؛ وكذلك لا يُسمَّى خطيبًا؛ إلا مَنْ غَلَب ذلك على وصفه، وصار صناعةً له»[2].

فإن شئنا وضعَ حَدٍّ جامعٍ للخطابة[3] قلنا: إنها فَنٌّ لُغَويٌّ شفويٌّ يُتوجَّه به إلى أُناسٍ مجتمعين، يقلُّون أو يكثرون؛ من أجل غاية إقناعهم، أو التأثير فيهم، أو استمالتهم؛ بحقٍّ أو بغير حق[4]، بطويلٍ من الكلامِ أو بقصيرٍ منه[5].

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم بن علي، تحقيق عبد الله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف.

(٢) البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، ص١٩٢-١٩٣ تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٧م.

(٣) عرف أرسطو الخطابة بإحدى الغايات المبتغاة منها، فهي عنده: «القدرة على الكشف نظريًا، في كل حالةٍ من الحالات، عن وسائل الإقناع الخاصة بتلك الحالة»، انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال ٩٥ دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٦م، عن الترجمة الفرنسية لكتاب الخطابة لديفور.

(٤) قد يُستطاع الإقناع بالحق أو الباطل، فالخطابة كالمنطق تُستخدم للبرهنة على النقيضين، ولكن بالوسائل الفنية للخطابة نفسها يمكن تمييز ما هو حق مما ليس حقًا في ظاهره؛ لأن الأفكار الصحيحة المنطقية على قواعد الخُلق هي دائمًا أكثر إقناعًا وأقوى في إيراد الحُجج»، انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٩٥.

(٥) انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال، ص٩٤-٩٦.

والخطابةُ فَنٌّ عربيٌّ عتيق، بل هو فنٌّ إنسانيٌّ لجأ إليه الإنسانُ منذ القِدَم[1]؛ تلبيةً لأغراضه المختلفات؛ من حثِّ الناس على الأفعال، أو نهيهم عنها؛ بمخاطبة عقولهم، أو إثارة حَمِيَّتهم، أو شفقتهم، أو رحمتهم، أو غير ذلك من العواطف الإنسانية الأخرى[2]؛ فهي لذلك نافعةٌ - كما يقول ابنُ وهبٍ - في «إصلاح ذات البَين، وإطفاء نار الحرب، وحَمالة الدماء، والتسديدِ للمُلْك، والتأكيد للعهد، وفي عقد الأملاك، وفي الدعاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وفي الإشادة بالمناقب، ولكل ما أُريد ذكرُه ونشرُه وشُهرتُه في الناس»[3].

وقد أسهمَ الصحابةُ - رضوان الله تعالى عليهم - بنصيبٍ وافرٍ في هذا الفنّ، فقالوا: فيه كثيرًا، وفي أغراضٍ شتَّى، وقد وجدتُ - بعد التقصِّي - أنه يمكن تصنيفُ خُطَب الصحابة في خمسة أقسامٍ شاملةٍ على هذا النحو: خُطَبِ الصحابة - رضوان الله عليهم - في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخُطَبِهم في السياسة وحُكْمِ الناس، وخُطَبِهم في الجهاد والقتال والفتنة، وخُطَبِ الشكر، وخُطَبِ الرِّثاء والزُّهد[4].

(١) انظر في تاريخ الخطابة عند اليونان المقدِّمةَ التي كتبها الدكتور محمد حمدي إبراهيم لكتاب الخطابة لأرسطو بتلخيص ابن سينا، ص٣١-٥٦، ومقدمة محقق الكتاب نفسه الدكتور محمد سليم سالم، ص١١ من الطبعة القديمة ١٩٥٤م التي صُوِّرت عنها هذه الطبعة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٩م. وليس معنى ريادة اليونان في التأليف في هذا الفنّ ابتداءَه عندهم، بل إنَّ في هذا الدلالة على وجوده في الأمم قبلَهم، وإنَّما هم قد نظَّروا له، وأسَّسوا له القواعد.

(٢) وهي بنصِّ كلام أرسطو: «الغضب والسكينة، فالحبُّ والكراهية، فالتخوُّف والثقة، فالخجل والاستهتار، فالإحسان فالشفقة والسخط، فالحسد والمنافسة»، انظر: مقالة: مدخل إلى الحجاج أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، للدكتور محمد الولي، ص٢٩، ضمن عدد مجلة عالم الفكر المخصَّص للحِجاج، مجلد ٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت. وكلام أرسطو منقول عن الترجمة الفرنسية لكتاب الخطابة لأرسطو المنشورة بباريس سنة ٢٠٠٧م.

(٣) انظر: البرهان، لابن وهب، ص١٩١.

(٤) ثمة نوعٌ آخر من الخطب قال: فيه الصحابة، هو «خُطبة النكاح»، لم أُفردْه في فصلٍ بعينه؛ لنُدرته، ولأنه لا يندرج ضمن واحدٍ من هذه الأنواع الكبيرة. وقد رُويت عنهم فيه آثارٌ، منها أنَّ النبي ﷺ لَمَّا كتب إلى النجاشي ليزوّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، طلب إليها أن توكِّل مَنْ يُزوِّجها، فوكَّلتْ خالد بن سعيد، فأمر النجاشيُّ جعفر بن أبي طالب ورجالًا فحضروا، ثم خطب النجاشيُّ خطبةً ذكر فيها كتابَ رسول الله إليه بتزويجه من أم حبيبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. فلما فرغَ خطب خالدُ بن سعيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: «الحمد لله أحمدُه=

وسوف نأتي بعد بسط القول في كل قسم إلى الحديث عن سُنن الصحابة في الخطابة، وبناء الخطبة لديهم.

= وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد، فقد أجبتُ إلى ما دعا إليه رسولُ الله ﷺ، وزوجتُه أمَّ حبيبة بنتَ أبي سفيان، فبارك الله لرسوله»، انظر: المنتخب من كتاب أزواج النبي، للزبير بن بكار القرشي، ص٥٢، تحقيق سكينة الشهابي، بيروت، ط١/ ١٤٠٣هـ. ومما يُروى في ذلك أنَّ بلال بن رباحٍ خطبَ على أخيه خالدٍ امرأةً من بني حسلٍ من قريش، فقال في خُطبته: «نحن مَنْ قد عرفتم، كنَّا عبدين فأعتقنا الله، وكنّا ضالّين فهدانا الله، وفقيرين فأغنانا الله، وأنا أخطب على أخي خالدٍ فلانة، فإن تُنكحوه فالحمد لله، وإن تردُّوه فالله أكبر». فأقبل بعضهم على بعضٍ فقالوا: هو بلالٌ، وليس مثله يُدفع، فزوَّجوا أخاه. فلما انصرفا قال خالدٌ لبلالٍ: يغفر اللهُ لك! ألا ذكرتَ سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ؟! قال بلال: مه! صدقتُ فأنكحكَ الصِّدق، عيون الأخبار، لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ٤/ ٧٣، دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ. وتُروى لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه خُطبةٌ قالها حين تزوج بفاطمة بنت النبي ﷺ، انظرها في: نثر الدُّرّ، للآبي، أبي سعد منصور بن الحسين ١/ ٩٥، تحقيق محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١م.

[١] خُطَبُ الصّحابة في حياة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إن خطبَ الصحابة في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي أقدمُ خطبهم بإطلاقٍ، حالَ كونهم صحابة، وهي قليلةٌ مقارنةً بما قالوه بعد وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم لم يكونوا إلا مستمعين أو متعلِّمين في حياته. وقد وجدتُ أظهرَ موقفَيْن خطبوا فيهما إذْ ذاك هما: ليلةُ العَقَبَة، وأيَّام وفدوا عليه بعد الفتح.

(أ) خُطَبُ العَقَبَة:

إنَّ من أقدم خُطَب الصحابة طُرًّا خُطْبَةَ العباس بن عبد المطلب عمِّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١) ليلةَ العقبة، وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اصطحبه إلى ذلك الموضع، ليس معه أحدٌ غيرَه، وقد كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثق بالعباس في أمره كلِّه. فلما اجتمعوا كان العباسُ أول مَنْ تكلَّم، فقال: «يامعشر الخزرج ـ وكانت الأوس والخزرج تُدعى الخزرج ـ إنكم قد دعوتم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه ومحمدٌ من أعزِّ الناس في عشيرته، يمنعه والله مَنْ كان منا على قوله، ومَنْ لم يكن منا على قوله؛ مَنَعةً للحسَب والشرف. وقد أبى محمدًا الناسُ كلُّهم غيركم؛ فإن كنتم أهلَ قُوَّة وجَلَدٍ وبَصَرٍ بالحرب، واستقلالٍ بعداوة العرب قاطبةً ـ فإنها سترميكم عن قوس واحدة ـ فارتؤوا رأيكم، وأْتمروا أمركم، ولا تتفرَّقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإنَّ أحسن الحديث أصدقُه. وأُخرى، صفوا لي الحرب كيف تقاتلون عدوكم؟

---

(١) في الاستيعاب، قال أبو عُمَر: أسلم العباس قبل فتح خيبر، وكان يكتم إسلامه، وذلك بيّن في حديث الحجاج ابن علاط أنه كان مسلمًا يَسُرُّه ما يفتح الله عَزَّوَجَلَّ على المسلمين، ثم أظهر إسلامه يوم فتح مكة وشهد حُنينًا والطائف وتبوك. وقيل: إن إسلامه قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوَّون به بمكة، وكان يحب أن يقدُم على رسول الله ﷺ فكتب إليه: «إن مقامك بمكة خير» فلذلك قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه إنما اخرج كارهًا».
انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البرّ، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النَّمَريّ، ص٨١١، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ويشهد لذلك القصةُ التي حكاها مولاه أبو رافع عن إسلامهم قديمًا أهلَ البيت، انظرها في: الطبقات الكبير، لابن سعد، محمد بن منيع الزهري ٤/ ٦٧-٦٨، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/ ١٤٢١هـ.

قال: فأَسْكتَ القومُ وتكلم عبد الله بن عمرو بن حرام[1]، فقال: نحن والله أهلُ الحرب، غُذِينا بها، ومَرِنَّا عليها، وورِثناها عن آبائنا كابرًا فكابرًا؛ نرمي بالنَّبل حتى تفنَى، ثم نُطاعن بالرماح حتى تُكْسَرَ الرماح، ثم نمشي بالسيوف فنُضارب بها حتى يموتَ الأعجلُ منا أو من عَدُوِّنا»[2].

لقد أراد العباسُ بخطبته أن يستوثق لابن أخيه عهدًا من الأنصار بالأمان والنصر، واتخذ سبيلًا إلى ذلك أن حذَّرهم تحذيرًا شديدًا ليمتحن قلوبَهم، ويعلمَ صدقَهم، وينظر كيف يعملون، وكان ينادي فيهم تلك الليلةَ فيقول: يا معشر الأنصار، لِيتكلمْ متكلِّمُكم ولا يُطلِ الخُطبة؛ فإن عليكم من المشركين عَيْنًا. ولم يزل يحدِّثهم ويوصيهم بالكتمان حتى قام البَراءُ بن مَعْرورٍ[3] فقال: يا أبا الفضل، اسمع مِنَّا. فسكت العباس، فقال البراء: «لكَ والله عندنا كتمانُ ما تحبُّ أن نكتم، وإظهارُ ماتحب أن نُظهِر، وبذلُ مُهَجِ أنفسنا، ورضا ربِّنا عنَّا. إنا أهلُ حَلْقة وافرة، وأهلُ مَنَعة وعزٍّ، وقد كنا على ما كنا عليه من عبادة حَجَر ونحن كذا، فكيف بنا اليومَ حين بصَّرنا الله ما عَمِي على غيرنا، وأيَّدَنا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! ابسُط يدَك»[4]. فكانت كلماتُ البراء ميثاقًا قطعه الأنصارُ على أنفسهم أزال الشكَّ، وأظهر النيةَ بالوفاء والولاء والمنَعة والفداء. وكانت تلك الكلمات أساسًا من الأُسُس العتيدة التي مكَّنت للإسلام في الأرض، وخُطبةً فارقةً سيذكرها التاريخ للأنصار ما دامت السماواتُ والأرض.

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاريُّ الخزرجيُّ، والد جابر بن عبد الله الصحابي المشهور. معدود في أهل العقبة وبدر. وكان من النقباء. استشهد بأحد، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٤/ ١٨٩.

(٢) الطبقات الكبير، لابن سعد٤/ ٧.

(٣) هو البراء بن معرور بن صخر بن خنساء الأنصاريُّ الخزرجيُّ، أبو بِشْر. قال موسى بن عقبة عن الزُّهري: كان من النَّفَر الذين بايعوا البيعة الأولى بالعقبة. وهو أول من بايع في قول ابن إسحاق، وأول من استقبل القبلة، وأول من أوصى بثلث ماله. وهو أحد النقباء. قال ابن إسحاق وغيره: مات البراء بن معرور قبل قدوم النبي ﷺ بشهر، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر١/ ٢٨٢.

(٤) الطبقات الكبير، لابن سعد ٤/ ٨.

ومن الخُطب القديمة في عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خُطبةٌ لعبد الله بن رواحة[1] في مُؤْتة سنة ثمانٍ، يُحرِّض فيها المؤمنين على القتال والتقدُّم في صفوف العدوّ، وينادي فيهم فيقول: «يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون للَّتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نُقاتل الناسَ بعدد ولا قُوةٍ ولا كثرة، ما نُقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيَيْن: إما ظهورٌ، وإما شهادة». قال الراوي: فقال الناسُ قد والله صدق ابن رواحة[2].

تلك من خطب الصحابة القديمة التي سقطت إلينا، وهي خطبٌ قليلاتٌ في ذلك العهد، ذلك أنَّ دواعي الخطابة كانت محدودة، ولا سيَّما قبل استقرار الدولة الإسلامية، كما أنه لم يكن للصحابة أن يقولوا فيُكْثروا القول ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين ظهرانَيْهم.

(ب) خُطَبُ الوُفُود:

كان عموم حال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الجلوسَ إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُنْصتين مستمعين يتعلَّمون منه وهو يكلمهم أو يقُصُّ عليهم أو يخطبُ فيهم. ولعلنا لا نقع على حشدٍ من الخُطب أُلقي على عهد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كذلك الذي نلقاه في خُطَب الوفود القادمة على مسجد الرسول بالمدينة، معلنةً إسلامَها وإسلامَ قومها من ورائها.

من تلك الخطب التي تُعدُّ في قديم خطب الصحابة، خُطبةٌ غريبةُ الألفاظ، موقَّعةُ الجُمَل، مسجوعتُها؛ ألقاها بين يدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وافدُ قبيلة نَهْدٍ، طَهْفَةُ بنُ أبي زُهير النَّهْديُّ[3]، يشكو إليه فيها بُعْدَ الشُّقة، وقِلَّةَ الزاد، وجَدْبَ الأرض، وهو يأتي في غضون شكواه

(١) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي، الشاعر المشهور، يكنى أبا محمد، لم يكن له عقب. وهو من السابقين الأولين من الأنصار، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدرًا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، انظر: الإصابة ٤/ ٨٢-٨٣.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِمْيَريّ، المصريّ ٢/ ٣٧٥ تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١/ ١٣٧٥هـ.

(٣) وعند ابن حجر في الإصابة: «طهيَّة بن أبي زهير النَّهْدي، وقال أبو عمر: طهفة بن زهير النهدي، قاله بالفاء، وضبطه غيره بالياء المثناة التحتانية بدل الفاء بوزنه»،الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٥٦٤.

بنبأ إسلامهم، وأنهم تخلَّصوا من الشرك، قاصدًا إلى استدرار عطف النبي ﷺ، ونوالِ دعواته، بمفصَّلٍ من القول، وبليغٍ من التصوير والتوقيع والوصف إذ يقول: «يا رسولَ الله، أتيناك من غَوْرَيْ تِهامة على أَكْوار المِيْس، ترتمي بنا العِيْس، نَسْتَحْلِب الصَّبِير، ونَسْتجلِب الخَبِير، ونستعضد البَرير، ونستخيل الرِّهام، ونستحيل الجَهَام، من أرضٍ غائلةِ المَنْطَأ، غليظة المَوْطَأ، قد نَشَفَ المُدْهُن، ويَبِس الجِعْثِن، وسقط الأُمْلُوج، ومات العُسْلُوج، وهلك الهَدِيُّ، ومات الوَدِيُّ. بَرِئنا يا رسول الله من الوَثَنِ والعَنَن، وما يُحْدِث الزَّمن، لنا دعوةُ المسلمين وشريعة الإسلام، ما طما البحر وقام تِعار، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أغفالٌ، لا تَبِضُّ ببِلال، ووَقِيرٌ كثيرُ الرِّسْل، قليل الرِّسْل، أصابتنا سَنَةٌ حمراء مُؤْزِلَة، ليس لها عَلَلٌ ولا نَهَل»[1].

وقد أنجحتْ طريقةُ طَهْفَة، ونال من خُطْبته مُبتغاه؛ فقد دعا لهم رسولُ الله ﷺ بالبركة، وأرشدهم إلى أشياء من أركان الدين وشعائره.

إنَّ في خطبة طهفة أنفاسًا من أنفاس الجاهلية، من حيث وصفُ الرحلة ومشقَّتِها، بألفاظٍ فخام جسام، كأنها تعمَّدها الخطيب لتكون مكافئةً لفخامة المرتحَل إليه رسولُ الله ﷺ، وكبيرِ قَدْرِه. وقد وصف الدكتور مصطفى الشكعة هذه الخُطبة بأنها: جاهليةٌ أسلوبًا وصياغةً، مؤمنةٌ معنًى ومرمى[2].

(١) معرفة الصحابة، لأبي نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، ص١٥٧٠-١٥٧١، تحقيق عادل العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١/ ١٤١٩هـ، وتاريخ المدينة النبوية، لابن شبَّة، أبي زيد عُمر بن شبَّة بن عُبيدة النُّميريّ الأنصاريّ ٢/ ٥٥٩-٥٦٧، وما بعدها، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دون دار نشر، وانظر أيضًا: معجم ابن الأعرابي، لأبي سعيد أحمد ابن محمد بن زياد البصري ٣/ ٩٥٩-٩٦١، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١/ ١٤١٨هـ، وفيه من تفسير الألفاظ: قال أبو سَعيد: على أَكْوَارِ المَيْس: يعني الرِّحَال. تَرْتَمي بنا العِيس: الإبل. نَسْتَحْلِب الصَّبِير: السحاب المتفرِّق. نَسْتَخِيلُ الرِّهَام: يعني القِدَاح. وَنَسْتَحِيلُ الجَهَام: يعني السحاب الذي قد أُمْطِر ببلد آخَر فهو سائرٌ في السماء. المنطا: مسافةُ الأرض، بُعْدُهَا. قد نَشَفَ المُدْهُن: يعني يُبْسَ الغَدير من الماء. وَيَبْسَ الجِعْثِن: عُرُوق الشجر. وَسَقَطَ الأُمْلُوج: البِكْر السَّمين يُدْركه الهُزَال. وَمَاتَ العُسْلُوجُ: عُود الشجرة الذي يَنْشَعب به الورق. ومات الوَدِيُّ: الفَسِيل. بَرِئْنا من الوَثَن والعَنَن: يعني الخِلاف. لا تَبِضُّ بِبِلال: يعني ليس لها لَبَنٌ. ووَقِيرٌ كثيرُ الرِّسْل: شديدُ التفرُّق في طلب المرعى. قليل الرِّسْل: الصِّرْمَةُ من الغَنَم ليس لها أولاد.

(٢) انظر: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: كتاب النثر، للدكتور مصطفى الشكعة، ص٦٣، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٣/ ١٤١٤هـ.

وشبيهٌ بهذه الخطبة في ذكر الرِّحْلة، خطبةُ مالك بن نَمَطِ الأرحبيّ[1]، وكان أحدَ رجالات الوفد الذي بعثته هَمْدانُ اليَمَنيَّةُ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة[2].

ومن خُطب الوفود التي فيها وصف الرحلة أيضًا خُطْبةُ ظَبْيان بن كُدَادة[3]، وهي خطبةٌ ذاتُ طولٍ وسَرْدٍ غيرِ معهود؛ رواها عُمر بن شَبَّة[4] عن الشَّعبيِّ، قال: قدم ظُبْيانُ ابن كُدادة على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في مسجده بالمدينة، ثم سلَّم، ثم قال: «إنَّ المُلك لله .. آمنَّا به، وشَهِدنا أنْ لا إله غيره. ونحن قومٌ من سرارة مَذْحِج[5] من يُحابر ابن مالك، لنا مآثرُ ومآكلُ ومشارب، أبرقت لنا مخائل السماء، وجادت علينا شآبيبُ الأنواء، فتوقَّلَتْ بنا القِلاصُ من أعالي الجوف، ورؤوس الهضاب، ورَفَعَتْها عرار الثَّرى، وألحقتْها دآدئُ الرحى، وخَفَضَتْها بُطْنانُ الرِّقاق، وقطراتُ الأعناق؛ حتى حلَّت بأرضك وسمائك، نُوالي من والاك، ونعادي من عاداك، والله مولانا ومولاك»[6].

---

(١) هو مالك بن نمط بن قيس الهَمْداني ثم الأرحبيُّ، صحابيٌّ وفَدَ على رسول الله ﷺ من اليمن، انظر: السيرة النبوية، لابن هشام٢/ ٥٩٧.

(٢) وفيها يقول: «يا رسول الله، نَصِيَّةٌ من هَمْدَان، مِنْ كل حاضرٍ وبادٍ، أَتَوْكَ على قُلُصٍ نَوَاجٍ، مُتَّصِلَةٍ بحَبائل الإسلام، لا تَأخذُهمْ في الله لَوْمَةُ لائم، من مِخْلاف خارِفٍ ويَام وشاكر، أهلِ السُّودِ والقُودِ، أجابوا دعوةَ الرسول، وفارَقُوا الإلهاتِ الأنصاب، عَهْدُهُمْ لا يُنْقَضُ ما أقامتْ لَعْلَع، وما جرَى اليَعْفُورُ بِصَلَع»، انظرها بشرح الغريب في: السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٥٩٧-٥٩٨، بتحقيق السقا وزملائه.

(٣) كذا ضبطها الزَّبيدي، وفي معجمه: «يُقال بَقِيَتْ مِن الكَلإِ كُدَادَةٌ، وهو الشيءُ القليلُ»، تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الزَّبيدي «كدد»، مطبعة الحكومة بالكويت. وهو ظَبيان بن كُدادة، وقيل: ابن كرادة الإيادي أو الثقفي. قدم على النبي ﷺ فأسلم في حديث طويل يرويه أهل الأخبار والغريب، فأقطعه رسول الله ﷺ من بلاده، انظر: الإصابة ٣/ ٥٦٠.

(٤) انظرها في: كتاب تاريخ المدينة النبوية، لابن شبَّة ٢/ ٥٥٢.

(٥) من سَرَارتهم: أي: من خِيارهم. وسَرَارة الوادي: وسَطه وخيرُ موضع فيه، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجَزَري ٢/ ٩١٢، تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.

(٦) تاريخ المدينة، لابن شبَّة ٢/ ٥٥٢-٥٥٣.

ثم يفرُغ ظبيانُ من مفخرته وبَبْعته إلى ذكر طَرَفٍ من نبأ الأولين الذين تعاقبوا على سُكنى أرض قومه، وكيف أنهم كانوا أهل عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ، ثم غيَّر الله حالهم لـمَّا طغَوْا أو بغَوْا أو كفروا به، تاليًا سردَه السابقَ بقوله: «إنَّ وَجًّا وسروات الطائف كانت لبني مهلائيل بن قينان؛ غرسوا وِدَانَه[1]، وذنبوا خِشَانَهُ[2]، وَرَعَوْا قُرْيانَه[3]؛ فلما عصَوا الرحمن هبَّ عليهم الطوفان، فلم يُبْقِ على ظهر الأَرض منهم أحدًا إلا مَنْ كان في سفينة نوح، فلما أَقلعت السماءُ وغاض الماء، أَهبط الله نوحًا ومَنْ معه في حَزَن الأَرض وسهلها، وَوَعْرِها وجبلها، فكان أَكثرُ بنيه ثباتًا من بعده عادًا وثمود...»[4].

وبنحو ما أخبر عن بني مهلائيل يُخبر عن عاد وثمود، ثم يُخبر عن بني هانئ بن هدلول بن هرولة من بني ثمود أيضًا، ثم يُخبر عن حِمْيَرٍ وكيف أنهم بطَروا النِّعَم، واستحقُّوا النِّقَم، فضرب الله بعضَهم ببعض، وأهلكهم في الدنيا بالغدر. ويُخبر عن قبائل من الأزد نزلوا أرض قومه على عهد عَمرو بن عامر؛ حتى نقلتها مَذْحِجٌ بسلاحها، ونحَّتْهم عن بواديها. ثم يُخبر عن عشيرته يُحابر بن مالكٍ عصرَ كانوا أوتادَ تلك البلاد، حتى أصابهم بها القحوط، وأخرجهم منها القنوط، بعد أن غرسوا بها الأشجار، وأكلوا بها الثمار، ثم آلَ بنو عمرو بن خالد مآلَـهم مثل ذلك. إلى أن قال: «ثم إنَّ قيس بن معاوية وإياد بن نزارٍ نزلوها، فلم يَصِلُوا بها حَبْلا، ولم يجعلوا لها أُكُلا، ولم يرضَوْا بها آخرًا، ولا أولا، فلما أثرى ولدُهم، وكثُر عددُهم، وتناسلوا بينهم؛ حَسُن البلاء، وقطعوا منهم عَقْدَ الولاء، فصارت الحرب بينهم، حتى أفنى بعضُهم بعضًا ... رُدَّ علينا بلدَنا يا رسول الله»[5].

---

(١) أراد بالوِدان: مواضع النَّدَى والماء التي تصلح للغِراس «لسان العرب: ودن».

(٢) الخِشان: ما خشُن من الأرض، وذنبوه: أي جعلوا له مذانب ومجاري «لسان العرب: ذنب».

(٣) قُرْيانه: جمع قَرِي، وهو مجرى الماء إلى الرياض «لسان العرب: قري».

(٤) تاريخ المدينة، لابن شبَّة ٢/ ٥٥٣-٥٥٤.

(٥) تاريخ المدينة، لابن شبَّة ٢/ ٥٥٤-٥٥٦.

وإذن فقد كان المبتغى من هذا السَّرد الطويل كلِّه هذه العبارةَ الأخيرة: «رُدَّ علينا بلدَنا يا رسول الله». كل ذلك ورسولُ الله ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ مُنْصِتٌ كما يُنْصت القاضي العادل، من غير مَلَلٍ ولا كَلالة. ولعل هذه الخطبة الطريفةَ تدخل فيما نعته أرسطو بـ(الخُطب القضائيَّة)[1]، ولا سيَّما إذا عرفنا أنَّ رجلين وافديْن من بني ثقيف كانا يستمعان عفوًا إلى الخطبة، هما الأخنس بن شريق[2]، والأسود بن مسعودٍ[3] الثقفيّان، فقد قام أحدُهما خطيبًا وهو الأخنس ليردَّ على ظَبيان بنِ كُدادة قالتَه، ويفنِّدَ حُجَّتَه، عسى ظَبيانُ أن لا يظفر بطِلبته، وتبقى مدينةُ الطائفُ تحت أيديهم. فقال الأخنس: «يا رسولَ الله، إنَّ بني هلال بن هدلول بن هوذاء بن ثمود كانوا ساكنين بَطْنَ وَجٍّ بعدها آل مهلائيل بن قينان، فعطَّلت منازلها، وتركت مساكنها خرابًا، وبناءها يبابًا، فتحامَتْها العرب تحاميًا، وتجافت

---

(١) وسمَّاها حُنين بن إسحاق في ترجمته كتاب الخطابة: الريطوريكا المشاجَرية، انظر: الخطابة، بالترجمة العربية القديمة، لأرسطوطاليس، ص ١٦-١٧، حققه وعلَّق عليه عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت ١٩٧٩م. وقد قسَّم أرسطو الخطب اليونانية إلى ثلاثة أنواع: خطبٍ استشاريَّة، وموضوعها النصح بفعل شيء أو تركه. وقضائيَّة، وموضوعها الاتهام والدفاع. واستدلاليَّة، وموضوعُها المدح والذمّ. واعتمد في تقسيمه على عنصر الزَّمن، فالاستشاريَّة للحُكم على أمورٍ مستقبليَّة، والقضائيَّةُ للحكم على أمورٍ ماضية، والاستدلاليَّة للحكم على أمورٍ حاضرة. وحدَّد لكل لونٍ غاية، فالاستشاريَّةُ غايتها تبيين النافع والضارّ، والقضائيَّة غايتها تمييز المشروع من غير المشروع، والاستدلاليَّة غايتُها بيان الجميل أو القبيح من الأفعال انظر: الخطابة، لأرسطوطاليس، ص١٦-١٩، وهذا التقسيم لا يُجدي كثيرًا عند إسقاطه على خطابة العرب؛ فإن لهم تقسيماتٍ أخرى تعتمد على الموضوع وليس على الزمن، ويمكن حصر أنواع الخطابة لديهم في أقسام كبيرة: هي الخطابة السياسية، والدينية، والاجتماعية، انظر: في هذا الموضوع: نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي، لنبيل خالد رباح أبو علي، ص٢١٣-٢٣٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م؛ وانظر: فن الخطابة، للدكتور أحمد محمد الحوفي، ص٧٢، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠١م.

(٢) هو الأخنس بن شريق بن عمرو الثقفيّ، أبو ثعلبة حليف بني زهرة اسمه أُبَيّ، وإنما لُقب الاخنس لأنه رجع ببني زهرة من بدر لما جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير فقيل: خنس الأخنس ببني زهرة فسُمي بذلك، ثم أسلم الأخنس فكان من المؤلَّفة، وشهد حُنينًا. مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أول خلافة عُمر، انظر: الإصابة ١/ ٣٨.

(٣) انظر: ترجمته بما لا مزيد عليه مما ذُكر من خبره هنا في: الإصابة ١/ ٧٧.

عنها تجافيًا، مخافة أن يصيبها ما أصاب عادًا وثمود من معاريض البلاء، ودواعي الشقاء، فلما كثرت قحطانُ وضاق فِجَاجُها، ساق بعضُهم بعضًا، وانتجعوا أرضًا أرضًا، وأقامتْ بنو عمرو بن خالد بن جَذيمة. ثم إن قيس بن معاوية وإياد بن نزار ساروا إليهم فساقوهم السِّمام، وأوردوهم الحِمَام، فأجلَوهم عناءً، فتوجَّهوا منها إلى ضواحي اليمن...»[1].

وعلى المنوال نفسه يمضي الأخنسُ بن شُريق في خطبته، فيعتذر عن إيادٍ الناصف بمثل اعتذاره عمَّن مضى، فقد رحَّلتهم إلى العراق قيسٌ وكانوا أكثرَ منهم عددًا، وأوسع بلدًا، فأقامت قيسٌ يعمُرون تلك البلاد، «حتى خلا لهم خيارُها وحُزُونُها، وظُهورُها وبطونُها، وقطورُها وعيونُها».

والظنُّ أن محاماة الأخنس عن قومه في خُطبته قد آتت أُكُلَها، وأصابت مَرَامَها، فرضيها رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يعرف من شأن القوم، ويأتيه من خبر السماء، فقال: ـ صلواتُ الله عليه ـ مقولةَ عدلٍ وصدقٍ وبِرّ، حاكمًا بينهم: «**إن نعيم الدنيا أقلُّ وأصغرُ عند الله من خُرْء بُعَيِّضة، ولو عدلتْ عند الله جناح ذباب لم يكن لمسلمٍ بها لحاق، ولا لكافرٍ خلاق ... وإنما سُمِّيت الجاهلية لضعف أعمالها، وجهالة أهلها ...**»، إلى أن قال: «**فما كان في الجاهلية فهو موضوعٌ، مِنْ سَفْكِ دمٍ أو انتهاك مُحرَّم، عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، والله عزيزٌ ذو انتقام**». فلم يَرْدُدها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مُرادٍ، وقضى لثَقيفٍ بها[2].

إنَّ هذا مَثَلٌ نادرٌ من أمثلة الخطابة القضائية في تلك العصور العربية الغابرة، تلك العصور التي لم تكن تأبه لأن تتقاضى إلى عظيم من الناس ليحكم بينها، وإنما كان يغلب القوي فيها الضعيف، ويقسو عليه، ويُجليه عن بيته، ويجورُ عليه فيحوز أهلَه ووَلَدَه ومالَه؛ حتى جاء الإسلام فقطَع الظلم، وأقام العدل، ووضع الموازين القسط، وأنشأ لعهدٍ جديدٍ كانت مثلُ هذه الخطبة ثمرةً من ثماره.

---

(١) تاريخ المدينة، لابن شبَّة ٢/ ٥٥٦ـ٥٥٧.
(٢) تاريخ المدينة، لابن شبَّة ٢/ ٥٥٧ـ٥٥٨.

على أنَّ أشهر وفدٍ حَطَّ رَحْلَه بالمدينة هم وفدُ بني تميم، وكانوا ثمانين أو تسعين رجلًا، وهم الذين نزلت فيهم الآياتُ الزاجرةُ وقد رفعوا أصواتهم فوق صوت النبيّ، ونادَوه من وراء الحجرات، ولم يصبروا حتى يخرجَ إليهم[1].

وفي خبر أولئك القوم خطبتان ذائعتان من بقايا خُطب المنافرات[2]: خطبة عُطارد ابن حاجب بن زُرارة خطيب بني تميم، وخطبة ثابت بن قيس بن شَمَّاس خطيب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]، وفي الخبر أن الوفد أتَوا فدخلوا المسجد وقد أذَّن بلالُ الظهر، والناس ينتظرون خروج الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعجَّلوا خروجَه، فنادَوه من وراء الحجرات: يا محمد، اخرج إلينا، فقام إليهم بلال، فقال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرج الآن، واشتهر أهلُ المسجد أصواتَهم[4]، فجعلوا يُخفِّضونهم بأيديهم، فخرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقام بلال الصلاة، فتعلَّقوا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكلِّمونه، فوقف معهم مليًّا، وهم يقولون: أتيناك بخطيبنا وشاعرنا فاستمع منَّا، فتبسَّم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم مضى فصلى بالناس الظهر، ثم انصرف إلى بيته فركع ركعتين، ثم خرج فجلس في صحن المسجد[5].

---

(١) المقصود الآيات الخمس الأولى من سورة «الحجُرات»، وهي قول الله جلَّ وتعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحجرات: ١-٥).

(٢) المنافرة: من نافَرْتُ الرجلَ مُنافَرَةً إذا قاضيتُه، والمنافرة: المفاخرة والمحاكمة. قال أبو عُبيد: المنافرة: أن يفتخر الرجلان كلٌّ واحد منهما على صاحبه، ثم يُحكِّما بينهما رجلًا. ومن أشهرها منافرة عَلْقَمَة بن عُلاثَة مع عامر بن طُفَيل حين تنافرا إلى هَرِم بن قُطْبَة الفَزاريّ، انظر: لسان العرب: نفر.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، للدكتور شوقي ضيف، ص١٠٧-١٠٨، دار المعارف بمصر، ط٧.

(٤) مأخوذٌ من الشُّهْرَة، وهي: ظهور الشيء في شُنْعَة حتى يَشْهَره الناس «لسان العرب: شهر».

(٥) انظر: الطبقات الكبير، لابن سعد ٤/ ٣٤٦-٣٤٧.

وفي رواية الطبريّ أنهم قالوا: يا محمد، جئناك لنفاخرَك، فأْذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: «نعم، اذنتُ لخطيبكم فليقل»(١).

في ذلك اليوم وقف عُطارد بنُ حاجبٍ ليفاخر بقومه بني تميمٍ بألوان المفاخر التي ظنَّها ناجعةً أو مُفْحِمةً، كما كان يفعل في الجاهلية، وما درى أنَّ هذه الأسباب الدنيوية الفانية لم تعد تُغني فتيلًا في العهد الإسلامي الجديد، فقال: «الحمد لله الذي له علينا الفضلُ وهو أهلُه، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا نفعلُ فيها المعروف، وجعلَنا أعزَّ أهل المشرق، وأكثرَه عددًا، وأيسرَه عُدَّة؛ فَمَنْ مثلُنا في الناس؟! ألسنا برؤوس الناس وأُولي فضلِهم؟! فمَنْ يفاخرْنا فليعدُدْ مثلَ ما عددنا، وإنَّا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنَّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنَّا نعرف، أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضلَ من أمرِنا». ثم جلس(٢).

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: قم فأجب خطيبَهم، فقام ثابت، وتقول رواية ابن سعد: وما كان درى من ذلك بشيء، وما هيَّأ قبل ذلك ما يقول(٣) فقال: «الحمد لله الذي السماواتُ والأرضُ خلقُه، قضى فيهنَّ أمرَه، وَوَسِع كرسيَّه علمُه، ولم يكُ شيءٌ قطُّ إلا من فضله. ثم كان من قُدْرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولًا؛ أكرمَهم نسبًا، وأصدقَهم حديثًا، وأفضلَهم حَسَبًا؛ فأنزل عليه كتابَه، وائتمنه على خلقه؛ فكان خِيرةَ الله من العالمين، ثم دعا الناسَ إلى الإيمان، فآمن برسول الله المهاجرون مِنْ قومه وذوي رحمه؛ أكرمُ الناس أنسابًا، وأحسنُ الناس وجوهًا، وخيرُ الناس فعالًا. ثم كان أولَ الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعا رسولُ الله ﷺ، نحنُ؛ فنحنُ أنصار الله،

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك، للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد ٣/ ١١٦، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١١٦.

(٣) الطبقات الكبير، لابن سعد ٤/ ٣٤٦.

ووزراءُ رسوله، نُقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمَنْ آمن بالله ورسوله مَنَعَ مالَه ودَمَه، ومَنْ كفر جاهدناه في الله أبدا، وكان قتلُه علينا يسيرا، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين وللمؤمنات؛ والسلام عليكم»(١).

فما إن أتمَّ ثابتٌ خُطبتَه حتى قال قائل بني تميم: تعلمُنَّ والله أنَّ هذا الرجل مؤيَّدٌ، مصنوعٌ له، والله لَخطيبه أخطبُ من خطيبنا، ولَشاعره أشعرُ من شاعرنا، ولَهم أحلمُ منَّا(٢).

وإذا بحثنا في أسباب فضل خطبة ثابتٍ على خطبة عُطارد ألفيناها تؤول في الُمجمل إلى جَمْعِ خُطبة ثابت بن قيسٍ في فخرها بين الدين والدنيا. فهو يُثني على الله تعالى في فاتحته ثناءً جميلًا طويلًا، وينسب كلَّ شيءٍ من النعم إلى فضله وحدَه لا شريك له، فقد جعلهم ملوكًا، ثم امتنَّ عليهم بنبيٍّ هو خيرُ الناس ديانةً ونسبًا، ثم يفخر بقومه الذين نصروا هذا النبيَّ، فكأنما حَظُوا بالآخرة والأولى معًا.

«فشتَّان بين هذه المعاني والدوافع الإسلامية العُليا، والمعاني والدوافع التي أثارها وصدر عنها خطيبُ بني تميم الجاهلي المشرك. خطيبُ الإسلام يُحلِّق في سماء دعوةٍ سامية عامَّة، ويتكئ على مبادئ إنسانية راقية، وخطيبُ الشرك يحبو على أرض العصبيَّة القَبَليَّة الذميمة، المحدودة الأفق، فيعتزُّ بكثرة المال والعدد، ووفرة العُدَّة، ويربط السيادة والقوة بهذا، ويفاخر به لا بغيره»(٣).

إنَّ مما هوى بخطبة عُطاردٍ علاوةً على معانيها العاديَّة المستهلَكة، آخرَها الساقط ساعةَ قال: «ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكنَّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا»؛ ففيه ادِّعاءٌ للإيجاز، وادعاء الإيجاز ليس بإيجاز، بل هو عِيٌّ في أحوالٍ كثيرة. ثم إن هذا الموطن من

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١١٦.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ٤٠/ ٣٦٤ تحقيق عمر ابن عرامة الغمروي، دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ.

(٣) الأدب في عصر النبوة والراشدين، للدكتور صلاح الدين الهادي، ص١٧٩، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣/ ١٤٠٧هـ.

مواطن المفاخرة لا يوفِّيه حقَّه إلا التصريحُ بأخلاق العشيرة، والجَهارةُ بمناقبها، والإكثارُ من المدائح التي قيلتْ فيها. وانظر على النقيض إلى الختام الوجيز بحقٍّ الذي قضى به ثابتٌ خُطبته، كأنه يردُّ به على دعوى عُطاردٍ العريضةِ في كراهة الإكثار حين يقول: «أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات»، فهو يُثْبِتُ بالفعل لا بالدَّعوى كيف يكون الكلامُ نافذًا مع قلَّته، مفيدًا في نفسه، يستحي من الله ويَقْدُرُه حقَّ قدره؛ إذ يطلب المغفرةَ على التقصير منه[1].

فكذلك كان للوفود تصاريفُهم في إيراد الخطب عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما بين وصفٍ للرحلة إليه، أو ذكرٍ للفضائل والآثار، أو طلبٍ للمفاخرة؛ كل أولئك قد أتى في طيَّات إعلان إسلامهم، تلك الغاية النبيلة التي أخرجتْهم من بيوتهم إلى المدينة.

---

(١) تجدر الإشارة في هذا الموضع إلى أن ثابتًا وهو خطيب رسول الله ﷺ؛ لم يُرْوَ له في المصادر كثيرٌ من الخطب، وقد وقفتُ له على خطبتين في خبر سقيفة بني ساعدة يذكر في إحداهما فضلَ الأنصار، ويقدّم أبا بكرٍ في الثانية، انظرهما في: كتاب الرِّدَّة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنّى بن حارثة الشَّيبانيّ، للواقديّ، محمد بن عمر بن واقد «كذا نسبه المحقق»، ص٣٥-٣٧، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ١٤١٠هـ، ووقفتُ له على خطبةٍ في في أوائل حروب الردة أوان بحث أبي بكر عن قائد للجيش قال فيها: «يا معشر قريش، أما كان فينا رجلٌ يصلح لما تصلحون له؟ أما والله ما نحن عُمْيًا عما نرى، ولا صُمًّا عما نسمع، ولكن أمرنا رسول الله ﷺ بالصبر، فنحن نصبر» تاريخ اليعقوبي، أحمد ابن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ٢/ ١٢٩، دار صادر، بيروت، ووجدتُ له نداءً في حرب مسيلمة يُشبه أن يكون جزء خطبة يقول فيه: يا معشر المسلمين، أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه؛ أروني كما أريكم. ثم جلد فيهم حتى حازهم، انظر: تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٢٩١.

[٢] خُطَبُ السّياسَة والحُكم

(أ) خُطَب الخِلافَة والإمارة:

(الخُطب الأُولَيات)

خلَّف لنا نفرٌ من أمراء الصحابة خُطبًا سياسيةً عِدَّةً يصح أن نعدَّها رائدةً في الآداب السُّلطانية العربية، ينبري الخطيب فيها ليلقيَ على الأسماع منهاجه في الحكم، وكيف يسوسُ الناس، وما من شك في أن حرص الرعية سيتجلَّى أظهرَ ما يتجلَّى في الخطب الأُولَيات التي بها يفتتح الولاةُ عهودَهم؛ إذ تكون تلك الخطبُ عادةً كمثلِ دستورٍ يستلهم منه الرعية طريقة الحاكم الجديد.

ولعلَّ أشهر تلك الخطب أجمعِها خطبةُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مستهل الخلافة الإسلاميَّة، جعل فيها أبو بكر العلاقة بين الحاكم والمحكوم قائمةً على عَقْدٍ جامع وثلاثة أصول، أمَّا العَقد الجامع فطاعة الله تعالى التي لو زاغ عنها الحاكم سقطت عنه طاعةُ المحكوم، وأمَّا الأصول الثلاثة: فاستيفاء الحقوق بالعدل، والجهادُ في سبيل الله، واتِّباع الكتاب والسُّنة: «أما بعد أيُّها الناس، فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوموني، الصدقُ أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقويُّ منكم الضعيفُ عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدعْ أحدٌ منكم الجهادَ في سبيل الله؛ فإنه لا يدعُه قومٌ؛ إلا ضربهم الله بالذُّل، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ إلا عَمَّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[١].

«وعلى ذلك فالحاكم هنا في واقع الأمر حاكمٌ ومحكوم، يحكمه الدين بمُثُله وتعاليمه، فمِنْ كتاب الله يستمدُّ أخلاقه، ومن سُنَّة الرسول يأخذ آدابَه، ومتى صلُح

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٢١٠، والسيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٦٦١.

الراعي صلُحت الرعية. ثم إنه أيضًا محكوم بحكم الجماعة تُسدِّده إن رأته على باطل، وتُقوِّمه إن انحرف عن الطريق...»[1].

إنَّ خُطبةَ أبي بكرٍ هذه وثيقةٌ دستوريةٌ مهمَّة في تاريخ الدولة الإسلامية، فهي على قِصَرها من جوامع الكَلِم التي أوضَحَ فيها أبو بكرٍ طريقتَه، والتي أطلعهم فيها على خُطَّتَه التي اختطَّها لنفسه في الحُكْم[2].

ومن هذه الخُطب الأُولى خطبةٌ من بواكر خطبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أرسى فيها قاعدةً أخرى من قواعد الحكم في دولته خاصَّةً، هي حُسْنُ اختيار أوقات إتيانه، بأن لا يوافوه حالَ غضبه لئلا يظلمهم أو يجور عليهم، فإنه لم يبلغ من كمال الحِـلْم والطاقة ما كان يأنسُه الأصحابُ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، روى الطبريُّ أن مناديَ أبي بكر نادى من بعد الغد من متوفَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ليُتَمَّ بعثُ أسامة، ألا لا يَبقيَنَّ بالمدينة أحدٌ من جُند أسامة إلا خرج إلى عسكره، وقام أبو بكر في الناس، فقال كلامًا نحوًا من كلامه في خطبته الأولى: «يا أيها الناس، إنما أنا مِثْلُكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلِّفونني ما كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطيق. إنَّ الله اصطفى محمدًا على العالمينَ وعصمه من الآفات، وإنما أنا متَّبع ولست بمُبتدع؛ فإن استقمتُ فتابعوني، وإن زُغت فقوِّموني. وإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبض وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمَظلمةٍ، سوطٍ فما دونها. ألا وإن لي شيطانًا يعتريني؛ فإذا أتاني فاجتنبوني لا أؤثِرْ في أشعاركم وأبشاركم»[3].

(١) القِيَم الخُلُقيَّة في الخطابة العربية من الجاهلية حتى بداية القرن الثالث الهجري، للدكتور سعيد حسين منصور، ص١٠٥ـ١٠٦، منشورات جامعة بنغازي.

(٢) انظر: الدستور في البلاد الإسلامية ومشكلاته في ضوء الإسلام، لتوفيق بن عبد العزيز السديري ص(١٣٩ـ١٤٠)، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الإسلامية، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٧هـ.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٣-٢٢٤.

لقد ابتغى أبو بكر أن يُنبِّه الناسَ على أنه لا أحد مثلُ رسول الله ﷺ، فلا يَنتظرُنَّ منه ما كانوا ينتظرون من رسوله، وفي هذا الإشارة التي لا تخفى إلى ابتداء بَشريَّة الحُكْم الخالصة، وانفصام الجهة عن السماء. فلا معصوميَّة بعد اليوم، ولكنْ اجتهادٌ ونظرٌ وتقديرٌ ومشورة، وتلك سُنَّةٌ متَّبعةٌ وأساسٌ راسخٌ قام عليه حكمُ الخلفاء الراشدين من بعد. نُقِل عن الحسن البصْريِّ أنه قال مادحًا هذه الخطبة: خُطْبةٌ والله ما خُطِب بها بعدَه[1].

ومما هو قَمِنٌ أن يُشار إليه في هاتين الخطبتين تعمُّدُ الصدِّيق التواضعَ والتقليلَ من شأن نفسه، بقوله في الأولى: «ولست بخيركم»، وقولِه في الثانية: «إنما أنا مثلُكم»، وهي طريقةٌ متَّبعةٌ مُجْدِيَةٌ يستعملها الخطباء المجرِّبون، يقول الدكتور غنيمي هلال: «وخير طريقةٍ لمنع السامعين من الاعتقاد في أنك تبالغ في كلامك، هي الطريقة التي يلجأ إليها الخطباء من قديم، من أنهم ينقدُون أنفسهم نوعًا من النقد في مواضع؛ إذ يُوحي هذا النقد بثقة السامع فيهم أنهم على علمٍ بما يفعلون، وأنهم يُنصفون من أنفسهم»[2].

أما عمر بن الخطاب فإن عزمه على حمل الأمانة دبَّ إليه في الوقت والمقام الذي اختاره لخطبته الأولى؛ رُوي أنه لما فرغ عُمر من دفن أبي بكرٍ نَفَضَ يده عن تراب قبره، ثم وقف خطيبًا مكانه فقال: «إنَّ الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبيّ؛ فوالله لا يحضرُني شيء من أمركم فيليه أحدٌ دوني. ولا يتغيَّب عني فآلو فيه عن الجَزْء والأمانة، ولئن أحسنوا لأُحْسننَّ إليهم، ولئن أساؤوا لأُنكلنَّ بهم». قال الراوي: فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا[3].

---

(١) المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همَّام الصنعاني ١١/ ٣٣٦، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢/ ١٤٠٣.

(٢) النقد الأدبي الحديث ، للدكتور محمد غنيمي هلال، ص١٣١.

(٣) الطبقات الكبير، لابن سعد ٣/ ٢٥٥.

إن إظهار القوة والحزم هما أولى ما ينبغي أن تكون عليه سيرة الحاكم في رأي عمر، ذلك ما يُفضي به إلى إقامة العدل كأحسن ما يكون. لذلك شهدناه في خطبته الأولى على المنبر عُقَيْب هذه الخطبة يوطِّد رأيَه بمَثَلٍ ضربه فيها إذ يقول لهم: «إنما العرب مثلُ جملٍ أَنِفٍ[1] اتَّبع قائدَه، فلْينظر قائدُه حيث يقود، وأمَّا أنا فوربِّ الكعبة لأحملنَّهم على الطريق»[2].

ولو قصد قاصدٌ إلى سيرة عمر فتتبَّعها لوجده لم يَحِدْ عن الطريق الذي اختطَّه لها. حتى إذا بويع بالخلافة عثمان، خرج إليهم فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إنَّ أولَ مركَبٍ صعب، وإنَّ بعد اليوم أيّاما، وإن أعشْ تأتكم الخطبةُ على وجهها، وما كنا خطباء، وسيُعلمُنا الله»[3].

ويُروى أنه أُرْتِج عليه، فما كان منه إلا نَطَقَ لسانُه بهذه الكلمات: «إنّ أبا بكر وعمر كانا يُعدَّان لهذا المقام مقالًا، وأنتم إلى إمامٍ فعَّال أحوجُ منكم إلى إمام قوَّال». وفي رواية: «أنتم إلى إمامٍ عادلٍ أحوجُ منكم إلى إمامٍ قائل»[4]. ولئن صحَّت إحدى الروايتين لَإنها في ذاتها خُطبةٌ شاملةٌ، أوجزَ فيها الإمامُ منهاجَه ببليغٍ من التخلُّص الجميل، ولا نجد في مثل هذه الرواية استنقاصًا من فصاحة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا من طلاقة لسانه، بل إنه قد أراد تبيان ما يحتاجه مقام الخطابة الصعب من المران والعُدَّة لا أكثر.

وقد رَوى يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه، قال: «ما سمعتُ أحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا حدَّثَ أتمَّ حديثًا، ولا أحسنَ من عثمان بن

---

(١) الجمل الأَنِف، والأنِف: الذي يُديم التشكّي إلى سيِّده لا إلى سواه، انظر: لسان العرب: أنف.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٤٣٣.

(٣) الطبقات الكبير ٣/ ٥٩.

(٤) كلاهما في: بهجة المَجالس وأُنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النَّمَري القرطبي ١/ ٧٣، تحقيق الدكتور محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/ ١٩٨١م.

عفان، إلا أنه كان رجلًا يهابُ الحديث»[1]، فهذا على سبيل التورُّع، والبعدِ عن مواطن الزلل التي تجرُّها كثرةُ الحديث، وإلّا فلعُثمان كثيرٌ من الخطب التي أتينا على ذكْر بعضها في هذا البحث[2].

أمَّا عليٌّ فقد وعظهم في خطبته الأولى بعدما بويع، وأمرهم بأمورٍ هي من أصول دين الإسلام التي تدخل في باب المعاملة، فإنَّ هذا مما يشغل بالَ الخليفة أشدَّ من غيره، ولذلك نصحهم حتى في البِقَاع والبهائم، أما أمور الناس الخاصَّة بنفوسهم فهي مما يتولاه الله عَزَّوَجَلَّ، فقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنزل كتابًا هاديًا، بيَّن فيه الخيرَ والشرّ؛ فخذوا بالخير ودعوا الشر. الفرائضَ أدُّوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة. إن الله حرَّم حُرَمًا غير مجهولة، وفضَّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها، وشدَّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلمُ مَنْ سَلِم الناسُ من لسانه ويده إلا بالحق. لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، وخالصةُ أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإنَّ ما من خلفكم الساعةُ تحدُوكم. تخفَّفوا تلحقوا، فإنما يَنتظر الناس أُخراهم. اتقوا الله في عباده وبلاده، أنتم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم...»[3].

أما ابنُه الحَسَن؛ فإنه لما قام بالخلافة بعد وفاة أبيه، خطَبَهم خُطبةً هي إيماءةٌ لما قد كان بعدُ من نزوله عن الأمر في عام الجماعة، والخطبةُ من نادر خطب الحَسَن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في خلافته، وقد قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن كلَّ ما هو آتٍ قريب، وإنَّ أمر الله واقعٌ وإنْ

---

(١) الطبقات الكبير ٣/ ٥٣-٥٤.

(٢) ومِنْ عَجَبٍ أنَّ صاحب «العِقْد الفريد» لم يروِ لعُثمان إلا خطبة الإرْتاج هذه، وهو الذي روى لغيره غيرَ خُطبة من الخطب. انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ٤/ ١٣٣، تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٥٩هـ، فلعل هذا مما اشتُهر عن عثمان في الزمن القديم أيضًا، وفيه نظر.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٣٦، وروى ابنُ عبد البر خطبةً لعليٍّ زعمها أول خطبه بالمدينة يظهر عليها آثارُ التشيُّع، انظرها في: العقد الفريد ٤/ ١٣٣-١٣٤

كره الناس، وإنِّي والله ما أحببتُ أن أليَ من أمر أمَّة محمدٍ ما يزن مثقال حبَّةٍ من خردلٍ يُهراق فيها مِحْجَمةٌ من دم، قد علمتُ ما يضرُّني مما ينفعُني؛ فالحقوا بطِيَّتكم»[1].

(شروط الوالي وأعماله)

على أننا لو جاوزنا الخطب الأولى وما حوته من القواعد العامة والأصول الكُليَّة إلى مفصَّلٍ من القول في شروط الوالي وصفاته، وكيف يأخذ في عمله، وما حقوق الراعي على الرعية، وما حقوق الرعية عليه، وماذا فوق الحقوق من فضلٍ وإيناسٍ ومَرْحمة؛ فإنه سوف تلقانا أشياء جميلةٌ في خطابة الصحابة، مُعجِبةٌ، يصحُّ لنا سَلْكُها في نظام واحدٍ يلوح منه نبلُ الإسلام وعظمتُه، وسموُّه بالناعمين تحت ظلال سُلطانه.

وما من عجبٍ أن يكون للفاروق قصبُ السبق في هذا الموطن من مواطن النثر، وفي بضعة مواطن أخرى سوف تأتي، وتفسير ذلك أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد طالت مدَّتُه، وقرَّتْ دولتُه، وكان ممن فتح الله عليه بالعقل والبصيرة والحكمة ما لم يفتحه على كثيرٍ من العالمين.

يُورد عمرُ في إحدى خطبه أن جَدَارة الوالي تكون بقوته واضطلاعه بما ينوب الناسَ من مهمات الأمور، وأن يُحسن كيف يأخذ الحق وكيف يؤدِّيه، وأن يستعين بالله تعالى في شأنه كلِّه، وأن يستمدَّ الحَوْل منه؛ فإنه لا حول للمخلوق، ولا قوةَ له إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ: «يا أيها الناس، إني قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدَّكم استضلاعًا بما ينوب من مُهِمِّ أموركم ما توليتُ ذلك منكم، ولكفى عُمَرَ مُهِمًّا مُحْزِنًا انتظارُ موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخُذُهَا، ووضْعِها أين أضعُها، وبالسَّير فيكم كيف أسير، فربِّيَ المستعان؛ فإن عُمر أصبح لا يثق بقوةٍ ولا حيلةٍ إن لم يتداركه الله عَزَّ وَجَلَّ برحمته وعونه وتأييده»[2].

---

(١) الطبقات الكبير ٦/ ٣٨٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٤-٢١٥، ولعل من المناسب أن نُشير هنا إلى أن ابن أبي الحديد شارحَ نهج البلاغة قال في كتابه: «قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: لم يكن عُمر من أهل الخطب الطوال وكان كلامه قصيرًا، وإنما صاحب الخطب الطوال علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ». ثم قال: بعده تعقيبًا على كلام الجاحظ=

تلك روح الإسلام الذي يعقد الصلة دومًا بين الخلق والخالق، نسمع ذلك في خطبة أخرى لعمر بن الخطاب، يرى فيها أنَّ شرط الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ حقيقٌ بالوالي، ولا يسعُه تركُه ـ وهو قد ردَّدَ هذا المعنى من قبل ـ ثم يذهب في الخطبة وهو يضع شروط الوالي العادل إلى أنه لا يجوز له أن تُغيِّر الولايةُ أخلاقَه، فتُدخِلَ العظمةَ عليه؛ فالعظمة في الأصل إلهيةٌ ليس للعباد منها شيء ولو كانوا ملوكًا. فإذا استتمَّ للوالي تحصيلُ ذلك تحرَّى الحقَّ من نفسه، وباح لرعيته بما يعتمل فيها عساه أن يجد عند بعضهم الرأي، وعليه أن يُنصت إلى الذين ولَّاه الله عليهم فإنما هو رجلٌ منهم؛ إذ التواضع شرطٌ آخر للوالي في رأي عُمر. وعلى الراعي أن يكون ـ كما كان عُمرـ ذا خبرةٍ ببلاده: أحوالِها وأهليها، وأن يكون مسؤولًا عن الأمانة التي حُـمِّلَها، وأن يطَّلع بنفسه على الأمور، لا يكِلُ ذلك إلى أحد، فإن هو فعل إن تناءت بإمرته الأرض وكَّل الأمينَ الـنصيح، يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد ولاني أمرَكم، وقد علمتُ أنفعَ ما بحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يُعينني عليه، وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قَسْمكم كالذي أمرني به، وإني امرؤٌ مسلمٌ وعبدٌ ضعيف، إلا ما أعان الله عَزَّوَجَلَّ، ولن يُغيِّر الذي وَلِيت من خلافتكم من خُلقي شيئًا إن شاء الله؛ إنما العظمة لله عَزَّوَجَلَّ، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولنَّ أحدٌ منكم: إن عمر تغيَّر منذ ولي. أَعْقِلُ الحقَّ من نفسي، وأتقدَّم وأبيِّنُ لكم أمري، فأيُّما رجل كانت له حاجةٌ أو ظُلِمَ مظلمة أو عَتَبَ علينا في خُلُق فليُؤْذِنِّي؛ فإنما أنا رجلٌ منكم... وأنتم أناسٌ عامَّتُكم حَضَرٌ في بلاد الله وأهلُ بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله عَزَّوَجَلَّ قد وعدكم كرامةً كثيرة، وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطَّلعٌ على ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله لا أكِله إلى

= الذي نقله: «وقد وجدت أنا لعُمر خُطبًا فيها بعض الطول، ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ»، ثم مثَّل ببعض الخطب منها هذه الخطبة التي خطبها عُمر حين وَلِيَ الخلافة، انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ١٢/ ١٠٨-١٠٩، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه. قلت: لم أجد في النسخة المطبوعة التي بين أيدينا من «البيان والتبيين» كلامَ الجاحظ هذا، فلعله من زيادات بعض النُّسَخ.

أحد، ولا أستطيع ما بعُد منه إلا بالأمناء وأهلِ النُّصح منكم للعامة، ولستُ أجعل أمانتي إلى أحدٍ سواهم إن شاء الله»[١].

كما يرى عمر للراعي يرعى أموال الناس أن يكون حَسَنَ الرِّعاية لها، والحفاظِ عليها، بمنزلة والي اليتيم، فيَتصرَّفُ في أموال الناس مثلما يتصرَّف والي اليتم في ماله، بالتحوط، والحَذَر، والوَرَع، والأكل بما يُرضي اللهَ عَزَّوَجَلَّ: «ألا وإني أنزلتُ نفسي من مال الله بمنزلة والي اليتيم؛ إن استغنيتُ عففت، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف: تَقرُّمَ البَهْمَةِ الأعرابية، القَضْمَ لا الخَضْم»[٢].

والتقرُّم من القَرَمُ، وهو شدّة الشهوة إلى اللحم[٣]. والقَضْم: الأكل بأطراف الأسنان، والخَضْم: الأكلُ بأقصى الأضراس، ومَلْءُ الفم بالمأكول[٤]. والمغزى أن يتقيَ اللهَ الإمامُ فيما استُرعي عليه، وأن يستحضر الورع، وأن يعلمَ أن تصرُّفه في شأن الرعية مُناطٌ بمصالحهم الواجب عليه تتبُّعها أينما تكون.

ثم على الوالي أعمالٌ مفروضٌ عليه أن يكاشف الرعية بها حتى يمكنَهم إحصاءُ ما لهم من الحقوق؛ منها: قسمة الفَيْء والأموال فيهم، وتعبية الجيش، وحماية الثغور، والتوسعة على الخلق في الأرزاق والمغنم، فإن كان ثمَّة تقصيرٌ من قِبل الوالي، فإن على الرعية واجبَ إعلامه به حتى يوفِّيَه؛ وذلك قول عمر في خطبته: «ألا إني قد وليت عليكم وقضيتُ الذي عليَّ في الذي ولاني من أمركم، إن شاء الله قسطنا بينكم فَيْئَكم ومنازلَكم ومغازيَكم، وأبلغْنا ما لديكم فجَنَّدنا لكم الجنود، وهيَّأنا لكم الفروج، وبوَّأناكم ووسَّعْنا

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٥.

(٢) عيون الأخبار ٥/ ٢٣٤-٢٣٥، وانظر: السنن الكبرى، للبيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين بن عليّ ٦/ ٤ مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدَّكَّن، ط١/ ١٣٤٤هـ، والعقد الفريد ٤/ ١٣٠.

(٣) انظر: لسان العرب: قرم.

(٤) انظر: لسان العرب: قضم.

عليكم ما بلغ فيئُكم، وما قاتلتم عليه من شأمكم، وسَمَّيْنا لكم أطماعَكم، وأمرنا لكم بأُعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم؛ فمن عَلِمَ عِلْمَ شيء ينبغي العملُ به فَبَلِّغَنَا نعملْ به إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله»[1].

فإنْ هم لم يطلبوا ما لهم ـ مع ذلك ـ دَفَعَه إليهم من غير طلب: «وإني لأرجو إن عُمِّرْتُ فيكم يسيرًا أو كثيرًا، أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله، وأن لا يبقى أحدٌ من المسلمين ـ وإن كان في بيته ـ إلا أتاه حقُّه ونصيبه من مال الله، ولم يُعْمِلْ إليه نفسه، ولم يَنْصِب إليه يومًا»[2].

وعلى الوالي النصيحةُ للمسلمين، ألم ينصحهم عمر في بعض خطبه ـ ولا عجبَ ـ ويبينْ لهم كيف يشترون بعيرًا: «وإذا أراد أحدُكم بعيرًا فليعمِدِ إلى الطويل العظيم فليضربْه بعصا، فإن وجده حديدَ الفؤاد فليشترِه!»[3].

ويَحْرُم على الوالي ضربُ الناس أو انتهابُ أموالهم، بل إن عليه تعليمَهم الدينَ والسنة فوق ما عليه من العدل وقِسْمة الأرزاق، فإذا اعتاص عليه الشيءُ من تلك الأمور رفعه إلى الخليفة. أمَّا المقصر فقد توعَّده عمرُ بالإغلاظ والعقوبة، مصداق هذا ما رواه ابنُ أبي شَيبةَ في (مُصنَّفه) أن عمر بن الخطاب خطب الناس، فقال: «ألا إني والله ما أبعثُ إليكم عُمالًا ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم؛ ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسُنَّتكم، فمن فُعل به سوى ذلك فليرفعْه إلي، فوالذي نفسي بيده لأُقُصَّنَّه منه»[4]، وفي

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦٥-٦٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٦.

(٤) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة، أبي بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي، رقم ٣٣٥٩٢، حققه وقدم نصوصه وخرج أحاديثه محمد عوامة، دار قرطبة، بيروت، ط١/ ١٤٢٧هـ، وانظر: أيضًا: فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحَكَم، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، ص١٨٣، تحقيق محمد الحجيري، دار الفكر، بيروت ط١/ ١٤١٦هـ.

روايةٍ لمسلم أنه خطبها يوم الجمعة، وقال فيها: «اللهم إني أُشهدك على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتُهم عليهم ليعدلوا عليهم، وليعلِّموا الناسَ دينَهم وسُنَّةَ نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقسموا فيهم فَيْئهم، ويرفعوا إليَّ ما أشكل عليهم من أمرهم»[1].

ثم يزيد عُمر الأمر توكيدًا مرةً بعد أخرى، ففي رواية ابن أبي شَيْبَةَ الفائتة أن عمرو ابن العاص وثب إليه حين، قال: قولته تلك، فقال: «يا أمير المؤمنين، أرأيتكَ إن كان رجلٌ من أمراء المسلمين على رعيَّة فأدَّب رعيته إنك لمُقِصُّه منه؟»، قال: «إي: والذي نفسُ عمر بيده لأَقَصَّنه منه، أنِّي لا أُقِصُّه منه وقد رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقِصُّ[2] من نفسه؟! ألا لا تضربوا المسلمين فتُذِلُّوهم، ولا تمنعوهم من حقوقهم فتُكفِّروهم، ولا تجمِّروهم فتُفنوهم، ولا تُنزلوهم الغياضَ فتُضيِّعوهم»[3].

ففي هذه الخطبة يفترض عمر على خليفة المسلمين وواليهم الأكبر أن يقتصَّ لعموم المسلمين من أمراء النواحي والأصقاع، حيث إنَّ الجميع سواسيةٌ أمام الحق: الأميرَ والمأمور.

على أنَّ عُمر مع ذلك كان حريصًا على هَيْبة ولاته، فإن هيبة الولاة من هيبة إمامهم لا جَرَم، آيةُ ذلك أنه كان يقطع شكًّا إذا حام حول والٍ فيستبرئُ له، كأن يُعلن عن أسباب عزله إذا هو عَزَلَه، وهذا عملٌ آخرُ من أعمال الخليفة المستحبَّة المستحسنة، فقد رُوي أن عمر عزل شُرحبيل واستعمل معاوية، فقال شُرحبيل: أعن سُخطة عزلتني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، إنك لَكَمَا أُحب، ولكني أريد رجلًا أقوى من رجل. قال: نعم فاعذِرني في الناس لا تدركني هُجْنة. فقام في الناس، فقال: «أيها الناس، إني والله ما عزلتُ شُرحبيل عن سُخطةٍ، ولكني أردتُ رجلًا أقوى من رجل»[4].

(١) صحيح مسلم، الجامع الصحيح، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ٢/ ٨١، دار الجيل، بيروت.

(٢) انظر: ضبطَ ألفاظ القصاص تلك في: لسان العرب «قصص»، وقد أشار إلى حديث عُمر هذا.

(٣) المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة ٣٣٥٩٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٤/ ٦٤-٦٥.

ومن أصول السياسة المرعيَّة من لدن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى عهد عمر بن الخطاب، دعاءُ الناس إلى لزوم الجماعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُبالي شذوذ مَنْ شذَّ[١].

(طريقة الحُكم)

أما كيف يحكم؟ فإن أولَ السُّبل وأهداها تقديمُ المشورة في الخطوب[٢]، ففي المشورة العقولُ تجتمع وتتقاوى بل تتبارى لاستنباط أوفى الآراء وأرضاها، وبالمشورة يصل الأميرُ أواصر الودِّ بينه وبين الناس بسببٍ من اعترافه بفضل عقولهم، وأنه غير مستغنٍ عنهم، وليس يصدر إلا عن رأيهم؛ فتنشرح الصدور بينهم، وتنسلُّ منها السخائم. انظر إلى عمر كيف يَعمل بالشورى كأجدى ما يكون العملُ، حالَ يسألُهم ويستشيرُهم عن مَسيره إلى المسلمين في العراق وقد استجمع الفرس إلى نَـهاوَنْد يريدون الفتك بالإسلام وأهله. حيث قام على المنبر خطيبًا فأخبر الناسَ الخبر، ثم قال: «هذا يومٌ له ما بعده من الأيام، ألا وإني قد هممتُ بأمر، وإني عارضه عليكم فاسمعوه، ثم أخبروني وأوجزوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولا تُكثروا ولا تُطيلوا فتُفْشَغ[٣] بكم الأمور، ويَلتويَ عليكم الرأي؛ أفَمِنَ الرأي أن أسير فيمن قِبلي ومَنْ قَدَرْتُ عليه حتى أنزل منزلًا واسطًا بين هذين المصرين فأستنفرَهم، ثم أكونَ لهم رِدْءًا حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أُحب، فإنَّ فَتَحَ الله عليهم أن أُضرِّيَهم عليهم في بلادهم؛ وليتنازعوا ملكهم؟»[٤].

بل إن الطبري نقل عن الخليفة عمر بن الخطاب أنه أوكلَ إلى العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عملاً، هو انتقادُ الرأي للخليفة إذا يُعرض عليه[٥].

---

(١) انظر: خطبةً له في هذا المعنى في: فتوح الشام، للأزديّ، أبي إسماعيل محمد بن عبد الله البصري، ت ٢٣١ هـ، ص٢٥٢، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠م.

(٢) انظر: في وجوب الشورى على الأمراء والملوك، وكراهية التعصب لهوى النفس لمن يلي شؤون الناس: الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر، ص٤٤٩-٤٥١، ٤٧٣، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١م.

(٣) الفَشْغُ والانفِشاغُ: اتِّساعُ الشيء وانْتِشارُه، انظر: «لسان العرب: فشغ».

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٣.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٣.

وقريبٌ من الشورى مما فيه أُدْمَةٌ بين الأمير ورعيته أن يتعاونوا ويتآسَوا في المعاش، وأن يرفُق بعضهم ببعض، وأن يرحم بعضُهم بعضًا، فإن هم فعلوا أوشك الله أن يفتح عليهم، وأن ينصرهم على مَنْ سواهم. ففي الخبر أنه لما أتى عمرَ فتحُ القادسية قام في الناس فقرأ عليهم الفتحَ (أي: كتاب الفتح الذي أرسله سعد)، وقال: «إني حريصٌ على أن لا أدع حاجةً إلا سددتُها ما اتسع بعضُنا لبعض، فإذا عجز ذلك عنَّا تآسينا في عيشنا حتى نستويَ في الكفاف»[1]، وكأنه يقول: إن الفتح لم يُكتب إلا من بعد التعاون بيننا والتآلُف بين قلوبنا. ثم يمضي في الخطبة على جادَّته، فيُنشئ قاعدةً من أجلِّ قواعد الحكم: أن أعمال الوالي أفصحُ في الإبلاغ بنيته من أقواله، وأن الولاية في الإسلام ليست تملُّكًا على عَبيد الله، بل الحاكم والمحكوم كلاهما عبدٌ لله: «ولوددتُ أنكم علمتم من نفسي مثلَ الذي وقع فيها لكم، ولستُ معلِّمَكم إلا بالعمل، إني والله ما أنا بمَلِكٍ فأستعبدَكم، وإنما أنا عبدُ الله عرض عليَّ الأمانة»[2].

ومن تلك القوانين الخالدة التي استنَّها عمر في خطابته أنه ليس للوالي أن يتدسَّس إلى مخبوء أمور الناس، أو يتلطَّفَ إلى ما خفي منها، ليس له إلا الظواهر؛ قال لهم في هذا: «كنتم على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُؤخذون بالوحي، فمن أسرَّ شيئًا أُخذ بسريرته، ومن أعلن شيئًا أُخذ بعلانيته؛ فأظهروا لنا أحسنَ أخلاقكم، والله أعلم بالسرائر، فإنه مَنْ أظهر شيئًا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانيَةً حسنةً ظننَّا به حُسنًا»[3].

هذا إرثُ عُمر الخَطابيُّ في السلطان والسياسة، وإنَّ لخطابته في العدل فُسْحةً في هذا الفصل بعد قليل، وإنَّ له في الفنون الأخرى من سوى الخطابة آثارًا كريمةً في السياسة نحوَ ذلك تأتي في مواضعها من البحث إن شاء الله.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٦.

وفي خطب بعض الصحابة إيماءاتٌ متفرِّقةٌ في سياسة الناس ومسير العُمّال فيهم، فقد يرى رجلٌ كالمغيرة بن شُعبة(١) أن الحزم أنجع من غيره أحيانًا، فمن خطبه وقد بلغه خروج بعض الخارجة عليه أنه قام متوعِّدًا ـ وقد كان يؤثر السلامة ـ فقال: «أمَّا بعدُ، فقد علمتم أيها الناسُ أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية، وأكفُّ عنكم الأذى، وأني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدبَ سوء لسفهائكم، فأما الحلماء الأتقياء فلا. وايمُ الله لقد خشيت ألا أجد بُدًّا من أن يُعصَب الحليمُ التقيُّ بذنب السفيه الجاهل؛ فكُفُّوا ـ أيها الناس ـ سفهاءكم قبل أن يشمل البلاءُ عوامَّكم. وقد ذُكر لي أن رجالًا منكم يريدون أن يَظهروا في المصر بالشقاق والخلاف، وايمُ الله لا يخرجون في حيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتُّهم وجعلتهم نَكالًا لمن بعدَهم، فنظَرَ قومٌ لأنفسهم قبل الندم، فقد قُمْتُ هذا المقام إرادةَ الحُجَّة والإعذار»(٢).

كما أنه لدى معاوية بنِ أبي سفيان ـ وكان داهيةً مجرِّبًا ـ طريقةٌ خاصةٌ في استمالة المُعْرِضين عنه، قِوامها الاعتراف بالنقص، والتماسُ العفو من الناس. خَطَبَ مرَّةً بالمدينة فأقرَّ بوقوع الخطأ، وحذَّر من الفتنة، فقال: «أما بعد أيها الناس، إنا قدِمْنا عليكم، وإنما قَدِمنا على صَدِيق مُستبشِر، أو على عدوٍّ مُستتر، وناسٌ بين ذلك يَنْظرون ويَنْتظرون، فإنْ أُعْطوا منها رَضُوا، وإنْ لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطُون، ولستُ واسعًا كُلَّ الناس، فإن كانت مَحْمَدةٌ فلا بدَّ من مَذَمَّة، فلوْمًا هَوْنًا إذا ذُكِرَ غُفِر، وإياكم والتي إنْ أُخْفِيتْ أَوْبَقَتْ. وإن ذُكِرَت أَوْثَقَتْ». ثم نزل(٣).

(١) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أبو عيسى أو أبو محمد، أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وبيعة الرضوان وله فيها. قال ابن سعد: كان يقال له مغيرة الرأي. شهد اليمامة وفتوح الشام والعراق. قال الشعبي: كان من دهاة العرب، وكذا ذكره الزهري. وقال قبيصة بن جابر: صحبت المغيرة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج المغيرة من أبوابها كلها. ولاه عمر البصرة ففتح ميسان وهمذان وعدة بلاد إلى أن عزله. قال البغوي: كان أول من وضع ديوان البصرة. ثم ولاه عمر الكوفة، وأقرَّه عثمان ثم عزله، فلما قُتل عثمان اعتزل القتال إلى أن حضر مع الحكمين ثم بايع معاويةَ بعد أن اجتمع الناس عليه، ثم ولاه بعد ذلك الكوفة فاستمرّ على إمرتها حتى مات سنة خمسين عند الأكثر، انظر: الإصابة ٦/ ١٩٧-١٩٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٨٤.

(٣) العقد الفريد ٤/ ١٤٧.

وفي أخرى له بالمدينة أيضًا يرى لهم قبول الوالي على عِلاَّته مادام يريد الخير، فالمقاييس قد اختلفت باختلاف الأزمنة، ومضى عهدُ الصفاء والرونق، وأضحى التسديد والمقاربةُ هما مذهبَ السلامة: «يا أهلَ المدينة، إنّي لست أُحِبُّ أن تكونوا خَلْقًا كَخَلْق العِراق، يَعيبون الشيء وهم فيه، كلُّ امرئٍ منهم شِيعةُ نَفْسِه؛ فاقبلونا بما فينا، فإنَّ ما وراءنا شرٌّ لكم، وإنَّ معروفَ زماننا هذا مُنكَرُ زمانٍ مَضى، ومُنْكَرَ زماننا معروفُ زمان لم يأتِ، ولو قد أتى، فالرَّتْق خَيْرٌ من الفَتْق، وفي كلِّ بلاغ، ولا مُقامَ على الرزيّة»[1].

(ب) خُطَبُ العَدْل:

العدلُ من المقاصد الشريفة التي جمع لها أئمةُ أُمراء الصحابة أنفسَهم وقلوبَهم، فشمَّروا للقول فيه والعملِ به، ولنا في الشيخين أبي بكرٍ وصاحبِه غَناءٌ أيُّما غَناءٍ حين نقصد إلى التفتيش عن هذا المعنى الكريم في خطب الصحابة.

فقد مرَّ بنا مفتَتَحُ خطب الصديق في خلافته فألفيناه يختصُّ العدل منها بالنصيب الأوفى، ويجعلُه من نفسه الأصلَ الذي لا قيام للدولة إلا عليه أو به[2].

وفي خطبةٍ أخرى ينظر في العدل فيجد تحقيقه يقتضي التواضع والتسوية بين الخلق من الذي ولّاه اللهُ أمر الناس، ثم يقتضي من هؤلاء الناس أنفسِهم المعاونةَ على إقامة العدل بمراعاة أحوال الوالي التي يُرجى له أداءُ الحق عليها، وأن لا يكلِّفوه فوقَ ما يُطيق، ثم يحمِّلوه الإثم والتَّبِعة، وذلك قوله رحمة الله عليه: «يا أيها الناس، إنما أنا مِثْلُكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلِّفونني ما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطيق. إن الله اصطفى محمدًا على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متَّبع ولست بمبتدع؛ فإن استقمتُ فتابعوني، وإن زُغْتُ فقوِّموني. وإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبِض وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمظلمةٍ، سوطٍ فما دونها. ألا وإن لي شيطانًا يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني لا أؤثِرْ في أشعاركم وأبشاركم»[3].

---

(١) العقد الفريد ٤/ ١٤٨.

(٢) انظر: الخطبة في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢١٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٤.

أمَّا عُمر ـ وما أدراك ما عُمر حُكمًا وعدلًا ـ فإنه لَلَّذي أحبَّ العدل، وعَمِل به، وأجراه الله على لسانه، حتى لَإنه يحق وصفُه بصفة العدل الذي يمشي بين العباد في الأرض. أَمَارةٌ على ذلك تلك الخطب اللاتي ما وَنِيَ عمر يُردِّد ذِكْرَ العدل فيهنَّ ويُعيده، ويبسط الحديثَ في أمره ويُفرِّعُه، ففي مقامٍ له على المنبر يوم الجمعة ـ وقد سبق ذكره من رواية مسلمٍ قريبًا ـ يُشهد اللهَ على عُمَّاله أنه ما استعملهم إلا ليُعلِّموا الناسَ، وليقيموا العدل فيهم: «اللهم إني أُشهدك على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتُهم عليهم ليعدلوا عليهم، وليعلِّموا الناسَ دينَهم وسُنَّةَ نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقسموا فيهم فَيْئَهم، ويرفعوا إليَّ ما أشكل عليهم من أمرهم»(١).

وفي أخرى يُبْرِئُ لنفسه أمام ربه، ويعتذر إليه باجتهاده قدر الطاقة في اصطفاء الرجال لنشر العدل في الأرض، ومساعدتِه إياهم إذا أشكل عليهم الشيء من أجزائه ومزانقه. ثم هو يبذل لهم من أجل الغاية الشريفة عِلْمَه، فيدُلُّهم على مَنْ يُجيب السؤالات، ويضرب لهم مثلًا في توزيع الأرزاق والأعطيات، كيما لا يُظلمَ أحد، وكيما لا يُبخسَ أحدٌ نصيبَه الذي قسمَه الله له، وليُنبِّئَهم أن الفضل في العطاء لأهل الدين الذين سبقوا الناس إليه، ثم صبروا وصابروا عليه، فعن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب الناسَ بالجابية، فقال: «يا أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أُبيَّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأتِ زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأتِ معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإن الله جعلني له واليًا وقاسمًا. أبدأ فيه بأزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم المهاجرين الأولين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم ـ فقرأ الآية كلَّها(٢) ـ، فمن أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء. فلا يلومنَّ رجلٌ إلا مُناخَ راحلته»(٣).

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٨١.

(٢) اي: الآية الثامنة من سورة «الحشر»: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (الحشر: ٨).

(٣) المعجم الأوسط، للطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد ٤/ ١٢٧، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥هـ.

وفي خطبةٍ يُفيض فيما يُشبه أن يُسمَّى بـ(مقتضيات العدل) من قِسط الفيء والمنازل والمغازي، وتجنيد الجُنْد، وتهيئة الثغر، والتوسعة على الناس، وتسمية حقوقهم وتحديدها، وقد مرَّت هذه الخطبةُ قريبًا[1].

فإذا شئتَ أن تنظر إلى دُرَّة التاج في خُطَبِ العدل، فإني دالُّك على خطبةٍ لعمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خليقةٍ أن يُطلَق عليها (خُطبةُ العدل)، شَقَّقَ فيها القولَ في العدل، فذهب به كلَّ مذهب، وأوغل في أغواره، وعقد بينه وبين المعاني الصِّلات، وصبر نفسَه حتى جعل للعدل أماراتٍ وتباشير، وجعل له بابًا، وجعل للباب مِفتاحًا. وفي كلٍّ مُطْنِبٌ هو في البيان، باسطٌ للعبارة، مُطِيلٌ للفِكرة، لا يَثنيه عن غرضه قَلَقُ الجيش الملقى عليه الخطبة، جيشِ القادسية المعسكِرِ على أطراف المدينة، كأنما يريد ليذكِّرَهم ويُشيعَ فيهم أنَّ النصر لا يكون إلا بالعدل، وأن العدل ليس ذلك المعنى المشتهَرَ بين الناس فحسب، بل إنَّ له معانيَ أخرى غير ذلك، وذلك قوله في الخطبة: «إنَّ الله تعالى إنما ضربَ لكم الأمثال، وصرَّف لكم القول ليُحييَ به القلوب؛ فإن القلوب ميّتةٌ في صدورها حتى يحييَها الله؛ من علم شيئًا فلينتفع به. وإن للعدل أماراتٍ وتباشير؛ فأمَّا الأمارات: فالحياء، والسَّخاء، والهَيْنُ، واللِّين. وأما التباشير: فالرحمة. وقد جعل الله لكل أمر بابًا، ويسَّر لكل باب مِفتاحًا. فبابُ العدل: الاعتبار، ومِفتاحُه الزهد. والاعتبارُ: ذكر الموت بتذكُّر الأموات، والاستعدادُ له بتقديم الأعمال. والزهدُ: أَخْذُ الحق من كل أحدٍ قِبَلَهُ حق، وتأديةُ الحق إلى كل أحدٍ له حق. ولا تُصانعْ في ذلك أحدًا، واكتفِ بما يكفيك من الكَفَاف؛ فإنَّ من لم يكفه الكفافُ لم يُغنه شيء. إني بينكم وبين الله؛ وليس بيني وبينه أحد. وإن الله قد ألزمني دفعَ الدعاء عنه، فأنهوا شِكاتَكم إلينا؛ فمن لم يستطع فإلى من يُبلِّغُناها نأخذْ له الحقَّ غيرَ مُتَعْتَع»[2].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٥، والتَعْتَعَة: أن تُقبل بالرجل وتُدبر به، وتعنِّف عليه في ذلك، «لسان العرب: تعع».

فالعدلُ لم يكن غائمًا ولا مضطربًا في خيال عُمر، بل إنه كان كِيانًا تامًّا، له أصوله وفروعُه وخصائصه، وله حدوده وأوَّلُه وآخرُه، فَقِهَ ذلك الفاروقُ فحقَّق العدلَ: معناهُ ومبناه، ولقد غدا العدل مذ تلك الخطبةِ الجليلةِ نَبْعًا، ترِد الشمائلُ الكريمةُ إليهِ، وتصدُر عنه.

(جـ) خُطَبُ الشُّورَى:

الشورى عمودٌ من عماد الحكم والفصل في الأمور في النظام الإسلاميّ، لم يتخلف عنها رعيل الأمراء الأول من المسلمين الصحابة، كبُرت إماراتُهم أو صغُرت، خليفةً كان الأمير، أو قائدَ جيش، أو عاملَ بلدٍ، أو أميرَ سَرِيَّةٍ قليلة العدد. والمنقولُ من نبأ القوم أنهم كان يقف ذوو الرأي منهم خاطبين في الملأ بمستخلَص ما يرتؤون في الأمر، مقلِّبينه على أوجهه، طامعين في الغنيمة من شُوراهم بالرأي الأسدّ، والخُطَّة السَّليمة الصَّائبة.

ولعله يُغنينا في الدلالة على خطر الشورى في تدبير شأن الصحابة مواقفُ بعينها نقتصر عليها تُجزئ عن غيرها وتُشير إلى مثله[1]؛ تلك هي شوراهم في أمر خروج عُمر بنفسه نُصرةً للمسلمين في حرب فارس، وشوراهم بُعيد وفاةِ عُمر فيمن سيلي أمر المسلمين بعده.

أما حرب فارس فقد وقعت الشورى فيها مرتين، مرَّةً في مبدأ أمر القادسية في أول يومٍ من المحرم سنة أربع عشرة، خطب عمرُ فبسطَ القولَ في الشورى، ثم شفَع قوله بأنْ عَمِل بمقتضى رأي المشيرين عليه. ومرةً ثانيةً في سؤاله إياهم بعد ذلك بسنوات سنة إحدى وعشرين، وقد حَشَدَ الفُرْسُ للمسلمين: أيخرج بنفسه إلى المسلمين أم لا؟

أما المرة الأولى: فيُروى عن عمر أنه خرج حتى نزل على ماءٍ يُدعَى صِرارًا، فعسكر به ولا يدري الناسُ ما يريد؛ أيسير أم يُقيم ... فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس. فقال العامة: سِرْ وسر بنا معك. فدخل معهم

---

(١) انظر: خُطَبَهم في شورى أبي بكر إياهم في مسألة فتح الشام، وقد خطب في تلك الشورى: أبو بكرٍ، وعُمر، وعثمان، وعليّ، وعبدُ الرحمن بن عوف، وخالد بن سعيد بن العاص ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ، انظرها في: فتوح الشام، للأزدي، ص١ –٥.

في رأيهم وكره أن يَدَعَهم حتى يُخرجهم منه في رفق. فقال: استعدُّوا وأعدُّوا فإني سائر إلا أن يجيء رأيٌ هو أمثلُ من ذلك. ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلامُ العرب، فقال: أحضروني الرأي فإني سائر. فاجتمعوا جميعًا وأجمع مَلؤهم على أن يبعث رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ويقيم، ويرميه بالجنود؛ فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون، وإلا أعاد رجلًا وندب جندًا آخر، وفي ذلك ما يَغيظ العدو، ويرعوي المسلمون، ويجيء نصرُ الله بإنجاز موعود الله. فنادى عمر: الصلاة جامعة. فاجتمع الناس إليه، وأرسل إلى علي رضي الله عنه وقد استخلفه على المدينة، فأتاه، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة، فرجع إليه، وجعل على المجنِّبتين الزبير وعبدَ الرحمن بن عوف، فقام عمر في الناس...

في تيك الساعة الحاسمة أنصتَ الجيشُ إلى واحدةٍ من مُـحْكم خُطَب عمر، يوجب فيها الشورى بين المسلمين وبين ذوي الرأي منهم، ثم يوجب على المسلمين اتِّباعَ ما أفضت إليه تلك الشورى، ثم يضرب المثل بامتثال نفسه لما آلَ إليه رأيُ ذوي الرأي من أصحاب الشورى يومئذٍ فارتضاه، يقول رضي الله عنه: «إن الله عز وجل قد جمَع على الإسلام أهلَه؛ فألَّف بين القلوب، وجعلهم فيه إخوانًا، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيءٌ من شيءٍ أصاب غيرَه؛ وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرُهم شورى بينهم وبين ذوى الرأى منهم؛ فالناس تَبَعٌ لمن قام بهذا الأمر؛ ما اجتمعوا عليه ورضُوا به لزم الناسَ وكانوا فيه تَبَعًا لهم. ومن قام بهذا الأمر تَبَعٌ لأولي رأيهم، ما رأوا لهم ورضُوا به لهم من مكيدةٍ في حرب كانوا فيه تبعًا لهم. يا أيها الناس، إني إنما كنت كرجلٍ منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج، فقد رأيتُ أن أقيم وأبعث رجلًا، وقد أحضرتُ هذا الأمر من قَدَّمتُ ومن خَلَّفت»، وكان عليٌّ خليفتَه على المدينة، وطلحةُ على مقدمته بالأعوص، فأحضرهما ذلك[1].

---

(١) انظر: الخبرَ والخطبة في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨١.

فكان ممن أشار عليه فنهاه عن المسير إلى فارسٍ عبدُ الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَحكي عبدُ الرحمن عن ذلك اليوم، فيقول: «فما فَدَّيتُ أحدًا بأبي وأمي بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ يومئذٍ ولا بعده، فقلت: يا بأبي وأمي، اجعل عجزها بي وأقم وابعث جندًا، فقد رأيت قضاءَ الله لك في جنودك قبلُ وبعد، فإنه إن يُهزم جيشُك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتل أو تُهزمْ في أنف الأمر خَشِيتُ أن لا يُكبِّر المسلمون، وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا اللهُ أبدًا»[1].

المرةُ الثانيةُ: قريبٌ أحداثها من هذا، وقد مرَّ بنا سؤالُ عُمر إياهم في المسير إلى العراق حيث جَمَّعَ الفرسُ للمسلمين بين السواد والأهواز، وذلك في سنة إحدى وعشرين، فقال: «ألا وإني قد هممتُ بأمرٍ وإني عارِضه عليكم فاسمعوه، ثم أخبروني وأوجزوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم. ولا تُكثروا ولا تُطيلوا فتُفْشَغ[2] بكم الأمور ويلتوي عليكم الرأي: أفمن الرأي أن أسير فيمن قِبَلي ومن قدرتُ عليه حتى أنزل منزلًا واسطًا بين هذين المِصرين فأستنفرَهم، ثم أكون لهم رِدْءًا حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب؟ فإن فتح الله عليهم أن أُضرِّيَهم عليهم في بلادهم وليتنازعوا ملكهم؟»[3].

فقام عثمان بن عفان، وطلحة بن عُبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، في رجالٍ من أهل الرأي من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتكلموا كلامًا فقالوا: لا نرى ذلك، ولكن لا يغيبنَّ عنهم رأيُك وأثَرُك، وقالوا: بإزائهم وجوه العرب وفرسانُهم وأعلامهم، ومَنْ قد فضَّ جموعَهم، وقتَّل ملوكهم، وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه؛ وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك؛ فأْذن لهم، واندُب إليهم، وادعُ[4].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨١-٤٨٢.

(٢) الفَشْغُ والانْفِشاغ: اتِّساعُ الشيءِ وانْتِشارُه، انظر: «لسان العرب: فشغ».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٣.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٣.

فكان ممن نَصَرَ هذا الرأي عليٌّ بن أبي طالب بأن، قال في خطبته: «أصاب القوم يا أمير المؤمنين، وفهموا ما كُتِبَ به إليك، وإن هذا الأمر لم يكن نَصْرُه ولا خِذْلانُه لكثرةٍ ولا قلة؛ هو دينُه الذي أظهر، وجندُه الذي أعزّ، وأيّده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعودٍ من الله، واللهُ منجزٌ وعدَه، وناصرٌ جنده. ومكانُك منهم مكانُ النظام من الخَرَز، يجمعه ويُمسكه، فإن انحلَّ تفرَّق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدًا. والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا فهي كثيرٌ عزيزٌ بالإسلام؛ فأقِمْ واكتب إلى أهل الكوفة، فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ومن لم يحفل بمن هو أجمعُ وأحدُّ وأجدُّ من هؤلاء؛ فليأتهم الثُّلُثان وليُقم الثُّلُث، واكتب إلى أهل البصرة أن يُمدّوهم ببعض مَنْ عندهم»[1].

ووقف طلحةُ بن عُبيد الله ـ وكان طلحةُ كما ورد عند الطبري: من خُطباء أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فلم يكن منه إلا أن وَكَلَ الأمرَ إلى عُمر نفسِه؛ ثقةً منه في عُمر واختياره، على أنَّ للخليفة منهم السمْعَ والانقيادَ والطاعةَ، وله منهم البذل، قال رأيَه هذا في خطبةٍ شديدة البناء، متراصَّةِ الألفاظ، ذاتِ جُمَلٍ موجزات متواترات: «أما بعد، يا أميرَ المؤمنين، فقد أحكمتْك الأمور، وعَجَمتك البلايا، واحتنكتك التجارِب. وأنت وشأنَك، وأنت ورأيَك، لا ننبو في يديك، ولا نكِلُّ عليك. إليك هذا الأمر، فمُرْنا نُطِع، وادْعُنا نُجِب، واحملنا نركب، ووَفِّدْنا نَفِد، وقُدْنا ننْقَد؛ فإنك وليُّ هذا الأمر، وقد بلوتَ وجرَّبْتَ واختَبرتَ فلم ينكشف شيءٌ من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار»[2].

إنما يجلو طلحةُ في خُطبته القصيرة هذه عن خطيبٍ مِصْقَعٍ، وقائلٍ بليغ، حتى لو غفلنا عن شهادة الطبري السابقة له، ولسنا ندري أين ذهب أدبُ طلحة: أفي مَنْسِيِّ الرُّقوق المخطوطة هو، أم فيما عدا عليه الدهرُ من القراطيس القديمة فأكله؟ وما أكثرَ ما

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٤.

أكل الدهرُ فأفنى! بيد أنه لا يَحْسُن بنا اليأسُ من تتبُّع آثار طلحةَ بن عُبيد الله وأقرانه من فطاحل الصحابة، فضلًا عن مغموطي الذكر منهم؛ فإنَّ ما خَفِيَ من أدبهم شيءٌ ما زالت تُبهرُنا جَلالتُه فيما تجود به الأيامُ يومًا بعد يوم.

أما عثمان فرأى الرأيَ في أن يدفع عمر إليهم بنفسه، على أن لا يكتفي بجُند المدينة هؤلاء فحسب، ولكن يبعث إلى الشام وإلى اليمن فيستقدم جنديهما فيلقَى بالجميع جمعَ المشركين، ثم ثنَّى رأيَه بأن قال: «يا أمير المؤمنين، إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقيةً، ولا تَمتَّعُ من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحريز؛ إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام؛ فاشْهده برأيك وأعوانك، ولا تغب عنه» ثم جلس[(١)].

فعاد عُمر فقال: إنَّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام؛ فتكلَّموا. فقام عليٌّ بن أبي طالب محذِّرًا من إشخاص أهل الأمصار منها، ومن أنَّ خروج عُمر إلى العدو قَمِنٌ أن يوقد جَمْرتَهم، ويوقظ نَهْمَتَهم فيتسابقوا ويتفانَوا في سبيل قتل أمير المؤمنين؛ بينا الله لا ينصر بالعدد ولا بالكثرة، فقال: «أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنك إن أشخصت أهل الشام من شأمهم سارت الروم إلى ذراريِّهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يَمنهم سارت الحبشة إلى ذراريِّهم، وإنك إن شَخصتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليك الأرضُ من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تَدَعُ وراءك أهمَّ إليك مما بين يديك من العورات والعيالات. أقرِرْ هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرَّقوا فيها ثلاثَ فرق، فلتُقم فرقةٌ لهم في حَرمهم وذراريِّهم، ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم، ولْتسِر فرقةٌ إلى إخوانهم بالكوفة مددًا لهم. إنَّ الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا قالوا: هذا أميرُ العرب وأصلُ العرب فكان ذلك أشدَّ لكَلَبهم، وألَّبْتَهم على نفسك، وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكرهُ لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرتَ من عددهم فإنَّا لم نكن نُقاتل فيما مضى بالكثرة، ولكنَّا كنا نقاتل بالنصر»[(٢)].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٤-١٢٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٥.

فوافق كلامُ عليٍّ هَوًى في نفس عُمر، ورضيَه عقلُه، فقالَ من فوره: «أجل والله، لئن شخصتُ من البلدة لتنتقضنَّ عليَّ الأرضُ من أطرافها وأكنافها، ولئن نَظَرَتْ إليَّ الأعاجم لا يُفارِقُنَّ العَرْصة[1]، ولَيُمِدَّنَّهم من لم يُمدَّهم، ولَيقولُنَّ: هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصلَ العرب»[2].

لقد رأينا إلى عُمر وهو يضربُ أروع الأمثلة في الاستجابة لأمر الشورى[3]، وقد كانت تأتيه الأسئلة في إثر القادسية عن أهل الذمَّة أنَّ منهم من ادَّعى مسالَـمةً وادَّعى أنه أكرهه أهلُ فارسٍ على حرب المسلمين، فأحدِثْ إلينا فيمن تَمَّ وفيمن جلا، وفيمن ادَّعى أنه استُكره وحُشر فهرب ولم يُقاتل، أو استسلم؛ فإنَّا بأرضٍ رَغيبة، والأرضُ خَلاءٌ من أهلها، وعددُنا قليل، وقد كثُر أهل صُلحنا، وإنَّ أعمرَ لنا وأوهنَ لعدوِّنا تألُّفهم. فيجمع عمرُ المسلمين ويقوم فيهم خطيبًا: «إنه مَنْ يعملْ بالهوى والمعصية يسقط حظُّه، ولا يضرَّ إلا نفسَه، ومن يتّبع السنة وينتهِ إلى الشرائع ويلزم السبيل النَّهْجَ ابتغاء ما عند الله لأهلِ الطاعة؛ أصابَ أمره وظفر بحظِّه، وذلك بأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩]، وقد ظفِر أهل الأيام والقوادس بما يَليهم، وجلا أهلُه، وأتاهم

(١) العَرْصةُ: كلُّ بُقْعةٍ بين الدور واسعةٍ ليس فيها بناء، وكلُّ موضعٍ واسع لا بناء فيه، لسان العرب: عرص، والمراد هنا أرض المعركة.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٥-١٢٦.

(٣) قال إمام الحرمين في غياث الأمم: «ولا منافاة بين بلوغ المرتبة العليا في العلوم وبين التناظر والتشاور في المعضلات. ونحن نرى للإمام المستجمع خلالَ الكمال، البالغ مبلغ الاستقلال، أن لا يُغفِل الاستضاءة في الإيالة وأحكام الشرع بعقول الرجال؛ فإن صاحب الاستبداد لا يأمن الحيدة من سنن السداد، ومن وُفق الاستمداد من علوم العلماء كان حريًّا بالاستداد ولزوم طريق الاقتصاد، وسر الإمامة استتباعُ الآراء وجمعُها على رأي صائب، ومن ضرورة ذلك استقلال الإمام. ثم هو محثوث على استقاء مزايا القرائح وتلقى الفوائد والزوائد منها، فإن في كل عقل ميزة، ولكن اختلاف الآراء مَفسدة لإمضاء الأمور، فإذا بحث عن الآراء إمامٌ مجتهد وعرضها على علمه الغزير، ونقد بالسَّبر والفكر الأصوب من وجوه الرأي؛ كان جالبًا إلى المسلمين ثمرات العقول، ودافعًا عنهم غائلة التباين والاختلاف...»، غياث الأمم في التياث الظُلَم، لإمام الحرمين الجويني، أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، ص٦٧-٦٨، تحقيق الدكتور مصطفى حلمي والدكتور فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١/ ١٤٠٠هـ.

مَنْ أقام على عهدهم، فما رأيُكم فيمن زعم أنه استُكره وحُشر، وفيمن لم يَدَّعِ ذلك ولم يُقم وجَلا، وفيمن أقام ولم يدَّعِ شيئًا ولم يجلُ، وفيمن استسلم؟»[1].

فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكفَّ لم يزده غَلَبُه إلا خيرًا، وأنَّ من ادَّعى فصدَق أو وفَى فبمنزلتهم. وإنْ كَذَبَ نبذ إليهم وأعادوا صُلْحَهم. وأن يُجعل أمرُ مَنْ جلا إليهم؛ فإن شاؤوا وادَعُوهم وكانوا لهم ذمة، وإن شاؤوا تمُّوا على منعهم من أرضهم ولم يُعطوهم إلا القتال. وأن يُخيِّروا من أقام واستسلم الجِزاء أو الجَلاء، وكذلك الفلاَّح[2].

كذا ظلَّت الشورى مَلاذَ صدقٍ لأئمة المسلمين إذا حَزَبتهم الأمورُ أو نزلت بهم النوازل، وكذلك كانوا يعملون بما يَقَرُّ في نفوسهم أنه الأصلح من الرأي لعامة الأمة، إعذارًا إلى ربهم، وخوفًا على حرمة المسلمين أن تُنتَهك، وشفقةً على بيضتهم الكريمةِ من أن تُداس.

ولئن كان عمر بن الخطاب ورِعًا عدلًا في حياته لقد كان عاملًا لما بعد الموت، مُحْسنًا في العهد إلى ستةٍ من خيار الصحابة لانتخاب الخليفة بعدَه: عبد الرحمن بن عوف، وعثمان، وعليّ، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقَّاص؛ يتشاورون فيختارون من بينهم أحدَهم، وقد خطبوا في أول ائتمارهم خمسَ خُطبات يأمرن بالتآلف واجتماع الكلمة، وينهَيْن عن الاختلاف والفُرقة والمعصية. وكان طلحةُ غائبًا في سفر.

وكان فارسُ تلك الشورى العظيمة، وابنُ بَجْدتها؛ الرجلَ الشريفَ البَرَّ عبدَ الرحمن بنَ عوف[3]، حيث استهلَّ بالنُّصح خاطبًا، فدعا أصحابَه إلى الألفة، وحذَّرهم

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٤-٥٨٥.
(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٤-٥٨٥.
(٣) عن أم سلمة عن النبي صلواتُ الله عليه أنه قال لأزواجه: «إن الذي يحنو عليكنَّ بعدي لهو الصادقُ البارّ؛ اللهم اسقِ عبدَ الرحمن بن عوف من سلسبيل الجنة»، السُّنَّة، لابن أبي عاصم، أبي بكر أحمد بن عمرو ص٩٣٧، تحقيق الدكتورباسم بن يوسف الجوابرة، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١/ ١٤١٩هـ.

الشقاقَ والفتنة، وأمرهم باختيار القويِّ الأمين الرِّضا، وكلُّ القوم عنده رضًا، فأعقبَ هاتيك الخطبةَ العصماءَ المجوَّدة: «يا هؤلاء، إن عندي رأيًا، وإن لكم نظرًا؛ فاسمعوا تَعَلَّموا، وأجيبوا تفقَّهوا، فإن حابيًا خيرٌ من زاهق، وإن جَرْعةً من شَرُوبٍ بارد أنفعُ من عَذبٍ مُوبٍ. أنتم أئمةٌ يُهتدى بكم، وعلماء يُصدر إليكم، فلا تفُلُّوا المُدى بالاختلاف بينكم، ولا تُغمدوا السيوف عن أعدائكم فتُوتروا ثأرَكم، وتُؤلِتوا[1] أعمالَكم. لكل أجل كتاب، ولكل بيتٍ إمام، بأمره يقومون، وبنهيه يَرِعُون. قلِّدوا أمرَكم واحدًا منكم تمشوا الهُوينى، وتَلحقوا الطَّلَب. لولا فتنةٌ عمياء، وضلالةٌ حَيْراء، يقول أهلها ما يرون، وتُحِلُّهم الحَبَوْكَرى[2]؛ ما عَدَتْ نِيَّاتُكم معرفتكم، ولا أعمالُكم نياتِكم. احذروا نصيحةَ الهوى ولسان الفُرقة، فإن الحيلة في المنطق أبلغُ من السيوف في الكلم. علِّقوا أمركم رَحْبَ الذراع فيما حَل، مأمونَ الغيب فيما نَزل، رضًا منكم وكلكم رضًا، ومقترَعًا منكم وكلكم مُنتهَى. لا تطيعوا مفسدًا ينتصح، ولا تُخالفوا مرشدًا ينتصر. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[3].

---

(١) قال ابن قتيبة في لفظ «تؤلتوا»: «كأنه من أوْلَتَ يُولت، أو آلَتَ يُؤْلت، إن كان مهموزًا. ولم أسمع بهذه اللغة إلا في هذا الحديث»، غريب الحديث، لابن قُتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ٢/ ١٧٨، تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط١/ ١٣٩٧هـ.

(٢) الحَبَوْكَرَى: أعظمُ الدَّواهي، «لسان العرب: حبكر».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٤-٢٣٥، وغريب الحديث، لابن قُتيبة ٢/ ١٧٥-١٧٨، وفيه من الشرح: الحابي من السِّهام: هو الذي يزْحَف الى الهَدَف، يُقال: حبا يَحْبُو فإن أصاب الرُّقْعة فهو حاسِق وخارق ومُقَرْطس، فإنْ جاوزَ الهَدَف ووَقع خَلْفه فهو زَاهِق. وأراد أنَّ الحابيَ من السهام وإنْ كان ضعيفًا فقد أصاب الهَدَف هو خيرٌ من الزاهق الذي قد جازه بشِدَّةِ مَرِّه وقُوَّته ولم يُصِبْه. وضَرَبَ السَّهْمين مَثَلًا لوالِيَيْن أحدهما ينال الحق أو بعضه وهو ضعيف، والآخر يجوز الحق ويبعد منه وهو قوي. والشَّروب من الماء: هو المِلْح الذي لا يشربه الناس إلا عند الضرورة. والمُوبئ: الضَّارَ المُدْخِل في الوَباء، وهو المرض. والحرف مهموز فتُرِكَ همزه ليُقابَل به الحرفُ الذي قبله، وهذا أيضًا مثلٌ ضَرَبه لرجلين أحدهما أرفغ وأضرّ والآخر أذْوَن وأنفع. والمُدى: جمع مُدْية. والفُلُول: تكسُّرٌ يُصِيب حَدَّها، أراد لا تختلفوا. ولا تُغْمِدوا السيوف عن أعدائكم فتُوتِروا ثأركم: أي: توجدوه الوِتر في أنفسكم، يقال: وتَرْتُ فلانًا اذا أصبتُه بوَتْرٍ، وأوترْتُه: أوجدْته ذلك. والثَّار: العدوُّ لأنَّه موضع الثَّأر. وتُؤلتوا اعمالكم: أي تَنْقُصوها. يَرِعون أي: يكفُّون. رَحْب الذراع فيما نَزَلَ: أي: واسع الذَّرع عند الشدائد يجود ويُعْطي. مأمون الغيب: أي: لا يخونكم ولا يبغيكم الغَوائل فيما خفي عليكم. ويُقْترع منكم: أي: يُختار.

بعدها ألقى عثمان خطبةً أيّد فيها كلام عبد الرحمن بن عوف، من وجه أنه لا يستقيم بهم وهم شيوخ المسلمين وأئمتُهم ـ أن يحيدوا عن الحق، أو ينكِلوا عن القصد فيُدخلوا على أنفسهم الوهَن[١].

ثم تكلَّم الزبير فامتدح دعوةَ عبد الرحمن بن عوف، وانتقص من الإمارة، وزعم الموتَ خيرًا من الإمارة، وقال: «لولا حدودُ لله فُرضتْ، وفرائضُ لله حُدَّتْ، تُراح[٢] على أهلها، وتحيا لا تموت؛ لكان الموتُ من الإمارة نجاة، والفرارُ من الولاية عصمة، ولكنَّ لله علينا إجابةَ الدعوة، وإظهارَ السُّنة؛ لئلّا نموت مِيتةً عَميَّة، ولا نَعمى عَمى جاهليَّة. فأنا مجيبك إلى ما دعوت، ومُعينك على ما أمرت، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله لي ولكم»[٣].

ثم تكلَّم سعدٌ بن أبي وقاصٍ فوعظهم موعظةً بليغة قال فيها: «الحمد لله بديئًا كان، وآخِرًا يعود، أحمده لِما نجّاني من الضلالة، وبصَّرني من الغواية، فبهُدي الله فاز مَنْ نجا، وبرحمته أفلح من زكا، وبمحمد بن عبدالله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنارت الطرق، واستقامت السُّبل، وظهر كلُّ حق، ومات كل باطل. إياكم أيها النفرُ وقولَ الزور، وأمنيَّة أهل الغرور، فقد سَلَبَتْ الأمانيُّ قومًا قبلكم ورِثوا ما ورِثْتُم، ونالوا ما نِلتم، فاتخذهم الله عدوًّا ولعنهم لعنًا كبيرًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩]. إني نَكبت قَرْني[٤]

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٥.

(٢) تراح على اهلها: أي تُردُّ عليهم، وأهلها هم الأئمة. ويجوز بالعكس، وهو أنَّ الأئمة يردُّونها إلى أهلها انظر تفسير ذلك في: «لسان العرب: روح».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) نَكَبَ كِنانَتَه يَنْكُبُها نَكْبًا: نَثَرَ ما فيها، وقيل: إذا كَبَّها ليُخْرِجَ ما فيها من السِّهام. والقَرَن بالتحريك، جُعبة صغيرة تُقرن الى الكبيرة. والفالج السهم الفائز في النضال، انظر: «لسان العرب نكب».

فأخذتَ سهميَ الفالج، وأخذتُ لطلحة بن عُبيد الله ما ارتضيتُ لنفسي، فأنا به كفيل، وبها أَعطيتُ عنه زعيم، والأمر إليك يا ابن عوف بجُهد النفس، وقَصْدِ النُّصح. وعلى الله قصد السبيل وإليه الرجوع، وأستغفر الله لي ولكم، وأعوذ بالله من مخالفتكم»(١).

ثُمَّـة خَتَم عليُّ بنُ أبي طالبٍ الخُطب فذكر مناقبَ أهل البيت، وعرَّف بحقِّهم في هذا الأمر مستدركًا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعهد إليهم بعهد فيه، ولكنَّه مع ذلك مُسرِعٌ إلى دعوة الحق وصلة الرحم، عسى الله أن يرفُق بأمته فيكونوا جماعةً متآزرين، وقال في ذلك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لو عهِد إلينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهدًا لأنفذنا عهدَه، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت. لن يُسرع أحدٌ قبلي إلى دعوة حقٍّ وصلة رحم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. اسمعوا كلامي وعُوا منطقي عسى أن ترَوْا هذا الأمر من بعد هذا المَجمع تُنتضى فيه السيوف، وتُخانُ فيه العهود، حتى تكونوا جماعةً، ويكونَ بعضُكم أئمةً لأهل الضلالة، وشيعةً لأهل الجهالة، ثم أنشأ يقول:

فـإنْ تـك جـاسـمٌ هلكتْ فإني ... بـما فعلتْ بنو عَبد بـن ضَخْمِ
مـطـيـعٌ في الهـواجـر كـلَّ عِـيٍّ ... بصيرٌ بالنَّوى من كل نَـجْـمِ»(٢)

إنَّا غيرُ معنيين في هذا الموضع من البحث بالتنقيب عن مآلات تلك الشورى، وما اشتملت عليه من الفِعال الحميدة التي تقدَّم إليها عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ فتحمَّلها، فكان نِعْمَ حاملُ الصدق والبِرِّ والهُدى؛ ولكنَّا معنيون بسيرةِ هؤلاء الصحابة الذين يكادون لا يُجمعون على شيءٍ أو يجتمعون إليه، إلا بخطبةٍ أو خُطَب يعرضون فيها القَضيَّة، فيُقلِّبونها، ويبتلون أوجهَها، ليَخْرُجوا منها بالرأي على أمثلِ ما يكون.

(د) خُطَبُ الرِّعايةِ والحَدَب:

لم يقم الحكم في عهد الصحابة إلا على التعاطف والرحمة، وكان الأمير منهم يعقد

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٦.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٦-٢٣٧.

النية من قلبه، بل يُعلن في الملأ أنه لم يُسوَّد على المسلمين ليستعبدَهم ولا ليستذلَّهم، بل هو أجيرٌ مستخدمٌ لدى عباد الله، يحوطهم ويرعاهم ويحفظ أموالَهم ودماءهم وأعراضهم، ويسدُّ ثغورهم، ويتَّجر لهم، ويَلْحَب لهم الطريق.

وما من ريب في أن خطابة الأمراء قد ضربت بسهمٍ وافرٍ في تحقيق هذا المأرب النبيل، أعني إشعار الناسَ أن الولاة إنما يكدحون من أجلهم، ويحرصون عليهم، وقد تجلت هذه الرحمةُ في مجموعةٍ من الصُّوَر، من أبرزها: معذرةُ المنهزمين، واقتسامُ الضرر وقتَ البلاء، والدعاءُ للرعيَّة.

أما معذرة المنهزمين فمن جميل ما يُروى في هذا الغرض خبرُ وقعة القُرْقَس(٣)، وفيها نهى المسلمون أبا عُبَيْدٍ ـ وكان قائد الجيش ـ عن أن يعبر النهر إلى الفُرس، فلجَّ أبو عُبيد وترك الرأي، وقال: لا يكونون أجرأ على الموت منا، بل نعبر إليهم. فاقتتلوا يومًا، حتى إذا أسرعت السيوف في أهل فارس وأُصيب منهم ستةُ آلاف، ولم يبقَ ولم يُنتظر إلا الهزيمةُ، خبط الفيلُ أبا عُبيد وقام عليه، فجال المسلمون جولةً، وركِبهم أهلُ فارس، فبادر رجلٌ من ثقيف إلى الجسر فقطعه، فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم، فتهافتوا إلى الفرات، فأصابوا يومئذٍ من المسلمين أربعة آلاف؛ من بين غريقٍ وقتيل، وهرب من الناس بَشَرٌ كثير على وجوههم، وافتُضحوا في أنفسهم، واستحيَوا مما نزل بهم، وبلغ ذلك عمرَ عن بعض مَنْ أوى إلى المدينة فقال: «عباد الله! اللهم إنَّ كل مسلم في حِلٍّ مني، أنا فئة كل مسلم، يرحم الله أبا عُبيد! لو كانَ عَبَرَ فاعتصم بالخيف، أو تحيَّز إلينا ولم يستقتل؛ لكُنَّا له فئة»(٤).

---

(٣) ويقال لها: القُسّ قَسّ الناطف، ويقال لها: الجسر، ويقال لها: المروحة، انظر: تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٤٥٤.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٥٤-٤٥٥.

ألا إنها الرحمة بقتلى المسلمين، وبالنفوس الكسيرة ممن نجا فأحسَّ بالإثم، يرفع عنها أميرُ المؤمنين الحرج، ويمحو عنها أثرَ الهزيمة المرير، فقد تحيَّزوا إليه فهم ممن استثنى الله تعالى في الآية، وليسوا إذن فُرَّارًا[1]، فلا لومَ يلحقُهم ولا أذى، والأمير مُحِلُّهم وعاذرُهم ولا يرى بهم بأسًا.

وفي رواية الشعبيِّ أنَّ عُمر لما أُخبر بالخبر اشتدَّ ذلك عليه ورحِمَهم، وقال: «اللهم كلُّ مسلمٍ في حِلٍّ مني، أنا فئةُ كل مسلم، مَنْ لقي العدوَّ ففظِع بشيء من أمره فأنا له فئة، يرحم الله أبا عُبيد لو كان انحاز إليَّ لكنتُ له فئة»[2].

إنه الحنان من لدُن الخليفة على من ابتعثهم في الجهاد من الرعيَّة، وهو في الغاية من حُسن السياسة وتدبير الـمُلك، وقد كانت غزوة أبي عُبيد من طلائع ما أرسله عمر من الجيوش إلى تلك النواحي، فما كان ثَمَّة مناصٌ من رأب الصدع، وتسليةِ النفوس الكليمة[3]، وبمثل هذا الخبر نشهد لأبي بكرٍ بصدق حَدَسه، وصواب رأيه في أنه سوف يلين جانب عُمر لعباد الله المؤمنين[4].

---

(١) قال الله عزَّوجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٥٨. قال السَّرَخسيّ شرحًا لهذا الأثر: «ففي هذا بيان أنه لا بأس بالانهزام إذا أتى المسلمين من العدو ما لا يطيقهم. ولا بأس بالصبر أيضًا بخلاف ما يقوله بعض الناس إنه إلقاء النفس في التهلكة...» شرح السِّيَر الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء محمد بن أحمد السرخسي ١/ ١٢٥، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجّد، معهد المخطوطات العربية، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية ١٩٧١م.

(٣) وانظر: أيضًا ما سوف يأتي من رفق عُمر ورحمته في مبحث «الكتب الإخوانية» من هذه الرسالة.

(٤) انظر: مصنف ابن أبي شيبة رقم ٣٢٦٧٦، ومن لين عُمر وحنانه على المسلمين في هذه الوقعة وقعةِ القرقس ما رُوي عن ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن بن الحصين وغيره أن معاذًا القارئ أخا بني النجار كان ممن شهدها ففر يومئذ فكان إذا قرأ هذه الآية: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٦]، بكى، فيقول له عُمر: لا تبكِ يا معاذ، أنا فئتك، وإنما انحزتَ إليّ، انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٥٩.

ومن الخطابة المحمودة، والمآثر المشهودة قيامُ ثلاثةٍ من الصحابة في طاعون عَمْوَاس بثلاث من الخُطب، أميرٍ بعد أمير، يُطْعَن أولُهم فيموت، فيقوم صاحبُه المستخلَفُ بعده بخطبته في الزمنى المضرورين، ليُسلِّيهم ويَشركهم في الوجع والبلوى، ويبذل لهم من النصح ما أوجبه الله عليه.

ثلاث خُطب قصيراتٌ لكن جامعاتٌ مانعاتٌ، موافقاتٌ لعِظَم الضرر، فزدن بقصرهنَّ وقِلَّتهنَّ معنًى على المعنى.

فعن شهر بن حوشب الأشعري، عن رابة ـ رجلٍ من قومه، وكان قد خلف على أمِّه بعد أبيه، وكان شهِد طاعون عَمْواس ـ قال: لما اشتعل الوجع قام أبو عُبيدة في الناس خطيبًا فقال: «أيُّها الناس، إنَّ هذا الوجعَ رحمةٌ بكم، ودعوةُ نبيكم محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وموتُ الصالحين قبلكم. وإنَّ أبا عُبيدة يسأل الله أن يقسِمَ له منه حظَّه»(١)، فطُعن فمات واستُخلف على الناس معاذُ بن جبل.

فقام معاذٌ خطيبًا بعده، فقال: «أيُّها الناس، إن هذا الوجعَ رحمةٌ بكم، ودعوةُ نبيكم، وموتُ الصالحين قبلكم. وإنَّ معاذًا يسأل الله أن يقسم لآل معاذٍ منه حظَّهم»(٢)، فطُعن ابنُه عبدُ الرحمن بن معاذ فمات، ثم قام فدعا به لنفسه فطُعن في راحته، قال الراوي: فلقد رأيتُه ينظر إليها ثم يُقبِّل ظهرَ كفه، ثم يقول: ما أُحِبُّ أنَّ لي بما فيكِ شيئًا من الدنيا. فلما مات استُخلف على الناس عمرُو بن العاص.

فقام عَمرٌو خطيبًا في الناس، فقال: «أيُّها الناس، إن هذا الوجعَ إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجبَّلوا منه في الجبال. فقال أبو واثلة الهُذَليُّ: كذبتَ والله، لقد صحبتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنت شرٌّ من حِماري هذا. قال: والله ما أردُّ عليك ما

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦١.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦٢.

تقول، وايم الله لا نُقيم عليه. ثم خرج وخرج الناسُ فتفرَّقوا، ورفعه الله عنهم. قال: فبلغ ذلك عمرَ ابن الخطاب من رأي عمرو بن العاص فوالله ما كرهه[1].

أرأيت إلى الإمارة كيف تختال بأزهى الحُلل؟ يُصبرٌ الأميرُ القومَ ثم يتمنَّى على الله أن يُصيبَه بها أصابهم، وما أصابهم ما هو بالسهل ولا هو بالهيِّن؛ إنَّ مآله الموت. وهل رأيت العدلَ في أسمى معانيه، والرحمةَ التي كرحمة الأمّ، والشفقةَ التي بلغت من المرء منتهاها؟!

وما صنيعة أبي عُبيدة ومعاذٍ وعمرٍو؛ إلا أمثلةٌ تُحتذى للأمير المسلم كيف ينبغي له أن يفعل حين يتقلَّدُ أمرًا من أمور المسلمين.

وإن شئنا مثالًا آخر شاهدًا على رحمة أئمة الصحابة وعطفِهم على من يَلُون أمرَه، ألفينا ذلك واضحًا كالشمس في رابعة النهار في خُطبةٍ لعمر بن الخطاب عام الرمادة، وهو يستسقي بالعباس عمِّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خُطبةٍ إن هي إلا دعاءٌ خالصٌ ورحمةٌ صادقة، وتضرُّعٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإخباتٌ بين يديه، ورجاءٌ كرجاء المساكين؛ أن يُنزل الله رحماته فيُسقيَهم القطرَ من السماء، عسى الأرضُ أن تهتزّ وتربو، فتبتلَّ العروقُ ويرتفعَ البأس: «أيها الناس، استغفروا ربَّكم إنه كان غفَّارًا، اللهم إني استغفرك وأتوب إليك. اللهم إنا نتقرب إليك بعمِّ نبيِّك وبقيَّة آبائه وكِبار رجاله؛ فإنك تقول وقولُك الحق: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢]، فحفظتَهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيَّك في عَمِّه. اللهم اغفر لنا إنك كنت غفارًا. اللهم أنت الرَّاعي، لا تُهمل الضالَّة، ولا تدعِ الكَسيرة بمَضْيَعة. اللهم قد ضَرَع الصغير[2]، وَرَقَّ الكبير؛ وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرَّ وأخفَى. اللهم أغِثْهم بغِياثك قبل أن يَقْنَطوا فَيَهْلِكوا، فإنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون». فما برحوا حتى علَّقوا الحِذاء، وقَلَّصوا المآزر، وطَفِق الناس بالعبَّاس يقولون: هنيئًا لك يا ساقيَ الحرمين»[3].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦٢.

(٢) ضَرَع: ضعف وتخشَّع وسأل العطاء، لسان العرب: ضرع.

(٣) تاريخ دمشق، لابن عساكر ٢٦/ ٣٦٣-٣٦٤، وانظر: العقد الفريد ٤/ ١٣١-١٣٢.

لقد أدرك الولاة من الصحابة أن الرِّقَّة للمسلمين، واللِّينَ لهم، والألم لألمهم، والجَهْدَ لخدمتهم؛ كلٌّ أولئك لا يُعد نقيصةً تَلحق الأميرَ فتُزري به، أو تنحطُّ برُتبته، بل هي الشرف الأسمى، ونباهةُ الذكر، والحقُّ الذي افترضه الله عَزَّوَجَلَّ عليه.

[٣] خُطَب الجهاد والقِتَال والفِتْنَة

(أ) خُطَبُ الرِّدَّة:

انقدحتْ نار الرِّدَّة قُبيل وفاة النبي ﷺ بيسير، ثم اضطرمت تلك النارُ في أرض العرب في اليوم الذي استُخلف فيه أبو بكر، ولم يثبت على الإسلام وإيتاء الزكاة إلا نَزْرٌ قليلٌ من القبائل مِن سوى أهلِ المدينة؛ فكان المأثور أن يقوم في هؤلاء كبيرٌ منهم حباهم اللهُ به، يأمرهم بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن لا ينزعوا يدًا من طاعة، وأن يبقَوْا على العهد، وأن لا ينكصوا عن الإسلام، ولا يرتدُّوا على أدبارهم فينقلبوا خاسرين؛ وأن يؤدُّوا إلى عُمَّال أبي بكرٍ الصدقةَ كي لا يكونوا من القوم الهالكين.

وعست أقدمُ خُطبةٍ نهض بها في وقت الردَّة عاقلٌ في عشيرته أن تكون خطبةَ سُهَيْل بن عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(1) بمكة، وقد تنبَّأ بها رسول الله ﷺ قبل موته، وهي خُطبةٌ نادرةٌ عجيبة؛ إذ أشبهت خطبة أبي بكرٍ في المدينة ساعتَها، كأنما سمعها فأدَّاها كما سمعها ثم زاد شيئًا فيها؛ فعن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن أبي عمرو بن عديٍّ ابن الحمراء الخُزاعيِّ قال: نظرتُ إلى سُهيل بن عمرٍو يوم جاء

---

(١) هو سُهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري، خطيب قريش، أبو يزيد، وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية، وكلامه ومراجعته للنبي ﷺ في ذلك في الصحيحين وغيرهما، وروي أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل البيت ثم خرج فوضع يده على عضادتي الباب، فقال: ماذا تقولون؟ فقال سهيل ابن عمرو: نقول خيرًا ونظن خيرًا، أخٌ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت. فقال: أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. وذكره ابن إسحاق فيمن أعطاه النبي ﷺ مئةً من الإبل من المؤلفة. وذكر ابن أبي حاتم عن عبد الله بن أحمد عن أبيه عن الشافعي: كان سهيل محمودَ الإسلام من حين أسلم. وروى البيهقي في الدلائل من طريق الحسن بن محمد بن الحنفية قال: قال عمر للنبي ﷺ: دعني أنزع ثنيتي سُهيل فلا يقوم علينا خطيبا. فقال: دعها فلعلها أن تسرَّك يومًا. فلما مات النبي ﷺ قام سهيل بن عمرو، فقال: لهم من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وذكر ابن خالويه أن السِّرّ في قوله: أنزع ثنيتيه، أنه كان أعلم، والأعلم إذا نزعت ثنيتاه لم يستطع الكلام. لم يزل سُهيلٌ مقيمًا بالشام حتى مات في طاعون عَمْواس انظر: الإصابة ٣/ ٢١٢-٢١٤.

نعيُّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى مكة، وقد تقلَّد السيف، فخطبنا بخطبة أبي بكر التي خطب بالمدينة، كأنه سمعها، فقال: «يا أيها الناس، مَنْ كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، وقد نعى الله نبيَّكم إليكم وهو بين أظهركم، ونعاكم إلى أنفسكم، فهو الموت حتى لا يَبقى أحد. ألم تعلموا أن الله، قال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠]. ثم قال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥]. ثم تلا: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨]؛ فاتقوا الله واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وكلمةَ الله تامَّة، وإن الله ناصرٌ مَنْ نَصَرَه، ومُعِزٌّ دينه، وقد جمعكم الله على خيركم».

فلما بلغ عمرَ كلامُ سُهيلٍ بمكة، قال: «أشهد أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به حق. هذا هو المقام الذي عَنَي رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين، قال لي: يقوم مقامًا لا تكرهه»(١).

وعلى غرار هذا ما كان من شُرَحْبيل بن السِّمْط(٢) وابنِه حين طابقت معاويةُ كلُّها على منع الصدقة، وأجمعوا على الردَّة، فقاما يُحذِّرانهم من نُكران الجميل ونكث العهد، وقالا لهم: «والله إن هذا لقبيحٌ بقومٍ أحرار التنقُّل، إن الكرام ليكونون على الشُّبهة فيتكرَّمون أن يتنقلوا منها إلى أوضحَ منها مخافةَ العار، فكيف بالرجوع عن الجميل وعن الحق إلى الباطل والقبيح! اللهم إنا لا نمالئ قومنا على هذا، وإنا لنادمون على مجامعتهم إلى يومنا هذا»(٣).

---

(١) الطبقات الكبير، لابن سعد٦/ ١٢٤.

(٢) هو شرحبيل بن السمط بن الأسود، أبو يزيد. قال البخاري: له صحبة. وفَد على رسول الله ﷺ. قاتل في الردة وغلب الأشعث على الشرق، وكان أبوه قَدِم الشام مع أبي عبيدة وشهد اليرموك. وكان شرحبيل من فرسان أهل القادسية. قال أبو عمر شهد صفين مع معاوية وله بها أثر عظيم. قال يزيد بن عبد ربه: مات سنة أربعين. وقال غيره: سنة اثنتين وأربعين، انظر: الإصابة٣/ ٣٢٩-٣٣٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٣٣٤.

وهمَّتْ قبائل طيِّئٍ أن يرتدُّوا عن دين الإسلام، فوثبَ سيِّدُهم عديُّ بن حاتم(١)، فقال: «يا معشر طيِّئ، إنكم إن أقمتم على دين الإسلام أصبتم الدنيا والآخرة، وإن رجعتم عنه خسرتم الدنيا والآخرة، واستغنى الله عنكم. وعلمتم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد قبض نبيَّكم محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا خليفتُه قد قام بأمره في أمته، فوفِّروا عليه صدقاتكم ولا تمنعوها؛ فإنَّ مَنْعها يمحق المال، ويقرِّب الأجل، وخِفُّوا إلى قتال أهل الرِّدة من أسدٍ وغطَفان وفَزارة؛ فإن الخليفة قد عزم على غزوهم؛ فإنهم أقيالُهم في الجاهلية، وشُجْعانهم في الإسلام، وأنتم اليوم خيرٌ منكم أمس، والسلام»(٢).

وبنحوٍ منها خطب فيهم رئيسُهم الآخرُ زيدُ الخيل بن مهلهل الطائيُّ الصحابيُّ(٣) الذي سمَّاه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدَ الخير(٤).

---

(١) هو أبو طريف عديُّ بن حاتم بن عبد الله بن الطائيُّ، وَلَدُ الجواد المشهور، أسلم في سنة تسع، وقيل: سنة عشر. وكان نصرانيًّا قبل ذلك. وثبت على إسلامه في الردّة، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر، قال الشعبي: عن عديّ: أتيت عمر في أناس من قومي فجعل يفرض للرجل ويعرض عني، فاستقبلتُه فقلت: أتعرفني؟ قال: نعم، آمنتَ إذ كفروا، وعرفتَ إذ أنكروا، ووفَّيت إذ غدروا، وأقبلتَ إذ أدبروا؛ إن أول صدقة بيَّضت وجوه أصحاب رسول الله ﷺ صدقةُ طيِّئ. وقد شهد عديٌّ فتحَ العراق ثم سكن الكوفة، وشهد صفين مع علي. مات بعد الستين وقد أسنّ. قال خليفة: بلغ عشرين ومئة سنة، وقال أبو حاتم السجستاني: بلغ مئة وثمانين، انظر: الإصابة ٤/ ٤٧٠-٤٧١.

(٢) كتاب الردّة، للواقديّ، ص٦٣-٦٤، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري. كذا ذكر المحقق نسبة الكتاب إلى الواقدي، والأرجح أنه منسوب إلى ابن أعثم الكوفيّ، وانظر: تفصيل ذلك في: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، لمحمد شمس عُقاب، ص١٣٧-١٣٨.

(٣) هو زيد الخيل بن مهلهل بن زيد الطائيّ. وفد في سنة تسع، وسمَّاه النبي ﷺ زيدَ الخير. قال أبو عُمر: مات زيدُ الخيل منصرَفه من عند رسول الله ﷺ. وقيل: بل مات في خلافة عمر. قال: وكان شاعرًا خطيبًا شجاعًا كريمًا، يكنى أبا مكنف. وقال المرزباني: اسم أمه قوسة بنت الأثرم كليبة وكان أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم المعدودين وكان جسيما طويلا موصوفا بحسن الجسم وطول. وأنشد له وثيمة في «الردّة»، وهذا إن ثبت يدل على أنه تأخرت وفاته حتى مات النبي ﷺ انظر: الإصابة٢/ ٦٢٢-٦٢٣.

(٤) انظر: خطبته في: كتاب الردّة المنسوب للواقدي، ص٦٣-٦٤.

وبنحوهما خَطَبَ الزِّبرقانُ بنُ بدرٍ(١) في قومه بني تميم، ولكنهم لم يجيبوه كما أجابت طيِّئٌ سَيِّديْها، بل قال له بعضُهم: يا هذا، نحن والله أولى بصدقاتنا من أبي بكر، وقد جمعناها إليك، ودفعناها إليك لتمضي بها إلى محمد، والآن قد مضى لسبيله، فرُدَّ صدقاتنا. فغضب الزبرقانُ بن بدرٍ، وأقسم أن لا يردَّها، ثم قَدِم بها على أبي بكر(٢).

وهنالك في البحرين شَغَبت عبدُ القيس بعد موت النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: لو كان محمدٌ نبيًّا لما مات. ثم لم يلبثوا أن ارتدُّوا. فبلغ ذلك الملكَ الصحابيَّ الصالح الجارودَ ابن المعلَّى(٣)، فبعث فيهم فجمعهم، ثم قام فخطبهم، فقال: «يا معشرَ عبد القيس، إني سائلكم عن أمرٍ فأخبروني به إن علمتموه، ولا تجُيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سلْ عما بدا لك. قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم. قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا، بل نعلمه. قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؛ وأنك سيدُنا وأفضلُنا»، وثبتوا على إسلامهم(٤).

---

(١) هو الزبرقان بن بدر بن امرئ القيس التميميُّ السعديُّ، يقال: كان اسمه الحُصين ولقب الزبرقان لحسن وجهه، وهو من أسماء القمر. وفد على رسول الله ﷺ، وولاه صدقات قومه فأداها في الردة إلى أبي بكر. عاش الزبرقان إلى خلافة معاوية، انظر: الإصابة ٢/ ٥٥٠-٥٥١.

(٢) انظر: كتاب الردّة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنّى بن حارثة الشَّيبانيّ، ص٦٨-٦٩.

(٣) هو الجارود بن المُعلّى، ويقال: ابن عمرو بن المعلى وقيل: الجارود بن العلاء، العبديُّ، أبو المنذر. ولُقب الجارود لأنه غزا بكر بن وائل فاستأصلهم قال الشاعر:

فدُسناهمُ بالخيل من كلِّ جانب ... كما جرَّد الجارودُ بَكْرَ بنَ وائل

وكان سيد عبد القيس. وحكى ابن السكن أن سبب تلقيبه بذلك أن بلاد عبد القيس أجدبت وبقي للجارود بقية من إبله، فتوجه بها إلى بني قديد بن شيبان وهم أخواله، فجربت إبل أخواله فقال الناس جرَّدهم بشرّ، فلقب الجارود، فقال الشاعر: فذكره. وقدم الجارود سنة عشر في وفد عبد القيس الأخير، وسُرَّ النبي ﷺ بإسلامه. وروى الطبراني عن أنس قال: لما قدم الجارود وافدًا على رسول الله ﷺ فرح به وقربه وأدناه. وقال ابن إسحاق: كان حسن الإسلام صليبًا على دينه. قُتل بأرض فارس بعقبة الطين، فصارت يقال لها: عقبة الجارود، وذلك سنة إحدى وعشرين في خلافة عُمر وقيل: قُتل بنَهاوند مع النعمان بن مُقرِّن، وقيل: بقي إلى خلافة عثمان، انظر: الإصابة ١/ ٤٤١-٤٤٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٠٢.

وفي قتال أهل الرِّدّة وقتَ المعمعة يقفُ زيادُ بنُ لبيدٍ[1] في أصحابه المحصورين باليَمَن، فرِحًا بمدَد أبي بكرٍ إيَّاهم؛ فيحرِّضهم، ويقول لهم: «أيُّها الناس، اعلموا أنكم تُقاتلون أهلَ رِدَّةٍ وكُفر، فأظهروا أسلحتكم، واشْحَذوا سيوفكم؛ فإني ناهضٌ إليهم إن شاء الله، وهذا عكرمة بن أبي جهلٍ قد جاءكم مددًا لكم في عسكرٍ لَجِب، فأبشروا بالنصر والظَّفَر»[2].

(ب) خُطَب الجهاد والحرب:

إنْ كان الإسلامُ رأسَ الأمر، فإن ذروة سَنامه الجهاد في سبيل الله، وبالجهاد ماز الله المنافقين من المؤمنين في مواطن كثيرة. ولو تدبَّرنا حياةَ الصحابة وما به تقدَّموا الناس ألفيناها كَرُبَتْ أن تكون كلُّها جهادًا لله تعالى خالصًا لوجهه الكريم، لا يخافون فيه لومةَ لائم.

إنَّ الجهاد لَأرضٌ خصيبةٌ أزهرت فيها الخطابةُ وأورقتْ في فروعها المعاني المختلفةُ الملائمةُ لحشد الناس للنّزالِ والقِراعِ وخوض الحرب. ويمكن تصنيفُ تلك المعاني على ما يلي:

(الندب إلى الجهاد)

يسبق السيرَ إلى الجهاد عادةً الخُطبةُ لندب الناس إليه، كخطبة أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ يندُب الناس إلى فتح الشام: «ألا إنَّ لكل أمر جوامع، فمن بلغها فهي حسبه، ومن عمِل لله كفاه الله، عليكم بالجِدِّ والقصد؛ فإن القصد أبلغ. ألا إنه لا دين لأحدٍ لا إيمان له، ولا أجر لمن لا حِسبة له، ولا عمل لمن لا نية له. ألا وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لَمَا ينبغي للمسلم أن يُحِبَّ أن يُخص به، هي التجارة التي دلَّ الله عليها، ونجَّى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة»[3].

---

(1) هو زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصاري، ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد العقبة وبدرًا، وذكر الواقدي وغيره أنه كان عامل النبي ﷺ على حضرموت، وولاه أبو بكر قتال أهل الردة من كندة، وهو الذي ظهر بالأشعث بن قيس فسيّره إلى أبي بكر، انظر: الإصابة ٢/ ٥٨٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٠٢.

(٣) كتاب الرِّدّة، المنسوب للواقدي، ص٢٠١.

وإنَّا لنرضى من أبي بكرٍ بالمقدمة التي جعلها مهادًا لدعوته إلى الجهاد وتحبيب الناس إليه، فهو جماع الأمر، وحسبُ امرئٍ به. وهو العمل الذي يُعْوِزه الجِدُّ مقترنًا بالحسبة والقصد، فمن استوفاه بِنيَّةٍ حَسَنةٍ كان كذي التجارة أصاب المغنمَ والخُلاصة.

ندبهم الصدِّيق أيضًا إلى عون أبي عُبيدة بالجابية لَمَّا بلغه مقامُ هِرَقلٍ بأنطاكيَة يُعدُّ الجيشَ لحرب المسلمين، فقال بعد إخبارهم: «فرأيتُ أن أُمِدَّ إخوانكم المسلمين بجُندٍ منكم، يَشْدُد الله بكم ظهورهم، ويكبت بهم عدوهم، ويُلقي بهم الرعب فى قلوبهم؛ فانتدبوا رحمكم الله مع هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، واحتسبوا فى ذلك الأجر والخير؛ فإنكم إن نُصرتم فهو الفتح والغنيمة، وإن تَهلِكوا فهي الشهادة والكرامة»[(1)]. فالكرامة إذن هي الأصل في دعوة المجاهدين؛ إما كرامةٌ بعِيشة العِزِّ بعد النصر، وإما كرامةٌ بحياة السعادة بعد الشهادة. وكلتاهما مما يحمده المسلمُ ويسعى ويحفِد إليه.

ومن أمثلة خطبة الندب في خلافة عثمان خطبةُ الوليد بن عُقبة[(2)] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد كتب إليه عثمان يأمره أن يبعث برجلٍ من أهل الكوفة ممَّن تُرضى نَجْدتُه وبأسُه وشجاعتُه وإسلامُه، إلى معاوية بالشام، في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف، فقام الوليد خطيبًا ذاكرًا نصرَ الله وفتحَه على المسلمين، ثم قائلًا: «وقد كتب إليَّ أميرُ المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف، تُمِدُّون إخوانكم من أهل الشأم، فإنهم قد جاشت عليهم الرُّوم؛ وفي ذلك الأجر العظيم، والفضلُ المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سُليمان ابن ربيعة الباهليّ»[(3)].

(1) فتوح الشام، للأزديّ، ص٣٤.
(2) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي، أخو عثمان بن عفان لأمه، أمهما أروى بنت كريز. أسلم الوليد وأخوه عمارة يوم الفتح. نشأ الوليد بعد ذلك في كنف عثمان إلى أن استُخلف فولاه الكوفة بعد عزل سعد بن أبي وقاص واستعظم الناس ذلك، ثم عزله. وكان الوليد شجاعًا شاعرًا جوادًا. قال مصعبٌ الزبيري: وكان من رجال قريش وسراتهم. أقام بالرَّقة الى أن مات. قال خليفة: كانت ولاية الوليد الكوفة سنة خمس وعشرين وكان في سنة ثمان وعشرين. غزا أذربيجان وهو أمير القوم وعزل سنة تسع وعشرين. وقال أبو عروبة الحراني: مات في خلافة معاوية، انظر: الإصابة ٦/ ٦١٤-٦١٧.
(3) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٨.

حتى إذا ما اصطفَّت الصفوف للبأس، وبرز لها الموت، واقترب الوعد الحق، وحدَّثتْ نفوسٌ أصحابَها، وحاول الشيطانُ أخيرَ جُهده؛ وثب إلى المؤمنين خطيبٌ منهم يهوِّن عليهم أمر الدنيا، ويذكِّرهم بوعد الله لعباده الصالحين، وبما أعدَّه الله للمجاهدين في الجنة من النعيم المقيم، والنُّزُل الكريم، والدرجات العالية، مستنفرًا منهم هممَهم لينهضوا إلى أعداء الله الصادِّين عن سبيله، حاثًّا إياهم على الضرب والشدِّ والرمي والصبر، فإنما الصبر مظِنَّةُ النصر.

وربما لا نُغالي لو زعمنا أن الخطابة في هذا الموطن من مواطن الحرب كانت السلاحَ الأمضى، والقِدْحَ المعلَّى، والشَّرَرَ الذي يَشُبُّ الحماسةَ في النفوس المشرئبَّة؛ وكانت الخطابةُ في هذا الموطن أكبرَ عددًا، وأعلى صوتًا، وأجلَّ وأرجى حديثًا، وكان يتعاورُها رجالٌ سمعناهم يخطبون، منهم مَنْ لم نسمعْه يخطبُ قبلُ إلا في هذا الموقف.

فإنه ما إن بويع أبو بكرٍ الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة حتى نادى منادِيه: ليُتَمَّ بعث أسامة، ألا لا يبقينَّ بالمدينة أحدٌ من جُند أسامة إلا خرج إلى عسكره. أما أبو بكرٍ فما انفكَّ يحضُّ الناس على الجهاد في سبيل الله مدَّةَ حياته حتى قبضه الله إليه، وكان مما يقوله في خُطَبه: «ألا وإنَّ في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله كما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخَصَّ به، هي التجارة التي دلَّ الله عليها، ونجَّى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة»[1]. يُشير إلى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف:١٠-١٣].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٩٠.

كما تروي بعض كتب الصحابة خطبةً للخنساء بنت عمرو[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُحرِّض فيها أبناءها على القتال في القادسية، وتُذكِّرهم بما وَعَدَ الله عباده المجاهدين في سبيله، فتقول: «يا بَنيَّ إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجلٍ واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة؛ ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجَّنتُ حسبكم، ولا غبَّرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خيرٌ من الدار الفانية، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرتْ عن ساقها، واضطرمت لظًى على سياقها، وجلَّلت نارًا على أوراقها، فتيمَّموا وَطِيسَها، وجالدوا رئيسَها عند احتدام خَمِيسِها؛ تظفروا بالغُنْم والكرامة في دار الخلد والمقامة»[2].

ومما يروى عن عُمر في تلك البابة من العِظَةِ خطبةٌ قائمةٌ على سؤال مقصودٍ منه استمالةُ القلوب، وبَعْثُ ما سكن من الإيمان في الجوانح، يقول فيها: «أين الطُرَّاء المهاجرون عن موعود الله! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يُورثكُموها؛ فإنه، قال: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣]، والله مُظهرٌ دينَه، ومُعِزٌّ ناصرَه، ومُوَلٍّ أهلَه مواريث الأمم. أين عبادُ الله الصالحون؟!»[3].

---

(١) هي: خنساء بنت عمرو بن الشريد السُّلَميَّة، الشاعرة المشهورة، اسمها تماضر. وقد قدمت على النبي ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم، فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها ويُعجبه شعرها، وكانت تُنشده وهو يقول: «هيه يا خناس» ويومىء بيده، انظر: الإصابة ٧/ ٦١٣.

(٢) الاستيعاب، لابن عبد البر، ص١٨٢٨.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٤٥.

ومنها خطبةٌ لجرير بن عبد الله البَجَليّ[1] قام بها في قومه يوم البُوَيْب يَحْفِزُهم بالدنيا والآخرة؛ بأنَّ لهم من الخُمس رُبعَ خُمسه نفَلًا من أمير المؤمنين -وكان عُمر وعدهم به- ولهم زيادةً على ذلك وخيرًا منه إحدى الحُسنيين، "فلا يكوننَّ أحدٌ أسرعَ إلى هذا العدوِّ، ولا أشدَّ عليه منكم للذي لكم منه، ونيَّةِ ما ترجون؛ فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين: الشهادة والجنة، أو الغنيمة والجنة"[2].

وللمُثنَّى بن حارثة الشيباني[3] -وكان من أمراء أبي بكرٍ- خطبةٌ يهوِّن فيها على الناس حربَ فارس، وكان خبيرًا بهم مجرِّبًا لحربهم، قال فيها: "يا أيها الناس، لا يعظُمنَّ عليكم هذا الوجه؛ فإننا قد تبحْبَحْنا ريفَ فارس، وغلبناهم على خير شِقَّيْ السواد، وشاطرناهم ونِلنا منهم؛ واجترأ مَنْ قِبَلَنا عليهم، ولها إن شاء الله ما بعدها"[4].

وهي طريقةٌ أخرى للحثِّ سوى طريقة الوعظ المنتهَجَة عند كثيرٍ من الصحابة. شَكِيةٌ بها طريقةٌ أخرى لخالد بن الوليد يُطْمِعُ فيها المؤمنين بالسَّلَب والغُنْم، ويُغريهم باللذاذة وطيب العيش، فعل ذلك يوم الوَلَجَة سنة اثنتي عشرة حين قام في الناس خطيبًا، فقال: «ألا

(١) هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك البَجَلي، الصحابي الشهير، يكنى أبا عمرو. اختلف في وقت إسلامه، والصواب أنه كان قبل سنة عشر. وكان جرير جميلًا، قيل: هو يوسف هذه الأمة. وقدَّمه عمر في حروب العراق على جميع بجيلة، وكان لهم أثر عظيم في فتح القادسية. ثم سكن الكوفة وأرسله علي رسولًا إلى معاوية، ثم اعتزل الفريقين وسكن قرقيسيا حتى مات سنة إحدى وقيل أربع وخمسين، انظر: الإصابة ١/ ٤٧٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٦٩.

(٣) هو المُثَنَّى بن حارثة بن سلمة بن الشيباني. قال ابن حبان: له صحبة. وقال عمر بن شبّة: كان المثنى بن حارثة يُغير على السواد فبلغ أبا بكر خبره فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ ثم قدم على أبي بكر فقال: يا خليفة رسول الله ابعثني على قومي فان فيهم إسلامًا أقاتل بهم أهل فارس وأقتل أهل ناحيتي من العدو، ففعل، فقدم المثنى العراق فقاتل وأغار على أهل السواد وفارس، وبعث أخاه مسعودًا الى أبي بكر يسأله المدد فأمدَّه بخالد بن الوليد فكان ذلك ابتداء فتوح العراق. وذُكر أن عُمر كان يسميه مؤمِّر نفسه. وقال أبو عُمر: كان إسلامه وقدومه على النبي ﷺ سنة تسع، ويقال: سنة عشر. وكان شهمًا شجاعًا ميمون النقيبة حسن الرأي، أبلى في حروب العراق بلاء لم يبلغه أحد. ذكر السراج أنه مات سنة أربع عشرة قبل القادسية، انظر: الإصابة ٥/ ٧٦٦.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٤٥.

تَرَوْن إلى الطعام كرفْغ التراب؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاءُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يكن إلا المعاش؛ لكان الرأيُ أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولّيَ الجوع والإقلال مَن تولّاه ممن اثّاقل عما أنتم عليه»[1].

ولا عيبَ في إغراء الجيش بمُتَع الدنيا أحيانًا، فإنَّ فيه نفوسًا توّاقةً إلى الرغَد والراحة بعد العناء والنَّصَب، سوى ما أعدَّه الله لعباده من سابغ الفضل وتمام النعمة في الآخرة، وقد قال الله في كتابه العظيم: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

(استنفار الناس في الموقف)

ذلك، وللصحابة من الطرق طريقٌ أخرى ناجحةٌ قديمةٌ، يستنفرون بها النخوة، ويستفزُّون من خلالها الغِيرة[2]. رائعُ أمثلتهم عليها خُطَبُ كُماة الصحابة في عشائرهم يومَ القادسية، وهم يوقظون فيهم الحَميَّة، ويُوقدون في عروقهم جَمْرَ العصبيَّة، في ساعةٍ لا يصلح لها إلا مثلُ هذا.

في ذلك اليوم الشاقِّ العصيب جَدَّ الجِدُّ برجلين يرومان تكفيرًا عن ذنب لهما قديمٍ عظيمٍ؛ هما طُليحة بنُ خويلدٍ مدَّعي النبوة في أسد، والأشعث بن قيس[3] حامل لواء المنقلبين على عامل أبي بكرٍ في حروب الردَّة. وقد تابا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعاجا إلى دينه، وعَمِلا في الإسلام حُسْنًا.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٥٤.

(٢) مثالها من صنيع العرب خطبة هانئ بن قَبيصة يُحرِّض قومه في الجاهلية يومَ ذي قار: يا معشر بَكْر، هالكٌ معذور، خيرٌ من ناجٍ فرور؛ إن الحذر لا يُنْجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنيَّة ولا الدنيَّة. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثُغَر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آلَ بكر، قاتلوا، فما للمنايا من بُدّ»، الأمالي، لأبي عليٍّ القالي، إسماعيل بن عيذون بن هارون ١/ ١٦٩، دار الكتب المصرية.

(٣) وهما ممن قاما في الردَّة، ثم رجعا وحسُن إسلامهما. والقول في مثليهما أنهما صحابةٌ على أصح الأقوال، انظر: النكت على نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، لابن حجر، بقلم علي حسن عبد الحميد، ص ١٥٠، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١/ ١٤١٣هـ.

أما أحدُهما وهو طُليحة[1]، فقد روى موسى بن طريف أن طُليحة قام في قومه يوم القادسية حين استصرخهم سعدٌ، فقال: «يا عشيرتاه، إنَّ المنوَّه باسمه، الموثوقُ به، وإن هذا لو علم أنَّ أحدًا أحقُّ بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم[2]. ابتدئوهم الشِّدَّة، وأقدِموا عليهم إقدامَ الليوث الحَرِبة؛ فإنما سُمِّيتم أسدًا لتفعلوا فعلَه. شُدُّوا ولا تصدُّوا، وكُرُّوا ولا تفِرُّوا. لله دَرُّ ربيعة، أيَّ فَرِيٍّ يَفْرُون[3]! وأيَّ قِرْنٍ يُغنون! هل يُوصل إلى مواقفهم؟! فأغنُوا عن مواقفكم أعانكم الله، شُدُّوا عليهم باسم الله»[4].

كذا انطلقت خطبةُ طُلَيْحةَ الصادحةُ مِنْ فِيهِ، كالحَرْبة النافذة، تلك خُطْبَةٌ عاليةُ الوتيرة، مُشمخِرَّةٌ، لوَّامةٌ، تحملُ القومَ - إن لم يؤوبوا - إلى مصارعهم، تُشبه في بأسِها، شِدَّةَ الحرب ولأْواءها، وتُضاهي في قسوتها، حِدَّةَ الريح وهَزيمَها. هي إحدى عيونِ خُطب الصحابة ولا غَرْو، ولقد قال: راويها مبيِّنًا أثرَها العظيمَ فيهم: «فَشَدُّوا والله عليهم، فما زالوا يطعنونهم، ويضربونهم حتى حبسْنا الفِيَلَةَ عنهم؛ فأُخِّرتْ، وخرج إلى طُليحة عظيمٌ منهم فبارزه، فما لبَّثه طُليحةُ أنْ قَتَلَه»[5]. لقد تجاوز أثرُ الخطبة لا إلى المخطوبين وحدَهم، بل إلى الخطيب كذلك؛ فكأنَّه غدا جذوةَ نارٍ يقتبس بعضُها من بعضٍ، ويُشعلُ بعضُها بعضا.

---

(١) هو طُليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي الفقعسي، وفد على النبي ﷺ في وفد بني أسد، ثم ارتد بعد ذلك وادعى النبوة، فلقيهم خالد بن الوليد ببزاخة فأوقع بهم، وهرب طليحة إلى الشام، ثم أسلم إسلامًا صحيحًا، وشهد القادسية ونَـهاوند مع المسلمين، وذكر له الواقدي ووثيمة وسيفٌ مواقف عظيمة في الفتوح. قال سيف عن الفضل بن مبشر عن جابر: لقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كما هجمنا عليه من أمانتهم وزُهدهم: طليحة، وعمرو بن معد يكرب، وقيس بن المكشوح. ويقال: إنه استشهد بنَهاوند سنة إحدى وعشرين، انظر: الإصابة ٣/ ٥٤٢.

(٢) يعني عشيرته إذ ناداهم سعد، وذلك أنه لما تكتَّبت الكتائب بعد الطراد حمل أصحابُ الفِيَلة عليهم ففرَّقت بين الكتائب، فابذعرَّت الخيل فكادت بَجيلة أن تُؤكل، فَرَّت عنها خيلُها نفارًا، وعمن كان معهم في مواقفهم، وبقيت الرجَّالة من أهل المواقف، فأرسل سعدٌ إلى بني أسد: ذبِّبوا عن بَجيلة ومن لافَّها من الناس. فخرج طُليحة بن خويلد، وحمَّال بن مالك، وغالب بن عبدالله، والرِّبيل بن عمرو في كتائبهم، فباشروا الفيلة حتى عدَّلها رُكبانها، وإن على كل فيل عشرين رجلًا، انظر: تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٨.

(٣) فلان يَفري الفَرِيَّ، إذا كان يأتي بالعجب في عمله، «لسان العرب: فري».

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٨-٥٣٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك٣/ ٥٣٩.

على منهاج تلك الخطبة، بل على هُدًى منها قام الرجل الآخر الأشعثُ بن قيس[١]، فنادى في قومه ليَغيظهم: «يا معشرَ كِنْدَة، لله دَرُّ بني أَسَدٍ، أيَّ فَرِيٍّ يَفْرُون! وأيَّ هَذٍّ يَهُذُّون عن موقفهم منذ اليوم! أغنى كلُّ قومٍ ما يليهم، وأنتم تنتظرون من يكفيكم البأس؛ أشهد ما أحسنتم أُسوةَ قومكم العربِ منذ اليوم. وإنهم ليُقتَلون ويُقاتَلون، وأنتم جُثاةٌ على الرُّكَب تنظرون»[٢].

وكان أثرُ خطبة الأشعث في المعركة كأثر خطبة طُليحة أو قريبٍ منه، إذ قال له قومُه بعد أن فرغ منها: «عثَّر الله جَدَّك! إنك لتُؤَبِّسُنا[٣] جاهدًا، ونحن أحسنُ الناس موقفًا، فمِن أين خذلْنا قومَنا العربَ وأسأْنا أُسوتَهم؟! فها نحن معك، فنَهَدَ ونـهَدوا، فأزالوا الذي بإزائهم»[٤].

أرأيت إلى التباري في بعث العزيمة واستنهاض الهِمَّة كيف يُجيده قَرْمُ القوم! وكلُّ قَرْمِ قومٍ خبيرٌ بقومه.

وفي الوَقْعةِ نفسِها وقف دُرَيد بن كعب النَّخَعيُّ[٥] في قومه ليضربَ بسهمه في تلك الملحمة الخطابية، وكان لواء النَّخَع معه، فبات يُشجِّعهم على مسابقة العشائر إلى الموت

(١) هو الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكِنْديّ، يكنى أبا محمد. وفد على النبي ﷺ سنة عشرٍ في سبعين راكبًا من كِندة، وهو من ملوكهم، وهو صاحب مِرْباع حضرموت. كان أبدًا أشعث الرأس؛ فسُمي الأشعث. وقال: إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم: شهدتُ جنازةً فيها الأشعث وجرير فقدَّم الأشعث جريرًا وقال: إنه لم يرتد وقد كنت ارتددت. وكان الأشعث قد ارتد فيمن ارتد من الكِنْديين، وأُسر فأُحضر إلى أبي بكر فأسلم فأطلقه وزوَّجه أخته أم فروة في قِصة، ثم شهد الأشعث اليرموك بالشام والقادسية وغيرها بالعراق، وسكن الكوفة، وشهد مع علي صفين، وله معه أخبار. مات بعد قتل علي بأربعين ليلة، وصلى عليه الحَسَن بن علي، وقيل: مات سنة اثنتين وأربعين، وله ثلاث وستون سنة، انظر: الإصابة ١/ ٨٧-٨٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٨-٥٣٩.

(٣) ابَّسَه: صغَّره وحقَّره، «لسان العرب: أبس».

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٩.

(٥) قال ابن حجر: دريد بن كعب النخعي ذكره سيف في الفتوح وأنه كان معه لواء الفتح بالقادسية وقد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمرون إلا الصحابة، انظر: الإصابة ٢/ ٣٨٧.

مرضاةً لله تعالى، وأن لا يخافوا الموت؛ فإنه ليس يَقي من الموتِ إلا الإقبالُ على الموت. فكان يخاطبهم بقوله: «إن المسلمين تهيَّؤوا للمزاحفة، فاسبقوا المسلمين الليلةَ إلى الله والجهاد؛ فإنه لا يَسبق الليلةَ أحدٌ إلا كان ثوابه على قدر سبقه. نافسوهم في الشهادة، وطِيبوا بالموت نفسًا؛ فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة! وإلَّا فالآخرةَ ما أردتُم»[1].

(المقارنة بحال الأعداء)

وربما جَنَحَ الصَّحابيُّ في تلك الساعة إلى مقارنة حال المسلمين بحال أعدائهم إيقاظًا للنحيزة، وإثارةً للحفيظة، كقول القعقاع بن عمرو[2] من خطبةٍ له خاطفةٍ تُذكِّر بأراجيز الحرب: «يا أيُّها الناس، إني قد جئتكم في قومٍ، والله أنْ لو كانوا بمكانكم ثم أحسُّوكم حسدوكم حَظْوَتها، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم؛ فاصنعوا كما أصنع». فتقدَّم ثم نادى: من يبارز؟ فقالوا: فيه بقول أبي بكر: لا يُهزم جيشٌ فيهم مثلُ هذا[3]، وكأن القعقاع يُعيد على مسامع القوم قولَ الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٠٤].

وفي المعنى نفسه وفي اليوم نفسِه خطب الأشعثُ بن قيسٍ في العرب جميعًا: قومِه ومَنْ سواهم، بهذه الخطبة المحرِّضةِ المقابِلة بين الفريقين: «يا معشرَ العرب، إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأَ على الموت، ولا أسخى أنفُسًا عن الدنيا، تنافسوا الأزواج والأولاد، ولا تجزَعوا من القتل؛ فإنه أمانيُّ الكرام، ومنايا الشهداء»، وترجَّل[4].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٦٠.

(٢) هو القعقاع بن عمرو التميميّ، كان من الشُّجعان الفرسان. قيل: إن أبا بكر الصديق كان يقول: لَصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل. وله في قتال الفرس بالقادسية وغيرها بلاء عظيم. قال ابن عساكر: يقال: إن له صحبة، وذكر سيف عن محمد وطلحة أنه كان من أصحاب النبي ﷺ، انظر: الإصابة ٥/ ٤٥٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٤٣.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٦٠.

ومن جياد الخطب في معنى المقارنة بين ما تَرَاهَن عليه المسلمون، وهو دين الله تعالى وشريعتُه، وما تراهَن عليه أعداؤهم وأخطروا له في المعركة، وهو حطامُ الدنيا ومتاعُها الزائف؛ قولُ النعمان بن مقرّن[1] لأصحابه يوم نَهاوَنْد: «... وقد ترونَ مَنْ أنتم بإزائه من عدوكم، وما أخطرتم، وما أخطروا لكم[2]، فأما ما أخطروا لكم فهذه الرِّثَّةُ[3] وما ترون من هذا السواد، وأما ما أخطرتم لهم فدينُكم وبَيْضتكم، ولا سواءٌ ما أخطرتم وما أخطروا؛ فلا يكونُنَّ على دنياهم أحمى منكم على دينكم، واتقى اللهَ عبدٌ صدق الله وأبلى نفسه فأحسن البلاء، فإنكم بين خَيْرين منتظرين: إحدى الحسنيين من بين شهيد حيٍّ مرزوق، أو فتحٍ قريب وظفر يسير»[4].

إننا «لا نغلو إذا قلنا: إن بلدًا من بلدان الفُرس في العراق وإيران، وبلدان الروم في الشام ومصر؛ لم يُفتح إلا بعد أن فتحتْه خُطبة أحد هؤلاء القُوَّاد»[5].

(الحثُّ على الصبر)

وفي الموقف، كانوا يحضُّون الناسَ على الثبات، ويحثُّونهم على الصبر، فإنَّ في الصبر الخيرَ كلَّ الخير، وإنَّ لِمَن الصبر الصمت. ومن خطبهم في هذا المعنى قولُ أبي عُبيدة عامر ابن الجرَّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما برزت الروم للمسلمين في اليرموك: «يا عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فإنَّ وعد الله حق. يا معشرَ المسلمين، اصبروا، فإن الصبر مَنْجاةٌ من الكفر، ومَرْضاةٌ للرب، ومَدْحَضَةٌ للعار؛ فلا تبرحوا مصافَّكم، ولا تَخْطُوا إليهم بخُطوة،

(١) هو النعمان بن مقرّن بن عائذ المُزَنِيّ. كان معه لواء مزينة يوم الفتح، وللنعمان ذكر كثير في فتوح العراق وهو الذي قَدِم بشيرًا على عمر بفتح القادسية، وهو الذي فتح أصبهان، استشهد بنَهاوَنْد سنة إحدى وعشرين انظر: الإصابة ٦/ ٤٥٣.

(٢) الإخطار هنا بمعنى الرهان، مأخوذة من الخطَر، وهو السبق الذي يُترامى عليه في التراهن، «لسان العرب: خطر».

(٣) الرِّثَّة: الخَلَق الخَسيسُ البالي من كل شيء، «لسان العرب: رثث».

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٣١.

(٥) تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، للدكتور شوقي ضيف، ص١٠٨.

ولا تبدؤوهم بقتال. وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدَّرَق[١]، والزموا الصمت إلا من ذكر الله، حتى آمرَكم إن شاء الله»[٢].

فالصبر أعظم حيلةٍ في المعركة وأجداها، وفيه من الفضائل رِضَا الله تعالى، ونفيُ العار الذي يلحق المرءَ بالفرار والانكسار، وتحقيقُ الصبر مرتهَنٌ بطاعة الأمير لدى الصحابة، بأن لا يتقدَّم الرجل بين يديه إلا بأمره. هذا من أدب الدين والشريعة في الإسلام، وسببٌ أصيلٌ من أسباب نصر الله لأولئك القوم المؤمنين.

وفي الصبر الراحة، وهو عادةٌ ـ كما يرى رِبْعِيُّ بن عامر[٣] ـ إذا عَوَّدها الإنسانُ نفسَه اعتاده وتعلَّمَه، يقول ربعيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخاطب الجنود يوم القادسية: «إنَّ الله قد هداكم للإسلام، وجمعكم به، وأراكم الزيادة، وفي الصبر الرَّاحة، فعوِّدوا أنفسَكم الصبر تعتادوه، ولا تُعوِّدوها الجَزَعَ فتعتادوه»[٤].

وفي التحذير من الجَزَع، والثناءِ على الصبر، خَطَبهم ذلك اليوم حنظلةُ بن الربيع[٥] كاتبُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «ترجَّلوا أيها الناس، وافعلوا كما نفعل، ولا تجزعوا مما لا بُدَّ منه؛ فالصبر أنجى من الفزع»[٦].

---

(١) الدَّرق: ضربٌ من التُّرسة منْ جلد، واحدته دَرَقة، لسان العرب: درق.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص٢١٨.

(٣) هو رِبعي بن عامر بن خالد بن عمرو. قال الطبري: كان عُمر أمدَّ به المثنى بن حارثة. وكان من أشراف العرب، وللنجاشي الشاعر فيه مديح. وقد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمِّرون إلا الصحابة، انظر: الإصابة ٢/ ٤٥٤.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٥.

(٥) هو حنظلة بن الربيع، يقال: ابن ربيعة، والأكثر: ابن الربيع بن صيفي، الكاتب الأسيدي التميمي، يكنى أبا ربعي. وهو ابن أخي أكثم بن صيفي حكيم العرب. وحنظلة أحد الذين كتبوا لرسول الله ﷺ ويعرف بالكاتب. شهد القادسية وهو ممن تخلف عن علي في قتال أهل البصرة يوم الجمل. مات حنظلة الكاتب في إمارة معاوية بن أبي سفيان وعقب له، انظر: الإصابة ٢/ ١٣٤.

(٦) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٦٠.

وفي ذلك اليوم الأغرِّ أيضًا وعلى شاكلة هذا المعنى قام القعقاعُ في المؤمنين فبَشَّرهم بالنصر، إن كانوا من الصابرين، وقال: «إنَّ الدَّبْرةَ بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعةً واحملوا، فإن النصر مع الصبر، فآثروا الصبرَ على الجزع»(١).

فالصبر يجلب النصر، وإنما النصر صبرُ ساعة؛ وإنه الفتح الأوَّلُ عند الاستحكام، واليأسُ المصفَّى وبادرةُ الهزيمة في قلوب الكافرين. ولقد بشَّرَ معاذٌ أصحابَه في موقفٍ آخر بنصر الله، وحرَّضهم على الصبر، وتلا عليهم من كتاب الله ما يؤيِّد مقالتَه التي منها: «يا قُرَّاء القرآن، ومستحفظي الكتاب، وأنصار الهدى، وأولياء الحق؛ إنَّ رحمة الله ـ والله ـ لا تُنال، وجَنَّتَه لا تُدخل؛ لأمانيّ...» ، ثم قال: «أنتم إن شاء الله منصورون، فأطيعوا الله ورسولَه، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين ...»(٢).

وكان أبو سفيان بن حرب يَعِظ المؤمنين في المعركة، ويخوِّفهم من أن نجاءهم لن يكون إلا بصدق اللقاء، والصبرِ في المكاره: «إنكم يا معشرَ المسلمين أصبحتم في دار العَجَم، منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين وأمدادِ المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثيرٍ عددُهم، شديدٍ عليكم حَنَقُهم، وقد وتِرتُموهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وبلادهم وأموالهم؛ فلا والله لا يُنجيكم منهم اليوم، وتبلغون رضوان الله؛ إلا بصدق اللقاء، والصبرِ في مواطن المكروه؛ فامتنعوا بسيوفكم، وتقرَّبوا إلى خالقكم، ولْتكن هي الحصونَ التي تلجؤون إليها، وبها تَمتنعون»(٣).

ولكي يكون الجيش على أُهْبته، والمقاتلُ في تمام قُوَّته، كان بعض الأمراء يأمر جنودَه بالإفطار في رمضان، كما فعل المثنَّى بنُ حارثة الشيبانيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم البُوَيب يومَ قام فيهم خطيبًا فقال: «إنكم صُوَّام، والصومُ مَرَقَّةٌ ومَضْعَفَة، وإني أرى من الرأي أن تُفطِروا ثم تَقْوَوا بالطعام على قتال عدوكم»(٤).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٦٣.
(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص٢١٨-٢١٩.
(٣) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٢٠.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٦١.

(الدعوة إلى القتال في حروب عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشيعتِه)[1]

ذلك، وفي حرب عليٍّ لمن خرج عليه أو ناوأه خُطَبٌ في الدعوة إلى القتال، والتحريض عليه، حريٌّ بنا الإلماعُ بها، كإيعاد عبد الله بن عباسٍ أمير البصرة مِن قِبل عليٍّ أهلَ البصرة في خطبته حين تخلَّفوا عن المسير وقد أمرهم به؛ فتهدَّدهم وخوَّفهم فيها أشدَّ الإخافة[2].

وكخُطب أبي الحسن نفسه في تنفير الناس إلى القتال، فإنَّ له غيرَ واحدةٍ فيه، منها خطبتُه يدعوهم إلى مقاتلة معاوية وأعوانه، وذلك بعد قدومه من حرب الخوارج: «أيها الناس، استعدوا للمسير إلى عدوٍّ في جهاده القُربةُ إلى الله، ودَرَكُ الوسيلة عنده، حَيارى في الحق، جُفاةٍ عن الكتاب، نُكبٍ عن الدين، يعمهون في الطغيان، ويعكسون في غمرة الضلال؛ فأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله، وكفى بالله وكيلًا، وكفى بالله نصيرًا»[3].

فلمَّا تباطؤوا عنه واثَّاقلوا وركنوا إلى القعود، عرف منهم الخِذلان، فراح يُبَكِّتهم ويُشنِّع عليهم في سلاسل طويلةٍ من الملامة والمذمَّة، كقالته في خطبته الشهيرة: «عبادَ الله، ما لكم إذا أمرتُكم أن تنفروا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ وبالذُّلِّ والهوان من العِزِّ؟ أَوَكُلما ندبتكم إلى الجهاد دارتْ أعينكم كأنكم من الموت في سَكْرة؟ وكأن قلوبَكم مألوسةٌ[4] فأنتم لا تعقلون؟ وكأن أبصاركم كُمْهٌ فأنتم

---

(١) أفردتُ تلك الحروب بالحديث لما فيها من خصوصية في موضوعات الخطبة تختلف عما مر من خطب الجهاد لدى الصحابة، فهي قد قامتْ بين أقوامٍ ينتسبون إلى الإسلام، ولم تكن ضد مشركين أو كفارٍ معلومي الكفر، كما أن فيها بعض الأغراض الزائدة على تلك التي مرَّت في حروب الصحابة، كتأنيب المعْرضين عن القتال، والحث على الثأر لآل البيت.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٧٨-٧٩.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٠.

(٤) الأَلْس: اختلاط العقل؛ عن أبي عُبَيد، يقال: أُلِسَ فهو مألوس. والمألوس: الضعيف العقل«لسان العرب: ألس».

لا تبصرون؟ لله أنتم! ما أنتم إلا أسودُ الشرى في الدَّعة، وثعالبُ رَوَّاغةٌ حين تُدعَوْن إلى البأس. ما أنتم لِي بثقة سَجيس[1] الليالي. ما أنتم بركب يُصال بكم، ولا ذي عِزٍّ يُعتصم إليه. لَعَمْرُ الله لبئس حُشاش الحرب أنتم، إنكم تُكادون ولا تَكيدون، ويُتنقص أطرافُكم ولا تتحاشون، ولا يُنام عنكم وأنتم في غفلة ساهون، إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل، وبات لذُلٍّ من وَادَع، وغُلب المتجادلون، والمغلوب مقهورٌ مسلوب»، ثم قال: «أما بعد، فإن لي عليكم حقًّا، وإن لكم علي حقًّا؛ فأما حقُّكم عليَّ فالنصيحةُ لكم ما صحبتكم، وتوفيرُ فيئكم عليكم، وتعليمُكم كيما لا تجهلوا، وتأديبكم كي تعلموا. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصح لي في الغيب والمشهد، والإجابةُ حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم؛ فإن يُرد الله بكم خيرًا انتزعتُم عما أكره، وتراجعوا إلى ما أحب؛ تنالوا ما تطلبون، وتُدركوا ما تأملون»[2].

فحقُّ الإمام الفرضُ على الرعيَّة إجابتُه وقت الدعوة، وطاعتُه حين الأمر؛ وإلّا كانوا من العاصين المخالفين عن أمر الله، ولكنَّ أهل العراق لم يَنصُروا الإمامَ كما كان يُحبّ، ولم يقفوا معه في الحرب موقفَه الذي يعرفه من نفسه ولا يعرفه منهم، حتى لقد مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مغمومًا، وفي الحلق غُصَّةٌ، وفي القلب مما يصنعون مرارة.

واختار الحُسين بن عليٍّ لتحضيض الناس على القتال سبيلَ تحقير الدنيا وما انتهتْ إليه حالُ الناس فيها، مِن إنكار المعروف ومعرفة المنكر، حتى صارت أُمنيَّةُ المؤمن حقًّا في هذه الدنيا لقاءَ الله تبارك وتعالى، قال رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن حمِد الله وأثنى عليه: «إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيَّرتْ وتنكَّرت وأدبر معروفها، واستمرَّت جدًّا، فلم

---

(١) السَّجَسُ بالتحريك: مصدَرُ قولِهم: سَجِسَ الماءُ -بكسر الجيم- يَسْجَسُ سَجَسًا: إذا تغيَّر، وقال ابن السِّكِّيت: ماءٌ سَجِسٌ وسَجيسٌ أي كَدِرٌ. ويقال: لا آتيكَ سَجِيسَ الليالي أي أبدًا. وسجيسُها: آخِرُها «لسان العرب: سجس».

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٠.

يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء، وخَسِيسُ عيشٍ كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لا يُعمل به، وأن الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغبْ المؤمن في لقاء الله مُحِقًّا؛ فإني لا أرى الموتَ إلا شهادة، ولا الحياةَ مع الظالمين إلا بَرَما»[١].

ويُقبل عليٌّ على ميمنة جيشه في بعض الوقعات، وقد جالوا جولةً[٢] فكادوا ينهزمون، ولكنهم استدركوا فرجعوا إلى مواقفهم بإزاء مَنْ يُقاتلون؛ فأعتبهم ونصحهم بالصبر داعيًا لهم بالثبات والسكينة، ثم حذَّرهم من الفرار، وخوَّفهم من عاقبته الوخيمة؛ فهو مجلبةٌ للعار، مسخطةٌ للربّ، وفيه الفقر والمذلّة، وإنّ الفرار من الموت لا يزيد عُمُر الإنسان المقدَّرَ له؛ فموت المرء من فوره خيرٌ له من تدنُّسه حيًّا بصفات السوء الذَّميمة، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فالآن فاصبروا، نزلت عليكم السكينة، وثبَّتكم الله عَزَّ وَجَلَّ باليقين، ليعلمْ المنهزمُ أنه مُسْخِطٌ ربَّه، وموبقٌ نفسَه. إن في الفرار مَوْجَدةَ الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، والذلَّ اللازم، والعارَ الباقي، واعتصارَ الفيْء من يده، وفسادَ العيش عليه. وإن الفارَّ منه لا يزيد في عُمره، ولا يُرضِي ربَّه؛ فموتُ المرء مُحِقًّا قبل إتيان هذه الخصال خيرٌ من الرضا بالتأنيس لها، والإقرارِ عليها»[٣].

حتى إذا مات الإمام عليٌّ وقُتل ابنُه الحسين تلاوَمَ بعضُ الشيعة، وتعاهدوا على التفاني والثأر لآل بيت النبيّ، وولَّوا أمرَهم فارسًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفحلًا من فحول الأدب والبيان، هو سُليمان بن صُرَدٍ[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد اجتمع إليه في داره

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٠٣-٤٠٤.

(٢) جال القوم جولة: إذا انكشفوا ثم كرُّوا، «لسان العرب: جلو».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٢٥.

(٤) هو سُليمان بن صُرَد بن الجون الخُزاعيّ، يقال: كان اسمه يسارًا فغيّره النبي ﷺ. وكان خيّرًا فاضلًا، شهد صفين مع علي، ثم كان ممن كاتب الحسين ثم تخلف عنه، ثم قدم هو والمسيب بن نجبة في آخرين فخرجوا في الطلب بدمه وهم أربعة آلاف، فالتقاهم عُبيد الله بن زياد بعين الوردة بعسكر مروان، فقتل سليمان ومن معه، وذلك في سنة خمس وستين في شهر ربيع الآخر، وكان لسليمان يوم قتل ثلاث وتسعون سنة، وكان الذي قتل سليمان يزيد بن الحصين بن نمير رماه بسهم فمات، وحُمل رأسه ورأس المسيب إلى مروان، انظر: الإصابة ٣/ ١٧٢.

مئةُ رجل من فُرسان الشيعة ووجوههم أو يزيدون، فقام فيهم خطيبًا كما الليثُ إذْ يزأر، وقال خطبةً فذَّةً في الندم والتوبة، وإنهاض المقرِّين بالذنب الراغبين إلى الأَوْبة، قال فيها: «أُثني على الله خيرًا، وأحمدُ آلاءَه وبلاءه، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُه، أمَّا بعد، فإني والله لخائفٌ أن لا يكونَ آخرُنا إلى هذا الدهر الذي نَكِدت فيه المعيشةُ، وعظُمت فيه الرزيَّةُ، وشَـمَل فيه الجَورُ أولي الفضل من هذه الشيعة؛ لما هو خير. إنا كنا نَمُدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونُمنِّيهم النصر، ونحثُّهم على القدوم؛ فلما قدموا وَنِينا وعجَزنا، وادَّهنا وتربَّصنا، وانتظرنا ما يكون؛ حتى قُتل فينا وَلَدُ نبيِّنا وسُلالته وعُصارته وبُضعةٌ من لحمه ودمه؛ إذ جعل يستصرخ فلا يُصْرَخ، ويسأل النَّصَف فلا يُعطاه، اتَّخذه الفاسقون غَرَضا للنَّبل، ودَرِيَّة للرماح، حتى أقصدوه، وعَدَوْا عليه فسلبوه.

«ألا انهضوا فقد سَخِط ربُّكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضيًا دون أن تُناجزوا مَنْ قَتَلَه أو تَبيروا. ألا لا تهابوا الموتَ، فوالله ما هابه امرؤٌ قطُّ إلا ذلّ. كونوا كالأُولَى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيُّهم: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجلَ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسَكم، ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم؛ فما فعل القوم؟ جَثَوْا على الرُّكَب والله ومدُّوا الأعناق، ورضُوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا يُنجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ على القتل؛ فكيف بكم لو قد دُعيتم إلى مثل ما دُعي القوم إليه؟! اشحذوا السيوف، ورَكِّبوا الأسنَّة، وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل؛ حتى تُدعوا حين تُدعَوْن، وتُستنفَرون»(١).

وفي كلامهم تعقيبًا على هذه الخطبة ما يَدلُّنا على وقعها الشديد في نفوسهم، كقول خالد بن سعيد بن نُفيل: أمَّا أنا فوالله لو أعلم أن قتلي يُخرجني من ذنبي ويُرضي ربي لقتلتُها، ولكن هذا أُمِرَ به قومٌ كانوا قبلنا، ونُهينا عنه؛ فأُشهد الله ومَنْ حضر من المسلمين أنَّ كلَّ ما

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٥٤.

أصبحتُ أملكه سوى سلاحي الذي أقاتلُ به عدوي صدقةٌ على المسلمين أُقوِّيهم به على قتال القاسطين. وقام أبو المعتمر بن حَنَش فأشهدهم من نفسه على مثل ذلك(١).

فَمِثْلُ تلك الخطبة ومثل صاحبها سُليمانِ بن صُرَدٍ أولى بالباحثين، أن يعوجوا إليه، فيجعلوه نُصْبَ أعينهم وهم يحكمون على أدب ذلك العصر، وأن لا يكونوا عن دراسته من الغافلين(٢).

لقد استجمع سليمانُ مواهبَه، ومعارفَه، ولوعةَ نفسه؛ فصاغ كلَّ ذلك في عبارةٍ مُحْكَمةٍ على توثُّبها، مَتينةٍ على تدفُّقها، لا حشوَ فيها ولا لغوَ ولا خَلَل، تمضي على سَنَنٍ واحدٍ تعرفُ غايتَه، وغايتُه حَمْلُ المخاطَبين على التفاني والاستخفاف بالموتِ، وبيعِ أنفسهم لله رب العالمين. وقد استعدَّ لذلك بما يعلمه من حال القوم إذ خذلوا، ووعدوا فأخلفوا، مُعيدًا إياهم إلى مشهد الحُسين القتيل وهو يستصرخ فلا يُصْرَخ، ويسأل النَّصَف فلا يُنْصَف، وكان قاتِلوه أقلَّ قدرًا، وأدنى شَرَفًا، فاستباحوا حُرْمَته، وجعلوه غرضًا، فسلبوه وسفكوا دمه، وقتَّلوه وأهلَه آلَ بيت النبيِّ الأكرمين تقتيلًا، حتى لم يبقَ منهم إلا نَسَمةٌ أو نَسَمَتان حملوهما مع النساء الكليمات إلى خليفة بني أميَّة. وإنه لمشهدٌ دراميٌّ مؤثِّرٌ أراد الخطيبُ من الإشارة إليه اعتصارَ الحزن اللاعج في القلوب الأسيفة، حتى إذا اطمأنَّ من منطقه إلى بُغيته أنهضَهم واستبسلهم، وهوَّن عليهم القتلَ في نظير الثأر للدَّمِ الطاهر الكريم، ثمَّ ضرب لهم الأمثال من حديث القرآن عن القوم الأوَّلين من بني إسرائيل، وللقرآن فِعْلُ السِّحر إذا يُتلي على أسماع قومٍ تلك حالُهم. غير أن صاحبَنا سُليمان بنَ صُرَدٍ كان يُصرِّف القولَ في خُطبته تصريفًا؛ مرَّةً بالاستفهام، ومرَّةً بالسجع،

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٥٥.

(٢) قال بعض الباحثين: «وبالجملة فقد وصلت الخطابةُ في عصر الخلفاء الراشدين وعصر بني أميَّة إلى أرقى ما وصلت إليه في غيرهما من العصور الإسلامية»، الأسلوب والخطابة، لمحمد لطفي جمعة، ص١٧٥، مراجعة رابح لطفي جمعة، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٩م.

ومرَّة بالجناس، ومرَّةً بالتنبيه بألا، فيذهب بهم مذاهب شتَّى ليحرِّك عواطفَهم؛ فيدفعَهم دفعًا، أو يجذبَهم جذبًا إلى ما يريد، وهم منقادون له، مُنثنيةٌ أعناقُهم إليه. وهو في عمله كلِّه كالرائضِ الماهر، أو الطبيبِ المداوي الذي يعرفُ عِلَّةَ ما في نفوس أصحابِه.

(آداب الحرب، وأصولها)

إنَّ للصحابة نصيبًا في خطابتهم من الكلام على أدب الحرب وأخلاقها، وأصول القتال وحِيَله ومكايده[1]. تحدَّثوا في ذلك فدلُّوا على معرفةٍ دقيقةٍ، وخبرةٍ واسعةٍ، ومِراس طويل. ولِمَ لا يكونون وقد أفنوا سواد العُمر مجاهدين في سبيل الله، ومنهم من كان قبل إسلامه فارسًا لا يُشَقُّ له غبارٌ، مقاتلاً بصيرًا بأفانين القتال والحرب؟!

كان من أدب الحرب عند الصحابة أنهم قد يعهدون إذا أصيبوا، لكيلا ينفرط عِقْدُ الجيش، ولكي يوحوا إلى جنودهم من طَرْفٍ خفيٍّ أنهم لا يهابون الموت، وأنهم من الصفوف في مقدَّمها، وأنهم مُسْتقتِلون أبدًا؛ فإما النصر وإما الشهادة. روَوْا أن النعمان بن مُقَرِّنٍ عبَّى كتائبه بنَهَاوَنْد، ثم خطب الناس، فقال: «إن أُصبتُ فعليكم حُذيفة بن اليمان، وإن أُصيب فعليكم جرير بن عبد الله، وإن أُصيب جرير بن عبد الله فعليكم قيس بن مَكْشُوح»[2].

فهؤلاء أربعةُ نفرٍ يَمدُّون في عُمر الجيش إن أُصيب أحدُهم قام صاحبُه فأتمَّ وأكمل، حتى يقضي الله أمرَه، ولو كنتَ جنديًا في جيش النعمان أيقنت بعد الخطبة أن الأمير عازمٌ على النصر بحول الله وإن كان ثمنُ النصر حياتَه؛ فقوَّى عزمُه عزمَك، وشدَّ أزرَك، وزاد بهمَّته همَّتك، وأيقظ شجاعَتك؛ فصرت وإيَّاه على ديدن الحُسنييْن: النصرِ أو الشهادة.

---

(١) للإفاضة في هذا من الوجهة العسكرية انظر: الفن العسكري الإسلامي: أصوله ومصادره، للعميد الركن الدكتور ياسين سويد، ص٩١-١٢٥، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط١/ ١٤٠٩هـ.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١١٥.

ومن آدابهم في الحرب أنهم يُبيِّنون للجيش ما يَشتبه، ويكشفون عن خاطره ما يلتبس؛ فقد بلغ عليًّا مثلًا أن الناس يقولون: لو سار بنا إلى هذه الحَرُورِيَّة فبدأنا بهم، فإذا فرغنا منهم وجَّهْنا من وَجْهِنا ذلك إلى. فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإنه قد بلغني قولُكم: لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت عليه فبدأنا بهم، فإذا فرغنا منهم وَجَّهْنا إلى المُحِلِّين، وإن غير هذه الخارجة أهمُّ إلينا منهم، فَدَعُوا ذكرَهم، وسِيروا إلى قومٍ يُقاتلونكم كيما يكونوا جبَّارين ملوكًا، ويتخذوا عباد الله خَوَلًا»(١).

ومنها أنهم يُعْلِمون الجيش بميعاد الملاقاة، كما فعل عليٌّ في بعض حروبه لما خطبهم ثم ختم خطبتَه بقوله: «ألا إنكم لاقوا الجيش غدًا، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوةَ القرآن...»(٢).

فصنيعٌ مثلُ هذا مما يَجمع الجيش، ويربط على قلبه، ويؤلِّف كلمتَه، فيكونون على قتال عدوهم سواءً، لا هوانَ فيهم، ولا ضعف بينهم، ولا خور يخترم بأسهم.

أما الخُطط وصَفُّ الجيش وتنظيمُه وتقسيمُه؛ فلرجل كخالد بن الوليد البطلِ الخِنْذِيذِ خطبةٌ يورد فيها طَرَفًا منها؛ فهو ينصحهم أن لا يُقاتلوا قومًا متراصِّين على رايةٍ واحدةٍ وهم على راياتٍ شتَّى، فإنه سيئةٌ لا تنبغي؛ وإن أكبر سببها حبُّ الظهور والإمارة. وإصلاحُها يكون بتعاور الإمارة؛ إذ لابُدَّ من أميرٍ واحدٍ في الوقت، وهو قولُه في معركة اليرموك بعد أن حمِد الله وأثنى عليه: «إنَّ هذا يومٌ من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر أو البغيُ. أَخلصوا جهادكم، وأَريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده. ولا تُقاتلوا قومًا على نظام وتعبيةٍ على تساند وانتشار؛ فإن ذلك لا يَحِلُّ ولا ينبغي. وإنَّ مَنْ وراءَكم لو يعلمُ عِلْمَكم حال بينكم وبين هذا؛ فاعملوا فيما لم تُؤمروا به بالذي تَرَوْنَ أنه الرأيُ من واليكم

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٨٠.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٤.

ومَحَبَّتِه». قالوا: فهات، فما الرأي؟ قال: «إنَّ أبا بكر لم يَبْعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسَر، ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشدُّ على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفعُ للمشركين من أمدادهم. ولقد علمتُ أن الدنيا فَرَّقت بينكم، فاللهَ اللهَ فقد أُفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا يَنتقصُه منه أنْ دَانَ لأحدٍ من أمراء الجنود، ولا يزيده عليه أن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا يَنقصُكم عند الله، ولا عند خليفة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هلمُّوا فإن هؤلاء تَهيَّؤوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردَّهم، وإن هزمونا لم نُفلح بعدها؛ فهلمُّوا فلْنتعاور الإمارةَ، فليكن عليها بعضُنا اليوم والآخرُ غدًا والآخرُ بعدَ غدٍ حتى يتأمَّر كُلُّكم، ودعوني أَلِيكم اليوم»، فأمَّروه، فجعلهم في ستةٍ وثلاثين كُردوسًا في تعبية لم ترَ العربُ مثلَها من قبل(١).

ولعليٍّ خطبةٌ هي رأسٌ في أصول القتال وعَمَلِه، يأمرهم فيها بتسوية الصفوف، ويعلِّمهم مَنْ يكون متقدِّمًا ومَن يكون متأخرًا، وينصحُهم بِعَضِّ الأضراس، ففيه فوائد جزيلة فصَّلها لهم. وأمرهم بخفض الصوت، وتهيئة الرماح وإمالتها، وأن تكون الرماح بأيدي الشجعان خصوصًا منهم، وأن يحتاطوا لأمر راياتهم، فإنها لا تُترك إلا لأهل الحِفاظ والعزيمة، وأمرهم بأن يتكفَّل كلُّ امرئ بصاحبه الذي يُبارزه، لا يتركه لأخيه فيجمع عليه رجلين، فيكون من الملومين، ويلحقه عيب، وإنها لَلفعلة الذميمة المستقبَحة. ونهاهم عن الفرار، وبالغ في التحذير من مَغَبَّته؛ فقال: «إن الله عَزَّوَجَلَّ قد دلَّكم على تجارةٍ تُنْجيكم من عذاب أليم، تشفي بكم على الخير؛ الإيمانُ بالله عَزَّوَجَلَّ وبرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجهادُ في سبيل الله تعالى ذكره. وجعل ثوابه مغفرةَ الذنب، ومساكن طيِّبةً في جنات عدن. ثم أخبرَكم أنه يُحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بُنيان مرصوص؛ فسوُّوا صفوفكم كالبُنيان

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٩٥-٣٩٦، والكردوس كلمة ذات أصل يوناني koortis معناها الكتلة أو الكتيبة، انظر: المدرسة العسكرية الإسلامية، لمحمد فرج، ص٤٤٦، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢. ويُعتقد أن الروم أخذوا هذا التنظيم العسكري عن اليونان، ثم أخذه خالدٌ عن الروم فطوّره وقاتلهم وانتصر عليهم به، الفن العسكري الإسلامي، للدكتور ياسين سويد، ص١٣٦. وكان الكردوس يتألف في عهد خالد من ألف مقاتل على القاعدة العشرية، انظر: الكتاب نفسه، ص١٨٩.

المرصوص، وقدِّموا الدارع، وأخِّروا الحاسر، وعَضُّوا على الأضراس؛ فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتووا في أطراف الرماح؛ فإنه أصون للأسنة، وغُضُّوا الأبصار؛ فإنه أربط للجأش، وأسكنُ للقلوب، وأميتوا الأصوات؛ فإنه أطردُ للفشل، وأَوْلى بالوقار. راياتِكم فلا تُميلوها، ولا تُزيلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شُجعانكم؛ فإن المانع للذِّمار، والصابرَ عند نزول الحقائق، هم أهل الحِفاظ الذين يَحُفُّون براياتهم، ويكنفونها يضربون حفافَيْها[1]: خلفَها وأمامَها، ولا يضعونها. أَجْزَأَ امرؤٌ وَقَذَ[2] قِرْنَه رحمكم الله، وآسى أخاه بنفسه، ولم يَكِلْ قِرْنَهُ إلى أخيه؛ فيكسب بذلك لائمةً، ويأتي به دناءة، وأنَّى لا يكون هذا هكذا، وهذا يقاتل اثنين، وهذا ممسكٌ بيده يُدخل قِرْنَه على أخيه هاربًا منه، أو قائمًا ينظر إليه؛ من يفعل هذا يَمقتْه الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلا تَعرَّضوا لمقت الله سبحانه، فإنما مردُّكم إلى الله، قال الله عزَّ مِنْ قائل لقوم: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الاحزاب:١٦]، وايمُ الله، لئن سلِمتم من سيف العاجلة، لا تسلمون من سيف الآخرة، واستعينوا بالصدق والصبر، فإنَّ بعد الصبر يَنزلُ النصر»[3].

وفي يوم اليرموك أخذ عمرو بن العاص يوصي إخوانَه الغازين في سبيل الله بقوله: «أيها الناس، غُضُّوا أبصاركم، واجثُوا على الركب، وأشرعوا الرماح، والزموا مراكزَكم ومصافَّكم، فإذا حَمَل عليكم عدوُّكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطرافَ الأسنَّة فثِبوا في وجوههم وُثُوبَ الأسد، فوالذي يرضى الصدقَ ويُثيب عليه، ويمقتُ الكذب ويُعاقب عليه، ويجزي بالإحسان؛ لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كَفْرًا كَفْرًا، وقَصْرًا قَصْرًا؛ فلا يَهُولَنَّكم جُموعُهم ولا عددُهم، فلو قد صَدَقتمُوهم الشَّدَّة لقد ابذعَرُّوا ابذعرارَ أولادِ الحَجَل»[4].

---

(١) حفافًا كل شيء: جانباه «لسان العرب: حفف»، وقد فسَّرها عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبته بالأمام والخلف.

(٢) وَقَذَه يَقِذُه وَقْذًا: ضربه حتى استَرْخى وأشرف على الموت، «لسان العرب: وقذ».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦-١٧.

(٤) فتوح الشام، للأزدي، ص٢١٩، وفيه تصحيفٌ شديد. والحَجَل: نوعٌ من الطيور يُقال له: القَبَج، «لسان العرب: حجل».

ويوم أحاط الحجَّاجُ بابن الزبير في المسجد، وذهب عنه عامَّةُ أصحابه إلا بعضَ أهل بيته، قام فيهم يُزجي إليهم بعضَ النصيحة، حاثًّا إياهم على الثبات وصون السلاح؛ فإن السلاح إنما هو الرجلُ في الحرب، وأمرهم بغض الأبصار عما يزحزح القلب، وأن يجعل كلُّ امرئٍ هَمَّه قِرْنَه لا يَلفته عنه شيء: «أما بعدُ، يا آل الزبير، فلا يروعنَّكم وَقْعُ السيوف؛ فإني لم أحضر موطنًا قطُّ إلا ارتُثْت فيه من القتل، وما أجد من أدواءِ جراحُها أشدُّ مما أجد من ألم وقعها. صُونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم أمرًأ كسر سيفه واستبقى نفسه؛ فإن الرجل إذا ذهب سلاحُه فهو كالمرأة أعزل. غُضُّوا أبصاركم عن البارقة. وليَشْغَلْ كلُّ امرىءٍ قِرْنَه. ولا يُلهينَّكم السؤالُ عني. ولا تقولُنَّ: أين عبدالله بن الزبير؟ ألا من كان سائلًا عني فإني في الرَّعيل الأول:

أَبَى لابن سَلْمَى أنَّه غيرُ خالدٍ ... مُلاقي المنايا أيَّ صَرْفٍ تيمَّمَا
فلستُ بِمُبتاعِ الحياة بِسُبَّةٍ ... ولا مُرْتَقٍ من خشية الموت سُلَّمَا»[1]

«لقد وضع عبدُ الله في خطبته القصيرة كلَّ معاني القوة، والاستبسال، والتمسُّك بالنضال الدمويِّ حتى الموت»[2]. ولقد قُتل عبدُ الله في إثر هذه الخطبة حقًّا، ولكنه مات شريفًا، وفارسًا نبيلًا، متقدِّمًا في الرعيل الأول، وصامدًا في مقدِّمة أصحابه، وكأنما قتلتْه خُطبتُه، بل قتلته نفسُه الأبيةُ التي صدحتْ بمثل تلك الخُطبة.

ذلك، وإنَّ من طريف ما يُروى عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطابته ـ وكان أبو الحَسَن فارسًا غِطْريفًا[3] ـ تفصيلَه في ألوان الضربِ في القتال وضَرره، وما يُخلِّفه الضربُ

(١) الطبقات الكبير ٦/ ٥١٧.
(٢) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: كتاب النثر، للدكتور مصطفى الشكعة، ص١٣٢.
(٣) نقل الجاحظ عن أبي الحسن ـ ولعله المدائني ـ قوله: «كان أبو بكر خطيبًا، وكان عمر خطيبًا، وكان عثمان خطيبًا، وكان عليٌّ أخطبَهم»، البيان والتبيين ١/ ٣٥٣، وانظر: نقد النثر في القرنين الرابع والخامس الهجريين، لفاطمة عبد الله الوهيبي، ص٣٦، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط١/ ١٤١١هـ. ولست أتفق مع هذا الرأي، فقد بان للفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطابةٌ عظيمةٌ سَعةً وقدرًا، ولو قُدِّر لأبي بكر أن يعيش فوق ما عاش لرأينا من خطابته عَجَبًا. ولستُ أريد أن أطلق الأحكام مجرّدةً في مثل هذا الأمر الذي لا يمكن ضبطُه بضوابط علمية، وإنما هي أحكامٌ خاضعةٌ للذوق لا غير، فلا نجزم فيها بشيء.

من أنواع العاهات والجراحات والقتل؛ فقد رُوي أنه مرَّ بأهل رايةٍ من خصومه، فرآهم لا يزولون عن موقفهم، فحرَّض عليهم الناس فقال: «إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعنٍ دَرَّاكٍ يُخرج منهم النَّسَم، وضربٍ يُفلَق منه الهام، ويُطيح بالعظام، وتَسقطُ منه المعاصم والأكُفّ، وحتى تُصدع جباهُهم بعُمُد الحديد، وتنتشرَ حواجبُهم على الصدور والأذقان. أين أهلُ الصبر وطُلَّاب الأجر؟!»[1].

وله في طبقات القتال وأسمائه خطبةٌ كان يُعيدها في الموطن بعد الموطن، فقد سمعوا عَليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُحرِّض الناسَ في ثلاثة مواطن: يُحرِّضهم يومَ صِفِّين، ويومَ الجمل، ويومَ النهر، فيقول فيهنَّ كلِّهنّ: «عبادَ الله، اتقوا الله، وغُضُّوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقِلُّوا الكلام، ووطِّنوا أنفسكم على المنازلة، والمجاولة، والمبارزة، والمناضلة، والمجالدة، والمعانقة، والمكادمة، والملازمة. فاثبُتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تُفلحون»[2].

فالمنازلة أن ينزل الفريقان ليتضاربا[3]، والمجاولة: أن يجول بعضهم على بعض، ويطوف بعضهم ببعضٍ بعد النزول[4]، والمبارزة: من بارَزَ القِرْن إذا برز إليه[5]، والمناضلةُ: المباراةُ في الرمي[6]، والمجالدة: الضرب بالسيوف[7]، والمعانقة: أن يأخذ القِرْنَ من عُنُقه[8]، والمكادمةُ: شدَّة القتال مأخوذةٌ من العَضّ[9]، والملازمة: الالتصاق بالعدو، والاشتداد عليه[10].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٥.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١١.
(٣) لسان العرب: نزل.
(٤) لسان العرب: جول.
(٥) لسان العرب: برز.
(٦) لسان العرب: نضل.
(٧) لسان العرب: جلد.
(٨) لسان العرب: عنق.
(٩) لسان العرب: كدم.
(١٠) لسان العرب: لزم.

ألا إن هذه الأسماء ليست من وادي التشدُّق أو التكلُّفِ أو الفيهقة ـ وحاشى أبا الحسن ذلك ـ بل هي من تمام العلم بالشيء، وكمالِ المعرفة به وحُسنِ إتقانه.

(جـ) خُطَب الفتنة والخوارج:

لما قُتل الخليفة الثالث عثمانُ بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بغيًا وعَدْوًا، وبويع لعليّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ نَشِب الخلاف بين قومٍ من الصحابة افترقوا على معسكرين: معسكر فيه طلحةُ والزبير وعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ومَنْ والاهم، ومعسكرٍ فيه عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومَن شايعه. وما هذا بمقامٍ لتمحيص الرواية والأخبار فيما جرى، فإنه حديثٌ ذو شجون، وإنما كافينا فيه الإشارة والتنبيه على الخُطَبِ الواردة عن المعسكرين، وخُطَبِ أولئك الصحب الذين رأوا الفوز والغنيمة في الاعتزال والكفّ.

(التحذير من القتال في الفتنة)

والحق أن بعض الصحابة أحسُّوا الفتنة فجعلوا همَّهم نصيحة المسلمين لوأدها في مهدها، وحذَّروهم من شرِّها، وأبلغوهم أن الخير والصواب والسلامةَ في إخمادها قبل اضطرامها، ففي الأثر أنَّ عليًّا كاتب أبا موسى من الرَّبَذة ـ وكان أبو موسى عاملَه على الكوفة ـ ليستنفر الناس لقتال عائشة ومَنْ معها، فثبَّطَ أبو موسى الناس، وخطبهم فقال: «أيها الناس، إن أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذين صحبوه في المواطن، أعلمُ بالله عَزَّوَجَلَّ وبرسوله ممن لم يصحبه، وإنَّ لكم علينا حقًّا فأنا مؤدِّيه إليكم؛ كان الرأيُ ألّا تَستخِفُّوا بسُلطان الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تجترئوا على الله عَزَّوَجَلَّ، وكان الرأي الثاني أن تأخذوا مَنْ قَدِمَ عليكم من المدينة فتردُّوهم إليها حتى يجتمعوا، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم، ولا تَكلَّفوا الدخولَ في هذا. فأما إذا كان ما كان، فإنها فتنةٌ صَمَّاء، النائم فيها خيرٌ من اليقظان، واليقظان فيها خيرٌ من القاعد، والقاعد خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من الراكب؛ فكونوا جُرثومةً من جراثيم العرب، فأغمدوا السيوف، وأنصلوا الأسنَّة، واقطعوا الأوتار، وآوُوا المظلوم والمضطهد، حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجليَ هذه الفتنة»[1].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٢.

وله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطبةٌ أخرى جليلةٌ في سرد أوصاف الفتنة الخبيثة، علَّمهم أن يعافوها، فيُغمدوا سيوفهم، ويكسروا رماحَهم، ويَلزموا بيوتهم، ويكفُّوا عنها فلا يشهدوها؛ فإنها ثائرة قريش: لها غُنْمُها، وعليها وِزْرُها، وإنها -كما قال- نصيحتُه التي لا غِشَّ فيها: «أيها الناس، أطيعوني تكونوا جرثومةً من جراثيم العرب؛ يأوي إليكم المظلوم، ويأمن فيكم الخائف. إنا أصحابَ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلمُ بما سمعنا، إن الفتنة إذا أقبلتْ شبَّهتْ، وإذا أدبرت بيَّنتْ، وإن هذه الفتنة باقرةٌ كداء البطن، تجري بها الشَّمال والجنوب والصَّبا والدَّبور، فتسكنُ أحيانًا فلا يُدرى من أين نؤتى، تذر الحليمَ كابن أمس. شِيموا سيوفكم، وقصِّدوا رماحكم، وأرسلوا سهامكم، واقطعوا أوتاركم، والزموا بيوتكم. خَلُّوا قريشًا إذا أبَوْا إلا الخروجَ من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالإمْرة؛ تَرْتُقْ فَتْقَها، وتَشْعَبْ صَدْعَها؛ فإن فعلت فلأنفسها سعتْ، وإن أبت فعلى أنفسها جنتْ؛ سمنَها تُهَريق في أديمها. استنصحوني ولا تستغشوني، وأطيعوني يَسلمْ لكم دينُكم ودنياكُم، ويشقى بِحَرِّ هذه الفتنة مَنْ جناها»(١).

(الاحتجاجُ للقتال في الفتنة)

ولم يزل أبو موسى مُلِحًّا مردِّدًا وصاياه في التهويل من شأن القتال في الفتنة، حتى قام إليه ليردَّ عليه صحابيٌّ آخر من أعيان أصحاب عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هو زيد بن صُوحان(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «يا عبد الله بن قيس، رُدَّ الفرات عن دِراجه، اردُدْه من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد، فدعْ عنك ما لست مدركَهُ، ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ [العنكبوت:١-٢]. إلى آخر الآيتين(٣)، سيروا إلى أمير المؤمنين وسيِّد المسلمين، وانفروا إليه أجمعين تُصيبوا الحق»(٤).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٣-٤٨٤.

(٢) هو زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي، أبو سليمان ويقال أبو عائشة. أدرك النبي ﷺ وصَحِبه. وشهد الجمل مع عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر: الإصابة ٢/ ٤٦٤.

(٣) يعني الآيتين الأوليين من سورة «العنكبوت»: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ١-٢).

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٤.

فاحتجَّ على أبي موسى بالقدر، وما حُجَّتُه بالحُجَّة؛ ذلك أنه يَحتجُّ بالقدر قبل وقوعه. وأما آيةُ العنكبوت التي ينتصر بها فالمراد بها الفتنةُ إذا هي وقعت لا قبل وقوعها.

ثم قام القعقاع بن عمرو فسدَّد رأيَ أبي موسى، وتكلَّم في رأي زيد مستندًا إلى أن زيدًا قد ابتُلي في الفتنة، والـمُبتلَى في الفتنة عسيرٌ عليه أن يُنتزع منها؛ عدا أن القعقاع ـ مع رأيه هذا ـ زعم أن القتال مع عليٍّ ضرورةٌ لصلاح الحال وانتظام الإمارة، فقال: «إني لكم ناصحٌ، وعليكم شفيق أُحِبُّ أن ترشُدوا، ولأقولنَّ لكم قولًا هو الحق، أما ما قال الأميرُ فهو الأمر لو أنَّ إليه سبيلًا، وأما ما قال زيدٌ: فزيدٌ في الأمر فلا تستنصحوه، فإنه لا يُنتزع أحدٌ من الفتنة طُعن فيها وجرى إليها، والقولُ الذي هو القول: إنه لا بُدَّ من إمارة تَنْظِم الناس، وتَزَعُ الظالم، وتُعِزُّ المظلوم، وهذا عليٌّ يلي بها ولي، وقد أنصف في الدعاء، وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفروا، وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع»(١).

فلما توافد الجمعان إلى صِفِّين، وتأهبوا للقتال واصطفُّوا؛ راحت كل فِرقة تدفع عن نفسها وتلومُ أختَها، وتذمُّها، وتوجب قتلَها بدعوى درء بغيها وفسادها، فعل ذلك يزيد بن أسد البَجَليُّ(٢)، وهو صحابيٌّ من ثقات معاوية، فقد قام في أهل الشام وعليه قَباءٌ من خَزٍّ، وعِمامةٌ سوداء، آخذًا بقائم سيفه، واضعًا نصلَ سيفه في الأرض متوكّئًا عليه، فحمد الله حمدًا طويلًا، وأثنى عليه ثناءً مزيدًا، ثم قال: «... ثُم كان من قضاء الله أن جمَعنا وأهلَ ديننا في هذه الرُّقعة من الأرض، واللهُ يعلم أني كنت لذلك كارهًا، ولكنهم لم يُبْلعونا ريقَنا، ولم يتركونا نرتاد لأنفسنا، وننظرُ لمَعَادنا؛ حتى نزلوا بين أظهُرنا، وفي حريمنا وبيضتنا. وقد علِمنا أنَّ في القوم أحلامًا وطَغامًا، فلسنا نأمن طغامَهم على ذراريّنا ونسائنا. وقد كنا نحب ألّا نقاتل أهلَ ديننا، فأخرَجُونا حتى صارت الأمورُ إلى أن قاتلناهم كراهية، فإنا لله وإنا

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٤-٤٨٥.

(٢) هو يزيد بن أسد بن كُرْز بضم الكاف وسكون الراء بعدها زاي البَجَلي، جد خالد بن عبد الله القَسْري الأمير، ذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة من الصحابة، وقال: كان ممن وفد على النبي ﷺ، انظر: الإصابة ٦/ ٦٤٧.

إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. أمَا والله الذى بعث محمدًا بالرسالة لَوِدِدْتُ أنى مِتُّ منذ سنة، ولكنَّ الله إذا أراد أمرًا لم يستطع العبادُ رَدَّه. فنستعين بالله العظيم، وأستغفر الله لي ولكم»[1].

وعلى نقيضتها قام عبد الله بن بُديل بن وَرْقاء الخُزاعيُّ[2] ـ وهو صحابيٌّ من أعيان أصحاب عليّ ـ فقال: «إنَّ معاويةَ ادَّعى ما ليس له، ونازع الأمر أهلَه، ونازع هذا الأمر مَنْ ليس مثلَه، وجادل بالباطل ليُدْحِض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، قد زيَّن لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حُبَّ الفتنة، ولَبَّس عليهم الأمر، وزادهم رِجْسًا إلى رجسهم. وأنتم على نور من ربكم وبرهان مبين، فقاتلوا الطغاة الجُفاة ولا تخشَوْهم، فكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب الله عزَّ وجل طاهرًا مبرورًا؟ أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشَوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصرْكم عليهم، ويشفِ صدرو قومٍ مؤمنين. وقد قاتلناهم مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرةً، وهذه ثانية، والله ما هم في هذه بأتقى ولا أزكى ولا أرشد، قوموا إلى عدوكم بارك الله عليكم»[3].

أما عليٌّ فقد لجأ إلى تذكير أصحابه بسيِّئات خصومهم، فكيف يدَّعون إقامة الدين إذن وهم من غير المَرْضيِّين؟ وقد عمد إلى ذكر أسمائهم بما يكرهون تأليبًا للناس عليهم، وهي إحدى خُدع الحربِ، فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبته: «انهدوا إليهم، عليكم السكينة والوقار، وقارُ الإسلام وسيما الصالحين، فوالله لأقرب قوم من الجهل قائدُهم ومُؤْذِنُهم

---

(١) كتاب وقعة صَفِّين، لنصر بن مزاحم المِنْقَريّ، ص٢٤٢، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٣/ ١٤٠١هـ.

(٢) هو عبد الله بن بُديل بن ورقاء الخزاعي، قال الطبري وغيره: أسلم يوم الفتح مع أبيه وشهد حُنينًا والطائف وتبوك. وقال ابن الكلبي: كان هو وأخوه عبد الرحمن رسولي رسول الله ﷺ إلى اليمن، ثم شهدا صفين مع علي، وقُتلا بها. وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزُّهري: ثارت الفتنة ودهاة الناس خمسةٌ: فمن قريش معاوية وعمرو، ومن ثقيف المغيرة، ومن الأنصار قيس بن سعد، ومن المهاجرين عبد الله بن بديل ابن ورقاء، انظر: الإصابة ٤/ ٢١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦.

معاويةُ، وابنُ النابغة، وأبو الأعور السُّلَمي، وابن أبي مُعَيط شاربُ الخمر المجلودُ حدًّا في الإسلام، وهم أولى من يقومون فينقصونني ويجدِبونني[1]، وقبل اليوم ما قاتلوني، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، الحمد لله، قديمًا عاداني الفاسقون، قَعيدُهم الله، ألم يقبحوا، إن هذا لهو الخطب الجليل. إن فُسَّاقًا كانوا غير مرضيِّين، وعلى الإسلام وأهله متخوفين، خدعوا شطرَ هذه الأمة، وأشربوا قلوبهم حُبَّ الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، قد نَصَبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عَزَّوَجَلَّ؛ اللهم فافضُض خَدَمَتهم[2]، وشتِّت كلمتَهم، وأَبسِلْهم[3] بخطاياهم، فإنه لا يَذِلُّ من واليت، ولا يَعِزُّ مَنْ عاديت»[4].

(معتزلو القتال)

على أنه لم يغرق الناس كلُّهم في الفتنة، بل إن منهم من نجى بنفسه فاعتزل، ومنهم من هرب لئلا يُطلب؛ رُوي عن خيثمة بن عبد الرحمن أنه قال: لما خرج عليٌّ إلى صفين استخلف عُقْبَةَ بن عمرٍو أبا مسعود[5] على الكوفة، قال: وقد تخبَّأ رجالٌ لم يخرجوا مع عليّ، فقام على المنبر فقال: «يا أيها الناس! مَنْ كان تخبَّأ فليظهر، فلَعَمْري لئن كان إلى الكثرة، إن أصحابنا لكثير. وما نَعُدُّه فتحًا أن يلتقيَ هذان الخيلان غدًا من المسلمين،

(١) الجدب: المحل والعيب، لسان العرب: جدب.

(٢) وأصل الخَدَمَة سيرٌ غليظٌ كالحلقة يُشدُّ في رُسْغ البعير، ثم يُشَدّ إليها سَرائحُ نَعْلِها «لسان العرب: خدم».

(٣) أبْسَلْت فلانًا إذا أسلمته للهَلَكة فهو مُبْسَل. وقوله تعالى: «أولئك الذين أُبْسِلوا بما كسبوا» قال الحسن: أبْسِلوا: أُسلِموا بجَرائرهم، «لسان العرب: بسل».

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٥.

(٥) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، أبو مسعود البدري، مشهور بكنيته. اتفقوا على أنه شهد العقبة واختلفوا في شهوده بدرًا فقال الأكثر: نزلها فنسب إليها. وجزم البخاري بأنه شهدها واستدل بأحاديث أخرجها في صحيحه في بعضها التصريح بأنه شهدها. وكان من أصحاب علي. واستُخلف مرة على الكوفة. قال خليفة: مات قبل سنة أربعين. وقال المدائني: مات سنة أربعين. قلت: والصحيح أنه مات بعدها فقد ثبت أنه أدرك إمارة المغيرة على الكوفة وذلك بعد سنة أربعين قطعًا،انظر: الإصابة ٤/ ٥٢٤.

فيقتلَ هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، حتى إذا لم يبقَ إلا رِجْرِجَةٌ[1] من هؤلاء وهؤلاء، ظهرتْ إحدى الطائفتين غدًا على الأخرى. ولكن نعده فتحًا أن يأتي الله بأمرٍ من عنده يحقِن دماءهم، ويُصلح به ذاتَ بينهم، ويُصلح به كلمتَهم»[2].

وهي خطبة من عزيز الخطب في مديحة السِّلم وحقن الدماء، فهما في رأي هذا الصحابيِّ الجليلِ الفتحُ الحقُّ المبينُ الذي يرجو أن يأتي الله تعالى به.

(أمرُ الخوارج)

ولما وقع التحكيم في أجله بعد الهَدْأة، وانتصرَ عمرٌو لمعاوية على أبي موسى، بلغ ذلك عليًّا فقام فخطب فقال في خُطبته: «أما بعد، فإن معصيةَ الناصح الشفيق المجرِّب تُورِث الحسرة، وتُعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وهذه الحكومة بأمري، ونَخَلْتُ لكم رأيي، لو يُطاعُ لقصيرٍ رأي! ولكنكم أبَيْتم إلا ما أردتم، فكنتُ وأنتم كما قال أخو هَوازن:

أمـرتُهُـمُ أمْـري بِمُنْعَرَجِ اللِّوَا   فلـم يَسْتبينوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الغَد

ألا إن الرجلين اللذين اخترتموهما حَكَمين قد نبذا حُكم الكتاب وراء ظهورهما، وارتأيا الرأي قِبَل أنفسهما، فأماتا ما أحيا القرآن، وأحييا ما أمات القرآن، ثم اختلفا في حُكْمهما، فكلاهما لا يَرشد ولا يُسدَّد، فبرئ الله منهما ورسولُه وصالح المؤمنين، فاستعدُّوا للجهاد، وتأهَّبوا للسير، وأصبِحوا في معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله»[3]؛ لما خطب ذلك أبي المسيرَ معه إلى الشام طائفةٌ من أهل العراق، ثم خرجوا مغاضبين إلى النهر، زاعمين أنَّ عليًّا لم يغضب لربه، إنما غضب لنفسه، وطلبوا إليه أن يَشهد على نفسه بالكفر، وأن يستقبل التوبة، فإذا هو فعل نظروا فيما بينهم وبينه، وإلَّا فإنهم

---

(١) الرجرجة: بقيَّةُ الماء في الحوض، «لسان العرب: رجج».

(٢) الطبقات الكبير، لابن سعد ٤/ ٣٦٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٧٧.

منابذوه على سواءٍ إن الله لا يُحب الخائنين، وكتبوا إليه بذلك[١]، فتركهم حتى يفرغ لأهل الشام؛ فلم يلبثوا أن عاثوا في الأرض فسادًا، دخلوا قريةً فخرج عبد الله ابن خبَّاب صاحبُ رسول الله ذَعْرًا يجر رداءه.

فقالوا: لم تُرَع! فقال: والله لقد ذَعَرْتموني! قالوا: أأنت عبدُ الله بن خبَّاب صاحبُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: نعم، قالوا: فهل سمعتَ من أبيك حديثًا يحدِّث به عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ذكر فتنةً؛ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركتم ذلك فكن يا عبد الله المقتول ـ قال أيوب: ولا أعلمه إلا قال: ولا تكن يا عبد الله القاتل؟ـ قال: نعم؛ قال: فقدَّموه على ضفة النهر، فضربوا عنقه، فسال دمه كأنه شِراك نعل، وبقروا بطن أمِّ ولده عمَّا في بطنها. وقتلوا ثلاث نسوةٍ من طيِّئ، وقتلوا أمَّ سنان الصَّيداوية. فبلغ عليًّا نبؤهم، فبعث إليهم الحارثَ بن مُرَّة العبديَّ ليأتيهم حتى ينظر فيما بلغه عنهم، فقتلوه؛ فأجمع عليٌّ على المسير إليهم[٢]، فلما وافاهم على النهر وقف عليهم، فقال: «أيتها العصابة التي أخرجتها عداوةُ المِراء واللَّجاجة، وصدَّها عن الحق الهوى، وطمح بها النَّـزَق، وأصبحت في اللَّبْس والخطب العظيم؛ إني نذيرٌ لكم أن تُصبحوا تُلفيكم الأمةُ غدًا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، بغير بيِّنة من ربكم، ولا بُرهان بيِّن. ألم تعلموا أني نَهَيْتُكم عن الحكومة، وأخبرتكم أنَّ طلب القوم إيَّاها منكم دَهْنٌ ومكيدةٌ لكم؟! ونبَّأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأني أَعْرَفُ بهم منكم، عرفتُهم أطفالًا ورجالًا، فهم أهل المكر والغدر؟! وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم؟! فعصيتموني، حتى أقررتُ بأن حكَّمت، فلما فعلتُ شرطتُ واستوثقت، فأخذت على الحَكَمين أن يُحييا ما أحيا

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٧٨.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٨١-٨٢.

القرآن، وأن يُميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حُكم الكتاب والسنة، فنبذنا أمرهما، ونحن على أمرنا الأول، فما الذي بكم؟! ومن أين أُتيتم؟!» قالوا: إنا حَكَّمنا، فلما حَكَّمنا أثِمنا، وكُنَّا بذلك كافرين، وقد تُبنا، فإن تُبْتَ كما تُبْنا فنحن منك ومعك، وإن أَبَيْتَ فاعتزِلْنا فإنا منابذوك على سواءٍ إن الله لا يحب الخائنين.

فقال علي: «أصابكم حاصب، ولابقيَ منكم وابر! أَبَعْدَ إيماني برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهجرتي معه، وجهادي في سبيل الله، أشهد على نفسي بالكفر؟! لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين». ثم انصرف عنهم[(١)].

ذلك مجملُ ما وَرَد في أمر الفتنة المتطاول من الخُطَب، يدلُّ بعضه على بعض.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٨٤.

[٤] خُطَبُ الشُّكر

إنَّ مما تتميَّزُ به خطابةُ الصحابة الحديثَ عن خَصْلة الشُّكر، والدعوةِ إليها، ولعل الفاروقَ عُمَرَ هو حائزُ المجد بكَلْكَلِه في الخطابة لهذه الخَصلة والنداء إليها؛ إذ كانت نِعَمُ الله في عهده تترى وتفيض.

من ذلك خطبته في الشام لمَّا اشترط أهلُ إيلياء قدومَه إليهم، ليكون معطيَهم الأمان هو، فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «يا أهلَ الإسلام، إن الله قد صدَقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وأورثكم البلاد، ومكَّن لكم في الأرض؛ فلا يكُنْ جزاءُ ربكم إلا الشكر. وإياكم والعملَ بالمعاصي؛ فإن العمل بالمعاصي كُفرٌ للنعم، وقلَّما كَفر قومٌ بما أنعم الله عليهم، ثم لم يفزعوا إلى التوبة؛ إلا سُلبوا عزهم، وسُلِّط عليهم عدوُّهم» ثم نزل[1]. فعلَّق ديمومة العزِّ وبقاء النعم على الشكر، والشكرُ لا يكون إلا بعمل الطاعة ونبذ المعصية.

وليس الشكر يُبقي النعم ويُديمُها فحسب؛ بل إنه يزيدُها ويُنْمِّيها، وهو مرضاة رب العالمين لأمة نبيِّه محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذا المعنى أورده عُمر في خطبته قافلًا من رحلته الشآمية إلى المدينة، حين استقبله الناس وطفقوا يهنئونه بالنصر والفتح، فجاء حتى دخل المسجد، فصلَّى ركعتين عند المنبر، ثم صعِده فاجتمع إليه الناس، فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم، قال: «أيها الناس! إن الله قد اصطنع عند هذه الأمة أن يحمدوه ويشكروه، وقد أعزَّ دعوتها، وجمع كلمتها، وأظهر فُلْجها، ونصرَها على الأعداء، وشرَّفها ومكَّن لها في الأرض، وأورثها بلاد المشركين وديارهم وأموالهم؛ فأحدِثُوا لله عَزَّ وَجَلَّ شكرًا يزدكم، واحمَدوه على نعمه عليكم يُدِمْها لكم، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين»، ثم نزل[2].

(١) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٥٦.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٦٦.

وله في الشكر غيرُ خطبةٍ سوى ما سبق، ولكنْ له خطبةٌ في الشكر فريدةٌ نادرةُ المثال ـ وما أكثرَ فرائد عمر ـ يصحُّ لنا أن نُسمِّيَها (خُطبة الشكر)، أتى فيها على ما سَبَقَ وزيادة. بدأ عُمر خطبته بما ختمها به وهو الوجوب؛ فبدأها بوجوب الشكر، وختمها بوجوب الأمر بالشكر، وما بين ذلك تَوْسِعةٌ في الأسباب والدواعي والثمرات. فقد بيَّن أنَّ خَلْقَ الإنسان نفسِه لم يكن بمسألةٍ منه، ثم امتنَّ الله عليه فجعله أكرمَ الخلق، وقد كان قادرًا على جعله أهونَه، وأن يُسخِّره لخلقه، لا أن يسخِّر خلقَه له؛ فاستحقَّ الشكر.

ومن نعمه عَزَّوَجَلَّ أن جَمَعَ نِعَمَ الأمم عامَّتِها وخاصَّتِها فصيَّرها في أمة محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذلك الزمان زمانِ عُمَر، نِعَمٌ يعجز المرءُ عن شكرها إلا مع الإيمان بالله تعالى وبرسوله، وإنَّ الذين يُخالفون أُمَّةَ محمدٍ أُمَّتان اثنتان: أُمَّةٌ مستعبَدةٌ لهم، ناصبةٌ لهم، ذليلة؛ وأُمَّةٌ مرعوبةٌ منهم تنتظر مثلَ ذلك. وأُمَّةُ محمدٍ مع ذلك في بَسْطةٍ وغِنًى ومَنَعةٍ وعافية؛ فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين؟! فحضَّهم على ذِكْر الفضل، وذِكْر ما كانوا فيه من البلاء العظيم قبل إسلامهم؛ فإن ذلك أدعى للشكر، فإنهم لو لم ينلْهم إلا المعرفةُ بالله وحده والثقةُ في الآخرة، لكانوا أحرياء أن يشكروا ربَّهم رجاءَ أن لا يُغيِّر عليهم أو يُبدِّل حالَهم؛ يقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن الله سبحانه وبحمده قد استوجبَ عليكم الشكر، واتَّخذ عليكم الحُجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا، من غير مسألة منكم له، ولا رغبة منكم فيه إليه، فخلَقكم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ولم تكونوا شيئًا لنفسه وعبادته، وكان قادرًا أن يجعلكم لِأهونِ خلقه عليه، فجعل لكم عامَّةَ خلقه، ولم يجعلكم لشيءٍ غيره. وسخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة، وحملكم في البر والبحر، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون. ثم جعل لكم سمعًا وبصرًا.

ومن نِعَم الله عليكم نِعَمٌ عَمَّ بها بني آدم، ومنها نِعَمٌ اختصَّ بها أهلَ دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصُّها وعوامُّها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النعم نعمةٌ وصلت إلى امرئٍ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلِّهم أتعبهم شكرُها، وفَدَحَهم حقُّها؛ إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله، فأنتم مستخلَفون في الأرض، قاهرون لأهلها، قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمةٌ مخالفةٌ لدينكم إلا أمتان: أمةٌ مستعبدة للإسلام وأهله، يتَّجرون لكم، تستصْفون معايشَهم وكدائحَهم ورَشْحَ جباههم، وعليهم المؤونة ولكم المنفعة.

وأمةٌ تنتظر وقائع الله وسَطَواته في كل يومٍ وليلة، قد ملأ الله قلوبهم رعبًا، فليس لهم معقل يلجؤون إليه، ولا مهرب يتَّقون به، قد دهَمتهم جنودُ الله عَزَّوَجَلَّ، ونزلت بساحتهم؛ مع رفاغة[1] العيش، واستفاضة المال، وتتابع البعوث، وسدِّ الثغور بإذن الله، في العافية الجليلة العامة، التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام، والله المحمود، مع الفتوح العظام في كل بلد، فما عسى أن يبلغ مع هذا شُكر الشاكرين، وذِكر الذاكرين، واجتهادُ المجتهدين، مع هذه النعم التي لا يُحصى عددها، ولا يُقْدَر قدرها، ولا يُستطاع أداءُ حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه، فنسأل الله الذي لا إله إلا هو، الذي أبلانا هذا؛ أن يرزقنا العمل بطاعته، والمسارعة إلى مرضاته، فاذكروا ـ عباد الله ـ بلاءَ الله عندكم، واستتمُّوا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم، مَثنى وفُرادى، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قال لموسى: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥]. وقال لمحمد: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٢٦]؛ فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خيرَ الدنيا على شُعبة من الحق تؤمنون بها، وتستريحون إليها، مع المعرفة بالله ودينه، وترجون بها الخير فيما بعد الموت؛ لكان ذلك؛ ولكنكم كنتم

---

(١) الرَّفْغُ والرَّفاغةُ والرَّفاغِيةُ: سَعةُ العَيْش والخِصْبُ والسَّعة، «لسان العرب: رفغ».

أشدَّ الناس معيشةً، وأعظمَ الناس بالله جهالةً، فلو كان هذا الذى ابتلاكم به لم يكن معه حظٌّ فى دنياكم غير أنه ثقةٌ لكم في آخرتكم التي إليها الـمَعادُ والمنقلب، وأنتم من جُهد المعيشة على ما كنتم عليه؛ كنتم أحرياءَ أن تَشِحُّوا على نصيبكم منه، وأن تُظهروه على غيره؛ فَبَلْهَ ما أنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا، وكرامةَ الآخرة، أو لمن شاء أن يجمع له ذلك منكم؛ فأُذكِّركم الله الحائلَ بينكم وبين قلوبكم؛ إلا ما عرفتم حق الله فعملتم له، وقسرتم أنفسكم على طاعته، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفًا لزوالها ولانتقالها، ووَجلًا من تحويلها، فإنه لا شيء أسلب للنعمة من كُفرانها. وإن الشكر أَمْنٌ للغِيَر، ونَماءٌ للنِّعمة، واستجلابٌ للزيادة. وهذا لله عليَّ مِنْ أمركم ونهيِكم واجب»[١].

إن عمر بن الخطاب خطيبٌ مِصْقَع، وهو مع ذلك «خطيبٌ مُلْهَمٌ فيما يقول: سخاءً، ومعنًى، وقوةَ عارضةٍ، ونقاءَ أسلوب»[٢]. وإنَّ مثلَ هذه الخطبة من لدن عُمر لَتدبُّرٌ متمهِّلٌ في الأحوال: أحوالِ أمته وأحوال الأمم، ونظرٌ جميلٌ في تاريخ النِّعم يدعو إلى الشُّكر، وتفلسفٌ غيرُ خافٍ في مسائلِ حيازتها وتنميتها والمحافظة عليها، يُـمِدُّ كلَّ ذلك عُمرُ بنافذٍ من صحيح بصره، وصريحِ عقلِه، وسديدِ فَهمه للإسلام وما يدعو الإسلامُ إليه.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٦-٢١٨.

(٢) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: كتاب النثر، للدكتور مصطفى الشكعة، ص٨٣.

[٥] خُطَبُ الزُّهْدِ والرِّثاء

(أ) خُطَبُ الزُّهد والمَواعِظ:

عَلِم الصحابة أنَّ الدنيا متاعٌ قليل، وأنَّ الدار الآخرة هي الحيوان، وأنَّ الدنيا عَرَضٌ زائل، وأن الآخرة خيرٌ وأبقى، وأنَّ الدنيا تفنى، وأن الآخرة دارُ الخُلد، علموا ذلك فعمِلوا له؛ فأضحت الآخرة نُصْبَ أعينهم فيما يأْتُونَ وما يذرون، وأهانوا الدنيا، فجعلوها تحت أقدامهم، ودَبْرَ آذانهم، ووراء ظهورهم. ولم يكتفوا بأنفسهم بل راحوا يبصِّرون الناسَ ـ كلما عنَّتْ لهم فرصةٌ ـ بحقيقة الدنيا، وأنها هَباء، وأنها لهوٌ ولعبٌ وزينة؛ وفي الآخرة عذابٌ شديد، ومغفرةٌ من الله ورضوان؛ فالسعيد من اتَّعظ بغيره، والكيِّسُ مَنْ أَتْبَعَ نفسَه هواها، وتمنَّى على الله الأمانيّ.

(الاتعاظ بمآلات السابقين)

بكلامٍ من هذا الوادي وعظ أبو بكر الناسَ في خطبةٍ من مَتينِ خُطبه، وأخبرهم أن العمل الذي يدَّخره الله للعبد هو العمل الخالص الذي لا تشوبه شائبةُ إشراك المخلوق فيه، فعلامَ يُضيع الإنسانُ عمله للدنيا الفانية وهو أشدُّ حاجةً إليه يوم القيامة؟ ثم وعظهم بالموت، ناصبًا موعظته على سؤالٍ بـ(أين) يتلوه سؤالٌ بـ(أين) مثلُه عن القوم الغابرين من أصحاب الملذَّات الذين فَنُوا، وفَنِيَتْ ملذَّاتُهم معهم. وقد أراد بهذه الأسئلة أن يستخرج ما في الضمائر من بصيرة، ويبعثَ ما في النفوس من حزنٍ على فوات الأيام، وحرصٍ على ما بقيَ منها. وهي أسئلةٌ تعجُّبيّةٌ بدليل إتْباعه إياها بـ(قد) مقرونةً بالفعل الماضي بعدها في أقواله: «قد تضعضع بهم الدهر»، «قد بعُدوا»، «قد انتهت بهم آجالُهم»؛ فهو يزيح ما تراكَمَ في القلوب من حُبِّ الدنيا بالأسئلة، ثم يُقِرُّ فيها ما شاء من معاني الزهد والأسى والاعتبار بـقد والفعل؛ وهو في كلٍّ البارعُ الماهرُ في إدراج كلمات الله تعالى في ثنايا كلامه إدراجًا يزيد في الخشوع والجلال والحكمة، ويأخذ بألباب السامعين المصيخين، المؤمنين بما يقول.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدما حمد الله وأثنى عليه: «إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهُه؛ فأريدوا الله بأعمالكم. واعلموا أن ما أَخلصتم لله من أعمالكم فطاعةٌ أتيتموها، وحظٌّ ظَفِرتم به، وضرائب أدَّيتموها، وسلفٌ قدَّمتموه من أيام فانيةٍ، لأخرى باقية؛ لحينِ فقركم وحاجتكم.

اعتبروا ـ عبادَ الله ـ بمن مات منكم، وتفكَّروا فيمن كان قبلكم: أين كانوا أمس؟! وأين هم اليوم؟! أين الجبَّارون؟! وأين الذين كان لهم ذكرُ القتال والغلَبة في مواطن الحروب؟! قد تَضَعْضَعَ بهم الدهر، وصاروا رميمًا؛ قد تركت عليهم القالات الخبيثات، وإنما الخبيثاتُ للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، وأين الملوك الذين أثاروا الأرضَ وعمروها؟! قد بَعُدوا، ونُسِيَ ذكرهم، وصاروا كلا شيء! ألا إنَّ الله قد أبقى عليهم التَّبِعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضَوْا والأعمالُ أعمالهم، والدنيا دنيا غيرِهم، وبقينا خَلَفًا بعدهم؛ فإنْ نحن اعتبرنا بهم نجَوْنا؛ وإن اغتررنا كُنَّا مثلَهم. أين الوِضَاءُ[1] الحسنةُ وجوههم، المعجبون بشبابهم؟! صاروا ترابًا، وصار ما فرَّطوا فيه حسرةً عليهم. أين الذين بَنَوْا المدائن، وحصَّنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟! قد تركوها لمن خلفهم؛ فتلك مساكنُهم خاويةً، وهم في ظلمات القبور، هل تُحِسُّ منهم من أحدٍ، أو تسمع لهم رِكْزًا؟! أين مَنْ تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟! قد انتهت بهم آجالُهم، فوَرَدُوا على ما قدَّموا، فحَلُّوا عليه، وأقاموا للشِّقوة والسعادة فيما بعد الموت. ألا إنَّ الله لا شريك لهُ ليس بينه وبين أحدٍ من خلقه سببٌ يُعطيه به خيرًا، ولا يصرف عنه به سوءًا؛ إلا بطاعته واتباعِ أمره. واعلموا أنكم عَبِيدٌ مدينون، وإنَّ ما عنده لا يُدْرَك إلا بطاعته. أَمَا أنه لا خيرَ بخيرٍ بعده النار، ولا شرَّ بشرٍّ بعده الجنة»[2].

---

(١) انظر: «لسان العرب: وضأ»، بهذا الضبط، وفيه أيضًا على مرجوحيَّة: وُضَّاء، بتشديد المعجمة.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٤-٢٢٥.

خطبةٌ من رقائق المواعظ، قد ننسبها ـ إذا عمَّينا على صاحبها ـ إلى قرون متأخِّرة جَنَحَ بعض زُهَّادها إلى الورع والتصوف والقَصِّ؛ أو إلى قرون موغلةٍ في القِدَم مما أَلِفناه عن مواعظ بني إسرائيل(١).

إنَّ سؤالَ أبي بكرٍ بـ(أين) كثيرًا في الخطبة هو سؤالٌ عن المكانة أكبرُ منه سؤالًا عن المكانِ، لمن تأمَّله. وإنَّ من أكبر ما تمتاز به الخطبة أن الصِّدّيق كان يعرف نهايتها التي سوف تؤول إليها مثلما يعرف بدايتها، وأنه أعدَّ لها قبل الشروع فيها، فقد ختمها بما بدأها به ختامًا مقصودًا أراد للمخاطبين أن ينزلوا عليه، وأن يكون هو ثمرةَ الخطبة التي يجتنونها، ذلك الختام هو توحيد الله تعالى ونبذُ الشرك، وتذكير الناس بأن الأعمال في الدنيا ـ كما جاء في أول الخُطبة ـ سَلَفٌ مُقَدَّمٌ، أو دَيْنٌ مُستردٌّ كما جاء في الآخر؛ فردَّ الصدِّيقُ ـ وقد أَحْسَنَ صُنْعًا ـ عَجُزًا على صدر.

وفي الاتعاظ بمآلات السابقين أيضًا خَطَب أبو الدرداء(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدمشق خطبةً ناداهم فيها فقال: «أما بعد، يا أهل دمشق، اسمعوا مَقَالةَ أخٍ لكم ناصح، فما بالُكم تجمعون مالا تأكلون؟! وتبنُون مالا تسكنون؟! وتأمُلون مالا تُدركون؟! وقد كان مَنْ كان قبلكم جمعوا كثيرًا، وبَنَوْا شديدًا، وأمَّلوا بعيدًا، وماتوا قريبًا؛ فأصبحت أعمالُهم بورًا، ومساكنُهم قبورًا، وأملُهم غُرورًا. ألا وإن عادًا وثمود كانوا قد ملؤوا ما بين بُصرى وعَدَن أموالًا وأولادًا ونَعَمًا؛ فمن يشتري منِّي ما تركوا بدرهمين؟!»(٣).

---

(١) يرى أرسطو أن الخوف يستلزم احتفاظ المرء في نفسه ببعض الأمل في النجاة مما يخاف، وأن على الخطيب أن يستفيد من ذلك إذا أراد إثارة الخوف في نفوس سامعيه، فيقول لهم: «إنهم عُرْضةٌ للعذاب؛ لأن مَنْ هم أعظم منهم قد عُذِّبوا، وكذلك نظراؤهم، فأتاهم الأذى من حيث لم يحتسبوا، وبطريقةٍ لم يتوقعوها»، انظر: النقد الأدبي الحديث ، للدكتور محمد غنيمي هلال، ص١٠٢-١٠٣، وأبو بكر قد حصر سبيل النجاة الوحيد في هذه الخطبة في الإخلاص لله وحدَه، وطاعتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(٢) هو عويمر بن عامر بن مالك بن زيد بن قيس، من بلحارث بن الخزرج. وقيل اسم أبي الدرداء: عامر بن مالك وعويمر لقب. كان فقيهًا عاقلًا حكيمًا. آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي. شهد ما بعد أحد من المشاهد. توفي سنة اثنتين وثلاثين بدمشق في خلافة عثمان، انظر: الإصابة ٢/ ٢٥.

(٣) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٥-٢٧٦.

وقد بدأها بسؤال وختمها بآخر، وكأنَ الصحابة حُبِّبَ إليهم الوعظُ بطريقة الأسئلة[1]، للذي وجدوه فيها من إيقاظ الغافل، وتنبيه الخامل، وإشراك المستمع في الذكرى والمراجعة والتفكُّر. أما سؤاله البادئ فسؤالٌ عن أحوالهم هم وما انتهَوْا إليه، وأما سؤاله الخاتِم فسؤالٌ عن حال الأولين وما انتهَوْا إليه، فهل يرضون ـ وهم يفعلون كما يفعل الأولون ـ بأن يكونوا أمثالَهم، أو أن يشتروا مجدَهم الفانيَ ولو بدرهمين؟! إنَّ إجابة القوم القاطعة بُعيد الخطبة أنْ لا بغير شك، وبذا يكون الصحابيُّ أبو الدرداء قد نجح في أداء عمله، فكَرَّهَ الناس في الدنيا حتى إنها لم تعد تُساوي في أنفسهم ثَمَنَ درهمٍ أو درهمين[2].

(التزهيد في الدنيا)

وللصدِّيق خطبةُ موعظةٍ أخرى قد أعدَّ لها أيضًا، ولكن بافتتاحٍ صادمٍ مفاجئ عملت فيه المفارقة عمَلَهَا حينما قال بعد الحمد والثناء: «إنَّ أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك»، وهو بهذه القالة المباغتة يضمن التفاتةَ الناس إليه، وانتباهتَهم لما يقول. قال الراوي: فرفع الناسُ رؤوسَهم. فلمّا فعل الناسُ ذلك انجذابًا لفاتحته الطريفة، لم يُمهلهم أبو بكرٍ حتى قرأ عليهم خطبتَه تامَّةً، وهو يبيِّن لهم كيف يكون الملوك أشقى الناس بالحرص والطمع وحبِّ الدنيا، وبالتسخُّط والقلق والكآبة، وبجفوة القلب وانقطاع الثقة في الخلق؛ ظاهرُهم مُبْرِق، وباطنُهم مُظلم، لا يعرف الناسُ من حقائقهم إلا الصُوَر، حتى إذا ماتوا شدَّدَ الله عليهم فحاسَبَهم حسابًا عسيرًا، وهو قوله بعد أن

---

(١) عن أبي الدرداء أيضًا ـ في الدلالة على ميلهم إلى هذه الطريقة ـ أنه سألهم وقد أطال السؤال، وفصَّله؛ ليُشوِّقهم، ويجذبَ نفوسَهم: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، أو خيرٍ من إعطاء الذهب والفضة، وخيرٍ لكم من قتال عدوكم، وخيرٍ لكم من أن يَضرب أحدُكم بسيفه حتى ينقطع؟ قالوا: بلى. قال: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ»، كتاب الزهد، لعبد الله بن المبارك المَرْوَزي، ص٣٩٨، تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) سُئلت أمُّ الدرداء: ما كان أفضل عَمَل أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار، انظر: الزهد، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني ٢/ ٥٦، تحقيق الدكتور محمد جلال شرف، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية ١٩٨٤م.

رفع القوم رؤوسَهم إليه: «ما لكم يا معشرَ الناس! إنكم لطعَّانون عَجِلون، إنَّ المِلك إذا مَلَكَ زهَّده الله فيما في يده، ورغَّبه فيما في يَدَيْ غيره، وانتقصه شطرَ أجله، وأشرب قلبَه الإشفاق؛ فهو يَحسُد على القليل، ويتسخَّط الكثير، ويسأم الرخاء، وتنقطع عنه لذَّةُ البهاء، لا يستعمل العِبْرة، ولا يسكن إلى الثقة. فهو كالدرهم القَسِّيّ[1]، والسراب الخادع، جَذْلُ الظاهر، حزين الباطن، فإذا وَجَبَتْ نفسُه، ونَضَبَ عُمره، وضحا ظِلُّه؛ حاسَبَه الله فأشدَّ حسابَه، وأقلَّ عَفْوَه...»[2].

فهذا الذي سلف كلُّه إنما هو صَدْرُ الخُطبة، وقد رامَ منه أبو بكر تطهيرَ ما في النفوس من شُبهة الإنكار بالجواب السديد الوافي القاطع، ثُمَّةَ مَلأها بما أراد من النصيحة والصِّفَة بقوله بعد استتمام الغرض: «ألا إن الفقراء هم المرحومون...»[3]، فهذه الخلاصة هي غاية مراده من الفاتحة المجوَّدة الطويلة، وقد صاغها صياغةً جزلةً قصيرةً مُحْكَمةً، كيما يضارعَ بقوَّتها احتشادَ تلك المقدِّمةِ الطويلة الـمُمتدَّة، ولكي تكونَ حُسْنَ إجابةٍ عن طويل شوق الناس إلى معرفة مبتغى أبي بكر؛ فَرَصَفَ الجملة القصيرةَ بالتنبيه في أولها بألا، والتوكيدِ في حشوها بإنَّ، والفصل بالضمير (هم) بين المسند والمسند إليه فصلًا يزيد توكيد النسبةِ توكيدًا، وبالقصرِ في الفقراء بالتقديم، وباليقينِ في اسميَّة «المرحومين»؛ كل أولئك بإيجازٍ قاطعٍ قويٍّ، عاملٍ بالذي يحلو للخطيب أن يعملَه في الخطبة أو يقولَه.

إنَّ مما يُناسب ذكره في هذا المقام، كلمةً لأنس بن مالك يشرح بها طريقةً من طرق أبي بكر في الموعظة بالخطبة، هي قولُه: «كان أبو بكرٍ يخطبنا فيذكر بَدْءَ خلق الإنسان، فيقول: خُلِق من مجرى البول من نَتَن، فيذكر حتى يتقذَّرَ أحدُنا نفسَه»[4].

---

(١) الدرهم القسيّ: بتشديد السين وتخفيفها: الرديء «لسان العرب: قسس».

(٢) عيون الأخبار ٥/ ٢٣٣، والبيان والتبيين، للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر ٢/ ٤٣-٤٤، بتحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٧/ ١٨/ ١٤١٨هـ.

(٣) عيون الأخبار ٥/ ٢٣٣، والبيان والتبيين ٢/ ٤٤.

(٤) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة رقم ٣٥٥٧٧.

ومع أنني لم أقعْ لأبي بكرٍ على موعظةٍ له لازّةٍ بهذا المعنى؛ إلا أنَّ ما مضى من عظاته منظومٌ على نحوٍ من هذا النَّمط.

ولعثمان بعدَما بايعه أهلُ الشورى خطبةٌ تامَّةٌ في التحذير من الدنيا، واغتنام ما تبقَّى من العمر، وفيها شَبهٌ من خطبة أبي بكر، خطبةِ الاعتبار بالأسئلة، يَسَّاءل فيه كصاحبه عن الأمم الخالين: أين هم الآن؟ وماذ فعلت بهم الدنيا؟ يقول فيها: «إنكم في دار قُلْعَة[1]، وفي بقيَّة أعمار، فبادروا آجالَكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أُتيتم، صُبِّحتم أو مُسِّيتم! ألا وإنَّ الدنيا طُويت على الغرور، فلا تغرنَّكم الحياةُ الدنيا، ولا يغرنَّكم بالله الغَرور. اعتبروا بمن مضى، ثم جِدُّوا، ولا تغفَلوا فإنه لا يُغفل عنكم. أين أبناءُ الدنيا وإخوانُها الذين آثروها وعَمَروها ومُتِّعوا بها طويلًا؟! ألم تلفظهم؟! ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضَرب لها مثلًا وللذي هو خيرٌ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ [الكهف:٤٥-٤٦][2].

ولم يكن عُمر كأبي بكر رجلًا كثير المواعظ، كلا، بل كان حازمًا قويًّا في دين الله، لا يقبل إلا العدلَ والاستواءَ في الأمر، على أنه قد يُدخل في كلامه شيئًا من الموعظة، من مثل قوله في فاتحة بعض خُطَبه: «أيها الناس! إنَّ بعض الطمع فقر، وإنَّ بعض اليأس غنًى، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وأنتم مؤجَّلون في دار غرور»[3].

لا يزيدُ على هذا.

---

(١) دارُ قُلْعة: أي:انقلاع، «لسان العرب: قلع».

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٥.

(المقارنة بين حالي الدنيا والآخرة)

وللصحابة سبيلٌ أخرى في الموعظة يعمدون فيه إلى المقارنة بين حالي الدنيا الهيِّنة الضئيلة، والآخرةِ وما يكون من الخُلد فيها، إما في نعيمٍ وسعادة، وإمَّا في عذابٍ وشِقوة؛ مثلُ خطبة عُبادة بن الصامت[1] التي خطبها في أهل حِمْصٍ، فقال فيها: «ألا إنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البَرُّ والفاجر، ألا وإن الآخرة وعدٌ صادق، يقضي فيها ملكٌ قادر. ألا وإنكم معروضون على أعمالكم، فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يرَه، ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يَرَه. ألا وإنَّ للدنيا بنين، وللآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ كلَّ أمٍّ يتبعُها بنوها يوم القيامة»[2].

ولشدَّاد بن أوسٍ[3] مقارنةٌ أخرى مُحكمةٌ، مَبْنيَّةٌ على المقابلة المستمرَّة بين الجنة والنار، على جُملتين جُملتين يفصل بين كلٍّ منهما بألا المنبِّهة؛ بناءً مَنْطقيًّا مُنظَّمًا، ذا ترتيبٍ صاعدٍ ينتهي إلى قرارٍ مخطَّطٍ له. وهذه الخطبة كانت بأمر أمير المؤمنين عُمر إذ بلغه هلاكُ الناس بطاعون عَمْوَاس، فقال: قُم يا شدَّاد فعِظِ الناس.

قال الراوي: وكان شدَّاد مفوَّهًا قد أُعطي لسانًا وحكمة وفضلًا وبيانًا، فقام شدَّاد فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال: «أما بعد أيها الناس، راجعوا كتابَ الله وإن تركه كثيرٌ من الناس، فإنكم لم ترَوا من الخير إلا أسبابَه، ولا من الشر إلا أسبابَه. وإن الله جَمَعَ الخير كله بحذافيره، فجعله فى الجنة، وجمع الشر بحذافيره، فجعله فى النار. وإن

(١) عُبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد. كان أحد النقباء بالعقبة، وشهد المشاهد كلَّها بعد بدر. وشهد فتح مصر وكان أمير ربع المدد. وروى عن النبي ﷺ كثيرًا. وهو أول من ولي قضاء فلسطين. كان طُوالًا جميلًا جسيمًا. مات بالرملة سنة أربع وثلاثين، وقيل: ببيت المقدس، انظر: الإصابة ٣/ ٦٢٦.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٤-٢٧٥، والطبقات الكبير، لابن سعد ٥/ ٣٢٤، وقد نسبها فيه إلى شدَّاد بن أوس.

(٣) هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي ابن أخي حسان بن ثابت. قال البخاري: يقال: شهد شداد بدرًا ولم يصح. وكانت له عبادة واجتهاد في العمل. سكن حمص، ومات بفلسطين سنة ثمان وخمسين وهو ابن خمس وسبعين، انظر: الإصابة ٣/ ٣٢١.

الجنة وَعْرَةٌ حَزْنَة. ألا وإن النار سهلةٌ ليّنة. ألا وإن الجنة حُفَّتْ بالكُره والصَّبر، ألا وإن النار حُفَّت بالهوى والشهوة، ألا فمن كَشَفَ حجاب الكره والصبر أشفى على الجنة، ومَنْ أشفى على الجنة كان من أهلها، ألا ومَنْ كَشَفَ حجاب الهوى والشهوة أشفى على النار، وكان من أهلها؛ فاعملوا بالحق تنـزلوا منازل أهل الحق، يوم لا يُقضى إلا بالحق»[1].

كما خطب سُليمان بن صُرَدٍ خُطبةً عارَضَ فيها حالَ تاجر الدنيا على حال تاجر الآخرة، وبَذْلَ كل امرئٍ منهما في سبيل الكدْح لتجارته، ثم دعاهم إلى إفراغ الجُهد في أعمال الآخرة، ضاربًا لهم الأمثالَ منها، يقول فيها: «أما بعد أيها الناس، فإن الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون. وإن للدنيا تُجّارًا، وللآخرة تُجّارًا، فأما تاجر الآخرة فساعٍ إليها، مُنتصِبٌ بتَطْلابها، لا يَشتري بها ثمنًا، لا يُرى إلا قائمًا وقاعدًا، وراكعًا وساجدًا، لا يَطلب ذهبًا ولا فضة، ولا دنيا ولا لذَّة، وأما تاجر الدنيا فمُكِبٌّ عليها، راتعٌ فيها، لا يبتغي بها بدلًا؛ فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله كثيرًا على كل حال، وتقرَّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قَدَرْتم عليه ...»[2].

وكانت أولُ خطبة لعُتبة بن غَزْوان[3] بالبصرة خطبةَ ذكرى وتذكير، تلا عليهم فيها أنَّ الدنيا ما بقِيَ منها أقلُّ مما ذَهَب، وأن الآخرة هي دارُ القرار، ثم أحضر من أهوال النار، ومن سَعة نعيم الجنة ما يستحثُّ الإنسان على المراجعة في أمره، ثم قصَّ عليهم

(١) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢٤.

(٣) هو: عُتبة بن غَزْوان ـ بفتح المعجمة وسكون الزاي ـ بن جابر بن وهب المازني، حليف بني عبد شمس أوبني نوفل. من السابقين الأولين. هاجر إلى الحبشة، ثم رجع مهاجرًا إلى المدينة رفيقًا للمقداد. شهد بدرًا وما بعدها. ولاه عُمر في الفتوح فاختطَّ البصرة، وفتح فتوحًا. وكان طويلًا جميلًا. وفي مسلم من حديثه لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر. قال ابن سعد وغيره: قدم على عُمر يستعفيه من الإمرة فأبى، فرجع في الطريق بمعدن بني سليم سنة سبع عشرة وقيل سنة عشرين وقيل: قبل ذلك وعاش سبعًا وخمسين سنة ودعا الله فمات ـ رحمه الله ورضي عنه ـ، انظر: الإصابة ٤/ ٤٣٨.

حالَه وهو سابع سبعةٍ مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أنهكهم الجوع، وبلغ بهم الفقرُ مَبْلَغَه، حتى فتح الله عليهم الدنيا فغدا كلُّ رجل من السبعة أميرَ مصرٍ من الأمصار، فقال ـ رحمه الله ورضي عنه ـ: «إنَّ الدنيا قد تصرَّمت وولَّت حذَّاء، ولم يبقَ منها إلا صُبابةٌ كصُبابة الإناء. ألا وإنكم منتقلون منها إلى دار القرار، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. وقد ذُكر لي: لو أن صخرةً أُلقيت من شفير جهنم هوت سبعين خريفًا، ولَتملؤنَّه؛ أوَعجبتم؟! ولقد ذُكر لي أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرةُ أربعين عامًا، ولَيأتينَّ عليه يومٌ وهو كَظيظ بزحام! ولقد رأيتُني وأنا سابع سبعة مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما لنا طعام إلا ورق السَّمُر، حتى تقرَّحت أشداقُنا؛ والتقطتُ بُرْدَةً فشققتُها بيني وبين سعد، فما مِنَّا من أولئك السبعة من أحدٍ إلا وهو أميرُ مصر من الأمصار، وسيجرِّبون الناس بعدنا»[1].

(ب) الخُطَبُ الأخِرات:

مثلما رَصَد علماؤنا ورواتُنا خُطَبَ الصحابة الأُوليات في الحُكم، رصدوا بعض خطبهم الآخرات اللواتي يسبقن الموت، أو اللاتي يُوردُهنَّ أصحابُهنَّ عند احتضاره. والغالب على تلك الخطب نصيحةُ الناس وموعظتُهم وتزهيدُهم في الحياة الدنيا.

من أمثلتها خطبةُ عثمان الأخيرة التي خطبها في المسلمين، عرَّفهم فيها مقدار الدنيا، وأنها للآخرة دارُ عمل، لا دار مقرّ، وأنها الفانية والآخرة الباقية؛ فالبصير مُؤثِرُ الباقيَ على المنقطع، ثم نصحهم بالتقوى ولزوم الجماعة؛ فقال: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطِكُموها لتركنوا إليها. إن الدنيا تفنى والآخرةَ تبقى، فلا تُبطِرنَّكم الفانية، ولا تَشْغلنَّكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإنَّ الدنيا مُنقطعة، وإنَّ المصير إلى الله. اتَّقوا الله ـ جلَّ وعزّ ـ؛ فإن تقواه جُنَّة من بأسه، ووسيلةٌ عنده.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٢، والطبقات الكبير ٩/ ٦. ورواية الطبري أجود، وهي المُثْبتة هنا.

واحذروا من الله الغِيَر، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزابًا، واذكروا نعمة الله عليكم إذْ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا»[1].

ورَوَوا أن ابن الزبير صعِد المنبر في يوم مقتله وقد أحسَّ باقتراب الموت لـمَّا أحدق به جُند الشام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إن الموت قد تغشَّاكم سَحابه، وأحدَقَ بكم رَبَابُه[2]، واجتمع بعد تفرُّق، وارجحنَّ بعد تمشُّق[3]، ورَجَس نحوَكم رعدُه، وهو مُفْرِغٌ عليكم وَدْقَه[4]، وقائدٌ إليكم البلايا، تتبعها المنايا، فاجعلوا السيوف لها غرضًا، واستعينوا عليها بالصبر. وتمثَّل بأبيات، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول:

قَدْ جَدَّ أصحابُك ضَرْبَ الأعناقْ   وقامتْ الحَـرْبُ لها على سـاقْ»[5]

ألا إنَّ مما ينبغي ذكره في التعقيب على هذه الخطبة، أنَّ مقدار النثر الذي وقع بين أيدينا من خطب الصحابة قد قلَّ فيه التمثُّل بالشعر[6]، لانصرافهم حقًّا إلى المعاني العقليَّة العمليَّة أكبر من انصرافهم إلى النوازع العاطفية، أما مثلُ هذه الخطبة فهي تغلب عليها العاطفة، لانصراف صاحبها نحو الموت، فهو يحث نفسه على الإقدام عليه، ويُشجِّعُها لكي تمضيَ قُدُمًا لملاقاته.

وصعِد معاويةُ المنبرَ آخرَ مرةٍ في حياته، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قبض على لحيته، وقال: «أيُّها الناس، إنِّي مِنْ زرعٍ قد استحصد، وقد طالتْ عليكم إمرتي حتى مللتُكم

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٢) الرَّباب: جمع رَبابة: السحابةُ التي قد ركب بعضُها بعضًا، «لسان العرب: ربب».

(٣) الوَدْقُ: المطرُ كلُّه: شديدُه وهيِّنُه، «لسان العرب: ودق».

(٤) مَشَقَ الثوبَ: مزَّقه، لسان العرب: مشق، أي: أنَّ هذا السحاب اجتمع بعد تفرُّق.

(٥) العقد الفريد ٥/ ١٥٥، وغريب الحديث، للخطَّابي، أبي سليمان حمْد بن محمد بن إبراهيم البُستي ٢/ ٥٦٦، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى بمكة حرسها الله ١٤٠٢هـ.

(٦) على أن الاستشهاد بالشعر قد كثر في عصر بني أميَّة بعدهم في بعض أنواع النثر، انظر: أدب السياسة في العصر الأموي، للدكتور أحمد محمد الحوفي، ص٣٤١، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٥.

ومللتُموني، وتمنيتُ فراقكم، وتمنيتم فِراقي. وإنَّه لا يأتيكم بعدي إلا من هو شرٌّ مني، كما لم يأتكم قبلي إلا من كان خيرًا مني. وإنه من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه؛ اللهم إني قد أحببت لقاءك فأحبِبْ لقائي». فما صعِد المنبر حتى مات(١).

على أن معاوية في خطبته وإن أحبَّ لقاء الله، يردُّ شماتةَ الشامتين بموته بالـمَثَل الذي ضربه: أنَّ كل زرعٍ له أوانُ حصاده، ومعاوية لم يُحصَد قبل أوانه، بل نال من الدنيا ما تمنَّى؛ فلا وجه للشماتة بموته(٢).

هذا كلامه إلى عامَّة الناس، أما كلامه إلى خاصَّة قومه، ففي الخبر أنه لما حضرته الوفاة قال لمولًى له: مَنْ بالباب؟ قال: نفرٌ من قريش يتباشرون بموتك. قال: ويحَك، لِمَ؟ قال: لا أدري. قال: فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يسوؤهم. وأَذِن للناس فدخلوا، فحمد الله وأثنى عليه، فأوجز، ثمَّ خطب خطبةً من ريِّق الخطب أبان فيها عن خِبرته وتجربته لبني الإنسان، فهم أصناف أربعة: صِنفٌ لا يمنعه من الفساد في الأرض إلا عَجْزُه عنه، وصنفٌ مفسِدٌ قادر، وصنفٌ مُراءٍ باعَ الآخرة بالدنيا، وصنفٌ لم يَقدر على الـمُلك، لقلة الحيلة وضعف السبب، فيدعي القناعة والزُّهد؛ فهؤلاء رجال الدنيا، ورجالٌ يذكرون الله تعالى والدارَ الآخرة، فهم بين خائفٍ وباكٍ ومتعبِّد؛ فهؤلاء حَزَانَى مُتعَبون مبتلَوْن في الدنيا، ثم دعاهم إلى استصغار شأن الدنيا، والإعراض عن بَهْرَجها، وأن يتَّعظوا بمن كان قبلهم حتى لا يصيروا مُثْلَةً يَتَّعظ بهم مَنْ خلفهم، قال: «أيها الناس، إنا قد أصبحنا

---

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ٢/ ٥٤٠ تحقيق الدكتوربشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ١٤٢٤هـ.

(٢) عن علي بن سلمة الحلبي، قال سمعت أبي يقول: «كان معاوية يقول أنا والله من زرع قد استحصد. ونعى له عبد الله ابن عامر بن كريز والوليد بن عقبة»، وكان أحدهما أكبر منه، والآخر دونه، فقال:

إذا سَـار من خلف امـرئ وأمـامَـهُ وأفْـــرِدَ مــن إخْـوانــه فهو سَـائـرُ

انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان، أبي حاتم، محمد بن حبان البُستي، ص٢٨٤، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٧هـ.

في دهرٍ عَنُود، وزمنٍ شديد، يُعَدُّ فيه المحسِنُ مُسيئًا، ويزدادُ فيه الظالمُ عُتُوًّا، ولا ننتفع بما عَلِمناه، ولا نَسأل عما جَهِلْناه، ولا نتخوَّف قارِعةً حتى تَحُل بنا. فالناس على أربعة أصناف: منهم مَن لا يمنعه من الفساد في الأرض إلّا مَهانةُ نفسِه، وكَلالُ حَدِّه، ونَضِيضُ وَفْره[1]. ومنهم الـمُصْلِتُ لسيفه، الـمُجْلِب بخيله ورَجْلِه، والـمُعْلِن بسرِّه، قد أشْرَط نفسَه، وأوْبق دِينَه، لحُطَامٍ يَنتهِزه، أو مِقْنَب[2] يقوده، أو مِنْبرٍ يَفْرَعُه، ولَبئس الـمَتْجَر أن تراها لنفسك ثَمَنًا، ومما لك عند الله عِوَضًا. ومنهم مَن يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامَنَ من شخصه، وقارَبَ من خَطْوه، وشَمّر من ثوبه، وزَخْرَفَ نفسَه للأمانة، واتخذ سِتر الله ذَرِيعةً إلى المعصية. ومنهم من أقعده عن طلب الـمُلْك ضُؤُولةٌ في نفسه، وانقطاعٌ من سببه، فقصَّر به الحال عن أمله، فتحلَّى باسم القناعة، وتزيَّن بلباس الزَّهَادة، وليس من ذاك في مَرَاحٍ ولا مَغْدًى. وبقي رجَالٌ غضَّ أبصارَهم ذكرُ الـمَرْجِع، وأراقَ دموعَهم خوفُ الـمَحْشر، فهم بين شَرِيد نَادٍّ، وخائفٍ مُنقَمِع، وساكتٍ مَكْعُوم[3]، وداعٍ مُخْلِص، ومُوجَعٍ ثَكْلان، قد أخملتْهم التقيَّة، وشَمِلَتْهم الذِّلَّة، فهم في بَحر أُجَاج، أفواهُهم ضامزة[4]، وقلوبُهم قَرِحَةٌ، قد وُعِظُوا حتى مَلُّوا، وقُهِروا حتى ذَلُّوا، وقُتِلوا حتى قَلُّوا. فلتكنِ الدنيا في عيونكم أصغرَ من حُثَالة القَرَظ[5]، وقُرَاضة الجَلَمين[6]. واتَّعِظُوا بمَن كان قبلَكم قبل أن يَتَّعِظ بكم مَنْ يأتي بعدكم. فارفُضوها ذَميمةً، فإنها رَفضتْ مَن كان أشغفَ بها منكم»[7].

(١) النضيض: الماء القليل، «لسان العرب: نضض»، والوَفْر: الكثير، «لسان العرب: وفر»، والمقصود: شَحَّةُ المال.

(٢) المِقْنَب: شيء يكون مع الصائد يَجعل فيه ما يصيدُه، «لسان العرب: قنب».

(٣) كعم البعير: شَدَّ فاه، «لسان العرب: كعم».

(٤) ضمز البعير: أمسك جَرّته في فيه، ولم يجترّ من الفزع، «لسان العرب: ضمز»، والمعنى أنهم ساكتون.

(٥) القَرَظ: شجرٌ يُدبغ به، «لسان العرب: قرظ».

(٦) الجَلَم: الذي يُجَزُّ به الشعر والصوف، «لسان العرب: جلم».

(٧) البيان والتبيين ٢/ ٥٩-٦٠، وقد شك الجاحظ في نسبتها إلى معاوية، ورآها أقربَ إلى عليّ، انظر تعقيبه تامًّا في: البيان والتبيين ٢/ ٦١، وهو مذكورٌ في فصل المصادر من هذه الدراسة.

(جـ) خُطَب المَرَاثي:

كان من طبيعة الأشياء أن يرثوَ الصحابةُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخطابة، ولكنهم استبدلوا بذلك الشعرَ، فرثَوْه بنحوٍ من أربعين مرثيَّةً صحيحةً، ثابتةَ النسبة لهم[1]، ولعل الصحابة قد وجدوا في الشعر ملاذًا لحزنهم ولوعتهم وألمهم أدنى إليهم مما وجدوه في النثر، فالشعر أبٌ للنفوس الكليمة ترتمي بين أحضانه فتبكي وتنتحب وتبثُّ شكواها حين لا يوجد الأبُ. أمَّا النثر فهو ـ وإن توقَّدت عاطفتُه في أوقاتٍ كثيرة ـ أقربُ إلى الرَّوِيَّة والعقل، وأليطُ بالحكمة والتدبُّر والمراجعة.

غير أن خطب الصحابة فيها ـ مع ذلك ـ مراثٍ خالصاتٌ، لا يشوبهنَّ شيءٌ من غير أنَّات الرثاء وآلامِه ولواعجه.

من هذا الرثاء الخالص مرثيَّةُ الحسن بن عليٍّ في أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ففي رواية الطبري عن أبي خالد بن جابر، قال: سمعتُ الحسن وقد قام خطيبًا لما قُتل عليٌّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال: «لقد قتلتم الليلةَ رجلًا في ليلةٍ فيها نزل القرآن، وفيها رُفع عيسى بنُ مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفيها قُتل يُوشَع بن نون فتى موسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، والله ما سبقه أحدٌ كان قبله، ولا يُدركه أحدٌ يكون بعده، والله إنْ كان رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليبعثه في السريَّة، وجبريلُ عن يمينه، وميكائيلُ عن يساره. والله ما ترك صفراءَ ولا بيضاء إلا ثمانمئة أو سبعَمئة أرصدها لخادمه»[2].

فهذا ندب بإيراد فضائل القتيل، وفضائل الوقت الذي قُتل فيه، وهو يؤوب بهذا النوع من الرثاء إلى عِلْمٍ قاس به الحَسَنُ فضلَ بركة الموت ليلةَ نزول القرآن، بفضيلة الموت في بعض الأوقات والأمكنة. والأمر كلُّه في الخطبة قائمٌ على الإحالة إلى لفظة (رجل)[3] الواردة في أول الخطبة، فقد نكَّرها استثارةً وتشويقًا، ثم نسبَ إليها ما نَسَبَ من الفضائل

---

(١) انظر: المراثي النبوية في أشعار الصحابة: توثيق ودراسة، لمحمد شمس عُقاب، ص٤٤٦-٤٤٧.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٥٧.
(٣) انظر: الخطب السياسية في العصر الأموي: دراسةٌ نحوية نصِّيّة، لمحمد ماهر محمد عبد الرحمن، ص١٤٧ رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة دمياط ١٤٣٥هـ.

والمسارعة في الخيرات. وكأنه بالإشارة إلى اثنين من الصالحين، هما: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يُدخل عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في زمرة أولئك الصالحين، من غير أن يقول ذلك بصريحِ من اللفظ، وهي حِيلةٌ فنيَّة في الندب، جديرةٌ بالثناء والإشادة. ولكنَّ هذه الخطبةَ لعلها غيرُ تامَّة، فإن كان ذلك كذلك فلا يُدرى أَدَخَلَها شيءٌ آخر من غير الرثاء أم لا؟

ومن جميل الرثاء ـ لما فيه من ذكر محاسن الميت الصحيحة، والتصبُّر على فراقه ـ مرثيَةُ الحُسين بن عليٍّ لأخيه الحَسَنِ الراثي منذ قليل، وفيها يَعُدُّ مناقب شقيقِه، ويُورد شمائلَه: من نُصرة الحق، والورع، والزهد في الدنيا، والعفاف، والحِلم. ولا غَرْوَ فهو ابن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكفى بها مَفخرة، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحمك الله أبا محمد، إن كنت لتُناصر الحقَّ مظانَّه، وتؤثر الله عند تداحُض الباطل في مواطن التقيَّة بحُسن الروية، وتستشف جليلَ مَعاظم الدنيا بعينٍ لها حاقرة. وتُفيضُ عليها يدًا طاهرةَ الأطراف. وتردَعُ بادرةَ غربِ أعدائك بأيسر المؤونة عليك؛ وأنت ابنُ سلالة النبوة، ورضيعُ لَبان الحكمة، فإلى رَوْح وريحانٍ وجنةِ نعيم؛ أعظمَ الله لنا ولكم الأجرَ عليه، ووهبَ لنا ولكم السلوةَ وحُسْنَ الأسى عنه»[1].

ومن جليل ما رُثي به ميِّتٌ في النثر، ما رَثَى به معاذُ بن جبلٍ أبا عُبيدة بن الجرَّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، إذ أقسمَ بين يدي رثائه على صدق ما ينقله من كريم خصاله، ثم جعل عماد عبارته في الخطبة تضمينًا من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وكأن الصفات المُدَّعى تحلِّيَ الرجل بها ـ لِما فيها من السموِّ والجلال والجمال ـ احتاجت إلى القَسَم، ليُصدِّق الناسُ قيامَها بالميِّت، ولا يظنُّوا تقريظَه من قبيل المبالغة على سبيل المجاملة؛ فقد رُوي أنه لما مات أبو عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اجتمع الناس، فأُخرج، وتقدَّم معاذٌ فصلَّى عليه، فلما وضعوه في قبره وخرجوا منه فسَفَوْا عليه التراب، قال معاذ: «رحمك الله يا أبا عُبيدة، فوالله لأُثنينَّ عليك بما علمتُ، والله لا أقول باطلًا يُخاف أن يلحقَني من الله مَقْتُه، كنتَ والله ما علمتُ من الذاكرين اللهَ كثيرًا، ومن الذي يمشون على الأرض هونًا، وإذا خاطبهم

(١) تاريخ دمشق ١٣/ ٢٩٦.

الجاهلون قالوا سلاما، ومن الذين يبيتون لربهم سُجَّدًا وقياما، ومن الذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، وكنت والله ما علمتُ من المُخبتين المتواضعين، ومن الذين يرحمون اليتيم والمسكين، ويبغضون الجُفاة المتكبّرين». قال الراوي: ولم يكن أحدٌ من الناس كان أشدَّ جزعًا على فَقْد أبي عُبيدة وعلى موته، ولا أطولَ حزنًا عليه من معاذ بن جبل[1].

وكان معاذٌ قد خطب خطبةً قبلها عند موت أبي عُبيدة دعا فيها إلى التوبة، وردِّ الديون، وإصلاح ذات البين، كأنه يقول لهم: لستم عن الموت بمأمن، فاستعدُّوا له، ثم قال: «وإنكم أيها المسلمون قد فُجعتم برجلٍ، والله ما أزعم أني رأيت منكم عبدًا من عباد الله قطُّ أقلَّ غمرًا، ولا أبرأَ صدرًا، ولا أبعدَ من الغائلة، ولا أنصحَ للعامة، ولا أشدَّ عليهم تحنُّنًا وشفقةً منه؛ فترحَّموا عليه، ثم احضُروا الصلاة عليه، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، والله لا يَلي عليكم بعده مثلُه أبدًا»[2].

فلما طُعن معاذٌ، ومات محمودَ الخَليقة مثلما مات صاحبُه، رثاه عمرٌو برثاء نحوٍ من رثائه، وشهادةٍ نحوٍ من شهادته لصاحبه، كأنه يكافئه بنظير قولِه الجميل في أبي عُبيدة، فقد قال عمرٌو بعدما صلَّى على معاذٍ ودَفَنَه: «رحمك الله يا معاذ، فقد كنتَ ـ ما علمناك ـ من نُصَحاء المسلمين، ومن خيارهم، وكنتَ مؤدِّبًا للجاهل، وشديدًا على الفاجر، رحيمًا بالمؤمنين. وايمُ الله لا يُستخلف من بعدِك مثلُك»[3].

وفي عهدٍ بُعَيد ذلك العهد، قُتل الحُسين بن عليٍّ، فقام عبد الله بن الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أهل مكة فعظَّم مقتلَه، وعاب على أهل الكوفة خاصَّة، ولام أهلَ العراق عامَّةً، ثم قال في شطر خطبته الآخِر: «أفبَعْدَ الحُسين نطمئنُّ إلى هؤلاء القوم، ونُصَدِّقُ قولَهم، ونقبل لهم عهدًا؟! لا، ولا نراهم لذلك أهلًا؛ أمَا والله لقد قتلوه طويلًا بالليل قيامُه، كثيرًا في النهار

---

(١) فتوح الشام، للأزديّ، ص٢٦٨.

(٢) فتوح الشام، للأزديّ، ص٢٦٨.

(٣) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٢.

صيامُه، أحقُّ بما هم فيه منهم، وأولى به في الدين والفضل، أمَا والله ما كان يُبَدِّل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداء، ولا بالصيام شُرْبَ الحرام، ولا بالمجالس في حِلَق الذكر الركضَ في تَطلاب الصيد، فسوف يَلقَوْن غَيًّا»[1]. فرثاه بطول قيامه وعبادته على طريقة المقابلة بينه وبين خصومه، مُعرِّضًا ببني أُميَّة ومَنْ اتَّبعهم في ثنايا خُطبته.

ومِنْ مَزْج الرثاء بغيره خطبةُ عبد الله بن الزبير في رثاء أخيه مُصعب بن الزبير، وهو يجمع فيها الرثاءَ، وذمَّ أهل العراق، والثناءَ على آله ونفسه[2].

ومن هذا المزْج خطبةُ علي بن أبي طالب وقد أُخذت مصر منه، يرثي في مطلعها محمدَ ابن أبي بكرٍ فيقول: «ألا إنَّ مصر قد افتتحها الفجَرة أُولو الجَوْر والظلم، الذين صَدُّوا عن سبيل الله وبَغَوْا الإسلام عِوجًا. ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استُشهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فعند الله نحتسبه. أما والله إن كان ما علمتُ لممن ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويُبغض شَكْلَ الفاجر، ويُحب هُدى المؤمن». ثم أخذ في خطبته[3].

ومن طريف الرثاء ومتقدِّمِه زمنًا في نوعه، ما أُثر من رثاء أحد الصحابة بعضَ جسده خطابةً[4]، وتَعزِّيه وتأسِّيه لفقده؛ وهو معاوية بن أبي سفيان، ففي الخبر أنه لما سقطت ثَنِيَّتاه لَفَّ وجهه بعِمامة، ثم خرج إلى الناس فقال: «لئن ابتُليتُ لقد ابتُلي الصالحون قبلي، وإني لأرجو أن أكون منهم. ولئن عُوقبتُ لقد عوقب الخاطئون قبلي، وما آمنُ أن أكون منهم.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ٥/ ٤٧٤-٤٧٥.

(٢) انظرها في: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ١٦٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٨.

(٤) سبق الشعراء الجاهليون إلى رثاء أنفسهم شعرًا، كالمثقِّب العبدي، انظر: المفضَّليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبِّي، ص١٤٩، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٥، وعبد يغوث التيْمي، انظر: العقد الفريد ٦/ ٧١-٧٣، وانظر: رسالة ماجستير في هذا الباب لمحمد رمضان زامل، عنوانها: رثاء الذات في الشعر الجاهلي: دراسة أسلوبية، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠٥م.

ولئن سقط عُضوان مني لما بقي أكثر. ولو أتى على نفسي لما كان لي عليه خيارٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فرحم الله عبدًا دعا بالعافية؛ فوالله لئن كان عَتَبَ عليَّ بعضُ خاصَّتكم، لقد كنتُ حَدِبا على عامَّتكم»(١).

إنَّ هذه المرثية عمودُها الموازنة والمقارنة بين ما يكون في زمنين: الحاضرِ والماضي، أو الحاضرِ والآتي، أو الآتي وما هو بعدَه. والخطيب يقفُنا بمهارته وحِذْقِه على كثيرٍ من العِبَر التي يستخرجها بسببٍ من هذه المقابلة، كأنه الرجل الرشيد الواقفُ على مَرْقَبةٍ ينظر الأمورَ من عَلٍ، محاذرًا أن يقعَ في شَرَكِ التفاصيل، أو يضيعَ في صغير الحادثات.

(١) البيان والتبيين ٤/ ٧١.

[٦] سُنَنُ الصَّحَابَة في الخَطَابَة

للصحابة في الخطابة تراثٌ وعاداتٌ ورسومٌ لا يتمُّ الحديث عن خطابتهم إلا بها، أعني تلك الأشياء الخارجةَ عن النص، التي لا تعلُّق لها بمتن الخُطبة؛ وهي مع ذلك مما يؤثِّرُ في إبلاغ النصِّ وبيانه. ولقد سبق الجاحظ في (البيان والتبيين) إلى تدوين أشياء من هذه البابة عن العرب، ولكنه لم يكد ينقل منها شيئًا عن الصحابة، فرأيت أن أقف على ما تيسَّر لي منها، فأُثْبتَه وأُعقِّبَ عليه.

(تجهيز الخطب)

مما يُروى عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ منهم من كان يُعِدُّ الخطبة ويُجهِّزُها، ولا يرتجلُها ارتجالًا لأول وهلة. حدَّثنا عن ذلك عُمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حادثة السقيفة، فقال: «أتيناهم (أي: الأنصار) وقد كنتُ زَوَّرْتُ كلامًا أردتُ أن أقوم به فيهم، فلما أن دفعتُ إليهم ذهبتُ لأبتدئ المنطق. فقال لي أبو بكر: رويدًا حتى أتكلم، ثم انطقْ بعدُ بما أحببت»[١].

ومما يُروى عن عثمان أنه حدَّث عن أبي بكرٍ وعُمر أنهما كانا يُعدَّان لمقام الخطبة مقالًا[٢].

فهذان الخبران وأمثالُهما[٣] نصٌّ على أنَّ مِنْ خُطب الصحابة ما كان يُخَطَّط له قبل إلقائه، فيديره الخطيب في خاطره قبل القيام به. لم تكن الخطابةُ أدبًا وليدَ اللحظة لا خِطامَ له إذن، ولم يكن صاحبُ الخطبة يَخبط بها خَبْطَ عشواء من غير تدبير. ولقد رأينا كيف كان بعض الصحابة يُنهي خطبته عمدًا بما بدأها به، كالوجوب في خُطبة الشُّكر لعُمر[٤]؛ وكيف أنَّ بعضهم كان يتعمَّد مفاجأة المخاطَبين كيما يهيِّأهم لكلامه، كبعض مواعظ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢١٩.

(٢) انظر: بهجة المَجالس وأُنس المجالس ٢/ ٧٣.

(٣) انظر: أيضًا ما يروى عن معاوية أنه قد أعدَّ خطبةً فحَصِر، في: العقد الفريد ٤/ ٢٠٣.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٦-٢١٨.

أبي بكرٍ التي مرّت[1]، وكيف أنَّ بعضهم كاد أن يجعل خطبته كلّها آياتٍ من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ[2]. إنَّ هذا كلَّه لا يمكنه إلا أن يكون عن إعدادٍ وتنظيمٍ وتهيئة.

فلم تكن الخطابة عند الصحابة (حديثًا)[3] يُلْقَى عفوًا فلا يُقْصَدُ إلى تجويده، كلا، بل كانت أدبًا وفنًّا يُكدَح إليه، ويُقدَّرُ له، ويُتروَّى فيه.

على أنَّ كل هذا لا يمنع أنَّ خطبًا من خطب الصحابة كانت تُرتَجل حين يستدعيها الموقف، أو يدعو إليها المقام، وقد نجد مثالَ ذلك متوافرًا ولا سيَّما في قصيراتِ الخُطَب.

والصحابة شأنُهم في الخطابة شأنُ العرب، الذين «كان الكلام البائتُ عندهم كالمقتضَب (وهو المرتَجل[4])، اقتدارًا عليه، وثقةً بحُسْن عادة الله عندهم فيه. وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في مَعاظم التدبير ومُهِمّات الأمور، ميَّثوه[5] في صدورهم، وقيَّدوه على أنفسهم، فإذا قوَّمه الثِّقاف، وأُدخل الكِير، وقام على الخِلاص[6]، أبرزوه محكَّكًا منقَّحًا، ومُصفًّى من الأدناس مهذَّبا»[7].

(هيئة الخطيب)

وقد ورد في مجال (الهيئة) أنَّ أبا بكرٍ وعُمر وعثمان كانوا يخطبون على عصا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التي كان يخطبُ عليها[8].

---

(١) انظر: عيون الأخبار ٥/ ٢٣٣.

(٢) انظر: خطبةً لعلي بن أبي طالب في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢١-١٢٢.

(٣) انظر: تقسيم النثر عند ابن وهب إلى خطابة، وترسُّل، واحتجاج، وحديث، البرهان، ص٩٣، فأما الحديث فهو ما يجري بين الناس في مخاطباتهم ومكاتباتهم، انظر: البرهان، ص١٧٣، وهو خارجٌ عن مسمَّى الأدب بمصطلحنا الحديث.

(٤) اقتَضَبْتُ الحديثَ والشِّعْر: تَكلمْتُ به من غير تهْيئةٍ أو إعْدادٍ له، «لسان العرب: قضب».

(٥) اي: أذابوه وصبروا عليه، «لسان العرب: ميث».

(٦) الخِلاص: بكسر الخاء، وهو الإِثْر، والثُّفْلُ الذي يَبْقى أسفلَ هو الخُلوصُ والقِلْدَةُ والقِشْدَةُ والكُدادةُ، والمصدر منه الإِخْلاصُ، وقد أَخْلَصْت السَّمْنَ. قال أبو زيد: الزُّبْدُ حين يجعل في البُرْمةِ ليُطبخ سمنًا فهو الإِذْوابُ والإِذْوابةُ، فإذا جادَ وخَلَصَ اللبنُ من الثُّفْل فذلك اللبن: الإِثْرُ، «لسان العرب: خلص».

(٧) البيان والتبيين ٢/ ١٤.

(٨) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٦٦.

وخطب سُهيل بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطبته بمكة بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وقد تقلَّد السيف»(١).

وقام يزيد بن أسد البَجَليُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يخطب خطبةً له في أهل الشام، «وعليه قَباءٌ من خَزٍّ، وعِمامةٌ سوداء، آخذًا بقائم سيفه، واضعًا نصلَ سيفه في الأرض متوكّئًا عليه»(٢).

(مقام الخطيب)

الأصل في خطيب الصحابة أنه كان يخطب قائمًا كما كان العهدُ من قبل، ولقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه مخاطبًا نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة:١١]. ثمَّ إنَّ الروايات لتأتي متواليةً تذكر أن فلانًا من الصحابة قد «قام» في قومٍ ما، فخطبهم(٣).

فكانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يخطبون قائمين على المنبر، وأول من خطب قاعدًا عليه من الصحابة معاويةُ بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففي (تاريخ المدينة) لعُمر بن شَبَّةَ عن الحَسَن (أي: البصري): أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكرٍ وعُمر وعثمان كانوا يخطبون قيامًا، ثم إنَّ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن رقَّ وكبُر فكان يخطب فيدركه ما يُدرك الكبير، فيستريحُ ولا يتكلَّم، ثم يقوم فيُتِمُّ خُطبتَه، ثم كان معاويةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أولَ من قَعَد»(٤).

فيكون أول مَنْ خطب قاعدًا على كل حالٍ معاوية(٥).

---

(١) الطبقات الكبير ٦/ ١٢٤.

(٢) وقعة صَفِّين، لنصر بن مزاحم المِنْقَريِّ، ص٢٤٢.

(٣) انظر: ضمن أمثلةٍ كثيرة: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦١، ٤/ ١٢٣، ٥/ ١٨٤، والطبقات الكبير ٣/ ٣٤٢، ٤/ ٨.

(٤) تاريخ المدينة، لعُمر بن شَبَّة ٣/ ٩٦٤، وانظر: محاسن الوسائل في معرفة الأوائل، لمحمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي، ص٢٦٣، تحقيق محمد التونجي، دار النفائس، بيروت، ط١/ ٢٠١٢م.

(٥) يقول الدكتور شوقي ضيف: «لم يكن الوعّاظ في عصر بني أمية يخطبون وقوفًا إلا في الجمع والعيدين، فخطابتهم كخطابة قُصَّاص ذلك العصر كانت في الأغلب خطابةً جالسة»، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص٩٠.

وقد يخطبون إلى جوار المنبر، وفي (العقد الفريد) في خبر عبد الله الزُّبير أنه «كان أول من خطب إلى جانب المنبر»[1]، وليس كما نَقَل، فقد وجدتُ في الخبر أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطَب إلى جنب المنبر، فقال: «الفتنة ههنا...» الحديث[2]. فهذا أثرٌ نبويٌّ في الخطابة وَرِثه الصحابةُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير شك.

ومما يُروى في شأن (المنبر) وتعظيم من كان يقوم عليه قبل، أنَّ عمر بن الخطاب حين وليَ الخلافة صعِد المنبر ثم قال: «ما كان الله ليراني أرى نفسي أهلًا لمجلس أبي بكرٍ، ثم نزل عن مجلسه مَرقاةً، فحمد الله وأثنى عليه...»[3]. أي: أنه خطب على المرقاة التي تلي تلك المرقاة التي كان يجلس عليها أبو بكرٍ تعظيمًا وإكبارًا، وتأديبًا لنفسه.

ولا حاجة بنا إلى القول أن الحكمة من الخطبة على المنبر أن يكون الخطيب ظاهرًا مُشْرِفًا على الناس ليراهم، ويُسمعَهم صوتَه، ويلفتَ أعناقَهم وقلوبَهم إليه.

كما قد خطب الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على أشياء أخرى ناشزةٍ سوى المنبر، إن هم احتاجوا إلى ذلك، كالراحلة مثلًا، فقد حكى ميسرة أبو جميلة، قال: «شهدتُ مع عليٍّ العِيد، فلما صلَّى خطب على راحلته، قال: وكان عثمان يفعله»[4].

وعن قيسٍ قال: «رأيت المغيرة بن شُعبة يخطب على بُخْتيَّة»[5].

---

(١) العقد الفريد ٤/ ١٧٠.

(٢) صحيح البخاري = الجامع الصحيح، للبخاري، أبي عبدالله محمد بن إسماعيل الجُعفي ٦/ ٢٥٩٨ تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣/ ١٤٠٧هـ.

(٣) عيون الأخبار ٥/ ٢٣٤.

(٤) المصنف، لابن أبي شيبة رقم ٥٩٠٥.

(٥) المصنف، لابن أبي شيبة رقم ٥٩٠٧، والبختية: أعجميٌّ معرَّب، الإبل الخراسانية، وقيل: عربي، «لسان العرب: بخت».

وفي روايةٍ: «على بعير»[1]. أما النعمان بن مقرِّن فخطب يوم نَـهاوَنْد على بِرْذَونَ[2] أحوى[3].

ورُوي عن عائشة في خطبة الانتصار لأبيها أنها: «أسدلتْ ستارها، وعَلَتْ وِسَادَها»[4].

فالمشهور أنَّ تلك كانت عادةَ العرب أن يخطبوا قائمين في الخطب كلِّها؛ على شيءٍ، أو على الأرض؛ إلا خطبةَ النكاح، فإنهم كانوا يجلسون فيها، ذلك أن الخطب غالبًا لم تكن إلا في الأمور الجِسام، والخطوب العِظام. وفي كلٍّ يقول الجاحظ في معرض ردِّه على الشعوبية ومطاعنهم على خطباء العرب: «ونبدأ على اسم الله تعالى بذكر مذهب الشعوبية ومَنْ يتحلَّى باسم التسوية، وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ... وجلوسها في خطب النكاح، وقيامها في خطب الصلح، وكلِّ ما دخل في باب الحمالة، وأكَّدَ شأن المُحالفةِ، وحقَّق حرمة المجاوَرَة؛ وخُطبهم عل رواحلهم في المواسم العظام، والمجامع الكبار»[5].

(تهيئة الجمهور)

وكانوا يُهيِّئون الجمهور للخطبة حتى يصل المرادُ على وجهه الذي أَمِلَه صاحبُه، فممّا يُروى عن عثمان أنه لما اشتدَّ الحصارُ عليه أرسل إلى عليٍّ وطلحة والزبير، فأشرف عليهم، فقال: «أيها الناس اجلسوا، فجلسوا: المحارب والمسالم»[6].

---

(١) المصنف، لابن أبي شيبة، رقم ٥٩١٣.

(٢) البرذَوْن من الخيل ما كان من غير نتاج العراب، «لسان العرب: برذن».

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٤/ ١٣١.

(٤) شرح خُطبة عائشة أم المؤمنين في أبيها، لمحمد بن القاسم الأنباري، ص٨، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجِّد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٨٢هـ.

(٥) البيان والتبيين ٣/ ٥-٦.

(٦) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ٣٤٧، وفيه: «وكان ثابت بن قيسٍ من أجهر الناس صوتًا».

(التقديم لبعض الخطباء)

وكانوا يحتفلون ببعض الخطباء أيّما احتفال، يشهدُ لذلك أنهم قد يُقدِّمون لخطبةِ خطيبٍ بخطبةٍ قبلها، كما فعل عثمانُ بن عفَّان مع عبد الله بن الزبير لـمَّا قدم عليه بفتح إفريقية، فأخبره مشافهةً، وقَصَّ عليه كيف كانت الوقعة. فأَعجب عثمانَ ما سمعه منه، فقال له: «يا بُني، أتقوم بمثل هذا الكلام في الناس؟»، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أنا أهْيبُ لك مني لهم. فقام عثمانُ في الناس خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إنَّ الله قد فَتَح عليكم إفريقية، وهذا عبدُ الله ابن الزبير يُخبركم خبرَها إن شاء الله. وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر، فقام خطيبًا...»، فقال: «الحمد لله الذي ألَّف بين قلوبنا، وجعلنا متحابِّين بعدَ البِغْضة ...» الخطبة[1].

(رفع الصوت)

وكانوا يرفعون أصواتهم في الخطبة حتى النساء منهم، فمما يُروى عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت جَهْوَرِيَّةَ الصوت في الخطبة[2]، والصوتُ إنما هو رأسُ مال الخطيب في خطبته، فإنْ أحسن استعمالَه ظُنَّ بخطبته خيرًا، وإن أساء ساءت خطبته. والأصلُ في صوت الخطيب أن يكونَ جَهْوَرِيًّا مُسْمِعًا، بلغتنا هذه الصفة عن ثابت بن قيسٍ مثلًا[3]، وهو خطيب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: «كان من أجهر الناس صوتًا»[4]، وبلغتْنا عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5].

---

(١) العقد الفريد ٤/ ١٧٠.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٦٤.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٦٤.

(٤) الطبقات الكبير ٣/ ٣٤٧.

(٥) انظر: المسند، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ٤٠/ ٦٧، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢٠هـ.

(مُبلِّغ الخطبة)

وَمما استحدثوه من الوسائل (مُبَلِّغُ الخُطبة) إذا استدعاه ضعف الصوت وكثرةُ الناس - ولم يعرض له الجاحظ فيما عرض له - ففي نبأ السقيفة أن الأنصار اجتمعتْ في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: نولِّي هذا الأمر بعد محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ سعدَ بن عبادة، وأخرجوا سعدًا وهو مريض؛ فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أُسْمِعَ القوم كلَّهم كلامي، ولكن تلقَّ مني قولي فأسمعْهُموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجلُ قولَه، فيرفع صوتَه فيُسمع أصحابَه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار...» الخطبة[1].

(الإشارةُ والحركة)

وكانوا في الخطبة ربما أشاروا بالأَصبُع، وتحركوا على المنبر صعودًا ونزولًا في أثنائها. فعن عبد الرحمن بن أبي عوف الرشي، قال: لما بايع الحسنُ بن عليٍّ معاويةَ، قال له عمرو ابن العاص وأبو الأعور السلمي: «لو أمرت الحَسَن فصعد المنبر فتكلم عَيِيَ عن المنطق، فيزهد فيه الناس. فقال معاوية: لا تفعلوا، فوالله لقد رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمصُّ لسانه وشفته، ولن يعيا لسانٌ مصَّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو شفتان. فأبَوا على معاوية، فصعد معاوية المنبر، ثم أمر الحسن فصعد، وأمره أن يخبر الناس أني قد بايعت معاوية، فصعد الحَسَنُ المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إنَّ الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإني قد أخذت لكم على معاوية أن يعدل فيكم، وأن يوفِّر عليكم غنائمَكم، وأن يقسم فَيْئَكم فيكم»، ثم أقبل على معاوية فقال: كذاك؟ قال: نعم. **ثم هبط من المنبر وهو يقول ويشير بإصبعه إلى معاوية**: «وإنْ أدري لعله فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين» فاشتدَّ ذلك على معاوية»[2].

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك٣/ ٢١٨.

(٢) الطبقات الكبير ٦/ ٣٨٢-٣٨٣.

فهذه الحركة المسرحيَّةُ الحاذقةُ بإتمام الخطيب خطبته وهو ينزل، وهو يشيرُ بأصبُعه ناحية المتربِّص به؛ زادت الخطبة بلاغةً على بلاغتها، وأضافت إليها معنًى في المعاملة بنقيض القصد على معانيها، علاوةً على أن الخطيبَ الهُمامَ قد قمع بها ظنَّ السَّوء الذي ظنَّه خَصْمُه به؛ ثُمَّة إنها ملأت نفوسَ جمهور المشاهدين إقرارًا ويقينًا بصدق هذا الخطيب الواثقِ، وعُلوِّ شأنه مع فصاحته، ورسوخِ قدمه.

فكذلك رأينا أن خطيبًا ماهرًا كالحَسَن بن عليٍّ قد يستعين في خطابته ببعض (الهيئات المسرحية) الخارجة عن اللفظ، حتى إن كان المسرحُ قائمًا على الحوار والكلام في الأصل[1]، وسبب ذلك أن الخطابة فنٌّ له أسلوبٌ «أكثرُ قبولًا للطابَع (الدراميّ)، وكثيرًا ما يهدف لإثارة الانفعال وتصوير الأخلاق...»[2].

وقريبٌ من الإشارة بالأصبُع الصَّفْقُ باليدين في الخطبة، وهي فَعْلةٌ لم يروها الجاحظ عن أحدٍ من العرب، وفعلها عمر بن الخطاب في بعض أواخر خطبه حين قدم المدينة من الحج، فقال: «أيها الناس، قد فُرضتْ لكم الفرائض، وسُنَّتْ لكم السُّنن، وتُركتم على الواضحة - **ثم صفق يمينَه على شماله** - إلا أن تضلُّوا بالناس يمينًا وشِمالًا...»[3].

لقد صفق عمر تنبيهًا إلى خطر ما سيقولُ بعد الصفقة، وهو أن سبب الضلال لا يكون إلا منهم، وتلك وسيلةٌ خطابيةٌ مبتكَرةٌ لعل الجمهورَ لم يشهد مثلها من قبل، وهي ذاتُ أثَر نافذٍ فيه. يقول الجاحظ في بيان منزلةِ مثل هذه الإشارات: «والإشارةُ واللفظُ شريكان، ونِعْم العونُ هي له، ونعم الترجُمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تُغْني عن اللفظ.. ومَبْلغ الإشارة أبعدُ من مَبْلغ الصوت، فهذا أيضًا بابٌ تتقدم فيه الإشارةُ

---

(١) انظر: فن كتابة المسرحية، تأليف لابوس إيجري، ص٤١٠، ترجمة دريني خشبة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

(٢) النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال، ص١٢٩.

(٣) الطبقات الكبير ٣/ ٣١٠.

الصوت. والصوتُ هو آلة اللفظ، والجوهرُ الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف. وحُسْنُ الإشارة باليد والرأس، من تمام حُسْن البيان باللسان...»[1]. وقد قيل: «رُبَّ إشارةٍ أبلغُ من لفظ» ذلك أنها «إذا قامت مقام اللفظ، وسدَّتْ مسدَّ الكلام؛ كانت أبلغ؛ لخفة مؤنتها، وقلة محملها»[2].

(تَرْداد الخُطَب)

ومما يؤثر عنهم من العادات أنهم كانوا يكرِّرون الخطب ويُعيدونها، مثال ذلك ما روي عن سُليمان بن صُرَدٍ من أنه لم يزل يردِّد بعضَ خطبه في كل جمعةٍ حتى حفظها الراوي[3]. وهي خطبةٌ في الاستبسال والثأر لقتلى آل البيت. فلعلَّ سبب تَرْدادها أنه أجْهد نفسَه في صَوْغها وحياكتها، وأدخلَ فيها من المعاني ما لا مزيد لنفسه عليه، فهو يُعيدُها ويكرِّرها حتى يصل مرادُه الذي بلغ به غايةَ التمام إلى جمهرة المخاطبين كلما اجتمعوا إليه. أو لعلَّه رأى تكرارَها واجبًا في ذلك الوقت، لا واجبَ آخرُ مقدَّمٌ عليه، حتى يفيَ بحق أولئك القتلى الذين خُذِلوا وأُتُوا من حيث كانوا يأمنون.

(عدد الجمهور)

لم يكن يُشترط في الجمهور عددٌ معيَّنٌ حتى تكون ثَمَّ خطبة، فهناك الخطبُ في الجيش العرمرم كخُطبهم في القادسية، وهناك خطب الجمعة وفيها العدد الكبير، وهناك الخطب في العدد القليل. ومما يُفهَم من خبر أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر أنهم كانوا يخطبون في أنفسهم، وكان الحاضرُ منهم خمسةَ رهط[4]، أي: أنَّ جمهور كل خطيبٍ منهم

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٧٨-٧٩.

(٢) العقد الفريد ٤/ ٢١٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٥٤، وانظر: أيضًا خطبةً لعمر بن الخطاب وهو في طريقه إلى الجابية، قال في شأنها الراوي: «فكان عمر لا يدع هذا القول كلَّ غداةٍ في مبتدئه وفي مرجعه»، فتوح الشام للأزدي ص٢٥١.

(٤) إذ كان طلحةُ غائبًا في سفرٍ ذلك اليوم، انظر: خبر الشورى في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٢٧.

أربعةُ رجال فقط. ويُروى عن الخنساء أنها خطبت في بنيها في وقعة القادسية تُحرِّضهم على القتال، وكانوا كأولئك أربعةَ رجالٍ فقط[1]، وهذا أقلُّ عددٍ وقفت عليه لجمهور خطب الصحابة.

(مجاوبة الجمهور)

وقد كان هذا الجمهور يجاوب خطيب الصحابةَ إن هو سأل في الخُطبة، كما مرَّ بنا منذ قليل من سؤال الحَسَن معاوية: «أكذلك؟ قال: نعم»[2].

بل إن هذا السؤال وهذه المجاوبة قد يستطيلان، حتى لقد نستطيع القول: إن الخطبة تغدو حينها حوارًا كلَّها. وإنها - إن شئنا الدِّقَّة - لا تُنسب إلى الخطيب وحدَه، بل إليه وإلى الجمهور معه. ومما رأيناه على هذه الحال خطبةُ الجارود بن الـمُعَلَّى في بني عبد القيس المرتدِّين بعد وفاة النبي، القائلين: لو كان محمدٌ نبيًّا لما مات. فجمعهم، ثم قام فيهم خطيبًا فقال: يا معشرَ عبد القيس، إني سائلُكم عن أمرٍ فأخبروني به إن علمتموه، ولا تُجيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سَلْ عمَّا بدا لك. قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم. قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا، بل نعلمه. قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا. قال: فإن محمدًا ﷺ ماتَ كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؛ وأنَّك سيدُنا وأفضلنا. وثبتوا على إسلامهم[3]. فكذلك كانت العرب - فيما بلغَنا من أخبار هذا الخطب - تُسلِّم متى مسَّ البرهانُ الصحيحُ، أو أصابَ القياسُ الصائبُ عقولَهم.

ذلك إذن من جديد ما ابتدعه الصحابةُ رضي الله عنهم وعَمِلوه لخطابتهم، لتُضْحيَ بليغةً مؤثِّرة، مؤدِّيةً غرضَها على أمثلِ ما يكون.

---

(١) انظر: جمهرة رسائل العرب، لأحمد زكي صفوت ١/ ٢٣١.

(٢) الطبقات الكبير٦/ ٣٨٢-٣٨٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٠٢.

[٧] بِنَاءُ خُطبةِ الصَّحابة

(الوَحدة الموضوعيّة)

ليس للخطابة وحدةٌ عضوية، ذلك أنَّ: «أجزاء الخطابة ليست لها الحدود الحاسمة التي للشعر؛ لأن الحكاية في الشعر تتوقف على فعلٍ واحدٍ ذي أجزاء متسلسلة .. على حين الوحدة في الخطابة إضافية؛ لأنها لا تتوقف على تحديدٍ طبيعي، فليس مرجع هذه الوَحدة إلى مادة الموضوع، ولا إلى وحدة الفعل، وليست المحاكاة غاية الخطابة الفنية حتى تكتسب الحكايةُ فيها معنى الضرورة والاحتمال، ولهذا كله لم يكن للخطابة وحدةٌ عضوية نظير تلك الوحدة التي تتوافر للشعر، ولكن الوحدة في الخطابة نسبية، إذ يمكن أن تُزاد أجزاؤها أو تنقص على حسب المقام، دون أن تُضارَّ وَحْدتُها»[1].

أما في وَحدة الموضوع، فقد أُثِر عن الصحابة نوعان من الخطابة[2]: نوعٌ تحدَّثوا فيه عن موضوعٍ واحد، ونوعٌ جعلوه لغير موضوع. والنوع ذو الوَحْدَة الموضوعية ـ كما يتَّضح مما عُرِض قبلُ من أنواع الخُطَب المختلفة ـ هو الأعمُّ الأغلب.

فخطبُهم في الجهاد والقتال والفتنة، وخطبهم في الزُّهد والرثاء، وخطبهم في الشُّكر؛ تكاد تكون خالصةً كلُّها لموضوعٍ واحد.

أمَّا خطبهم في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخطبُهم في السياسة وحُكم الناس، فإن معظمها كان ذا موضوعٍ واحدٍ كذلك.

---

(١) النقد الأدبيُّ الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٩٨.

(٢) ليس للخطابة موضوعٌ خاصٌّ تبحث عنه بمعزلٍ عن غيره؛ فإنها لا تمتنع عن النظر في كل العلوم والفنون، ولا شيء حقيرًا كان أو جليلًا، معقولًا أو محسوسًا؛ إلا يدخل تحت حكمها، ويخضع لسلطانها، انظر: كتاب علم الأدب، الجزء الثاني: في علم الخطابة، تأليف الأب لويس شيخو اليسوعي، ص٩، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط٣/ ١٩٢٦م.

لم تكن الخطابة الجاهلية «ذاتَ موضوعٍ محدد، ومن ثَمَّ كانت تأخذ شكل أقوالٍ متناثرةٍ لا رابط بينها[1]، أمَّا في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوعٌ واحدٌ يجول فيه الخطيب ويصول، إذ يُحدِّث الناسَ واعظًا، أو يعرض عليهم حَدَثًا محدَّدًا من أحداث الإسلام، بحيث نستطيع أن نقول: إن الخُطبة أصبحت ذاتَ موضوعٍ، تُلِمُّ بأطرافه وتفاصيله. وبذلك كلِّه نهضت الخطابة ونهض معها النثرُ نهضةً واسعة، فقد أخذ الخطباء يوسِّعون طاقته بما يحملونه من معاني الإسلام، وما يبسطون في هذه المعاني ويولِّدون ويفرِّعون»[2].

والصحابة بهذا إنما ينقلون الخطابةَ درجةً باتجاه السَّعة والتدقيق في تناول الغرض الواحد، وقد كانت خطبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كثيرها خطبةً مشتملةً على مواضيع شتَّى، ومعانٍ مختلفات. وكان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشير إلى المعنى في الخطبة بالإشارة الموجزة الدالَّة على أبوابٍ كثيرةٍ من أبواب العلم فيه، وكان ذلك مناسبًا أفهامَ المخاطَبين لذلك العصر[3]. ثم جاء عصرٌ تشعَّبت الحياة بالناس فيه، والْتَاثت بهم الأمور، فكانوا أشدَّ حاجةً إلى الصحابة ـ أهلِ العلم والحكمة ـ يُبيِّنون لهم ما غَمُض عليهم، ويُفصِّلون لهم ما أُجمل، ويهدونهم في الذي اشتبه عليهم أو اعتاص والتبس.

(الطول والقِصَر)

ومع ذلك فقد اختلفت خطب الصحابة طولًا وقِصَرًا، إلا أن سوادها الأكبر كان ذا توسُّطٍ بين الطول والقِصَر.

---

(١) هذا إذا قسنا ما انقرض من خطابتهم على النزر اليسير الذي وصل إلينا، وإلا فقد قال الدكتورشوقي ضيف نفسُه ـ صاحبُ هذا الكلام ـ في كتابٍ آخر له: «وهذا الجاحظ على كثرة ما روى في بيانه من خُطَبٍ لم يستطع الاستشهاد للجاهليين إلا بجُمَلٍ وصيغ متفرِّقة لا تُكوِّن خطبة كاملة»، الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف، ص٣٤، دار المعارف، القاهرة، ط١١.

(٢) تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، للدكتور شوقي ضيف، ص١١٤.

(٣) انظر: جانبًا من خُطَبه صلوات ربي وسلامه عليه في: جمهرة خطب العرب، لزكي صفوت ١/ ١٤٧-١٦٦.

وليس معنى الطول أنها تطول فتبلغ الأوراق الكثيرة، بل هو طولٌ منتسِبٌ إلى ما عُرف عن العرب من الإيجاز والتقصير وإيثار التقليل في الكلام[١]. فمن خطبهم الطويلةُ شيئًا ما خطبةُ جُمْعةٍ لعمر بن الخطاب بالمدينة، ذكر فيها الرجمَ، وقصةَ البيعة، بيعةِ أبي بكر وما دار فيها، وهي في نحو ورقتين من القَطْع الصغير من أوراقنا الحديثة[٢]. وإنما طالت هذه الخطبة لانطوائها على السرد، ولرواية عُمر في ثناياها خطبتين من خطب يوم السقيفة: واحدةٍ لرجلٍ من الأنصار، وأخرى هي خطبة أبي بكر المعروفة يومئذٍ، وهو ما يُعَدُّ جديدًا في الخطابة العربية، أن يرويَ رجلٌ خطبةَ غيره في خطبته، فما بالُك برواية خطبتين؟

وله خطبةٌ أخرى قريبٍ من هذه في الشُّكر وما مَنَّ الله به من النِّعَم، وهي في نحو ورقتين كذلك[٣].

ومن الخطب الطويلة خطبةُ ظَبْيان بن كُدَادة التي مرَّ الكلام عليها في خطابة الوفود[٤].

ومنها خطبةٌ طويلةٌ للحُسين بن عليٍّ قالها يوم مقتله، وعظ فيها قاتليه وهم دانون منه بما له من الحقِّ عليهم، وبما أقدَمَه عليهم، وهي خطبةٌ يشيع فيها الحوارُ والمساءلة، وليست خطبةً مُتَّصلةً مُسترسلة[٥].

---

(١) يقول الجاحظ: «ثم اعلم بعد ذلك أن جميع خطب العرب، من أهل المدر والوبر، والبدو والحضر، على ضربين: منها الطوال، ومنها القصار، ولكل ذلك مكانٌ يليق به، وموضعٌ يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستويًا في الجودة، ومتشاكلًا في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفِقر الحسان، والنُّتَف الجياد. وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، وإنما حظُّه التخليد في بطون الصحف. ووجدنا عدد القصار اكثر، ورواة العلم الى حفظها اسرع»، البيان والتبيين ٢/ ٧.

(٢) انظرها في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٠٤-٢٠٦.

(٣) وقد اثبتناها من قبل، وانظرها في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٦-٢١٨.

(٤) انظرها في: تاريخ المدينة، لعُمر بن شبَّة ٢/ ٥٥٢-٥٥٨.

(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٢٤-٤٦٢.

وإذا عرضنا لِقِصار الخطب فحريٌّ بنا الإلماعُ بأن بعضها ربما صار قصيرًا بسبب الرواية، والشكُّ يساورنا أنَّ منها خطبةَ عمر التي تُروى على هذه الصورة: لما استُخلف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صعِد المنبر فقال: «إني قائلٌ كلماتٍ فأمِّنوا عليهنّ، فكان أول منطق نطق به حين استخلُف، قال: إنما مَثَلُ العرب مَثَلُ جملٍ أَنِفٍ اتَّبع قائدَه، فلينظر قائدُه حيث يقوده، أما أنا فوربِّ الكعبة لأحملنهم على الطريق»(١).

فقد يظهر من قوله: «فكان أول منطق نطق به» أنه ثمة كلام مقولٌ بعده، وأنه لم يجمعهم ليضرب لهم هذا المثل وحده، ومثل هذا كثيرٌ في الرواية عند المتقدمين، أن يكتفوا بجُزءٍ من القول ولا ينقلوه كلَّه اختصارًا، أو أن هذا الجزء فيه غُنْيتُهم من الأثر، وشاهدُهم الذي يطلبونه منه.

وسوى ذلك فليس بمستغربٍ أن نلقى في خطب الصحابة خطبةً قصيرةً بل موجزة، فإنهم إلى مثل هذا يحِنُّون، وبه يُعجبون ويَفخرون.

فمن قصيرها خطبةٌ لخالد بن الوليد في إثر كتابٍ أتاه من أبي بكرٍ يأمره بالمسير إلى العراق، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم، قال: «الحمد لله، واللهُ أهله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فإن خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلينا يحضُّنا على طاعة ربنا، وجهاد عدونا وعدو الله، وبالجهاد فى سبيل الله، أنجز الله دعوتَنا وجمع كلمتَنا وأمنيَّتَنا، والحمد لله رب العالمين، ألا إنى خارجٌ ومُعسكرٌ وسائر إن شاء الله ومعجِّل؛ فمن أراد ثواب العاجل والآجل فلينكمش»(٢).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٣٣.

(٢) جمهرة خطب العرب ١/ ١٨٨-١٨٩.

ومثل هذا المقدار من الطول غير قليل في خطب الصحابة(١)، وهناك ما هو أقل منه كخُطب الطاعون الثلاث: لأبي عُبيدة، ومعاذ بن جبل، وعمرو بن العاص؛ وقد سلفن(٢).

وهناك الخطب الوجيزات التي لا تُجاوز بضع كلمات. فمنها ما أوجز فيه الصحابة للبلاغة والتأسُّف، كقول عبد الله بن الزُّبير فيما نقله الجاحظ أنه لـمَّا جاءه قتلُ أخيه مُصعب بن الزُّبير قام خطيبًا فقال: «إنَّ مُصعبًا قدَّم أَيْرَه، وأخَّر خَيْرَه، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة، وترك حَلْبة أهل الشام حتى غشيته في داره، ولئن هلك مُصعب إنَّ في آل الزبير خلفًا منه»(٣).

أو للبلاغة والتَّشفِّي، كخطبة ابن الزبير أيضًا لـمَّا بلَغَهُ قَتْلُ عبد الملك بن مروان عمرَو بنَ سعيد الأشدق: «إنَّ أبا ذِبَّان، قَتَلَ لطيمَ الشيطان، كذلك نولِّي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون»(٤).

وأبو ذِبَّان كُنيةٌ غلبتْ على عبد الملك بن مروانٍ لفسادٍ كان في فمه، وقيل: لأن شفته كانت تَدمى فيقعُ عليها الذباب، ولطيمُ الشيطان: لقبٌ لعمرِو الأشدق، لميلٍ كان في فمه. فكأنه استبدل بالاسمين الكُنيةَ واللقبَ الذَّميمَيْن(٥)؛ نكايةً وتشفِّيًا وأخْذًا لحظِّ النفس. إنَّ نظر ابن الزبير إلى ما في الرجلين من عاهةٍ متقاربةٍ حيلةٌ فنِّيَّةٌ متعمَّدة، كأنه يقول: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد ابتلى كلَّ واحدٍ منهما في فمه، ثم قَتَلَ أحدَهما الآخر.

---

(١) انظر: أيضًا خطبة أبي بكر التي مطلعها: «ألا إن لكل أمرٍ جوامع، فمن يُلْفها فهي حسبه ..»، كتاب الرِّدّة، المنسوب للواقدي، ص٢٠١، فهي قصيرةٌ أيضًا.

(٢) انظرهنَّ في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦٢.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٩٥.

(٤) العقد الفريد ٥/ ١٤٨.

(٥) انظر: حديثًا عن «الاستبدال» في هذه الخطبة ـ وهو من مصطلحات اللغويين المحْدَثين ـ في: الخطب السياسية في العصر الأموي: دراسة نحوية نصّية، لمحمد ماهر عبد الرحمن، ص١٥٨، ١٦٤.

ثم أورد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٩]. كأنه جعل هذا الابتلاء الذي أورده في خطبته رمزًا، بل جزاءً لهما على ما اقترفاه من الظلم، وإحالةً على سابق عهد الناس، ومعرفتهم بصنيع كل واحدٍ منهما.

وقد يوجزون في الخطب لداعي التأسُّف والحُزن، وهما يقطعان كلَّ كلامٍ، حتى إنْ طالتْ المعاني في النفس، كخطبة الحسن في أهل العراق خطبةً شديدةَ الإيجاز، وهي مع ذلك غفيرةُ المعنى، لم يزد فيها على أن قال: «يا أهل العراق، إنه سخَّي بنفسي عنكم ثلاثٌ: قَتْلُكم أبي، وطعنُكم إيَّاي، وانتهابُكم متاعي»(١).

أو يوجزون لداعي السعادة المشوبة بالشماتة، كخُطبة معاوية إذ بلغه مَهْلِكُ الأشتر(٢): «أما بعدُ، فإنه كانتْ لعليٍّ بن أبي طالب يدان يمينان: قُطعت إحداهما يوم صِفِّين - يعني عمارَ ابن ياسر - وقُطعت الأخرى اليوم - يعني الأشتر»(٣).

فكل ما مضى إنما داعيه الإيجازُ والبلاغة، وقد يأتي الإيجاز لداعٍ من غير البلاغة، كالذي يُروى عن عُثمان بن عفان أنه لما صعِد المنبر في أول عهده بالخلافة، وقد رماه الناس بأبصارهم؛ قال: «أيها الناس، إنَّ أولَ مركَبٍ صعب، وإنَّ بعد اليوم أيَّاما، وإن أعِشْ تأتكم الخطبةُ على وجهها، وما كنا خطباء، وسيُعلِّمُنا الله»(٤). فإنَّ هذا الإيجازَ لم يكن مقصودًا لذاته، بل استدعاه هيبةُ الموقف، وإن كان مشتملًا على جميلٍ من التخلُّص.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٥٩.

(٢) هو: مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي المعروف بالأشتر، له إدراك، شهد خطبة عمر بالجابية، وشهد اليرموك فذهبت عينه، وكان رئيس قومه. وقد روى عن عمر وخالد بن الوليد وأبي ذرٍّ وعلي. وصحب عليًّا، وولاه على مصر بعد صرف قيس بن سعد بن عُبادة عنها، فلما وصل إلى القلزم شرب شربة عسل فمات، فقيل: إنها كانت مسمومة، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين بعد أن شهد مع علي الجمل ثم صفين، وأبدى يومئذٍ عن شجاعة مُفرطة، انظر: الإصابة ٦/ ٢٨٦-٢٦٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٦.

(٤) الطبقات الكبير ٣/ ٥٩.

وأجلى منه وألزُّ بالاستشهاد ما رُوي أن معاوية خطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحَرِّ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال: «إن الله عَزَّوَجَلَّ خلقكم فلم يَنْسَكُم، ووعَظَكُم فلم يُهْمِلْكُم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، قوموا إلى صلاتكم»(١).

فخفَّفَ الخطبة واقتَضَبَها للحَرِّ والمشقَّة، وهما سببٌ لا علاقة له باللغة.

(عناصر بناء الخطبة)

لعلَّ سابرًا متونَ خطب الصحابة واجدٌ أساسهَا مبنيًّا على سبعة عناصر، يختلف نصيبُ كل خطبةٍ منها، تكاد لا تجتمع كلُّها في خطبة واحدة، تلك السبعةُ العناصر هي: (التحميدُ، والتشهُّد، والصلاةُ على النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأمَّا بعد، والافتتاحُ، والموضوعُ، والخاتمة).

التحميد:

أما التحميد فما أكثر ما كان الرواة يُشيرون إليه ولا ينقلونه، فيقولون: «فحمد الله وأثنى عليه»(٢)، وقد يصفونه من غير نقلٍ أيضًا، كقول بعضهم عن خطبة معاوية لـمَّا حضرته الوفاة: «فحمد الله وأثنى عليه، وأوجز»(٣).

أو ينقلون بعضه ثم يعتذرون عن أنهم لم ينقلوه وافيًا لأنهم لم يقدروا على حفظه، كقول عبد الله بن غُزيَّة: «أقبل أهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عَيْن الوردة على مسيرة يومٍ وليلة، قال عبد الله: فقام فينا سُليمان (أي: ابن صُرَد)، فحمِد الله **فأطال**، وأثنى عليه **فأطنب**. ثم ذكر السماء والأرضَ، والجبال والبحار، وما فيهنَّ من الآيات، وذكر آلاءَ الله ونعمَه، وذكر الدنيا فزهَّد فيها، وذكر الآخرة فرغَّب فيها، **فذكر من هذا ما لم أُحْصِه، ولم أقدر على حفظه**، ثم قال: أما بعد ...»(٤).

---

(١) العقد الفريد ٤/ ١٤٨.
(٢) انظر: مثلًا تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢١٨، ٣/ ٥٢٣، ٥/ ٨٠، ٥/ ٤٠٣، ٥/ ٤٢٤.
(٣) البيان والتبيين ٢/ ٥٩-٦٠.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٩٦.

ومثله قولُ راوي خُطبة الحُسين قبل مقتله يَسْتلين قلوب مُحاجزيه، بعد أن ذكر بكاء نسائه؛ قال: «فلمّا سكتْن حمد الله وأثنى عليه، وذكر اللهَ بما هو أهلُه، وصلَّى على محمد صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه، **فذكر من ذلك ما الله أعلم، وما لا يُحصَى ذِكْرُه**، قال: فوالله ما سمعتُ متكلمًا قطُّ قبله ولا بعدَه أبلغَ في منطقه منه، ثم قال: أما بعد ...»[(١)].

ثم ما سوى ذلك ـ وهو القليل ـ أنهم كانوا يُثْبتون ألفاظ التحاميد في الخُطب. والذي وقع إلينا من ذلك يأتي على صُوَر.

فهنالك الحمد القصير بالمأثور عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كقول عُثمان مثلًا في خطبته يردُّ على المحيطين بداره: «الحمد لله، أحمده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكَّل عليه»[(٢)]، فهذا حمد فيه من نَفَس النبوة[(٣)]، يقول ابن قتيبة: «تتبَّعتُ خطب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجدتُ أوائل أكثرها: الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونستغفره، ونتوبُ إليه...»[(٤)]. ومثل هذا حمدٌ مُعتادٌ يصلُح لكل شيء، ولا يتعلَّق به من معاني الخطبة شيء.

وهنالك حَمْدٌ يوافق به صاحبُه معنى الخطبة، كقول البراء بن مَعْرور في بيْعتهم النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةَ العقبة: «الحمد لله الذي أكرمَنا بمحمد، وحبانا به، فكُنَّا أولَ مَنْ أجاب، وآخرَ مَنْ دعا»[(٥)].

فأثنى على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثناءً يُناسب مقامَ البيعة، ويدلُّ على بقيَّة الخُطبة.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٢٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٧٤.

(٣) انظر: كنز العُمّال في سنن الأقوال والأفعال، للبرهان فوري، علاء الدين عليّ بن حسام الدين المتقي الهندي ١٦/ ١٢٤، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥/ ١٤٠١هـ.

(٤) عيون الأخبار ٥/ ٢٣١.

(٥) الطبقات الكبير، لابن سعد ٣/ ٥٧١.

ومن مناسبة الحمد للخطبة أيضًا قولُ سليمان بن صُرَد في خُطبته الحاثَّة على الاستقتال عَقِيبَ المصاب بآل بيت النبيِّ: «أُثني على الله خيرًا، وأحمد آلاءَه وبلاءَه ...»[1].

وقولُ عمر بن الخطَّاب بالجابية وقد دعاه أهلُ الشام إلى أن يكون هو صاحبَ الصلح، وكاتبَ الأمان لهم، وكانت الخطبة في المسلمين قبل دخوله، فقال: «الحمد لله الحميد، المستحمَدِ المجيد، الدفَّاعِ الغفورِ الودود، الذي مَنْ أراد أن يهديَه مِن عباده اهتدى، ومَنْ يُضلل فلن تجد له وليًّا مُرشدًا»[2].

يمتدح عُمر بحمده المؤمنين المهتدين الذين فتح الله لهم ونَصَرَهم، وينعَى على الكافرين الضالِّين الذين قوَّض الله عليهم وأذلَّهم، وهو يقتبس في سجعات حمده من فواصل سورة البروج، وكأنه يُعيد إلى الناس قصةَ المؤمنين المستضعفين ـ وكان الصحابة كذلك ـ وكيف يقلب الله الحالَ من الضعف إلى القوة، ومن العجز والذِلَّة إلى المَنَعَة والعِزَّة، وكأنه باستجلاب هذا السجع يذكرهم بأن النصر من عند الله، وأن المؤمن بالله الموقِنَ به أجملُ أحواله في مثل هذا الموقف التواضُع.

ومن مثل هذه الفئة من الحمد المطابِقِ مقتضى الحال قولُ علي بن أبي طالب في إثر التحكيم مُلْمعًا إليه وهو يحمد الله على أقداره: «الحمد لله وإن أتى الدهرُ بالخَطْب الفادح، والحَدَثان الجليل»[3].

فهذا وما مرَّ نَمَطٌ من الحمد موجزٌ دالٌّ على ما سيأتي بعده من الكلام في الخطبة.

وقد استحسن ابن المقفَّع ـ فيما نقله الجاحظ عنه وشَرَحَه ـ أن يكون صدر الكلام هاديًا إلى غرضه؛ فقال: «فأما الخُطَبُ بين السِّماطين، وفي إصلاح ذات البين؛ فالإكثار في

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٥٤.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٥١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك٥/ ٧٧.

غير خَطَل، والإطالةُ في غير إملال. وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيتُ الذي إذا سمعتَ صدره عرفتَ قافيته. (قال الجاحظ): «كأنه يقولُ: فَرِّقْ بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبةِ الصلح، وخطبة المواهب، حتى يكون لكلِّ فَنٍّ من ذلك صدرٌ يدلُّ على عجُزه؛ فإنه لا خير في كلام لا يدلُّ على معناك، ولا يُشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغَرَض الذي إليه نزعت»[1].

ولهم في خطبهم تحاميدُ أخرى أطول؛ كحَمْد سعد بن أبي وقاصٍ ربَّه في خطبةٍ حمدًا طويلًا جزيلًا جاء فيه: «الحمد لله بديئًا كان، وآخِرًا يعود، أحمده لِما نجَّاني من الضلالة، وبصَّرني من الغواية، فبهُدى الله فاز من نجا، وبرحمته أفلح من زكا، وبمحمد بن عبد الله ﷺ أنارتْ الطرق، واستقامتْ السُّبُل، وظهر كلُّ حق، ومات كلُّ باطل»[2].

وكحَمْد عليٍّ في بعض خطبه ربَّه حَمْدَ العالِمِ العارف: «الحمد لله الذي لا يُبْرَم ما نَقَض، وما أَبْرَم لا ينقضُه الناقضون، لو شاء ما اختلف اثنان من خَلْقه، ولا تنازعتْ الأُمَّةُ في شيءٍ من أمره، ولا جَحَدَ المفضولُ ذا الفضل فَضْلَه»[3].

التشهُّد:

وأمَّا التشهُّد فهو أن يقول الخطيب في خطبته بعد الحمد: «وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله»[4]. أو أن يقول: «وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق لِيُظهره على الدين كلِّه، ولو كره المشركون»[5]؛ أو يقولَ ما هو قريبٌ من هذا.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٣.

(٤) انظر: خطبةً لعلي بن أبي طالب في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٧٧.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٧٤.

والذي يدلُّ على أن التشهُّد من أصول الخُطَب التي طالما أغفلها الرواةُ آثارٌ تُروى في كَنَف بعض الخطب، كهذه الخطبة لعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي تقول روايتُها: «بعث معاويةُ النعمانَ ابن بشير في ألفين، فأتوا عَيْنَ التمر، فأغاروا عليها، وبها عاملٌ لعليٍّ يُقال له: ابن فلان الأرحبيُّ في ثلاثمئة، فكتب إلى عليّ يستمدُّه، فأمر الناس أن ينهضوا إليه، فتثاقلوا، فصعِد المنبر، فانتهيْتُ إليه وقد **سبقني بالتشهُّد**، وهو يقول: يا أهلَ الكوفة ...» الخطبة[1].

وكالرواية الأخرى عن ولده الحَسَن ـ وقد قَلَّتْ آثارُ الحَسَن في النثر لقِلّة مُدَّته ـ وفيها حكى الزُّهْريُّ عن تشهُّده يومَ دعاه معاويةُ إلى الخطبة ابتغاء فُجَاءَته، فيبدو أمام الناس عييًّا، قال: «فتشهَّد في بديهة أمرٍ لم يُرَوِّ فيه، ثم قال: أما بعد ...»[2].

والرواة إنما يفعلون مثل هذا العمل في القديم اختصارًا، وظنًّا منهم أن خَطَر نقل التشهُّد والتحميد ليس كخطر نقل متن الخطبة، واطمئنانًا منهم إلى أنَّ المسلمين يعرفون صيغ التشهُّد فلا يأبهون كثيرًا لإثباتها وكتابتها. وليتهم لم يحيفوا عن هذا المنهج الذي التزموه في المتن؛ فإنهم لو أثبتوا التشهُّد وأشباهَه من الممهِّدات لموضوع الخُطب، للقِيتْنا أفانينُ أخرى وألوانٌ من الأدب تزيدُنا علمًا وبَصيرةً بلسان أولئك القوم وأدبِهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

والقولُ في الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالقول في التشهُّد، من الاكتفاء بالرواية أنَّ الخطيب أثنى على الله وصلَّى على رسوله، من غير إيراد الصيغ[3].

يقول الجاحظ: «إن خطباء السلف الطيِّب، وأهلَ البيان من التابعين بإحسان؛ ما زالوا يُسمُّون الخطبة التي لم تُبدأ بالتحميد، وتُستفتح بالتحميد: البَتْراء، ويُسمُّون التي لم تُوشَّح بالقرآن، وتُزيَّن بالصلاة على النبي: الشَّوْهَاء»[4].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٣٣-١٣٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، للطبري٥/ ١٦٣.

(٣) انظر: خطبة عمر بن الخطاب وهو بالشام في: فتوح الشام، للأزدي، ص٢٦٥، وأخرى لعلي بن أبي طالب في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٨.

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٦.

لقد صار معروفًا إذن أن إهمال الرواة روايةَ التحميد والتمجيدِ والصلاةِ على النبي عن الصحابة، ليس معناه انعدامَه في خَطابتهم، فإنهم لأولَى الناس وأحرصَهم على تمجيد الله تعالى، وحمده، والصلاة على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أمَّا بعدُ:

وأما كلمة (أمَّا بعدُ)[1] فهي الفصلُ بين التقديم أو التمهيد للخطبة والولوجِ إلى موضوعها، وهو التخلُّص الثابت الملتَزم فيما بينهما، والمقصود بها: أي: أمَّا بعد حمد الله تعالى وتمجيده والصلاةِ على نبيِّه. والمستقِرُّ اللازب المرويُّ فيها أنها لا تتخلَّف في خطب الصحابة إلا تخلُّفًا يسيرًا. وقد كرُبت الرواة لا تروي خطبةً إلا وتسبقها بما يدلُّ على بداية متنها بقولهم: ثم قال: «أما بعد ...»، ثم يروون الخطبة.

فمن أمثلة الخطب التي تخلو من (أما بعد) خطبة عبد الرحمن بن عوفٍ، وخطبةُ عثمان ابن عفان، وخطبة سعد بن أبي وقاص، وخطبة علي بن أبي طالب؛ يومَ الشورى[2].

فقد استعاض عبد الرحمن بن عوف في خطبته عن (أما بعدُ) بقوله: «يا هؤلاء»، إذ إن (أمَّا بعد) وإن كانت تتفق مع النداءِ محذوفِ الحرف كقولهم: «أيُّها الناس»؛ فإنها تثقل مع النداء بـ(يا)، خاصَّةً إذا كان الخطيب في عَجَلةٍ من أمره إلى غرضه؛ ذلك أنَّ (أما بعد) تُمثِّل استكانةً في خُطَبٍ جَـمَّةٍ بين التحميد والثناء وما يريدُ الخطيب أن يعرضَه في خطبته، فكأنَّ عبد الرحمن أغفلها عمدًا ليُدخِل في قلب المصغي إليه خطرَ ما يُلقَى عليه.

أما عثمان بن عفان فقد احتال لحذفها من خطبته بنداء اسم ابن عوف نفسِه عِوضًا عنها، فقدَّمه محَلَّها ـ وكان ابن عوف هو الواعظَ قبله في خطب الشورى، وإخال لو كان رجلًا

---

(١) رُوي أن داود أول من قال: «أما بعد»، وقيل: هي فصل الخطاب في قول الله تعالى عن داود: «وآتيناه الحكمةَ وفصلَ الخطاب». وقيل: أول من قالها قُسُّ بن ساعدة، انظر: كتاب الوزراء والكُتَّاب، للجهشياري، محمد ابن عبدوس، ص١١، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١/ ١٩٣٨م.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٤.

غيره لذكره ـ فقال: «الحمد لله الذي اتَّخذ محمدًا نبيًّا، وبعثه رسولًا، صدَقَه وعدَه، ووهب له نصرَه، على كل من بعُد نسبًا، أو قرُب رَحِمًا، صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، جعلنا الله له تابعين، وبأمره مهتدين؛ فهو لنا نور، ونحن بأمره نقوم، عند تفرُّق الأهواء، ومجادلة الأعداء. جعلنا الله بفضله أئمةً وبطاعته أمراء، لا يخرج أمرُنا منا، ولا يدخل علينا غيرُنا إلا من سفِه الحقَّ، ونكَل عن القصد، وأَحْرِ بها يا ابن عوفٍ أن تُترك، وأحذِرْ بها أن تكونَ إن خولف أمرُك، وتُركَ دعاؤك»[1]. فكأنه لو أراد ذكرَ (أما بعد) لأغضى عن نداء «ابن عوف» ولقال: أما بعد، فأحرِ بها أن تُترك، وأحذِرْ بها أن تكون إن خولف أمرُ ابنِ عوف، عندئذٍ يكون الكلام نازلًا، والحُجَّةُ ضعيفةٌ مظنونٌ فيها تحيُّزُ عثمان إلى رأي ابن عوف، لا نُصرتُه للحق الذي أنطقه الله على لسان ابن عوف، فأيَّدَه عثمانُ لذاته لا لذات ابن عوف. وشتَّان بين المقامين. فهذا بابٌ من البلاغة في الخطابة لطيفٌ نذكره لعثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذا الموضع.

على أن قيسَ بن سعدٍ حذف (أما بعدُ) في خطبةٍ له حذفًا من غير سبب، إذ قال في خطبته في أهل مصر وقد أتاها أميرًا لعليّ: «الحمد لله الذي جاء بالحق، وأمات الباطل، وكبت الظالمين. أيُّها الناس، إنا قد بايعنا خيرَ مَنْ نعلم بعد محمدٍ نبينا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقوموا ـ أيُّها الناس ـ فبايعوا...» الخطبة[2]. وهذا من أندر ما يكون.

وقد يجد بعض الصحابة في لفظة «ألا» بديلًا صالحًا في مكان (أما بعد)، كقول عليٍّ بعد الحمد الجزيل لله تعالى والثناء عليه: «ألا إنكم لاقوا العدوِّ غدًا، فأطيلوا الليلة القيام»[3]، وكقول محمد بن أبي بكر حين قدِم مصر واليًا لعليّ: «الحمد لله الذي هدانا وإيَّاكم لما اختُلف فيه من الحق، وبصَّرنا وإيَّاكم كثيرًا بما عَمِيَ عنه الجاهلون. ألا إن أمير المؤمنين ولَّاني أمورَكم...»[4].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٥.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٩.
(٣) تاريخ الرسل والملوك٥/ ١٤.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٦.

فواتح الخطب:

ثم إن خطيب الصحابة يلج بعد (البعدية) أو ما يقوم مقامها إلى غرضه، فمنهم من يخوض فيه خوضًا، ويدخلُ فيه دخولًا، وهو جماهير تلك الخطب، كأن يقول في خطبته مثلًا وهو يتحدث عن (الولاية): «أما بعد أيُّها الناس، فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم...»[1].

أو يقولَ وهو يشدُّ من أزرهم ليُقاتلوا: «أما بعدُ، يا آلَ الزبير، فلا يروعنَّكم وَقْعُ السيوف؛ فإني لم أحضر موطنًا قطُّ إلا ارتُثْت فيه من القتل...»[2]، والأمثلةُ على هذا كثيرة.

ومنهم من يخترع لخطبته مدخلًا يثني أعناقَ الناس إليه؛ فحُبِّبَ إلى نفرٍ من الصحابة طريقةُ الأسئلة يجتذب العقول بها، كسؤال عُمر بن الخطاب الرعيةَ في فاتحة خطبته عامَ الرمادة: «أيُّها الناس، أَنشُدُكم الله؛ هل تعلمون مني أمرًا غيرُه خيرٌ منه؟ قالوا: اللهم لا...»[3].

إنَّ هذا السؤال الاستدراجيَّ من رجلٍ معروفٍ بالعدل والنصيحة للمسلمين كعُمر، كفيلٌ بأن يَشغَلَهم عما في أيديهم ليُصْغوا، عساهم أن يعرفوا ما حَمَلَ عمرُ على سؤالهم سؤالًا كهذا.

ومن الافتتاحات المختلفة النادرة التي هي نوعٌ من الأسئلة التعجُّبيَّة التفخيمية، قولُ عائشة في صدر خطبتها تدافع عن أبيها: «أبي وما أبيَه؟!»، ثم قالت: «أبي والله لا تعطوه الأيدي، ذاك طودٌ مُنيف ...» الخطبة[4].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢١٠، والسيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٦٦١، والخطبةُ لأبي بكر.

(٢) الطبقات الكبير ٦/ ٥١٧، والخطبة لعبد الله بن الزبير.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٩٩.

(٤) انظر: شرح خُطبة عائشة أم المؤمنين في أبيها، لمحمد بن القاسم الأنباري، ص٨.

وهو افتتاحٌ يستمدُّ جودتَه وجِدَّتَه من قياسه على فواتح بعض السُّوَر المكيَّة المهوِّلة، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢]، و﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١]، تريد عائشة أن تُخوِّف الناس وتهوِّل عليهم القدح في أبي بكرٍ، أو النيلَ من جنابه.

ومنهم من كان يعمد إلى تقدِمة بليغة شديدة الأسر، يُبهر القلوب بجَرْسِها، ويستولي على الأسماع بسِحْرها، كما في قول عثمان في مطلع خطبته في العائبين عليه، الناقمين منه: «أما بعدُ، فإنَّ لكل شيءٍ آفة، ولكل أمرٍ عاهة، وإن آفة هذه الأمة، وعاهةَ هذه النعمة، عَيَّابون طَعَّانون، يُرونكم ما تحبون، ويُسِرُّون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، أمثالُ النَّعام يتبعون أول ناعق، أَحبُّ مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلا نَغَصًا، ولا يرِدون إلا عكَرًا، لا يقوم لهم رائد، وقد أعيتْهم الأمور، وتعذَّرت عليهم المكاسب، ألا فقد والله عبتم عليَّ بما أقررتم لابن الخطابِ بمثله...» ثم انطلق في خُطبته[1].

إن فاتحةَ الخطبة «نظيرُ المدخل في المسرحية والملحمة، ونظيرُ التمهيد الموسيقيِّ في الموسيقى»[2]، تعمل على استلاب أفئدة المتلقين، وأسماعهم، وأبصارهم.

ومن الحِيَل الجيِّدة في عرض الغَرَض بدؤه بالكلام المستغرَب المستَنْكَر، كما صنع أبو بكرٍ في أول خطبته التي اختار لها هذه الفاتحة: «إنَّ أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك» فرفع الناسُ رؤوسَهم، فقال: «ما لكم يا معشرَ الناس؟! إنكم لطعَّانون عجِلون»[3]. أي تشكُّون فيما يُلقى إليكم مما لم تعتده أسماعُكم، وتَعْجل عقولُكم إلى إنكاره، ثم أخذ في تعليمهم والتبيين لهم، مطمئنًا إلى فلاح حيلته في اجتذابهم إليه.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٣٨.
(٢) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٩٧.
(٣) انظر: التعليق على الخطبة فيما مرَّ من خطب الزهد والمواعظ.

الخاتمة:

فإذا هم عرضوا الموضوعهم على ما بيّناه من أغراضهم فيما مضى؛ قصدوا إلى خاتمته، ولم يكن ختام خُطَبهم على سَنن واحد، فمنهم من جعل ختامَ خُطبته السَّلام[1]، ومنهم مَنْ جعل ختامَ خُطبته نهايةَ عَرْضِ غَرَضه، وهو الكثير؛ ومنهم مَنْ اعتنى به بزيادةٍ، وعرف له خَطَرَه، فإنه آخر ما يبقى في الأسماع، ويتردد في الخواطر بعد الانصراف.

فمن هذا الاعتناء قول أبي بكرٍ في خاتمة بعض عظاته: «أمَا وإنه لا خيرَ بخيرٍ بعدَه النار، ولا شرَّ بشرٍّ بعده الجنة»[2]. فإن الختام بالنار والجنة ختامٌ مناسب لنهايات خطب الوعظ؛ فالغاية من كل وعظٍ تحذيرُ الناس من النار، وإغراؤهم بالجنة. وقد قدَّم النارَ وأخَّر الجنة لتكون آخر كلمةٍ في خطبته «الجنة»، إشارةً إلى أن فضل الله كبير، وأنَّ رحمته سبقت غضبَه، وأنَّ رجاء الناس بربهم لا يخيب. وهي نهايةٌ حَسَنَةٌ زاد في حُسنها المقابلةُ الأثيرةُ في الإسلام وآثاره بين النار والجنة، تلك المقابلة التي افترق الخلقُ على إثرها فريقين. فكأنَّ أبا بكرٍ يقول للناس: أيُّها الناس، اختاروا لأنفسكم، فهذان هما الطريقان.

ومما كان عُمر يفعله في خطبته أنه كان يختمها بشُعبةٍ من شُعب الدين لا اتصال لها بغَرَض الخطبة، فيكون اصطفاؤه إيَّاها من الاهتمام لها، والإرشادِ إلى خطرها، كقوله في خطبته بالجابية مَقْدَمَه إلى الشام: «إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام في مثل مقامي هذا، ثم قال: أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذبُ، حتى إنَّ الرجل ليحلف على اليمين قبل أن يُستحلف عليها، ويشهدُ على الشهادة قبل أن يُستشهد عليها؛ فمن أراد منكم أن ينال بَحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد. ألا لا يخلونَّ رجلٌ بامرأة فإنَّ ثالثهما الشيطان ألا ومن كان منكم تسوءُه سيئتُه أو تسرُّه حسنته فهو مؤمن»[3].

(١) كخطبة عديّ بن حاتم الطائي في قومه في الردَّة، انظرها في: كتاب الرِّدَّة المنسوب للواقدي، ص٦٤.
(٢) تاريخ الرسل والملوك٣/ ٢٢٤-٢٢٥.
(٣) السنن الكبرى، للنَّسائي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب ٥/ ٣٨٧، تحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١١ هـ.

إن نظرًا بين مقام الخطبة ونهايتها يفسِّر هذه النهاية التي أنهاها عمرُ بها، فقد رأى عمر أنَّ واجبَ الوقت نصيحةُ المسلمين، وتحذيرُهم من الخلوة بالنساء في هذه الأقطار المنتشرةِ بها بناتُ بني الأصفر، وهو يعلم أنهنَّ لمسلمي العرب فتنة.

وقد يُقال إن ثَمَّةَ اتصالًا ما بين الخطبة وآخرِها، ذلك أن الخلوة والانفرادَ هما نوعُ شذوذ عن الجماعة لا يُبالي الله عَزَّوَجَلَّ به. وهو ـ إن كان ـ ختامٌ حَسَنٌ أيضًا، واستخراجٌ لطيفٌ فيه التحذيرُ من خطر الخلوة مما هو من صميم مقصود عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإذا كان بعضهم قد افتتح بالسؤال فهناك الاختتام بالسؤال أيضًا، كقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في آخر خطبتها السالفةِ التي تنتصر فيها لأبيها: «فأروني ما ترتؤون، وأيَّ يومَيْ أبي تنقِمون: أيومَ مُقامه إذ عدل فيكم، أم يوم ظَعَنه إذ نظر لكم؟»[1].

إن في السؤال تلخيصَ ما جاء في الخطبة، وإقرارَ فضل أبي بكرٍ وتقدمتَه في الحياة وبعد الموت.

ومن الخواتيم اللافتة ختامُ عبد الله بن الزبير إذ قدم على عثمان بفتح إفريقية؛ بالحمد، والحمدُ مظِنَّة الافتتاح لا الختم، فقد قال في منتهاها: «وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين، أُبشِّره وإياكم بما فتح الله من البلاد، وأذلَّ من الشرك، فاحمدوا الله ـ عباد الله ـ على آلائه، وما أحلَّ بأعدائه، من بأسه الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين»[2].

---

(١) شرح خطبة عائشة أم المؤمنين في أبيها، لابن الأنباري ص[١٠]. وكانت عائشة أمُّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أفصح الخلق، وأحسنهم كلاما، روى محمد بن سيرين، عن الأحنف بن قيس قال: «سمعتُ خطبة أبي بكر الصدِّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والخلفاء هلمَّ جرًّا إلى يومي هذا؛ فما سمعتُ الكلامَ من فَم مخلوقٍ أفخمَ، ولا أحسنَ منه، من فِيِّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا»، المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، أبي عبد الله محمد بن عبد الله ٤/ ١٢، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ.

(٢) العقد الفريد ٤/ ١٧١.

ومنها ختام عثمان لخطبة موعظةٍ بآيةٍ جعل مقطعها الرائعَ آخرَ خطبته، وهو قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:٤٦][1]. فأشرع لهم باب الأمل، وشنَّف أسماعهم بالقول الجميل من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

على أن لعليٍّ من الخواتيم خاتمةً عنيفةً قاسيةً، صَكَّ بها أسماعَ أهل الكوفة ـ وكان وقتَها في كُربة منهم ومَساءة ـ فقد قال يلومُهم على تثاقلهم في عجُز بعض خطبه: «وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل مَنْ ليس له نيةٌ في جهاد العدوّ، ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إليَّ منكم جُنَيْدٌ متذائب، كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون، فأفٌّ لكم»[2]؛ فأفٌّ لكم كلمةٌ ونفثةٌ ملتاعةٌ في الوقت معًا، فرَّجَ بها عن مكبوت هَمِّه، وشديدِ حسرته وألِمه؛ وهو ينصرف عنهم من خطبته.

وكانوا يختمون بالدعاء كثيرًا[3] ولا سيَّما ذلك الأثر النبوي الذي يرد في أواخر بعض خطبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قوله: «**واستغفر الله لي ولكم**»[4].

كما أننا نشهد الختام بالدعاء في الخطب الحربيَّة بخاصَّة؛ ليشدُّوا من أزر أنفسهم، يلجؤون إلى الله تعالى، يسألونه فيها النصر، كقول عمَّار بن ياسر في آخر خطبة تحريضٍ على القتال: «اللهمَّ إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعلْ لهم الأمر فادَّخِرْ لهم بما أحدثوا في

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٣.

(٢) تاريخ دمشق ٣٤/ ٤٣٢.

(٣) مما يُذكر في ختام خطب الصحابة بالدعاء ما رواه ابنُ عبد ربه أنَّ «آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عُرِف أنه قد فرغ خطبته: اللهم اجعل خير زماني آخرَه، وخيرَ عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك»، وأنَّ «آخر كلام عُمر الذي إذا تكلم به عُرف أنه فرغ من خطبته: اللهم لا تدعْني في غمرة، ولا تأخذْني على غِرَّة، ولا تجعلني من الغافلين»، العقد الفريد ٤/ ١٣٢، ولم أجد ذلك فيما بين يديَّ من خُطبهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلعله مما لم يصل إلينا منها.

(٤) انظر: مثلًا خطبًا خُتمت بذلك لعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٥، وجميعها في قصة الشورى.

عبادك العذاب الأليم»[1]؛ وقد يسألونه خِذلان الأعداء والخصوم، كقول عليٍّ: «اللهمَّ فافضض خَدَمتهم، وشتِّتْ كلمتهم، وأبسِلْهم[2] بخطاياهم؛ فإنه لا يذِلُّ مَنْ واليتَ، ولا يعِزُّ مَنْ عاديت»[3]؛ وقد يسألونه الرحمة للمجاهدين، كما في قول سليمان ابن صُرِدٍ في مغلاق بعض خطبه يحثُّهم على الصدق في اللقاء والصبر: «رحم اللهُ امرأً صَدَقَ ما عاهد الله عليه»[4].

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٩.

(٢) أي: أَسْلِمْهم بخطاياهم، من أبسلتَ فلانًا إذا أسلمتَه للهلَكة،«لسان العرب: بسل».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٥.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٩٦.

الفصل الثاني
فُنونٌ شَفويّةٌ أُخرى

[١] سَرْدُ الصَّحابَة

القصّةُ[١]، أو السَّردُ، أو الرِّواية (Narration – Narrative) ألفاظٌ تدلُّ على مصطلحٍ مؤدَّاه: «قَصُّ حادثةٍ واحدةٍ أو أكثر، خياليةٍ كانت أو حقيقية، بحيث يكون معناه منصبًّا على النتيجة والعملية، والهدف والفعل، والبناء وإدراكِ البناء الخاصِّ بالقصّة. واستخدامُ المصطلح يدلُّ على الاقتصار على أيِّ تركيبٍ يضمُّ أيَّ عنصرين من هذه العناصر الستّة»[٢]، أي أنَّ المصطلح قائمٌ على (القصديّة) في نسج السرد، وتعمُّد القاصِّ أن يحكيَ قصّة[٣].

---

(١) اختلَف معنى «القَصّ» في زمن الصحابة عنه في هذا العصر، فقد كان القصُّ عندهم يعني الوعظ، لا حكاية قصة، انظر مثلًا ما ورد من قَصِّ أبي سفيان، أي: وعظه؛ في الطبقات الكبير ٥/ ٣٤١، وعند أحمد عن أبي المهزم قال: «كنا نأتي أبا هريرة بالغداة والعشيّ، فيقرأ علينا القرآن، ويدعو، ويقصّ» الزهد، للإمام أحمد ٢/ ٩٥، وقد روَوْا أن معاذ بن جبل خرج في اليرموك «يقصُّ على الناس» فتوح الشام، للأزدي ص٢١٨، وعن الحسن قال: «كان الأسود بن سريع، وهو من الصحابة، من أول من قَصَّ في المسجد، يعني مسجد البصرة»، الزهد، لابن المبارك ص٢٣٢، وعن نافع أن تميمًا الداريَّ «استأذن عُمر في القصص. فقال: إنه على مثل الذبح. فقال: إني أرجو العافية»، الزهد، لابن المبارك، ص٥٠٨. ثم زاد عدد الوعّاظ الذين كان يُطلق عليهم: القصاصون، وتفاقم أمرُهم في زمن بني أميّة، انظر: تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، للدكتور شوقي ضيف، ص٧٥، وهؤلاء القصّاصون لم يكونوا يستعملون القصص دائمًا في وعظهم، بل إنَّ لهم كلامًا إنشائيًّا غيرها؛ وقد كره بعض المتأخّرين -ممن لم يتبيَّن هذا الفرق- القصصَ بإطلاق، للذي بلغه من تحذير السلف من القصِّ والقصاصين، ذلك أنه كان من هؤلاء وضّاعون يأتون بالأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية، لترقيق قلوب الناس، وقد يحتالون عليهم بذلك انظر: «لسان العرب: قصص».

(٢) المصطلحات الأدبية الحديثة، للدكتور محمد عناني، ص٥٩-٦٠ الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، القاهرة، ط٣/ ٢٠٠٣م، ولاشك أن «الرواية» مقصود بها هنا أن يروي الراوي قصةً أو حدثًا في الأصل، لا الرواية بمصطلحها الحديث المستتبّ.

(٣) أو قد يُقال: إنه كان على «وَعْي» بما كان يصنع، انظر: في ضرورة الوعي عند إبداع العمل الفنّي: النقد الفني، لجيروم ستولنيتز، ص١٣٨، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠١٣م.

إن مفهوم السرد في المجمل قائمٌ على دعامتين: «أولاهما: أن يحتوي على قصةٍ ما تضمُّ أحداثًا معيَّنة، وثانيتهما: أن يُعيِّن الطريقة التي تُحكى بها هذه القصَّة، وتُسمَّى هذه الطريقةُ: سَرْدًا»[1].

وقد كان للعرب قصصٌ قبل الإسلام، اختُلِف فيه: أوَصَل إلينا أم لم يصل؟ وإنَّا لسنا معنيّين ببحث هذه المسألة هنا[2]، إنما الذي يعنينا الوقوفُ على طبيعة هذا الفنِّ بعد الإسلام عند الصحابة، والتنبيهُ على ظهوره.

إنه يستبين للباحث بعد استقراء القِصة في نثر الصحابة أنه يمكن حصرها في نوعين عامّين: قصةِ الإسلام، وقِصصٍ أخرى سواها؛ وهذا تفصيلٌ للقول في النوعين، نُتْبِعه بحديث عن بناء القصّة في نثر الصحابة.

(أ) قِصَّةُ الإسْلامِ:

في أدب الصحابة قَصَصٌ كثيرٌ يغلب عليه أن يكون من أدب السيرة الذَّاتية بوجهٍ من الوجوه؛ وهي سِيَرٌ لا تشمل تاريخَ الإنسان القاصِّ كلَّه؛ بل تقصُّ جانبًا من حياته، وطَرَفًا من سيرته فحسب، يطولُ هذا الجانبُ وذلك الطرفُ أو يقصُران، ومَنْ ذا الذي يزعم أنَّ صاحبَ السيرة الذاتية ـ حتى في العصر الحديث ـ يقصُّ على مَسْمعنا كلَّ شيء! إننا بسبيل البحث عن بذورٍ لتلك السير الذاتية في أدبنا العربي القديم لا أكثر، وليس باستطاعتنا مع ذلك الزعمُ أن هذه القِصص الذاتية قد بلغت كمالًا أو نُضجًا فنيًّا بحالٍ من الأحوال.

---

(١) بنية النصّ السردي من منظور النقد الأدبي، للدكتور حميد لحمداني، ص٤٥، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢/ ١٩٩٣م.

(٢) انظر: الحديث عن القصة في العصر الجاهلي في: الفنّ القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري، للدكتور راكان الصفدي، ص١٩ منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق ٢٠١١م، وانظر أيضًا: النثر الفني في القرن الرابع، للدكتور زكي مبارك، ص٣٧، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٢.

إنَّ أكبر قصص سير الذَّات عند الصحابة (قِصَّةُ الإسلام) التي مرَّ بتجرِبتها القاصُّ منهم. وهي القصة التي تكرَّرت كثيرًا في أخبار هؤلاء الصَّحب الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتردَّدتْ في تراجمهم[1].

(قصة الإسلام بمكة قبل الهجرة)

فأما قبل الهجرة في عَهْد الضَّعف والقِلَّة، فقد حكى لنا بعضُ الصحابة عما نزل بهم من الظُّلم، وقصُّوا علينا طَرَفًا مما لاقَوْه في سبيل إسلامهم من المهانة والعذاب الشديد. ولعل من أشهر تلك القصص قصةُ إسلام الصحابي أبي ذَرٍّ الغِفاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تبدأ القصةُ بحوارٍ بين أبي ذَرٍّ وأخيه أُنَيْسٍ الذي كانت له بمكة حاجةٌ فأبطأ، فسأله: ما حَبَسَك؟

قال: لقِيتُ رجلاً على دينك يزعم أنَّ الله أرسله[2].

قلتُ: فما يقول الناس؟

قال: يقولون ساحرٌ شاعرٌ كاهن ـ قال أبو ذر: وكان أُنيسٌ أحدَ الشعراء– فقال: والله لقد وضعتُ قوله على أقراء الشعر، فلا يلتئم على لسان أحد. ولقد سمعت قولَ الكهنة، فما هو بقولهم، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

قال أبو ذر: فقلت: اكفني حتى أنظر.

قال: نعم، وكُنْ من أهل مكة على حَذَر، فإنهم قد شنِفوا له[3] وتجهَّموا.

---

(١) وقد عدَّ بعض الباحثين قصَّةَ إسلام سلمان الفارسيّ فاتحةَ السِّيَر الذاتيّة المدوَّنةِ في الأدب العربي، انظر الفصل الأول من كتاب: السير الذاتية في الأدب العربي، لتهاني شاكر عبد الفتاح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/ ٢٠٠٢م، وانظر أيضًا: السرديَّة العربية، للدكتورعبد الله إبراهيم ص١٣٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١/ ١٩٩٢م. وليس كذلك كما سيستبين من البحث بعد قليل، إذ إنَّ للصحابة قِطَعًا من السير الذاتيَّة ظهرت قبل إسلام سلمانَ الفارسيِّ بسنوات.

(٢) لعل أبا ذَرّ كان على الحنيفية قبل الإسلام.

(٣) الشَّنَف: البُغض والتنكر، وشَنِفَ له: أبغضه، لسان العرب: شنف.

فانطلقتُ فتضعَّفْتُ رجلًا من أهل مكة، فقلت: أين هذا الرجل الذي تدعونه الصابئ؟ قال: فمال عليَّ أهلُ الوادي بكل مَدَرَةٍ(١) وعَظْمٍ وحجر، فخررتُ مغشيًّا عليّ، فارتفعتُ حين ارتفعت كأني نُصُبٌ أحمر(٢)، فأتيت زمزم فغسلتُ عني الدم، وشربتُ من مائها، ثم دخلت بين الكعبة وأستارها، فلبثت بها ثلاثين من بين يوم وليلة، وما لي بها طعام إلا ماء زمزم، فسمِنت حتى تكسَّرت عُكَنُ بطني، وما وجدتُ على كبدي سخفة جوع(٣).

قال: فبينما أهلُ مكة في ليلة قمراء إضْحِيان(٤)، قد ضرب الله على أصمختهم، فما يطوف بالبيت غيرُ امرأتين، فأتيا عليَّ وهما يدعوان إسافًا ونائلة فقلت: أنكحوا أحدهما الأخرى. قال: فما ثناهما ذلك، فقلت: (وذكر كلامًا فاحشًا لم يُكنّ عنه) فانطلقتا وهما تولولان وتقولان: لو كان ههنا أحد من أنفارنا. فاستقبلهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر بالليل وهما هابطان من الجبل. فقال لهما: ما لكما؟ قالتا: الصابئ بين الكعبة وأستارها. قال: فما قال لكما؟ قالتا: كلمة تملأ الفم.

ثم ذكر أنه خرج إليه، وسلَّم عليه، وأنه أول من حَيَّاه بتحية الإسلام، قال: وذهبت لأُقَبِّل بين عينيه فقدَعَني صاحبُه(٥).

فهذه قصةٌ واقعيَّةٌ تدخَّل الرواةُ في بعض أجزائها بالحذف؛ لاستشناعهم شيئًا من ألفاظها الصريحة في السِّباب والسُّخرية والشتيمة. وهي قصةٌ تعتمد على الحوار على قِصَرها: حوارٍ بين أبي ذَرٍّ القاصِّ وأخيه أُنيس، وبينه وبين رجلٍ من أهل مكة، ثم بينه وبين امرأتين مكِّيتين، ثم بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين المرأتين.

---

(١) المَدَرَة، واحدةُ المَدَر، وهو الطين اليابس، لسان العرب: مدر.

(٢) في لسان العرب «نصب»: النُّصُبُ: صَنَم أو حَجَرٌ، وكانت الجاهلية تَنْصِبُه، تَذْبَحُ عنده فيَحْمَرُّ للدم؛ ومنه حديث أبي ذرّ في إسلامه، قال: فخَرَرْتُ مَغْشِيًّا عليّ، ثم ارْتَفَعْتُ كأني نُصُبٌ أحمر؛ يريد أنهم ضَرَبُوه حتى أَدْمَوْه، فصار كالنُّصُب الـمُحْمَرّ بدم الذبائح.

(٣) سَخْفَةُ الجوع: رِقَّتُه وهُزالُه، لسان العرب: سخف.

(٤) إضحيان: مُقْمرة، لسان العرب: ضحا.

(٥) انظر: نثر الدُّرّ ٢/ ٧٨-٧٩.

وفي القصة كَشْفٌ عن مذهب بعض الصحابة في البحث عن الحق قبل إسلامهم، ثم ما قاسَوْه خلال الطريق من البأساء والضرَّاء، كالرحلة، والجوع، والغُرْبة، والضرب، والاستذلال. ولكن القصة تنتهي نهايةً سعيدة بلقاء الرسول ﷺ وتحيَّته بتحيَّة الإسلام، التحيَّةِ التي ما فتئ أبو ذَرٍّ يبحثُ عمَّن يرُدُّها عليه.

(قصة الإسلام بمكة بعد الهجرة)

وأما بعد الهجرة، فإنَّ جمْعًا من الصحابة من المستضعفين لم يُكتبْ لهم أن يُهاجروا، فسامهم المشركون سُوءَ العذاب، من هؤلاء أبو رافعٍ رضي الله عنه[1]، ذلك الصحابيُّ الذي تُصوِّرُ لنا قصةُ إسلامه مبلغ ما تحمَّله بعضُ الصحابة في سبيل كِتْمان إسلامهم، وما كان يُفعل بهم حين كانت تظهر عليهم - عن غير قصدٍ منهم - علاماتُ الإسلام.

وقصة أبي رافعٍ هذه قصةٌ فنيَّةٌ حقًّا؛ لما فيها من خُطَّة السَّرد؛ من بدايةٍ وعُقدةٍ وخاتمة، ولأنها تضمُّ في طيَّاتها ما تحتاج إليه من عناصر الفنّ، لذا نعُدُّها من أفضل قصص الصحابة التي سردوها عن تلك المُدَّة.

قال أبو رافع: «كنتُ غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخَلَنا أهل البيت، فأسلم العباسُ وأسلمتْ أمُّ الفضل، وأسلمتُ. وكان العباس يهاب قومَه ويكره خِلافَهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرِّقٍ في قومه، وكان أبو لهب عدوًّا لله قد تخلَّف عن بدرٍ، وبعث مكانه العاصَ بن هشام بن المغيرة - وكذلك كانوا صنعوا لم يتخلَّف رجلٌ إلا بعث مكانه رجلًا- فلما جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدرٍ من قريش كبَتَه الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزًّا، وكنتُ رجلًا ضعيفًا، وكنتُ أعمل الاقداح أنحتُها في حُجْرة زمزم، فوالله إني لجالسٌ فيها أنحتُ أقداحي وعندي أمُّ الفضل جالسةً،

---

(١) اسمه أسلم، كان عبدًا للعباس بن عبد المطلب فوهبه للنبي ﷺ، فلما بُشِّر رسول الله ﷺ بإسلام العباس أعتقه. هاجر بعد بدر، وشهد أحدًا والخندق والمشاهد كلها. مات بالمدينة بعد قتل عثمان، انظر: الطبقات الكبير ٤/ ٦٧-٦٩.

وقد سرَّنا ما كان من الخبر إذ أقبل الفاسقُ أبو لهب يـجرُّ رجليه بِشَرٍّ، حتى جلس على طُنُب الحجرة[1]، وكان ظهرُه إلى ظهري. فبينا هو جالسٌ إذ قال الناس: هذا أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب قد قدِم. قال: فقال أبو لهب: هلُمَّ إليَّ يا بن أخي فعندكَ ـ لعمريَ ـ الخبر. قال: فجلس إليه والناس قيامٌ عليه فقال: يا بن أخي، أخبرني كيف كان أمْرُ الناس؟ قال: لا شيء، والله إنْ هو الا أن لقينا القومَ فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايمُ الله مع ذلك ما لُـمْتُ الناس، لقينا رجالًا بِيضًا على خيل بُلْقٍ بين السماء والأرض، والله ما تُليق[2] شيئًا، وما يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهبٍ يده فضرب وجهي ضربةً شديدة، فثاورتُه، فاحتملني فضَرَبَ بي الأرض، ثم برك عليَّ يضربُني، وكنتُ رجلاً ضعيفًا! فقامتْ أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة، فأخذتْه فضربتْه به ضربةً فلَقَتْ في رأسه شَجَّةً مُنْكَرة، وقالت: تستضعفه أن غاب عنه سيده! فقام مولِّيًا ذليلًا، فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعدَسَة[3] فقتلتْه. فلقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثًا ما يدفنانه حتى أنتن في بيته»[4].

إنَّ القصة كافيةٌ في اختزال المشهد بمكة بعد الهجرة قبل الفتح. فثَمَّة مَنْ كان من الصحابة مُستضعَفًا يُخفي إسلامه خِيفة البأس، وثَمَّة من كان عزيزًا ولكنه كان يُخفيه خوفًا على ماله وعياله. خلا أن من جودة السرد عند أبي رافعٍ أنْ صوَّر لنا بمهارة القاصِّ وحِذقه كيف كانت حالُ المشركين بمكة والأنباءُ تَنْمي إليهم بغَلَبِ المسلمين يوم بدر، والذي دخلَهم من الألم والحسرة ذلك اليوم، والذي تنسَّمه المسلمون بمكة من الفَرَح والسعادة، والشماتة بأعداء الله الكافرين.

---

(١) الطُنُبُ: حبل الخِباء أو السُّرادق، وقيل: هو الوتد، «لسان العرب: طنب».

(٢) ما تُليق شيئًا: أي: ما تمسك به، «لسان العرب: ليق».

(٣) العَدَسَة: بَثْرةٌ تخرج فتقتل، وقيل: هي من جنس الطاعون، قلَّ من يسلم منها. وقد استشهد في «اللسان» بقصة أبي رافعٍ ثم قال: وكانت قريشٌ تتقي العدسةَ وتخاف عَدْواها، انظر: «لسان العرب: عدس».

(٤) الطبقات الكبير ٤/ ٦٧-٦٨.

(قصة الإسلام قُبيل الفتح)

أمَّا قُبيل الفتح، وقتَ أدركتْ العربُ أن محمدًا ﷺ باسِطٌ سُلطان دينه على الجزيرة لا محالة، باللسان أو بالسيف، فقد قدمت إليه عقلاء منهم يُعلنون إسلامَهم قبل انقضاء الأمر، عساهم أن يدركوا شيئًا من الأجر، أو عساهم أن يكفِّروا عن نَصْبِهم العداوةَ والأذى، وعن تجميعهم لحرب عباد الله المسلمين.

وفي هذا المعنى كثُرتْ القصص من الصحابة، ولا سيَّما أهل مكة من كُبَرائها، كعثمان بن طلحة، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص؛ كلُّ امرئٍ منهم يروي عن نفسه، ويقصُّ قصتَه كيف ألقى الله في قلبه الهدايةَ، فانطلق إلى رسول الله ﷺ، تَوْقًا إلى الإسلام بين يديه.

ومن عَجَبٍ أن قصة هؤلاء الرهط الثلاثة متشابهة، ومن عجيبٍ ما اتَّفق أنهم ذكروا في السَّرد اجتماعَهم في مكانٍ واحدٍ على غير ميعاد.

قال عُثمانُ بنُ طلحة: «لقيَني رسولُ الله ﷺ بمكة قبل الهجرة، فدعاني إلى الإسلام، فقلت: يا محمد، العجَب لك حيث تطمع أن أتَّبعك وقد خالفتَ دين قومك وجئتَ بدينٍ محدَث؛ ففرَّقت جماعتَهم وأُلفتهم، وأذهبت بهاءهم. فانصرف، وكنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فغلُظْتُ عليه ونِلْتُ منه، وحلُم عني، ثم قال: يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت. فقلت: لقد هلكتْ قريش يومئذٍ وذلَّتْ. فقال رسول الله ﷺ: بل عمرتْ وعزَّتْ يومئذ. ودخل الكعبة فوقعت كلمتُه مني موقعًا ظننتُ يومئذٍ أن الأمر سيصير إلى ما قال؛ فأردتُ الإسلام ومقاربة محمد فإذا قومي يزبُرونني زبرًا شديدًا، ويُزْرُون برأيي، فأمسكتُ عن ذكره. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة جعلتْ قريش تُشفق من رجوعه عليها، فهم على ما هم عليه حتى جاء النفير إلى بدر، فخرجتُ فيمن خرج من قومنا، وشهدتُ المشاهد كلها معهم على رسول الله ﷺ.

«فلما دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة عام القضيَّة، غيَّر الله قلبي عما كان عليه ودخلني الإسلام، وجعلتُ أفكِّر فيما نحن عليه وما نعبد من حجرٍ لا يسمع ولا يُبصر ولا ينفع ولا يضر، وأنظرُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وظَلَفِ أنفسهم عن الدنيا[1]؛ فيقع ذلك مني، فأقول: ما عمِل القوم إلا على الثواب لما يكون بعد الموت، وجعلت أحبُّ النظرَ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى أن رأيته خارجًا من باب بني شيبة يريد منزله بالأبطح، فأردتُ أن آتيه وآخذ بيده وأسلِّمَ عليه، فلم يُعزَم لي على ذلك، وانصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعًا إلى المدينة، ثم عُزِم لي على الخروج إليه، فأدلجتُ إلى بطن يأجج فألقى خالدَ بن الوليد، فاصطحبنا حتى نزلنا الهدَةَ، فما شعرنا إلا بعمرو ابن العاص فانقمعنا منه وانقمع منا، ثم قال: أين يريد الرجلان؟ فأخبرناه، فقال: وأنا أريد الذي تريدان. فاصطحبْنا جميعًا حتى قدمنا المدينة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبايعته على الإسلام، وأقمتُ معه حتى خرجت معه في غزوة الفتح، ودخل مكة فقال لي: يا عثمان، ائتِ بالمفتاح. فأتيته به فأخذه مني، ثم دفعه إلي مضطبعًا عليه بثوبه، وقال: خذها تالدةً خالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته فكُلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف. قال عثمان: فلما ولَّيْتُ ناداني إليه، فقال: ألم يكن الذي قلتُ لك؟ قال: فذكرتُ قوله لي بمكة قبل الهجرة: «لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعُه حيث شئت». فقلت: بلى! أشهدُ أنك رسول الله»[2].

لقد اعتمد عثمان بن طلحة في قصته على الجُمل الـمُنمِّيَةِ للسرد، المبشِّرةِ بزمنٍ آتٍ بعد زمن التحدُّث، كقوله:»يا عثمان، لعلك **سترى** هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت»، وقوله: «فوقعت كلمتُه مني موقعًا ظننتُ يومئذٍ أنَّ الأمر سيصير إلى ما قال»،

(١) ظَلَفَ نفسَه عن الشيء ظلَفًا: منعها من أن تأتيَه، «لسان العرب: ظلف».
(٢) الطبقات الكبير ٥/ ١٦-١٧.

وقوله: «فأقول: ما عمل القوم إلا على الثواب لما يكون بعد الموت»؛ فمثل هذه الجمل تُبقي المستمعَ مُنْصتًا، مشتاقًا إلى المآلات، مآلاتِ الحَدَث، ومآلات القصَّة نفسها. وهذه مهارةٌ حسنةٌ من مهارات السرد.

ومن مهارات التشويق في القصَّة، أنه يوهم المتابعَ بوقوعِ حدثٍ، ثم يُخبرُه أنه لم يقع، فيَخيبُ ظنُّه، مما يُجدِّدُ نشاطه إلى معرفةِ أحداثٍ أخرى واقعة؛ ويزيدُه شوقًا إلى معرفة ما سيكون بعد، وهذا أمرٌ محمودٌ في بقاء اشتعال وتيرة السرد، وذلك قوله: «وجعلت أحبُّ النظر إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى أن رأيته خارجًا من باب بني شِيبة يريد منزله بالأبطح، فأردتُ أن آتيه وآخذ بيده وأسلِّمَ عليه، فلم يُعزَم لي على ذلك».

إنَّ قصة عثمان بن طلحة قصةٌ تامَّةٌ مستوفيةُ العناصر، تنتهي بنهاية مُفْرِحةٍ لصاحب القصة وللقارئ معًا، وهي نهايةٌ منتظَرةٌ لدى كثيرٍ ممن يتابع السرد. على أنه في هذه النهاية تقنيةٌ أخرى محمودةٌ تضاف إلى ما سبق، هي تكرارُه جملةً سبق أن أتى بها في أول السرد، وهي قولُه على لسان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي أضعُه حيث شئت**»، وكأنَّ القصَّة دائرةٌ في فَلَك هذه الجملة، لذا كان قول عثمانَ في آخرها وقد سأله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تحقُّق مقولته: «بلى أشهدُ أنك رسولُ الله». لقد كان عثمان ساردًا مُجيدًا، مُمسكًا بخيوط قصته في ذهنه، مخطِّطًا لها، عارفًا كيف سيبدؤها، وكيف سيُنْهيها، وماذا سيُدير فيها من الأحداث والقول.

إنَّها قصةٌ من قصص السِّيَر الذاتية الكثيفة الموجزة، المقبولةِ فنيًّا لذلك العهد الأدبيِّ القديم.

وفي قصتيْ خالد بن الوليد، وعَمرو بن العاص، ما يقطع بأنَّ قصة عثمان بن طلحة ما كانت فَلْتَةً في تلك الـمُدَّة من التاريخ الأدبيِّ عند العرب، بل إنَّ لها أشباهًا وأمثالًا، وقفنا على بعضٍ منها، ويغلب على الظنِّ أننا لن نعدم مما يُشبهها قصصًا أخرى.

ففي قصة خالد بن الوليد أنه قال: «لـمَّا أراد الله بي ما أرادَ من الخير قَذَفَ في قلبي حُبَّ الإسلام، وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدتُ هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء، وأن محمدًا سيظهر. فلما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحديبية، خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أصحابه بعُسْفان، فأقمتُ بإزائه وتعرَّضت له، فصلَّى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نُغير عليه. ثم لم يُعزم لنا، وكانت فيه خِيرة، فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهموم، فصلى بأصحابه صلاةَ العصر صلاةَ الخوف. فوقع ذلك منا مَوْقعًا، وقلت: الرجل ممنوع. فافترقنا، وعَدَل عن سَنَن خيلنا، وأخذتُ ذات اليمين. فلما صالح قريشًا قلت: أيُّ شيء بقي؟ أين المذهب؟ إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمدًا، وأصحابُه عنده آمنون. فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى النصرانية واليهودية فأقيم مع عجم تابعًا مع عَنَت ذلك؟ أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك، إذ دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عُمرة القضية، فتغيَّبت.

«وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عُمرة القضية. فطلبني فلم يجدني، فكتب إليَّ كتابًا فإذا فيه: «أما بعد فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلُك عقلُك، ومثلُ الإسلام يجهله أحد؟! قد سألني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به. فقال: ما مثله جَهِلَ الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجِدَّه مع المسلمين على المشركين كان خيرًا له، ولقدَّمناه على غيره. فاستدركْ يا أخي ما قد فاتك». فلما جاءني كتابه، نشِطتُ للخروج وزادني رغبة في الإسلام. وأرى في النوم كأني في بلاد ضيِّقة جدبة، فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة، قلت: إن هذه لرؤيا. فلما قدمنا المدينة قلت: لأذكرنَّـها لأبي بكر، فذكرتُها، فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضِّيق هو الشرك.

«قال: فلما أجمعتُ الخروج إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت: من أُصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ إنما كنا كأضراس، وقد ظهر محمدٌ على العرب والعجم، فلو قدِمنا على محمد فاتَّبعناه فإنَّ شرفه لنا شرف. فأبى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبقَ غيري ما اتّبعته أبدًا. فافترقنا وقلت: هذا رجل قُتل أخوه ببدر. فلقيتُ عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان. قلت: فاكتمْ ذكر ما قلت لك. وخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي أن تُخرج إليّ، فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة. فقلت: إن هذا لي صديق، فذكرت له، فقال: نعم، إني عمدت اليوم، وإني أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفخٍّ مناخة، قال: فاتَّعدت أنا وهو بيأجُج، وأدلجنا سَحَرًا، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَة. فنجد عمرو بن العاص بها، فقال: مرحبًا بالقوم. فقلنا: وبك. كان قدومنا في صفر سنة ثمان. فوالله ما كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم أسلمت يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما يَحْزُبه»[1].

وقَصَّ عمرٌو كقصة صاحبيه، وأنه التقاهما كما التقياه، وأنهم ارتحلوا ثلاثتُهم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليُسلموا، قال عمرٌو في بعض قصته: «حتى إذا كنتُ بالهدة، إذا رجلان قد سبقاني بغير كبيرٍ يريدان منزلًا، وأحدهما داخلٌ في خيمة، والآخر قائمٌ يمسك الراحلتين، فنظرت وإذا خالد بن الوليد، فقلت: أبا سليمان؟ قال: نعم. قلت: أين تريد؟ قال: محمدًا، دخل الناس في الإسلام فلم يبقَ أحد به طمعٌ؛ والله لو أقمنا لأَخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبُع في مغارتها. قلت: وأنا والله قد أردت محمدًا وأردت الإسلام. وخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعًا في المنزل، ثم ترافقنا حتى قدمنا المدينة، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عنبة يصيح: يا رباح! يا رباح! فتفاءلنا بقوله وسِرْنا، ثم نظر إلينا

(١) الطبقات الكبير ٥/ ٢٦-٢٧.

فأسمعه يقول: قد أعطتْ مكة المقادةَ بعد هذين. فظننت أنه يعنيني وخالد بن الوليد، ثم ولّى مدبرًا إلى المسجد سريعًا، فظننت أنه يُبشِّر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننت. وأنخنا بالحَرَّة فلبسنا من صالح ثيابنا، ونُودي بالعصر فانطلقنا جميعًا حتى طلعنا عليه صلوات الله عليه، وإن لِوجهه تهلُّلًا، والمسلمون حولَه قد سُرُّوا بإسلامنا. فتقدَّم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت، فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعتُ أن أرفع طرفي إليه حياءً منه، فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخر. فقال: إن الإسلامَ يَجُبُّ ما كان قبله، والهجرةَ تَجُبُّ ما كان قبلها. قال: فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمرٍ حَزَبَه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، ولقد كنتُ عند عمر بتلك الحال»(١).

إنَّ الحَكْي في بعض تقنياته ـ إذا نحن نظرنا إلى هذه القصص الثلاث بوصفها رواياتٍ لقصةٍ واحدةٍ كاملة ـ يسمحُ «باستخدام عدد من الرواة، ويكون الأمر في شكله الأكثر بساطةً عندما يتناوبُ الأبطالُ أنفسُهم على رواية الوقائع واحدًا بعد الآخر، ومن الطبيعي أن يختص كل واحدٍ منهم بسرد قصته، أو على الأقل بسرد قصةٍ مُخالفةٍ من حيث زاوية النظر لما يرويه الرواةُ الآخرون، وهذا ما يُسمَّى عادةً بالحكي داخل الحكي»(٢).

إنه باستطاعتنا القولُ مطمئنين: إن الصحابة رضوانُ الله عليهم قد بَرَعُوا في هذا الجانب من القصص، أعني هذا الجانب من القصص الذاتية؛ ذلك أن الصحابة ما كان لهم ـ وما كان للعرب إذ ذاك ـ أن يجنحوا إلى الأنواع الأخرى من القصص التَّخْيُّلِيَّة؛ لشُغُلِهم أولاً بمعجزة الدين الجديد: القرآن العظيم، ولركونهم إلى أنواعهم الأدبية

---

(١) الطبقات الكبير ٥/ ٤٩-٥٠، وانظر: المغازي، للواقدي محمد بن عمر ٢/ ٧٤٤، تحقيق مارسدن جونز، عالم الكتب، بيروت، ط٣/ ١٤٠٤هـ.

(٢) بنية النصّ السردي من منظور النقد الأدبي، للدكتور حميد لحمداني، ص٤٩.

القديمة كالشعر والخطابة والأمثال والحِكمة، ولأنه لم يطرأ من الدواعي ما يُهيِّج إلى ابتداع فنٍّ قصصيٍّ جديدٍ يفارق الواقع الذي يعيشه الأديبُ أو يَرْقُبُه.

(قصة الإسلام إبّان الفتح)

ذلك، وعن وقعة الفتح، فتحِ مكة، وما جرى بعدها في تلك الأيام الخطيرة المشتبكةِ أحداثُها، المدلهِمَّةِ خُطوبُها، المتابينةِ أحاسيسُ الناس فيها؛ قصَّ الصحابةُ قِصصا مُصوِّرةً، كُلٌّ يقصُّ من وجهته ومن حيث يقِف، هذه القِصصُ تؤلِّف في مجموعها قصةً أدبيّةً كبيرةً، صادقةً في نقل صُوَرَ تلك الأيام الفارقة من تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة.

ففي طريق الجيش إلى الفتح، كان هناك بعضُ الصحابة بمكة ما أسلموا بعد، منهم أبو سفيان بن الحارث، فأراد الله له الهداية، يقصُّ عن نفسه لـمَّا عرَفَ قدوم جيش المسلمين فيقول: فجئتُ إلى زوجتي وولدي، فقلتُ: تهيؤوا للخروج؛ فقد أظلَّ قدومُ محمد. فقالوا: فِدانا لك أن تُبصر أنَّ العرب والعجم قد تبِعت محمدًا، وأنت مُوضِعٌ[1] في عداوته، وكنتَ أَولى الناس بنُصرته. قال: فقلت لغلامي مذكور: عَجِّل عليَّ بأبعرةٍ وفرسي.

ثم خرجنا من مكة نريد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسِرْنا حتى نزلنا الأبواء، وقد نزلت مـقدمة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأبواء تريد مكة، فخِفتُ أن أُقبِل، وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نذر دمي، فتنكرت وخرجت وأخذت بيد ابني جعفر، فمشَيْنا على أقدامنا نحوًا من ميل في الغداة التي صبَّح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها الأبواء، فتصدَّينا له تلقاء وجهه فأعرض عني إلى الناحية الأخرى، فتحولتُ إلى ناحية وجهه الأخرى فأعرض عني مرارًا، فأخذني ما قرُب وما بعُد، وقلتُ: أنا مقتول قبل أن أصِلَ إليه، وأتذكَّرُ بِرَّه

(١) الإيضاع: السير بين الناس، «لسان العرب: وضع»، والمعنى: أنت مستمرٌّ في عداوته، دائبٌ عليها.

ورَحِمَه وقرابتي به، فتمسَّك ذلك مني ، وكنتُ أظن أن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يفرح بإسلامي. فأسلمتُ وخرجتُ معه على هذا من الحال حتى شهدت فتح مكة وحُنين، فلما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسي وبيدي السيفُ صَلْتًا، ولم يعلم أني أريد الموت دونه، وهو ينظر إليَّ، فقال العباس: يا رسول الله، هذا أخوك وابنُ عمك أبو سفيان بنُ الحارث، فارضَ عنه. قال: قد فعلتُ فغفر الله له كل عداوة عادانيها. ثم التفتَ إليَّ فقال: أخي لَعَمري. فقبَّلت رجله في الرِّكاب»[1].

نعم إن الجزء المتصلَ بالفتح من القصة ينتهي عند إسلام أبي سفيان، ولكني آثرتُ إتمام القصة؛ لأن مراد القاصِّ لم يكن إتمامَها عند إسلامه فحسب، بل هو بنى قصته ليكون تمامُها رضا الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنه، ومغفرتَه له، وفرحَه بإسلامه، وليكون تمامُها وختامُها ذلك المشهدَ البليغَ المؤثِّر لحظةَ استطاع أبو سفيان بنُ الحارث أن يُحرِّك فينا عاطفة الرحمة به، والحبورِ له، والرضا عنه؛ إذ ختمها به؛ أعني مشهدَ تقبيلِ رِجْلِ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الشريفةِ في الرِّكاب.

ودخل رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مكة، وقد قَدَّمَ رَجُلٌ كحكيم بن حِزامٍ رِجْلًا وأخَّر أخرى في أمر أن يُسلم قبل دخوله، فلم يُقدَّر له، وكان قد رأى العبَّاسَ ذهب بأبي سفيان بن حربٍ إلى رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليُسْلمَ بين يديه، فاستحيا أن يكون قد فعل وهو شيخُ قُريشٍ وسيِّدُها، فرجع من فَوْره إلى مكة، قال: «فدخلتُ بيتي، فأغلقتُه عليَّ، وطويتُ ما رأيت، وقلت: لا أخبر قريشًا بذلك، ودخل رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مكة فأمَّن الناسَ، فجئتُه بعد ذلك بالبطحاء، فأسلمتُ وصدَّقتُه، وشهدتُ أنَّ ما جاء به حق»[2].

---

(١) الطبقات الكبير ٤/ ٤٦-٤٧.

(٢) الطبقات الكبير ٦/ ٥١.

هذا، ولـمَّا عَزَم رسول الله ﷺ على غزو الطائف حدَّثتْ بعضَ رجالات قريشٍ أنفسُها بقتله، طلبًا للثأر لما حلَّ بهم بالأمس، ولكنَّ الله تبارك وتعالى أراد بهم خيرًا؛ من هؤلاء شَيْبَة بن عثمان الذي يقصُّ عن نفسه فيقول: «لمَّا كان عامُ الفتح، ودخل رسول الله ﷺ مكة عَنْوةً، قلتُ: أسير مع قريش إلى هَوَازن بحُنَيْن، فعسى إن اختلطوا أن أُصيب من محمد غِرَّة فأثأر منه، فأكونَ أنا الذي قمتُ بثأر قريش كلِّها. وأقول: لو لم يبقَ من العرب والعجم أحدٌ إلا اتَّبع محمدًا ما تبعتُه. فكنت مُرْصِدًا لما خرجتُ له، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة. فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، وأَصْلَتُّ السيف، فدنوتُ أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي حتى كدت أُسوِّدُه، فرُفع لي شُواظٌ من نار كالبرق كاد يَمحَشُني، فوضعتُ يدي على بصري خوفًا عليه، والتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ فنادى: يا شَيْبُ، ادنُ مني. فدنوت فمسح صدري، ثم قال: اللهم أعذْه من الشيطان. قال: فوالله لهو كان ساعتئذٍ أحبَّ إلي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهبَ الله ما كان بي. ثم قال: ادنُ فقاتل. فتقدمتُ أمامه أضرب بسيفي، الله يعلم أني أحب أن أقيَه بنفسي كلَّ شيء، ولو لقيتُ تلك الساعة أبي لو كان حيًّا لأوقعتُ به السيف. فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون فكرُّوا كَرَّةَ رجلٍ واحد، وقَرَّبتُ بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها، فخرج في أَثَرهم حتى تفرقوا في كل وجه، ورجع إلى معسكره، فدخل خباءه، فدخلت عليه، ما دخل عليه غيري، حُبًّا لرؤية وجهه وسرورًا به، فقال: يا شيبُ، الذي أراد بك الله خيرٌ مما أردتَ بنفسك. ثم حدَّثني بكل ما أضمرتُ في نفسي مما لم أكن أذكره لأحدٍ قط. قال: فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ثم قلت: استغفر لي يا رسول الله، فقال: غفر الله لك»[1].

---

(١) الطبقات الكبير ٦/ ٦٤-٦٥، وانظر: نحوًا منها قصة النُّضير بن الحارث رضي الله عنه في الكتاب نفسه ٦/ ٦٦.

(قصة إسلام أبناء القبائل)

وأما في خارج مكة، فإن أبناء القبائل من العرب الصحابة قد روى بعضُهم قصة إسلامه، كعديٍّ بن حاتم، وقصتُه طويلةٌ مشهورة، وفيها يـذكر شدَّة كـراهيته لرسـول الله ﷺ؛ لأنه كان أميرًا شريفًا معظَّمًا في قومه يأخذ منهم المرباع، فخاف أن يَضيع منه بالإسلام مُلْكُه، ثم يذكر أنه لم يزلْ محاذرًا من جيش الرسول ﷺ، فلما سمع بحركته واقترابه، احتمل بأهله وولده ولحق ببني مِلَّته من نصارى الشام، وخلَّف أختَه خلفَه، فسُبِيَتْ وحُملتْ إلى المدينة. ثم يذكر في قصته حُسْنَ معاملة الرسول إياها، حتى لقد مَنَّ عليها وفَكَّ إسارَها، ثم كساها وأعطاها نفقةً، وأمهلها حتى وجدتْ ركبًا يحملونها إلى أخيها بالشام.

قال عديٌّ: «فوالله إني لقاعدٌ في أهلي إذ نظرتُ إلى ظعينة تَصَوَّب إليَّ، تؤمُّنا، فقلتُ: ابنة حاتم؟ قال: فإذا هي هي. قال: فلما قدمتْ عليَّ انسحَلَتْ تقول: القاطع، الظالم، احتملتَ بأهلك وولدك وتركتَ بقيَّة والدك. قال: قلت: يا أُخيَّة لا تقولي إلا خيرًا، فوالله ما لي من عذر، قد صنعتُ ما ذكرتِ. قال : ثم نزلتْ فأقامت عندي، فقلت لها: ما تَرَيْنَ في أمر هذا الرجل؟ وكانت امرأة حازمة، قالت: أرى والله أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًّا فالسبقُ إليه أفضل، وإن يكن ملكًا فلن تذِلَّ في عزِّ اليمن وأنتَ أنتَ، وأبوك أبوك، مع أني نُبِّئت أن عِلية أصحابه قومُك، الأوس والخزرج.

«قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلتُ عليه وهو في مسجده، فسلمت، فقال: من الرجل؟ فقلت: عديُّ بن حاتم. قال: فانطلق بي إلى بيته، إذ لقيتْه امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بمَلِك، إن للملِك لحالًا غير هذا. ثم مضى حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدَم محشوة ليفًا، فقدَّمها إليّ، فقال: اجلس على هذه. فقلت: لا،

بل أنت فاجلس عليها. فوقع في قلبي أنه بريء من أن يكون ملكًا، فجلس عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرأى في عنقي وثنًا من ذهب، فتلا هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]، فقلت: والله ما كانوا يعبدونهم. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أليس كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلُّوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه؟ قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم. قال: إيهًا يا عَديّ، ألم تكن رَكُوسيًّا؟ قال: قلت: بلى. قال: أولم تكن تسيرُ في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى، قال: فإن ذلك لم يَحِلَّ لك في دينك. قال: قلت: أجل والله، قال: فعرفت أنه نبي مرسَلٌ يعرف ما نجهل. ثم قال: لعلك يا عدي بن حاتم إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعله إنما يمنعك ما ترى من كثرة عدوِّهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكنَّ يُسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعير حتى تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله، ليوشكنَّ أن يُسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم. فقال عدي: فأسلمتُ، فكان عديٌّ يقول: قد مضت اثنتان وبقيت واحدة: ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه»[1].

فتلك قصة إسلام سيدٍ من العرب يقصُّها بلسانه فيُطيل القَصّ. وعديٌّ مُكْثِرٌ من الحوار في سرده، مُكْثِرٌ من سَوْق التفاصيل، وقصتُه تبدأ كقصص كثيرٍ غيره بذكر أنهم كانوا يبغضون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكرهون مَرْآه، ثم تنقلبُ حالُهم بالإسلام والقُرْبِ منه بعد ذلك، بعد أن يكون اللهُ قد مَنَّ بالهداية عليهم.

(١) الطبقات الكبير ٦/ ٢١٥-٢١٧.

(قصة إسلام المستضعفين خارج مكة)

وكان في العرب من غير أهل مكة مستضعفون راموا الهجرة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول الإسلام فأُوذوا في أنفسهم وأبنائهم، كقَيْلة بنت مخرمة الشَّيْبانيَّة، المرأة التي مات عنها زوجها، وأُخِذَ منها بناتُها، فأزمعت الهجرةَ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصحابته، ولـمَّا تزل متربِّصةً إلى أن قَيَّض الله لها رجل صِدق يحملها إلى النبي، وهي تروي مشاهداتها في تلك القصَّة، وما دار بينها وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكَلِم(١).

(قصة الإسلام خارج الجزيرة)

وأمَّا في خارج جزيرة العرب فإنَّ قصة سَلمان الفارسيِّ، وارتحالَه بحثًا عن الدين الحق معروفةٌ مشهورة(٢).

تلك إذن ألوانٌ ما وقفنا عليه من قصص إسلام الصحابة، وهي أكبر أنواع قصصهم لذلك العهد كما مرَّ بنا قبل.

(ب) قصص أخرى:

(قصص ذاتية قبل الإسلام)

فإذا شئنا الكلام على قصص الصحابة المتصل بأنفسهم من غير قصص الإسلام الذي سبق القول فيه؛ فإنَّ منه ما وقع قبل الإسلام، ومنه ما وقع بعدَه:

فمن عجيب ما يُروى قبل الإسلام، ومن أروعِه، ما قصَّه تميمُ بن أوسٍ الدَّاريُّ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خبر الجَسَّاسة، وهي دابةٌ أهلبُ(٣) عظيم الشَّعر، لا يُعرف قُبُلُها من دُبُرِها من كثرة الشَّعر، وجدوها في جزيرةٍ ألقى بهم البحرُ إليها، وقد تحدَّثتْ معهم، فأخبرتْهم برجلٍ في الجزيرة هو في شوقٍ إلى لقائهم، فلما ذهبوا إلى موضعه رأَوْا رجلًا

---

(١) انظر: القصة، في الطبقات الكبير ١/ ٢٧٤-٢٧٦.

(٢) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ١/ ٢١٤-٢٢٠.

(٣) قال في اللسان: ذكَّر الصِّفةَ، لأنَّ الدابة تَقَعُ على الذكر والأُنثى، «لسان العرب: هلب».

شديدَ الخَلْق، مكبلًا يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، هو المسيحُ الدجَّال، وفي القصة أنه أنبأهم ببعض من علامات السَّاعة، والحديثُ في صحيح مسلم[1].

ويُحدِّث عمر بن الخطاب عن بعض سِيَره في الجاهلية أيام الطفولة، هادفًا من حديثه إلى عِظَةِ أصحابه، لعلَّهم أن يعتبروا. ولَلموعظةُ مقصدٌ مقدَّمٌ من مقاصد القَصص في الإسلام. يَلِجُ الفاروق إلى قِصته القصيرة من مدخل الذِّكْر وتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، فيقول: «لا إله إلا الله العظيم العليّ، المعطي ما شاء مَنْ شاء. كنتُ أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مَدرعة صوف، وكان فظًّا يُتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصَّرت، وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد. ثم تمثَّل:

لا شَيْءَ فيما تَـرى تَبقي بشاشتُه ... يَبقى الإلهُ، ويُودي المالُ والولَدُ!

لم تُغنِ عن هُـرْمُـزٍ يومًا خزائنُه ... والخُلْدَ قد حاولتْ عادٌ فما خَلَدُوا»[2]

(قصص ذاتية في الإسلام)

أمَّا في عهد الإسلام فقد قُصَّت قِصصٌ جمَّة من لدن الصحابة، منها الغريب النادر، ومنها المؤثِّرُ في النفوس، ومنها الطريفُ المروِّح، ومنها غير ذلك.

فمن الغريب النادر قصةٌ شَجِيَّةٌ أليمةٌ سردها النعمان بن بشير رَضِيَاللَّهُعَنْهُ عن أهل مدينة لقيهم في الطريق، فقال: «وفَّدني أبو بكر الصديق في عشرةٍ من العرب إلى اليمن، فبينا نحن ذات يوم نسير إذ مررنا إلى جانب قرية أعجبنا عمارتُها، فقال بعض أصحابنا: لو مِلْنا إليها فدخلنا، فإذا هي قرية أحسنُ ما رأيت؛ كأنها زخائف الرَّقم[3]، وإذا قصرٌ أبيض بفنائه شِيب وشُبَّان، وإذا جَوَارٍ نواهدُ أبكارٌ قد أحجم الثدي على نحورهن، قد أخذن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢١٩.

(٢) صحيح مسلم ٨/ ٢٠٣.

(٣) زَخَفَ يزخَف: إذا فخر، لسان العرب: زخف، ولعل معنى زخائف الرقم ما يُتباهى به من الثياب والنقوش وغيرها، والله أعلم.

المِهْزام[١] وهن يَدُرْن، وَسْطَهنَّ جاريةٌ قد علَتْهنَّ جمالًا، بيدها دُفٌّ تضربه وتقول:

معشر الحُسَّادِ موتوا كَمَدَا　　　كذا نكون ما بقينا أبدا
غَيَّبَ عنَّا ما نعانا حَسَدَا　　　وكان جدُّه الشقيَّ الأنكدا

وإذا غديرٌ من ماء، وإذا سَرْجٌ ممدود كثير المواشي والإبل والبقر والخيل والأفلاء[٢]، وإذا قصور مستديرة، فقلت لأصحابنا: لو وضعنا رحالنا فتأخذ العيونُ مما ترى حظًّا، وتقضي النفوس منه وَطَرًا. فبينا نضع رحالنا إذ أقبل قومٌ من قِبل القصر الأبيض على أعناقهم البُسُط، فبسطوا لنا، ثم مالوا علينا بأطايب الطعام وألوان الأشربة، فاسترحنا وأرحنا، ثم نهضنا للرحلة، فأقبل القوم وقالوا: إن سيد هذه القرية يقرئكم السلام ويقول: اعذِروني على تقصيرٍ إن كان مني، فإني مشغول بعُرس لنا، وإن أحببتم (.)[٣]، فدعونا لهم وبرَّكنا، فعمدوا إلى ما بقي من ذلك الطعام فملؤوا منه سُفَرنا، فقضيت سَفَري، ورجعت متنكِّبًا لذلك الطريق.

«فغبرتُ برهة من الدهر ثم وفَّدني معاوية في عشرة من العرب ليس معي أحدٌ ممن كان في الوفد؛ فبينا أحدثهم بحديث القرية وأهلها إذ قال رجل منهم: أليس هذا الطريق الآخِذ إليها؟ فانتهينا إليها فإذا هي دكادك وتلول، وأما القصور فخرابٌ ما يبين منها إلا الرسوم، وأما الغدير فليس فيه قطرة من الماء، وأما السرج فقد عفا ودثر أمره. فبينا نحن وقوف متعجبون إذ لاح لنا شخصٌ من ناحية القصر الأبيض، فقلت لبعض الغلمان: انطلق حتى نستبرىء ذلك الشخص. [فما][٤] لبثتُ أن عاد مرعوبًا، فقلت له: ما وراءك؟ فقال: أتيت ذلك الشخص فإذا عجوزٌ عمياء فراعتني، فلما سمعتْ حِسِّي

(١) المِهْزَام: عُود يُجعل في رأسه نارٌ تَلعَب به صبيان الأعراب، وهو لُعبة لهم، لسان العرب: هزم.
(٢) الأفلاء: جمع فَلُوّ، وهو المُهر الصغير، انظر: «لسان العرب: فلا».
(٣) يظهر أن ثمة انقطاعًا في الكلام هنا، كأنه يقول: وإن أحببتم فعلنا كذا وكذا.
(٤) في الأصل: «فقال»، لعله تصحيف، ولعل ما أدرجتُه هو الصواب.

قالت: أسألك بالذي بلَّغك سالـمًا إلا أخذت على عينك ورُحت حتى دخلت في التل، ثم قالت: سل عما بدا لك؟ فقلت: أيتها العجوز الغابرة، من أنتِ؟ وممن أنتِ؟ فأجابتني بصوت ما يبين: أنا عميرة بنت دوبل، سيد أهل هذه القرية في الزمن الأول:

أنــا ابنة مَــنْ كــان يَقري ويُنزِلُ ... ويحنو على الضِّيفان والليلُ أليلُ
من مَـعْشَرٍ صــاروا رميمًا أبوهمُ ... أبــو الجــحَّــاف بــالخير دَوْبَــــلُ

قلت: ما فعل أبوك وقومك؟ قالت: أفناهم الزمان، وأبادتهم الليالي والأيام، وبقِيتُ بعدهم كالمزج بوَّأه الوكر[1]. قلت: هل تذكرين زمانًا كان لكم في عرسٍ، وإذا جَوَارٍ أخذن الـمِهْزام وسطهن جارية بيدها دُفٌّ تضرب به، وتقول: أيها الحساد موتوا كمدا؟ فَشَهِقتْ، واستعبرتْ، وقالت: والله إني لأذكر ذلك العام والشهر واليوم والعُرْس، كانت أختي، وأنا صاحبة الدُّفّ. قال: فقلت لها: هل لك أن نحملك على أوطأ دوابِّنا ونغدوك بغذاء أهلها؟ قالت: كلا، عزيزٌ عليَّ أن أفارق هذه الأعظُمَ حتى أؤول إلى ما آلو إليه! قلت: من أين طعامك؟ قالت: يمرُّ بي الركب في القرط فيلقون إلي من الطعام ما يكفيني؛ والذي أكتفي به يسير، وهذا الكوز مملوءٌ ماءً ما أدري ما يأتيني به، ولكن أيها الركب معكم امرأة؟ قلنا: لا. قالت: معكم من الثياب البياض؟ قلنا: نعم. وألقينا إليها ثوبين جديدين فتجلَّلتْ بهما، وقالت: رأيت البارحة كأني عروس أتهادى من بيت إلى بيت، وقد ظننت أن هذا يومٌ أموت فيه، فأردتُ امرأةً تلي أمري، فلم تزل تحدثنا حتى مالت، فنزعتْ نزعًا يسيرًا وماتتْ. فيمَّمناها وصلَّينا عليها ودفنَّاها. فلما قدمتُ على معاوية حدَّثته بالحديث فبكى، ثم قال: لو كنت مكانكم لحملتُها. ثم قال: ولكن سَبَق القَدَر»[2].

---

(١) الوَكر: عُشُّ الطائر، لسان العرب: وكر، ولا أدري ما أرادتْ بالمزج هنا، والمزج يُطلق على العسل، وعلى صِنف من اللوز مُرّ؛ فكأنها تشبِّه نفسها بهذا الطعام في العُشِّ الذي يُنتاش، ولا يوجد من يحميه أو يلوذ عنه بعد أبيها وأهلها. والله أعلم.

(٢) الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي القرشي ص٤٧، دار البشير، عمّان.

وأمثال هذا النوع من القصص غيرُ كثيرٍ في أدب الصحابة، لا من جهة الحكاية، ولا من جهة الطول.

ومن قَصصهم الذي يؤثِّر في النفس، ويبعثُ الرحمة والشفقة؛ قصةُ الثلاثة الذين خُلِّفوا، وقد رواها عن نفسه وعن صاحبيه كعب بنُ مالكٍ الشاعر روايةً نَخاله قد اجتذب بها قلوبَ السامعين(١). ولقد خلَّد الله عَزَّوَجَلَّ ذِكْرَ هذه القصة في كتابه، ورضيَ عن أصحابها وتاب عليهم(٢).

أمَّا الطريف من قصصهم فإن للنساء فيه شأوًا، منه قصة لأسماء بنت أبي بكر تنقل فيها صورةً من خدمتها للزبير بن العوام زَوْجِها، يوم أن كان فقيرًا في أول أمر زواجهما، وكيف كانت تصبر على أعمال البيت، وكيف كان يغار عليها، تقول: «تزوجني الزبير وما له في الأرض من مالٍ ولا مملوكٍ ولا شيءٍ، غيرِ ناضحٍ، وغيرِ فرسه، فكنتُ أعلِف فرسَه، وأستقي الماء، وأخرِزُ غربه، وأعجن. ولم أكن أُحسنُ أخبِز، وكان يخبز جاراتٌ لي من الأنصار وكُنَّ نسوةَ صدق. وكنتُ أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ، فجئت يومًا والنوى على رأسي فلقيتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني، ثم قال: إخْ إخْ ليحملني خلفَه، فاستحيَيْت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغَيْرته، وكان أغيرَ الناس، فعرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أني قد استحييتُ، فمضى، فجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب فاستحييت منه وعرفت غَيْرتك. فقال: والله لَحملك النوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه. قالت: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسةَ الفرس، فكأنما أعتقني»(٣).

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٤/ ١٦٠٣.

(٢) في سورة «التوبة»، الآيات ١١٧-١١٨.

(٣) انظر: الطبقات الكبير ١٠/ ٢٣٨.

ومن أشدِّ قصصهنَّ طرافةً القصةُ التي ترويها عائشةُ أمُّ المؤمنين بلسان الضَرَّة، قالت: «لـمَّا تزوج رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمَّ سلمة حزنتُ حُزنًا شديدًا، لما ذكروا لنا من جمالها. قالت: فتلطفتُ لها حتى رأيتها، فرأيتُها والله أضعافَ ما وُصفت لي في الحسن والجمال. قالت: فذكرتُ ذلك لحفصة -وكانتا يدًا واحدة- فقالت: لا والله إنْ هذه إلا الغَيْرة، ما هي كما يقولون. فتلطفت لها حفصة حتى رأتها، فقالت: قد رأيتها، ولا والله ما هي كما تقولين ولا قريب، وإنها لجميلة. قالت: فرأيتها بعدُ فكانت لَعَمري كما قالت حفصة، ولكني كنتُ غَيْرَى!»[1].

ووجه الطرافة أن القصص في صدر الإسلام لم تكن جِدّيَّةً كلَّها، ولم تكن تتعلق بالشؤون العامَّة أو بقصة الإسلام فحسب، بل إن منها ما يتصل بالبيوت وما يدور فيها من الأحداث بين النساء ونحوهنّ.

ولم تكن الطرافةُ في القصص من نصيب النساء وحدَهنَّ، بل كان للرجال منها نصيبٌ أيضًا، كقصةٍ حكاها أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تُشبه الخاطرةَ العابرة، يقول فيها: «لما افتتحنا خيبر إذا ناسٌ من يهودٍ مجتمعون على خبزة يمُلُّونها، فطردناهم عنها، فأخذناها، فاقتسمناها، فأصابني كِسْرةٌ، وقد كان بلغني أنه من أكل الخبز سَمِن، فلما أكلتُها جعلت أنظر في عِطْفَيَّ: هل سَمِنت!»[2].

(قصص غير ذاتية)

من النادر أن يقصَّ الصحابةُ عن غير أنفسهم، ولعل من خير الأمثلة على ذلك الحديثَ الطويلَ أو القصةَ التي قَصَّتْها أمُّ المؤمنين عائشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا على النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ المعروفةَ بـ(حديث أمّ زَرْع). وقد كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رجلًا لَيِّنًا، رفيقًا، حَسَنَ العِشْرة، يستمعُ إلى أحاديث أصحابه، وقد يضحك إذا الكلامُ أعجبه، وقد يُعقِّبُ عليه، صلواتُ ربي وتسليماتُه عليه.

---

(١) الطبقات الكبير ١٠/ ٩٢.
(٢) نثر الدُّرّ ٢/ ١٠٠-١٠١.

وحديث أمِّ زرعٍ رواه البخاريُّ وغيرُه، وفيه تحكي عائشةُ أحوال إحدى عشرة امرأةً مع أزواجهنَّ، في إيجازٍ قصصيٍّ بديعٍ لفروع الحياة الأُسْريَّة عند العرب، فتقول: «جلسَ إحدى عشرة امرأةً، فتعاهدْن وتعاقدْن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا. قالت الأولى: زوجي لحم جمل غَثٍّ[1] على رأس جبل، لا سَهْلٌ فيُرتقى، ولا سمين فيُنْتَقل. قالت الثانية: زوجي لا أَبُثُّ خبرَه، إني أخاف أنْ لا أذَرَه، إن أذكُره أذكرْ عُجَرَه وبُجَره[2]. قالت الثالثة: زوجي العَشَنَّق[3]، إنْ أنطق أُطلَّق، وإن أسْكُتْ أُعَلَّق. قالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تِهامة، لا حَرٌّ، ولا قَرٌّ، ولا مَخافة، ولا سآمة. قالت الخامسة: زوجي إن دخل فَهِد، إن خرج أَسِد، ولا يسأل عما عَهِد[4]. قالت السادسة: زوجي إن أكل لفّ، وإن شرِب اشتفّ، وإن اضطجع التفّ، ولا يُولج الكفّ؛ ليعلم البثّ[5]. قالت السابعة: زوجي غَياياء، عَياياء، طباقاء، كلُّ داءٍ له داء؛ شَجَّكِ، أو فَلَّكِ، أو جَمَع كُلاًّ لكِ[6]. قالت الثامنة: زوجي الـمَسُّ مَسُّ أرنب، والرِّيح رِيحُ زَرْنَب[7]. قالت التاسعة: زوجي رفيعُ العماد، طويل النِّجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد. قالت العاشرة: زوجي مالِك، وما مالك؟ مالكٌ خيرٌ من ذلك؛ له إبلٌ كثيراتُ المَبارِك، قليلاتُ المسارح، وإذا

---

(١) الغثُّ: المهزول، انظر: بُغية الرائد لما تضمَّنه حديث أمِّ زرعٍ من الفوائد، للقاضي عياض بن موسى البَحْصَلي ص٤٥، تحقيق صلاح الدين الإدلبي ومحمد الحسن أجانَف ومحمد عبد السلام الشرقاوي، وزارة الأوقاف المغربية ١٣٩٥هـ. وما يأتي من تفسير غريب حديث أم زرع منه.

(٢) العُجَر: جمع عُجْرة، وهي العقد في الأعصاب والعروق المجتمع تحت الجلد. والبُجَر: جمع بُجْرة، وهي انتفاخ يحدث في البطن والسُّرة، والمقصود الهموم والأحزان، انظر: بغية الرائد، ص٥٩-٦٠.

(٣) العَشَنَّق: الطويل الشرس الجريء، انظر: بغية الرائد، ص٦٣.

(٤) اي: نام وغفل كالفهد، فهو كثير النوم، تصفه بذلك على وجه المدح، ثم تشبهه بالأسد حال خروجه في الشجاعة، انظر: بغية الرائد، ص٧٠.

(٥) اللفُّ في الأكل: الإكثار منه. والاشتفاف في الشرب: استقصاء ما في الإناء، مأخوذ من الشفافة وهي البقية تبقى في الإناء. وإذا اضجع التف: تعني أنه يرقد ناحيةً ولا يُباشرها. ولا يولج الكف ليعلم البث: أي لا يهتم لشأنها وما يُحزنها، انظر: بغية الرائد، ص٨٠-٨١.

(٦) الغياياء: من الغي وهي الخيبة، والعَياياء من الإبل: الذي لا يضرب النوق، وكذلك في الرجال. طباقاء: عييٌّ مطبقٌ عيًّا. والشَّج: الجرح في الرأس خاصة، والفلُّ: في سائر الجسد، انظر: بغية الرائد، ص٨٨-٩١.

(٧) الزَّرنب: ضربٌ من الطِّيب، انظر: بغية الرائد، ص٩٣.

سمعن صوتَ المِزْهَر[1] أيقنَّ أنّهنَّ هوالك. قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زَرْع، فما أبو زرع؟ أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيّ[2]، وملأ من شَحْم عَضُدَيّ، وبَجَّحَني فبجحتْ إليَّ نفسي[3]، وَجَدَني في أهل غُنَيْمةٍ بِشَقٍّ، فجعلَني في أهل صَهيل وأَطيط ودائس ومِنَقّ[4]، فعنده أقول فلا أُقَبَّح، وأرقدُ فأتصبَّح، وأشربُ فأتقنَّح. أُمُّ أبي زرع، فما أم أبي زرع؟ عُكُومها رَدَاح[5]، وبيتها فَساح. ابنُ أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمِسَلِّ شَطْبة، ويُشبعه ذراع الجَفْرة[6]. بنتُ أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طَوْعُ أبيها وطَوْعُ أمها، ومِلْءُ كسائها، وغيظُ جارتها. جاريةُ أبي زرع، فما جاريةُ أبي زرع؟ لا تَبُثُّ حديثنا تَبثيثًا، ولا تنقُث مِيرَتَنا تَنقيثًا، ولا تملأ بيتنا تعشيشًا[7].

«قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تُمخَض[8] فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين[9]، فطلقني ونكحها، فنكحتُ بعده رجلًا سَرِيًّا، رَكِب شريًّا، وأخذ خَطِّيًّا، وأراح علي نِعَمًا ثَرِيًّا[10]، وأعطاني من كل رائحةٍ زوجًا؛ وقال: كُلي أمَّ زرع ومِيري أهلكِ. قالت: لو جمعتُ كلَّ شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع!

(١) المزهر: العود الذي يُضرب به ويُغنَّى فيه، انظر: بغية الرائد، ص١٠٥.

(٢) النَّوْس: حركة كل شيء متدلٍّ وسائل، أي حرَّك أذنيَّ بالحُليّ، انظر: بغية الرائد، ص١١٨.

(٣) بجَّحني فبجحت: أي فرَّحنيَ ففرِحتُ، انظر: بغية الرائد، ص١١٩.

(٤) الصَّهيل: صوت الخيل، والأطيط: أصوات الإبل، وهو زفيرها من البِطنة. والدائس: الدَّرَّاس، أي: أنهم أهل زرع. ومنقّ: أصوات المواشي والأنعام، انظر: بغية الرائد، ص١٢٣-١٢٥.

(٥) العُكوم: الأحمال التي تجمع الأطعمة والمتاع، والرداح: الطعام الكثير الحشو، انظر: بغية الرائد، ص١٣٢.

(٦) الشطبة: ما شطب من جريد النخل، وهو سَعَفُه. ومسل الشطبة: كأنه سيفٌ سُلَّ من غمده، انظر: بغية الرائد، ص١٣٧.

(٧) التنقيث: الإسراع في السير، أي لا تذهب به وتخون فيه. والميرة: ما يمتاره البدوي من الحضَر من دقيق ونحوه. ولا تملأ بيتنا تعشيشًا: أي أنه مُصْلحة للبيت، مهتبلةٌ بتنظيفه، وليست ممن تضم كناستَه وسَقَطَه هنا وههنا كأنها الأعشاش، انظر: بغية الرائد، ص١٤٩-١٥١.

(٨) الأوطاب: آنية اللبن. أرادت تبكير خروجه، انظر: بغية الرائد، ص١٤٩-١٥١.

(٩) اي: ثدييها، انظر: بغية الرائد، ص١٥٨.

(١٠) السريُّ: الرجل السيد ذو السرو، السخيّ. والخطّي: الرمح، انظر: بغية الرائد، ص١٦٠-١٦١.

«قالت عائشة: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كنتُ لكِ كأبي زرع لأم زرع»[1].

وليس بين أيدينا ما يقطع بأن عائشة لم تكن إلا راويةً للقصة فحسب، بل لعلها أضافت إليها، وأنشأت فيها، وزادت على أصولها. فنِسْبتُها إلى عصر صدر الإسلام أولى من نِسْبتها إلى ما قبل ذلك.

وقد اعتنى العلماءُ والأدباءُ بهذا الحديث غايةَ الاعتناء، بالشرح، والتفسير، والتعقيب، والرواية[2].

وما من ريب في أن قصة هؤلاء النسوة تعدُّ في أحاديث السَّمَر المنعقدة للتسلية[3]، ولتخفيف العناء والهموم عن نفوس المستمعين. وهو لونٌ من القصص قليلٌ جدًّا وجودُه في ذلك العصر الذي بزغ الإسلام فيه.

(جـ) بِنَاءُ السَّرْدِ:

لانريد أن نُغاليَ فنحاكم سردَ الصحابة بمقاييس القصة في العصر الحديث، وبخاصَّةً إذا عرفنا أن من النقَّاد من يُنكرُ أن يكون لدى العرب ـ قبل العصر الحديث ـ نوعٌ قصصيٌّ فنِّيٌّ أصلًا، ورأى أن القصة عندهم لم يكن لها «شأنٌ يُذكر، بل كان لها مفهومٌ خاصٌّ لم ينهض بها، ولم يجعلها ذاتَ رسالةٍ اجتماعية وإنسانية»[4].

وهذا القول صحيحٌ إذا نظرنا إلى تلك القصص بالعين التي نقرأ بها تلك الأسفارَ الروائية أو القصصية الحديثة، وما يعتركُ فيها من الأفكار والأساليب والاتجاهات، وما يتنازع أصحابَها من الثقافة والتيارات والعقائد والمذاهب المختلفة.

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ١٩٨٨.

(٢) انظر: دِرَّة الضَّرع لحديث أم زرع، للرافعي، محمد بن عبد الكريم بن الفضل القزويني، تحقيق مشهور حسن سلمان، دار ابن حزم، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ.

(٣) ولذلك عقد له البخاري في «صحيحه» بابًا أسماه: «باب السَّمَر مع الأهل».

(٤) انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال، ص٤٩١.

أما إذا اقتصرنا في نظرنا على حدود النشأة، وتقبَّلنا عثراتِ البدايات، واحتملنا بساطةَ فِطْريَّتها، ولم نبحث عن ظِلِّ عشراتٍ من مصطلحات النقد الحديث بين أسطرها؛ فإنَّا لا شكَّ واجدون (القصةَ) عند أسلافنا العربِ المتقدِّمين.

ومن أدلِّ الشواهد التي نحتجُّ بها على هذا القول ما سبق عرضُه من قصص الصحابة في هذا الجزء من البحث؛ ذلك أنَّ بعضه يكادُ يرقى إلى أن يكون قصةً فنِّيَّةً كاملة.

وهل يكون لقصديَّة المؤلف أثرٌ في الحكم على فنِّيَّة القصة؟ نعم، ولعلَّ شفويَّة القصة لدى الصحابة ولدى غيرهم من ذلك الجيل القديم، كانت سببًا أصيلًا في بقاء هذا النوع من الأدب على فطريَّته ونمطيَّته وقِصَرِه؛ إذ الكتابة تحريضٌ مفترَضٌ على التجويد والمحاكاة وإعمال الخيال ورَجْعِ النظر. يقول أونج في كتاب (الشفاهيَّة والكتابيَّة): «وفي الحقيقة ليس لدى الثقافة الشفهية خبرةٌ بالحَبكة المطوَّلة ذاتِ الخط الذِّرْويِّ في حجم الملحمة أو حجم الرواية. بل إنها لا تستطيع أن تنظِم قصةً أقصرَ بالطريقة الذِّرْويَّة المدروسة الصَّارمة، التي تَعَلَّمَ قُرَّاءُ الأدب توقُّعَها أكثر فأكثر على مدى القرنين الماضيين ـ كما تعلَّموا في العقود الأخيرة ـ أن ينتقصوا من قيمتها على استحياء. وليس من العدل في شيء أن نَصِفَ الإنشاء الشفاهي بأنه لا يتفق مع تنظيمٍ لا يعرفه»(١).

ومع هذا الحد الذي حَدَدْناه، فلو عُدنا إلى أدب القصة عند الصحابة، فنقدناه بعين الناقد الحديث ـ ولا محيص لنا عن ذلك الآنَ حتى تُوضع القواعد في نقد القصة الشفويةِ القديمة ـ ألفيناه قصصًا قصيرًا بسيطًا متشابهًا، وألفينا الجيِّدَ منه الذي إذا بدأه صاحبه لم تغب عنه نهايتُه. أو قل: الذي له أولٌ تبدأ به القصة، ووسطٌ تجري فيه الأحداثُ إلى نهايتها.

---

(١) الشفاهية والكتابية، تأليف والتر ج. أونج، ص٢٥٢-٢٥٣، ترجمة الدكتور حسن البنّا عز الدين، ضمن سلسلة عالم المعرفة، رقم١٨٢، الكويت ١٩٩٢م.

لقد كان لعنصر (الذات) هيمنةٌ واضحةٌ في سرد الصحابة، إنها قصصٌ ذاتيَّةٌ في سوادها الأعظم، يحكي فيها المرء عن نفسه أو -إن شئنا الدقة- عن تاريخ نفسه. وصوتُه هو أعلى الأصوات في قصته، أو هو الصوتُ الوحيدُ في معظم الأحيان.

خلا أن صوت هذا الراوي قد يرتقي درجةً في الفنِّ، فينقلبُ إلى ما يُشبه (حديث النفس)، في غير قليلٍ من قصص الصحابة؛ كقصة إسلام الثلاثة المتشابهة: عثمان بن طلحة، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص؛ فإن فيهنَّ شيئًا من حديث النفس، كقول عثمان بن طلحة وهو يُحدِّث نفسه بعد أن رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخلًا مكة عام القَضِيَّة: «فلما دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة عام القضيَّة، غيَّر الله قلبي عما كان عليه، ودخلني الإسلام، وجعلتُ أُفكِّر فيما نحن عليه، وما نعبد من حَجَرٍ لا يسمع ولا يُبصر ولا ينفع ولا يضُر، وأنظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وظَلَفِ أنفسهم عن الدنيا، فيقع ذلك مني، **فأقول**: ما عمِل القومُ إلا على الثواب لما يكون بعد الموت»[(١)].

وقال عمرٌو وقد أُخبر بصُلح الحديبية: «**فجعلتُ أقول**: يدخلُ محمدٌ قابلًا مكةَ بأصحابه؟ ما مكَّةُ لنا بمنزل ولا الطائف، وما شيءٌ خيرٌ من الخروج»[(٢)].

لقد ثقُلتْ فكرة دخول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة على نفوس كبراء القوم من أهل مكة جدًّا، وكرهوا البقاء بها، وما جاورها من المدن كالطائف؛ إذ غلب على ظن عمرو بن العاص أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخلُها هي الأخرى.

وفي قصة خالد: «لما أراد الله بي ما أراد من الخير قَذَفَ في قلبي حبَّ الإسلام، وحضَرني رُشْدي». ثم قال في حديثٍ طويلٍ مع نفسه، بل هو حوارٍ يطرح فيه القضايا على نفسه ثم ينقضُها، حديثٍ هو الحَيرةُ والضِّيق حين يأخذان بالنفس كلَّ مأخذ: «**وقلتُ**:

---

(١) الطبقات الكبير ٥/ ١٦-١٧.

(٢) الطبقات الكبير ٥/ ٤٧-٤٨.

قد شهِدتُ هذه المواطن كلَّها على محمد، فليس موطنٌ أشهدُه إلا انصرفتُ وأنا أرى في نفسي أني مُوضِعٌ[1] في غير شيء، وأن محمدًا سيظهر... فلما صالح قريشًا قلت: أيُّ شيء بقي؟ أين المذهب؟ إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمدًا، وأصحابُه عنده آمنون. فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى النصرانية واليهودية فأقيم مع عجم تابعًا مع عَنَت ذلك؟ أو أقيم في داري فيمن بقي؟»[2].

إني لست أعني بحديث النفس هنا ذلك الاتجاه الجديد المسلوك في بعض القصص الحديثة، القائم على استبطان الوعي الداخليّ للشخصية[3]، ولكني أقصد إلى أن هذه الحيلة الفنية نوعٌ من الحوار المتقدِّم الذي يدفع باتجاه تحديدٍ أدقّ، ورسمٍ أشملَ للتَّكوين النفسيِّ للشخصية؛ وهو إن يكن حديثًا إلى النفس، إلا أنه أشدُّ دراميَّةً من كثيرٍ من الحوارات العادية الأخرى التي أنشأها الصحابة في القَصص بين شخصية وشخصية؛ لأنه حوارٌ مثمرٌ يحرِّك السرد، ويكثِّفه، ويُنمِّيه، وهذا شرطٌ أصيل من شروط الحوار الدراميِّ إن لم يكن الشرطَ الأولَ فيه[4].

والحوار الموجود في قصة الصحابة فيما عدا حديث النفس؛ قليلٌ، لا يُحْدِث نماءً فنيًّا إلا في بعض القصص، كذلك الحوار الذي دار في قصة أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النحو التالي: «فلما جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدرٍ من قريش كَبَتَه الله (يعني أبا لهب)... فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب قد قدم.

فقال أبو لهب: هَلُمَّ إليَّ يا ابن أخي، فعندكَ ـ لعمريَ ـ الخبر. فجلس الناسُ إليه، والناسُ قيامٌ عليه، فقال: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمرُ الناس؟

---

(١) الإيضاع: السير بين الناس، «لسان العرب: وضع»، يريد: أني مستمرٌ عاملٌ في غير شيء.

(٢) الطبقات الكبير ٥/ ٢٦.

(٣) انظر في تفسير هذا الاتجاه: النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٩١٨.

(٤) انظر: فن كتابة المسرحية، تأليف لابوس إيجري، ص٤١٠.

قال: لا شيء والله إن هو إلا أن لقِينا القومَ فمنحناهم أكتافَنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايمُ الله ما لُمْتُ الناس؛ لقينا رجالًا بيضًا على خيلٍ بُلْق بين السماء والأرض، والله ما تُليق شيئًا وما يقومُ لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعتُ طُنْب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة!»[1].

فهذا حوارٌ طويلٌ بالنظر إلى قِصَر القصة، وهو حوارٌ جيِّدٌ؛ لأنه من حاقِّ القصة وليس بحشوٍ فيها يمكن الاستغناء عنه، بل الاستغناءُ عنه يُضِرُّ بالسرد ويُفسد القصة. وقصةُ أبي رافعٍ هذه على كل حالٍ من أجود قصص الصحابة وأتقنها من حيث (توظيفُ) عناصر السرد.

على أنَّ غياب الحوار في مثل هذه القصص الذاتية من السرد قد يدلُّ ـ من وجهةٍ أخرى ـ على ذاتيَّةٍ تامَّةٍ في السرد، وإنَّ قلَّته في قصصٍ أخرى إنْ هي إلا تقويةٌ لتلك الذاتيَّة.

ولو أننا تمهَّلنا قليلًا عند قصة أبي رافعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجدنا عنصر (الشخصيَّات) واضحًا في ذهن هذا السَّارد، فهو يصفها ويُبرزُها في قصته بما يخدم جريان السَّرد على النحو التالي:

فهو: كان غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وقد أسلم قديمًا وكان رجلًا ضعيفًا –وقد ذكر ضَعْفَه هذا مرتين في قصته ـ يعمل الأقداحَ وينحتُها في حجرة زمزم.

وأبو لهب: كان عدوًّا لله، تخلَّف عن بدرٍ وبعث مكانه العاص بن هشام، ووصفهُ القَاصُّ بالفاسق، وصوَّره بأنه أقبل يجرُّ رجليه بعد علمه بالخبر.

وأمُّ الفضل: مولاته، زوجة العباس بن عبد المطلب مولاه، أسلمتْ قديمًا، كانت جالسةً في الحجرة مغتبطةً هي وأبو رافع لانتصار المسلمين ببدر.

---

(١) الطبقات الكبير ٤/ ٦٧.

فهذه شخصيات القصة الثلاث، كما صورهنَّ السارد في قصته، ببُعْدها الخارجيّ: فقرِه هو وضعفه. وبُعْدِها الداخلي: إسلامه وإسلام أم الفضل، عداوة أبي لهب لله عَزَّوَجَلَّ، وخِذلانِه وأسفه بعد انتصار المسلمين ببدر. وبُعْدِها الاجتماعيّ: كونه مولًى، وكون أم الفضل سيِّدتَه، وكون أبي لهبٍ من الفسقة المتجبِّرين، الأغنياء الذي يُخرجون الوكلاء عنهم في الحروب.

ونستطيع بالرجوع إلى القصة القولَ إن الشخصيات الثلاث كانت عاملةً وفاعلةً في القصة، صحيحٌ أن بطل القصة هو السارد، وهو الذي تدور الأحداثُ حولَه، بيد أنَّ الشخصيتين الأُخريين قد أسهمتا في إبراز البطل، وإنضاجه، وإخراج ما لديه من العواطف والصفات والأحداث المختلفة. ذلك لأنَّ «السيرة الذاتية ليست سيرةَ الأعمال والأحداث نفسِها، ولكنها سيرةُ إنسانٍ يعمل. وعلى ذلك تكون الشخصية قبل الحدث، الشخصيةُ في تطوُّرها، وأثرُ الحدثِ الخارجيِّ في تحريكها، فالأحداث رموزٌ على مسار الشخصية، رموزٌ توحي إيحاءً، ورموزٌ تتجمَّعُ لتفتحَ لنا مغاليق الشخصية، وتُشيرَ إلى منعطفاتها»[1].

كما لم يلجأ أبو رافعٍ في تصوير شخصيَّاته إلى الإخبار المباشر، بل ترك لنا حُريَّة اكتشافهنَّ من سيرورة القصة، وهذا ـ لا ريب ـ ألصقُ بالفنّ، وأقربُ إلى التمتُّع به؛ إذ متعةُ الفنِّ نابعةٌ في كثير من الأحوال من دهشة الكشف، وفضولِ التتبُّع، والتعلُّقِ بالسرد إلى نهايته، تلك النهايةُ التي لا يبلغها القارئ إذ ذاك حتى يشعر بالسعادة من معرفةِ أحداثها، وتغمرَه النشوةُ للجُهد الذي بذله لتستبينَ له تلك الأحداثُ على تامِّ صُوَرِها.

---

(١) السيرة: تاريخٌ وفن، للدكتور ماهر حسن فهمي، ص٢٢٤، مكتبة النهضة المصرية، ط١/ ١٩٧٠م.

ولم يَفُتْ أبا رافع تحديدُ (مكان) القصة أو (مسرح أحداثها)(1)، بل فعل وأشار إلى ذلك غير مرةٍ في قصته، إنه حجرةُ زمزم.

كما أجاد القاصُّ في الوصف، انظر إلى هذا المشهد من القصة: «إذ أقبل الفاسقُ أبو لهب، يجرُّ رجليه بشرٍّ، حتى جلس على طُنُب الحجرة، وكان ظهره إلى ظهري».

وفي حَبْكة الأحداث تظهر أماراتٌ أخرى على مهارة أبي رافعٍ في السرد، كتفسيره بعضَ الأجزاء التي يُظن بها إعاقةٌ للسرد، كيلا نتعثَّر -نحن المتلقِّين- عندها، كقوله بعد ما ذكر أنَّ أبا لهبٍ تخلَّف عن بدرٍ وبعث مكانه العاص بنَ هشام: «وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلَّف رجلٌ منهم إلا بعثَ مكانه رجلًا»، وفي هذا إحالةٌ على حكايةٍ أخرى، أو ما نستطيعُ أن نسمِّيَه بـ(الحكاية الراجعة)(2)، التي تعني استدعاء أحداثٍ ماضية.

وفي القصة عنصر (المفاجأة)، فقد قال أبو رافع بعد كلمة أبي سفيان بن الحارث في وصف هيئة الملائكة: فرفعتُ طنب الحجرة بيدي، ثم قلتُ: تلك والله الملائكة!»، في هذا الموقف تتصاعد الأنفاس؛ إذ إنَّ المتلقي يعلم من سياق القصة أنَّ أبا رافعٍ يُخفي إسلامَه.

والعُقدة أو (الأزمة)(3) في القصة مرصودةٌ معلومٌ مكانها، وهي قول القاصّ: «فرفع أبو لهبٍ يده، فضرب وجهي ضربةً شديدة، فثاورْتُه، فاحتملني، فضرب بي الأرض، ثمَّ برك عليَّ يضربني، وكنتُ رجلًا ضعيفًا»، وفي قوله: «وكنتُ رجلًا ضعيفًا» استدرارٌ

---

(1) كما أشار إلى ذلك إمبرت في كتابه: القصة القصيرة: النظرية والتقنية، لإنريكي أندرسون إمبرت، ص٣٢٠، ٣٢٤، ترجمة علي إبراهيم منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م.

(2) أو ما يُسمَّى Flashback، انظر: المصطلحات الأدبية الحديثة، للدكتور محمد عناني، ص٣١، وانظر: أيضًا حديثَ جيرار جنيت عن «الاسترجاعات» في كتابه: خطاب الحكاية، ص٦٠، ترجمة: محمد معتصم، وعبد الجليل الأزدي، وعمر حلي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٢/ ١٩٩٧م.

(3) الأزمة هي نواة القصة، وفيها تصل إلى مرحلة حساسة وتوتر ما بعد توتر، نتيجة الصراع بين القوى المناوئة بعضها لبعض، انظر: القصة القصيرة: النظرية والتقنية، لإنريكي أندرسون إمبرت، ص١٦٧.

لعطفنا وشفقتنا وخوفنا عليه، وفي المشهد كلّه إثارةٌ بالغةٌ، باعثُها الشوق إلى معرفة مصير العبد المسكين الذي يُعذِّبه هذا المتجبِّر الغشومُ، وهو يئنُّ تحت وطأة طُغيانه. وهنا تأتي الانفراجةُ والحل: «فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة، فأخذتْه فضربتْه به ضربةً فلقتْ في رأسه شَجَّةً منكرة، وقالت: تستضعفه أن غاب عنه سيده؟! فقام موليًّا ذليلًا، فوالله ما عاش إلا سبعَ ليالٍ حتى رماه الله بالعَدَسة فقتله، فلقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثًا ما يدفنانه حتى أنتن في بيته». وهو كما ترى حلٌّ رومانسيٌّ سعيدٌ، يريحُ القارئَ والسارد معًا.

إنَّ القصة في زمن الصحابة ـ مهما بلغتْ ـ لن تعدو أن تكون بذورًا أو زروعًا صغيرةً تناسب عصرَها الفطريَّ البسيطَ الغَضّ، إذا ما نحن قِسْناها على أنواع قَصص زماننا الباسقات الـمُتْخَمات، زمانِنا الذي ينوء بحِمْلٍ مثقَلٍ من المدنيَّة التي أفضتْ إلى ألوانٍ مختلفةٍ من الأفكار والنزاع والـمُشْكلات والمذاهب. وإنَّ من العدل أن نعامل قَصص ذلك العصر بكثيرٍ من الرِّفق والتجوُّز، واضعين في اعتبارنا أنَّ هذا هو شأنُ البدايات في كل فنّ.

[٢] وَصايا الصَّحابة

الوصيَّةُ فنٌّ إنسانيٌّ قديم، عرفه الإنسانُ منذ احتاج إلى أن ينقل خبراته ومواعظَه وتجاربَه إلى من يُحبُّ ويرحم، أو إلى من بيده مقاليدُ من الأمر، ولعل خير شاهدٍ على ما نقول ما ورد في القرآن الكريم من وصايا الأنبياء والصالحين لأقوامهم، من مثل قول نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:٣٤]، وفي القرآن نداءاتٌ كثيرةٌ من الأنبياء لقومهم: يا قومِ يا قوم.

وعَرفَ العربُ الوصايا، ولهم فيها قدرٌ من النصوص لا بأسَ به[١]، ولكننا لا ندري الآن ما صحَّتُه؛ ثم جاء رسولُ الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان يوصي أصحابَه، وكان يتخوَّلُهم بالنصيحة كما ورد عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مخافةَ السآمة عليهم[٢]، وكان يحُثُّهم على النصيحة، حتى لقد ورد في الحديث أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الدينُ النصيحة**»، قالوا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم**»[٣].

فكأن النصيحةَ عمادُ الدين الذي عليه يقوم، ولم لا وهي عمل الأنبياء والمرسلين الذين ابتعثهم الله لهداية العالمين! ولقد استجاب أصحابُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوصيَّته تلك، فأخذوا يبذلون النصيحة لكل من رأوه حريًّا بالنصيحة، خليفةً كان، أو أميرًا، أومن العامَّة؛ ولذا رأينا عندهم الوصايا السياسية، ووصايا الجهاد والحرب، والوصية عند الموت، ووصايا أخرى عامَّةً في أمور مختلفةٍ من أمور الدنيا والآخرة، هذا بيانُ كلٍّ منها:

---

(١) انظر: عددًا من الوصايا الجاهلية في: جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت ١/ ١٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري ١/ ٣٩.

(٣) صحيح مسلم١/ ٥٣.

(أ) الوَصَايا السّياسيّة:

كان الخلفاء من الصحابة يوصون ولاتَهم، ومن سيخلفونهم بعدهم. وكانت الرعيةُ تنصحُ الخلفاء والأمراءَ وتُوصيهم كذلك.

فمن وصايا أبي بكرٍ أنه حَثَّ عكرمة يومَ وجَّهه إلى عُمَان على الحذر، والوفاءِ بالقول في الجِدِّ واللغو، والتريُّثِ في الذي يقول، وأمَرَه بالعدل في العقوبة، وبالصبر عند اللقاء، فقال له: «سِرْ على بركة الله. ولا تنـزلنَّ على مستأمن، ولا تُؤْمِنَنَّ على حق مسلم. وقدِّم النُّذُر بين يديك، ومهما قلت إني فاعل فافعل، ولا تجعل قولَك لغوًا في عفوٍ ولا عقوبة؛ فلا تُرجى إذا أمنت، ولا تُخاف إذا خَوَّفت، ولكن انظر متى تقول وما تقول. ولا تُعذِّب على معصيةٍ بأكثر من عقوبتها، فإنك إن فعلتَ أثمت، وإن تركتَ كذبت. ولا تؤمِّنن شريفًا دون أن يكفل بأهله، ولا تكلِّفنَّ ضعيفًا أكثر من نفسه، واتقِ الله إذا لقيت، وإذا لَقِيتَ فاصبر»(١).

وجماع أمر أبي بكر في مجمل وصاياه المحفوظة يدور ـ كما يرى الأستاذ العقاد ـ على خُلُقين غالبين هما: الكياسة والصِّدق، وتمثِّلها وصيتُه لعكرمة هذه أصدقَ تمثيل(٢).

وأوصى عمرُ الخليفةَ بعده بأصناف رعيَّة المسلمين بطبقاتهم: المهاجرين، والأنصار، والأعراب، وأوصاه بأهل الذِّمَّة، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أُوْصي الخليفةَ من بعدي بتقوى الله، والمهاجرين الأوَّلين أن يحفظ لهم حقَّهم، وأن يعرف لهم حُرْمتَهم. وأوصيه بأهل الأمصار خيرًا؛ فإنهم رِدْءُ الإسلام، وغَيْظُ العدوّ، وجُباة المال؛ أن لا يؤخذ منهم إلا فضلُهم عن رِضًا منهم. وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان، أن يَقبَل من محسنِهم، ويتجاوز عن مسيئهم. وأوصيه بالأعراب خيرًا؛ فإنهم أصل العرب ومادة

---

(١) نثر الدر ٢/ ٢١.

(٢) انظر: عبقريَّة الصِّدِّيق، للأستاذ عباس محمود العقّاد، ص١٥٧، دار المعارف بالقاهرة، ط١٥/ ١٩٨٩م.

الإسلام، وأن يُؤخَذ من حواشي أموالهم فيُردَّ على فقرائهم. وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله، أن يُوفِيَ لهم بعهدهم، وأن لا يكلَّفوا إلا طاقتَهم، وأن يُقاتِل مِنْ ورائهم»[1].

ولَمَّا ولَّى عليٌّ بن أبي طالب قيسَ بن سعدٍ ولايةَ مصر أوصاه، فقال له: «سِرْ إلى مصر فقد ولَّيْتُكها، واخرج إلى رَحْلك، واجمع إليك ثقاتَك ومن أحببت أن يَصحبك حتى تأتيها ومعك جند؛ فإن ذلك أرعبُ لعدوِّك، وأعزُّ لوليِّك. فإذا أنت قَدِمتها إن شاء الله فأحسنْ إلى المحسن، واشتدَّ على المريب، وارفُق بالعامة والخاصّة، فإنَّ الرفق يُمْن»[2].

وفي الجانب الآخر كانت رجال الرعيَّة وعقلاؤهم ينصحون الخلفاء ويوصونهم. وإنها لمن حكمة الدولة الإسلامية الفتيَّة أن تُنصت إلى رعاياها، لا أن تستبدَّ بالرأي.

ينقلون عن خالد بن سعيد بن العاص[3] أنه لما عزم على المسير إلى الشام مجاهدًا لبس سلاحه، وأمر إخوته وغلمته ومواليه فلبسوا أسلحتهم، ثم أقبل إلى أبي بكرٍ فقال له: «يا أبا بكر، إنَّ الله أكرمنا وإيَّاك والمسلمين طُرًّا بهذا الدين، فأحقُّ من أقام السنة، وأمات البدعة، وعدل فى السيرة؛ الوالي على الرعية. وكلُّ امرئ من أهل هذا الدين محقوقٌ بالإحسان. ومَعْدَلَةُ الوالى أعمُّ نفعًا؛ فاتق الله يا أبا بكر فيمن ولاك الله أمره، وارحم الأرملة واليتيم، وأَعِنِ الضعيف المظلوم، ولا يكنْ رجلٌ من المسلمين إذا رضِيتَ عنه آثرَ عندك فى الحق منه إذا سخطت عليه. ولا تغضب ما قدَرت على ذلك؛ فإن الغضب يجرُّ الجور، ولا تحقد على مسلمٍ وأنت تستطيع؛ فإن حقدَكَ على المسلم يجعلك له عدوًّا، وإن اطَّلع على ذلك منك عاداك، فإذا عادى الوالي الرعيَّةَ، وعادت الرعيةُ الواليَ؛ كان بك قَمِنًا أن يكون إلى هلاكهم داعيًا. وكُن ليِّنًا للمحسن، واشدُدْ على الـمُريب، ولا تأخذْك في الله لومةُ لائم»[4].

---

(١) الطبقات الكبير، لابن سعد ٣/ ٣١٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٩.

(٣) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي، أبو سعيد، من السابقين الأولين، قيل: كان رابعًا أو خامسًا، ممن هاجر إلى أرض الحبشة ووُلد له هناك بنته أم خالد. شهد عمرة القضيَّة وما بعدها. استعمله النبي ﷺ على صدقات مَذْحِج، انظر: ترجمته في: الإصابة ٢/ ٢٣٦-٢٣٨.

(٤) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٢.

فهذه نصائح جُلُّها بالأمر والنهي، ثم يعقب أحدَهما التعليلُ بفاء السبب؛ وهي طريقة الطَّلَب القائم عليه عُظْمُ أدب الوصايا فيما وقفنا عليه منه.

كما ينقلون عن عمر بن الخطاب أنه أمَّر سعيد بن عامر الجُمَحيَّ على جيش، فقال: اللهم إني لم أسلِّط سعيد بن عامر على أشعارهم ولا على أبشارهم، ولكن أمرتُه أن يُجاهد بهم عدوَّهم، ويعدل فيهم، ويقسمَ فيئهم بينهم. فقال سعيدٌ لعُمر ناصحًا إيَّاه بـ(افعل ولا تفعل)، طريقةِ الطلب المشوبِ بجوابه أحيانًا: «يا أمير المؤمنين، اخشَ الله في الناس، ولا تخشَ الناسَ في الله، وأحبَّ للمسلمين ما تحبُّ لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك. والزم الأمر ذا الحجة يُعنْك الله على أمرك، ويكفِك ما أهمَّك. وأقم وجهك وقضاءك لمن استرعاك الله أمرَه لقريب المسلمين وبعيدهم، ولا تقضِ في الأمصار قضاءين؛ فيختلفَ عليك رأيُك وتَنْزِعَ عن الحق. وخُضِ الغمرات إلى الحق حيث علمتَه، ولا تخفْ في الله لومة لائم؛ فإن خير القول ما تبِعه الفعل». فقال عُمر: ومن يطيق هذا يا سعيد بن عامر؟ قال مَنْ وضع الله في عُنقه ما وضع في عنقك من أمر المسلمين؛ إنما عليك أن تقول فيُتَّبعَ قولُك»[1].

وفي نصيحة سياسةٍ قصيرةٍ يُبيِّن فيها العبَّاس بن عبد المطلب لعثمان كيف تنقادُ له الأمة، فيقول له: الزمْ خمسًا: لا تنازعْك الأمةُ خزائمها[2] ما لزمتَها، قال: وما هُنّ؟ قال: الصبر عن القتل، والتحبُّب، والصَّفح، والمداراةُ، وكتمان السرّ[3].

---

(١) الطبقات الكبير ٥/ ٩١.

(٢) الخزائمُ: جمع خِزامةٍ، وهي حلقة من شعر تُجعل في أحد جانبي مَنْخري البعير «لسان العرب: خزم»، أي أن الأمّة تنقاد لك.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٠.

(ب) وَصَايا الحَرْب:

من عادة أمراء الصحابة أنهم كانوا يُشيِّعون الجيوشَ الغازية في سبيل الله بالوصايا المستمدَّة من رُوح الإسلام ومنهاجه؛ والتي تعدُّ إعذارًا من الخليفة إلى الله عَزَّوَجَلَّ إذا ما اقترف الجيشُ إثمًا، أو خالَف شريعةَ الله في أمرٍ من الأمور.

خرج أبو بكرٍ ماشيًا مع جيش أسامة وهو راكبٌ، بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبنَّ أو لأنزلنّ. فقال: والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما عليَّ أن أُغَبِّر قدميَّ في سبيل الله ساعة؟! ثم قال: «يا أيها الناس، قِفوا أوصِكم بعشرٍ فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغُلُّوا، ولا تَغدِروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقِروا نخلًا ولا تُحرِّقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكَلة. وسوف تمرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقونَ أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خَفْقًا. اندفعوا باسم الله، أفناكم الله بالطعن والطاعون!»(1).

تلك شريعة جيش المسلمين جمعها أبو بكرٍ في وصيَّته، وهي في أصول المعاملة عند القتال، وأصولِ المعاملة في دار الحرب بعد افتتاحها، وأصول المعاملة في الطريق إلى الحرب، والنيَّةِ في الحرب كيف تُعْقَد بالتوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتمنِّي الشهادة. إنَّ وصيَّةً كهذه في مُثُلِها العُليا، ومعانيها السامية؛لم يملك كاتبٌ كَوِل ديورانت William James Durant إلا أن يراها مثالًا جديرًا بالثناء والتقدير والإشادة، ما دعاه إلى روايتها في كتابه الكبير (قصة الحضارة)(2).

---

(1) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٢٢٧، وانظر: في معانٍ كهذه المعاني وصيةً أخرى لعلي بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١١.

(2) انظر: قصة الحضارة، لوِل ديورانت ١٣/ ٧٢-٧٣، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت.

وفي وصيَّةٍ أخرى للجيش رائعةٍ؛ لما تحملُه من فضل عقل عُمر، يوصي عمرُ بن الخطاب سعدَ بن أبي وقاص وهو يسرِّحه إلى العراق، فيقول له: «إني قد ولَّيتُكَ حربَ العراق، فاحفظ وصيَّتي، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يُخلِّص منه إلا الحق، فعوِّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتادًا، فعتاد الخير الصبر؛ فالصبرَ على ما أصابك أو نابك يجتمعْ لك خشية الله. واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته. وإنما أطاعه مَنْ أطاعه ببُغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه مَنْ عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة. وللقلوب حقائق يُنْشئها الله إنشاءً، منها السر، ومنها العلانية؛ فأما العلانية فأن يكون حامدُه وذامُّه في الحق سواء، وأما السر فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبَّة الناس؛ فلا تزهد في التحبُّب، فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله إذا أحب عبدًا حبَّبه، وإذا أبغض عبدًا بغَّضه. فاعتبر منزلتَك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس، ممن يشرَعُ معك في أمرك، ثم سرِّحه فيمن اجتمع إليه بالمدينة من نفير المسلمين»[1].

وفي الوصية من حكمة عُمر وتدبُّره ما لا يخفى على مُقْتفٍ سيرةَ عُمر، من حبِّ التبصُّر، واستخراج النتائج، وعَمَلِ التقاسيم. وكيف يكون العمل عند عمر سبيلًا إلى خشية الله تعالى، التي هي جِماعُ الأمرِ كلِّه في الدين؛ وإلى الزُّهد، الذي هو صورةُ الخشية إذا أُشْرِبـَها قلبُ العبد. وههنا حقائق بعيدةُ المنال لا يصل إليها إلا العارفون، كالسِّرِّ مثمرِ الحكمةِ ومحبَّةِ الناس، والعلانيةِ مورثةِ الإخلاص؛ وكلا الأمرين فضلٌ من الله تعالى على العبد ومِنَّة.

أفلَيْس في مثل كلام عُمر بن الخطاب هذا تباشيرُ علم القلوب المستقرَّةُ نشأتُه بعد ذلك بسنين طويلة؟!

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٣.

ولعُمر في الحرب وصيةٌ أخرى يوصي بها بعضَ قادته ليكسر بها طُلَعَةَ نفسه، ويذكِّرَه بعهد الاستضعاف والمذلَّة، فيقول لعُتبة بن غزوان حين وجَّهه إلى البصرة: «... واتقِّ الله فيما وُلِّيت، وإيَّاك أن تُنازعَك نفسُك إلى كِبْرٍ مما يفسد عليك إخوتَك، وقد صحِبتَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعززتَ به بعد الذلة، وقوِيت به بعد الضعف، حتى صرت أميرًا مسلَّطًا، ومَلِكًا مطاعًا، تقول فيسمعُ منك، وتأمر فيطاع أمرك، فيا لها نعمةٌ إن لم ترفعْك فوق قدرك وتُبطرْك على من دونك، واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجَك وتخدعَك فتسقطَ سقطةً تصير بها إلى جهنم، أعيذك بالله ونفسي من ذلك. إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رُفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأَرِدِ الله ولا تُرد الدنيا، واتقِ مصارع الظالمين»(١).

وكلمة التقوى مأثورةٌ في الوصايا الإسلاميَّة منذ نشأتها، وإذا كان عمر بن الخطاب استفتحَ بها وصيَّته لعُتبة، فإنَّ عليًّا أوصى معقل بن قيس إذ صرَفه على رأس جيشٍ إلى الأهواز بالتقوى، فقال له: «يا مَعْقِل، اتقِ الله ما استطعت، فإنها وصيةُ الله للمؤمنين، لا تبغِ على أهل القِبلة، ولا تظلمْ أهل الذِّمَّة، ولا تتكبرْ؛ فإن الله لا يحب المتكبرين»(٢).

(جـ) وَصَايا المَوْت:

شاعتْ وصايا الموت في أدب الصحابة، وهذا النوع من الوصايا من أصدق أنواع الأدب، وأقربِه من حُشاشة نفس قائله، ساعةَ يَبذلُ فيها المقبلُ على الموت النصيحةَ الأخيرةَ إلى مَن يُحبُّ من الأحياء؛ فيحرص على أن تكونَ الأتمَّ، والأخلصَ لهم.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٣-٥٩٤، وانظر: وصية شبيهةً أوصى بها عُمر سعدَ بن أبي وقاص في الكتاب نفسه ٣/ ٤٨٣ استهلَّها بقوله: «يا سعدُ سعدَ بني وُهيب، لا يَغُرنك من الله أن قيل: خالُ رسول الله؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يمحو السيِّء بالسيِّء، ولكنه يمحو السيِّء بالحسَن...».

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢٢، وانظر: في الوصية بالتقوى مثلَ ذلك وصيةَ معاوية عمرو بن العاص وهو يوجِّهه إلى فتح مصر في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٠.

يوصي أبو بكر الصدِّيقُ ابنتَه عائشة أمَّ المؤمنين وقد حضرته الوفاةُ، فيتشهَّدُ ثم يقول: «أما بعدُ يا بُنَيَّة، فإن أحبَّ الناس غِنًى إليَّ بعدي أنتِ، وإنَّ أعزَّ الناس عليَّ فقرًا بعدي أنتِ، وإني كنت نحلْتُكِ جِدَادَ (ا و)عشرين[1] وسَقًا من مالي، فوددت والله أنك حُزْتِه وأخذتِه فإنما هو مالُ الوارث، وهما أخواك وأختاك. قالت: قلت: هذا أخواي، فمن أختاي؟ قال: ذاتُ بطن ابنة خارجة؛ فإني أظنها جارية»[2].

ولما طُعن أبو عُبيدة بن الجراح وهو بالأردنِّ دعا إخوانَه المسلمين، فأوصاهم بفرائض الإسلام وشِيَمِه، وحذَّرهم الدنيا، وضربَ لهم نفسَه وهو مضطجعٌ في انتظار الموت مَثَلًا، فقال: «إني أوصيكم بوصيَّةٍ إن قَبلتموها لم تزالوا بخير ما بقيتم: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدَّقوا، وحُجُّوا، واعتمروا، وتواصلوا، وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم، ولا تُلْهكم الدنيا، فإن امرءًا لو عُمِّر ألف حَوْلٍ ما كان له بُدٌّ من أن يصير إلى مثل مصرعي هذا الذي ترون! إنَّ الله كتب الموت على بني آدم، فهم ميتون، وأكيسُهم أطوعُهم لربه، وأعملُهم ليوم مَعَاده»[3].

وقد يُوصِي الميِّتُ أهلَه بما ينفعُهم في الدنيا كذلك، وكثيرًا ما يقع هذا إذا كان الموصي خليفةً، أو كبيرًا مُطاعًا.

فمن الأول وصيَّةُ معاوية الطويلةُ لابنه يزيد إذ حضره الموت، يُريد له أن يَبقى حكمُه، ويدومَ سلطانُه، فممَّا جاء فيها: «يا يزيد، اتقِ الله، فقد وطَّأتُ لك هذا الأمر... فارفُق بالناس، وأَغْضِ عمَّا بلغك من قولٍ تؤذَى به وتنتقصُ به، وطَأْ عليه يَهْنِكَ عيشُك،

---

(١) في الأصل: «جداد عشرين» فلعله تصحيفٌ، ولعل ما أثبتُّه الصواب، والجداد جمعُ جَدُودَ، وهي الشاة القليلةُ اللبن من غير عيب «لسان العرب: جدد».

(٢) الطبقات الكبير ٣/ ١٧٧.

(٣) انظر: فتوح الشام، للأزدي، ص٢٦٧، والوصايا للسجستاني، أبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان ص١٦٢-١٦٣، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦١م. ونحوٌ منها وصيةُ معاذ بن جبل رَحِمَهُ اللهُ تعالى لما طُعن بالشام أيضًا، انظرها في: فتوح الشام، ص٢٧٠.

وتَصلُحْ لك رعيَّتُك، وإياك والمناقشةَ وحمْلَ الغضب، فإنك تُهلك نفسَك ورعيَّتك، وإياك وجفوةَ أهل الشرف واستهانتَهم والتكبُّرَ عليهم. لِنْ لهم لِينًا بحيث لا يرَوْا منك ضعفًا ولا جَوْرًا، وأوطئهم فراشك وقربهم إليك وأدنهم منك؛ فإنهم يُعلون لك حقك. ولا تُهنهم ولا تستخفنَّ بحقهم؛ فيهينوك ويستخفوا بحقك، وليثقوا فيك، فإذا أردتَ أمرًا فادعُ ذوي السنينَ والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى، فشاورهم، ولا تخالفهم. وإياك والاستبدادَ برأيك؛ فإن الرأي ليس في صدرٍ واحد. وصدِّق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف، واخزُن ذلك عن نسائك وخَدَمك. وشمِّر إزارك، وتعاهد جُندك، وأصلحْ نفسك يَصلُحْ لك الناس، لا تدع لهم فيها مقالًا؛ فإن الناس نُزَّاعٌ إلى الشر. واحضُر الصلاة. فإنك إذا فعلت ما أوصيك به عرف الناسُ لك حقك، وعُظِّمت مملكتُك ...»[1].

ومن الثاني، وهي من وصايا المجد والسؤدد في الدنيا أنَّ قيس بن عاصمٍ المِنْقَري[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جمع بنيه عند موته فأوصاهم، فقال: «يا بَنيّ، سوِّدوا عليكم أكبرَكم؛ فإنَّ القوم إذا سوَّدوا عليهم أكبرهم خلَفوا أباهم، وإذا سوَّدوا أصغرهم أزرى بهم عند أكفائهم. وعليكم بالمال واصطناعه؛ فإنه مأبهةٌ للكريم، ويُستغنى به عن اللئيم. وإياكم ومسألةَ الناس؛ فإنها من آخر مكسَبة الرجل. ولا تنوحوا عليَّ؛ فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُنَحْ عليه. ولا تدفنوني حيث تشعر بي بكر بن وائل؛ فإني كنتُ أُغاوِلُهم في الجاهلية»[3].

---

(١) الطبقات الكبير ٦/ ٢٩.

(٢) هو قيس بن عاصم بن سِنان بن منقر التميمي الـمِنْقَري، صحابيٌّ كان قد حرم الخمر في الجاهلية، ثم وفد على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم فأسلم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا سيد أهل الوبر». وكان سيدًا جوادًا عاقلًا حليمًا. نزل قيس البصرة ومات بها، ولما مات رثاه عبدة بن الطبيب بقوله:

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصم ... ورحمتُه ما شاء أن يترحَّما

ويقول فيها:

وما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ واحدٍ ... ولكنه بُنيانُ قومٍ تهدَّما

انظر: الإصابة ٥/ ٤٨٢.

(٣) الطبقات الكبير ٦/ ١٦٢.

ومن إرْث الصحابة في الوصايا أن أحدهم قد يطلب إلى آله من الأعمال به بعد موته، ما قد يَظُنُّ فيه مغفرةَ الله له، كقول معاوية في مرضه الذي تُوفِّي فيه: «إنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كساني قميصًا فرفعتُه، وقلَّمَ أظفارَه يومًا فأخذتُ قُلامته فجعلتها في قارورة؛ فإذا مِتُّ فألبسوني ذلك القميص، وقطِّعوا تلك القُلامةَ واسحقوها، وذُرُّوها في عيني، وفي فِيَّ؛ فعسى الله أن يرحمني ببركتها»(١).

وكقول عمرو بن العاص موصيًا عبد الله ابنَه بأن يُغسِّلَه ويُجفِّفَه ويُكفِّنَه على طريقةٍ مخصوصة: «يا بُنيّ، إذا مِتُّ فاغسلْني غَسلةً بالماء، ثم جفِّفني في ثوب، ثم اغسلني الثانية بماءٍ قَراح، ثم جفِّفني في ثوب، ثم اغسلني الثالثة بماءٍ فيه شيءٌ من الكافور، ثم جفِّفني في ثوب، ثم إذا ألبستني الثياب فأزرَّ عليَّ فإني مخاصِم». ثم قال: اللهمَّ إنك أمرتنا فركبنا، ونهيْتنا فأضعنا فلا بريءٌ فأعتذر، ولا عزيزٌ فأنتصر، ولكنْ لا إله إلا الله. ما زال يقولها حتى مات(٢).

وصَنَع عمرُ بن الخطاب مثلَ ذلك لما وصّى ابنه عبد الله فقال له: «يا بُنيّ، إذا حضرتني الوفاة، فاحرِفْني، واجعل ركبتيك في صُلبي، وضع يدك اليمنى على جبيني، ويدك اليسرى على ذقني، فإذا قُبضت فأغمضْني. واقصِدوا في كَفَني؛ فإنه إن يكن لي عند الله خيرٌ أبدلني خيرًا منه، وإن كنت على غير ذلك سلبني فأسرع سَلْبي. واقصِدوا في حُفرتي؛ فإنه إن يكن لي عند الله خيرٌ وَسَّع لي فيها مدَّ بصري، وإن كنت على غير ذلك ضيَّقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي. ولا تخرجنَّ معي امرأة. ولا تُزَكُّوني بما ليس فيَّ؛ فإن الله هو أعلم بي. وإذا خرجتم بي فأسرعوا في المشي؛ فإنه إن يكن لي عند الله خيرٌ قدَّمتموني إلى ما هو خيرٌ لي، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شرًّا تحملونه»(٣).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٢٧.

(٢) الطبقات الكبير ٥/ ٨١.

(٣) الطبقات الكبير ٣/ ٣٣٢-٣٣٣.

(د) وَصَايا عامّة:

وللصحابة وصايا عامَّةٌ لا يجمع بينها جامعٌ بعينه، بعضٌ منها في أمور الدنيا، وبعضٌ منها في أمور الدين والآخرة، ولعل من أحسنها قولَ عُمير بن حبيبٍ[(١)] لولَده: «يا بَنِيّ، إياكم ومخالطةَ السفهاء؛ فإن مجالسَتهم داء، وإنه من يحلِم عن السفيه يُسَرَّ بِحِلمِه، ومن يُجِبْه يندم، ومن لا يُقِرَّ بقليل ما يأتي به السفيه يُقِرَّ بالكثير. وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فليوطِّن نفسَه قبل ذلك على الأذى، وليوقنْ بالثواب من الله؛ فإنه من يوقن بالثواب من الله لا يجدْ مسَّ الأذى»[(٢)].

ونصح ثمامة بن بجاد السُّلَميُّ[(٣)] قومه، فحذَّرهم من (التسويف) وإرجاء العمل والعبادة، فقال: «أيْ: قوم، أنذرتُكم سوف أعمل، سوف أصلِّي، سوف أصوم»[(٤)]، وهي طريقةٌ جميلةٌ في صياغة النصيحة، ذكر فيها أمثلتَها مما يقولُه الناس ويصنعونه؛ حتى يكون كلامُه أقربَ إليهم من ذكر (اسم) هذه الطريقة من صنيعة الناس؛ وليُشوِّقَهم أيضًا في أول الكلام إلى بقيَّته، فكأنه وهو يتلو نصيحته عليهم يُغريهم بشيءٍ ينتظرونه.

وأوصى عمر بن الخطاب الأحنفَ بن قيس بالاقتصاد ونبذِ الإسراف، وذلك حين وجدَه قد لبس ثوبًا غاليًا، فقال له: «فهَلاّ بدونِ هذا ووضعتَ فَضْلتَه موضعًا تُغني به مسلمًا؟ حُصُّوا[(٥)] وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم، ولا تُسرفوا فتخسروا أنفسَكم وأموالكم. إنْ نَظَرَ امرؤ لنفسه وقَدَّم لها يُخلَفْ له»[(٦)].

---

(١) هو عُمير بن حبيب بن خُماشَة الأنصاري، ممن بايع تحت الشجرة، ولا روايةَ له عن النبي ﷺ، انظر: الإصابة ٤/ ٧١٤.

(٢) السنن الكبرى، للبيهقي ١٠/ ٩٥، طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكّن.

(٣) صحابي، انظر: ترجمته، في الإصابة ١/ ٤١٢.

(٤) الزهد، لابن المبارك، ص٥.

(٥) يُفهم من مادة هذه الكلمة التقليلَ والاقتصاد، من قولهم: سنةٌ حَصَّاء: جرداء، ورجلٌ أَحَصّ بيِّنُ الحَصَص: أي: قليل شعر الرأس، «لسان العرب: حصص».

(٦) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٧٨.

وعندهم مِن وصايا الدنيا الخالصة، كقول ابن مسعود لرجلٍ مُزمعِ السفر سأله الوصية، وقد كان المظنون أن يوصيَه بأمور الآخرة والزهد، فأوصاه بدابَّته وأمْنِه: «إذا كنتَ في الوصيلة فأعطِ راحلتَك حَظَّها، فإذا كنتَ في الجَدْب فأسرع السيرَ، ولا تهوَّد، وإياك والمُناخَ على الطريق، فإنه منزلٌ للوالجة»[1].

غير أن من أطرف وصاياهم في تدبير العيش وصيةٌ لعمر بن الخطاب في الطبخ! وذلك أنه نصحَ النساء بما من شأنه أن يُصلح الطعام، ويُطرِّيَه، ويجعلَه وفيرًا، فقال: «لا تَذُرَّنَّ إحداكُنَّ الدقيقَ حتى يَسخُنَ الماء، ثم تذرُّه قليلًا قليلًا، وتسوطُه بمِسْوَطِها؛ فإنه أريعُ له، وأحرى أن لا يَتَقَرَّد!»[2].

(هـ) بِنَاءُ الوَصِيَّة:

نستطيع الوقوف على بعض السِّمات العامَّة الجامعة في بناء الوصيَّة عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ففي مدى الوصية مثلًا نستطيع القول: إن الوصية عندهم تختلف طولًا وقِصَرًا، وهي إلى القصر أو التوسُّط أقرب، وطولُها ليس بذلك الطول البائن، بل هو طولٌ لا يكاد يعدو الورقة من القَطْع الصغير في أوراقنا الحديثة.

فمن تلك الوصايا الطويلة وصيةُ معاوية ليزيد ابنِه التي سبق الاستشهاد بها منذ قليل[3]، والسبب في طولها أنها تُناقش غرضًا خطيرًا هو غرض توطيد الحكم وسياسة الخَلْق، وهو غرَضٌ له شُعَبه وأفرُعُه.

---

(١) نثر الدُّرّ ٢/ ٧٢، والوالجة: السباع والحيَّات، سُمِّيت والجةً لاستتارها بالنهار في الأَوْلاج، وهو ما وَلَجْتَ فيه من شِعْب أو كهف وغيرهما «لسان العرب: ولج».

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤١٣، والتقرُّد: التجعُّد وتعقُّد الأطراف، «لسان العرب: قرد».

(٣) الطبقات الكبير ٦/ ٢٩.

ومنها وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجَّهه لفتح الشام، ومطلعُها المرويُّ لنا: «إني قد ولَّيتُك لأبلوَك وأُجرِّبَك وأُخرجَك من فَيْء أهلك، فإن أحسنتَ زِدْتُك، وإن أسأتَ عزلتُك، فعليك بتقوى الله...» إلخ[1].

ومن طريف ما يُروى عن هذه الوصية أن أبا بكرٍ هَمَّ أن يوصيَ بما جاء فيها شُرَحْبيلَ بن حَسَنَة، فكأنه استطالها، وعَجِل عن أن يُعيدَها، فقال لشُرَحْبيل: «يا شُرَحبيل ألم تسمع وصيتي ليزيدَ بنِ أبي سُفيان؟ قال: بلى. قال: فإني أوصيكَ بمثلها، وأوصيك بخصالٍ أغفلتُ ذِكْرهنَّ ليزيد...» الوصية[2].

والوصايا من سوى ذلك ـ كما سبق القول، ومثلما مرَّ بنا من أمثلتها ـ قصيراتٌ أوقريباتٌ من القصيرات.

ومن سمات الوصايا أنها تبدأ غالبًا بنداء الموصَّى -رجلًا كان أو امرأةً أو جمعًا- باسمه أو بصفته، وذلك ليستجمعَ النظر إلى الموصي فيما يُلقيه إليه.

فمن نداء الخلفاء بصفاتهم قول سعيد بن عامر للخليفة عُمر: «يا أمير المؤمنين»[3].
ومن ندائهم بأسمائهم مجرَّدةً عن الصِّفات نداء خالد بن سعيد بن العاص للخليفة أبي بكرٍ بقوله وهو ينصحه: «يا أبا بكر»[4]. فكأنَّ مقام النصيحة فيه تتساقطُ الألقاب، أو هو تعمُّدٌ من الناصح حتى يُطْلعَ المنصوحَ على حقيقة أمره، وأنَّه سيلقى اللهَ مجرَّدًا من كل شيءٍ إلا من عمله.

---

(١) أنساب الأشراف، للبَلاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر١٠/ ١١٢، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت، ط١/ ١٤١٧هـ.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص١٥.

(٣) الطبقات الكبير ٥/ ٩١.

(٤) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٢.

ومن نداء الجمع قول أبي بكر في وصيّته وهو يُسرِّح جيشَ أسامة: «يا أيُّها الناس»[1].

ومن نداء الأفراد بأسمائهم قول عليٍّ بن أبي طالبٍ في مستهَلِّ وصيَّته لمعقِل بن قيس: «يا معقِل»[2]، وقولُ معاوية لابنه: «يا يزيد»[3]، وقولُ أبي بكرٍ لعمرو بن العاص في بعض وصاياه: «يا عمرو»[4].

وربما يستملح الموصِي في ندائه ليتلطَّف إلى قلب الموصَى، كما صنع عمر بن الخطاب وهو يوصي سعدَ بن أبي وقاص، إذ ناداه بقوله: «يا سعدُ، سعدَ بني وُهَيب! لا يغرَّنَّك أن قيل: خالُ رسول الله...» إلخ[5]. وقد يُقال: إن هذا الوصفَ من عُمر أتى على سبيل تبجيل سعدٍ وتعظيمه.

وقد يُنادَى الموصَى بصفته، كنداء الآباء لأبنائهم حين الموت: «يا بُنيَّ»[6]، و«يا بُنيَّة»[7]، و«يا بَنيّ»[8]. وفي هذا من التلطُّف والرِّقة ما يوافق الطبيعة البشرية التي فطر الله الإنسانَ عليها من العطف على ولده، وتمني الخير والسلامة له.

وقد تبدأ الوصيَّةُ بلفظة مشتقَّةٍ من مادَّتها كقول معاوية لعمرو بن العاص: «أوصيك» بكذا وكذا[9].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٧.
(٢) الطبقات الكبير ٦/ ٢٩.
(٣) الطبقات الكبير ٥/ ٩١.
(٤) فتوح الشام، للأزدي، ص٤٨.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٣.
(٦) انظر: الطبقات الكبير ٥/ ٨١.
(٧) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ١٧٧.
(٨) انظر: الطبقات الكبير ٦/ ١٦٢.
(٩) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٠.

ومن سمات وصايا الصحابة أنها تُلقى عادةً بأسلوب الطلب: طلب الفعل والإغراءِ به، أو طلب الكفِّ والتحذير منه[1]. وكثيرًا ما يُتْبِعون الطلبَ بجزائه أو تعليله وأسبابه، إذا هم احتاجوا في الوصية إلى ذلك، كأن يكونوا يتوجَّهون فيها إلى رجلٍ ذي مقامٍ عظيم كالخليفة، فيحسنُ التعليل حينئذٍ لا أن يُلْقى الكلام غُفلًا عن أسبابه[2]؛ أو يتوجَّهون فيها إلى من سيلي أمرًا عظيمًا كالعهد بالخلافة، فيحسن التعليل حينئذٍ ليعلم خطرَ ما ينتظره، وليقتنع عقلُه وقلبُه بما يُقال له[3]؛ أو يتوجَّهون فيها إلى أُناس ذوي عقلٍ وشأن فهم أدنى إلى الرضا بالوصية حين يلقَوْنها بالتعليل[4].

(١) انظر: مثلًا وصية أبي بكر لجيش أسامة في تكرار النهي كثيرًا في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٦.
(٢) انظر: وصية سعيد بن عامر لعُمر بن الخطاب، في الطبقات الكبير ٥/ ٩١.
(٣) انظر: وصية معاوية لابنه يزيد في: الطبقات الكبير ٦/ ٢٩.
(٤) انظر: وصية قيس بن عاصم لبَنيه، في الطبقات الكبير ٦/ ١٦٢.

[٣] جدل الصحابة

الجَدَلُ أو المُجادلة قولٌ يُقصَدُ به إقامةُ الحُجَّة فيما اختَلف فيه اعتقادُ المتجادلين. وهو يُستعمل في المذاهب، والديانات، وفي الحقوق، والخصومات، والتنصُّل في الاعتذارات، وهو ينقسم قسمين: أحدهما محمودٌ، والآخر مذموم. فأما المحمود فهو الذي يُقصد به الحقُّ، ويُستعمل فيه الصدق. وأما المذموم فما أُريد به المماراةُ والغَلَبةُ، وطُلب به الرياءُ والسُّمعة. وقد جاءت الآياتُ الكثيرةُ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في ذكر النوعين، فمن المحمود قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وقوله جلَّ شأنُه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]؛ ومن النوع المذموم قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤]، وقولُه عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:١٦][(١)].

ولا شكَّ أنَّ الصحابة الذين عاشوا وهم تتنزَّل عليهم هذه الآياتُ البيِّناتُ وأمثالُها، قد علموا ما للجدل من المنفعة العظيمة في نشر دين الله عزَّ وجل، والدفاع عنه، فرأيناهم يستعملونه في مواطن كثيرة، ورأيناه يحُلُّ من نثرهم محلًّا واسعًا في موضوعين كبيرين، هما: مناقشةُ الكافرين، ودَرْءُ الفتن. وهذان يدخلان في النوع الممدوحِ من غير ريب؛ ثم هناك نوعٌ من الجدل غريبٌ نادر، وهو الجدل عن العجماوات، نذكره إلحاقًا بهذا الجزء من البحث.

---

(١) انظر: البرهان في وجوه البيان، لابن وهب، ص٢٢٢-٢٢٣، وابن وهبٍ ممن أدخلَ الاحتجاج في فنون النثر، انظر: ص١٩١، وممن جوَّزَ دخولَه في فنِّ الخطابة، وجعله نوعًا من الخطابة الاستدلالية؛ الدكتورُ محمد غنيمي هلال في كتابه: النقد الأدبي الحديث، ص١٩٩.

(أ) مناقشة الكافرين:

فأمَّا مناقشة الكافرين فإن من أعظم تلك المحاورات الواردةِ فيها، المحاورةَ التي تناوَب عليها جمْعٌ من الصحابة ضدَّ رُستم سنة أربع عشرة. وكان سعد بن أبي وقَّاصٍ يرسلهم الواحدَ تِلْوَ الآخر. أرسل إليه رِبْعِيَّ بن عامرٍ[1] فكان من قول رُستمٍ له: ما جاء بكم؟ قال: اللهُ ابتعثنا، واللهُ جاء بنا، لنُخرِج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسَلَنا بدينه إلى خلقه لندعوَهم إليه، فمَنْ قَبِل منا ذلك قبلنا منه، حتى نُفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى لمن بقي. فقال رستم: قد سمعتُ مقالتكم؛ فهل لكم أن تؤخِّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم[2].

فلما كان من الغد أرسلوا إلى سعدٍ أن ابعث إلينا ذلك الرجل، أي رِبعي بن عامر، فبعث إليهم سعدٌ صحابيًّا آخر هو حُذيفة بن مِحْصَن[3]، وكان أول جدله إياهم إلزامًا وعقلًا؛ وقد أتاهم راكبًا، فقيل له: انزل. قال: ذلك لو جئتكم في حاجتي، فقولا لملككم: أله الحاجة أم لي؟ فإن قال: لي، فقد كذب ورجعتُ وتركتكم. فإن قال: له، لم آتكم إلا على ما أحب. فقال: دعوه، فجاء حتى وقف عليه، ورستمُ على سريره، فقال: انزل، قال: لا أفعل، فلما أبى سأله: ما بالك جئتَ ولم يجئ صاحبُنا بالأمس؟ قال: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشِّدَّة والرخاء؛ فهذه نوبتي. قال: ما جاء بكم؟ قال: إن الله عَزَّوَجَلَّ مَنَّ علينا بدينه، وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له مُنْكرين، ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدةٍ من ثلاث، فأيَّها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام وننصرف عنكم، أو الجِزاء ونمنعكم إن

---

(١) هو رِبْعِيُّ بن عامر بن خالد بن عمرو، صحابيٌّ من أشراف العرب شهد فتوح العراق في عهد عُمر، وولي إمارة خراسان، انظر: الإصابة ٢/ ٤٥٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٢٠.

(٣) هو حذيفة بن محصن القلعاني، صحابيٌّ استعمله أبو بكر على عُمان بعد عزل عكرمة، وولاه عمر على اليمامة، انظر: الإصابة ٢/ ٤٤.

احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة. فقال: أو الموادعة إلى يومٍ ما؟ فقال: نعم ثلاثًا مِنْ أمس. فلما لم يجد عنده إلا ذلك ردَّه وأقبل على أصحابه، فقال: ويحكم، ألا ترون إلى ما أرى؟ جاءنا الأولُ بالأمس فغلَبنا على أرضنا، وحقَّر ما نُعظِّم، وأقام فرسَه على زِبْرجنا، وربطه به، فهو في يُمْن الطائر، ذهب بأرضنا وما فيها إليهم مع فضل عقله، وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا فهو في يُمْن الطائر، يقوم على أرضنا دوننا. حتى أغضبهم وأغضبوه، فلما كان من الغد أرسل: ابعثوا إلينا رجلًا؛ فبعثوا إليهم المغيرةَ بن شُعبة[1].

أمَّا المغيرة بن شعبة فكان الرجلَ الموقَّر من قِبل الصحابة لِحِجَاج الكافرين ومقارعة عقولهم، وكانت له الصَّوَلاتُ في هذه الغاية، وكُتبت له الحُجةُ والنصرُ على ما بلغنا من الرواية.

وقد سقطت إلينا رواياتٌ من تلك المجادلات، منها المناظرةُ المعقودةُ مع رستم القائل له حين التقاه: تكلَّمُ أم أتكلم؟ فقال المغيرة: «أنت الذي بعثتَ إلينا فتكلَّم»[2]. وواضحٌ أن منهج المسلمين في النقاش أن لا يبدؤوا خصومَهم في المناظرة، ولعلَّهم تأثَّروا في هذا بقصة موسى مع السحرة يوم: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ [الأعراف:١١٥-١١٦]؛ فأقام التَّرجُمان بينهما، وتكلَّم رستم، فحمد قومَه وعظَّم أمرهم وطَوْلهم، وقال: لم نزل متمكِّنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافًا في الأمم، فليس لأحدٍ من الملوك مثلُ عِزِّنا وشرفنا وسلطاننا، نُنْصَر على الناس ولا يُنصرون علينا، إلا اليوم واليومين أو الشهر والشهرين؛ للذنوب، فإذا انتقم الله فرضي ردَّ إلينا عزَّنا. وجمعُنا لعدونا شرُّ يوم هو آتٍ عليهم. ثم إنه لم يكن في الناس أمةٌ أصغرَ عندنا أمرًا منكم؛ كنتم أهل قشف ومعيشةٍ سيئة، لا نراكم شيئًا ولا نعُدُّكم. وكنتم إذا قحَطتْ

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٢١.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٢٣.

أرضُكم وأصابتكم السَّنَةُ استغثتم بناحية أرضنا، فنأمر لكم بالسيِّء من التمر والشعير، ثم نردُّكم. وقد علمتُ أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجُهد في بلادكم؛ فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغلٍ وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين، وتنصرفون عنَّا؛ فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسِركم.

فتكلم المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «إنَّ الله خالق كل شيء ورازقه، فمَنْ صنع شيئًا فإنما هو الذي يصنعه هو له، وأمَّا الذي ذكرتَ به نفسَك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء، والتمكنِ في البلاد، وعِظَم السلطان في الدنيا؛ فنحن نعرفُه ولسنا ننكره؛ فالله صنعه بكم، ووضعه فيكم، وهو له دونكم. وأمَّا الذي ذكرتَ فينا من سوء الحال، وضيق المعيشة، واختلاف القلوب؛ فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله ابتلانا بذلك وصيَّرنا إليه. والدنيا دُوَل، ولم يزل أهلُ شدائدها يتوقَّعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنـزل بهم ويصيروا إليها. ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر كان شكرُكم يَقصر عما أوتيتم، وأسلمَكم ضعفُ الشكر إلى تغير الحال، ولو كنا فيما ابتلينا به أهلَ كفر كان عظيمُ ما تتابع علينا مستجلِبًا من الله رحمةً يُرفِّه بها عنَّا، ولكنْ الشأنُ غيرُ ما تذهبون إليه، أو كنتم تعرفوننا به. ثم أثنى على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما هو أهلُه حتى ختم كلامَه بقوله لرستم: وإن احتجْتَ أن نمنعك فكن لنا عبدًا تؤدي الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإلا فالسيفُ إن أبَيْت. فنخر نخرةً واستشاط غضبًا ثم حلف بالشمس لا يرتفع لكم الصبح غدًا حتى أقتلَكم أجمعين»(١).

وفي روايةٍ أخرى أن المغيرة قال له: «لا تذكر لنا جُهْدًا إلا وقد كنا في مثلِه أو أشدَّ منه؛ أفضلُنا في أنفسنا عيشًا الذي يقتل ابنَ عمه، ويأخذ ماله فيأكله، نأكل الميتة والدَّمَ

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٢٣.

والعظام، فلم نزل كذلك حتى بعث الله فينا نبيًّا، وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى الله وإلى ما بعثه به، فصدَّقه منا مُصدِّق، وكذَّبه منَّا آخر، فقاتل مَنْ صَدَّقه مَنْ كَذَّبه، حتى دخلْنا في دينه من بين مُوقنٍ به، وبين مقهور؛ حتى استبان لنا أنه صادق، وأنه رسولٌ من عند الله. فأمَرَنا أن نقاتل من خالفنا ، وأخبرنا أن من قُتل منا على دينه فله الجنة، ومن عاش مَلَكَ وظهر على من خالفه؛ فنحن ندعوك إلى أن تؤمن بالله ورسوله، وتدخلَ في ديننا، فإن فعلت كانت لك بلادك، لا يَدخل عليك فيها إلا من أحببت، وعليك الزكاة والخُمس، وإن أبَيْت ذلك فالجزية؛ وإن أبيت ذلك قاتلناك حتى يحكمَ الله بيننا وبينك. قال له رستم: ما كنت أظن أني أعيش حتى أسمع منكم هذا معشر العرب. لا أمسي غدًا حتى أفرغ منكم وأقتلَكم كلَّكم»[1].

وفي نحوٍ من هذا في (فتوح الشام) للأزديّ، أنَّ الروم بعثوا إلى أبي عُبيدة أن أرسلْ إلينا رجلًا من صُلحائكم نسأله، فأرسل إليهم معاذَ بن جبل، فأتاهم، فقالوا للترجُمان قل له: أخبرونا ما تطلبون؟ وإلامَ تدعون إليه؟ وما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة، وليسوا منكم ببعيد؟ وتركتم أرض فارس وقد هلك ملك فارسٍ وهلك ابنُه، وإنما تملكهم اليومَ النساءُ؟ ونحن مَلِكُنا حيٌّ وجنودُنا عظيمة كثيرة. وإن أنتم افتتحتم من مدائننا مدينةً، أو من قُرانا قرية، أو من حصوننا حصنًا، أو هزمتم لنا عسكرًا؛ أظننتم أنكم ظفرتم بجماعتنا، وأنكم قطعتم حربَنا عنكم، أو فرغتم مما وراءنا منا، ونحن عدد نجوم السماء وحَصَى الأرض؟ وأخبرونا: لِـمَ تستحلون قتالَنا وأنتم تؤمنون بنبيِّنا وكتابنا[2]؟

فقارعهم معاذٌ الحُجَّةَ بالحُجَّة، وأجابهم عن معنى الإسلام، وأنهم لا يقبلون منهم سواه أو الجزية، كما هو معلومٌ من طريقتهم. ثم قال لهم: «وأما قولُكم: ما أدخلَكم بلادَنا

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٧٤، وانظر: أيضًا مناقشة النعمان بن مقرِّن ليَزْدِجَرْد في الكتاب نفسه ٣/ ٤٩٨.

(٢) انظر: فتوح الشام، للأزدي، ص١١٨.

وتركتم أرضَ الحبشة وليسوا منكم ببعيد، وتركتم أهل فارس وقد هلك ملكهم؟ فإني أخبركم عن ذلك. ما بدأنا بقتالكم إلا أنكم أقرب إلينا منهم، وأنكم عندنا جميعًا بالسواء، وما جاءنا كتابُنا بالكفِّ عنهم، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل في كتابه على نبينا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾ [التوبة:١٢٣]، وكنتم أقربَ إلينا منهم فبدأنا بكم لذلك، وقد أتاهم طائفةٌ منا وهم يقاتلونهم، وأرجو أن يُظفرهم الله ويفتح عليهم، وينصرَهم»(١).

«وأما قولُكم: إن ملكنا حيٌّ، وإن جنودنا عظيمة، وأنَّا عددُ نجوم السماء وحَصَى الأرض، وتؤيسوننا من الظهور عليكم، فإن الأمر في ذلك ليس إليكم، وإنما الأمور كلها إلى الله، وكلُّ شيءٍ في قبضته؛ فإذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، وإن يكن مَلِكُكم هرقل فإن مَلِكَنا الله عَزَّوَجَلَّ الذي خلَقَنا، وأميرُنا رجلٌ منا، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبيِّنا أقررناه علينا، وإن عمِل بغير ذلك عزلناه عنَّا، وإن هو سرق قطعنا يدَه، وإن زنى جلدناه، وإن شتم رجلًا مِنَّا شتمه كما شتمه، وإن جرَحَه أقاده من نفسه. ولا يحتجبُ منا، ولا يتكبَّر علينا، ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاءه الله علينا، وهو كرجلٍ منا»(٢).

فاحتج عليهم بأن قُوَّةَ الله أقوى من قُوَّتهم، وأن أميرَهم عادلٌ ليس كأميرهم، وأنهم وإيَّاه سواسيةٌ أمام الحق. ثم قال: «وأمَّا قولكم: جنودُنا كثيرة، فإنها وإن عظُمت وكثُرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض، فإنَّا لا نثق بها، ولا نتّكل عليها، ولا نرجو النصر على عدونا بها؛ ولكنا نتبرأ من الحول والقوة، ونتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، ونثِق بربنا، فكم من فئةٍ قليلةٍ قد أعزها الله ونصرها وأغناها، غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله؛ وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً

---

(١) فتوح الشام، للأزدي، ص١١٩.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص١١٩.

كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩]»[1]. فاحتج عليهم بمقدرة الله التي هي فوق مقدرة البشر، واستشهد لقالته بالوقائع؛ إذ طالما نصر الله عباده الضعفاء القليلَ الصابرين.

ثم صحَّحَ لهم الشبهة التي أوردوها: كيف تستحلُّون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبيِّنا وكتابنا؟ فقال: «أنا أُخبرُكم عن ذلك: نحن نؤمن بنبيِّكم، ونشهد أنه عبدٌ من عَبيد الله، وأنه رسول من رُسُل الله، وأنَّ مَثَلَه عند الله كمَثَل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون. ولا نقول: إنه الله، ولا نقول: إنه ثاني اثنين، ولا ثالث ثلاثة، ولا إنَّ لله والدًا، ولا إن له صاحبةً ولا ولدًا، ولا إن معه آلهةً أخرى. لا إله إلا هو، تعالى عمَّا يقولون علوًّا كبيرا، وأنتم تقولون في عيسى قولًا عظيمًا، فلو أنكم قلتم في عيسى كما نقول، وآمنتم بنبوة نبينا كما تجدونه في كتابكم، وكما نؤمن نحن بنبيكم، وأقررتم بما جاء به من عند الله، ووحَّدتُم الله؛ ما قاتلناكم، بل كُنَّا نسالمكم ونواليكم، ونقاتل معكم عدوكم»[2].

فكذلك إذن كانت الصحابة يستعملون سلاحَ العقل مثلما كانوا يستعمون سلاح الحرب، وكانوا لا يَعجلون إلى السيف حتى يستنفدوا الحُجَّةَ، ويؤوبوا بمخالفهم إلى البرهان، وينصبوا له الدليل، ويخاطبوا عقلَه، ليُعْذِروا إلى ربهم. وكانوا يفنِّدون حُجج الخصوم، ويقمعونها بحججٍ أشدَّ وأصوبَ منها، كما كانوا يدحضون العقائد الباليةَ القديمة، بالأجوبة الإلهيَّة القويمة، والدلائلِ الكاشفةِ عن ضلال أفئدة الخصوم، وزيف هوى أنفسِهم، وضعْفِهم عن مدافعة الحق، أو مصادمة نُهى أوليائه.

ومن طريف الجدل عند الصحابة ذلك النقاش الفريد الذي دار بين خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونصراني، حيث نزل خالدٌ في أيَّام الرِّدَّة على ماءٍ لبني بكر بن وائل، وهناك رجلٌ

(١) فتوح الشام، للأزدي، ص١٢٠.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص١٢٠.

من العرب يُقال له أبجر بن بُجير العِجْليّ، فلما نظر إلى خالد بن الوليد وقد نزل هناك بعسكره، أقبل حتى وقف بين يديه، ثم قال: أيها الأمير، قَدِمتَ خيرَ مقدم، فعظَّم الله بك المغنم، ودفع بك الهَمَم، ونصرك على العجم. فقال له خالد: أظنُّك شاعرًا. فقال: نعم أيها الأمير، إني شاعرٌ، وإذا شئتُ قلت. فقال خالد: فأين السلام، فإني أنكرتُ منك تركَ السلام. فقال: أيها الأمير ليس في ديني السلام. وكان خالدٌ متَّكئًا فاستوى جالسًا، ثم قال له: وما دينُك؟ فقال: أنا على دين عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقال خالد: وأنا على دين عيسى بن مريم، ولكن هل تؤمن بنبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال أبجر: لا، أنا على دين عيسى بن مريم. قال خالد: إذن فإني أضربُ عنقك. فقال أبجر: ولم تضرب عنقي؟ لأني لا أتَّبع دينَك ولا أؤمن بنبيِّك؟ قال خالد: نعم أقتلك لذلك السبب، ألستَ عربيًّا؟ قال: بلى. قال: فإنَّا لا نترك عربيًّا على غير ديننا إلا قتلناه، أو يدخل في دين الإسلام، أو يؤدي الجزية. فقال أبجر: يا هذا، ومتى جئتم بهذا الدين، إنما جئتم به منذ سنواتٍ، وهو دين مُحْدَث. فقال خالد: إنه لـمُحْدَثٌ، وكذلك كان دين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في بدء ما جاء به محدثًا، ثم إن الله كان يفشو به في الناس وينتشرُ يومًا بعد يوم، حتى أكمله الله، ولا بدَّ من أن تُسْلم وإلا ضربتُ عنقك. وقد سامحه خالدٌ بعدُ بشفاعة المثنَّى بن حارثة الشيباني فيه(١). فاحتجَّ عليه خالدٌ بمثل ما احتجَّ عليه به.

(ب) دَرْءُ الفِتَن:

أما دَرْءُ الفِتن ومجاوبةُ الفِرَق فقد لجؤوا إلى المناظرة، واستعملوا الجدل ولا سيَّما في كشف شُبَه الخوارج، أولئك الذين روَّجوا لمذهبهم ولبَّسوا على الناس فتبِعهم خَلْق.

من تلك المناظرات أن علي بن أبي طالب قَدِمَ عليهم فقال لهم: مَنْ زعيمكم؟ قالوا: ابنُ الكوَّاء. قال عليٌّ: فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتُكم يوم صفين. قال: أنشدكم

---

(١) انظر: كتاب الردة، المنسوب للواقدي ٢٢٣-٢٢٥.

بالله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم: نجيبهم إلى كتاب الله، قلت لكم: إني أعلمُ بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني صحبتهم وعرفتُهم أطفالًا ورجالًا فكانوا شَرَّ أطفال وشَرَّ رجالٍ، امضوا على حقكم وصِدقكم؛ فإنما رفع القوم هذه المصاحف خَديعة ودَهْنًا ومكيدة؛ فرددتم عليَّ رأيي، وقلتم: لا بل نقبل منهم، فقلت لكم: اذكروا قولي لكم، ومعصيتَكم إيَّاي، فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطتُ على الحكَمين أن يُحيِيا ما أحيا القرآن، وأن يُميتا ما أمات القرآن، فإن حَكَما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حُكمًا يحكم بما في القرآن، وإن أبيا فنحن من حُكمهما برآء؟ قالوا له: فخبِّرنا: أتُراه عدلًا تحكيم الرجال في الدماء؟ فقال: إنَّا لسنا حكَّمنا الرجال، إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خطٌّ مسطور بين دَفَّتين لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال. قالوا: فخبِّرنا عن الأجل، لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل ويتثبَّت العالم، ولعل الله عَزَّوَجَلَّ يُصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. ادخُلوا مصرَكم رحمكم الله. فدخلوا من عند آخرهم[1].

وكان عثمان قبلُ يجادلُ الناقمين منه، المحيطين بداره، المبتغين قتْلَه. ومن طريقته في جِدالهم أن يُورد هو حُججَهم، ثم يُفنِّدها حُجَّةً حُجَّة. من ذلك أنه نادى مرةً: الصلاةُ جامعة، ثم خاطب الجَمْع من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومن الخارجين عليه، فكان مما قاله لهم: «إن هؤلاء ذكروا أمورًا قد علِموا منها مثلَ الذي علمتم، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها عليَّ عند منْ لا يعلم.

«وقالوا: أتمَّ الصلاة في السفر، وكانت لا تُتَم. ألا وإني قدِمت بلدًا فيه أهلي فأتممتُ لهذين الأمرين، أوَكذلك؟ قالوا: اللهم نعم...

«وقالوا: كان القرآن كُتُبًا فتركتُها إلا واحدًا. ألا وإن القرآن واحدٌ جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابعٌ لهؤلاء، أكذلك؟ قالوا: نعم...

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٦٦.

«وقالوا: استعملتَ الأحداث. فلم أستعمل إلا مجتمِعًا محتمِلًا مرضيًّا. وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه، وهؤلاء أهل بلده. ولقد ولّى مَنْ قبلي أحدثَ منهم، وقيل في ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشدَّ مما قيل لي في استعماله أسامة، أكذاك؟ قالوا: اللهم نعم. يعيبون للناس ما لا يفسِّرون.

«وقالوا: إني أعطيتُ ابنَ أبي سَرْح ما أفاء الله عليه، وإني إنما نفَّلْتُه خُمس ما أفاء الله عليه من الخُمس، فكان مئة ألف، وقد أنفذ مثلَ ذلك أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فزعم الجُند أنهم يكرهون ذلك، فرددته عليهم وليس ذاك لهم، أكذاك؟ قالوا: نعم...

«وقالوا: أعطيتَ الأرض رجالًا، وإن هذه الأرضين شارَكَهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتُتحت، فمن أقام بمكانٍ من هذه الفتوح فهو أُسوة أهلِه، ومن رجع إلى أهله لم يُذهِب ذلك ما حوى اللهُ له، فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعتُه لهم بأمرهم من رجالٍ أهلِ عَقَار ببلاد العرب، فنقلتُ إليهم نصيبَهم فهو في أيديهم دوني»[1].

وهذه الطريقة من أثبت طُرُق الجدل؛ إذ يجمع القائم للمخاصمة مآخذَ خصومه كلَّها، ثم يُبْطلُها واحدةً واحدةً، لكي يستقرَّ في نفوس المخاطبين أن ليس عليه فيما صنع أدنى شُبهة. وقد أنجحت هذه الطريقة من عثمان في مخاطبيه، حتى لقد قال راوي تلك المجادلة: «ولانتْ حاشيةُ عثمان لأولئك الطوائف، وأبى المسلمون إلّا قتلَهم، وأبى إلّا تركَهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[2].

ولم يكن الجدلُ عند الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أجوبةً فحسب، بل كان إحسانًا في إيراد الأسئلة أيضًا، ألم ترَ إلى عثمان كيف يُسائلُ مخالفيه فيوالي عليهم في

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك٤/ ٣٤٦-٣٤٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٤٨.

الأسئلة، ويُضيِّق عليهم حتى يكادَ أن لا يتركَ لهم مَخْرجًا، فقد أشرف عثمان عليهم وهو محصور، وقد أحاطوا بالدار من كل ناحية، فقال: «أنشدكم بالله عَزَّوَجَلَّ؛ هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يَخير لكم، وأن يجمعَكم على خيركم؟ فما ظنُّكم بالله! أتقولونه: لم يستجب لكم، وهُنتم على الله سبحانه، وأنتم يومئذ أهلُ حقِّه من خلقه، وجميع أموركم لم تتفرق؟ أم تقولون: هانَ على الله دينُه فلم يبال من ولَّاه، والدِّين يومئذٍ يُعبد به الله ولم يتفرَّق أهله، فتوكلوا أو تخذلوا، وتعاقبوا؟ أم تقولون: لم يدرِ الله ما عاقبة أمري؟ فكنت في بعض أمري محسنًا، ولأهل الدين رضًا، فما أحدثتُ بعدُ في أمري ما يُسخط الله، وتسخطون مما لم يعلم الله سبحانه يوم اختارني وسربلني سِرْبَال كرامته؟ وأنشدكم بالله، هل تعلمون لي من سابقة خير وسلف خيرٍ قدَّمه الله لي، وأشهدنيه من حقه، وجهادِ عدوِّه حقَّ على كلِّ من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها؟ فمهلًا، لا تقتلوني؛ فإنه لا يحلُّ إلا قتل ثلاثة: رجل زَنَى بعد إحصانه، أو كفر بعد إسلامه، أو قتل نفسًا بغير نفس فيقتل بها؛ فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم؛ ثم لم يرفعه الله عَزَّوَجَلَّ عنكم إلى يوم القيامة. ولا تقتلوني؛ فإنكم إن قتلتموني لم تصلُّوا من بعدي جميعًا أبدًا، ولم تقتسموا بعدي فيئًا جميعًا أبدًا، ولن يرفعَ الله عنكم الاختلاف أبدًا»[1].

(جـ) جَدَلٌ عن المُجَاوات:

على أن من أغرب ما رُوي في الجدل عند الصحابة تلك المفاضلة التي أنشأها أبو حَثْمة عبدُ الله بن ساعدة الأنصاريُّ[2] بين التمر والزبيب، فقد ذُكرا عند عُمر: أيُّهما أطيب؟ وفي رواية: أنه قال لرجلٍ من أهل الطائف: الحَبَلةُ أطيبُ أم النخلة؟ فأرسل إلى

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) وُلد على عهد النبي ﷺ، انظر: الإصابة ٤/ ١٠١.

أبي حَثْمة الأنصاريِّ، فقال: إن هؤلاء قد اختلفوا في التمر والزبيب... فقال أبو حَثْمَة: «ليس الصَّقرُ في رؤوس الرَّقْل، الرَّاسخاتِ في الوَحْل، الـمُطْعِماتِ في الـمَحْل، تَعِلَّةِ الصَّبيّ، وقِرَى الضيف، وبه يُحْتَرَشُ الضِّباب؛ كزبيبٍ، إن أكلتَه ضَرِستَ، وإن تركتَه غَرِثْتَ»[1].

فاحتجَّ أبو حَثْمَة للمفضَّل ومَدَحَه وأورد محاسنَه، ومدَّ فيها؛ وعاب المفضول وذَمَّه، وذكر مساوئه، وقصَّر فيها؛ بكلامٍ قد يُظَنُّ أنه لا يخرج إلا من أُناسٍ عاشوا بُعيد ذلك العصر[2].

(١) منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لابن الأثير، أبي السعادات المبارك بن محمد ٢/ ٣٣٢، تحقيق الدكتور محمد محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢/ ١٤١٧هـ، وفيه من شرح الغريب: الحَبَلة: شجرة الكَرْم. الصقر: الدِّبْس المتَّخذ من الرُّطَب. الرَّقل: جمع رَقْلة، النخلة الطويلة، دون السَّحوق، وفوق الجبَّارة. واحتراش الضب: اصطياده، لأنه يُعجبه التمر جدًّا. والغرث: الجوع.

(٢) انظر: ما سيأتي من حديث في فصل: «العقل والاحتجاج»، فإنه مُتمٌّ لهذا الجزء.

[٤] وَصْفُ الأَنَاسِيِّ

الوصف أساسٌ من أُسُس الشعر، وهو عند العرب كثيرٌ، فقد وصفوا الناقة، والظبيَ، والخيلَ، والحُمُر، ووصفوا الأطلالَ، والليل، والسحاب، والصحراء، والغيث، ووصفوا الحربَ[١]، ووصفوا الإنسانَ وبعضَ أطواره وأحواله[٢]. أما النثر الجاهليُّ فلا أحبُّ القول فيه في هذا الموضع؛ لأنَّ الشكَّ الشديد قد اعتوره، وهو ليس مجالَ بحثنا مع ذلك. خلا أنه قد ظهرتْ أوصافٌ عند الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ في النثر لغيرهم من البشر، ولا سيما رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أعظم إنسان رأتْه أعين أولئك القوم، ولم يره أحدٌ من المؤمنين غيرُهم، فكان أن وصفوه لمن أتى بعدهم، إما بسؤالٍ من هؤلاء، وإما ببدارٍ من الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ من غير مسألة. وظهرتْ لهم أوصافٌ لأناسٍ غيرِ النبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكنها لا تبلغ شيئًا فيما وصفوا به النبيَّ صلواتُ ربي وسلامُه عليه. وهذا تفصيلٌ لهذا النوع من النثر:

(أ) وَصْفُ النَّبِيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

هذا فنٌّ تفرَّد به الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، ولم يَشركهم فيه أحدٌ من الخلق، بل هو أخصُّ فنونهم على الإطلاق، فهو الفنُّ الذي يصحُّ أن يُقال فيه: إنه كمُل أو جمُد فلا جديد فيه بعد موت الصحابة.

وهذا فنٌّ نابعٌ من حب الصحابة لشخص النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ذلك الرجل الذي هداهم إلى الحق وكانوا ضُلالًا، وجعلهم أعزَّةً بدين الله وكانوا مستذلين، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنقذهم من عذاب الله يوم القيامة.

---

(١) انظر: الوصف في الشعر العربي: الجزء الأول: في العصر الجاهلي، لعبد العظيم علي قناوي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١/ ١٣٦٨هـ.

(٢) انظر مثلًا: الإنسان في الشعر الجاهلي، لعبد الغني أحمد زيتوني، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ط١/ ١٤٢١هـ.

وقد سلك الصحابةُ في وصف النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسلكيْن: مسلكَ البسط، ومسلكَ الاختصار، فمنهم من جعل وصفه للنبي مقتصرًا على بعض أجزاء جسده الشريف وبعض سماته، ومنهم من استفاض فلم يكد يترك شيئًا إلا استوعبه(١).

ولعلنا نقتصر فيما توسَّعوا فيه على اثنين من الصحابة، رجلٍ وامرأة، ثم نورد نماذج لمن اختصر.

أما الرجل فهو هند بن أبي هالة التميميُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووصْفُه أكبر وصفٍ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأكملُه، وأدقُّه. وكان هندٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصَّافًا، فعن الحسن بن عليٍّ قال: سألتُ خالي هندَ بن أبي هالة التميمي ـ وكان وصَّافًا ـ عن حِلْية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا أتعلَّق به. فقال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخمًا مفخَّمًا، يتلألأ وجهُه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطولَ من المربوع وأقصر من المشذَّب، عظيمَ الهامة، رَجِل الشعر، إن انفرقتْ عقيصتُه فرق، وإلا فلا يجاوز شعرُه شَحمة أذنيه إذا هو وَفَّرَه، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن، بينهما عِرْق يُدِرُّه الغضب، أقنى العِرْنِين، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم، كثُّ اللحية، ضليعَ الفم، مُفلَج الأسنان، دقيق الـمَسْرُبة، كأن عنقَه جِيدُ دُمية في صفاء الفضة، معتدل الخَلْق، بادنٌ متماسك، سواءُ البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرِّد، موصول ما بين اللَّبَّة والسُّرَّة بشَعرٍ يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمَنْكِبين وأعالي الصدر، طويل الزَّنْدين، رَحْبُ الراحة، سبط القصب، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قَلِعًا، يخطو تكفُّؤًا، ويمشي هَوْنًا، ذريع المِشية، إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَب، وإذا التفتَ التفتَ جميعًا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء، يسبق أصحابَه، يَبْدُر مَنْ لقيه بالسلام»(٢). صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر: باب ما جاء في خَلْق النبي ﷺ في: شمائل النبي ﷺ، للترمذي أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق الشيخ ماهر ياسين الفحل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ٢٠٠٠م.
(٢) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٢-٣٦٣، وانظر: شمائل النبي ﷺ، للترمذي، ص٣٨-٣٩.

فإن هذا الوصف يمتاز - على سَعته - بدقَّته وتفصيله وتعليله، كما أن فيه جديدًا على بقيَّة أوصاف الصحابة أيضًا. فمن جديده ذِكْرُ العِرْق الذي بين الحاجبين الذي يُدِرُّه الغضب، وذِكْرُ النور الذي يعلو العِرْنين، ونفي أن يكون ذلك شَمَمًا، إنما هو نور. ومن جديده ذِكر استواء البطن والصدر. هذا سوى ما في الوصف من براعةٍ في تقريب صورة العضو، إما بإطالة القول والتحرِّي كقوله: «أزجُّ الحواجب، سوابغُ في غير قَرَن، بينهما عِرْقٌ يُدِرُّه الغضب»، فهي صورةٌ كاملةٌ لهذا الموضع من الوجه الشريف؛ وقولِه: «موصول ما بين اللبَّة والسُّرَّة بشعرٍ يجري كالخَطّ، عاري الثديين والبطن ما سوى ذلك»؛ وإمَّا بتقريب صورة العضو بالتشبيه كقوله: «يتلألأُ وجهُهُ تلألُؤ القمر ليلة البدر»، وقوله: «كأنَّ عنقه جِيدُ دُميةٍ في صفاء الفضَّة».

وأمَّا المرأةُ التي فصَّلتْ في وصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي أمُّ مَعْبَد، وحديثها معروفٌ مشهور. وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبُه قد مرَّا بخيمتيها وهما في طريقهما إلى الهجرة، وفي الخبر أن زوجها سألها عن صفة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوصفتْه بعين المرأة إذا نظرت إلى الرجل بقولها: «رأيتُ رجلًا ظاهر الوَضاءة، متبلِّج الوجه، حَسَن الخَلق، لم تعبه ثُجْلة(١)، ولم تَزْرِ به صَعَلَة(٢)، وسيمًا قسيمًا، في عينه دَعَج، وفي أشفاره وَطَف(٣)، وفي صوته صَحَل(٤)، وفي عنقه سَطَع(٥)... أجهر الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنُهم

(١) الثُّجَل: عِظَمُ البَطْن واسترخاؤه، وقيل: هو خروج الخاصرتين، «لسان العرب: ثجل».

(٢) الأصْعَلُ: الدَّقيق الرأس والعنق «لسان العرب: صعل».

(٣) الوطَفُ: كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول، «لسان العرب: وطف».

(٤) صَحِل الرَّجُلُ، بالكسر، وصَحِلَ صوتُه يَصْحَل صَحَلًا، فهو أصْحَلُ وصَحِلٌ: بَحَّ؛ ويقال: في صوته صَحَلٌ أي بُحُوحة؛ وفي صفة رسول الله ﷺ حين وصَفَتْه أُمّ مَعْبَد: وفي صوته صَحَلٌ؛ هو بالتحريك، كالبُحَّة وأن لا يكون حادًّا «لسان العرب: صحل».

(٥) السَّطَعُ: طول العُنُق «لسان العرب: سطع».

وأحلاهم من قريب. منطقه فصل، لا نَزْرٌ ولا هَذْر[1]، كأنه خَرَزَاتُ نَظْمٍ يتحدَّرن، حُلو المنطق، لا يُشنأ من طول، ولا تقتحمه العينُ من قِصَر، غُصْنٌ بين غُصنين، فهو أنظرُ الثلاثة منظرًا...»[2].

ووصْفُ أمِّ معبدٍ وصْفُ أنثى يحرصُ على نفي عيوب الخِلقة مثلما يحرصُ على إثبات جمالِها. والنساءُ أفطنُ لعيوب الرجال من غيرهنّ.

وممن وصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأطالَ عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولكنه طولٌ دون ما مضى، وكان عليٌّ لا يَني يُعيد وصفه كلما سُئل عنه. ومما قاله في صفته صلوات الله عليه: «لم يكن بالطويل المُمَّغِط[3]، ولا بالقصير المتردِّد، كان رَبْعةً من القوم. ولم يكن بالجعد القَطَط، ولا السَّبْط، كان جعدًا رَجِلًا. ولم يكن بالـمُطهَّم ولا المُكلثَم[4]. وكان في وجهه تدوير. أبيض مشرَبٌ، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل الـمُشاش والكَتَد، أجرد ذا مَسْرُبة، شَثْن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلَّع كأنما يمشي في صَبَب، وإذا التفتَ التفتَ معًا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين»[5].

وكان دائمًا ما يختم أوصافه تلك للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[6].

---

(١) اي: لا قليل ولا كثير «لسان العرب: هذر».
(٢) أنساب الأشراف، للبَلاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر ١/ ٣٩١، «تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩م».
وانظر: الطبقات الكبير ١/ ١٩٧-١٩٨.
(٣) المُمَّغِط: بتشديد الميم الثانية: المتناهي الطول «لسان العرب: مغط».
(٤) وَجْهٌ مُكَلْثَمٌ: مُستديرٌ كثير اللحم «لسان العرب: كلثم».
(٥) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٤.
(٦) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٣٥٣-٣٥٥، وشمائل النبي، ص٣٦-٣٧.

وبنحو هذا الوصف من إبراز التوسُّط في خَلْق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى وصف أنس ابن مالك لطول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولونه، وشعره(١). وكان أنسٌ معجبًا بلِين كفِّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطِيب رائحته، وكان يُشبِّهها، فيقول: «ما مَسَسْتُ قطُّ حريرةً ولا خَزَّةً ألينَ من كَفِّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شممتُ رائحةً قطُّ، ولا مِسْكةً ولا عَنْبرةً أطيبَ رائحةً من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٢). وكان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ربما يختم بعضَ وصفه للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليُعبِّر عن حُبِّه وإعجابه، بقوله: «لم أرَ بعدَه مثلَه»(٣).

أما أبو هريرة فكان إذا وصفه بوصفٍ قريبٍ مما سبق يقطعُ وصفَه؛ بأن يقول أيضًا: «لم أرَ مثلَه، ولم أسمعْ بمثلِه»(٤). أو أن يقول مفخِّمًا معظِّمًا: «لم ترَ عيني مثلَه، ولن تراه»(٥).

وكان جابر بن عبد الله إذا وصف النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في آخرِه: «ولا ترى مثلَه أبدًا»(٦).

فتلك الأوصاف المختومة بنفي المثِيل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خِلْقته، لم تكن مبالغةً ولا إطراءً، ولا محاولةً لبناء أنموذجٍ متوهَّم، أو رسم صورةٍ متخيَّلةٍ للرجل الكامل في الأرض؛ فقد كانوا يؤمنون بكمال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ كما أحسنَ خُلُقَه أحسنَ خَليقتَه؛ وأنه أفضل البشر قاطبةً، ولا يكون منهم أحدٌ مثلَه.

ومن الصحابة مَنْ وصف شيئًا أو شيئين من جسم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطيِّب، كالفَمِ والعَقِب في وصف جابر بن سمُرة: «كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضليعَ الفم، منهوسَ

---

(١) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٣٥٦.
(٢) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٦.
(٣) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٣٥٦.
(٤) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٧.
(٥) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٧.
(٦) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٧.

العَقِب»[1]؛ والقَدَمِ في قول عبد الله بن بُرَيْدة: «كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسنَ البشَر قدمًا»[2]؛ والبطنِ وحدَه في قول أم هلالٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ما رأيتُ بطنَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطُّ إلا ذكرتُ القراطيسَ المثنيَّةَ بعضُها على بعض»[3].

ومن أكثر شيءٍ وصفوه في النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتعلُّقه بالنبوة خاتمُ النبوَّة؛ فمثَّلوه ببيضة الحمامة[4]، وبجُمَع الكف حوله خِيلان كأنها الثآليل[5]، وببَعْرة البعير[6]، وبالتُّفاحة[7]، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

(ب) وَصْفُ النَّاس:

تعدَّى وصف الصحابة إلى غير النبي من البشر، ولكنْ وصفُهم إياهم قليل، لا يبلغُ مبلغَ وصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولعلَّ باعَ النساء في هذا الوصف أطولُ من باع الرجال فيه، وخاصَّةً من بنات الرجل وزوجاته، من ذلك مثلًا أنَّ عائشة نظرتْ إلى رجلٍ من العرب مارًّا وهي في هودجها، فقالت: ما رأيت رجلًا أشبهَ بأبي بكر من هذا، فقلنا: صفي لنا أبا بكر. فقالت: «رجلٌ أبيض، نحيف، خفيف العارضين، أجنأ، لا يستمسك إزاره، يسترخي عن حِقويه، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع. هذه صِفتُه»[8].

---

(١) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٨.

(٢) الطبقات الكبير١/ ٣٦٠.

(٣) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٠.

(٤) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٣٦٦.

(٥) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٣٦٧.

(٦) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٣٦٧.

(٧) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٨.

(٨) الطبقات الكبير ٣/ ١٢٧.

ووصفتْ عائشةُ بنتُ سعد بن أبي وقاصٍ[1] أباها وصفًا قصيرًا، ولكنه كافٍ لتخيُّل صورته العامة إذا رأيتَه ولم تحدَّ فيه النظر، ولا سيَّما أنها لم تصف وجهه، قالت: «كان أبي رجلًا قصيرًا، دَحْدَاحًا[2]، غليظًا، ذا هامة، شَثْن الأصابع[3]، أشعر، وكان يخضِب بالسواد»[4].

ووصفتْ كريمةُ بنتُ المقداد بن الأسود[5] أباها بنحوٍ من وصف عائشة بنت سعد، ولكنها أتت فيه بشيءٍ من صفات الوجه، فقالت: «كان رجلًا آدَم، ذا بطن، كثيرَ شعر الرأس، يُصفِّر لحيتَه، وهي حَسَنةٌ، وليست بالعظيمة ولا بالخفيفة، أعين، مقرون الحاجبين، أقنى»[6].

أما الرجال فأقصروا في هذا النوع، ولعل خير مثالٍ على ذلك قول عبد الله بن عُمر يخبر عن صفة أبيه عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «رجل أبيض تعلوه حُمرةٌ، طُوَالٌ، أصلعُ، أشيب»[7]. وصَفَه بهذا فحسب، وهو وصفٌ مختصرٌ مُسرع. ولعلك لا تجد شيئًا أطولَ من ذلك ولا أوفى منه في وصف الصحابة لأحدٍ من البشر، غيرِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) صحابية، انظر: ترجمتها في الإصابة ٨/ ٢١.

(٢) الدَّحْدَاح: القصير غليظ البطن، «لسان العرب: دحح».

(٣) اي: غليظها «لسان العرب: شثن».

(٤) الطبقات الكبير ٣/ ١٣٣.

(٥) هي من بنات الصحابة، أمُّها ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب؛ فلعل لها إدراكًا، انظر: ترجمة والدتها في الإصابة ٨/ ٣.

(٦) الطبقات الكبير ٣/ ١٥٠.

(٧) الطبقات الكبير٣/ ٣٠١.

[٥] الأمثَال

المَثَلُ كلمةٌ مختصرةٌ سائرةٌ تنطوي على حِكْمةٍ، أوتلخِّص تَجرِبة، تُقالُ في مقامٍ يُشبه[١] المقام الأول الذي أُنشئ المَثَلُ فيه[٢]. وعلى ذلك فإنَّ صاحبَ المثَل حين يُطلقه لا يسبق إلى علمه غالبًا أنه سوف يُضحي مَثَلًا.

والأمثال فيها ما هو فطريٌّ في آداب الأمم جميعًا، من الاقتضاب وبُعْد الإشارة، وجميعها مخطومٌ شديد الإيجاز، ويكثر فيها الحذف والإيماء، وتتصف عمومًا بمتانة السَّبْك، مع الميل إلى النَّسَق الإنشائيِّ العالي من تقديم القيود على المقيَّدات، والمسند على المسند إليه[٣]، وهي ـ لا غَرْوَ ـ «حِكْمةُ الأمم والشعوب، وأوجزُ الكلام وأخصرُه، وأقواهُ عبارةً، وأمتنُه بناءً، وهي (صوت الشعب) ولسانُه الذي يُترجم عن ضميره، ويُفصِحُ عن حياته»[٤].

وقد نُسب إلى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ طائفةٌ صالحةٌ من الأمثال المتداولة على الألسنة؛ بل لقد نَسَبَ أبو إسحاق النديم كتابًا في الأمثال[٥] إلى أحد الصحابة هو صُحَار بن عيَّاش العَبْديُّ[٦]؛ ولكنه لم يصل إلينا. ولعل مثالًا نقلَه أبو عُبَيْدٍ البَكْريُّ في

---

(١) أثبت زلهايم Rudolf Sellheim أن الأصل السامي لكلمة «مثل» في: العربية، والعبرية، والآرامية، والحبشية، والأكادية؛ يتضمَّن معنى المماثلة، انظر: الأمثال العربية القديمة، لرودلف زلهايم، ص٢١، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٤هـ.

(٢) انظر: عرضًا لتعريف المَثَل عن القدماء والمحدثين في: الأمثال العربية والعصر الجاهلي: دراسة تحليلية، للدكتور محمد توفيق أبو علي ص٣٦-٤٣، دار النفائس، بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ.

(٣) انظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، لأنيس المقدسي ١/ ٦، من منشورات الدائرة العربية في جامعة بيروت الأمريكية، بيروت ١٩٣٥م.

(٤) الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، للدكتور عبد المجيد قطامش، ص٢٦٩، دار الفكر، دمشق، ط١/ ١٤٠٨هـ.

(٥) انظر: الفهرست، لمحمد بن إسحاق النديم، ص١٠٢، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٣٩١هـ.

(٦) انظر ترجمته في: الإصابة ٣/ ٤٠٨، ولهذا الكتاب ذكرٌ أيضًا في كتاب الحيوان للجاحظ، انظر: الحيوان ٨/ ٢٠٩، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت ١٤١٦هـ.

(فصل المقال) يجلو لنا كيف يُورد صُحارٌ الأمثالَ في كتابه ويُفسِّرُها، يَروي أنَّ يزيد بن معاوية سأله عن هذا المَثَل: «لا ناقتي في هذا ولا جَمَلي»، فنسبَه صُحارٌ إلى الصَّدُوف بنت الحُلَيس العُذْريَّة، وساقَ له تفاصيلَ قِصَّتِه[1].

ولكنا إذا نظرنا في أكبر كتب الأمثال العربية، وهو كتاب (مَجْمع الأمثال) لأبي الفضل المَيْداني[2]، وجدناه ينسب فيه عددًا من الأمثال إلى الصحابة رضوان الله عليهم، وقد يترك الأمثالَ فينسبُ إليهم شيئًا من الحِكْمة، على طريقته في كتابه؛ إذ لم يُخْلِصه للأمثال وحدَها، بل انتقى فيه بعضَ ما أعجبه من كلمات العرب وحِكَمِها، وبعضُ هذه الأمثال في نسبته إلى بعض الصحابة خلاف، وقد يتنازع المثَلَ الواحدَ رجلان من الصحابة أو غيرهم. والحُكم على صحة نسبة المثل أصعب من الحُكم على صحة نسبة غيره من فنون النثر؛ لذيوع المثل وانتشاره في الناس وذَهابه في الآفاق، فقلَّما يُعرف عند إيراده أصلُه، وقلَّما يُذكر عند الاستشهاد به صاحبُه.

فممَّا نُسب في كتاب الميدانيّ إلى الصَّحابة قولُ أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «البلاء مُوَكَّلٌ بالمنطق»[3]؛ وقول عائشة أمِّ المؤمنين: «بحَمْدِ الله لا بحمْدك»، قالته حين بشَّرها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنزول آية الإفك[4]؛ وقول عليّ بن أبي طالب: «أنا دونَ هذا وفوق ما في نفسك»، قاله لرجلٍ مدَحَه نِفاقًا[5].

---

(١) انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عُبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، ص٣٨٨ تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد قطامش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣/ ١٩٨٣م.

(٢) بلغ ما فيه من الأمثال نحو ستة آلاف مَثَل، وقد رجع فيه إلى أهم كتب الأمثال قبلَه، انظر: تعريفًا به في كتاب: الأمثال العربية القديمة، لزلهايم ٢٠٩-٢١٨.

(٣) مجمع الأمثال، للميداني، أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد ١/ ٢٦، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط٢/ ١٤٠٧هـ، وهذا المَثَل على خصوصه نُسب إلى النبي ﷺ، ولا يصح، انظر: الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، لنور الدين علي بن محمد بن سلطان المشهور بالملا علي القاري، ص١٥٥، تحقيق محمد الصباغ، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩١هـ.

(٤) مجمع الأمثال ١/ ١٦٧.

(٥) مجمع الأمثال ١/ ٨٨.

وممّا يُضرَبُ عند الشماتة فيما يُصيب العدوَّ قولُ معاوية بن أبي سفيان: «إن لله جنودًا منها العَسَل»، قاله لما سمِع أن الأشتر النَّخَعيَّ سُقي عَسَلًا فيه سُمٌّ فمات[1].

وقال عَمرو بن العاص لمعاوية حين أراد أن يستنصر أهلَ الشام: «حرِّك لها حِوارَها تَحِنُّ»، والحوار وَلَدُ الناقة، ومعناه: ذكِّره ببعض أشجانه يَهِجْ له[2].

ومن أمثالهم قولُ قُباث بن أَشْيَم الكِنانيّ[3]: «قد عِشْتُ زمانًا وما أُخَشَّى بالذئب»، قال الأصمعيُّ: أصلُه أن الرجلَ يطول عمرُه إلى أن يُخَوَّف بمجيء الذئب، وقُباثٌ هذا عُمِّر حتى أنكروا عقلَه، وكانوا يقولون له: الذئبَ الذئبَ؛ فقالوا له ذلك يومًا وهو غير غائب العقل، فقالَ قولتَه التي ذهبتْ مثلًا[4].

ومن طريقة أصحاب كتب الأمثال أنهم إذا توثَّقوا من قائل الـمَثَل قالوا: «وأولُ من قال كذا فُلان»[5]؛ فمنه مثلًا قولُ عبد الله بن الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقتلوني ومالكًا»، قال الميدانيُّ: أول من قال ذلك عبدُ الله بن الزبير، وذلك أنه عانَقَ الأشتر النَّخَعيّ، فسَقَطَا عن جوادَيْهما إلى الأرض. واسم الأشتر مالك، فنادى عبد الله بن الزبير:

اقـتُـلُـوني ومَـالِـكًـا ... واقـتُـلُـوا مَـالِـكًـا مَـعِـي

فضُرب مثلاً لكل مَنْ أراد بصاحبه مكروهًا وإن ناله منه ضرر[6].

ومن أمثال العرب ما يكون على (أَفْعَلَ مِنْ) كقولهم: «أسخى من حاتم، وأشجعُ من ربيعة بن مُكَدَّم»[7]؛ ولم أقع لأحدٍ من الصحابة على شيءٍ من هذا النوع.

---

(١) مجمع الأمثال ١/ ١٦، وأصل القصة في تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٣، وفيه: «إن لله جُنْدًا من عسل».
(٢) مجمع الأمثال ١/ ٣٤١.
(٣) صحابيٌّ شهد بدرًا مع المشركين، ثم أسلم وشهد حُنينًا، انظر: الإصابة ٥/ ٤٠٧.
(٤) انظر: مجمع الأمثال ٣/ ٩٢.
(٥) انظر مثلًا: مجمع الأمثال:٢/ ٢٢٣، ٢/ ٣٤٦، ٢/ ٣٥٤، ٢/ ٤٨٠، ٢/ ٤٨٢.
(٦) مجمع الأمثال ٢/ ٤٩٧، وأصل القصة في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٢٥.
(٧) العقد الفريد ٣/ ٨.

وهناك أمثالٌ منسوبةٌ إلى الصحابة في كتب الأمثال، ولا يُفهم من سياقها أنهم مخترعوها، كقول أبي موسى الأشعريّ: «كان كُراعًا فصار ذِراعًا»، يُضرب للذليل الضعيف صار عزيزًا قويًّا. وهذا المثل رُوي عن أبي موسى في حق بعض القبائل[1]، ولا دليلَ على أنه مُنشِئُه[2].

ومثله قول معاوية في رجلٍ بعثه إلى الروم وعاد سالـمًا -وكان يَظنُّ منهم أنهم قاتلوه: «أفْلَتَ وانْحصَّ الذَّنَب»[3]، فإنه يظهر من الرواية أنه مسبوقٌ إليه، وأنه ما قاله إلا على سبيل التمثُّل؛ فلا مناسبةَ في القصة لألفاظه.

ومما لم تذكُرْه كتبُ الأمثال من أقوال الصحابة، وهو بالأمثال أشبه؛ قولُ عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَرَسَ امْرَءًا أجلُه»[4]؛ وقولُه للزبير: «عرفْتَني بالحجاز وأنكرتني بالعراق»[5]؛ وقول عبد الرحمن بن عوف: «فإنَّ حابيًا خيرٌ من زاهق، وإن جَرْعةً من شَرُوبٍ بارد أنفعُ من عَذبٍ مُوبٍ»[6]؛ وقولُ المغيرة بن شُعبة -وهو من الحِكَم التي

---

(١) مجمع الأمثال ٣/ ٣.

(٢) ومما رواه الصحابةُ من الأمثال ما نقله ابنُ عبد ربه عن النعمان بن بشير أنه خطب على مِنْبر الكوفة فقال: «يا أهلَ الكوفة، إني وجدتُ مَثَلي ومَثَلكم كالضَّبُع والثَّعلب، أتيا الضَّبَ في جُحْره، فقالا: أبا حِسْل: قال: أجِبْتما، لِمَ جِئْتُما؟ قالا: جئناك نَختصم؟ قال: في بَيْته يؤتىَ الحَكَم، قالت الضَّبُع: فتحتُ عَيْبتي؟ قال: فِعْلَ النساء فعلتِ، قالت: فلقطتُ تمرة، قال: حُلْوًا جنيتِ؟ قالت: فاختطفها ثُعالة؛ قال: نفسه بَغَى «ثُعالة: اسم الثعلب، الذكر والأنثى» قالت: فلطمتُه لطمةً؛ قال: حقًا قضيتِ، قالت: فلَطَمني أخرى، قال: كان حُرًّا فانتصر؛ قالت: فاحكم الآن بيننا؛ قال: حَدِّث حديثين امرأة وإن لم تَفْهم فأَرْبعة»، العقد الفريد ٣/ ٥-٦. ومثل هذا لا إسناد له ولا خطام، ولا ندري ما صحتُه.

(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٤٣٨، والانحصاص: تناثر الشعر. وقد صنَّف زلهايم هذا المثل ضمن ما أسماه «التعبير المَثَليّ»، وهو «يفترق عن المثل في أنه لا يعرض أخبارًا معينةً عن طريق حالة بعينها، ولكنه يُبرز أحوال الحياة المتكررة، والعلاقات الإنسانية، في صورةٍ يمكن أن تكون جزءًا من جملة. والتعبيرات الـمَثَليَّة عباراتٌ قائمةٌ بذاتها... وهي تُثْري التعبير وتوضِّحه، بسبب ما فيها من بيان عظيم» «الأمثال العربية القديمة»، ص٣٠.

(٤) الطبقات الكبير ٥/ ٨٠.

(٥) نثر الدُّرّ ٢/ ١٠٥.

(٦) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٤-٢٣٥.

ألحقوا أمثالَها بالأمثال: «في مَحْضِ الرأي بَشاعة، ولا خير في المَذِيق»[1]؛ وقولُ خالد ابن الوليد: «قَتَلَتْ أرضٌ جاهلَها، وقتل أرضًا عالـمُها، والقومُ أعلم بها فيهم»، فكأنها أمثال. وقد قالها وهو يُجاور عمرو بن عبد المسيح، وكان مُعَمَّرًا مُقَدَّمًا في أهل الحيرة. وكان خالدٌ قد اتهمه بالخَرَف لكِبَر سِنِّه، فلمَّا تبيَّن له عقلُه ودهاؤه قال ما قال[2].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٧٧.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٦٢-٣٦٣.

[٦] المَراثي النَّثْريَّة

هذا فنٌّ أدبيٌّ(١) أبدعَ فيه الصحابةُ نثرًا مثلما أبدعوا فيه شِعرًا، وأجودُ أمثلتهم في إبداعهم فيه بالشِّعر هو مراثيهم للنبيِّ ﷺ التي قالوا فيها فأكثروا، وأحسنوا فيها القول(٢).

ولعلَّ خير المراثي النثريَّة في النبي ﷺ القطعةُ الصغيرةُ التي رثته بها ابنتُه فاطمةُ رضي الله عنها، حين طفقت تبكي وهي مفجوعةٌ بموته، وتنادي، فتقول: «يا أبتاهْ، أجاب ربًّا دعاهْ، يا أبتاهْ، من جنَّة الفردوس مأواه، يا أبتاهْ، إلى جبريل ننعاهْ». فلما مات ودُفن قالت عليها السلام: «يا أنس، أطابت نفوسُكم أن تَـحْثُوا على رسول الله ﷺ التراب؟!»(٣).

إن هذه الكلمات القليلةَ المسجوعةَ، المختومةَ بالألف والهاءِ حرفيْ التَّأَوُّه؛ لكأننا نُحِسُّ فيها برُوح الشعر وإن لم يَكُنَّ شعرًا. وإن أمثال هذه المراثي النثرية المسجوعة القصيرة قديمٌ معروفٌ من مراثي النسوة في الجاهلية(٤).

ومن رثاء الآباء رثاءُ عائشة أمِّ المؤمنين أباها أبا بكرٍ الصِّدّيقَ رضي الله عنه، فقد وقفت على قبره بعد موته فرثته بكلماتٍ آسياتٍ بليغاتٍ، تسلَّت فيهنَّ عن مصيبة موته بمصيبة فَقْدِ النبي ﷺ، وتصبَّرتْ بما أعدَّه الله للصابرين الـمُحتسبين، وبما خلَّفهُ أبوها من الزُّهد

---

(١) سبق الحديث عن «خطب المراثي»، والمراثي النثرية مختلفةٌ عن تلك الخطب بأنها ربما لا يُتوجَّه بها إلى جمهور، بل قد يُتوجَّه بها إلى الميت نفسِه؛ وهي لا تحمل بناء الخطبة الذي سبق تبيانُه من قبل، بل هي أقوالٌ مرسَلة في غالب الأمر، يبثُّ بها المرءُ من الصحابة لواعجَه وشكواه.

(٢) انظر: المراثي النبوية في أشعار الصحابة: توثيق ودراسة.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٦١٩.

(٤) انظر: كلام أم تأبط شرًّا في رثائه في: جمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكار ٢/ ٤٤٢، وانظر أيضًا: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص٣٢٤.

والعمل الصالح في الدنيا، فقالت: «نضَّر اللهُ وجهَك يا أبتِ، وشكر لك صالحَ سعيك؛ فلقد كنت للدنيا مُذِلًّا؛ بإدبارك عنها، وللآخرة مُعِزًّا؛ بإقبالك عليها، ولئن كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُزؤك، وأعظمَ المصائب بعده فقدُك؛ إن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ليَعِد بحسن الصبر فيك، وحُسْن العِوض منك؛ فأنا أتنجَّز موعود الله بحسن العزاء عليك، وأستعيضه منك بالاستغفار لك، فعليك السلام ورحمة الله، توديعَ غيرِ قاليةٍ لحياتك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك»[1]، فهذا دعاءٌ وتَحنانٌ ومَوجِدة إسلاميَّةٌ على الميت، ورثاءٌ وتعزيةٌ في المصاب بصالح عمله[2].

وما دام الحديث قد جرَّنا إلى ذكر رثاء النسوة أمواتهنَّ، فإنا ذاكرو رثاءِ امرأةٍ من الصحابة لعمر بن الخطاب رثاءً يُشبه رثاء فاطمة بنت محمد لأبيها صلوات الله وسلامه عليه، هي ليلى بنت أبي حَثْمَة[3] القائلةُ بعد وفاة عمر ـ وكان عُمر من بني قومها بني عَدِيّ: «واعُمراه! أقام الأَوَدْ، وأبرأ العَمَدْ. أماتَ الفِتَنْ، وأحيا السُّنَنْ. خرج نقيَّ الثَّوبْ، بريئًا من العيبْ»[4].

لقد شرعتْ الصحابيَّةُ الموتورةُ لفقد الخليفة تبني رثاءها بعد نداء الندب على سجعاتٍ ذوات جُمَلٍ ثلاث، من حرفين حرفين لم تزد عليهنّ، وما كان لها أن تزيدَ وقد لَفَّ الحُزنُ قلبَها، وأخذ الأسفُ منها كلَّ مأخذ.

---

(١) العقد الفريد ٣/ ١٧٣.

(٢) وانظر: خطبةً لها أخرى تذكر فيها أباها بعد موته، فتمدحه وتذبُّ عنه في: شرح خطبة عائشة أم المؤمنين في أبيها، لابن الأنباري.

(٣) هي ليلى بنت أبي حثمة بن حذيفة القرشية العدويَّة، صحابية، أسلمتْ قديمًا، وبايعت، وكانت من المهاجرات الأول، هاجرت الهجرتين إلى الحبشة، اعترضها عُمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل إسلامه وهي في طريق هجرتها إلى الحبشة، فقال: إلى أين أم عبد الله؟ فقالت: آذيتمونا في ديننا فنذهب في أرض الله. قال: صحبكم الله. يُقال: إنها أول ظعينةٍ دخلت المدينة في الهجرة، الإصابة ٨/ ١٠٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٠.

ولم يقتصر رثاء الخليفة الفاروق على هذه المرثيَة النثريَّة وحدها، بل إنَّ الفاروقَ قد كان صاحبَ الحظِّ الأوفى من رثاء الصحابة، وإنه لأهلُ ذلك والحقيقُ به، فعُمر قد طالت مُدَّته، وقد امتدَّ عدلُه، ولم يشهد الصحابة عهدًا أذعنتْ فيه الأممُ للمسلمين بعد النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كعهده. رثاه عليُّ بن أبي طالبٍ، فقال: «والله ما على الأرض أحدٌ أحبَّ إليَّ أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجَّى بالثوب»[1].

ورثاه عبد الله بن سَلَام[2]، ذلك الصحابيُّ الذي كان يهوديًّا فأسلم، حيث إنه حضر وقد صلَّى الناسُ عليه، فقال: والله لئن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء عليه، ثم قام عند سريره فقال: «نِعْمَ أخو الإسلام كنتَ يا عُمر، جوادًا بالحق، بخيلًا بالباطل، ترضى حين الرضا، وتغضب حين الغضب، عفيفَ الطَّرْف، طيِّب الظَّرف، لم تكن مدَّاحًا ولا مغتابًا». ثم جلس[3].

أمَّا ابن مسعود فقد اختار التمثيل موئلًا للتعبير عن عظيم ألمه، وكبير بَأْسائه لموت أمير المؤمنين، فجاء رثاؤه على هذه الصورة: «إنَّ عمر كان حصنًا حصينًا للإسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه، فلما مات عُمر؛ انثلم الحصن، فالناسُ يخرجون من الإسلام»[4].

تلك خلاصة عُمر في قرارة نفس ابن مسعود، وما أبلغَها من خلاصة! ولقد وجد ابن مسعودٍ على فَقْد عُمر كما لم يجد أحدٌ غيرُه من الصحابة؛ روى عاصم بن بهدلة عن أبي وائل قال: قدِم علينا عبد الله بن مسعود، فنعى إلينا عمر، فلم أرَ يومًا كان أكثرَ باكيًا

(١) الطبقات الكبير ٣/ ٣٤٤.

(٢) هو عبد الله بن سلام بن الحارث، أبو يوسف، من ذرية يوسف النبي عَلَيْهِالسَّلَامُ، حليف القوافل من الخزرج، الإسرائيلي، ثم الأنصاري، كان حليفًا لهم، وكان من بني قينقاع. يقال: كان اسمه الحُصين فغيَّره النبي ﷺ. أسلم أول ما قدم النبي ﷺ المدينة. مات في قول جميعهم بالمدينة سنة ثلاث وأربعين، انظر: الإصابة ٤/ ١١٩.

(٣) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ٣٤٤.

ولا حزينًا منه، ثم قال ابن مسعود: «والله لو أعلمُ عُمر كان يُحبُّ كلبًا لأحببتُه، والله إني أحسِب العِضاهَ قد وجد فَقْدَ عُمر!»[1]، وهذا رثاءٌ أيضًا.

وكصُنْع ابن مسعودٍ صَنَع حذيفةُ إذ صوَّر وهو يرثي عُمر، فقال: «كان الإسلام في زمن عُمر كالرجل الـمُقْبِل لا يزداد إلا قُرْبًا، فلما قُتل عُمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان كالرجل الـمُدْبِر لا يزدادُ إلا بُعدًا»[2].

لقد كان عمر في صورة الرجلين، أمانًا للإسلام يلجؤون إليه في صورة ابن مسعود، ونبراسًا للمسلمين، وعلامةً واضحةً، وآيةً يهتدون بها في صورة حُذيفة بن اليمان.

ورثى عليٌّ عبدَ الرحمن بن عوفٍ رثاءً غَبَطَه فيه بما أحسَنَ من العمل في الدنيا، فقال: «اذهب ابنَ عوفٍ، فقد أدركْتَ صفوَها، وسبقْتَ رنْقَها»[3]. ولعلَّ هذا المعنى عن عبد الرحمن كان متَّفَقًا عليه بين الصحابة، فقد رثاه عمرو بن العاص بقولٍ قريبٍ من قول عليٍّ فقال: «اذهب ابنَ عوفٍ، فقد ذهبتَ ببِطْنتك، ما تغضْغَضَ منها شيء»[4].

والغَضْغَضَةُ: النقص[5]، يعني أنه لم يتلبَّس بولايةٍ أو عملٍ يُنقِص من أجره الذي وجب له.

ووقف عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على قَبْر خَبّاب بن الأَرَتّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فرثاه بأعماله الصالحات، وصبره على البلاء، فقال: «رَحِم اللهُ خَبَّابًا، لقد أَسْلم رَاغِبًا، وجاهد طائعًا، وعاش زاهدًا، وابتُلي في جسمه فَصَبر، ولن يُضيع الله أجرَ من أحسن عملًا»[6].

---

(١) الطبقات الكبير ٣/ ٣٤٥.

(٢) الطبقات الكبير ٣/ ٣٤٦.

(٣) الطبقات الكبير ٣/ ١٢٦، والرَّنْق: ترابٌ في الماء من القَذى ونحوه، والرَّنَقُ بالتحريك مصدر قولك رَنِقَ الماءُ: كَدِرَ «لسان العرب: رنق».

(٤) الطبقات الكبير ٣/ ١٢٦.

(٥) لسان العرب «غضض».

(٦) العقد الفريد ٢/ ١٧١.

وإذا كنا قد بدأنا هذا الحديثَ في المراثي بنساء الصحابة رضوان الله تعالى عليهنّ، فإنا نختمه برثاء أسماء بنت أبي بكر لابنها عبد الله بن الزبير، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين. فقد وقفت عليه وهو مصلوبٌ فدعتْ له طويلًا، وما تقطِر من عينها قطرة - وهذا أشدُّ في اللَّوْعَة - ثم انصرفتْ وهي ترثيه برثاءٍ كأنه بيتُ الشعر، فتقول: «مَنْ قُتل على باطلٍ فقد قُتِلْتَ على حق، وعلى أكرم قِتْلة، ممتنعٍ بسيفك؛ فلا تَبْعَد!»[1].

---

(١) الطبقات الكبير ٦/ ٥٠٩.

[٧] الأَجْوِبَة

هذا فنٌّ من الأدب شَفهيٌّ مرتَجَلٌ، أوغل فيه الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد ورِثوه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو فنٌّ تتمازجُ فيه عناصر البلاغة، كالإيجاز والجناس والتورية والمطابقة، وحسن الجواب والسجع.

وهو ينقسم أقسامًا، منها الجواباتُ الحكيمةُ الحسَنَة، والجوابات الـمُسْكِتةُ القاطعة بل الـمُفْحِمة، والجوبات المتخلِّصة، والجوابات الساخرة أو الشَّامتة.

(الأجوبة الحَسَنة)

فأما الجوابات الحكيمة، فمنها ما كان في الثبات عند حلول الأجل، والـيقينِ بلقاء الله عَزَّوَجَلَّ، كقول أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سألوه في مرضه: لو أرسلتَ إلى الطبيب؟ فقال: «قد رآني». قالوا: فما قال لك؟ قال: «إني فَعَّالٌ لما أُريد»(١).

فتلك إجابةٌ يُوهم أولُها السائلَ بموافقتها هواه، ولكنَّه ما إن يُتمَّ أبو بكرٍ الإجابة حتى يعلم السائل أنها لا توافق؛ إلا هوى أبي بكرٍ وحدَه.

وشبيهٌ بهذه الإجابة الراسخة مقالةُ أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مجيبًا أصحابه الذين دخلوا عليه وهو يشتكي، فقالوا: يا أبا الدرداء، ما تشتكي؟ قال: «أشتكي ذنوبي». قالوا: فما تشتهي؟ قال: «أشتهي الجنة». قالوا: أفلا ندعو لك طبيبًا؟ قال: «هو الذي أضجعني!»(٢).

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤١٩، والطبقات الكبير ٣/ ١٨٢ باختلاف يسير في الرواية بين الكتابين.
(٢) الطبقات الكبير ٩/ ٣٩٧.

ومن أجوبة الصحابة المتعمَّدةِ فيها الصنعة، للنَّصيحة والذكرى، أنَّ رجلًا قال لبلالٍ يسأله عن سَبَقٍ للخيل: من سبق؟ قال: محمد. قال: من صلَّى؟[1] قال: أبو بكر. قال الرجل: إنما أعني: في الخيل. قال بلالٌ: وأنا إنما أعني: في الخير[2].

ومما اعتمدوا فيه على التورية، أنَّ أبا بكر سُئل وهو في طريق الهجرة مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، فقال: هادٍ يهديني الطريق[3].

ومن لَباقة الإجابة ما تحيَّل به سلمانُ الفارسيُّ على هوى نفسه إذ سأله عمر لـمَّا دوَّن الدواوين: مع مَنْ نكتبُك؟ قال: «مع الذين لا يريدون علوًّا في الأرض»[4]. فكان موفَّقًا مسدَّدًا.

ومن الأدب في الإجابة، والتفريق بين المعاني -وهو ما يقع ضمن أسلوب الحكيم عند البلاغيين[5]- أن عبد الملك بن مروان سأل قُبَاث بن أشيم الكناني الليثي[6]: يا قُباث، أأنت أكبر أم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكبرُ مني وأنا أسنُّ منه»[7].

---

(١) المُصَلِّي من الخَيْل: الذي يجيء بعد السابق؛ لأن رأسَه يَلِي صَلا المتقدِّم، وهو تالي السابق، وقال اللحياني: إنما سُمِّيَ مُصَلِّيًا لأنه يجيء ورأسُه على صَلا السابق، وهو مأخوذ من الصَّلَوَيْن لا محالة، وهما مُكْتَنِفا ذَنَبِ الفَرَس، فكأنه يأتي ورأسُه مع ذلك المكان. يقال: صَلَّى الفَرَسُ إذا جاء مُصَلِّيًا «لسان العرب: صلا».

(٢) الطبقات الكبير ٣/ ١٥٨.

(٣) انظر: الأذكياء، لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن محمد بن علي، ص٣٤-٣٥، تحقيق وتعليق عادل عبد المنعم أبو العباس، مكتبة القرآن، القاهرة ١٤٠٨هـ.

(٤) نثر الدُّرّ ٢/ ٧٤، والآية هي الثالثة والثمانون من سورة «القصص».

(٥) اسلوبُ الحكيم، أسلوب يُستعمل للتظرُّف أو التخلُّص من إحراج السائل، انظر: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، لأحمد مطلوب، ص٧٩، وقال فيه السكَّاكي: «هو تلقِّي المخاطب بغير ما يترقَّب بحمل كلامه على خلاف مراده؛ تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيهًا على أنه الأَوْلى بحاله أو المهمُّ له»، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، لعبد المتعال الصعيدي، ١/ ١٢٠، مكتبة الآداب، القاهرة ١٤٢٠هـ.

(٦) قباث بتخفيف الموحدة وبعد الألف مثلثة، والمشهور فتح أوله، وقيل: بالضم وبه جزم ابن ماكولا قال البخاري: له صحبة، انظر: الإصابة ٥/ ٤٠٧.

(٧) انظر: الإصابة ٥/ ٤٠٧.

قَصَدَ بالأولى الشرفَ والمنزلة، وبالثانية عدد السنين، ولم يُردْ أن يقول: أنا أكبر منه سِنًّا؛ تأدُّبا مع مقام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونحوها أنه أُريد بعَمرٍو أن تُستثار نَعْرةُ نفسه ذات يومٍ، وقد نُظر إليه على بغلةٍ قد شمِط وجهُها هرمًا، فقيل له: أتركبُ هذه وأنت على أكرم ناخرةٍ[1] بمصر؟ فأجاب: «لا ملَلَ عندي لدابَّتي ما حملتْ رحلي، ولا لامرأتي ما أحسنتْ عِشرتي، ولا لصديقي ما حفِظ سِرِّي؛ إنَّ الملل من كواذب الأخلاق»[2].

فأجابهم عمرٌو بما يكفيهم في السؤال وزيادة، وأدَّبهم، وآتاهم من الحكمة في نقيصة الملل، وهم إنما أرادوا من قوله إثمًا، فخذلهم، وخيَّب ظنَّهم بجوابٍ حَسَنٍ خيرٍ مما يظنون.

ومن الأجوبة الحسنة الـمُجْزئة ما قاله عمر بن الخطاب وقد كُتب إليه بالفتح مع رجلٍ من المسلمين، فسأله عُمر: آلنعمانُ بعثك؟ قال: احتسِبْ النعمانَ يا أمير المؤمنين. قال فبكى عُمر واسترجع، قال: ومَنْ ويحَك؟! قال: فلان وفلان؛ حتى عَدَّ له ناسًا كثيرًا، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم. فقال عمر وهو يبكي: لا يضرُّهم أن لا يعرفهم عمر، ولكنَّ الله يعرفهم[3].

فردَّ عمرُ غَيْبَةَ الموتى، وشرَّفهم بتشريف الله إيَّاهم، جزاءً عن غفلة المسيء إذ أساء وهو لا يدري.

(الأجوبة القاطعة)

أما الأجوبة المسيئةُ القاطعة فهي فرعٌ من الجدل لا شكَّ فيه، وفيها فوق ذلك من الأدب مثلُ ما مرَّ من الإيجاز والجناس والسجع والمفارقة.

---

(١) الناخرة: جَمَاعة الخيل «لسان العرب: نخر».

(٢) نثر الدُّرّ ٢/ ٨٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢١.

فمن جيِّد تلك الجوابات القاطعة الـمُسْكتة ما يُروى أن طلحة بن عُبيد الله وعمر بن الخطاب اختلفا في أمر من أمور الخلافة تقدَّم إليه عمر، فغضب طلحة، فأتى أبا بكرٍ فقال: أأنتَ الأميرُ أم عُمر؟ فقال: عُمر، غيرَ أن الطاعة لي! فسكت[1].

ووجه الإسكاتِ في هذا الجواب في المفارقة؛ لأن الطاعة لا تكون إلا للأمير، فلما نَسب أبو بكر الإمارة إلى عمر، والطاعةَ إلى نفسه؛ ترك المستفهم حيران لا يدري أيَّ الرجلين صاحب الأمر، أو أنه قد صار يدري أن الرجلين كلاهما صاحبُ الأمر!

ومن أجوبتهم القاطعة أن عُمر خرج يريد الشام، حتى إذا كان في سرغٍ بلغه أن الطاعون قد اشتعل بالشام، فرجع من سرغ، فكلَّمه أبو عُبيدة وقال: أتفرُّ من قدر الله؟ قال: نعم، إلى قدر الله[2]. فاحتجَّ عمر بالقدَر، وهو الغالبُ على أمر العباد، وكلُّ شأن الناس قَدَر.

ومن سرعة البديهة واستحضار العقل أنَّ امرأةً من بني أمية قالت لعَقيل بن أبي طالبٍ[3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنتَ معنا يا أبا يزيد، قال لها: ويومَ بدرٍ قد كنتُ معكم![4].

وقد يُسْكتون في أجوبتهم بالتنزُّل وموافقة هوى الخَصم لغرض. قيل للحَسَن بن عليٍّ: تركتَ إمارتَك وسلَّمتها إلى رجلٍ من الطُّلَقاءِ وقدمت المدينة؟ فقال: إني اخترتُ العارَ على النار[5].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٧٥.

(٢) الطبقات الكبير ٣/ ٢٦٤.

(٣) هو عَقيل بن أبي طالب بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أخو علي وجعفر، وكان الأسن. يكنى أبا يزيد. تأخر إسلامه إلى عام الفتح وقيل أسلم بعد الحديبية وهاجر في أول سنة ثمان. وكان ممن ثبت يوم حنين، وكان عالما بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة، وكان سريع الجواب المسكت. وعن ابن عباس قال: كان في قريش أربعة يتحاكم الناس إليهم في المنافرات: عقيل، ومخرمة، وحويطب، وأبو جهم. مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافة معاوية، وقيل: في عهد يزيد، انظر: الإصابة ٤/ ٥٣١.

(٤) جمهرة خطب العرب ٢/ ١٣٢.

(٥) الطبقات الكبير ٦/ ٣٨٤.

فإن الحَسَنَ وإن تنزَّل في الظاهر مجاراةً لمراد سائله الذي أراد تجليلَه بالعار؛ لم يفعل ذلك إلا لينحطَّ به إلى ما هو أسوأ منه وأفظع، ألا وهو النار، فكأنها أراد أن يُخبره أنه أفقهُ منه وأحكمُ إذ ارتضى أقلَّ الضَّررَيْن. وقد جانسَ بين الكلمتين: النار والعار، وسجعَ بينهما؛ ليبيِّن شدَّة القُرب بينهما لفظًا، وشدَّةَ البُعْدِ بينهما عاقبةً ومَؤونةً وبأسًا.

(الأجوبة المتخلّصة)

فإذا أتينا إلى الأجوبة المتخلِّصة، فلعل من أحسنها ما حُكي عن أسماء بنت عُميس[(١)] أنه تزوَّجها عليٌّ بن أبي طالبٍ، فتفاخر ابناها محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر، قال كلُّ واحد منهما: أنا أكرم منك وأبي خيرٌ من أبيك، فقال لها علي: اقضي بينهما. فقالت: ما رأيت شابًّا من العرب كان خيرًا من جعفر، ولا رأيتُ كهلًا خيرًا من أبي بكر، فقال عليّ: ما تركتِ لنا شيئًا! فقالت: والله إن ثلاثةً أنت أخسُّهم لخيار. فقال لها: لو قلتِ غير هذا لمقتُّكِ[(٢)]. فنجتْ ببراعة إجابتها المستمدَّة من فصاحتها، وذكائها، وسرعة بديهتها.

ومنها أن عمرو بن العاص سُئل: ما حَشْوُ جُبَّتك يا عمرو؟ فأراد أن يتخلَّص فقال: «حشوُها عَمرو»[(٣)]. وهذا داخلٌ في (أسلوب الحكيم)، وقد يُسمِّيه أهلُ البلاغة (تجاهُلَ العارف)[(٤)].

---

(١) هي أسماء بنت عُميس بن مَعْد بوزن سعد الخثعمية. كانت من المهاجرات الى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له هناك أولاده، فلما قتل جعفر تزوجها أبو بكر فولدت له محمدًا، ثم تزوجها عليٌّ فيقال: ولدت له ابنه عونًا، انظر: الإصابة ٧/ ٤٨٩.

(٢) الطبقات الكبير ٤/ ٣٧.

(٣) الطبقات الكبير ٥/ ٧٤.

(٤) تجاهل العارف: حَمْلُ لفظٍ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلَّقه، انظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، لعبد المتعال الصعيدي٤/ ٦١، وانظر: تعليقَ الصعيدي على تكرار هذا النوع مرتين عند الخطيب القَزويني: مرة في علم المعاني، وسمَّاه: أسلوب الحكيم، ومرةً في علم البديع، وسمَّاه: تجاهل العارف، ورأى أن عدَّه في علم البديع أَلْيَق، انظر: بغية الإيضاح ١/ ١٢٠.

(الأجوبة الساخرة أو الشامتة)

وقد يُراد من الإجابة الإيلام والشماتة، كالذي قالته أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقد سألها الحجاج بعد أن قتل ولدَها عبدَ الله بن الزبير: كيف رأيتِني صنعتُ بعدو الله؟ قالت: «رأيتُك أفسدْتَ عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك»(١)؛ فردَّتْه عنها بجوابٍ مُـخْزٍ قاطع.

وقد يُراد من هذه الإجابة الاستهزاءُ بالملحدين، مثل تلك الرواية عن ابن عمر حين قال له قائل: إن المختار يزعم أنه أُوحي إليه. فقال: صدق، أما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١]؟!(٢).

أو يُراد منها تعجيز السائلين باستيلاد الإجابة من سؤالاتهم، إمَّا بقلْبها، كجواب عمرو ابن العاص، وقد قال له رجل: لأتفرَّغنَّ لك. قال: «الآن وقعتَ في الشُّغل»(٣)؛ وإمَّا بنفيها بلفظها وقلْبها، كقول رجلٍ له في مناظرة: والله لئن قلتَ واحدةً لتسمعنَّ عشرًا. فقال: «لكنك لو قلتَ عشرًا ما سمعتَ واحدةً»(٤).

وإمَّا بتغيير الجهة في الإجابة إلى شيء لم يكن المخاطب قد قدَّره أو ظنَّه، وفي هذا المفاجأة التي تُفضي إلى الانقطاع والسكوت، كما في قول معاوية لعَمرو: ما بلغ من ذهابك؟ قال: لم أدخل في شيءٍ قطُّ إلا خرجتُ منه. قال معاوية: «لكنني لا أدخل في شيء أريد الخروجَ منه!»(٥).

وقد نرى من أجوبة الصحابة المؤدِّبة الـمُبَكِّتة نحوَ ما يُروى عن معاوية أنه تكلَّم بحضرته رجلٌ فهَذَر، ثم قال: أسكتُ يا أمير المؤمنين؟ فقال: وهل تكلَّمت؟!(٦).

---

(١) الطبقات الكبير ٦/ ٥١٤.
(٢) نثر الدر ٢/ ٩١.
(٣) الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون، إبراهيم بن محمد بن أحمد، ص١٠، دراسة وتحقيق مي أحمد يوسف، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٦م.
(٤) الأجوبة المسكتة، ص١١.
(٥) الأجوبة المسكتة، ص١١.
(٦) الأجوبة المسكتة، ص١٥.

الفصل الثالث

كِتَابَة الصَّحَابَة

الكتابةُ هي الفنُّ الكبيرُ الآخَرُ من نثر الصحابة[1]، هي والخطابة. ولم أُرِدْ أن أسمِّيَ هذا الفصل بالرسائل لأنَّ مصطلح (الكتابة) أعمُّ وأشملُ[2]؛ ففيه تدخل المواثيق، والعهودُ، والوصايا المكتوبةُ، وكتبُ العُمران، وغيرُها. وتلك كتبٌ غيرُ مرسلَة. أما (الرسائل) فتنصرف إلى ذلك النوع من الكتب المترادِّ بين طرفين: مرسِلٍ، ومرسَلٍ إليه. زد على ذلك أنَّ مصطلح (الكتابة) هو المستعمَلُ عند العرب المتقدِّمين لذلك العصر، فهم يُسمُّون كلَّ أولئك من الرسائل وغيرها بـ(الكُتُب)، فتراهم يقولون: «كَتَبَ إليه» أشهرَ مما يقولون: «أرسلَ إليه»، ويقولون: «كتابٌ» أكثرَ مما يقولون «رسالة»[3].

وقد اجتهدتُ ليكون الحديثُ وافيًا عن كتابة الصحابة، فجعلتُ تقسيمه على هذا النحو: أقدم الكتب، كتب السياسة والحكم، كتب الجهاد، كتب الفتنة والخوارج، الوصايا المكتوبة، كتب القضاء والعدل، كتب العمران، الكتب الإخوانية، كتب فروع الشريعة، كتب الأموال، توقيعات الصحابة. ثم إن البحث يعرض بعد ذلك لسُنن الصحابة في الكتابة، وبناء الكُتُب لديهم.

---

(١) انظر: ما سيأتي من حديثٍ عن «سنن الصحابة في الكتابة» ففيه إلماعةٌ بتاريخ هذا الفنّ.

(٢) انظر: في تداخل مصطلحَيْ «الكتابة» و«الترسل»: نقد النثر في القرنين الرابع والخامس الهجريين، لفاطمة الوهيبي، ص١٣٧-١٣٨، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط١/ ١٤١١هـ.

(٣) انظر الأمثلة الكثيرةَ المتوافرة التي سترد في هذا الفصل. ومن أمثلة قولهم: «رسالة» ما ورد عند البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بعض آثار تجدها في الأدب المفرد، انظر: الأدب المفرد، للبخاري، أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل الجُعفي، ص٣٨٣، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

[١] أقدم الكتب

من قديم كُتُب الصحابة ذلك الكتاب الذي كتب به العبَّاسُ بن عبد المطلب عمُّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، يخبره بنفير قريشٍ لحرب المسلمين قُبيل أُحُدٍ سنة اثنتين، ويوصيه بهذه الوصية: «اصنع ما كنتَ صانعًا إذا وردوا عليك، وتقدَّمْ في استعداد التأهُّب»(١).

وهو كتابٌ مبتورٌ لا أوَّل له ولا آخر، ولا أثر فيه للسِّمات التي ستظهر في كتب الإسلام فيما بعد. ولعل السبب في ذلك يعود إلى الحال التي أنشئ الكتابُ عليها، الداعيةِ إلى المحاذرة والتخفِّي، ولكنه لا ريب في أن القواعد التي استقرَّت عليها فنون الكتابة لعهد النبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الأكرمين لم تكن قد استبانتْ بعد.

ومن قديم كتب الصحابة كتابُ حاطب بن أبي بلتعة الشهيرُ الذي أرسله إلى قريش مع سارة مولاةِ أبي لهب، يخبرهم بعزم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتالهم ـ وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد دعا ربَّه أن يُعمِّي الأخبارَ عن قريش ـ فأتاه جبريل فأعلمه، فوجَّه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعليٍّ والزُّبير، وقال: خُذا الكتاب منها. فلحقاها وقد كانت تنكَّبت عن الطريق. فوجدا الكتاب في شعرها، وقيل: في فرجها. قال السُّهيليُّ: وقد قيل: إنه كان في الكتاب: «إن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توجَّه إليكم بجيشٍ كالليل، يسير كالسَّيل، وأُقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم؛ فإنه منجِزٌ له ما وَعَدَه»، وقيل إنه كتب فيه: »إنَّ النبي محمدًا قد نفر، إمَّا إليكم، وإمَّا إلى غيركم؛ فعليكم الحَذَر»(٢).

---

(١) أنساب الأشراف، للبلاذري١/ ٣١٣-٣١٤، تحقيق محمد حميد الله.

(٢) الروض الأُنُف، للسهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن الخطيب ٧/ ٨٦، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

وأيًّا كان أحدُ الكتابين هو المرسَل؛ فإنه منبترٌ كسابقه؛ لعله لأسباب الرواية، أو للعجلة من صاحبه والخوف. على أن الثقة في نصِّه ليست كبيرة؛ فقد رواه السُّهيليُّ بصيغة التمريض التي لا تُسنِد أصلَ الرواية إلى أحد.

ثم تُدركنا كتبٌ أخرى للصحابة حياةَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتمُّ وأكمل، منها كتابُ العلاء بن الحضرميِّ بالصُّلح لأهل البحرين من المجوس واليهود والنصارى، لعله كان سنة ستّ[1]، وكتابٌ كتبَه الوليدُ بنُ الوليد إلى أخيه خالد بن الوليد، يلومُه على تأخُّر إسلامه، ويرغِّبُه في القدوم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الكتابُ رواه خالدٌ بنفسه وهو يروي قصةَ إسلامه[2].

ومنها كتابٌ لخالد آخر بعد إسلامه كتب به إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة عشرٍ، يُنْبئه فيه بإسلام بني الحارث بن كعبٍ من نجران، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد النبيِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خالد بن الوليد: السلام عليكَ يا رسول الله ورحمة الله وبركاته؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك؛ بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتُهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام؛ فإن أسلموا قبلتُ منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتابَ الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعثت فيهم ركبانًا: يا بني الحارث، أسلموا تسلموا، فأسلَموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيمٌ بين أظهرهم، وآمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه؛ وأُعلِّمهم معالم الإسلام وسنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يكتب إليَّ رسول الله، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته»[3].

(١) انظره: في فتوح البلدان، للبَلاذُري أحمد بن يحيى بن جابر ١/ ٩٥، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة.
(٢) انظر: الطبقات الكبير ٥/ ٢٦-٢٧.
(٣) مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٦٥-١٦٦.

وهذا الكتاب نراه أجودَ كتب الصحابة في تلك السنين التي سبقت وفاةَ النبي صَلَّالِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأنضجَها وأوفاها؛ فقد تمَّت عناصره، وطال طولًا لم يكن معروفًا إلى زمانه، واشتمل على فنون من التَّكرار والسرد تُعَدُّ جديدةً في كُتُب ذلك العصر، وهو تكرارٌ داعيه تلذُّذ خالدٍ بذكر اسم الرسول صَلَّالِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ونَعْتِهِ في الكتاب تسعَ مرَّات[1]، وسردٌ مُتعمَّدٌ لكي يطولَ الكتابُ حُبًّا في مكاتبة النبي صَلَّالِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومخاطبته وحواره ولو على البُعد.

(١) وردت كلمة: «رسول الله» في الكتاب ستَّ مرات، و«محمد» مرة، و«النبي» مرتين، فيكون المجموع تسعًا.

[٢] كُتُبُ السِّيَاسَةِ والحُكم

(أ) كُتُبُ السياسة الداخليّة:

كان الخليفةُ في دولة الصحابة قُطْبَ رحى كُتُب السياسة، وكانت تلك الكتبُ خيرَ مُعين للخليفة في إدارة شؤون الدولة، وضمان نظامها، وضبط أحوالها. كانتْ صوتَ الخليفة حين يَغيبُ شخصُ الخليفة عن الأمصار والثغور، سواءٌ في ذلك ما تناءى منها وبَعُد، أو تدانى منها وقَرُب. وكان الخلفاء والأمراء يعمدون إليها، ولا يعمدون إلى الرسائل الشفوية المحمَّلةِ في أجواف الرُّسُل؛ ذلك أن الكتابةَ فيها زيادة التوثيق، وفيها الأمانُ إلى منطوق الكاتب وما يريد، وكان المخاطَبُ بالكتاب يمتثلُ لما في هذا الكتاب. ومن عَجَبٍ أنَّا لم نسمع عن أحدٍ منهم تشكَّك في كتابٍ أتاهُ أو أنكره، برهانًا على تصديقهم طريقةَ الكتب، واطمئنانِهم إلى ما يُخَطُّ فيها، وقد جاءت هذا الكتب على نحو ما يأتي:

(تولية الولاة)

كان أكثرُ ما يُخَطُّ في كتب السياسة من قِبَل الخليفة توليةَ الأمراء وعَزْلَهم؛ وعسى أعظمُ كتابٍ في هذا الشأن أن يكون كتابَ أبي بكر في العهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب بخطِّ عثمان بن عفان ـ رضي الله عن الجميع ـ، ونُسْخةُ هذا الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عَهِد به أبو بكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين: أما بعدُ ... فإني قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطَّاب، ولم آلُكم خيرًا منه»[1].

ومما كتب به الصّدِّيق في الولاية والعمل أيضًا كتابُه عند اهتياجه للشأم إلى عمرو بن العاص: «إني كنتُ قد رددتُك على العمل الذي كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولَّاكَه مرةً،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٤٢٩.

وسمَّاه لك أخرى مَبْعثَك إلى عُمان، إنجازًا لمواعيد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد ولِيته، ثم وليته، وقد أحببتُ ـ أبا عبد الله ـ أن أفرِّغك لما هو خير لك في حياتك ومَعادك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك»(١).

إن في هذا الكتاب لآيةً على قدْر الخلفاء من الصحابة ولاتهم حقَّ قدرهم، فقد قرأنا تكنيةَ أبي بكرٍ الخليفة عاملَه عَمْرَو بن العاص، ورِقَّتَه له في الحديث، وتلطُّفَه معه في الطلب؛ تحبيبًا له في العمل الجديد الذي يريد أن يصرفه إليه. فما كان من عَمْرٍو إلا أن وقع في إسار أدب أبي بكر الجمّ، فأجابه بكتابٍ آخر فيه: «إني سهمٌ من سهام الإسلام، وأنتَ بعد الله الرامي بها، والجامعُ لها، فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلَها، فارمِ به شيئًا إن جاءك من ناحيةٍ من النواحي»(٢).

ويتولى عُمر الخلافة، وتطولُ مُدَّتُه، فتكثُر المكاتيبُ بينه وبين ولاته، وبينه وبين رعيته، ويكتب بتولية الأمراء وعَزْلِهم، فيكتب بعزل خالدٍ عن الشام وتولية أبي عُبيدة(٣)، ويُرسل بكتابٍ إلى المغيرة بن شُعبة واليه على البصرة، فيه عَزْلُه وتوليةُ أبي موسى لِتُهمةٍ رماه بها أهلُ البصرة، وفيه: «أما بعدُ، فإنه قد بلغني نبأٌ عظيم؛ فبعثتُ أبا موسى أميرًا؛ فسلِّم إليه ما في يدِك، والعَجَل»(٤)، ويكتب إلى أهل الكوفة: «إني بعثتُ إليكم عمار بن ياسر أميرًا، وجعلتُ عبدَ الله ابنَ مسعودٍ مُعلِّمًا ووزيرًا، ووَلَّيْتُ حُذيفة بن اليمان ما سَقَتْ دِجْلةُ وما وراءها، ووَلَّيْتُ عثمان ابن حُنَيْفٍ الفُراتَ وما سَقَى»(٥)، ويكتبُ بتولية معاوية ابن أبي سفيان على قَيْسارِيَة إن هو افتتحها، وينصحُه بالإكثار من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهُ ربُّنا وثقتُنا ورجاؤُنا ومولانا؛ نعم المولى ونعم النصير»(٦).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٨٩.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٨٩.
(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٣٦.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٧١.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٣٩.
(٦) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦٠٤.

وكانت كتب التولية إذ ذاك موطنًا للوصايا الموجَّهة من الخلفاء إلى أمرائهم يوصونهم في أنفسهم ويوصونهم بالرعية خيرًا؛ من هذا أن عليًّا في بدء خلافته ولّى قيسَ ابن سعد بن عُبادة على مصر؛ فلما دخلها صعِد المنبر فجلس عليه، وأمر بكتابٍ معه من أمير المؤمنين فقُرئ على أهلها، فمما نُسِخَ فيه: «... وقد بعثتُ إليكم قيسَ بن سعد بن عُبادة أميرًا، فوازروه، وكانفوه، وأعينوه على الحق. وقد أمرتُه بالإحسان إلى مُحسنكم، والشدةِ على مُريبكم، والرفق بعوامِّكم وخواصِّكم، وهو ممن أرضى هديَه، وأرجو صلاحَه ونصيحتَه...»(1).

(أصولُ عَمَل الوالي)

لعل الوصايا كانت ديدنَ الصحابة في أمورٍ كثيرة، ولعلها كانت ديدن أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يولّي عُمّالَه، ففي عهده الذي كتبه لمحمد بن أبي بكر وهو يولّيه ولايةَ مصر نقرأ جملةً من الوصايا الكريمة الطيبة، بلغت تسعَ عشرةَ وصيةً ما بين أمرٍ ونهيٍ، هي رأسٌ في شأنٍ مهمٍّ من شؤون كتب الصحابة السياسية، ألا وهو: (أصولُ عَمَل الوالي).

في هذا الكتاب يوصي عليٌّ محمدًا عامِلَه بتقوى الله ومخافته في السرِّ والعلانية، ويوصيه بالسيرة في الناس سيرةً قوامها العدل والمواساةُ بينهم، فقد كتب فيه: «هذا ما عَهِدَ عبدُ الله عليٌّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر: وأمره بتقوى الله، والطاعة في السر والعلانية، وخوف الله عَزَّوَجَلَّ في الغيب والمشهد، وباللين على المسلمين، وبالغلظة على الفاجر، وبالعدل على أهل الذِّمَّة، وبإنصاف المظلوم، وبالشدة على الظالم، وبالعفو عن الناس، وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين ويعذِّب المجرمين. وأمره أن يدعوَ مَنْ قِبَلَه إلى الطاعة والجماعة؛ فإنَّ لهم في ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة

---

(1) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٩.

ما لا يقدُرون قدرَه، ولا يعرفون كُنْهَه، وأمره أن يَجبيَ خراج الأرض على ما كانت تُجبى عليه مِنْ قَبل؛ لا يُنتقَص منه، ولا يُبتدَع فيه، ثم يقسمه بين أهله على ما كانوا يَقسمون عليه من قبل، وأن يُلين لهم جناحَه، وأن يواسيَ بينهم في مجلسه ووجهه، وليكن القريب والبعيد في الحق سواء. وأَمَرَه أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسط، ولا يتَّبعَ الهوى، ولا يخاف في الله عَزَّوَجَلَّ لومة لائم؛ فإن الله جل ثناؤه مع من اتقى وآثر طاعتَه وأَمْرَه على ما سواه»[1].

وإذا كان عليٌّ قد فصَّل فيما على الوالي أن يفعلَه؛ فإن عمر بن الخطاب أوجز في كتابٍ إلى أهل البصرة حمَّله أبا موسى واليَهم الجديد، وفيه: «أما بعد، فإني قد بعثتُ أبا موسى أميرًا عليكم؛ ليأخذ لضعيفكم من قويِّكم، وليقاتلَ بكم عدوَّكم، وليدفعَ عن ذمَّتكم، وليُحصيَ لكم فيْئكم، ثم ليقسمَه بينكم؛ وليُنقِّيَ لكم طرقكم»[2].

العدل، والجهاد، وحمايةُ الذمَّة، وإحصاءُ المال وقِسْمتُه، وتنقيةُ الطريق من الأذى والعوائق، تلك خلاصة عمل الوالي في عهد الخليفة عمر، وفي «تنقية الطريق» إيماءةٌ من عُمر إلى أعمالٍ صغيرةٍ كثيرةٍ، باستيفائها تنتظم حياةُ الناس، وتُقضى حوائجُهم؛ وإيماءةٌ إلى أن عُمر كان يعبأ بالصغير من العمل كما يعبأ بكبيره.

وفي كتابٍ آخر إلى أبي موسى بعد أن وَلي يستكمل له فيه عُمرُ أعمالَ الوالي، الصغيرَ منها والكبير: «أقمْ الحدودَ ولو ساعةً من نهار... وأخيفوا الفُسَّاق، واجعلوهم يدًا يدًا، ورِجْلًا رِجْلًا، وعُدْ مرضى المسلمين، وباشِرْ أمورَهم بنفسك؛ فإنما أنتَ رجلٌ منهم؛ غيرَ أنَّ الله جعلك أثقلَهم حِمْلًا»[3].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٧١.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٣٦، وانظر: كُتُبًا أخرى في هذا المعنى في جمهرة رسائل العرب ١/ ٢٢٢- ٢٢٦.

(مراقبة الولاة)

لم يكن من دأب الصحابة أن يبعثوا عُمّالَهم ثم يتركوهم بغير رقابةٍ أو محاسبة، لا يمنعُهم من ذلك تقدُّمُ الأمير ولا قِدْمَتُه، وقصةُ عُمر مع خالد بن الوليد معروفةٌ يوم كتب عُمر إلى أبي عُبيدة، وأمره أن يُقاسمه مالَه قسمين، حتى إنه اقتسم نعليه فأعطاه نعلًا، وأخذ منه نعلًا، وقد قيل لعُمر: يا أمير المؤمنين، لو رددتَ على خالدٍ مالَه ـ وكان أربعين ألفًا ـ فقال: إنما أنا تاجرٌ للمسلمين، والله لا أردُّه عليه أبدًا[1].

ولم يفعل ذلك عمرُ مع خالدٍ وحدَه، بل فعله مع عمرو بن العاص أيضًا إذ رآه فرّق في المعاملة، فأقام الحدَّ على عبد الرحمن بن عُمر في بيته فلم يعدل بينه وبين الناس، فكتب إليه وهو المَغيظُ المُحنَقُ كتابًا عنيفًا غليظًا، يوبِّخه فيه ويلومه، ويتهدَّدُه بالعزل، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي. فعجبت لك يا ابن العاصي ولجُرأتك عليَّ وخلافِ عهدي، أمَا إني قد خالفتُ فيك أصحابَ بدر ممن هو خير منك، واخترتُك لجرأتك عني وإنفاذ عهدي، فأراك تلوثْتَ بما قد تلوثْت، فما أراني إلا عازلُك ومُسِيءٌ عزلَك؛ تضرب عبدَ الرحمن بن عمر فى بيتك، وتحلق رأسه فى بيتك، وقد عرفتَ أن هذا يخالفني؟! إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك، تصنعُ به ما تصنع بغيره من المسلمين؛ ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفتَ أنْ لا هَوادة لأحدٍ من الناس عندي فى حقٍّ يجب لله عليه؛ فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث به فى عباءة على قَتَب، حتى يعرف سُوء ما صنع»[2].

وإنَّ في فاء العَجَلة في مطلع هذا الكتاب في قوله «فعجبت» لعَجَبًا؛ وكأن صاحب الكتاب لا تُطيق نفسُه إمهالًا للمخطئ ولو بكلمةٍ أو كلمتين، فابتدر إليه الحديثَ بهذه

---

(١) انظر: الكتاب والقصة في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٣٦-٤٣٧.

(٢) الطبقات الكبير، لابن سعد ٥/ ٧٢-٧٣.

الفاء وكأنه أخفى قبلها كلامًا شديدًا طويلًا كان يودُّ لو قاله، دلَّت عليه الفاء. وقد جعلت هذه الفاءُ صورةَ عُمر ماثلةً أمام عمرو بن العاص، بكل حزمِه وبأْسِه وعُنْفوانه وغَضْبَته، فزادت في الكتاب بلاغةً على بلاغته.

بل إنه قد فعلها مع سعدٍ ـ وما أدراكَ ما سعد ـ حين ادعى أهلُ الكوفة عليه ما لم يقل، ونسبوا إليه أنه بنى قصرًا سمَّاه قصرَ سعد، فكتب إليه عمر: «بلغني أنك بنيْتَ قصرًا اتخذتَه حِصْنًا، ويُسمى قصرَ سعد، وجعلتَ بينك وبين الناس بابًا؛ فليس بقصرك، ولكنه قصرُ الخَبَال. انزل منه منزلًا مما يلي بيوت الأموال، وأغلقْه، ولا تجعل على القصر بابًا تمنع الناس من دخوله، وتنفيهم به عن حقوقهم؛ ليوافقوا مجلسَك ومَخرجك من دارك إذا خرجت»[1].

وفي محاسبة الوالي كتب أبو الأسود الدؤلي إلى عليٍّ في عبد الله بن عبَّاس والي البصرة ـ وكانت بين أبي الأسود وابن عباس خصومة- فكتب عليٌّ إلى ابن عباسٍ يستجوبه، فرد عليه ابن عباسٍ بهذا الكتاب: «أما بعدُ، فإن الذي بلغك باطل، وإني لما تحت يدي ضابط، قائمٌ له وله حافظ؛ فلا تُصدِّق الظنون، والسلام»[2].

فكتب إليه علي: «أما بعد، فأعلمْني ما أخذتَ من الجزية؟ ومن أين أخذت؟ وفيم وضعت؟»[3].

فكتب إليه ابن عباس: «أما بعد، فقد فهمتُ تعظيمَك مَرْزَأة ما بلغك أني رَزأْتُه من مال أهل هذا البلد، فابعث إلى عملك مَنْ أحببتَ فإني ظاعنٌ عنه، والسلام»[4].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٧.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٤١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٤١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٤١.

(سياستُهم في العَزْل)

على هذا النحو كانت الكُتُبُ تترى بين الخلفاء وعُمّالِهم، ولم يكن أمرهم كلُّه غِلْظةً مع العمال وحسب، بل إنهم كانوا حريصين على وقارهم وسُمعتهم ودرء المطاعن عنهم أوانَ العزل، فقد كتب عُمر بن الخطاب إلى الأمصار في عزل خالد بن الوليد ـ وكان خالدٌ مِلْءَ السمع والبصر: «إني لم أعزل خالدًا عن سُخْطة، ولا خيانةٍ، ولكنَّ الناس فُتنوا به، فخِفْتُ أن يوكلوا إليه ويُبتلوا به، فأحببتُ أن يعلموا أنَّ الله هو الصانع، وألا يكونوا بعَرَض فتنة»[1].

إنه عَزْمُ الخليفة على أن يغرس في قلوب الرعيَّة معنى التوكُّل، ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينصر بالخلق، بل إنه ينصر بالحق. ذلك من عمل السلطان في رأي عمر: أن يحاميَ عن إيمان الناس ويدفعَ عن عقيدتهم، ويُجنِّبهم كلَّ ما قد يُفسد دينَهم عليهم.

وكانوا ربما يرسلون إلى المعزولين من الولاة يواسونهم ويُسلُّونهم، وتلك سياسةٌ حكيمةٌ من سياسة خلفاء الصحابة، وفاءً لهؤلاء الأمراء، وحرصًا على كرامتهم. من هذه الرسائل كتابُ عليّ إلى محمد بن أبي بكر بعد عزله عن مصر، وإقامة الأشتر النَّخَعيِّ مكانه: «أما بعد، فقد بلغني موجدتُك من تسريحي الأشتر إلى عملك، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهاد، ولا ازديادًا مني لك في الجِدّ، ولو نزعتُ ما تحت يدك من سلطانك لولَّيتك ما هو أيسرُ عليك في المؤونة، وأعجبُ إليك ولايةً منه»، إلى آخر الكتاب[2].

أما سياسة عثمان في عزل عُمّاله فقد كان يجنح في جانب منها إلى رضاء الرعيَّة، والنزول على رغبتهم في اختيار الوالي الذي يُحبُّون، وخَلْعِ الوالي الذي يكرهون. وكان عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رحيمًا مؤثِرًا للرأفة بالمؤمنين. فعل ذلك مع أهل الكوفة في عزل الوليد بن عُقبة وتولية سعيد ابن العاص. ثم لما استعفَوْه من سعيدٍ وطلبوا أبا موسى أجابهم، وكتب

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦٨.

(٢) انظره، في تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٦-٩٧.

إليهم: «أما بعد، فقد أمَّرتُ عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنَّكم عِرْضي، ولأبذُلنَّ لكم صبري، ولأستصلحنَّكم بجُهدي؛ فلا تدَعوا شيئًا أحببتموه لا يُعصى اللهُ فيه إلا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه؛ أنزلْ فيه عند ما أحببتم، حتى لا يكون لكم عليَّ حُجَّة»[1].

فأيُّ سماحةٍ في السياسة، وأيُّ صبرٍ، وأيُّ إعذارٍ وحكمة؛ لم تكن الإمارةُ في عصر الصحابة طُغيانًا، ولا استبدادًا، ولا سيفًا مُسْلطًا على رقاب الناس، إنما كانت صلاحًا كلُّها وحِلمًا كلُّها، وعدلًا ورحمة، أو هي بالأحرى كانت إرادةَ ذلك.

(الاستعفاء من العمل)

على أن الولاة أنفسَهم لم يكونوا يقعدون ينتظرون العزل؛ فإن منهم من كان يستعفي الخليفةَ من الولاية، ويكتب بهذا إليه، ففي الخبر أنَّ النعمان بنَ مُقَرِّن كان واليًا على كَسْكَر فكتب إلى عمر: «مَثَلي ومَثَلُ كَسْكَر، كمَثَل رجلٍ شابٍّ وإلى جنبه مُومسةٌ تَلوَّنُ له وتَعطَّر؛ فأنشُدك الله لما عزلْتَني عن كَسْكَرٍ، وبعثْتَني إلى جيشٍ من جيوش المسلمين»[2].

ومن طريف الاستعفاءات، وبارع الردِّ عليها؛ ما ورد عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية: «أما بعد، فإني قد كبُرتْ سِنِّي، ودقَّ عظمي، وشَنِفَتْ[3] لي قريش، فإن رأيت أن تعزلَني فاعزلني»[4]. فكتب إليه معاوية: «جاءني كتابُك تذكر فيه أنه كبرتْ سِنُّك، فلعمري ما أكل عُمُرَك غيرُك. وتذكر أن قريشًا شنفت لك، ولعمري ما أصبت خيرًا إلا منهم. وتسألني أن أعزلك، فقد فعلت؛ فإن تك صادقًا فقد شَفَّعتُك، وإن تك مخادعًا فقد خدعتُك»[5].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٣٦.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٦.
(٣) شنِفَ له إذا أبغضَه «لسان العرب: شنف».
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣١.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣١.

(ملاينة وجوه القوم)

ومن هذه السياسة الحكيمةِ في استرضاء الرعيَّة أنهم قد يُكاتِبون ذوي الهيئات من الرعيَّة، ومَنْ يُخشى بأسُهم على نظام الدولة بما يُطفئ جَمْرتَهم، ويسُلُّ سَخيمتهم، فمما يُروى أنه كانت لعبد الله بن الزبير أرضٌ قريبٌ من أرضٍ لمعاوية، فيها عَبيدٌ له من الزنوج يعمرونها، فدخلوا في أرض عبد الله، فكتب إلى معاوية: «أما بعد، فإنه يا معاوية إن لم تمنع عبيدَك من أرضي، وإلا كان لي ولك شأن». فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد، فلما قرأه قال له: ما ترى؟ قال: أرى أن تُنفذ إليه جيشًا أولُه عنده وآخره عندك، يأتوك برأسه. قال: يا بُنيَّ عندي خيرٌ من ذلك؛ عليَّ بداوة وقرطاس، وكتب: «وقفتُ على كتابك يا ابن حَوَاريِّ رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وساءني والله ما ساءك، والدنيا هَيِّنةٌ عندي في جنب رضاك، وقد كتبتُ على نفسي رقمًا بالأرض والعَبيد، وأشهدتُ عليَّ فيه، ولتضفْ الأرضَ إلى أرضك، والعبيدَ إلى عبيدك، والسلام». فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه: «وقفتُ على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه؛ فلا عُدِمَ الرأيُ الذي أحلَّه من قريش هذا المحلّ، والسلام». فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله رماه إلى ابنه يزيد، فلما قرأه أسفر وجهُه. فقال: يا بُنيَّ إذا رُميت بهذا الداء داوه بهذا الدواء[1].

فلعل معاوية ورِث سياسة الحِلم هذه عن عثمان رَضِّيَاللَّهُعَنْهُ، تلك السياسةُ التي نَسَأَتْ لمعاوية في سلطانه، وأرضَتْ عنه رَهْطًا من كبار رجالات القوم وذوي الـمُنَّة فيهم.

(متابعة أحوال الرعية)

ومما يُحمَدُ للخلفاء في عصر الصحابة أنهم كانوا على صلة لا تنقطع برعيتهم، ليقِفوا على جلية الأمر مما يحدُث أو يَجِدُّ في ولايتهم، وكان عُمّالُهم يكتبون إليهم بكل شيء خطيرٍ يَمَسُّ الدولة أو ينالُ من هيبتها؛ فمما يروى أن معاذًا كتب إلى عُمر بن الخطاب يُخبرُه

(١) ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي، أبي بكر بن علي بن محمد، ص٢٠٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٦هـ.

بوفاة أبي عبيدة واليهم على الشام ويُعزِّيه فيه[١]، ثم كتب إليه عمرو بن العاص بوفاة معاذٍ نفسِه بعد أيَّامٍ؛ ليرى رأيَه[٢]. وكتب معاويةُ إلى عثمان يُحذِّره فتنةَ قومٍ وخطرَهم على بُنيان الدولة، ويطلب إليه إشخاصَهم من بلدته[٣].

وفي مثل هذا الكتاب استباقٌ من العمَّال للفتن، واعتراضٌ للمخالفين، وصدٌّ لشبهاتهم قبل أن تفشو. وهو نوعٌ من سياسة الوقاية قبل استفحال الأمر.

وعلى نقيض كتاب معاوية كتابٌ إلى عليٍّ من قيس بن سعد ـ وكان قيسٌ داهيةً من دواهي العرب ـ ليُطْلعه على أخبار قومٍ معتزلين لم يبايعوا، من أهل خِرْبِتا بمصر، سألوه أن يكفَّ عنهم حتى يستقيم أمرُ الناس فيروا رأيَهم، فكتب إليه قيسٌ بأنَّ الرأي في الكفِّ عنهم وأن لا يتعجَّلَ حربهم، عسى الله تعالى أن يأتي بهم[٤].

(الكتابة إلى عموم الأمّة)

وكان من سياستهم أن يبعثوا بالكتب إلى عموم الأمة، فقد كتب عُمر إلى الأمة ينهاها عن تعيير قومٍ حُدُّوا بشُرب الخمر[٥]، وكَتَب عثمان إلى عامَّة الرعيَّة ليحذِّرها من الابتداع[٦]. وأمثال هذين الكتابين جزءٌ أخلاقيٌّ أصيلٌ في نظرة الصحابة إلى السياسة والحكم، وأنه يجب على الخليفة رعاية مصالح الناس في دينهم، مثلما يرعى لهم المصالحَ في الدنيا.

---

(١) انظر: فتوح الشام، للأزديّ، ص٢٧٣.

(٢) انظر: فتوح الشام، للأزديّ، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٨٤.

(٤) انظر: كتاب الأموال، لابن زنجويه، أبي أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة الخُراساني، النسائي، الأزدي ١/ ٢٧٩، تحقيق الدكتور شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط/ ١٤٠٦هـ.

(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك ١/ ٩٧.

(٦) مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٢٩.

(معاملة أهل الذمّة)

ومن فروع السياسة في عهود الصحابة منهجُ معاملة أهل الذِّمَّة المقيمين بأرض المسلمين. وبين أيدينا كتابان لعمر إلى أهل رُعاشٍ النجرانيين: قومٍ من النصارى أسلموا ثم ارتدُّوا إلى النصرانية، فدعاهم إلى التوبة والرجوع إلى الإسلام مرةً أخرى، وإلّا أخرجَهم، فإنه لا يكون في جزيرة العرب إلا مسلم، وذلك كان أساسًا ثابتًا في سياستهم، فكتب إليهم عُمر: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عُمر أمير المؤمنين إلى أهل رُعاشٍ كلِّهم؛ فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنكم زعمتم أنكم مسلمون، ثم ارتددتم بعد. وإنه من يتب منكم ويُصلح لا يضرُّه ارتدادُه، ونُصاحبه صُحبةً حسنة. فاذكروا ولا تهلكوا، وليُبشِرْ من أسلم منكم. فمن أبى إلا النصرانية فإن ذمتي بريئة ممن وجدناه عشرًا تبقى من شهر الصوم من النصارى بنجران»[1].

فلما أبَوْا إلا النصرانية أجلاهم، وكتب إليهم كتابًا يضمن لهم أمانَهم إلى حين الجلاء، إنفاذًا لسياسة الدولة الإسلامية في حماية من يعيش في أرضها حتى يخرج، وكتب لهم: «مَنْ سار منهم آمِنٌ بأمان الله، لا يضرُّه أحدٌ من المسلمين؛ وفاءً لهم بما كتب لهم محمد النبيُّ وأبو بكر. أما بعد، فمَنْ مرُّوا به من أمراء الشام والعراق، فليوسعهم من حرْث الأرض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقةً لوجه الله، وعُقْبةً لهم مكان أرضهم، لا سبيل لأحدٍ عليهم ولا مغرم.

أما بعدُ، فمن حضرهم من رجلٍ مسلم، فلينصرْهم على مَنْ ظلمهم؛ فإنهم أقوامٌ لهم الذِّمَّة، وجِزْيتُهم عنهم متروكةٌ أربعةً وعشرين شهرًا، من بعد أن يقدموا .. غير مظلومين، ولا معتدًى عليهم»[2].

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٩٢.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٢٣.

فبمثل هذه التدابير كان الخلفاء من الصحابة يُديرون الدولة من داخلها، على هذا النحو الذي نتلوه في كتبهم السياسية، على أنه يجدر بمن أراد أن يدرس نظام الدولة السياسيّ في عهد الصحابة أن لا يقتصر على الرسائل والكتب وحدها، ولا على الخُطَب وحدها، بل يلزمه الإحاطةُ بكل هذا التراث العربي القديم في أدبه وتاريخه وأصوله وفقهه وأنسابه وهلُمَّ جرًّا. ونحن إنما نتتبَّع هنا الآثارَ السياسية في كتب الصحابة فحسب، وهي لا تضمن تصويرًا كاملًا لنظرية الصحابة السياسية في ذلك الوقت بحال.

(ب) كُتُبُ السياسة الخارجيّة:

لقد وقعتْ لنا بعضُ الكتب التي تصوِّر جانبًا من السياسة الخارجية للدولة التي كان يحكمها ويقوم على أمرها الصحابة، من ذلك أن عمر بن الخطاب بَلَغَه هجرةُ قَبيلٍ من قبائل العرب الشآمية إلى الروم، ليكونوا تحت سُلطان مَلكهم؛ فكتب إليه عُمر كتابًا متضمنًا إحدى قواعد الدبلوماسية الحديثة الكبرى المسمَّاة (المعاملة بالمثل)، قال فيه: «إنه بلغني أن حيًّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارَك، فوالله لتُخْرِجَنَّه أو لننبذنَّ إلى النصارى، ثم لَنخرجنَّهم إليك». فأخرجهم ملك الروم[1].

وبذلك يستعمل الخليفةُ وسيلةً ناجعةً من وسائل الضغط أو المساومة؛ نفاحًا عن هيبة الدولة، وحراسةً لحُدودِها وحُرُماتها.

ولعل مما يُكمِّل فَهْمَنا لسياستهم خارجَ جزيرة العرب، أن الوليد بن عُقبة واليَ عُمر على عرب الشام أجبرهم على الإسلام، فأَبَوْا إلا مَنْ كان صالحَ عليه، فكتب فيهم إلى عُمر، فأجابه عمر: « إنما ذلك لجزيرة العرب، لا يُقبل منهم فيها إلا الإسلام؛ فدعْهم على أن لا يُنصِّروا وليدًا، واقبلْ منهم إذا أسلموا»[2].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥.

فالمعنى أنَّ إخراج النصارى كان منحصرًا في جزيرة العرب فحسبُ مثلما تبيَّن، وقد فعله عمرُ امتثالًا لأمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإخراج المشركين من جزيرة العرب[1]، أما فيما سوى تلك البُقعة فإنهم كانوا طائفةً من أبناء الدولة، ترى واجبًا عليها حقَّ رعايتهم وحمايتِهم والنظرِ في شؤونهم.

غير أن سياسةَ عمر مع الدول لم تكن شِدَّةً كلُّها، ولا حَزْمًا كلُّها، بل إنَّه قد كانت فيها ملاينةٌ وموادَعةٌ ورسائل تَنِمُّ عن مراعاة حُسْنِ الجوار وكفِّ الأذى، ومن جميل ما يُروى في ذلك كُتُبٌ متداولةٌ بين عُمر وملك الروم، فقد جاء عند الطبري أنَّ ملك الروم ترك الغزو، وكاتبَ عُمر وقاربَه، وسأله عن كلمةٍ يجتمعُ فيها العِلْمُ كلُّه، فكتب إليه عُمر: «أحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لها، تجتمعْ لك الحكمةُ كلُّها. واعتبر الناس بما يليك، تجمتع لك المعرفةُ كلُّها»[2].

وكَتَبَ إليه ملك الروم ـ وبعث إليه بقارورة: أنْ املأ لي هذه القارورة من كلِّ شيء، فملأها ماءً، وكتب إليه: «إنَّ هذا كلُّ شيء من الدنيا»[3].

وكتب إليه: ما بين الحق والباطل؟ فكتب إليه: «أربعُ أصابعَ الحقُّ، فيما يُرى عِيانًا، والباطل كثيرًا يُستمع به فيما لم يُعايَن»[4].

وكتب إليه يسأله عمَّا بين السماء والأرض، وبين المشرق والمغرب، فكتب إليه: «مسيرة خمسمائة عام للمسافر؛ لو كان طريقًا مبسوطًا»[5].

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٢/ ١١٥٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٩.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٦٠.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٦٠.

ومن هذه السياسة الخارجية كتابُ عَمرو بن العاص إلى أرطبون داهية الروم يوقعُ بينه وبين أصحابه، وقد علم أنه أعدَّ لقتاله جُنْدًا عظيمًا، وكان أرطبون قد كتب إليه يُطريه ويستميلُه ويقول له: إنك صديقي ونَظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتتح من فِلَسْطينَ شيئًا بعد أجنادين، فارجع ولا تغترَّ فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة. فلم يأبَهْ عمرٌو لكلامه ـ وكان عمرٌو داهيةً من الدواهي، وكان عُمر بن الخطاب يقول إذْ بلغه مَكْرُ أرطبون وجمْعُه: رمَيْنا أرطبون الروم بأرطبون العرب ـ فأجابه عمرٌو: «جاءني كتابُك، وأنت نظيري ومِثْلي في قومك لو أخطأتْكَ خِصْلة، تجاهلتَ فضيلتي، وقد علمتَ أني صاحبُ فتح هذه البلاد، وأستعْدي عليك فلانًا وفلانًا وفلانًا ـ لوزرائه ـ فأقرئهم كتابي، ولْينظروا فيما بيني وبينه»[1].

ولدينا كتابٌ عزيزٌ لمعاوية لمَّا بلغه أنَّ صاحبَ الروم يستعدُّ لغزو الشَّام في أيام صِفِّين، مستغِلًّا ما وقع بين المسلمين من الفتنة، فكتب إليه يهدِّده ويتوعَّده: «تالله لئن تمَّمْتَ على ما بلغني من عزْمِك لأصالحَنَّ صاحبي، ولأكونَنَّ مُقدِّمته إليك، فلأجعلنَّ القسطنطينية البَخْراء حُمَمَةً سوداء، ولأنتزعنَّك من المُلك انتزاع الإصطفلينة، ولأردنَّك إرِّيسا من الأرارسة ترعى الدَّوابل»[2].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦٠٦، وقد روى الطبريُّ في هذا الموضع أن عمرو بن العاص لما أقام بأجنادين، ظلَّ لا يقدر لأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل، فوليَ أمْرَه بنفسه، فدخل عليه كأنه رسولٌ، فأبلغه ما يريد، وسمع كلامه، وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد. وقال أرطبون في نفسه: والله إن هذا لعمرو، أو إنه للذي يأخذ عمرٌو برأيه، وما كنتُ لأصيب القوم بأمرٍ أعظمَ عليهم من قتله. ثم دعا حَرَسيًّا فسارَّه بقتله، فقال: اخرج فقم مكان كذا وكذا، فإذا مر بك فاقتله. وفطِن له عمرٌو فقال: قد سمعتَ مني وسمعتُ منك، فأما ما قلتَه فقد وقع مني موقعًا، وأنا واحد من عشرةٍ بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه، ويُشهدنا أموره؛ فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضتَ مثلَ الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتَهم إلى مأمنهم، وكنتَ على رأس أمرك. فقال نعم. ودعا رجلاً فسارَّه، وقال: اذهب إلى فلان فرده إلي. فرجع إليه الرجل وقال لعمرو: انطلق فجئ بأصحابك. فخرج عمرٌو ورأى ألا يعود لمثلها، وعلم الرومي بأنه قد خدعه، فقال: خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق! فبلغت عُمرَ، فقال: غلبه عمرو، لله عمرو!

(٢) غريب الحديث، للخطَّابي ٢/ ٥٣٥. والحُمَمَة: مفرد الحُمم، وهو الفحم. والإصطفلينة: الجَزَرَةُ بلغة أهل الشام «لسان العرب: اصطفل». والإرِّيس: الفلَّاح «لسان العرب: أرس». والدَّوَابل: جمع دَوْبَل، وهو ولد الخنزير والحمار، وإنما خَصَّ الصِّغَار لأن راعيها أوضعُ من راعي الكبار «لسان العرب: دبل».

[٣] كُتُبُ الجِهَاد

(أ) كُتُبُ الرِّدَّة:

تُعَدُّ حروبُ الرِّدَّة بابَ الجهاد الذي فتحه الصحابةُ بعد وفاة النبي ﷺ، وتُعَدُّ على سبيل الحصر مَنقبةَ أبي بكرٍ الكبرى في خلافته؛ إذ بدا فيها صلبًا حديدَ الفؤادِ قويًّا لا يَلين، كما بدا مِقدامًا شجاعًا يعرف بُغيته فلا يتوانى عنها، وقد أتمَّ الله له ما أرادَ فنصره نصرًا مؤزَّرًا، ونصر به الإسلام والمسلمين. وكان عملُه الفتحَ الثانيَ بعد الفتح الأول، والإيذانَ بأن المسلمين ـ وقد دان لهم الناس بجزيرة العرب- خارجون منها لينشروا دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الأرض.

وأدلُّ هذه الكتب على طريقة أبي بكرٍ في قتال المرتدِّين كتابان: كتابٌ هو عهدٌ عهِد به إلى أمراء الأجناد، وكتابٌ بعَثَه إلى الناس في الأمان: مَنْ أَسْلَمَ منهم ومَن لم يُسلم. والكتابان من نُسخةٍ واحدةٌ غُيِّرت فيها الأسماءُ فحسب.

أمّا كتابُه الذي عهِد به إلى أمراء الأجناد فقد أمرهم فيه بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يَجِدُّوا في أمر الله تعالى والجهادِ في سبيله، وأن يعذِروا إلى الناس فيدعوهم إلى الإسلامِ، فإن أجابوا وإلّا قاتلوهم، وليس لهم في ذِمَّة الناس من شيءٍ إلا ما يُعلنون. أمّا السرائر فالله عزَّ وجلَّ المتولِّيها، وأمرهم أن يستوصوا بالمسلمين خيرًا، وأن لا يُدخلوا فيهم مَنْ ليسوا يعرفونه، وصورتُه: «هذا عهدٌ من أبي بكرٍ خليفةِ رسول الله ﷺ لفلانٍ حين بعثَه فيمن بعثه لقتال مَنْ رجع عن الإسلام: وعهِد إليه أن يتقيَ الله ما استطاع في أمره كلِّه، سرِّه وعلانيته، وأمره بالجِدِّ في أمر الله، ومجاهدة من تولَّى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانيِّ الشيطان بعد أن يُعذِر إليهم، فيدعوهم بداعية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يُجيبوه شَنَّ غارته عليهم حتى يُقرُّوا له، ثم يُنبِّئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم، لا يُنْظِرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر الله عَزَّوَجَلَّ

وأقرَّ له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتَل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعدُ فيما استسرَّ به، ومن لم يُجب داعية الله قُتل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مُراغَمه، لا يُقبل من أحدٍ شيئًا أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقرَّ قَبل منه وعَلَّمه، ومن أبى قاتله؛ فإن أظهره الله عليه قَتل منهم كل قِتْلةٍ بالسلاح والنيران، ثم قسَم ما أفاء الله عليه إلا الخمس؛ فإنه يُبلِّغُناه. وأن يمنع أصحابه العجلةَ والفساد، وألا يُدخِل فيهم حَشْوًا حتى يعرفَهم ويعلم ما هم؛ لا يكونوا عيونًا، ولئلا يُؤتَى المسلمون من قِبَلهم، وأن يقتصد بالمسلمين، ويرفُق بهم في السَّير والمنزل، ويتفقدهم، ولا يُعجِل بعضَهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حُسن الصحبة ولِين القول»[١].

فلما حميَ وطيس تلك الحرب لم يكتفِ أبو بكر بهذا العهد في الإعذار إلى الناس، بل كتب بنفسه كُتُبًا إلى القبائل، مَنْ أقام منهم على إسلامه أو رجع عنه. وفي نسختها دعوةٌ إلى الإسلام من أبي بكرٍ بالحكمة والموعظةِ الحَسَنة، كقول أبي بكر: «ألا إنني أوصيكم بتقوى الله، وأدعوكم إلى ما جاء به نبيُّكم محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد علمتم أنه مَنْ لم يؤمن بالله فهو ضالّ، ومَنْ لم يؤمِّنه الله فهو خائف، ومَنْ لم يحفظه الله فهو ضائع، ولم يصدِّقه فهو كاذب، ومَنْ لم يُسعده فهو شقيّ، ومَنْ لم يرزقه فهو محروم، ولم ينصره فهو مخذول. ألا فاهتدوا بهُدى الله ربكم، وبما جاء به نبيُّكم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه مَن يهدِ اللهُ فهو المهتدِ، ومَنْ يُضلل فلن تجد له وليًّا مُرشدًا»[٢].

والكتاب الآخرُ كتابٌ عامٌّ من أبي بكرٍ إلى كل قومٍ بَعَثَ فيهم بأميرٍ من جُنده، وهو كتابٌ طويلٌ عظيمٌ فيه بيانُ رسالة النبي وأن الله بعثه بالحق، «فهدى اللهُ بالحق مَنْ أجابَ

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢) الردّة، للواقدي، ص٧١، ومجموعة الوثائق السياسية، ص٣٤٧.

إليه، وضرب رسولُ الله بإذنه مَنْ أعرض عنه، حتى صار الإسلامُ طوعًا وكرهًا». ثم توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد قضى ما عليه، وقد أخبر الله بوفاته في كتابه في غير آية، «فمَنْ كان إنما يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَنْ كان إنما يعبد الله وحدَه لا شريك له، فإن الله له بالمرصاد، حيٌّ قيُّومٌ لا يموت...»، ثم أوصاهم بتقوى الله وأن يعتصموا بدينه، وذكَّرهم بالله ودعاهم إليه دعوةً حسنة، ثم وَصَمَ المرتدين بالاغترار والجهل، وأنهم قد استحوذ عليهم الشيطان، ثم حذَّرهم أنه قد ابتعث فلانًا في جيشٍ من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، قال: «وأمرتُه أن لا يُقاتل أحدًا حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرَّ وكفَّ وعمل صالحًا قَبِل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرتُ أن يقاتله على ذلك؛ ثم لا يُبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يُحرِّقَهم بالنار، ويُقتِّلَهم كلَّ قتلة، وأن يسبيَ النساء والذراريَّ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام؛ فمن اتَّبعه فهو خيرٌ له، ومن تركه فلن يُعجز الله. وقد أمرتُ رسولي أن يقرأ كتابي في كل مَجمع لكم؛ والداعيةُ الأذان؛ فإذا أذَّن المسلمون فأذَّنوا كُفُّوا عنهم؛ وإن لم يُؤذِّنوا عاجلوهم؛ وإن أذَّنوا اسألوهم ما عليهم؛ فإن أبَوْا عاجلوهم، وإن أقرُّوا قُبِل منهم؛ وحَمَلَهم على ما ينبغي لهم»[1].

ومما هو قَمِنٌ أن يُشار إليه من معاني أبي بكرٍ الحربيَّة في الكتب، وصاياه الحربيَّةُ إلى أمراء جنده، وهي وصايا تأتي في ثنايا بعض كتبه، كتلك التي وردت في نُسخة عهده المارِّ منذ قليلٍ إلى قادته، وأمرهم أن لا يُدخِلَ أحدُهم في المسلمين حَشْوًا حتى يعرفَهم ويعلمَ ما هم، خيفة أن يكونوا عيونًا، ولئلا يؤتَى المسلمون مِنْ قِبَلهم[2].

ولكنَّ خيرَ نصائحه في الحرب، وأجملَ وصيةٍ له بالجنود؛ ما ورد في كتابه إلى خالدٍ في شأن مسيلمةَ كاذب بني حنيفة، إذ قال فيه: «وعهدي إليكَ يا خالد أن تتقيَ الله وحدَه لا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٥٠-٢٥١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٥١-٢٥٢.

شريكَ له، وعليك بالرفق والتأنّي. وسِرْ نحو بني حنيفة مسيلمة الكذّاب، واعلم بأنك لم تلقَ قومًا قطُّ يُشبهون بني حنيفةَ في البأس والشِّدَّة، فإذا قدِمْتَ عليهم، فلا تبدأهم بقتال حتى تدعوَهم إلى داعية الإسلام... فإذا عَزَمْتَ على الحرب، فباشرها بنفسك، ولا تتّكل على غيرك، وصُفَّ صفوفَك، وأحكمْ تعبيتك، واحزم على أمرك، واجعل على ميمنتك رجلًا ترضاه، وعلى ميسرتك مثلَه، واجعل على خيلك رجلًا عالـمًا صابرًا، واستشر مَنْ معك من أكابر أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن الله تبارك وتعالى مُوفِّقك بمشورتهم. واعرف للمهاجرين والأنصار حقَّهم وفضلهم. ولا تكسَل، ولا تفشل، وأعدَّ السيف للسيف، والرُّمح للرُّمح، والسهم للسهم، واستوصِ بمن معك من المسلمين خيرًا، ولَيِّن الكلام، وأحسِنْ الصحبة، واحفظ وصيةَ نبيك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأنصار خاصة، وأن تُحسن إلى محسنهم، وتتجاوز عن مُسيئهم، وقلْ: لا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

تلك وصايا عامَّةٌ توجَّهَ بها أبو بكرٍ إلى رجلٍ خبيرٍ بالحرب، لا يحتاج إلى تفصيل الوصيَّة، ولكنَّها هي عُمَدٌ من الكلام تصلح لكل مجاهد قائمٍ بأمر غيره من المسلمين.

حتى إذا أرسل الصدِّيقُ جُندَه لقتال المرتدَّة لم يتركهم هَمَلًا، بل عضَّدهم وقوَّاهم بالكتاب إلى ولاته أن يحشدوا الناس لنَصْر إخوانهم وعونِهم في حربهم، فتارةً يكتب إلى عتَّاب بن أَسِيد عامل مكة ليضرب على أهلها خمسَمئة مُقوٍ، ويبعث عليهم رجلًا يأمنه، تربُّصًا لأمر أبي بكر[2]؛ وتارةً يكتب إلى أقيالٍ من اليمن كي يُعينوا الأبناءَ على مَنْ بغى عليهم من المرتدّين: «من أبي بكرٍ خليفةِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عُمير بن أفلح ذي مُرَّان، وسعيد بن العاقب ذي زُود؛ وسَمَيْفع بن ناكور ذي الكَلاع، وحَوْشَب ذي ظُليم، وشهرٍ ذي يناف. أمَّا بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحُوطوهم، واسمعوا من فيروز وجِدُّوا معه فإني قد ولَّيته»[3].

(١) كتاب الردّة، المنسوب للواقدي، ص١١٢-١١٣.
(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٢٢.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٢٣.

ولما اجتمعت كِنْدةُ على زياد بن لبيد فحصروه بحضرموت بمدينة يَريم، كتب أبو بكرٍ إلى عكرمة أمير مكة: «فإذا قرأت كتابي هذا فَسِرْ إلى زياد بن لبيد في جميع أصحابك ومَنْ أجابكَ من أهل مكة، واسمعْ له وأطعْ؛ فإنه الأمير عليك، وانظر: لا تمرَّنَّ بحيٍّ من أحياء العرب إلا استنهضتَهم فأخرجتَهم معك إلى محاربة الأشعث بن قيسٍ وأصحابِه، إن شاء الله، والسلام»(١).

وربما يكتب أبو بكر إلى بعض رؤوس المرتدَّة يُلاينه ويحايله إذا لم يجد بُدًّا من مكاتبته؛ حقنًا منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لدماء المسلمين المحاصَرين، كما فعل في كتابه إلى الأشعث بن قيس وقد أشرف زيادُ بن لبيد وأصحابُه على الهلَكة: «... وإن كان إنما حَمَلكم عن الرجوع عن دين الإسلام ومَنْعِ الزكاة ما فعله بكم عاملي زيادُ بن لبيد؛ فإني أعزله عنكم وأولِّي عليكم مَنْ تُحبُّون، وقد أمرتُ صاحب كتابي هذا إن قبلتم الحق أن يأمر زيادًا بالانصراف عنكم، فارجعوا إلى الحق، وتوبوا من قريب، وفَّقنا الله وإياكم لكل ما كان فيه رضًا، والسلام»(٢).

لكن قام رجلٌ من القوم فقتل الرسول بالكتاب، فبلغ ذلك أبا بكرٍ، فكتب إلى عكرمة الكتابَ الذي قبله.

وقد عُرفتْ من سيرة أبي بكرٍ الشدَّةُ في أمر المرتدَّة، نلمسُ هذا في كتابه إلى المهاجر بن أبي أمية يأمره بقتل المقاتلةِ من كِنْدة وسبي ذراريِّهم، هذا إن هم ظفروا بهم، أما إذا كان صُلحٌ فعلى أن يُخرَجوا من منازلهم، قال أبو بكر: «فإني أكره أن أُقرَّ أقوامًا فعلوا فعلَهم في منازلهم؛ ليعلموا أنْ قد أساؤوا، وليذوقوا وبالَ بعض الذي أَتَوْا»(٣).

---

(١) كتاب الردّة، للواقدي، ص١٩٨.

(٢) كتاب الردّة، للواقدي، ص١٩١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٣٧.

ويبلغه كتاب الطاهر بن أبي هالة مخبرًا بانتفاض عَكٍّ والأشعريين بتِهامة، وبأنهم قد تجمَّع منهم طخاريرُ[1] لـمَّا بلغهم موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم تأشَّب[2] إليهم أوزاعٌ على غير رئيس، فكتب إليه أبو بكرٍ يجيبه: «بلغني كتابُك تُخبرني فيه مسيرَك واستنفارَك مسروقًا وقومه إلى الأخابث بالأعلاب، فقد أصبت، فعاجلوا هذا الضرب، ولا تُرَفِّهوا عنهم، وأقيموا بالأعلاب حتى يأمنَ طريق الأخابث ويأتيَكم أمري»[3].

وأقبلت بنو عامرٍ بعد هزيمة أهل بُزاخة على يَدَيْ خالدٍ يقولون: ندخل فيما خرجنا منه؛ فبايعهم على ما بايع عليه أهلُ البزاخة من أسدٍ وغَطَفان وطيّئ قبلهم، وأعطوه بأيديهم على الإسلام، ولم يقبل من أحدٍ من أسد ولا غطفان ولا هوازن ولا سُليم ولا طيّئ إلا أن يأتوه بالذين حرَّقوا ومثَّلوا وعَدَوْا على أهل الإسلام في حال ردتهم. فأتوه بهم، فقبل منهم إلا قُرَّة بن هبيرة ونفرًا معه أوثقهم، ومَثَّل بالذين عَدَوْا على الإسلام؛ فأحرقهم بالنيران، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار، وخزق بالنبال. وبعث بقُرَّة وبالأُسارى، وكتب إلى أبي بكر: «إن بني عامر أقبلت بعد إعراض، ودخلت في الإسلام بعد تربُّص؛ وإني لم أَقبل من أحدٍ قاتلني أو سالمني شيئًا حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين؛ فقتَّلتُهم كلَّ قِتلة، وبعثتُ إليك بقُرَّة وأصحابه»[4].

فكتب إليه أبو بكر: «لِيَزِدْكَ ما أنعم الله به عليك خيرًا، واتقِ الله في أمرك؛ فإن الله مع الذين اتقَوْا والذين هم محسنون، جِدَّ في أمر الله ولا تَنِيَنّ، ولا تظفرنَّ بأحدٍ قَتَل المسلمين إلا قتلتَه، ونكَّلت به غيره؛ ومن أحببتَ ممن حادَّ الله أو ضادَّه؛ ممن ترى أن في ذلك صلاحًا فاقتله»[5].

---

(١) الطخارير: قِطَعٌ من السحاب مستدِقَّةٌ رِقاق، أي: تجمَّع إليه أُشابةٌ من الناس متفرقون «لسان العرب: طخر».
(٢) الأشابة: الأخلاطُ من الناس «لسان العرب: أشب».
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٢٠.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٦٢-٢٦٣.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٦٣.

وكان قادة جيوش أبي بكر يكتبون إليه بكل شيء، يكتبون إليه يخبرونه بمَنْ أسلم بعد الردَّة وبخبر الوقعات[1]، أو يكتبون إليه بالنصر وهزيمة الأعداء المرتدِّين ويفصِّلون المقالةَ فيه[2]، أو يكتب إليه بعضُهم يذكر صلحه مع المرتدين وماذا صالحهم عليه[3]، بل إنهم كانوا يكتبون إليه بغرائب المشاهد التي يمرُّون بها في رحلتِهم إلى جهاد هؤلاء، ككتاب العلاء بن الحضرميِّ[4] إليه: «أمَّا بعد، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فجَّر لنا الدَّهناء فَيْضًا لا تُرى غواربُه، وأرانا آيةً وعِبْرةً بعد غمٍّ وكَرْب، لنحمدَ الله ونُمجِّدَه؛ فادعُ الله واستنصرْه لجنوده وأعوان دينه»[5].

وإنَّ من شِدَّة أبي بكرٍ الحميدة، وحزمِه في تلك الأيَّام العصيبة، أنه كان لا يُحابي أحدًا من أُمرائه مهما طال حُسْنُ بلائه إذا هو عصى أو خالَف؛ فتراه يلومه ويُعنِّفه ويُعاقبه. من ذلك أنه ابتعث عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة باليمامة، وأَتْبَعَه شُرَحْبِيلَ ابن حَسَنَة، وسمَّى لهما اليمامة، وأمرهما بالاجتماع والمشاورة، فما كان من عكرمة إلا أن بادر شُرَحْبيلَ، وأراد حُظْوةَ الظَّفَر، فنكَبَه مسيلمة، فأحجم عن مسيلمة، ثم كتب إلى أبي بكرٍ بالخبر، فكتب إليه أبو بكر يعنِّفه لتسرُّعه وعصيانه: «لا أُرينَّك ولا أسمعنَّ بك إلا بعد بلاء، والحقْ بعُمان حتى تُقاتل أهل عمان، وتُعِينَ حُذيفة وعَرْفَجَة، وكلُّ واحدٍ منكم على خيله. وحذيفةُ ما دمتم في عمله على الناس. فإذا فرغتم فامضِ إلى مَهَرة، ثم لْيكن وجهُك منها إلى اليمن؛ حتى تلاقيَ المهاجر بن أبي أمية باليمن وبحضرموت، وأوطئْ مَنْ بين عُمان واليمن ممن ارتدّ؛ ولْيبلُغني بلاؤك»[6].

---

(١) انظر: كتاب خالدٍ إليه في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٦٣.

(٢) انظر: كتاب العلاء بن الحضرمي إليه في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣١٣.

(٣) انظر: كتاب خالد إليه في شأن الصلح مع بني حنيفة في: الردّة، للواقدي، ص١٤١.

(٤) هو العلاء بن الحضرمي، وكان اسمه عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة الحضرمي. استعمله النبي ﷺ على البحرين وأقره أبو بكر ثم عمر. مات سنة أربع عشرة وقيل سنة إحدى وعشرين. كان يقال: إنه مجاب الدعوة وخاض البحر بكلمات قالها وذلك مشهور في كتب الفتوح، انظر: الإصابة ٤/ ٥٤١.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣١٣.

(٦) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣١٥.

ولما فَتَحَ خالدٌ اليمامة وصالحَ أهلَها بَنَى بابنةِ مُجّاعة بن مرارة بعد أن خطبها من أبيها، ودخل بها هنالك، فكتب حسّان بن ثابتٍ إلى أبي بكر أبياتًا يُنكر فيها صَنيع خالدٍ، ويتحسَّر على فعلته، منها:

ألا أبلغ الصدِّيقَ قولاً كأنَّه ... إذا بُثَّ بين المسلمين المَبارِدُ
أترضى بأنَّا لا تجفُّ دماؤنا ... وهذا عروسٌ باليمامة خالدُ؟!
يَبيت يناغي عِرْسَه في فراشه ... وهامٌ لنا مطروحةٌ وسواعدُ[1]

فلما وردت الأبياتُ على أبي بكر غضب، وكثُرتْ القالةُ في خالدٍ بالمدينة، فكتب إليه أبو بكر كتابًا يلومُه ويُعنِّفُه، أو كما قال الراوي: كتابًا يقطِر الدَّم، يقول له فيه: «لَعَمري يا ابن أمِّ خالد، إنك لفارغٌ تنكح النساء، وبفناء بيتك دمُ ألفٍ ومئتى رجلٍ من المسلمين لم يجفِفْ بعد»[2].

فكتب إليه خالدٌ يعتذر عن نفسه، ويحاججُ عن صنيعه: «أما بعد، فلَعمري ما تزوجتُ النساء حتى تمَّ لي السرور، وقرَّتْ بي الدار، وما تزوجتُ إلا إلى امرئٍ لو أعملتُ إليه من المدينة خاطبًا لم أُبَلْ، دَعْ أني استشرتُ خطبتي إليه من تحت قدميّ، فإن كنتَ كرهت لي ذلك لدينٍ أو دنيا أعتبتُك. وأما حُسْن عزائي على قتلى المسلمين، فوالله لو كان الحُزن يُبقي حيًّا أو يرد ميتًا لأبقى حُزني الحيَّ وردَّ الميت، ولقد أقحمتُ في طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت، وأما خُدعة مُجّاعة إياي عن رأيي فإني لم أَخُطَّ رأيَ يومي، ولم يكن لي علمٌ بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيرًا؛ أورثهم الأرض، وجعل لهم عاقبة المتقين». فلما قدم الكتاب على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رقَّ له بعضَ الرِّقَّة[3].

---

(١) انظر: كتاب الرّدة، للواقدي، ص١٤٤-١٤٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٠٠.

(٣) الاكتفا، للكَلاعيّ أبي الربيع سليمان بن موسى الأندلسي ٣/ ٦٩، تحقيق الدكتور محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت ١٤١٧هـ.

على أنَّ أبا بكرٍ كان معجبًا شديدَ الإعجاب بخالدٍ وإن كره منه بعضَ ما أتى من أمر، وكان خالدٌ قد طارت في الأُفْق انتصاراتُه، فمن ذلك أن خالدًا قد خرج إلى الحج مَرَّةً في عِدَّةٍ من أصحابه متكتِّمًا بحَجِّه من غير أن يؤامر أبا بكر، ولم يعلم أبو بكرٍ بخبره إلا بعد، فعتب عليه في صنيعه، وعاقبه عقوبةً يسيرة، وكانت عقوبتُه إيَّاه أنْ صَرَفَه إلى الشام، ووافاه كتابُ أبي بكرٍ مُنصرَفَه من الحج إلى الحِيرة، يُعاتبه فيه، ثم يُطريه، ويُكنِّيه ويُشرِّفه ويُعليه ـ عدلًا من أبي بكرٍ، وحِكْمةً، وحُسْنَ سياسة ـ ثم يُحذِّره من العُجْب أو المنَّةِ على الله عَزَّوَجَلَّ، وفي الكتاب: «سِرْ حتى تأتيَ جموعَ المسلمين باليرموك، فإنهم قد شَجُوا وأَشْجَوْا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت؛ فإنه لم يَشْجُ الجموعَ من الناس بعون الله شَجاك، ولم ينزع الشَّجى من الناس نزعَك ؛ فليَهْنئك أبا سُليمان النيَّة والحُظْوة، فأتمم يُتمِّم اللهُ لك، ولا يَدخُلنَّك عُجْبٌ فتخسر وتُخذل، وإياك أن تُدِلَّ بعمل، فإن الله له المنّ، وهو وليُّ الجزاء»[1]، وكان هذا آخرَ أمر الرِّدَّة.

(ب) كُتُبُ الجهاد والحرب:

إذا كانت الخُطب وقودَ الجهاد وجمرتَه، فإن الكُتب كانت هي عمودَ شؤونه، والمدبِّرة لعامَّة أمره، كان ذلك خصوصًا في الوصيلة بين الخلفاء والرؤساء وجيوشهم. وقد خُطَّ في كتب الجهاد من المعاني كتلك المعاني التي سالت على ألسنةِ الخُطباء في تلك المشاهد، ومعانٍ أخرى غيرِها؛ على نحو ما يلي:

(حشد المقاتلين)

إذا كان الخُطباء من الصحابة قد شقَّقوا القول في ترغيب الناس إلى الجهاد، ودعوتهم إليه، وحشدِهم ليلجوا إلى المعركة؛ فإنا سنجد مثلَ هذا أقلَّ في كتابتهم؛ لما أنَّ الكتبَ تخاطب العقلَ أكبرَ مما تخاطب العاطفة، وذلك أنَّ الإنسان يتلقَّاها ببصره فحسب، أمَّا الخطب فإن المرءَ يسمعها، ويرى صاحبَها، ويرقُب غضبَ الخطيب أو شفقتَه أو رضاه

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٨٤-٣٨٥.

أو مَكْرَه، ويُبصر أيضًا حركاته وسكناته، وحكايةَ معانيه بيديْه ووجهه وصوتِه وهيئتِه وطريقةِ قيامه، وكلُّ هذه الخوارجِ عن المتن، متنِ الخُطبة، قد يَكُنَّ أوقعَ أثرًا في نفوس المخاطَبين من الخُطبة نفسِها؛ أما الكتابة فلا.

مع هذا لم تخْلُ كتبُ الصحابةِ من دعوة الناس إلى الجهاد في سبيل الله تعالى واستحثاثهم عليه، منها كتابُ الصدِّيق وقد عزم على تسيير خالدٍ ومَنْ معه من اليمامة إلى العراق ذاكرًا لهم شَرَفَ الجهاد وفضلَه وأجرَه، ومنزلةَ المجاهدين في الآخرة، ثم أعقب ذلك بقوله: «فثِقوا ـ عبادَ الله ـ بموعود الله، وأطيعوه فيما فَرض عليكم، وارغبوا في الجهاد رحِمكم الله وإن عظُمت فيه الـمُؤْنة، وبعُدت فيه المشقة، وفُجعتم فيه بالأموال والأنفس والأولاد. انفروا خفافًا وثقالًا، وجاهدوا بأموالكم وأنْفُسكم في سبيل الله، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون. ألا وإني قد أَمَرت ابن الوليد بالمسير إلى العراق ليلحق بالمثنى بن حارثة، فيكون له عونًا على محاربة الفرس، ولا يبرحها حتى يأتيه أمري؛ فسيروا معه رحمكم الله، ولا تتناءَوْا عن المسير؛ فإنه سبيلٌ يُعظِّم الله فيه الأجر»[1].

ومثل هذا الدعاء إلى الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ معدودٌ في أوائل الخُطى في طريق الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ. إلا أن حشد المقاتلين لم يقتصر عندهم على اللين والنصيحة فحسب، بل تعدَّاه إلى الحزم والقوَّة في الحشر، إذا ما جَدَّ بالمسلمين الجِدّ، كتب عمر بن الخطاب لما اجتمعت الفُرس على يَزْدجِرد بعد التفرُّق: «أما بعد، فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم، وتفرَّقوا في المياه التي تلي الأعاجمَ على حدود أرضكم، ولا تدَعوا في ربيعة أحدًا، ولا مُضَر ولا حلفائهم أحدًا من أهل النَّجْدات، ولا فارسًا إلا اجتلبتموه، فإن جاء طائعًا وإلا حشرتموه. احملوا العربَ على الجِدِّ إذ جَدَّ العجم؛ فتلقَوْا جِدَّهم بجِدِّكم»[2].

---

(١) الردَّة، للواقدي، ص٢١٨-٢١٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٧٨.

وفي الرواية: لما بلغ عُمرَ عن فارس أنهم ملَّكوا يَزْدَجِرْد، كان أولَ ما عمله أنْ كتب إلى عُمّال العرب على الكُوَر والقبائل: «لا تَدَعا أحدًا له سلاحٌ، أو فرسٌ، أو نَجْدةٌ، أو رأيٌ إلا انتخبتموه ثم وجِّهتموه إليّ، والعَجَلَ العَجَل»[1].

(الاستعداد بتربية الخيل)

فهذا كلُّه من قبيل الإعداد للجهاد في سبيل الله، والامتثال لما أمر به في كتابه بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠]. فلا غرو إذن ونحن نسمع عن عُمر أنه كان يُجيز على تربية الخيل، ويُكرم أصحابَها في العطاء؛ فقد كتب كتابين في زمانين مختلفين إلى رجلين من أمرائه يأمر كلَّ واحدٍ منهما بالعطاء والإحسان إلى رجلٍ اسمه أبو عبد الله الثقفي، كان يقتني الخيل بالبصرة؛ أحد الكتابين إلى عُتبة بن غزوان، وفيه: «أما بعدُ، فإن أبا عبد الله الثقفيَّ ذكر لي أنه اقتنى بالبصرة خيلًا حين لا يقتنيها أحد؛ فإذا جاءك كتابي هذا فأحسنْ جِوارَ أبي عبد الله، وأعِنْه على ما استعانك عليه»[2]؛ والآخَرُ إلى المغيرة ابن شعبة أمير البصرة، وفيه: «أما بعدُ، فإن أبا عبد الله ذكر أنه زرع بالبصرة في إمارة ابن غزوان، وافْتَلى أولاد الخيل حين لم يفتَلِها أحدٌ من أهل البصرة، وإنه نِعْمَ ما رأى، فأعِنْه على زرعه وعلى خيله؛ فإني قد أذنتُ له أن يزرع، وآتِه أرضَه التي زَرَع... ولا تَعرِضْ له إلا بخير»[3].

(تولية أمراء الجُند)

وفي تنظيم الجيش نفسِه وترتيب شؤونه كانوا يكتبون بتولية أمراء الجُند، ومَنْ يكون الأميرُ، ومَنْ يكون الأميرُ بعدَه، فقد ولَّى أبو بكر المثنَّى بن حارثةَ الشيبانيَّ حربَ العراق، ثم أرسل إليه بخالدٍ مَددًا وكتب إليه: «أما بعدُ، فإني قد بعثتُ إليك خالد بن

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٧٨-٤٧٩.
(٢) الطبقات الكبير ٩/ ٧.
(٣) فتوح البلدان، للبَلاذُري ٢/ ٤٣١.

الوليد، إلى أرض العراق، فاستقبله بمن معك مِنْ قومك، ثم ساعده ووَازِرْه وكاتفْه، ولا تعصينَّ له أمرًا، ولا تُخالفنَّ له رأيًا... فما أقام معك فهو الأمير، فإنْ شخَص عنك فأنت على ما كنتَ عليه»(١).

وكتب أبو بكرٍ كتابًا يولِّي فيه خالد بن الوليد على أبي عُبيدة ـ وكان أبو عُبيدة الأميرَ في حروب الشأم ـ هذا الكتابُ خيرُ الشواهد على طريقة أبي بكرٍ في الأخذ بالحزم حين تقتضيه المصلحة، وقد كتب فيه: «أما بعدُ، فإني قد ولَّيتُ خالدًا قتالَ الروم بالشام، فلا تُخالفْه، واسمعْ له وأطعْ أمره؛ فإني ولَّيْته عليك، وأنا أعلم أنك خيرٌ منه، ولكن ظننتُ أنَّ له فطنةً في الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد، والسلام عليكَ ورحمة الله وبركاته»(٢).

فلم يكن من أمر خالدٍ إلا أن أخفى الكتاب مُدَّةً حياءً من أبي عُبيدة، ثم لما لم يجد بُدًّا كتب إليه كتابًا يَفيض أدبًا ومحبَّةً أحسنَ فيه أيَّما إحسان، وقد تعمَّد تقديمَ اسم أبي عبيدة على اسمه في مطلع كتابه مع أنه هو الأميرُ عليه ترفُّقًا وتلطُّفًا ومودة، وما زال يدعو له، ويعتذر إليه، ويُخبره أن الإمارة لم تكن بطلبٍ منه، ولا أرادها، ولا كتب إلى الخليفة فيها، وأنَّك يا أبا عُبيدة كأنك أنت الأمير، تقول فلا تُعصى، وتأمر فلا تُخالَف، صنع كلَّ هذا تبجيلًا لمقام أبي عُبيدة، وكان أبو عُبيدة عظيمًا معظَّمًا في نفوس المسلمين. وفي الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. لأبي عُبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد. سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني أسأل الله لنا ولك الأمنَ يوم الخوف، والعصمةَ في دار الدنيا. لقد أتاني كتابُ خليفة رسول الله ﷺ يأمرني فيه بالمسير إلى الشام، وبالـمُقام على جندها، والتولِّي لأمرها، ووالله ما طلبتُ ذلك ولا

---

(١) فتوح الشام، للأزديّ، ص٦٠-٦١.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٩٢-٣٩٣.

أردتُه، ولاكتبتُ إليه فيه، وأنت ـ رحمك الله ـ على حالك التي كنت بها: لا يُعصَى في أمرك، ولا يخالَف رأيك، ولا يُقطع أمرٌ دونك؛ فأنت سيد من سادات المسلمين، لا يُنكر فضلك، ولا يُستغنى عن رأيك، تمّم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النار. والسلام عليك ورحمة الله»[1].

وبمثل هذه الكتب في تنصيب الأمراء على الحرب كان عمر بن الخطاب يكتب، ككتابه بتولية يزيد بن أبي سفيان على جُنْد الشام[2]، وكتابه إلى سعد بن أبي وقّاصٍ أن يُسرِّح إلى الأنطاق عبدَ الله ابنَ الـمُعْتَمّ، وأن يستعمل على مقدِّمته رِبْعيَّ بن الأفْكَل العَنَزيّ، وعلى مَيْمنته الحارث بن حسّان الذُّهْليّ، وعلى مَيْسرته فُرات بنَ حيَّان العِجْليّ، وعلى الخيل عَرْفَجَة بن هَرْثَمة[3]، كل ذلك وعُمر بالمدينة، وسعدٌ بفارس.

وكتب مثلَ ذلك إلى نُعيم بن مُقرِّن فأمره بتقديم سُوَيْد بن مُقرِّنٍ إلى قُومس، وأن يبعث على مقدِّمة جيشه سِماك بنَ مَخْرَمة، وعلى مُجَنِّبتيه عُتَيْبة بنَ النَّهّاس، وهندَ بنَ عمرٍو الجمليّ[4].

كما كان هؤلاء الأمراءُ أنفسُهم لا يفتُرون عن الكتابة إلى الخليفة يُعْلمونه بالموقف الحربيّ[5]؛ وبما يَجِدُّ على جيش المسلمين من جديد[6].

(١) فتوح الشام، للأزدي، ص٧١-٧٢.
(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٩١.
(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٥.
(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٥١.
(٥) انظر: مثلًا كتاب أبي عُبيدة وهو بالجابية إلى أبي بكر يُطلعه باجتماع الروم ومَنْ كان على دينهم من العرب لحرب المسلمين في: مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٨٩-٣٩٠.
(٦) انظر: مثلًا كتاب المثنَّى بن حارثة إلى أبي بكر في شأن رجل اسمه مذعور بن عَديّ، نازعه وخالفه في عددٍ يسيرٍ معه، مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٧٢.

وفي ذات الموقف يكتب أمراءُ الجيوش من الصحابة إلى أعدائهم[1]، وكان ثمَّة معنًى دائرٌ في تلك الكتب المبعوثة، هو معنى تخييرهم بين الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، ككتاب خالدٍ إلى مرازبة الفُرْس[2]: «بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى مرازبة الفُرس؛ أما بعد، فأسلموا تسلموا؛ وإلا فاعتقدوا مني الذِّمَّة، وأدُّوا الجِزية، وإلّا فقد جئتكم بقومٍ يُحِبُّون الموتَ كما تحبون شُرْبَ الخمر». قال الراوي: فلمّا قَرؤوا الكتابَ أخذوا يتعجَّبون[3].

غير أن هذا التخييرَ ليس على معنى المساواة، بل هو على معنى الترتيب، الأَوْلى فالأَوْلى، وقد فَصَل بينها الكاتبُ بإلّا للدلالة على هذا المعنى. ثم شَبَّهَ في نهاية الكتاب عزيمتَهم على القتال ومحبَّتَهم إياه إن هم لم يستجيبوا للإسلام أو الجزية، بحُبِّ الكفَّار المكتوب إليهم لشُرب الخمر، مجازًا عن مَحَبَّة الحياة بأسرها؛ وذلك أن الخمر من ألذِّ الملذَّات عند المؤْثرين للحياة الدُّنيا.

ولخالدٍ كتابٌ آخر إلى ملوكهم ذو لهجةٍ شديدةٍ قاسية، تعمَّد الشماتةَ فيها ليُخَذِّلَهم، وليَفِلَّ قوَّتهم، لم يخيرهم فيه إلا بين الدخول في أمر المسلمين أو القتال، وكأنَّ دفع الجزية يجعل المرء من المسلمين، فلا حاجة إلى ذكره دائمًا، وقد ورد في نسخته كما عند الطبري:

---

(١) يقول غوستاف لوبون: «لم تقل براعة الخلفاء الأوَّلين السياسية عن براعتهم الحربية .. وذلك أنهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذي كان يبغي عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة .. وكانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يُحجمون عن حمل أحدٍ بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف فيمن لم يُسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعُرفَها وعاداتها، مكتفين بأخذهم ـ في مقابل حمايتهم ـ جزيةً زهيدةً تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين»، حضارة العرب ص١٣٤، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

(٢) المرازبة: معرَّبٌ، جمع مَرْزُبان، وهو بلغة الفُرس: الفارس الشجاع المقدَّم على القوم دون الـمَلِك «لسان العرب: رزب».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧٠.

«من خالد ابن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد؛ فالحمد لله الذي حَلَّ نظامكم، ووهَّن كيدَكم، وفرَّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم؛ فادخلوا في أمرنا نَدَعْكم وأرضَكم، ونَجوزَكم إلى غيركم؛ وإلّا كان ذلك وأنتم كارهون، على أيدي قومٍ يحبون الموت كما تحبون الحياة»(١).

بيد أن لهذا الكتاب روايةً أخرى في (كتاب الرِّدَّة) المنسوب إلى الواقدي، مذكورةً فيها الجزية؛ وفي هذه الرواية بيَّن لهم في الخيار الأول متى يصير المرءُ منهم مسلمًا إذا أسلم، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم؛ فقال: «اعلموا أن مَنْ صلَّى صلاتَنا، وتَحرَّف إلى قبلتنا، وأكل ذبيحتَنا، وشهِد شهادتَنا، وآمَنَ بنبيِّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فنحن منه وهو مِنَّا، وهو المسلم الذي له ما لنا، وعليه ما علينا»(٢).

وانظر إلى جمال التقديم، وجميل الإحسان والأدب في قوله: «فنحن منه وهو منا»، وكان المنتظَرُ أن يقول: «فهو منا ونحن منه»، ولكنه أراد أن يُطلعَهم على رحمة الإسلام وعدله، وعِزَّةِ أهله ومَنَعتهم؛ عساهم أن يُسلموا.

(خُطة الحرب، وأصولُها) .

ثم إن من أجَلِّ ما خطه الصحابةُ بالمداد كتبَهم في خُطَّةِ الحرب ووصاياها ومكايدِها؛ ولعمر بن الخطاب في هذا النوع من الكتابة الباعُ الطويلُ؛ وذلك لتطامن الأمر في عهده، ولانتشار الفتوح في دولته، ولمعرفته بأحوال العدو وأحوال العرب في الحرب.

يُروى أنه ما إن فَصَلَ سعدٌ بجيشه حتى لحقه كتابُ عمر بن الخطاب وهو بشَرَافِ بنجد، يأمره بتقسيم الناس عُشورًا، وأن يجعل على كل عشرةٍ عريفًا، وأن يُقَدِّر عددَهم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧٠.

(٢) كتاب الرِّدَّة، ص٢٢٥.

على مرأى منهم، فقال: «إذا جاءك كتابي هذا، فعشِّر الناس، وعَرِّف عليهم، وأَمِّرْ على أجنادهم، وعَبِّهم، ومُرْ رؤساءَ المسلمين فليشهدوا، وقدِّرهم وهم شهود، ثم وجِّههم إلى أصحابهم، وواعِدْهم القادسية، واضمم إليك المغيرةَ بن شعبة في خيله، واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمرُهم»[١].

وكذا كانت العَرَافات على عهد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[٢]، كأن عمر استقرَّ على جَدواها في تلك المعركة. وفي خبر القادسية، وفي أمرها كلِّها، لم يكن سعدٌ يفصل إلا عن كتاب عُمر ومشورته وإذْنِه. وقد أتبع عُمر كتابه الأولَ إلى سعدٍ بكتابٍ ثانٍ، يصف له فيه قوة العدوِّ وحُزُونةَ أرضه، ثم أوصاه إذا اشتدَّت الحربُ بهم أن لا ينظروا إلى جموع العدوِّ كي لا ينخدعوا، ثم بيَّن له إذا هو انتهى إلى القادسية أين يقف، وكيف يصُفُّ الجيش، والحكمةَ من هذه الطريقة: «أما بعد، فَسِرْ من شرافٍ نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكَّل على الله، واستعن به على أمرك كله. واعلم فيما لديك أنك تقدَم على أمة عددهم كثير، وعُدَّتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع ـ وإن كان سهلًا ـ كَؤُودٍ لبحوره وفيوضه ودآدئه؛ إلا أن تُوافقوا غَيْضًا من فَيْض. وإذا لقيتم القومَ أو أحدًا منهم فابدؤوهم الشدَّة والضرب. وإياكم والمناظرةَ لجموعهم. ولا يخدعُنَّكم؛ فإنهم خَدَعَةٌ مَكَرَة، أمرُهم غيرُ أمركم؛ إلا أن تُجادُّوهم، وإذا انتهيتَ إلى القادسية ـ والقادسيةُ بابُ فارس في الجاهلية، وهي أجمعُ تلك الأبواب لمادَّتهم، ولما يريدونه من تلك الآصُل؛ وهو منزلٌ رغيب خَصيب حصينٌ دونه قناطر، وأنهارٌ ممتنعة- فتكون مسالحك[٣] على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والـمَدَر على حافَات الحجر وحافَات المدر، والجراع[٤] بينهما؛

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٨.

(٢) انظر: الاكتفا ٤/ ١٢٣.

(٣) المَسْلَحة: قوم في عُدَّة بموضع رَصَدٍ قد وُكِّلوا به بإزاء ثَغْر، واحدهم مَسْلَحِيٌّ، والجمع: المَسالح «لسان العرب: سلح».

(٤) الجَرَعةُ والجَرْعةُ والجَرَعُ والأجْرَعُ والجَرْعاء: الأرضُ ذاتُ الحُزُونة تُشاكِل الرملَ، وقيل: هي الرملةُ السَّهلة المستوية، وقيل: هي الدِّعْص لا تُنبِت شيئًا. والجَرْعةُ عندهم الرَّملة الطَّيِّبةُ المَنْبِتُ التي لا وُعُوثة فيها «لسان العرب: جرع».

ثم الزم مكانك فلا تبرحْه؛ فإنهم إذا أحسُّوك أنغضتَهم[1]، رَمَوْكَ بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجِلهم وحَدِّهم وجِدِّهم، فإن أنتم صبرتم لعدوِّكم، واحتسبتم لقتاله، ونوَيتم الأمانة؛ رجوتُ أن تُنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلُهم أبدًا إلا أن يجتمعوا وليستْ معهم قلوبُهم، وإن تكن الأخرى كان الحجرُ في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مَدَرة من أرضهم إلى أدنى حَجَرٍ من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ، وبها أعلم، وكانوا عنها أجبنَ، وبها أجهل؛ حتى يأتيَ الله بالفتح عليهم، ويردَّ لكم الكَرَّة»[2].

ألا إنها خُطَّةٌ كاملةٌ للحرب في مجملها، حتى يسيرَ القائد وهو على هدًى من أمره قبل أن يبلغ أرض المعركة، ومن عجبٍ أن عمر أتبع كتابه بكتابٍ ثالثٍ كأنه الذيل على الكتاب الذي سلف، يوقِّت فيه للجيش متى يرتحل، وكيف يسيرُ وهو في طريق رحلته: «فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عُذيب الهجانات وعُذيب القوادس، وشَرِّق بالناس وغَرِّب»[3].

لقد كان عُمر خبيرًا بطبيعة أرض العرب، ما تاخمه منها وما نأى عنه، ولعله كان يُسائل أهل المعرفة عنها حتى يفطِنَ إلى ما ينبغي لجيشه أن يكون عليه.

ولما اطمأنَّ عمر إلى إعداد الجيش وعُدَّته، صرف مدادَ قلمه إلى قائد الجيش نفسه، يوصيه وجُندَه بالإخلاص لله تعالى، وبالصبر، فإنَّ بهما يكون النصر، فكتب إليه: «أما بعد، فتعاهدْ قلبَك، وحادِثْ جُنْدَك بالموعظة والنية والحِسبة، ومن غَفَل فليُحْدِثهما، والصبرَ الصبرَ؛ فإن المعونةَ تأتي من الله على قدر النية، والأجرَ على قدر الحِسبة. والحذرَ الحذرَ على مَنْ أنت عليه وما أنت بسبيله، واسألوا الله العافية، وأكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله... وخَفِ اللهَ وارجُهْ، ولا تُدِلَّ بشيء، واعلم أن الله قد وعدكم وتوكَّلَ لهذا الأمر بما لا خُلْفَ له؛ فاحذر أن تصرفَه عنك، ويستبدلَ بكم غيركم»[4].

---

(١) انغضتهم: أهجتهم وحرَّكتَهم «لسان العرب: نغض».

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٠ -٤٩١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩١-٤٩٢.

وقد كتب كتابَه هذا إلى سعدٍ تذكرةً له لئلا يظنَّ أنَّ النصر بالعدد والاستعداد فحسب، بل النصرُ في أوله وآخره لا يكون إلا بالإيمان بالله رب العالمين.

ومما أقرَّه الفاروقُ من قواعد الحرب في بعض كتبه إلى سعدٍ قاعدةٌ عظيمةُ الخَطْب، جليلةُ القدر، هي قاعدة الوفاء ولو على الشكّ، والوفاءُ على أدنى الأمر، والوفاءُ ولو بالخطأ؛ للذي في الوفاء من الفضل والنُّجْحِ والبَرَكة. وكان رأيُه في ذلك ـ وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَدَّثًا ذا رأي[1] ـ أن الخطأَ بالوفاء أبقى للنفوس، وأنَّ الخطأَ بالغدر أهلكُ لها، وفي الغدر وَهَنُ الجيش وخِذلانُه، والخُسرانُ المبين، وقد كتب في هذا الأمر إلى سعد: «إني قد أُلقِيَ في رُوعي أنكم إذا لقيتم العدوَّ وهزمتموهم، فاطَّرحوا الشك، وآثروا التَّقِيَّة عليه؛ فإن لاعَبَ أحدٌ منكم أحدًا من العجم بأمانٍ، أو قَرَفه بإشارةٍ، أو بلسان[2]، فكان لا يدري الأعجميُّ ما كلَّمه به، وكان عندهم أمانًا؛ فأَجْرُوا ذلك له مُجرى الأمان. وإياكم والضحك، والوفاءَ الوفاءَ؛ فإن الخطأ بالوفاء بقيَّة. وإن الخطأ بالغدر الهَلَكة، وفيها وَهَنُكم وقوّةُ عدوكم، وذهاب رِيحكم، وإقبال ريحهم. واعلموا أني أحذِّركم أن تكونوا شَيْنًا على المسلمين، وسببًا لتوهينهم»[3].

إنما الحربُ أمرُ جِدٍّ، لا يجوز فيها إلا اليقينُ والورعُ واطِّراحُ الشَّبَه، لا هزلَ في الحرب ولا كَذِب، ولا ما يُشبه الكَذِب، لا ضحِكَ في الحرب ولا خيانةَ ولا لَعِب. فإذا شقَّ الأمر فالتبس في أمر الدِّماء، فإن جيش المسلمين لزامٌ عليه أن يُهْرَع إلى الوفاء.

ألا ما أجملَ تلك الأخلاقَ الرفيعة التي استنَّها الخلفاءُ الراشدون للجنود في الحرب! لقد كانوا بأمثالها يُنصَرون، وكانوا يعتقدونها في قلوبهم، وكانوا ينشرون الإسلامَ بها في الأرض قبل أن ينشروه بحدِّ السيف.

---

(١) عن عائشة عن النبى ﷺ أنه كان يقول: «قد كان يكون فى الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن فى أمتى منهم أحدٌ، فإن عمر بن الخطاب منهم». قال ابن وهب: تفسير محدَّثون: ملهمون، انظر: صحيح مسلم ٧/ ١١٥.

(٢) قرفه بالشيء: رماه به «لسان العرب: قرف».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٢-٤٩٣.

ذلك، ومن تدابير أمر الحرب الواردة في تلك الكتب إكرام رؤوس القوم في الجيش، لما لهم من خطرٍ في حالَيْ الحرب والمشورة، وفي هذا المعنى أُثِرَ عن عُمر بن الخطَّاب أنه كتب إلى النعمان بن مُقرِّن قبل نَـهاوَنْد: «إنَّ معكَ حدَّ العرب ورجالَهم في الجاهلية؛ فأدخلْهم دون من هو دونهم في العلم بالحرب، واستعن بهم، واشرب برأيهم، وسلْ طُليحة وعَمْرًا وعَمْرًا[1]، ولا تُولِّهم شيئًا»[2].

وكتب مرةً إلى سعد بن أبي وقَّاص وقد جاءه كتابُه يسأله عن سَلَبٍ نَفَّلَه زُهرةَ بن الحَوِيَّة -وكان زهرة قد حمل على الجالينوس فقتله وأتى بسَلَبه إلى سعدٍ فنفَّله إيَّاه، ثم استكثره فكتب فيه إلى عُمر- فجاءه كتابٌ مِنْ عمر فيه: «تعمَد إلى مثل زهرة -وقد صَلِيَ بمثل ما صَلِيَ به، وقد بَقِيَ عليك من حربك ما بقِي- تَكسِرُ قَرنه، وتُفسد قلبه؟! أمضِ له سلَبَه، وفَضِّله على أصحابه عند العطاء بخَمسمئة»[3].

تلك حِنكةُ القائد العظيم الذي يجمع الجيش فلا يُفرِّقُه، والذي يهتمُّ لجليل الأمور ولا يلتفتُ إلى سَفْسَافها.

كما يدخل في تدبير الحرب طلبُ النجدة والمعونة خيفةَ الفتك بالجيش، كما فعل عياض ابنُ غُنمٍ وقد حوصر جيشه في بعض حروب فارس، فأرسل إلى خالدٍ رسولًا يستمدُّه ويطلب الغوث، فكتب خالدٌ إليه على العَجَل: «من خالدٍ إلى عياض، إياكَ أريد:

لَـبِّـثْ قَـلِـيـلًا تَـأتِـكَ الحـلائـبُ يَحْـمِلْـنَ آسـادًا عليها القاشِبُ

كـتـائـبٌ يَتْبعُها كـتـائـبُ»[4]

كتابٌ هو كتابُ العَجَل، وهو كتابُ الغَوْث والإنجاد والفُرْجة، وكتابٌ فيه الرَّجَز، والرجز أَلْيَقُ بمقام الحرب والإسعاف والنَّجْدة ـ وقلَّما جاء الشعرُ في كتابٍ من كتب

(١) يعني: عمرو بن أبي سُلمى العَنَزيّ، وعمرو بن معد يكرب الزبيديّ.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٦٨.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧٧.

الصحابة، فكأنَّ وروده في هذا الكتاب امتيازٌ له، فهو كتابٌ مُفعَمٌ بالفُرُوسَة والعاطفية ـ ومن عجلٍ في هذا الكتاب أن خالدًا لم يذكر اسمه كاملًا، كلا، ولا ذكر اسمَ عياضٍ كُلَّه، بل إنه اكتفى من منثور الكلام بكلمتين اثنتين كأنهما كلمتا التأمين والطمأنة: «إياك أريد». وكأن خالدًا هو الذي أراده ولم يُرده عياض، كأنه يقول له: لقد كنتُ عازمًا على غوثك حتى قبل أن تطلبَه؛ وكلُّ هذا إيغالٌ من خالدٍ في معنى الإسراع والطيران إلى المكروب، عسى نفسُه أن تطمئنَّ فيهدأَ رَوْعُه.

(حفظ نفوس الجنود)

وكان عمر بن الخطاب حَدِبًا على جنود المسلمين، شديدَ الخوف عليهم، رحيمًا دائم المتابعة لأمرهم، لا يقبل من أحدٍ التغريرَ بهم، أو التقَحُّمَ بهم، أو الغزوَ بهم غزوًا غيرَ مأمون العواقب، وكانت نفسُ الجندي المسلم أغلى عنده من كل شيء، وتلك عقيدةٌ في القتال سار بها عمر سنين خلافته، وكان يأمر بها ويحضُّ عليها، ويُعاقب بالعقوبة القاسية من يخالفها أو يخرج عليها، والسبب أن دماء المسلمين عظيمةٌ موقَّرةٌ في نفس عُمر، ولم يكن يُحبُّ أن يُهلك اللهُ المسلمين على يديه ولو في الحرب والقتال في سبيل الله، خلا حربٍ غلب على الظنِّ فيها نصرُ الله وفتحُه وتمكينُه.

وقد كتب عُمر في هذه العقيدة فأكثر فيها الكتب، ولعلها تكون أكبر المعاني التي كتب عُمر إلى أمرائه وقادته من أجل تحقيقها. فقد كتب مرَّةً يشكو إلى عُتبة بن غزوان صنيعَ العلاء ابن الحضرميّ لما تقحَّم بالمسلمين البحرَ غازيًا فارسًا من غير إذن منه، فعاقبهُ عمرُ أشدَّ العقوبة، وعزله، وتوعَّده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، ووجَّهه إلى أبغض الوجوه إليه، وكتب إلى عُتبة: «إنَّ العلاء بن الحضرمي حَمَلَ جُندًا من المسلمين، فأقطعَهم أهلَ فارس ـ وأظنُّه لم يُرد الله بذلك ـ فخشِيتُ عليهم إلّا يُنصَروا أن يُغلَبوا ويَنشِبوا، فانْدُب إليهم الناس، واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا»[1].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٨١.

وما كان عمرُ يدري وهو يكتب الكتاب ماذا حلَّ بالجيش، ولكنه أُلقي في رُوعه نحوٌ من الذي كان من هزيمتهم وبطش فارسٍ بهم.

وقد كتب مرةً كتابًا ينهى فيه عن تأمير قائدٍ شُجاعٍ مقدام، هو البراء بن مالك؛ لكيلا يَهلِك الناسُ معه[1].

ولقد بلغ من انشغاله بالأمر ـ أمر صيانة الدماء والأرواح ـ أن كتب إلى النعمان يوصيه ويُعرِّفه بقدر المسلمين، ومنزلتهم عنده: «أما بعد، فإنه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرةً قد جمعوا لكم بمدينة نَهاوند؛ فإذا أتاك كتابي هذا فسِرْ بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وَعْرًا فتؤذيَهم، ولا تمنعهم حقَّهم فتكفرهم؛ ولا تدخلنَّهم غَيْضة، فإنَّ رجلًا من المسلمين أحبُّ إليَّ من من مئة ألف دينارٍ، والسلام عليك»[2].

فهذا كتابٌ يُراعي المسلمين في أبدانهم وأرواحهم وحظوظهم، وإن هذه الكلمة «فإن رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مئة ألف دينار»؛ لَلخُلاصةُ الأخيرةُ لما يُسمَّى بالعقيدة العسكرية للدول؛ وعليها كان جُلُّ أمر عُمر في حروبه[3].

من هذه العقيدة نَهْيُ عُمر عن الغزو قبل الاستعداد والتحوُّط[4]، ونهيُه عن غارات الشتاء بسبب فَقْدِ امرئ واحدٍ في غزاةٍ من غزوات الشتاء، ففي (الكُنى) للدُّولابيّ أن جَعْوَنة بن الحارث بعث رسولًا إلى عمر، وكان عاملًا له على غزاة، فقال له عمر: أَسَلِمَ المسلمون؟ قال: نعم، كلهم إلا رجلًا واحدًا عدلت به دابتُه فساخ في الثلج. قال: فصنع ماذا؟ قال: فهلك. قال: لقد أطلقتَها غير مُكترث! عليَّ بفلان ـ كاتبِه ـ فكتب إلى عامله جَعْوَنة: «إيَّاي وغاراتِ الشتاء؛ فوالله لَرجلٌ من المسلمين أحبُّ إليَّ من الروم وما حوت»[5].

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٢٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١١٤-١١٥.

(٣) انظر: أيضًا كتابًا لعثمان بن عفان إلى عبد الرحمن بن ربيعة، يقول فيه: «إنَّ الرعيَّة قد أبطر كثيرًا منهم البِطْنة، فقصِّرْ ولا تقتحمْ بالمسلمين؛ فإني خاشٍ أن يُبتلوا»، تاريخ الرسل والملوك٤/ ٣٠٤.

(٤) انظر: كتابه إلى المثنى بن حارثة الشيباني في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٣.

(٥) الكنى والأسماء، للدُّولابيّ، أبي بِشْر محمد بن أحمد بن حماد ١/ ٣١١، تحقيق أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم، بيروت ١٤٢١ هـ.

ونَهَى عن فتح إفريقية ضَنًّا منه بأرواح المسلمين، مع أنَّ عمرو بن العاص قد كاتَبه يرغِّبه في فتحها ويُحسِّنه إليه، فكتب إليه عُمر: «ولو فُتحت إفريقية ما قامت بوالٍ مقتصدٍ لا جُند معه، ثم لا آمَنُ أن يقتلوه، فإن شَحَنْتَها بالرجال كُلِّفتَ حمَلَ مال مصر أو عامَّته إليها؛ لا أُدْخِلُها جندًا للمسلمين أبدًا، وسيَرى الوالي بعدي رأيَه»[1].

وكان هو متردِّدًا في السماح لعَمرٍو بفتح مصر، وكتب إليه كتابًا ينهاه عن فتحها، وأَمَرَه إن أتاه الكتاب قبل دخول مصر أن يرجِع، وتقول الرواية إن عَمرًا أحسَّ بما في ثنايا الكتاب فأخَّره، حتى إذا اطمأنَّ إلى دخوله مصر قال للرسول: هاتِ كتابَ أمير المؤمنين، فإذا فيه: «أما بعد، فإنه لم يَحضُرْك رشدُك، ولا ما كان يُنسَبُ إليك من العقل والتجربة، بإقدامك عليَّ بما أقدمتَ به، وقطع الأمور دوني بمن معك من المسلمين تسوقهم حيث تريد... تخرج في نُفَيْرٍ يسير، ولَعَمْري لو كان ثُكْلُ أمك ما تقدَّمتَ بهم، ويحَك لو أتى ذو أتيٍّ على مَنْ معك من المسلمين بتغريرك بهم؛ ألم تكن قد هلكتَ وأهلكت؟! فإذا جاءك كتابي هذا ولم تدخل أرضَ مصر؛ فارجع بمن معك إلى عملك حتى يأتيَك أمري»[2].

وفي قصةٍ مقارِبة أن عمرو بن العاص دخل حيِّزًا من أرض الروم ليطَّلعَ على أحوالهم، فكاد أن يهلِك ولم ينجُ إلا بالحيلة، فأتاه كتاب عمر ـ وكان عُمر لا يَخفى عليه شيءٌ من عمله ـ ينهاه عن التغرير بنفسه أو بأحدٍ من المسلمين، فلمَّا قرأ عمرٌو كتابَ عُمر رَحَّمَ عليه، وقال: ما الأبُ البارُّ بأبرَّ من عمر بن الخطاب برعيَّته[3].

(كتب النصر)

حتى إذا مَنَّ الله على المسلمين بالفتح، كتبوا إلى أمير المؤمنين كتابَ النصر، يُخبرونه ويُهنِّئونه، وقد يذكرون له طَرَفًا مما جرى في المعركة؛ على سبيل البطولة وإبراز الجُهد،

---

(١) الطبقات الكبير ٦/ ١٣٩.

(٢) الطبقات الكبير ٥/ ٦٦.

(٣) انظر: الطبقات الكبير ٥/ ٦٤-٦٥.

وعرفانًا لفضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ككتاب عمرٍو إليه في فتح الإسكندرية الثاني: «أما بعدُ، فإن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فتح علينا الإسكندرية عَنْوَةً قَسْرًا، بلا عهدٍ ولا عَقد»[1].

وكتب إليه في النصر سعدٌ كتابًا من أبلغ الكتب، فيه جُمَلٌ عِراضٌ فِخَامٌ مُزَيَّنةٌ بتصاويرَ تُلائم مقام النصر، وتُكافئ أقدارَ المستشْهَدين الذين سالت دماؤهم في المعركة، وإن كانت دماؤهم ليسَ يعدِلُها شيء، قال فيه: «أما بعد، فإن الله نَصَرَنا على أهل فارس، ومَنَحَهم سُنَنَ من كان قبلَهم من أهل دينهم، بعد قتالٍ طويلٍ، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعُدَّة لم يرَ الراؤون مثلَ زُهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سَلَبَهُمُوه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الآجام، وفي الفجاج؛ وأصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ، وفلانٌ، وفلانٌ، ورجالٌ من المسلمين لاتَعلمهم، الله بهم عالم، كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جَنَّ عليهم الليل دَوِيَّ النحل، وهم آساد الناس؛ لا يُشبههم الأسود، ولم يَفْضُل مَنْ مضى منهم مَنْ بقيَ إلا بفضل الشهادة إذ لم تُكتب لهم»[2].

(الكتب في شأن الأسارى ونحوهم)

وربما يكتبون إلى الخليفة في شأن الأُسارى، فيوافيهم ردُّه عليهم، ككتابٍ وَرَدَه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من عمرو بن العاص يسأله عن سبايا الإسكندرية بعد أن اصطلح أهلُها مع المسلمين على دفع الجزية[3].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، ص٩٣، تحقيق: محمد الحجيري، دار الفكر، بيروت، ط١/ ١٤١٦هـ، وتاريخ خليفة بن خياط، لأبي عمر خليفة بن خياط الليثي العُصْفُري، ص٢٨، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار القلم ومؤسسة الرسالة، دمشق وبيروت، ط١/ ١٣٩٧هـ.

(٢) تاريخ الرسل والملوك٣/ ٥٨٣، وانظر: كتابًا يُشبهه من أبي عُبيدة إلى الخليفة عُمر في: فتوح الشام، للأزديّ ص٢٤٣-٢٤٤.

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٢٠.

وقد يكتبون إليه في شأن الفلاحين القاطنين بالقرى والآجام الذين لم يُقاتلوا، فيأتيهم كتابه: «إنَّ مَنْ أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يُعينوا عليكم فهو أمانُهم، ومَنْ هرب فأدركتموه فشأنكم به»[1].

(جـ) كُتُبُ العُهُود:

سبق القول إن المسلمين كانوا إنما يقاتلون مَنْ يَحُول بينهم وبين تبليغ الدين، فيُخيِّرونهم بين الإسلام، أو الجزية، أو القتال. فإن أسلموا كَفُّوا عنهم، وإن رضوا بالصلح على الجزية منعوا من المسلمين دماءهم، فكتب المسلمون لهم عهدًا يذكرون فيه ما للمعاهَدين وما عليهم.

والمعاهدة في اصطلاح العلماء: «مصالحة أهل الحرب، على ترك القتال مُدَّةً معيَّنةً بعِوَضٍ، أو غيره»[2]. ولها أسماءٌ أخرى، منها: الهُدنة، والمهادنة، والموادعة، والصُّلح، والعهد، والأمان، والمسالَمة. والأصل فيها عند المسلمين هو قولُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١][3].

والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يرتضون العهود إذا رأوا فيها مصلحةَ المسلمين؛ اقتداءً بالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل إنهم جدَّدوا عهودًا لقومٍ كان رسولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد كتبها لهم، كالعهد الذي جدَّده عليُّ بن أبي طالب للنجرانيين[4].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥.

(٢) أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لشيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري ٤/ ٢٢٤ تحقيق الدكتور محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ.

(٣) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، للدكتور محمد خير هيكل ٢/ ١٤٧٣-١٤٧٤، دار البيارق، بيروت، ط٢/ ١٤١٧هـ.

(٤) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص١٩٨-١٩٩.

وكانوا في هذا النوع من الكتابة على الخصوص يتحرَّوْن الدِّقة، لتعلُّقه بالدماء والأموال والأنفس.

فقد رووا عن عُمر بن الخطاب أنه قال: إذا عاهدتم قومًا فأبرئوا إليهم من مَعَرَّة الجيوش. فكانوا يكتبون في الصلح لمن يعاهدون: «ونبرأ إليكم من مَعَرَّة الجيوش»[1]. ومع أننا لا نجد هذه الكلمة فيما بين أيدينا من كُتُب الصلح التي أبرمها الصحابة، إلا أنَّ فيها دلالةً واضحةً على نُظَرائها في هذا الأمر واهتمامهم له.

ومن طريف ما يُروى في احتياط عُمر لكتب الصُّلح[2]، عن أبي وائل شَقيق بن سلمة أنهم أتاهم كتاب عمر بن الخطاب وهم بخانِقين، وفيه: «... وإذا حاصرتم أهلَ حِصْنٍ فلا تُنْزِلوهم على حُكم الله وحكم رسوله، ولكن أنزلوهم على حكمكم، ثم احكموا فيهم بما شئتم. ولا تقولوا: لا تَخَفْ، ولا تدهل، ومَتَرْس، فإن الله يعلم الألسنة»[3].

وفي رواية: «وإذا قال الرجل للرجل: مَطَرْس، فقد أمَّنه، وإذا قال: لا تدهل[4]، فقد أمَّنه، وإذا قال: لا تَخَفْ، فقد أمَّنه؛ فإن الله يعلم الألسنة»[5].

قالوا: إن «مَطَرْس» كلمةُ الأمان بالفارسية[6]، فلعلهم كانوا يعرفون هذه الألفاظ الأعجميةَ لكثرة وقوعها في أسماعهم زمنَ الفتوح.

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٩-٥٩٠.

(٢) انظر: ما سلف من كتب عُمر إلى سعد في معنى الوفاء، وهي في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٣) المصنف، لعبد الرزّاق ٥/ ٢٢٠-٢٢١.

(٤) في السير الكبير للشيباني: «لا تذهل» بالذال المعجمة. وقال محققه الدكتور صلاح الدين المنجّد: أي لا تخف، انظر: شرح السير الكبير للشيباني، إملاء السرخسي ١/ ٢٨٣.

(٥) المصنف، لعبد الرزّاق ٥/ ٢١٩-٢٢٠.

(٦) مَطَرْس اي: لا تَخَفْ، كلمةٌ فارسية تنطق بلسانهم: مَتَرْس، وهي نهيٌ مشتق من المصدر الفارسي «ترسيدن» اي: الخوف، والميم المفتوحة في بداية الفعل علامةُ النهي في الفارسية، انظر: المعجم الذهبي: فارسي - عربي، لمحمد التونجي، ص١٩٨، المستشارية الثقافية الإيرانية، دمشق ١٩٩٣م.

إلا إن في أمثال هذه الوصايا ما يُفيد حرص المسلمين الشديد على حفظ ذممهم، ورعاية عهودهم، والصدقِ والوفاءِ بما يقطعونه على أنفسهم من العهود، ولو بالخطأ، ولو بغير ما اتفاق. ولقد كتب عمر بن الخطاب إلى سعدٍ فيما سبق نقلُه عنه: «فإنْ لاعَبَ أحدٌ منكم أحدًا من العجم بأمانٍ، أو قَرَفَه بإشارةٍ أو بلسانٍ[1]، فكان لا يدري الأعجميُّ ما كَلَّمه به، كان عندَهم أمانًا؛ فأجروا ذلك له مجرى الأمان»[2].

وكان يكتب هذه الكتب الخلفاءُ، ويكتبها الأمراءُ بما يخوَّل إليهم من الخلفاء على السواء، فقد كتب أبو بكرٍ عهدًا لأهل نجران، يُجيرهم فيه من جُنده ونفسه[3]، وعهدًا إلى الداريِّين يوفِّر لهم أرضَهم وما هم عليه، فيه: «هذا كتابٌ من أبي بكرٍ أمين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي استُخلف في الأرض بعده، كَتَبَ للداريِّين أن لا يُفسَد عليهم مأثرتهم قرية حبرى وبيت عينون، فمن كان يسمع ويطيع فلا يُفسد منها شيئًا، ولْيُقِم عمرو بن العاص عليهما، فلْيمنعهما من المفسدين»[4].

وكتب خالد بن الوليد في إمارة أبي بكرٍ عهدًا لبني حنيفة لـمَّا استحرَّ في المسلمين القتل، ونهكتهم الحرب، فما كان من خالدٍ إلا أن جَنَح إلى الصُّلح، وكتب: «هذا ما قاضى عليه خالد ابن الوليد مجَّاعة بن مرارة وسلمة بن عمير وفلانًا وفلانًا؛ قاضاهم على الصفراء والبيضاء، ونصف السبي، والحلقة والكُراع، وحائطٍ من كل قرية ومزرعة؛ على أن يُسْلِموا. ثم أنتم آمنون بأمان الله، ولكم ذمة خالد بن الوليد، وذمة أبي بكر خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذمة المسلمين على الوفاء»[5].

---

(١) قرفه بالشيء: رماه به «لسان العرب: قرف».

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٢١-٣٢٢.

(٤) كتاب الأموال، لابن زنجويه ٢/ ٦١٧.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٩٨-٢٩٩.

وكتبَ عبدُ الله بنُ مسعودٍ عهدَ أمانٍ للفاذوسفان وأهل إصبهان وحواليها، أنهم آمنون ما أدَّوا الجزية، وأن عليهم دلالةَ المسلم، وإصلاحَ طريقه، وقِراه يومًا وليلة، وحُمْلانَ الراجل إلى مرحلة... «ومَنْ سبَّ مُسلمًا بُلِغَ منه؛ فإنْ ضَرَبَه قَتَلْناه»[1].

وفي عهودهم ما هو الطويل المفصَّل، كعهد خالدٍ لأهل الحيرة الذي أثبت فيه عدلَ المسلمين، ورحمتَهم بمن غلبوا عليهم، والإحسانَ إليهم، وأنهم لا يُعاقبون إلا ببيِّنة، وفيه: «وجعلتُ لهم: أيَّما شيخٍ ضعُف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهلُ دينه يتصدَّقون عليه؛ طُرحت جزيته، وعِيل من بيت مال المسلمين وعيالُه ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام»[2].

ومن أشهر العهود في التاريخ عهدُ عمر بن الخطاب لأهل إيلياء، آمَنَهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وأن لا يسكن معهم أحدٌ من اليهود؛ على أن يُعطوا الجزية، ويؤمِّنوا الناس، ويُخرجوا الروم، فمن أحبَّ الخروجَ منهم مع الروم خرج آمنًا، ومَنْ شاء قَعَدَ على العهد، وفي الكتاب ذِكْرُ الشروط مفصَّلةً تفصيلًا لا استعارة فيه ولا رمز ولا كناية، حتى لا يتأوَّل أحدٌ قولًا، أو يحتجَّ أحدٌ بلفظةٍ حمَّالةٍ أوجُه، وقد جاء العهد كما عند الطبري على هذه الصورة: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُ الله عُمر أميرُ المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصُلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر مِلَّتها؛ أنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا يُضَارَّ أحدٌ منهم، ولا يَسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٤١.

(٢) الخراج، لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، ص٣٠٦، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩هـ.

كما يعطي أهلُ المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الرومَ واللُّصوت[1]، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمِنٌ وعليه مثلُ ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بِيعهم وصُلُبَهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلُبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلانٍ؛ فمن شاء منهم قعدوا، عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادُهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان وكَتَبَ وحضر سنة خمس عشرة»[2].

ومن أشهرها أيضًا العهد الذي كتبه عمرو بن العاص لأهل مصر، وهو مفصَّلٌ كعهد عمر، مكتوبٌ بلغةٍ دقيقةٍ تُشبه لغة القوانين المحتاطةِ المستدرِكة، الحريصةِ على أن لا يفوتَها من الأمر شيء، وفي العهد بعد البسملة: «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهلَ مصر من الأمان على أنفسهم ومِلَّتهم وأموالهم، وكنائسهم وصُلبهم، وبرِّهم وبحرهم؛ لا يُدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص، ولا يساكنهم النُّوب. وعلى أهل مصر أن يُعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصُّلح، وانتهتْ زيادةُ نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لُصوتهم، فإن أبى أحد منهم أن يُجيب رُفع عنهم من الجِزاء بقدرهم، وذمَّتُنا ممَّن أبى بريئة، وإن نُقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك، ومن

(١) اللَّصْتُ: هو اللِّص والسارق، معرَّبةٌ من اليونانية، انظر: مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص٦٣٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦٠٩.

دخل في صُلحهم من الرُّوم والنُّوب فله مثلُ ما لهم، وعليه مثلُ ما عليهم، ومن أبى واختار الذَّهاب فهو آمنٌ حتى يبلغ مأمنه، أو يخرجَ من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثًا، في كل ثُلثٍ جبايةُ ثُلُثِ ما عليهم. على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذممُ المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا، على أن لا يَغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرةٍ ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر»(١).

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٠٩، وانظر: مزيدًا من هذه العهود في: مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، كعهد النعمان بن مُقرِّن لأهل ماه بهراذان، ص٤٤٠، ومعاهدة حذيفة بن اليمان مع أهل ماه دينار، ص٤٤١، ومعاهدة سراقة بن مالك مع شهر براز وسكان أرمينية، ص٤٥٦.

[٤] كُتُبُ الفِتْنَةِ والخَوارِج

(أ) كُتُبُ الفِتْنَة:

اندلعتْ شرارةُ الفتنة في هذه الأمة بالطعن على عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت ثَمَّ بوادرُ للخلاف بدأت تلوح لدى بعض ذوي الشأن، فقد قام أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ بالشام سنة ثلاثين يدعو: يا معشرَ الأغنياء، واسُوا الفقراء، بَشِّر الذين يكنِزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار، تُكوى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورهم. فما زال حتى ولِع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياءُ ما يلقَوْن من الناس. فكتب معاويةُ إلى عثمان: «إنَّ أبا ذَرٍّ قد أَعْضَلَ بي، وقد كان من أمره كَيْت وكَيْت». فكتب إليه عثمان: «إن الفتنة قد أخرجت خَطْمها وعينيها، فلم يبقَ إلا أن تثب. فلا تنكأ القَرْح، وجهِّز أبا ذرٍ إليّ، وابعثْ معه دليلًا، وزوِّده، وارفُق به، وكفكفْ الناسَ ونفسَك ما استطعت؛ فإنما تُمسِك ما استمسكتْ»[١].

فلما دخل أبو ذَرٍّ على عثمان قال: يا أبا ذرّ، ما لأهل الشام يشكون ذَرَبك[٢]! فأخبرَه أنه لا ينبغي أن يقال: مالُ الله، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالًا. فقال: يا أبا ذرّ؛ عليّ أن أقضيَ ما عليّ، وآخذَ ما على الرعيّة، ولا أُجبرَهم على الزُّهد، وأن أدعوَهم إلى الاجتهاد والاقتصاد. قال: فتأذن لي في الخروج، فإنّ المدينة ليست لي بدار؟ فقال: أَوَتستبدل بها إلا شرًّا منها! قال: أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أخرج منها إذا بلغ البناء سَلْعًا؛ قال: فانفُذ لِما أمرك به. فخرج حتى نزل الرَّبَذَة[٣].

وقدِم سعيدُ بن العاص الكوفةَ أميرًا لعثمان بن عفان، فجعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويسمرون عنده، فسمر عنده ليلةً وجوه أهل الكوفة، وفيهم مالكُ الأَشترُ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٨٤.

(٢) الذَّرِبُ: الحادُّ من كل شيء «لسان العرب: ذرب».

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٨٤.

في رجال. فقال سعيد: إنما هذا السواد بستانٌ لقريش، فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستانٌ لك ولقومك؟ والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبًا إلا أن يكون كأحدِنا. وتكلم معه القوم، فقال عبد الرحمن الأسدي وكان على شرطة سعيد: أتردُّون على الأمير مقالته؟ وأغلظ لهم. فقال الأشتر: من ههنا لا يفوتنَّكم الرجل. فوثبوا عليه فوطئوه وطأً شديدًا حتى غُشي عليه، ثم جُرَّ برجله فأُلقي فنُضح بماء فأفاق. فقال له سعيد: أبك حياة؟ فقال: قتلني من انتخبتَ ـ زعمت ـ للإسلام. فقال: والله لا يسمُر منهم عندي أحدٌ أبدًا. فجعلوا يجلسون في مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيدًا، واجتمع الناس إليهم حتى كثُر من يختلف إليهم، فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك، ويقول: إن رهْطًا من أهل الكوفة ـ سَمَّاهم له ـ عشرةً، يؤلِّبون ويجتمعون على عيبك وعيبي، والطعن في ديننا، وقد خشيت إن ثبتَ أمرُهم أن يكثروا، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيِّرهم إلى معاوية ـ وهو يومئذٍ على الشام ـ فلما قدموا على معاوية لم يكونوا إلا أشدَّ خصومةً منهم من قبل، حتى إنهم أخذوا برأسه ولحيته، فكتب معاويةُ إلى عثمان: «أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنك بعثتَ إليَّ أقوامًا يتكلَّمون بألسنة الشياطين وما يُمْلُون عليهم، ويأتون الناسَ ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن؛ فيُشبِّهون على الناس، وليس كلُّ الناس يعلم ما يريدون؛ وإنما يريدون فُرْقة، ويقرِّبون فتنة؛ قد أثقلهم الإسلام وأضجَرهم، وتمكَّنت رُقَى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيرًا من الناس ممن كانوا بين ظهرانَيْهم من أهل الكوفة؛ ولست آمَنُ إن أقاموا وسط أهل الشأم أن يغرُّوهم بسِحْرهم وفجورهم؛ فارْدُدهم إلى مصرهم؛ فلتكنْ دارُهم في مصرهم الذي نجم فيه نفاقُهم، والسلام»(١).

فكتب إليه عثمان يأمره أن يردَّهم إلى سعيدٍ بالكوفة. فلم يكونوا إلا أطلق ألسنةً منهم حين رجعوا، فكتب سعيد بن العاص إلى عثمان يضِجُّ منهم، فكتب إليه عثمان أنْ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٢٥.

سيَّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان أميرًا على حِمْص، ثم كتب عثمان إلى الأشتر وأصحابه: «أما بعد، فإني قد سَيَّرتُكم إلى حِمْصٍ، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها، فإنكم لستم تألون الإسلام وأهلَه شَرًّا، والسلام»، فلما قرأ الأشتر الكتاب قال: اللهم أسوأنا نظرًا للرعيَّة، وأعملنا فيهم بالمعصية؛ فعجِّل له النقمة. وكان ذلك سنة ثلاثٍ وثلاثين(١).

في ذلك الآنِ استغوى يزيدُ بن قيس الناسَ على سعيد بن العاص بالكوفة، فتألَّبوا عليه، وكتبوا إلى عثمان يستعفونه، ويطلبون أبا موسى، فأجابهم إلى مسألتهم كما مرَّ بنا قبل(٢).

وفَشَت المقالةُ في الطعن على عثمان وولاته، ونسبوا إليه أمورًا، ونقموا منه أحداثًا ردَّ هو عليها، قد أتينا على بعضٍ منها في الكلام على (جدل الصحابة)، وليس هذا مجالَ الإفاضة فيها(٣). وجعل المنحرفون عليه يكتبون إلى الأمصار بكتبٍ يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهلُ كلِّ مِصْرٍ منهم إلى مِصْرٍ آخر ما يصنعون؛ فيقرؤه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة. ونمتْ هذه الأنباءُ إلى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكتب إلى أهل الأمصار: «أما بعد، فإني آخذ العُمَّال بموافاتي في كل موسم، وقد سلَّطْتُ الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فلا يُرْفع عليَّ شيء ولا على أحد من عُمَّالي إلا أعطيتُه، وليس لي ولعيالي حقٌّ قِبَل الرعيَّة إلا متروك لهم. وقد رَفع إليَّ أهل المدينة أن أقوامًا يُشتمون، وآخرون يُضربون، فيا من ضُرب سرًّا، وشُتم سرًّا، مَنْ ادَّعى شيئًا من ذلك فليوافِ الموسم، فليأخذْ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدِّقين». فلما قُرئ في الأمصار أبكى الناس، ودعوا لعثمان وقالوا: إن الأمَّة لَتمخَّض بِشَرّ(٤).

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٢٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٣٦.

(٣) انظر: تفنيدَه هو إيَّاها في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٤٦-٣٤٨.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٤٢.

فكذلك كان عثمان ـ عليه رحمةُ الله ورضوانُه ـ يؤثر السلامة والعدل في الأُمَّة، ويُحبُّ لها الأمان والعافية، وكانت الرعيةُ يحبونه، ولكنها الفتنةُ التي تُعمي وتُصمّ.

وههنا تكثر الأقاويل، وتُفتعل الأحداث، وتُنتحل الكتب، فتُنسَب إلى قوم أفعالٌ ما فعلوها، وأقوالٌ ما قالوها، وعلى الباحث من يومئذٍ أن يُقدِّم الحرص، ويُعملَ الحذرَ فيما يقرأ أو يسمع؛ فإن الأمور قد اختلطت في الرواية واضطربت لذلك العهد جِدًّا، وغدا كلُّ فريق إلى الرواية ينتزعُ منها ما ينصره، أو يجتزئ منها فيقتصر على ما يعضُد مذهبَه ورأيَه. ولسنا هنا في مجال الحُكْم على تلك الروايات، ولكن تكفينا الإشارة إلى ما يليق بمقامنا هذا من الكُتب التي خَطَّها الصحابة، لعلها تمثِّل صورةً دالَّةً على الأحداث وقتَ الفِتْنة.

فقد رُوي أنه لما تكاتب أهل الأمصار المنحرفون على عثمان، وتواعدوا على الخروج جميعًا في شوال سنة خمسٍ وثلاثين مُظْهرين الحج، فخرجت جموعهم من البصرة والكوفة ومصر، فنزلوا في ضواحي المدينة؛ عَلِم عثمان بأمرهم، فبعث إلى عليٍّ ليخرج إليهم ويردَّهم، فركب إليهم وردَّهم وسمعوا منه، ثم انصرفوا مُظهرين العودةَ إلى بلادهم، ولكنهم كرُّوا راجعين إلى المدينة. وقد زعم المصريون منهم أنهم وجدوا مع وَرْشٍ غلام عثمان كتابًا إلى عبد الله بن أبي سرح عامله، يأمره فيه بقتلهم إذا قفلوا إليه، وزعموا أنَّ في الكتاب: «أما بعد، فانظر فلانًا وفلانًا فاضرب أعناقهم إذا قدموا عليك، فانظر فلانًا وفلانًا فعاقبهم بكذا وكذا»(١). وسألوا عثمان عن الكتاب، فجعل يُقسم بالله ما كتب، ولا عَلِمَ، ولا شُوور فيه. فقال عليٌّ ومحمد بن مَسْلمة: قد صدق(٢).

حينَها كتب عثمان إلى الأمصار كتابًا يذكر فيه رسول الله ﷺ وأبا بكرٍ وعمر، وكيف آلت الخلافةُ إليه بالشورى عن غير علمٍ منه ولا مسألة، عن مَلأ من الأمة،

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٦٧.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٧٤.

وكيف بدت الضغائنُ والأهواء والإِحَن، فانبعث الشَّرُّ ونبغ، وطلبوا أمرًا، وأعلنوا غيره بغير عُذرٍ ولا حُجَّة، ثم عابوا عليه ما كانوا يرضونه منه، وعابوا عليه أشياء لا يصلح غيرُها، ثم كتب عثمان: «فصَبَرتُ لهم نفسي، وكففتُها عنهم منذ سنين، وأنا أرى وأسمع؛ فازدادوا على الله عَزَّوَجَلَّ جُرأة، حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحَرَمِه وأرضِ الهجرة، وثابَتْ إليهم الأعراب؛ فهم كالأحزاب أيّام الأحزاب أو مَنْ غزانا بأُحُدٍ إلا ما يُظهرون؛ فمن قَدَر على اللحاق بنا فليلحق»[1].

فهذا كتاب استمدادٍ عامّ، ألحقه عثمان بكتابٍ آخر إلى معاوية يستنجده ويقول له: «ابعث إليَّ مَنْ قِبلَك مِن مقاتلة أهل الشام على كل صعبٍ وذلول»، فلما أبطأ جوابُ معاوية كتب عثمان إلى يزيد بن أسد بن كُرْز وإلى أهل الشام، يستنفرهم ويُعظِّم حقَّه عليهم، ويُذكِّرهم بلاءه عندهم، وصنيعَه إليهم: «فإن كان عندكم غياثٌ، فالعجلَ العجل، فإن القوم معاجليّ»، فلمّا قُرئ الكتابُ عليهم قام يزيدُ فعظَّم حقَّه، وحضَّهم على نُصرته، وأمرهم بالمسير إليه، فتابعه ناسٌ كثير، حتى إذا كانوا بوادي القُرى بلغهم مقتلُ عثمان فرجعوا. وكان عثمان قد كتب إلى عبد الله بن عامرٍ أميرِ البصرة أن اندُب إليَّ أهلَ البصرة ـ نُسخةَ كتابه إلى أهل الشام ـ فصار إليه جمعٌ كثير، حتى إذا نزلوا الرَّبَذَة، ونزلت مقدِّمتُهم عند صرارٍ أتاهم قتلُ عثمان[2].

وفي هذه السنة نفسِها، سنةِ خمسٍ وثلاثين، بعث عثمانُ عبدَ الله بن عباس أميرًا على الحج، وأرسل معه كتابًا إلى أهل الموسم هو أطول كتابٍ كتب به صحابيٌّ فيما نعلمه مما بين أيدينا من الكتب، وهو كتابٌ في الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ، ووجوب شكر نِعَمه، ووجوب الاعتصام بحبله، وأن لا يَنقُضوا الأيمان بعد توكيدها، ووجوب طاعة الله ورسوله وولي الأمر، وأورد الآيات الكثيرة في ذلك، ثم حدَّثهم عن السمع والطاعة والجماعة، وحذَّرهم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٥١-٣٥٢.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٦٨-٣٦٩.

المعصية والفُرقةَ والاختلاف، ثم عرض شبهات المعترضين، ومداخلَهم التي على الناس بها يدخلون، ففنَّدها واحدةً واحدةً، ثم كتب: «فإني لا أُبرِّئ نفسيَ الأمَّارةَ بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفورٌ رحيم، وإن عاقبتُ أقوامًا فما أبتغي بذلك إلا الخير، وإني أتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من كلِّ عمل عمِلتُه، وأستغفره؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا هو، إنَّ رحمة ربي وسعتْ كلَّ شيء، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضَّالون، وإنه يقبل التَّوبة عن عباده ويعفو عن السَّيئات ويعلم ما يفعلون. أنا أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر لي ولكم، وأن يؤلِّف قلوب هذه الأمة على الخير، ويكرِّه إليها الفسق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أيُّها المؤمنون والمسلمون»(١). فقرأ ابنُ عباس الكتابَ على الناس بمكة قبل التروية بيوم، ثم قَفَلَ إلى المدينة وقد قُتِل عثمان وبويع لعَليّ(٢).

فلما قُتل ذو النورين عثمان، ووليَ الخلافةَ ابنُ عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليٌّ بن أبي طالبٍ، استعرتْ نارُ الفتنة، واشتدَّ أُوارُها، وانفرق المسلمون فرقتين، فرقةٌ تطلب بدم عثمان، عليها طلحةُ والزُّبير وعائشة، ثم مِنْ بعدهم معاويةُ في الشام؛ وفرقةٌ عليها أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب ومن آزرَه من مشايعيه.

وقد كثُرت الكتب المرسلة وتواترت بين الفريقين، وبين النفر من أصحاب كلِّ فريقٍ أيضًا.

من هذه الكتب ما بعثتْ به عائشة أمُّ المؤمنين إلى زيد بن صُوحان تستدعيه للنُّصرة: «أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم؛ فانصُرْنا على أمْرِنا، فإن لم تفعل فخذِّل الناسَ عن عليّ»(٣).

(١) انظر: الكتاب بطوله في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٧-٤١١.
(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤١١.
(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٧٦.

أما الناسُ في البصرة فاختلفوا: أأُكره طلحةُ والزبير على بَيْعة عليٍّ أم بايعاه على رضًا منهما؟ وكان القتال قد نشِب بين أصحاب عائشة وأصحاب عثمان بن حُنيفٍ في الفريق الآخر، وفَشَتْ الجراحاتُ في الفريقين، حتى إذا مسَّ الشَّرُّ أصحابَ ابن حُنيف وعَضَّهم، دعَوْا أصحابَ عائشة إلى الصلح، فأجابوهم، وكتبوا بينهم هذا الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اصطلح عليه طلحةُ والزبير ومَنْ معهما من المؤمنين والمسلمين، وعثمان بن حُنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين: إنَّ عثمان يقيم حيث أدركه الصُّلح على ما في يده، وإنَّ طلحة والزُّبير يقيمان حيث أدركهما الصُّلح على ما في أيديهما، حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم كعبُ بن مِسْوَر من المدينة. ولا يضارَّ واحدٌ من الفريقين الآخرَ في مسجدٍ ولا سوقٍ ولا طريقٍ ولا فُرْضَة[1]، بينهم عَيْبَةٌ مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر؛ فإن رجع بأنَّ القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطِيَّته، وإن شاء دخل معهما؛ وإن رجع بأنهما لم يُكرَها فالأمر أمر عثمان، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة عليٍّ، وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيّتهما؛ والمؤمنون أعوان الفالج منهما»[2].

فخرج كعبٌ حتى قَدِمَ المدينة فلم يُجِبْه أحدٌ من القوم إلا أسامة بن زيد فإنه قال: اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان[3].

وبلغ الخبرُ عليًّا، فبادر بالكتاب إلى عثمان بن حُنيف يُعجِّزه ويقول: «والله ما أُكرها إلا كَرْهًا على فُرقة، ولقد أُكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخَلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرْنا ونَظَرَا». فقدم الكتاب على عثمان بن حُنيف، وقدم كعب فأرسلوا إلى عثمان أن اخرج عنا، فاحتجَّ عثمان بالكتاب وقال: هذا أمرٌ آخرُ

---

(١) الفُرْضَة: مَشْرَبُ الماء من النهر «لسان العرب: فرض».

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٦٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٦٧.

غيرُ ما كنا فيه؛ فجمع طلحة والزّبير الرجالَ في ليلة مظلمة باردة ذاتِ رياح ونجي. ثم قصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء ـ وكانوا يؤخّرونها ـ فأبطأ عثمان بن حُنيف فقدَّما عبد الرحمن بن عتَّاب، فشَهر الزُّطُّ والسيابجة السلاحَ، ثم وضعوه فيهم. فأقبلوا عليهم فاقتتلوا في المسجد(١).

فالذي يعنينا من هذه الروايات تِبيانُ خطر أمر الكتاب في إثارة الحرب بين الناس أو كفِّها عنهم في أوقات الفتن، وما قد ينشأ بين الفريقين المتخاصمين من عهودٍ وصُلحٍ وسؤالاتٍ وأجوبة. لا يؤديها على هذه الصفة من الأمان إلى الحروف والثقةِ إلى الأخبار إلا الكُتُب.

بعد تلك الحادثة كَتَب طلحة والزبير إلى الأمصار يُخبرانهم أنهم خرجوا لوضع الحرب، وإقامة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بإقامة حدوده في الشريف والوضيع، وأنهم قد بايعهم خيارُ أهل البصرة ونجباؤهم، وخالفهم شرارُهم ونُزَّاعُهم، «حتى إذا لم يبقَ حُجَّةٌ ولا عذرٌ استبسل قَتَلَةُ أمير المؤمنين، فخرجوا إلى مضاجعهم، فلم يُفلت منهم مخبر إلا حُرْقُوص بن زهير، والله سبحانه مُقِيدُه إن شاء الله، وكانوا كما وصف الله عَزَّوَجَلَّ؛ وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إلّا نهضتم بمثل ما نهضنا به؛ فنلقى الله عَزَّوَجَلَّ وتلقَوْنه وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا»(٢).

فكتب عليٌّ إلى أهل الكوفة: «أما بعد، فإني اخترتكم على الأمصار، وفَزِعتُ إليكم لما حدث؛ فكونوا لدين الله أعوانًا وأنصارًا، وأيِّدونا وانهضوا إلينا؛ فالإصلاح ما نريد؛ لتعود الأمة إخوانًا. ومن أحبَّ ذلك وآثَره فقد أحبَّ الحق وآثَره، ومَنْ أبغضَ ذلك فقد أبغض الحق وغَمَصَه»(٣).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٦٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٧٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٧٨.

على هذا النحو تردَّدتْ كتب الفريقين إلى النواحي، واشتعلت الأحداثُ بينهما اشتعالًا، فكتب عليٌّ إلى أبي موسى بالبصرة مع هاشم بن عُتبة، يستمدُّه لكي يُشخص إليه مَنْ قِبَله، فأبى أبو موسى، وثَبَّط الناسَ عن الخروج معه[1]. وكان أبو موسى يرى الخير في اعتزال الفتنة، مثلما مرَّ بنا في خطابته من قبل[2]. فكتب هاشمٌ إلى عليٍّ بالخبر، فما كان من عليٍّ إلا أن بعث قَرَظة بن كعب أميرًا على الكوفة، وكتب معه إلى أبي موسى بعزلِه، فلما قدم الكتاب على أبي موسى اعتزل[3].

ووقعت الحرب بين عليٍّ من جهة؛ وطلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى فيما عُرف بوقعة الجمل، ودان العراق بأجمعه لعليّ، ولكن الشام لم يفعل، وكان على الشام معاوية، وتناوش الفريقان، ثم دخل المحرم من سنة سبع وثلاثين، فتوادعا على ترك الحرب إلى انقضائه طمعًا في الصلح، واختلفتْ فيما بينهما الرسلُ رجاء الصلح من غير جدوى؛ حتى إذا دنا انسلاخ المحرم كَتَّبَ الخَصمان الكتائب، وعبَّيا الناس، وحاربا في صفين حربًا ضَروسًا مُهلكة، وتهاجَيا، وتقاوَلا بأقوال، فلمَّا اشتدَّ أمرُ أهل العراق، وخاف أهل الشام الهلاك، رفعوا المصاحف، وقالوا: ما فيها حَكَمٌ بيننا وبينكم. أما الشاميون فاختاروا عمرَو بن العاص حَكَمًا، وأما العراقيون فاختاروا أبا موسى الأشعريَّ على كُرهٍ من عليّ[4].

وكُتب بين الفريقين كتابُ القَضيَّة المشهودُ: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه عليُّ بن أبي طالب ومعاويةُ بنُ أبي سفيان. قاضى عليٌّ على أهل الكوفة ومَنْ معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاويةُ على أهل الشأم ومَنْ كان

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٧٠.

(٢) انظر: مثلًا خُطبَه في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٢-٤٨٤.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٠٠.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥، والصحفَ بعدها.

معهم من المؤمنين والمسلمين: إنا ننزل عند حكم الله عَزَّوَجَلَّ وكتابه، ولا يجمع بيننا غيرُه، وإن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نُحيي ما أحيا، ونُميت ما أمات؛ فما وجد الحَكَمان في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشيّ عَمِلا به، وما لم يجدا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فالسُّنة العادلة الجامعة غير الـمُفَرِّقة. وأَخَذَ الحَكَمان من عليٍّ ومعاويةَ ومن الجُندين من العهود والميثاق والثِّقة من الناس، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهدُ الله وميثاقه أنَّا على ما في هذه الصحيفة، وأنْ قد وجبت قَضيَّتُهما على المؤمنين، فإنَّ الأمن والاستقامة ووضعَ السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وشاهدهم وغائبهم. وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة، ولا يَرُدَّاها في حرب ولا فُرقة حتى يُعصيا. وأَجَلُ القضاء إلى رمضان. وإن أحبَّا أن يؤخِّرا ذلك أخَّراه على تراضٍ منهما، وإن تُوفي أحدُ الحكمين فإن أمير الشيعَة يختار مكانه، ولا يألو من أهل المعدلة والقسط، وإنَّ مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكانٌ عدلٌ بين أهل الكوفة وأهل الشأم؛ وإن رضيا وأحبَّا فلا يحضرهما فيه إلا مَنْ أرادا، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة، وهم أنصارٌ على من ترك ما في هذه الصحيفة، وأراد فيه إلحادًا وظُلمًا. اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة»[١].

وهذا الكتاب امتدادٌ لكتب المواثيق القديمة، كتلك التي كان يُبرمها النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع قبائل العرب[٢]؛ نقرأ هذا الصِّلة في توكيدات الكتاب الكثيرة، واحترازاته العامدة، ولُغَتِه القانونية الحازمة، القاصدةِ إلى الضبط والتقييد والحصر، ونقرأه في ذكر اسمَيْ الحَكَمين ـ وهما معروفان ـ ذكرًا تامًّا، فقد صُرِّح باسم أبي موسى، وهو المشهور

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٣-٥٤.

(٢) انظر: بعض هذه الكتب في: الطبقات الكبير ١/ ٢٢٧، ٢٣٩-٢٤٠.

بكنيته، ونُصَّ على قرشيَّة عمرو ابن العاص، وهو العَلَمُ في قريش. والمبتغى إقامة العدل لكيلا يجور أحدٌ على أحد، ولئلا يظلمَ أحدٌ أحدًا. وفي هذا المعنى أيضًا تواضُعُ الطرفين على مكانٍ وسَطٍ عَدْلٍ بين أهل الكوفة وأهل الشام يكون مكانًا للقضيَّة، كما شهد على ما فيه عددٌ سواءٌ من الفريقين، قيل: عَشْرٌ من كل فريق كُتبت أسماؤهم في ذيل الكتاب(١). وقيل: أكثر من ذلك(٢).

ثم وقع التحكيم على عِلَّات الرواية فيه، وليس القولُ في أمر هذه الرواية مجالَ هذا البحث، وإنما يعنينا الإلماعُ بالكتب التي طارت بين عليٍّ ومعاوية قبل واقعة التحكيم خاصَّةً ثم بعدها، هذه الكتب وإن كانفها الشك؛ لم تخرج في راجح الظن عن المحاجَّة في مقتل عثمان، وهل نَصَره عليٌّ أم لم ينصره؟ وهل طلب معاوية بدمه حقًّا أم أنه يدَّعي ذلك لا غير؟ ولم تخرج عن ذكر عليٍّ لفضائل نفسِه والقدحِ في معاوية، وذِكْرِ معاوية لسماته والقدحِ في عليّ(٣).

بعد تلك الواقعة اجتمعت كلمةُ أهل الشام، ودبَّ الخلاف في أصحاب عليّ، وخرجت عليه الخوارج، ومما يُروى من الكتب المهمة في تلك الأيام كتاب معاوية إلى قيس بن سعد بن عُبادة أمير مصر من قِبَل عليّ، يتحسَّسُ أمره، يُرهِّبه ويُرغِّبه؛ فينسبه إلى قَتَلة عثمان، ويأمره بالتوبة، وأن يكون من الطالبين بثأره، على أن يعطيَه سُلطان العراقيْن، وسُلطانَ الحجاز لمن شاء من أهل بيته، وله ما شاء سوى ذلك ـ وكان قيس بن سعد رجلًا مَخْشيًا في العرب، داهيةً من الدواهي، وكان معاويةُ يَحسد عليًّا عليه ـ فلما جاء قيسًا كتابُ معاوية أحبَّ أن يُداريه ولا يبدي له أمرًا، وأن لا يتعجل حربَه، فكتب إليه: «أما بعد، فقد

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٤.

(٢) انظر: وقعة صفين، ص٥١٠.

(٣) انظر: جمهرة رسائل العرب، لزكي صفوت ١/ ٣٤٠-٤٢٩، وهو وإن كان ينقل عن نهج البلاغة، والإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة؛ إلا أن تلك الكتب المنسوبة يمكن أن تومئ بصورةٍ ما إلى أصولٍ صحيحة.

بلغني كتابُك، وفهِمتُ ما ذكرتَ فيه من قتل عثمان، وذلك أمرٌ لم أقارفه، ولم أُطِف به. وذكرتَ أنَّ صاحبي هو أغرى الناسَ بعثمان، ودسَّهم إليه حتى قتلوه، وهذا ما لم أطَّلع عليه. وذكرتَ أن عُظْم عشيرتي لم تَسلم من دم عثمان، فأوَّل الناس كان فيه قيامًا عشيرتي. وأمَّا ما سألتني من متابعتك، وعرضتَ عليَّ من الجزاء به، فقد فهمته، وهذا أمرٌ لي فيه نَظَرٌ وفكرة، وليس هذا مما يُسْرَع إليه، وأنا كافٌّ عنك، ولن يأتيك من قِبَلي شيءٌ تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله، والمستجار الله عَزَّوَجَلَّ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[1].

إنه كتاب مواربةٍ ومراوغةٍ ودَهاءٍ لا يخرج إلا من أمثال قيس بن سعد. وكان معاويةُ بن أبي سفيان داهيةً أيضًا، فلم يُعجبه كيدُ قيس بن سعدٍ، ولا خالَت عليه مخادعتُه، ولم يرَه إلا مقاربًا مباعدًا، فكتب إليه يلومه ويتلمَّس أمرَه: «أما بعد، فقد قرأتُ كتابَك، فلم أرَكَ تدنو فأعُدُّك سِلْمًا، ولم أرك تباعد فأعدُّك حربًا، أنت فيما ههنا كحَنَك الجزور، وليس مثلي يصانِع المُخادع، ولا ينتزع للمُكايد، ومعه عدد الرِّجال، وبيده أعنَّة الخيل، والسلام عليك»[2].

فلما تلا قيسٌ كتاب معاوية عرف ضجرَه، وعلِم أنه لا يقبل منه الإرجاء والمطاولة؛ فكشف له عن وجهه، وأظهره على دخيلة أمره، وكتب إليه: «أما بعد، فإن العَجَبَ من اغترارك بي، وطمعك فيّ، واستسقاطِك رأيي. أتسومُني الخروجَ من طاعة أَوْلى الناس بالإمرة، وأقولِهم للحق، وأهداهم سبيلًا، وأقربهم من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيلة؟! وتأمرني بالدُّخول في طاعتك، طاعةِ أبعدِ الناس من هذا الأمر، وأقولِهم للزُّور، وأضلِّهم سبيلًا، وأبعدهم من الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيلة، ولدِ ضالِّين مُضلِّين، طاغوتِ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥١.

من طواغيت إبليس؟! وأمَّا قولُك إني مالئٌ عليك مصر خيلًا ورجلًا، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسُك أهمُّ إليك؛ إنك لذو جَدٍّ، والسلام». فلما ورد معاويةَ كتابُ قيسٍ أيِسَ منه، وثقُل عليه مكانُه(١).

وكتابُ قيسٍ هذا حادٌّ كذُباب السيف، نافذٌ كسِنِّ الرُّمح، صنعَ حِدَّتَه ونفوذَه المقابلةُ الطويلةُ التي عقدها قيسٌ بين الرجلين المحتربين؛ في جُملٍ متناسبةٍ طولاً وقِصَرا، ومدحًا وذمًّا.

ويُزيل عليٌّ قيسًا عن ولاية مصر لشُبْهةٍ وردت عليه، ويعهد بأمرها إلى محمد بن أبي بكر، فلم يلبث معاويةُ أن كتب إلى محمدٍ ليُرْهبه ويُرْعبه: «أما بعد، فإنَّ غِبَّ البغي والظلم عظيمُ الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبُه من النقمة في الدنيا، ومن التَّبِعة الموبقة في الآخرة، وإنا لا نعلم أحدًا كان أعظم على عثمان بغيًا، ولا أسوأ له عيبًا، ولا أشدَّ عليه خلافًا منك؛ سعيتَ عليه في الساعين، وسفكت دمه في السافكين، ثم أنت تظن أني عنك نائمٌ أو ناسٍ لك، حتى تأتيَ فتأمَّرَ على بلاد أنت فيها جاري، وجُلُّ أهلها أنصاري، يرون رأيي، ويرقبون قولي، ويستصرخوني عليك. وقد بعثتُ إليك قومًا حِناقًا عليك، يستسقون دمك، ويتقربون إلى الله بجهادك، وقد أعطوا الله عهدًا ليمثِّلُنَّ بك، ولو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلَك ما حذَّرتُك ولا أنذرتك، ولأحببت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك وعَدْوِك على عثمان، يوم يُطعن بمشاقصك بين خُشُشائه(٢) وأوداجه، ولكن أكره أن أمثِّل بقرشي، ولن يسلمك الله من القصاص أبدًا أينما كنت، والسلام»(٣).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٢.

(٢) المشاقص جمع مِشْقَص، وهو نصلُ السهم إذا كان طويلًا غيرَ عريضٍ «لسان العرب: شقص».
والخُشُشاء: العظمُ الدَّقيق العاري من الشعر الناتئ خلف الأُذن «لسان العرب: خشش»

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠١.

ولعل معاوية قد أصاب بُغيته من الكتاب؛ فإن محمد بن أبي بكر لم يُحِرْ جوابًا، بل أرسل بالكتاب إلى عليٍّ، فردَّه عليٌّ إليه وأمره بمجاوبته. ولم تمضِ أيامٌ حتى كان جيشُ معاوية قد وطئ أرضَ مصر تحت راية عمرو بن العاص، فيهرب محمد بن أبي بكر، ثم يُقبض عليه فيُقتل شرَّ قتلة. ويَغلب معاويةُ على مصر ويستولي عليها[1].

(ب) كُتُبُ الخوارج:

وهنالك في العراق، في خِضمِّ هذه الحوادث المدلهمَّة، كانت الخوارج قد انتفضت منذ واقعة التحكيم، والتجؤوا إلى النهر، ومنذ ذلك الوقت لم يفتأ عليٌّ يكاتبهم، ويناصحهم، ويجلِّي لهم الأمور، فقد كتب إليهم مرةً يذكر لهم أن الحكمين قد خالفا كتاب الله، ولم يعملا بالسنة؛ «فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا، فإنا سائرون إلى عدوِّنا وعدوِّكم، ونحن على الأمر الأول الذي كُنَّا عليه، والسلام»[2].

فكتبوا إليه يتهمونه بأنه لم يغضب لربه بل غضب لنفسه، وطلبوا إليه أن يَشهد على نفسه بالكفر، ثم يستقبل التوبة؛ فإن هو فعل نظروا فيما بينه وبينهم، وإلا فإنهم منابذوه على سواءٍ، إن الله لا يحب الخائنين. فلما قرأه أَيِس منهم[3].

ثم إن هؤلاء الخوارج قتَّلوا الناس واستباحوا الدَّم، وأَمِن عندهم المعاهَد وخاف المؤمن، فقد عرضوا لرجلٍ مسافرٍ من المسلمين فقالوا له: أمسلم أنت أم كافر؟ فقال: بل أنا مسلم. قالوا: فما قولك في عليّ؟ قال: أقول فيه خيرًا، أقول إنه أمير المؤمنين وسيد البشر. فقالوا له: كفرتَ يا عدوَّ الله. ثم حملت عليه عصابةٌ منهم فقطَّعوه، ووجدوا معه رجلًا من أهل الذمة فقالوا: ما أنت؟ قال: رجلٌ من أهل الذمة. قالوا: أما هذا فلا سبيل عليه. فأقبل الذِّمِّيُّ فأخبر الناسَ الخبر، فكتب عليٌّ إلى زياد بن حَصَفَة: «أما بعد، فإني

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠١-١٠٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٧٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٧٨.

كنتُ أمرتك أن تنـزل دِير أبي موسى حتى يأتيَك أمري، وذلك لأني لم أكن علمتُ إلى أي وجه تَوجَّه القوم، وقد بلغني أنهم أخذوا نحو قرية يقال لها: نِفَّر، فاتبع آثارهم، وسلْ عنهم؛ فإنهم قد قتلوا رجلًا من أهل السواد مُصلِّيًا، فإذا أنت لحقتهم فارْدُدهم إليّ، فإن أَبَوْا فناجزهم، واستعن بالله عليهم؛ فإنهم قد فارقوا الحق، وسفكوا الدم الحرام، وأخافوا السبيل، والسلام»(١).

وكان هؤلاء الخوارج على رأسهم رجلٌ يُقال له: الخِرِّيت بن راشدٍ الناجي، أعيا الناس، حتى لقد كتب عليٌّ بن أبي طالب بسببه إلى العامَّة من المسلمين والنصارى والمرتدين؛ ليُفرِّقهم عنه، فيوهِّنَ من قوَّته: «من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى من يُقرأ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين، والنصارى، والمرتدين. سلامٌ عليكم وعلى من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه والبعث بعد الموت، وأوفى بعهد الله ولم يكن من الخائنين. أما بعد، فإني أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، والعمل بالحق، وبما أمر الله في الكتاب، فمَنْ رجع إلى أهله منكم وكفَّ يده واعتزل هذا الهالك الحاربَ الذي جاء يحارب الله ورسوله والمسلمين، وسعى في الأرض فسادًا؛ فله الأمان على ماله ودمه، ومن تابعه على حربنا والخروج من طاعتنا؛ استعنَّا بالله عليه، وجعلْنا الله بيننا وبينه، وكفى بالله نصيرًا»(٢).

ومما يُلحق بالفتنة أيضًا، بعد مقتل الإمام عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وموتِ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ كُتُبُ أهل الكوفة الكثيرة إلى حُسين بن عليٍّ؛ ليستقدموه للبَيْعة، ويتعجلوا منه المسير، ومما كتبوه فيها: قد اخضرَّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمَّت الجِمَام(٣)؛ فإذا شئتَ فاقدم على جُندٍ لك

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١١٧-١١٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢٦.

(٣) الجِمام: جمع جُمَّة، وهي الموضع الذي يجتمع فيه الماء «لسان العرب: جمم»، وطمَّت: أي: امتلأتْ «لسان العرب: طمم».

مُجنَّد، فكتب الحسين إليهم: «من حُسين بن عليٍّ إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين، أما بعد، فإن هانئًا وسعيدًا قدما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر مَنْ قدم عليَّ من رُسُلكم، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جُلِّكم: إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعثتُ إليكم أخي وابنَ عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنه قد أجمع رأيُ ملئكم وذوي الفضل والحِجى منكم على مثل ما قدمتْ عليَّ به رُسُلُكم، وقرأتُ في كتبكم؛ أَقدَمُ عليكم وشيكًا إن شاء الله؛ فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذُ بالقسط، والدائنُ بالحق، والحابسُ نفسَه على ذات الله، والسلام»[1].

فلمَّا تكشَّف أمرُ أهل الكوفة ليزيد بن معاوية، ولم يكن حسينٌ قد درى بما جرى، تخاذلوا عنه، وأسلموه فلم ينصروه، وكان ما كان، وقد كان عمرو بن سعيد بن العاص عاملُ يزيد على مكة كتب إلى الحسين بن عليٍّ على مشورةٍ من عبد الله بن جعفر، يثبِّطه، ويُكرِّه إليه الخروجَ إلى العراق، ويدعوه ليقيمَ بمكة، فإنَّ له عنده الأمان والصِّلة، والبرَّ وحُسن الجوار، فكتب إليه حُسين: «أما بعد، فإنه لم يُشاقق اللهَ ورسوله مَنْ دعا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعمل صالحًا، وقال إنني من المسلمين؛ وقد دعوتَ إلى الأمان والبر والصلة، فخيرُ الأمان أمانُ الله، ولن يؤمِّن الله يومَ القيامة مَنْ لم يَخَفْه في الدنيا، فنسأل الله مخافةً في الدنيا تُوجب لنا أمانَهُ يوم القيامة. فإن كنتَ نويت بالكتاب صِلتي وبِرِّي، فجُزيت خيرًا في الدنيا والآخرة، والسلام»[2].

فلم يُجْدِ الكتابُ مع الحُسين نفعًا، وكان أمرُ الله قَدَرًا مقدورًا.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٥٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣٨٨-٣٨٩.

[٥] الوَصَايَا المكتوبة

ومما يدخل في نثر الصحابة الكِتابيّ، الوصايا المكتوبة؛ ذلك أنَّ الوصايا إلا أقلَّها كانت تُلقى شَفَاهًا على من يُتوجَّه إليهم بالوصيَّة، ولم يسقط إلينا من الوصايا التي كتبها الصحابةُ إلا بضعُ وصايا، منها ما كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي عُبيدة إذ ولاه إمرةَ الجيش، يوصيه بتقوى الله، وبمن هم تحت يده من المسلمين، ثم كتب إليه في آخرها: «وقد أبلاك الله بي، وأبلاني بك؛ فغَمِّضْ بصرَك عن الدنيا، وأَلْهِ قلبَك عنها، وإياك أن تُهلكَكَ كما أهلكتْ مَنْ كان قبلك، فقد رأيتَ مصارعَهم»[١].

غير أنه من أجلِّ تلك الوصايا المكتوبة وصيةُ الموت التي كتبوها خوفَ الموت، أو التي كتبوها إذا أحسُّوا الموت. والأصل في كتابتهم هذه الوصايا امتثالُهم أمر النبي ﷺ إيَّاهم في الحديث: «ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يريد أن يوصيَ فيه يبيتُ ليلتين إلا ووصيَّتُه مكتوبةٌ عنده»[٢].

قال ابن عمر: ما مرت عليَّ ليلةٌ منذ سمعتُ رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيَّتي[٣].

وههنا أمران: أحدهما أن الأمر (بكتابة) الوصية وحِفْظِها ظاهرٌ من حديث النبي ﷺ، وفي قول ابن عُمر الأمارة الدالَّةُ على قِدَم هذا النوع من الكتابة، وهو الأمر الثاني.

فمن هذا النوع وصية عبد الله بن مسعود عند مماته إلى الزبير بن العوام ـ وكان النبي ﷺ آخى بينهما ـ فأوصى إليه وإلى ابنه عبد الله بن الزبير: «هذا ما أوصى

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٣٤.

(٢) رواه مسلم ٥/ ٧٠.

(٣) انظر: صحيح مسلم ٥/ ٧٠.

عبـدُ الله بن مسعود، إنْ حَدَثَ به حَدَثٌ في مرضه: إنَّ مرْجع وصيته إلى الزبير بن العوام وإلى ابنه عبد الله بن الزبير، وإنهما في حِلٍّ وبلٍّ فيما وليا من ذلك وقَضَيَا من ذلك؛ لا حرج عليهما في شيءٍ منه، وإنه لا تُزَوَّج امرأةٌ من بناته إلا بعلمهما، ولا يُحجر ذلك عن امرأته زينب بنت عبد الله الثقفية»، ومما أوصى به في رقيقه: إذا أدى فلانٌ خمسمئة فهو حُرّ. وأوصى أن يُكَفَّن في حُلَّةٍ بمئتي درهم. وأن يُدفن عند قبر عثمان بن مظعون(١).

وكثيرًا ما تكون هذه الوصية إلى أكبر الأبناء، كوصية عليٍّ بن أبي طالب إلى الحَسَن ابنه بِكْريِّ أولاده، وهي من أتمِّ وصايا الموت المكتوبة وأطولها فيما قد بلغنا.

في هذه الوصية ينادي عليٌّ ابنَه باسمه رحمةً منه وتَحنانًا، وحُزْنًا على فراق ولده، ثم لم يزل به يحُضُّه، ويوصيه في الأيتام، والجيران، والقرآن، والصلاة، والكعبة، والجهاد في سبيل الله، والزكاة، والذِّمِّيين، وأصحاب النبيِّ صلوات الله عليه، والفقراء، والمساكين، وما ملكت أيمانهم، وهو يسبق كلَّ فئةٍ من هؤلاء بقولته: «اللهَ اللهَ في كذا وكذا» تَكرارَ إغراء وحَثٍّ وتوصية، مُتْبعًا كلَّ واحدةٍ من وصاياه بتعليلٍ مبدوءٍ بفاء السببية. حتى إذا ما فرَغ من ذلك أوصاه بالصلاة، فكرَّرها بلفظها مرَّتين تنبيهًا على خطرها، ثم شرع في أمره بأشياء ونهيِه عن أشياء أخرى، فكتب رضي الله تعالى عنه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصى به عليٌّ بن أبي طالب: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. ثم أوصيك يا حسن وجميعَ ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، فإني سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول: «إن صلاح ذات

---

(١) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ١٤٦-١٤٧.

البين أفضل من عامة الصلاة والصيام»، انظروا إلى ذوي أرحامكم فصِلوهم يُهَوِّنْ الله عليكم الحساب. اللهَ في الأيتام، فلا تُعنوا أفواههم، ولا يضيعُنَّ بحضرتكم. واللهَ اللهَ في جيرانكم، فإنهم وصيةُ نبيِّكم ﷺ، ما زال يوصي به حتى ظننا أنه سيورِّثه. واللهَ اللهَ في القرآن، فلا يسبقنَّكم إلى العمل به غيرُكم. واللهَ اللهَ في الصلاة، فإنها عمود دينكم. واللهَ اللهَ في بيت ربكم فلا تُخلوه ما بقيتم، فإنه إن تُرِك لم يناظَر. واللهَ اللهَ في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. واللهَ اللهَ في الزكاة، فإنها تطفئ غضب الرب. واللهَ اللهَ في ذمة نبيكم، فلا يُظلمُنَّ بين أظهركم. واللهَ اللهَ في أصحاب نبيكم، فإن رسول الله أوصى بهم. واللهَ اللهَ في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم. واللهَ اللهَ فيما ملكت أيمانُكم. الصلاةَ الصلاةَ. لا تخافُنَّ في الله لومة لائم، يكفكم من أرادكم وبغى عليكم. وقولوا للناس حُسْنًا كما أمركم الله. ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، فيولِّي الأمر شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم. وعليكم بالتواصل والتباذل. وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق. وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب. حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيَّكم. أستودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله»[1].

إنَّ وصايا الموت من أصدق الوصايا وأبلغِها؛ لأنَّ الميِّت، وهو يرى آخر منازل الدنيا، وأولَ منازل الآخرة؛ يريد لأهله ومَنْ يُحبُّ الخير لهم أن يكونوا من الفائزين، وأن يقفوا على حقيقة ما هم فيه من الأمر.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٤٧-١٤٨.

[٦] كُتُبُ القَضَاءِ والعَدْل

أتينا على الحديث في خطب العدل لدى عمر بن الخطاب، وتبيَّن لنا هنالك ما لعُمر من وجهة في العدل، ونَصَبٍ للعملِ على إقراره وإشاعته في الخَلْق، وهنا يستكمل الخليفةُ الفاروقُ أفكاره في العدل عمومًا، وفي القضاء على جهةٍ خاصَّة، وهو يتوسَّع في حديثه عن القضاء في كتبه دون خطبه؛ لعله لما تُغرِي به الكتبُ صاحبَها من الرَّوِيَّة والتحرِّي وإدامة النظر.

وأشهر كتب الإسلام في القضاء قاطبةً، ولعله هو أشهرُ كتب الصحابة بإطلاقٍ؛ كتابُ عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعريِّ في القضاء، وهو كتابٌ اتَّخذه قُضاةُ المسلمين ومؤرِّخوهم أصلًا في عمل القاضي، وما ينبغي عليه أن يكون. وفيه يكتب عمرُ لأبي موسى قواعدَ القضاء وطريقة الحكم بين المختصمَيْن. فيذكر له أن التقاضيَ في الإسلام مستقرٌّ منذ القِدَم، والفَهْمُ أساسُه، وأنَّ رضا الناس شريفِهم وضعيفِهم السبيلُ إليه المؤاساةُ بينهم، وأنَّ البيِّنة في القضاء على مَنْ ادعى، واليمينَ على مَنْ أنكر، وإنه لأصلٌ كبيرٌ من أصول التقاضي. ويذكر له أن الصلح خروجٌ عن الحكومة، وهو جائزٌ، وله شروط، وأنَّ عُدول القاضي عن قضائه ورجوعَه إلى الحق إنْ أخطأه إحسانٌ وخير. ثم يحثُّه على فَهم ما يلتبس مما لم يظهر دليلُه له؛ وأن يتَّخذ القياسَ سبيلًا فيما خَفِي، وأن يجعل لمن ادَّعى حقًّا غائبًا أمدًا كي لا تطول المقاضاة. ثم يكتب إليه في عدالة الشهود، ومتى تسقط عنهم. ثم يختم الكتابَ بوصيَّته إيَّاه بما يلزم القاضي من الحِلْم والأناة والصبر، وينصحُه بالإخلاص لله، فإنَّ الإخلاص لله به يُقبَل العمل.

ولاشك في أنَّ عُمَر كان يستلهم من سيرة النبي ﷺ وعملِه في الحُكم بين المختصمين، ثم عمل أبي بكر، ثم ما أدَّته به خبرتُه، وما أداه إليه عِلْمُه وعمَلُه؛ فصاغ هذا الكتاب.

وصورة هذا الكتاب العظيم: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عُمر بن الخطَّاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلامٌ عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضةٌ محكمة، وسُنَّةٌ مُتَّبعة. فافهمْ إذا أُدلي إليك؛ فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحق لا نفاذ له. آسِ بين الناس في مجلسِك ووجهِك، حتى لا يطمع شريف في حَيْفِك، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عدلك. البيِّنةُ على مَنْ ادعى، واليمينُ على من أنكر. الصلحُ جائزٌ بين المسلمين، إلا صلحًا أحلَّ حرامًا، أو حرَّم حلالًا، ولا يمنعنَّك قضاءٌ قضيْتَه اليوم فراجعتَ فيه نفسَك، وهُديت لرُشْدك، أن ترجع إلى الحق؛ فإن الحق لا يُبْطِلُه شيء، واعلم أن مراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآنٌ ولا سُنَّة، ثم قِسِ الأمورَ بعد ذلك، ثم اعمَد لأحبِّها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعل لمن ادعى حقًّا غائبًا، أمدًا ينتهي إليه، فإنْ أحضر بينةً أخذ بحقِّه، وإلا اسْتحللتَ عليه القضاء. المسلمون عدولٌ في الشهادة إلا مجلودًا في حدّ، أو مجرَّبًا عليه شهادةُ زُور، أو ظنينًا في ولاءٍ أو قرابة؛ إنَّ الله تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات. وإيَّاك والقلقَ والضجرَ والتأذِّيَ بالخصوم في مواطن الحق التي يوجبُ الله بها الأجر ويُحْسِنُ الذُّخْر؛ فإنه مَنْ صلُحت سريرتُه فيما بينه وبين الله، أصلحَ الله ما بينه وبين الناس، ومَنْ تزيَّن للدنيا بغير ما يعلم الله منه، شَانَه الله؛ فإنَّ الله لا يقبل من عباده إلا ما كان خالصًا. فما ظنُّك بثوابٍ عند الله في عاجل رزقه وخزائنِ رحمته، والسلام»(١).

وكَتَبَ عُمرُ إلى أبي موسى كتابًا آخر، وكَتَبَ إلى معاوية وأبي عُبيدة بنحوه، وفيه: «أما بعد، فإنني كتبتُ كتابًا في القضاء لم آلُكَ ونفسي فيه خيرًا؛ الزمْ خمس خصالٍ يَسلمْ لك دينك، وتأخذْ فيه بأفضل حظِّك: إذا تقدم إليك خَصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة. وأدْنِ الضعيفَ حتى يشتدَّ قلبُه، وينبسطَ لسانه. وتعهد الغريب؛ فإنك

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٢٧-٤٢٩، وانظر: الفروق المفصَّلة بين الروايات هناك.

إن لم تتعهده تَرك حقَّه، ورجع إلى أهله، وإنما ضيَّعَ حقَّه من لم يرفُق به. وآسِ بينهم في لَحْظِك وطَرْفِك. وعليك بالصلح بين الناس مالم يستبن لك فصلُ القضاء»[1].

وهو كتابٌ حُجَّةٌ في استنباط البيِّنات من الغُرباء والمستضعفين، وأنه يجب على القاضي تألُّفُهم وتعهُّدُهم وتأمينُهم حتي يذهب عنهم الرَّوْعُ، وتزولَ منهم الوَحْشةُ، فينبسطَ الحقُّ على ألسنتهم؛ ذلك أن الحق قد يَضيع إذا خاف صاحبُه أو أَيِس منه.

كما أنه يُعَدُّ حُجَّةً في استحباب التقاضي، وأن لا يُكون ضَعْفُ الناس أو خوفُهم أو غُرْبتُهم سببًا من أسباب التجافي عنه. وقد كتب مرَّةً إلى أبي موسى: «إنه لم يزَل وجوهٌ يرفعون إلينا حوائجَهم، فأَكْرِمْ مَنْ قِبَلك من وجوه الناس، وبِحَسْب المسلم الضعيف من العدل أن يُنْصَف في الحكم وفي القَسْم»[2].

ذلك أنَّ الإنصافَ يُرضي الفقراء والضعفاء، ولا يرومون فوقه مَنْزِلًا.

وكتب إلى شُرَيْحٍ القاضي جوابًا عن سؤالٍ سأله، يخبره فيه أن القضاءَ يكون بكتاب الله، ثم بالسُّنة، ثم بقضاء الصالحين، ثم باجتهاد الرأي[3].

وكتب إلى أبي عُبيدة ومعاذٍ في اختيار القاضي أن: «انظروا رجالًا صالحين، فاستعملوهم على القضاء، وارزقوهم»[4].

وكتب إلى أبي موسى: «لا تستقضينَّ إلا ذا مالٍ وحَسَب؛ فإنَّ ذا مالٍ لا يرغب في أموال الناس، وإنَّ ذا حَسَبٍ لا يخشى العواقب بين الناس»[5].

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٥٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٠٣.

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٣٩.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٣٩.

(٥) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٣٧.

كل تلك الكتب إنما كُتِبَ بها ليُتحرى العدلُ بين الناس، وليُقام فيهم بأحسن الصور، وأصدقِها. وفي أمر العدل نفسِه -وهو معنًى أوسعُ من معنى القضاء- كتبوا كُتُبًا جليلة، ككتاب عمر بن الخطاب: «أما بعد، فإن الله جل وعلا أنزل في كل شيءٍ رُخصةً في بعض الحالات إلا في أمرين: العدل في السيرة، والذِّكْر. فأما الذِّكر فلا رُخصة فيه في حالة، ولم يرضَ منه إلا بالكثير. وأما العدلُ فلا رُخصة فيه في قريبٍ ولا بعيدٍ، ولا في شدةٍ ولا رخاء. والعدل وإن رُئي ليِّنًا: فهو أقوى، وأطفأ للجَوْر، وأقمعُ للباطل من الجَوْر. وإن رُئي شديدًا: فهو أنكشُ للكفر»(١).

كذا رأى عمرُ العدلَ أمرًا لا مَحيص عنه، ولا هَوَادةَ فيه، ولا ترخُّص فيه في قريبٍ ولا بعيد، وهو خيرٌ كلُّه في أحواله: حال رُئي ليِّنًا، وحال رُئي شديدًا؛ فإنَّ أحدًا لو رآه ليِّنًا ورأى الظُّلمَ أجدى منه في قمع الباطل؛ فإن عمرَ يرى العدل أقوى وأطفأَ للجَوْر، وأقمعَ للباطل من الجور. وإن رآه أحدٌ من الكفَّار صَعْبًا شديدًا، فهو إذ ذاك أنكشُ لكفرهم، وأشدُّ إظهارًا له.

فهذا كتابٌ إذن في مديحة العدل واستحسانِ دروبه، مهما اتَّسعتْ أو ضاقت في أعين الناس، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد ارتضى العدل لعباده كما ارتضاه لنفسه، وحرَّم عليهم الظلمَ وحرَّمه على نفسه.

إنَّ إيمان الصحابة بنحو هذه المعاني، هو ما حدا بالخليفة عثمان بن عفان أن يكتب في أول خلافته إلى الأمصار: «أما بعد، فإني آخذ العُمَّال بموافاتي في كل موسم، وقد سَلَّطتُ الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرْفعُ عليَّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيتُه، وليس لي ولعيالي حقٌّ قِبَلَ الرعيَّة إلا متروكٌ لهم، وقد رَفع إليَّ أهلُ المدينة أنَّ أقوامًا يُشتمون، وآخرون يُضربون، فيا مَنْ ضُرب سِرًّا، وشُتم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٥.

سِرًّا، من ادَّعى شيئًا من ذلك فليوافِ الموسم، فليأخذ بحقِّه حيث كان، منّي أو من عمالي، أو تصدَّقوا فإن الله يجزي المتصدِّقين». فلما قُرئ في الأمصار أبكى الناس ودعَوْا لعثمان[1].

ولا عجَب إذن إنْ رأينا الحَكَمَ بن عمرٍو[2] ـ وهو صحابيٌّ كان واليًا على خُراسان ـ وقد جاءه كتابُ زياد بن أبيه يأمره أن يصطفيَ لأمير المؤمنين الصفراء والبيضاء، وأن لا يقسمَ بين الناس ذهبًا ولا فِضة، فكتب إليه الحَكَمُ في شجاعة مَنْ تنشَّأ على العدل فلم يرضَ بسواه: «سلامٌ عليك، أما بعد، فإنك كتبتَ إليَّ تذكر كتابَ أمير المؤمنين، وإني وجدتُ كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السماواتُ والأرضُ رَتْقًا على عبدٍ فاتَّقى الله لجعل الله منهما مَخرجًا، والسلام عليك»، ثم قال للناس: اغدُوا على فَيْئكم فاقسموه[3].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٤٢.

(٢) هو الحكم بن عمرو بن مجدع بن حذيم، أبو عمرو الغفاري. صَحِب النبي ﷺ حتى مات، ثم نزل البصرة، وولاه زيادٌ خراسان فمات سنة خمس وأربعين. وقيل غير ذلك، انظر: الإصابة ٢/ ١٠٨.

(٣) الطبقات الكبير ٩/ ٢٨.

[٧] كُتُبُ العُمْرَان

جاء الإسلامُ دينَ مدنيَّةٍ وبناء، ذلك أنَّ إقامةَ المجتمعات الحضارية أدعى إلى تهذيب الأخلاق والأنفس، إذ يكون الإنسانُ قريبًا من مصادر المعرفة والإيمان، لا أن يكون بعيدًا منعزلًا وحدَه، نعم قد تكون العُزلةُ والبداوةُ مفيدةً لبعض الناس، ولكنها في عمومها ضارَّةٌ بصاحبها، موحِشةٌ لنفسِه وأخلاقه؛ ولذا حرَص النبيُّ ﷺ على إقامة مدينةٍ يجتمع إليه فيها الناس، وبَنى الصحابةُ من بعده المدن، وشيَّدوها، وأمدُّوها بكل ما من شأنه أن يُصلِحَ حالَها وآلَـها في الدنيا والآخرة. يعكسُ طرفًا من هذا كتبُ الصحابة في العُمران التي يمكن تقسيمُها قسمين: كتبٍ في وصف المدن والبقاع، وكتبٍ في الاجتماع والتمدين.

(أ) وَصْفُ المُدُنِ والبِقَاع:

يذهب غرنباوم G. Von Grunbaum إلى أنَّ «مدحَ المدن في الأدب العربي أمرٌ نادر الورود نسبيًّا، وإذا عثرنا على شيء منه فإننا نجد الناثر الواصف مُوجِزًا قصيرَ النَّفَس»(١). ثم يرى أنَّ هذا يُفسِّر ظاهرتين: أنَّ المدنَ لم يكن لها خطرٌ كبيرٌ في الفترة الجاهلية، وأنَّ أسلوبَ بعض هذا المدح للمدن يرجع في أصله «إلى الأساليب التي تبدو لنا في الترانيم المسيحية وما إليها من أدبٍ مشابه». ثم لم يذكر ما يؤيِّد مذهبه، بل قال: «وهو أمرٌ يرجو كاتبُ هذه السطور أن يُدلِّلَ عليه في غير هذا المقام».

ولعلنا نتفق معه في مسألة قِصَر النفس، ولا سيَّما فيما يتعلَّق بمدح المدن لا بوصفها، فسوف تأتينا أوصافٌ لمدن ليست بقصيرة النفس. أما أنَّ هذه المدائح إنما كانت من أثَرٍ مسيحيٍّ فهذا ما لا نوافقُه عليه. لأنَّه قد ظهرتْ أوصافٌ تمدحُ المدن قبل أية بادرةٍ لاتصال المسلمين بالمسيحيَّة، أعني ذلك الاتصال الذي قد يُزعَمُ فيه التأثيرُ والتأثُّر.

---

(١) مدحُ المدن في النثر العربي، ضمن: دراساتٍ في الأدب العربي، لغوستاف فون غرنباوم G.Von Grun-baum ص٢٢٨، ترجمة أنيس فريحة، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٩م.

ولعل أقدم وَصْفٍ لمدينةٍ عند الصحابة وصفُ أُصَيْلٍ الهُذَليِّ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لـمَّا سُئل بمحضَر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أُصيل، كيف تركت مكة؟ قال: «اخضرَّتْ أجْنَابُها، وابيضَّتْ بَطْحاؤها، وأغدَقَ إِذْخِرُها، وانتشر سَلْمُها». فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حسبُك يا أُصيل، لا تُحزنَّا»[2]. وفي رواية: قال: «تركتُها حين ابيضَّتْ أباطحُها، وأحجَن ثُمامها، وأعذَق إذخِرُها، وأَمْشَر سَلْمُها[3]»، فاغرورقت عيناه صلواتُ ربي وسلامه عليه، وقال: «لا تُشوِّقُنا يا أُصيل!»[4]. وهو وصفٌ مختصر لمكة من عينٍ معجَبٍ مستَهام؛ آيةُ ذلك ما تركه هذا الوصفُ من شَجَنٍ في نفْس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما خلَّفَه من آثارِ الحنينِ إلى بلده الذي ولد فيه، ووطَنِه الذي على ثراه دَرَج.

وكان عُمر بن الخطاب خاصَّةً يستكتب أمراءه في وصف البُلدان وبقاع الأرض[5]، إمَّا ليَعلم حالها وحال أهلها من أجل الحرب، وإمَّا ليُنشئ مدينةً جديدة. وكانت نزعةُ العُمران لدى الصحابة نزعةً مُتغلِّبةً ورثوها عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكانت حاجتُهم إلى بناء المدن على الثغور شديدة، حتى يكون ثَمَّةَ مُسلَّحةٌ وجنود يذودون عمَّن وراءهم من المسلمين، ويدفعون العدوَّ عنهم، ويثبِّتون أركان الدولة الإسلامية الفتيَّة في مواطن جديدةٍ من الأرض؛ عسى الله أن ينشر من تلك المواطن الجديدةِ دينَه، وأن تكون سَعَةً على المسلمين.

---

(١) وقيل: الغِفاريّ، وقيل: الخُزاعي، صحابيّ، انظر: ترجمته، في الإصابة ١/ ٩٣.

(٢) الإصابة ١/ ٩٣، ومن طريقٍ آخر أنَّ النبي ﷺ قال له: «وَيْهًا يا أُصَيْل، دعِ القلوبَ تقَرّ» انظر: الإصابة ١/ ٩٣.

(٣) احْجَنَ الثُّمام: خرجت حُجْنَتُه، وهي خوصه «لسان العرب: حجن». وأعذق إذْخرها: صار له ثمر، وصارت له عذوق وشُعَب «لسان العرب: عذق». وامْشَرَ سلمُها: أي: خرج وَرَقُه، واكتسى به «لسان العرب: مشر».

(٤) الروض الأنف ٣/ ٢٥.

(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩١، وانظر: صناجة الطرب في تقدمات العرب، تأليف نوفل أفندي ابن نعمة الله الطرابلُسي، ص٢١٤، مطبعة الأمريكان ببيروت.

ووصْفُ الصحابة للمدن مختلِفٌ بين الطول والتفصيل، والاقتضاب والقِصَر. ولم يقتصر وصفهم على اليابسة وحدَها، بل تجاوزها إلى البحر، بما يمكن أن نعدَّه أدبًا جغرافيًّا وليدًا أنشأه الصحابة؛ نعم وإن قل مقدارُه أو ضَؤُل.

ونحنُ نقرأ في كتابٍ لمعاوية بن أبي سفيان، وقد أراد أن يُقرِّب إلى ذهن الخليفة عُمر صورةَ قُرْبِ جزيرة قبرص من الشام، وخطورةَ ذلك على المسلمين؛ ترغيبًا له إلى فتحها؛ فيقول له: «يا أمير المؤمنين، إن بالشام قريةً يَسمعُ أهلُها نُباحَ كلاب الروم، وصياحَ ديوكهم، وهم تِلقاء ساحل من سواحل حمص»[1]. فكأنما خَطَّ معاويةُ خطوطًا عريضةً لخريطة بدائيةٍ تُحدِّد مكان الجزيرة، وأنها قريبةٌ تقابل مدينة حمصٍ تجاه البحر، ومع أن وصف معاوية لقرب المدينة بسماع أصوات مَنْ فيها ربما لا يخلو من المبالغة الأدبيَّة إغراءً لأمير المؤمنين بالفتح، إلا أنَّ هذا لا يمنع أن الخرائط الجغرافيَّة الحديثة تُصدِّق ما جاء في كتاب معاوية من تحديد موقع الجزيرة وقربها.

على أن عُمر ـ وكان رجلًا ذا أناةٍ ورأي ـ لم يرضخ لنَهَم معاوية في الفتح، كلا، ولا هو وقع في إسار تخويفه، بل إن عُمر اتَّهمه في رأيه؛ لأنه المشير، وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر، أنْ صِفْ لي البحر وراكبَه؛ فإنَّ نفسي تُنازعُني إليه. فكتب إليه عمرٌو كتابًا كأنه قصيدةٌ، يُهوِّل عليه شأنَ البحر، ويُعظِّم ركوبَه، وكأن عَمْرًا وهو العالم بخوف عُمر على المسلمين يصرفُه صرْفًا إلى ثني معاوية عن المَضاء في ذلك الغزو.

وكتابُ عَمرٍو هذا في وصف البحر، لا في وصف البَرّ، ولعله الكتابُ البَحْريُّ الوحيد المعروفُ للصحابة، وقد نَسَخَ فيه عمرُو بن العاص هذه الكلماتِ البليغات: «يا أمير المؤمنين، إنَّ البحر خَلْقٌ عظيم، يركبه خَلْقٌ صغير، إنْ ركُن خَرَّق القلوب، وإن تحرَّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقينُ قِلَّةً، والشكُّ كثرةً، ليس إلا السماءُ والماء! هم فيه كدُودٍ على عُود؛ إن مالَ غَرِق، وإن نجا بَرِق»[2].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٩.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٨.

لقد رأينا كيف استقام لعَمرٍو هَوْلُ الوصف بالمقابلة والتشبيه، والجناس والسجع، لم تَخْلُ جملةٌ من جمل الكتاب من أولئك، وكأنَّ عَمرًا صَحَّتْ نصيحتُه في قلبه، فأدَّاها كما أحسَّ بها على رُقعة الكتاب. ولا عَجَب أن نسمع بعد هذا الكتاب أنَّ عُمر بن الخطاب كتب إلى معاوية: «لا، والذي بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا»[١].

ولعَمرٍو -هذا الوصَّاف- كتابٌ آخر يُروى في وصف مصر، كتبه جوابَ كتابٍ لعُمر بن الخطاب يطلب إليه فيه وصف مصر، ونِيلها، وأحوالِها، وما هي عليه حتى كأنه حاضرُها. فكتب إليه عَمرُو كتابَ مَن استهواهُ الطَّلَبُ، وراقَ له: «أما بعدُ، يا أمير المؤمنين؛ فإنها تُربةٌ غبراء، وحشيشةٌ خضراء، بين جبلين، جبلِ رمل كأنه بطنٌ أقبّ، وظهرٍ أجبّ. ورزقُها ما بين أسوان إلى منشا من البر. يخطُّ وسطها نهر مبارك الغدوات، ميمون الروحات، يجري بالزيادة والنقصان، كمجاري الشمس والقمر. له أوانٌ تظهر إليه عيون الأرض ومنابعُها، مُسخَّرة له بذلك ومأمورة له. حتى إذا اطلخمَّ عَجاجه، وتغطغطت أمواجه، واغلولوت لُجَجُه؛ لم يبق الخلاص إلى القرى بعضها إلى بعض، إلا في خفاف القوارب، أو صغار المراكب، التي كأنها في الحبائل ورق الأبابيل... ثم انتشرت بعد ذلك أمَّةٌ مخفورة، وذمَّة مغفورةٌ، لغيرهم ما سعَوْا به من كدِّهم، وما ينالوا بجهدهم، شَعَثوا بُطون الأرض وروابيها. ورمَوْا فيها من الحبّ، ما يرجون به من التمام من الربّ. حتى إذا أحدق فاستبق وأسبل قنواته، سقى الله من فوقه الندى، ورواه من تحته بالثرى. وربما كان سحابٌ مكفهرٌ، وربما لم يكن. وفي زماننا ذلك، يا أمير المؤمنين، ما يغنِّي ذبابه، ويدرُّ حلابه. فبينما هي بريَّةٌ غبراء، إذ هي لُجَّةٌ زرقاء، إذ هي سُندسيَّةٌ خضراء، إذ هي دِيباجةٌ رقشاء، إذ هي درَّةٌ بيضاء، إذ هي حُلَّة سوداء؛ فتبارك الله أحسنُ الخالقين»[٢].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٩، وقد كان؛ إذ لم يحمل عُمر في البحر مسلمًا أبدًا.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٩٧-٥٠٠.

وقد شكَّ الدكتور شوقي ضيف في صحة نسبة هذا الكتاب إلى عَمرو[1]، ولكنه لم يذكر أسباب شكِّه، ولعلنا نميل معه إلى أنه قد دخلَ في الكتاب شيءٌ من الزيادة من قِبَل الرواة، كبعض تلك المواطن المسجوعة فيه. ومن الباحثين مَنْ أطرى الكتابَ فبالغ في إطرائه، كالمستشرق الفرنسي لوزان الذي ترجمه إلى غير لغة، وقال في نعته ـ فيما نقله الكتّانيُّ عنه ـ: إنه من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم. وقال عنه: إنه من الفرائد في إيجازه وإعجازه، واقترح وجوبَ تدريسه في جميع مدارس المعمورة، حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومتانة التعبير صحةَ الحُكم على الأشياء، وكيفيةَ تنظيم الممالك وسياسةَ الاستعمار. اهـ وقد ترجم هذا الوصف من مؤرِّخي الإنجليز المؤرخ جبون، والدكتور بطلر[2].

كما أن الإحسان في وصف المدن والأصقاع لم يقتصر على عمرو بن العاص وحده؛ فإن لنا من الصحابة وصَّافًا آخر هو سعد بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في وصفه البارعِ للقادسية.

والظاهر أن القادسية كانت أرضًا معروفةً للعرب، آيةُ ذلك ما جاء في كتابٍ لعُمر إلى سعد وهو في طريقه إليها، أنَّ عمر قال في وصفها يُعرِّفه بها: «وإذا انتهيتَ إلى القادسية والقادسيةُ بابُ فارسٍ في الجاهلية، وهي أجمعُ تلك الأبواب لمادَّتهم، ولما يُريدونه من تلك الآصُل، وهو منزلٌ رغيبٌ، خَصيبٌ، ودونه قناطر، وأنهارٌ ممتنعة...»[3].

ثم إن عُمر كتب إلى سعدٍ بعد بلوغ سعدٍ القادسية أن: «صف لنا منازل المسلمين، والبلدَ الذي بينكم وبين المدائن صفةً كأني أنظر إليها»[4].

---

(١) انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف، ص٩٨.

(٢) انظر: التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العليَّة، للكتاني، أبي الإسعاد عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي ٢/ ٢٦٧، المطبعة الأهلية بدرب الفاسي، الرباط ١٣٤٦هـ، وقد نقل كلمة لوزان عن جريدة الفيجارو الفرنسية من غير إحالةٍ على العدد، وهي طريقة لا تُستغرب في ذلك الوقت.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩١.

وكأن عُمر بسؤاله هذا إلى سعدٍ - وبالسؤالِ مثله إلى عمرٍو - يوقظ ما في نفوس الصحابة من حاسَّة التأمل والوصف؛ فهو المشجِّعُ الأول لهذا الفنِّ في الإسلام في غالب الظنّ.

ولعل سعد بن أبي وقاص استلْهم كلمات عمر في وصف القادسية فبنى عليها، إذ كتب في وصفه إيَّاها إلى عُمر: «إن القادسية بين الخندق والعتيق، وإنَّ ما عن يسار القادسية بحرٌ أخضرُ في جوفٍ لاحٍ إلى الحيرة بين طريقين؛ فأما أحدُهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يُدعى الحضوض، يَطّلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة، وما عن يمين القادسية إلى الولَجَة فيضٌ من فيوض مياههم»(١).

لكأننا ونحن نقرأ كتابَ سعدٍ أمام قطعةٍ من كتابٍ بُلدانيٍّ عتيقٍ ككتاب ياقوت، ولكنَّ القطعة مع هذا نثرٌ شِعريٌّ رائق، أو وصفٌ أدبيٌّ بالغ الأسر، آخِذٌ باللُّبّ، لم يشغَل صاحبَه أداءُ العلم عن الوفاء للفنّ، كلا ولا قَهَره شُموقُ العبارة فقَصَّرَ عن بلوغ الغاية.

وإن تلك من الأسباب التي جعلت ياقوتًا نفسه واقعًا في إسار تلك القطعة، فلم يملك إلا أن نقلها في كتابِهِ كما هي نقلًا تامًّا أمينًا مُبرَّأً من الزيادة والنقص، نقلَ مفتونٍ مُعْجَب(٢).

إن كتاب سعد هذا خارطةٌ قديمةٌ لبلدة القادسية قُبيل بنائها، بيد أنها خارطةٌ مكتوبةٌ لا مرسومة(٣)، ولم يكن وصف سعدٍ للقادسية آخرَ أوصاف سعدٍ البُلداني، فإن له وصفًا آخر للكوفة مختصرًا، ولكنه مع ذلك دالٌّ ومعبِّرٌ(٤).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٢.

(٢) انظر: معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي: مادة: ق أ. تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) أو كما سماها الدكتور ياسين سويد: «الرسالة الخارطة»، وأن عمر بن الخطاب يُعد أول قائد عربي مسلم يعتمدها، انظر: الفن العسكري الإسلامي: أصوله ومصادره، للدكتور ياسين سويد، ص٢٧١، وانظر: الخرائط الملحقة بالكتاب ص٢٧٦-٢٨٢ لترى دقة ما كتبه سعدٌ إلى عُمر.

(٤) هو كتاب سعدٍ إلى عمر لما نزل الكوفة: «إني نزلتُ بكوفةٍ بين الحيرة والفرات، بريًّا بحريًّا، يُنبتُ الحِليَّ والنَّصيّ»، تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٣، ولعله أولُ وصفٍ للكوفة على الإطلاق.

(ب) كُتُبُ الاجْتِماعِ والتَّمَدِينِ:

الإسلام بطبيعته دينٌ نزَّاعٌ إلى المدنية، مُجافٍ للبداوة والإعراب، ولنا في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٩٧]. خيرُ شاهد على ما نقول، وإن جاءت الآية الثانية مستثنيةً بعض الأعراب من هذا الحكم الجامع، إلا أنَّ الحكمَ باقٍ على أصله. وبسببٍ من ذلك حَرَص الصحابةُ على التمدين، والتمصير، وتخطيط المدن الجديدة، ثم دأبوا على عمارة تلك المدن بالبشَر، وإمدادِهم بكل ما من شأنه أن يُصلِحَ معيشتهم من رزقٍ وتعليمٍ ورعاية. ثُم إنهم نظروا كذلك في الذي يُرَفِّه عنهم، وفيما يُترِف حياتهم بما لا يضُرُّ دينَهم أو دنياهم.

فتراهم يكتبون في شأن تقسيم المدن المفتوحة وأهلها على المجاهدين، فيأبى عليهم عُمر، ويأمرهم بأخذ الجزية من أهلها، وأن تبقى أرضُهم غَلَّةً لأولاد المسلمين يأكلون منها ما بقوا. والخليفةُ بمثل ما في هذا الكتاب لا يعمل لنفسه ورعيَّته فقط، بل يعمل لمن سيأتي من المسلمين بعدُ في قابل الأيام. إنَّ عمر يحمل همَّه وهَمَّ المسلمين الآتين بعدَه، وقد كتب في المعنى إلى أبي عُبيدة: «فإذا أخذتَ منهم الجزية، فلا شيء لك عليهم ولا سبيل. أرأيتَ لو أخذْنا أهلَها فاقتسمناهم، ما كان يكون لمن يأتي بعدهم من المسلمين؟ والله ما يجدون إنسانًا يُكلِّمونه، ولا ينتفعون بشيءٍ من ذات يده. وإنَّ هؤلاء ما يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء، فإذا هلكنا وهلكوا أكل أبناؤنا أبناءهم أبدًا ما بقُوا؛ فهم عَبيدٌ لأهل دين الإسلام، ما دام دينُ الإسلام ظاهرًا. فاضربْ عليهم الجزية، وكُفَّ عنهم السَّبي، وامنعْ المسلمين من ظلمهم، والإضرار بهم، وأكْلِ أموالهم إلا بحِلِّها، وفِ لهم بشرطهم الذي شرطتَ لهم في جميع ما أعطيتَهم»[1].

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٨٤-٤٨٥.

وفي هذا الكتاب أيضًا عُنصرٌ من عناصر المدنية الإسلامية التي سنَّها عمر؛ إذ ذهب في كتابه إلى ضرورة تمييز مدينة الإسلام عن مدينة غيره بإظهار شعائر الإسلام فيها، وكفِّ طقوس الوثنية والشرك والصليب عنها، وأن لا يُسمح منه إلا بقليلٍ بما لا يُزعزع سُلطانَ الإسلام وأهله، وبما لا يُخِلُّ بعهدٍ أو أمانٍ أوجبه المسلمون على أنفسهم، قال: «وأما إخراج الصُّلْبان في أيام عيدهم فلا تمنعْهم من ذلك خارج المدينة بلا رايات ولا بُنود، على ما طلبوا منك يومًا في السنة. فأما داخل البلد بين المسلمين فلا تُظهَرُ الصُّلْبان»(١).

وفي العُمران أيضًا، وفي السياسة أن المدن لا تقومُ نهضتُها إلا بالجد والمثابرة، وأن المدن الـمُجدَّدَة ـ التي خير أمثلتها المدينة الإسلامية في ذلك الوقت ـ ينبغي أن تنبذ الخرافات من عقيدة آهليها، وكتاب عُمر إلى عمرو بن العاص في قضية بطاقة النيل معروفٌ مشهور، وفحواها أنه لما افتُتحت مصر أتى أهلُها عمرَو بن العاص، فأخبروه أن لهم سُنَّةً لا يجري النيل إلا بها، وذلك أنهم يعمدون إلى جارية بِكْر فيُلبسونها أحسن الثياب والحُليّ، ثم يُلقونها في يوم معيَّن من أيام السنة في النيل، فأنكر عَمرٌو فعلتَهم، وقال: هذا مما لا يكون في الإسلام؛ إن الإسلام يهدم ما قبلَه. فأقاموا ثلاثةَ أشهر والنيل لا يجري قليلًا ولا كثيرًا، فكتب عمرٌو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر أنْ أصبتَ، وإني قد بعثتُ إليك ببطاقة داخلَ كتابي، فألقها في النيل، والبطاقة مكتوبٌ فيها: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر. أما بعد، فإن كنتَ تجري من قِبلك فلا تجرِ، وإن كان الله الواحد القهَّار الذي يُجريك فنسأل الله الواحدَ القهَّار أن يُجريَك»(٢). فأصبحوا وقد أجرى اللهُ النيل ستةَ عشر ذراعًا في ليلةٍ واحدة.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٨٥.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحَكَم، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، ص١٦٦، تحقيق محمد الحجيري، دار الفكر، بيروت، ط١/ ١٤١٦هـ.

فهذا كتابٌ - إن صحَّ - نادرٌ، ووجه النُّدرة فيه أنه مكتوبٌ من عاقلٍ إلى غير عاقل.

ونحن لا نُنكر مضامين مثل هذه الأخبار، فقد صحَّ عن هؤلاء السلف الصالحين من الكرامات ما هو أكبرُ وأجلّ. ولكنَّ ما نبغي إثباتَه هنا أن رجالَ الصحابة كانوا يجهدون في قطع أواصر الجاهلية المتينة التي كانت تتعلق بها القلوب قبل إسلامها، لئلا يركنَ الناسُ إلى شَعْوَذاتٍ تمنعهم من الجِدِّ والعمل.

ذلك، ولم تكن قضيةُ التمدين عند الصحابة خبطَ عشواءٍ من غير حسابٍ ونظَر، فإنَّ في كتبهم - والكتبُ صورةٌ لنظام الدولة - إحصاءً للناس، ومَسْحًا للأرض؛ فقد جمع سعد بن أبي وقاص مَنْ وراء المدائن وأمر بإحصائهم، فوجدهم بضعةً وثلاثين ومئة ألف، ووجدهم بضعةً وثلاثين ألف أهل بيت، قِسْمتُهم ثلاثةٌ لكل رجل ذي أهل، وكَتَبَ بالإحصاء إلى عُمر[1].

وفي مِساحة الأرض - أرض العراق - كتب عُمر إلى عثمان بن حُنيف وقد بعثه ليمسحَ أرض العراق، أن لا يمسح تَلًّا، ولا أَجَمَةً، ولا سبخةً، ولا مستنقعَ ماء، ولا ما لا تبلغُه المياه[2]. أي: أنه أمره بمسح الصالح النافع الـمُدرِّ منها حتى لا يُظلم الناسُ فيحمل عليهم من الخراج ما لم ينتفعوا به، وحتى يكون ضبطُ الغَلَّة عادلًا سديدًا. وفي هذا معرفة الخليفة وتصوُّره لما يقع تحت ملكه من حدود الأرض؛ فيصرف إليه المسلمين كيفما يشاء.

إنَّ من أصول المَدَنيَّة عند الصحابة أيضًا أنهم كانوا يرَوْن (العاصمة) أجلَّ المدن وأولاها بالرعاية والعناية؛ فهي بَيْضةُ الإسلام، ومَنْشأ الجيوش، ومعقِلُ أهل السابقة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٠.

(٢) انظر: كتاب الأموال، لابن زنجويه ١/ ٢١٣.

من أهله. ولذا انزعج عُمَرُ ولم يغمض له جفنٌ لـمّا نزل البلاء بأهل المدينة عام الرمادة، وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر، فكتب إليه عمرٌو أن البحر الشآميَّ الذي حُفر لمبعث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسدَّه الرومُ والقبط، لو حُفر له نهرٌ وبنيت له قناطر قام سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر، فكتب إليه عُمر أن افعل وعجِّل، فقال له أهل مصر: خراجُكَ زاجٍ[1]، وأميرك راضٍ، وإن تم هذا انكسر الخراج. فكتب إلى عمر بهذا المعنى، وذكر أن فيه انكسار خراج مصر وخرابها، فكتب إليه عمر: «اعمل فيه وعجِّل؛ أخرب الله مصر في عُمران المدينة وصلاحها»[2].

فتلك غضبةٌ من عُمر على الأقاليم وأمرائها إذا مُسَّتْ المدينة ـ حاضرةُ الإسلام وقصبتُه ـ بسوء، وهي غضبةٌ حضاريةٌ لا جرم، يفهمُها كلُّ من يفقهُ في العُمران والسياسة.

ومن أُسس المدنية الراسخةِ عندهم العنايةُ بالناس ورعايةُ أبدانهم، وكان سعيُهم أن لا يَخُطُّوا مدينةً إلا وهم مطمئنون إلى جودة هوائها وطُهر تُربتها، فقد رووا أن الوفود قدمت على عُمر بفتح جلولاء وحلوان وتكريت، فلما رآهم قال: والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم عليها بها، ثم كتب إلى سعدٍ: «أنبئني: ما الذي غيَّر ألوان العرب ولحومهم؟»، فكتب إليه: «إن العرب خدَّدهم وكفى ألوانهم وخومةُ المدائن ودجلة». فكتب إليه عمر: «إنَّ العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلَها من البُلدان، فابعث سَلْمان رائدًا وحذيفة ـ وكانا رائدي الجيش ـ فلْيرتادا منزلًا بريًّا بحْريًّا، ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جِسْر»[3]. فاختطَّ لهم سعدٌ مدينة الكوفة، فتحوَّلت العربُ من المدائن إليها.

---

(١) التزجية: دفْع الشيء «لسان العرب: زجا»، والمعنى خراجُك مَسُوقٌ متيسِّر الجباية.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٠٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤١.

وإنْ هم حرَصوا على الأبدان لقد حرَصوا على الأخلاق والعقول، فإن بهذه الثلاث قوام المدن وتحضُّرُها. وكانوا يأمرون الناس بالرياضة كما يأمرونهم بتعلُّم القرآن على حَدٍّ سواءٍ، فقد كتب عمر إلى أمراء الشام أن يتعلَّموا الغَرَض، ويمشوا بين الغَرَضيْن حُفاة، وأمرهم أن يُعلِّموا صبيانهم الكتابةَ والسباحة[1].

وكان عُمر يكتب إلى الصحابة يأمرهم بإقراء القرآن وتعليمِه بلغة قريش، وأن لا يُقرئوهم بلغة هُذَيْل[2]، وهذا يُشبه أن يكون توحيدًا لمنهج تعليم القرآن في ذلك العصر.

وكان يكتب إلى عُمّاله يأمرهم أن يُعطوا الناس على تعلُّم القرآن؛ تشجيعًا لهم وتحفيزًا[3].

وفي البناء الأخلاقيّ يحضرنا كتابٌ لعُمر بعد ما أقام والِ الحدَّ على بعض مَن شرب الخمر، فعيَّرهم الناس، فكتب عمر كتابًا عامًّا إلى الناس أن: «عليكم أنفسَكم، ومَن استوجب التغيير فغيِّروا عليه، ولا تُعيِّروا أحدًا فيفشوَ فيكم البلاء»[4].

نخرج من هذا الكتاب بأن الأخلاق كانت أصلًا من أصول بناء المدن وعُمرانها في نظر الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن طريف مدنيَّتهم رَهافةُ حِسِّهم في معاملة آثار مَنْ سبقهم من الأمم، وعِلْمُهم بها، وصيانتُها، ورعايتُها. وتلك غايةٌ في المدنيَّة متقدِّمة. مثال هذه الرهافة أنه لما فُتحت السُّوس، وكان عليهم أبو موسى الأشعري، وجدوا نبيَّ الله دانيال في إبرن، وإلى جنبه

(١) انظر: المصنف، لعبد الرزّاق ٩/ ١٩.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، ص٧٤٤.

(٣) انظر: كتاب الأموال، لابن زنجويه ٢/ ٥٧٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٩٧.

مالٌ موضوعٌ، وكتابٌ فيه: مَنْ شاء أتى فاستقرض منه إلى أجَل، فإن أتَى به إلى ذلك الأجلِ وإلا بَرِص. فكتب عُمر إلى أبي موسى في شأنه: «كَفِّنه، وحنِّطْه، وصلِّ عليه، ثم ادفنه كما دُفنت الأنبياءُ ـ صلوات الله عليهم ـ وانظر مالَه فاجعله في بيت مال المسلمين».
فكفَّنَه في قباطيَّ بِيضٍ، وصلَّى عليه ودَفَنَه(1).

(1) مجموعة الوثائق السياسية، ص527، وانظر: تاريخ الرسل والملوك 4/ 93، وانظر في تفصيل هذه القصة من دون رواية الكتاب: الفتوح، لأحمد بن أعثم الكوفي 2/ 273، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ط1/ 1411هـ.

[٨] الكُتُبُ الإِخْوانيَّة

للصحابة كُتُبٌ إخوانيةٌ، على خلافٍ مع من نفى هذا النوعَ من الكتب عنهم[١].

وقد اجتهد القَلْقَشَنْديُّ في جمع أبواب الكتب المنسوبة إلى الأُخُوَّة فجعلها ستةَ عشر بابًا[٢]، ولاشكَّ أن الصحابة قد كتبوا في بعض تلك الأبواب، بل زادوا عليها أبوابًا أخرى[٣].

ولعل أقدم كتابٍ إخوانيٍّ كَتَبَه صحابيٌّ هو ذلك الكتابُ الذي أرسله عمرُو بن حزمٍ الأنصاريُّ إلى أخيه في الإسلام، النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرِحًا بمولودٍ وُلِدَ له، فسمَّاه على اسمه محبَّةً واشتياقًا، وقال له فيه: «إنه قد وُلد لي مولودٌ فسمَّيتُه محمدًا، وكَنَّيتُه أبا سُليمان»[٤].

وفي مسائل الزواج والخِطْبة كتب عثمان بن عفان إلى سعيد بن العاص، وقد بلغه زواجُ سعيدٍ من هند بنت الفَرَافِصة بن الأحوص الكلبيّ؛ فقال: «أما بعد، فإنه قد بلغني أنك تزوَّجتَ امرأة من كَلْب؛ فاكتب إليَّ بنسَبها وجمالها»؛ فكتب إليه سعيدٌ كتابًا موجزًا به وصفٌ عُذْريٌّ كافٍ، لا يخدش الحياء: «أما بعد، فإنَّ نَسَبَها أنها بنت الفرافصة بن الأحوص، وجمالُها أنها بيضاء مديدة»، فكتب إليه: «إن كانت لها أختٌ فزوِّجنيها»، فبعث سعيدٌ إلى الفرافصة يخطب إحدى بناته على عثمان، فزوَّجها إيَّاه[٥].

(١) لم يُثبت الدكتورمحمود المقداد للصحابة في دراسته: تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام ص٩٨؛ إلا رسالةً «شخصيةً» واحدة، هي رسالة عمرو بن حزم إلى النبي ﷺ التي ستأتي، ثم ذهب إلى أنها موضوعةٌ في غالب الظن.

(٢) هي: التهاني، والتعازي، والشفاعات، والتشوُّق، والاستزارة، واختطاب المودَّة، وخِطبةُ النساء، والاسترضاء، والاستعطاف، والاعتذار، والشكوى، واستماحة الحوائج، والشُّكر، والعتاب، والعيادة، والذَّم، والمداعبة، انظرها في فهرس الجزء التاسع من صبح الأعشى.

(٣) كموعظة الإخوان، وتسليتِهم والتخفيفِ عنهم كما سيرد.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٧٨.

(٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين بن محمد ١٥/ ٦٧ طبعة الساسي، بتصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم بمصر.

وبلغ عُمرَ بن الخطاب أن حُذيفة بن اليمان واليَه على المدائن تزوَّج امرأةً من أهلها من أهل الكتاب، فكتب إليه: «إنه قد بلغني أنك تزوجتَ امرأةً من أهل المدائن من أهل الكتاب؛ فطَلِّقها». فكتب إليه: «لا أفعل حتى تخبرَني: أحلالٌ أم حرام، وما أردتَ بذلك؟». فكتب إليه: «لا بل حلال، ولكنْ في نساء الأعاجم خَلابة، فإن أقبلتُم عليهنَّ غلبْنكم على نسائكم». فقال: الآنَ. فطلَّقَها[1].

فتلك كتبٌ متعاقبةٌ في أمور خصوصيةٍ لا تمسُّ السياسة ولا الجهادَ ولا سواهما من عظيم الأمور وكبيرها. وقد تواترتْ واختلفتْ بين الصحابة، يردُّ بعضُها على بعض، يتساءلون فيها ويتجاوبون تجاوبَ الإخوة الأصفياء الأحِبَّاء.

ولعل كتابَ عُمر إلى أبي عُبيدة في رثاء أبي بكرٍ الصدِّيق[2]، وكتابَ أبي عُبيدة ومعاذٍ معًا إلى عمر بن الخطاب يعِظانه ويُذكِّرانه[3]، وكتابَ عُمر في جوابهما وشُكْرهما[4]؛ لعلَّها داخلةٌ في باب الكتب الإخوانية المتعلِّقةِ بما يخصُّ الإنسانَ نفسَه من محبَّتِه هُوَ، والخوفِ عليه هُوَ، ونصيحتِه وشكرِه ورثائِه.

ومن رسائل الصحابة الإخوانية البَحْتة ما كتبَ به أبو الدرداء إلى أخيه سلمان الفارسي ـ وكان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد آخَى بينهما في أول الهجرة[5]، ثم تقلَّبتْ بهما الدنيا، فسكن أبو الدرداء الشام، وسكن سلمانُ العراق ـ وكأنَّ أبا الدرداء قد حَنَّ قلبُه إلى أخيه فكتب إليه: «سلامٌ عليك، أما بعد، فإن الله رزقَني بعدَك مالًا وولدًا، ونزلتُ الأرضَ المقدَّسة»[6].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٥٨٨.
(٢) فتوح الشام، للأزديّ، ص٩٨.
(٣) فتوح الشام، للأزديّ، ص١٠٠.
(٤) فتوح الشام، للأزديّ، ص١٠١-١٠٢.
(٥) انظر: المحبَّر، لمحمد بن حبيب البغدادي، ص٧٥، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
(٦) تاريخ دمشق ٢١/ ٤٤٠.

وانظر إلى كلمة (بعدك) إنَّ فيها معنى الملاينة والملاطفة والمِزاح، كأنه يقول: إن صُحبتي إيَّاك شَغلتني عن شأن نفسي، ومنعتْني عن أكون غنيًّا أو ذا ولد، أو أن أسكن أرضًا رغدةً مقدَّسة. ولا يخفى مثلُ ما في هذا الكتاب من المحبَّة والوُدِّ والحنين إلى الذكرى القديمة، ولا سيَّما وقد باعدتْ بين المتحابَّيْن الأرض، فأحدهما بالشام، والآخرُ بالعراق.

ويبدو أن سلمان قد خشي على أخيه أن يكون مفتونًا حقًّا بكثرة المال والولد، أو أن يكون مغترًّا ببركة البلدة المقدَّسة، فكتب إلى أخيه: «سلامٌ عليك، أما بعد، فإنك كتبتَ إليَّ أنَّ الله رزقَكَ مالًا وولدًا؛ فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد، ولكنَّ الخير أن يكثر حِلْمُك، وأن ينفعَك عِلمُك. وكتبتَ إليَّ أنك نزلتَ الأرضَ المقدسة؛ وإنَّ الأرض لا تعملُ لأحد؛ اعمل كأنك ترى، واعدُد نفسك من الموتى»(١).

فهذان كتابان صادقٌ عليهما اسمُ الأُخُوَّة حقيقةً وفنًّا؛ إذ كان صاحبا الكتابَيْن أخوَيْن من قبلُ حقًّا، والكتابان في هذا المعنى لا يَعْدُوانه.

وليس هذان الكتابان هما كل ما نعرفه من إخوانيَّات أبي الدرداء وسلمان؛ فإنه تُرْوى لهما كُتُبٌ أخويَّةٌ أخرى على شاكلة هذين الكتابين المليحَيْن(٢).

على أنَّ من الكُتُب المبدوءة بلفظة (الأُخوَّة) نصًّا، كتابٌ رقيق لسلمان الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كتب به إلى أبي ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول فيه: «يا أخي، إن تكن بعُدت الدار من الدار، فإن الرُّوح من الرُّوح قريب، وطيرُ السماء على أرفه خَمَر الأرض تقع»(٣). قال الخطَّابيُّ في تفسيره: «والخَمَر: كلُّ ما واراك وسترك من شجرٍ وغيره، وإنما أراد به الشجر ههنا لأنه مأوى الطير ومَسْقطه، وهذا مَثَلٌ ضربه، يريد به الاعتذار إليه، يقول: مقامي في وطني أرفقُ بي»(٤).

(١) تاريخ دمشق ٢١/ ٤٤٠-٤٤١.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، الموضعَ نفسَه.

(٣) غريب الحديث، للخطابي ٢/ ٣٥٥.

(٤) غريب الحديث، للخطابي ٢/ ٣٥٦.

وللصحابة كتبٌ أخرى أخرى داخلةٌ في مسمَّى الكتب الإخوانية، منها، بل من أجلِّها كتابُ الخليفة عُمر إلى واليه على الشام أبي عُبيدة - وليس كل ما يَكتبُ به الخليفةُ صادرًا عنه إلى ولاته يكون في السياسة أو الشؤون العامَّة فحسب، بل قد يصدر عنه ما هو إخوانيٌّ أيضًا[1] - وكان الطاعونُ طاعونُ عَمْوَاسٍ قد اشتدّ، واشتعل الوجعُ بالناس في الشأم، فكتب عمرُ إلى أبي عُبيدة ليستخرجَه من الطاعون، هذا الكتابَ: «سلامٌ عليك، أما بعد، فإنه قد عَرَضَتْ لي حاجةٌ أريد أن أشافهَك فيها؛ فعزمتُ عليك إذا نظرتَ في كتابي هذا أن لا تضعَه من يدكَ حتى تُقبلَ إليّ»[2].

لقد أراد عُمر أن يحتال حِيلة المحبِّ مع حبيبه حتى لا يُدركَه أذى الجائحة، ثم لما ظنَّ منه - وهو يكتب الكتابَ - الخلافَ والممانعة عزَم عليه أن لا يردَّه خائبًا، وكأنه يُذكِّره بحقِّه عليه، وبكبير منزلته عنده؛ لهفةً من عُمر إليه.

فلما قرأ أبو عُبيدة الكتابَ، قال: «يغفر الله لأمير المؤمنين!»، ثم كتب إليه: «يا أمير المؤمنين، إني قد عرفتُ حاجتَك إليَّ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبةً عنهم، فلست أريد فِراقهم حتى يقضيَ الله فيَّ وفيهم أمرَه وقضاءه؛ فحلِّلْني من عَزْمتك يا أمير المؤمنين، ودعني في جندي». فلما قرأ عمرُ الكتابَ بكى بكاءَ مَنْ قد عرف فراقَ حبيبه، فقال الناس: يا أمير المؤمنين، أمات أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قدْ[3].

وقد تؤول بعضُ الرسائل الإخوانية إلى الجَدَل والمعاندة كما يحدث بين الأخوَيْن الشقيقيْن - وهذا مما لم يأتِ القلقشنديُّ على ذِكْره - ولو قد عَلِم أبو عُبيدة من عُمر أنه كتب إليه كتابَه بلسان الخليفة، لما خالَفَه وعصاه، ولكنه لما عَلِمَ أنه كتابُ أُخُوَّةٍ ورحمةٍ صنَع ما صنَع.

---

(١) كما أنه قد يُفهم من تقديم الصحابة أسماءهم على أسماء المرسَل الكتاب إليهم - حتى لو كانوا أعلى مقامًا منهم ورُتبةً، وأقدمَ صُحبةً - يُفهم منه قيامُ معنى الأخوة في نفوس هؤلاء الرَّهط أحسنَ ما يكون القيامُ وأصْدقَه.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦١.

ومن هذا النوع الجَدَليِّ العِناديِّ ما رواه ابنُ جريرٍ الطبريُّ بإسناده، أن عمر بن الخطاب بلغه أن خالد بن الوليد دخل الحمّام، فتدلَّك بعد النَّوْرة بثخين عُصفر معجون بخمر، فكتب إليه: «بلغني أنك تدلكت بخمر، وإن الله قد حرَّم ظاهر الخمر وباطنه كما حرم ظاهر الإثم وباطنه، وقد حرَّم مسَّ الخمر إلا أن تُغسل كما حرَّم شُربها، فلا تُمِسُّوها أجسادَكم؛ فإنها نجَس. وإن فعلتم فلا تعودوا». فكتب إليه خالد: «إنا قتلناها فعادت غَسولًا غير خمر». فكتب عُمر إليه: «إني أظن آلَ المغيرة قد ابتُلوا بالجفاء، فلا أماتكم الله عليه»[1].

فهذا من طريف ما يُروى عنهم ومن نادره. وليس دعاء عُمر في آخر الكتاب منصرفًا على ظاهره، ولكنه ابتغى به تقريعَ خالدٍ على جَدله.

وفي معنى الشفاعة ـ وهو مما أدخله القلقشنديُّ في كتب الإخوان[2] ـ كتابان لابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كلاهما في تخلية سبيل صِهْره المختار بن أبي عُبيدٍ من السجن. وكان عُبيد الله ابن زياد قد أمر بالمختار بن أبي عُبيد أن يُسْجَن، فكتب المختار إلى ابن عُمر بالمدينة يسأله أن يكتب له إلى يزيد بن معاوية، فيكتب يزيدُ إلى ابن زيادٍ بتخلية سبيله، وعلمتْ صفية أختُ المختار بمحبس أخيها، وهي تحت عبد الله بن عُمر، فبكت وجَزِعت، فلما رأى ذلك ابنُ عمر منها كتب إلى يزيد: «أما بعد، فإن عُبيد الله بن زياد حَبَسَ المختار، وهو صِهْري، وأنا أُحبُّ أن يُعافى ويُصلَحَ من حاله، فإن رأيت ـ رحمنا الله وإياك ـ أن تكتب إلى ابن زياد فتأمرَه بتخليته فعلت، والسلام عليك»[3].

وقَدْرُ ابنِ عمر أكبر من أن يكتب إلى مثل يزيد، ولكنها ضرورةُ الشفاعة التي يعرف حقَّها وأجرَها ابنُ عمر، وقد كانوا رحمهم الله رجالًا أصحابَ مروءة، يعرفون مقتضيات الصداقة والأخوة والقرابة والصِّهر.

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦٦.

(٢) انظر: المكاتبات الإخوانية في: صبح الأعشى، للقلقشندي ٩/ ٥-٢٢٥.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٧١.

وإنَّ هذا لَلذي دفع ابنَ عمر إلى أن يكتب في حقِّ المختار هذا شفاعةً أخرى، في زمنٍ آخر، إلى عُبيد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة، بطَلَبٍ منه، وكانا قد حبساه، فكتب إليهما: «أما بعدُ، فقد علمتما الذي بيني وبين المختار بن أبي عُبيدٍ من الصِّهر، والذي بيني وبينكما من الود؛ فأقسمتُ عليكما بحق ما بيني وبينكما لما خليتُما سبيله حين تنظران في كتابي هذا، والسلام عليكما ورحمة الله»(١). فلما أتاهما الكتابُ خلَّيَا سبيلَه.

لقد رأينا فيما مرَّ من رسائل الصحابة الإخوانية أنها تكون على الأغلب من كتابين: كتابٍ ذاهبٍ، وكتابٍ يردُّ عليه، أو إن شئتَ فقل: كتابٍ وأخيه، أخيه: الرَّادِّ عليه، المجيبِ إيَّاه، الـمُقْبلِ عليه، أو المانع، المُشْفِقِ عليه، الشاكرِ له، أو الرحيمِ به، أو النصيح.

غير أن من كتب الصحابة الإخوانية ما كان كتابًا بغير جواب، وخيرُ مثالٍ على هذا كتابُ عُمر العظيمُ إلى أبي جندل. وكان أبو جندل قد أُقيم عليه حَدُّ الخمر في جماعة من أصحابه أصابوا الشراب، فاستحَيْوا فلزموا البيوت، ووسوسَ أبو جندل، فكتب أبو عُبيدة إلى عمر: إن أبا جندلٍ قد وسوس، إلا أن يأتيَه الله على يديْك بفرج، فاكتب إليه وذكِّره، فكتب إليه عُمر كتابًا هو كتابُ الفرج، أو كتابُ الأمل، لم يقرِن فيه اسمَه بالخلافة؛ ليكون أقرب إلى قلب أخيه المسلمِ اليائسِ المريض: «من عُمر إلى أبي جندل، إنَّ الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ فتُبْ وارفع رأسَك، وابرُز ولا تقنَط؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: «يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسِهم لا تقنَطوا من رحمة الله؛ إنَّ الله يغفر الذنوب جميعًا، إنَّه هو الغفور الرَّحيم» [الزمر: ٥٣]». فلمَّا قرأه عليه أبو عُبيدة تَطَلَّقَ وأُسفِرَ عنه(٢).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٩٧.

[٩] كُتُبُ فُرُوعِ الشَّرِيعَة

استعملَ الصحابةُ الكتابةَ لنشر مسائل الشريعة مثلما استعملوها في الجهاد والسياسة، ولكن استعمالهم إيَّاها في أمور الدين كان أقل؛ لأنهم ظلوا حتى ذلك الحين يتلقَّون الدين ويُعلِّمون الناس شفاهةً في الأغلب الأعمّ.

وقد وقع إلينا بعضٌ من كتبهم في الفقه والفتوى والحدود والفرائض ومعاملة غير المسلمين. وهذه الكتب وإن كانت تخرج في الظاهر عن حدود هذا البحث، إلا أن من كمال الإحاطة بنشر الصحابة الإلمام بها ولو بالإشارة اليسيرة الموجزة.

من هذا كتابُ أبي بكرٍ إلى أنس بن مالك عامله على البحرين في الصَّدَقة: «هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المسلمين: في أربعٍ وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم من كل خمسٍ شاة، فإذا بلغت خمسًا وعشرين إلى خمسٍ وثلاثين ففيها بنتُ مخاضٍ أنثى، فإذا بلغت ستًّا وثلاثين إلى خمسٍ وأربعين ففيها بنتُ لَبونٍ أنثى، فإذا بلغت ستًّا وأربعين إلى ستين ففيها حِقَّةٌ طَرُوقةُ الجمل...» إلى آخر الكتاب(١).

ولعُمر بن الخطَّاب كتابٌ مثلُه في الصدقة(٢)، وله كتابٌ في الحرير أرسله إلى عُتبة بن فَرْقد، كتب فيه: «يا عُتبة بن فَرْقَد، إنه ليس من كَدِّك، ولا مِنْ كَدِّ أبيكَ، ولا مِنْ كَدِّ أُمِّك؛ فأَشْبع المسلمين في رِحالهم ممَّا تَشبع منه في رَحلك. وإيَّاكم والتَّنعُّمَ وزِيَّ أهلِ الشِّرْك ولَبُوسَ الحرير؛ فإنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عن لَبُوسِ الحرير، قال: «إلاَّ هكذا». ورَفَعَ لنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِصْبَعَيْهِ الوُسْطَى والسَّبَّابة وضَمَّهُما»(٣).

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٥٢٧.

(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٢٠٥.

(٣) صحيح مسلم ٦/ ١٤٠.

ولعمر كتابٌ آخر في الخمر كتبه جوابَ مسألةٍ لأبي عُبيدة عن قومٍ يتأوَّلون قوله تعالى: «فهل أنتم منتهون»، قالوا: خُيِّرنا فاخترنا ولم يَعْزِم علينا. فكتب إليه عمر: «فذلك بيننا وبينهم، «فهل أنتم منتهون» يعني: (فانتهوا)»[١]. ثم استشار الناس فيهم، فأجمعوا على جلدهم ثمانين جلدة، وأن يُستتابوا، فكتب إليه أخرى أن: «ادعُهم؛ فإن زعموا أنها حلالٌ فاقتلهم، وإن زعموا أنها حرامٌ فاجلِدهم ثمانين»[٢].

إن في هذين الكتابين وفي أمثالهما ما يفيد إقامة الحجة، وإلزام المعترض، والمشورة في أمره قبل إقامة الحَدِّ عليه، وهذا ينشأ عنه جدلٌ حميدٌ، ومحاورةٌ حَسَنةٌ تُديم الهَيْبة والرضا بما يصدر عن الراعي من أحكامٍ في حق الرعيَّة.

ويروي أنس بن مالك قال: شهدتُ إيلياء مع عُمر، فبينا هو يُطعم الناس يومًا بها أتاه راهبُها وهو لا يشعر أن الخمر محرَّمة، فقال: هل لك في شراب نجده في كتبنا حلالًا إذا حَرُمت الخمر؟! فدعاه به فقال: من أي شيء هذا؟ فأخبره أنه طبخه عصيرًا، حتى صار إلى ثلثه. فغرف بإصبعه، ثم حركه في الإناء فشَطَرَه، فقال: هذا طِلاء. فشبَّهه بالقَطِران، وشرب منه، وأمر أمراء الأجناد بالشأم به، وكتب في الأمصار: «إني أُتيت بشرابٍ مما قد طُبخ من العصير حتى ذهب ثلثاه وبقي ثلثه كالطِّلاء؛ فاطبُخوه وارزقوه المسلمين»[٣].

كأنما أحبَّ عُمر للمسلمين جميعًا أن يتمتَّعوا بما تمتَّع به مما أحلَّه الله عَزَّوَجَلَّ، وفي هذا تمام الحَدَب والرحمة والعدل والشفقة بالمسلمين؛ وإلا فما حاجة الناس إلى أن يَكتب الخليفة إليهم في شرابٍ قليل الشأن؟! أو لعله وجد في هذا الشراب عزاءً للناس عن الخمر، فهو يخفف عنهم به ثِقَل تحريم شيءٍ كانوا قد اعتادوا عليه. وما ذلك إلا ابتغاءً من عمر للترفيه عن أمته ورعيَّته.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٩٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٩٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦١٢.

وقد سألوه عن الأرض المفتوحة فأجابهم كتابةً أن يُبقوا أهلها فيها، حتى يكونوا عُمّار الأرض، فهم أعلمُ بها، وأقوى عليها من غيرهم، وذلك ليدوم النفعُ للمسلمين ولأبنائهم من بعدهم[1].

وسألوه في مسائل من المواريث، فكتب إليهم فيها[2]. وفي الخَبر أن رجلًا من بني حنظلة يُقال له: حَسَكَة، هَلَكَ ابنٌ له، وترك أباه حسكةَ وأمَّ أبيه. فرفع أبو موسى المسألةَ إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه أن: «وَرِّث أمَّ حَسَكَة من ابن حَسَكَة مع ابنها حَسَكَة»[3]. وكأن عُمر قد أعجبته طرافةُ اسم حسكة فكرَّره تملُّحًا.

(١) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٦٦-٤٦٧.

(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٨٦.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٥١٧.

[١٠] كُتُبُ الأَمْوَال

القول في كتب الأموال كالقول في كتب الفقه وفروع الشريعة، من أنها غيرُ لصيقةٍ بما نحن فيه من البحث، ولكنَّ تمام البحث نادبُنا إلى أن نُلمع بها.

وقد مرَّ بنا ما كتبه الصحابة في الصدقة، وما فصَّلوه في نصابها تفصيلًا حافلًا شاملًا، ولِـمَ لا وهي الركن الثالث في أركان الإسلام، وهي التي ما فترتْ هِـمَّةُ الصديق حتى شنَّ على مانعها حربًا شعواءَ ضروسًا، لم تنقضِ إلا وهم مُذْعنون مُسلِّمون بها مؤدُّوها.

يأتي بعد كتب الصدقة في المنزلة كتبُ الخراج، تلك الكتب التي دوَّنها الصحابة في شأن ما يُجبى إليهم مما تُخرج الأرضُ المفتوحةُ من الثمرات. وبين أيدينا كتابُ عمر إلى عامله يَعلى بن أُميَّة، وكان بعثه ليجبيَ خراجَ نجران[١]، وكتابُه إلى سعد بن أبي وقَّاص حين فتح العراق، وفيه: «أما بعد، فقد بلغني كتابُك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم، فإذا جاءك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك في العسكر من كُراعٍ أو مال، فاقسمه بين مَنْ حَضَر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهارَ بعُمَّالها ليكون ذلك في أعطيَات المسلمين، فإنك لو قسمتها بين مَنْ حضر لم يكن لمن بعدهم شيء»[٢].

وكتبوا إليه يسألونه عن الصوافي[٣]، فكتب إليهم أن: «اعمَدُوا إلى الصَّوافي التي أصفاكموها الله، فوزِّعوها على من أفاءها الله عليه أربعة أخماس للجند، وخُمُسٌ في مواضعه إليّ. وإن أحبُّوا أن ينزلوها فهو الذي لهم»[٤].

---

(١) انظر: كتاب الأموال، لابن زنجويه ١/ ٢٧٩.

(٢) المدونة الكبرى. للإمام مالك بن أنس الأصبحيّ ١/ ٥٠٣، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمي، بيروت.

(٣) الصَّوافي: جمع صافية، وهي الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها، أو ماتوا ولا وارث لها، أصفاها الله لهم «لسان العرب: صفا».

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣١.

ولم يكن الصحابةُ يستنكفون من الاستعانة ببعض النصارى من الروم ممن يحسنون الحسابَ لضبط الخَرَاج؛ فقد كتب عُمر إلى يزيد بن أبي سفيان أنْ: «ابعث إلينا بروميٍّ يقيم لنا حساب فرائضنا»[1]. ولعل هذا الكتاب من أوائل استعانة المسلمين بغير العرب في الدواوين عامَّةً، وفي ديوان الخراج خاصَّة.

ومن مبلغ إتقانهم وأمانتهم أن عمال الخراج منهم اصطلحوا على صياغة نسخةٍ واحدةٍ من براءة الخراج، يكتبونها لمن يؤدي إليهم خراجَ الأرض، يُثْبتون فيها القبض الذي قبضوه منه، ويَضْمنُون له فيه الأمانَ والوفاء والمعونة[2].

ومن جميل ما كُتب في شأن الخراج ما كتب عثمان بن عفَّان إلى عُمَّاله في أول ولايته يأمرهم بالعدل والوفاء والأمانة: «أما بعد، فإن الله خَلَقَ الخَلْقَ بالحق، فلا يَقبل إلا الحق، خُذُوا الحقَّ وأعطوا الحقَّ به. والأمانةَ الأمانةَ؛ قُوموا عليها، ولا تكونوا أوَّل من يُسْلَبَها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاءَ الوفاءَ؛ لا تظلموا اليتيمَ ولا المعاهَد؛ فإن الله خَصم لمن ظلمهم»[3].

وكان الصحابة ممن ولي الأمر منهم أحرصَ الناس على غِنى المسلمين وكِفايتهم، سواءً بزيادة أموالهم، أو بدفع الفقر والفاقة عنهم، أو بإعانتهم إن اجتاحهم الجوائح؛ فقد كتب عُمر إلى أبي موسى: «أما بعد، فأعلمْ يومًا من السَّنة لا يَبقى في بيت المال درهمٌ حتى يُكتسح؛ حتى يعلم الله أني قد أدَّيْتُ إلى كل ذي حقٍّ حقَّه»[4].

---

(١) أنساب الأشراف، للبَلاذري ١٠/ ٣٠٤، تحقيق سهيل زكار.

(٢) انظرها في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧١.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٥.

(٤) الطبقات الكبير ٣/ ٢٨٢.

ولـمّا أصاب المسلمين الجدبُ في عام الرمادة[1]، وهلكت الماشية، وجاع الناسُ وهلكوا، حتى أكلوا الميتة فيه؛ كتب عُمر إلى عمرو بن العاص مقرِّعًا، مكنّيًا إياه بالسوء لا يسمِّيه باسمه الذي يُعرف به؛ غَضبةً للمسلمين، وخوفًا عليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عُمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي، سلامٌ عليك، أما بعد، أفتُراني هالكًا ومَنْ قِبَلي وتعيشَ أنتَ ومَنْ قِبلَك؟ فيا غوثاه، فيا غوثاه». فكتب إليه عمرٌو من فوره: «بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، أتاك الغوث، فلَبِّثْ لَبِّثْ، لأبعثنَّ إليك بِعِيرٍ أولها عندك، وآخرها عندي»[2].

على أنهم كانوا أشدَّ رجلٍ في التحذير من الرِّبا والتبغيض في أمره، وكانوا يرَوْن فيه شرًّا مُحيقًا، وقد كتب أبو بكرٍ إلى أمراء الأجناد بالشام، يحذِّرهم من التبايع بالربا وقد هبطوا أرضًا سمَّاها أبو بكرٍ: «أرض الربا»[3].

ولهم في معاملة من يقدم من الدول الأجنبية التي لا سلطان للمسلمين عليها، قواعدُ ماليَّة، هي أشبه بالجمارك في هذا الزمن، وفيها ما يُسمَّى في الدبلوماسية الحديثة: المعاملة بالـمِثْل، فقد كتب أبو موسى إلى عُمر أنَّ تجارًا من قِبَلنا من المسلمين يأتون أرضَ الحرب فيأخذون منهم العُشر، فكتب إليه عُمر: «خُذْ أنتَ منهم كما يأخذون من تجَّار المسلمين. وخُذْ من أهل الذِّمَّة نصفَ العُشر، ومن المسلمين من كل أربعين درهمًا، درهمًا؛ وليس فيما دون المئتين شيء، فإذا كانت مئتين ففيها خمسةُ دراهم، وما زاد فبحسابِه»[4].

---

(١) في سنة ١٨ من الهجرة أصابت الناسَ في إمارة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةٌ بالمدينة وما حولها، فكانت تَسْفَي إذا ريحت ترابًا كالرماد، فسُمِّي ذلك العامُ عام الرمادة، انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٩٨.

(٢) الطبقات الكبير ٣/ ٢٨٨-٢٨٩.

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٨٩.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص٥١٨-٥١٩.

ذلك، ومما يتعلق بكتب الأموال أيضًا كتبُ الصحابة في الإقطاع والصدقة بالوقف.

وعرَّف العلماء الإقطاع بأنه: تسويغ الإمام من مال الله لمن يراه أهلًا لذلك(١). وقد أقطع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّاريِّين أرضًا بالشام من قبل(٢). وقد أقطع عمرُ جريرًا أرضًا، وكتب إلى عثمان بن حُنيف مع جريرٍ المقطَعِ له: «أما بعد، فأقطع جرير بن عبد الله ما يقوتُه، لا وكسَ ولا شَطَط»(٣). وفي هذا معنى العدالة والتوسُّط، فكتب عثمان إلى عمر ليزداد تثبُّتًا: «إنَّ جريرًا قدم عليَّ بكتابٍ منك تُعطه ما يقوته، فكرهتُ أن أُمضيَ ذلك حتى أراجعَك فيه»(٤). وفي هذا معنى التحوُّط ونبذ المداهنة من قِبل الوالي لأميره؛ فكتب إليه عُمر أن: «قد صدق جرير فأنفذْ ذلك، وقد أحسنتَ في مؤامرتي»(٥). وفيه استحباب المراجعة عند عمر في الأموال عامة، ولو على الثقات المأمونين، لتنضبط شؤون الدولة، وليكونوا قدوةً لغيرهم. قال الطبري: وأقطَعَ (أي: عُمر) أبا موسى، وأقطَعَ عليٌّ رَحِمَهُ اللَّهُ كردوسَ بن هانئٍ الكردوسيَّة، وأقطَعَ سُوَيدَ بن غفلة الجُعْفيّ(٦). وفي معجم البلدان أن عثمان بن عفان أقطع عثمان بن أبي العاص أرضًا بالعراق مقابِلةَ قرية الأُبُلَّة(٧).

وأما الصدقة بالوقف فقد كتبوا الكتب فيها تأبيدًا لها، وتحبيسًا لأصولها على أهلها. وكانوا يبذلون فيها نفيسَ أموالهم، وكانوا على هذه الصدقة بعينها من الدائبين، ذلك أن أجرها دائمٌ إلى يوم القيامة لا ينقطع جَرَيانُه.

---

(١) انظر: التراتيب الإدارية، للكتّاني ١/ ١٢٠.

(٢) انظر: التراتيب الإدارية، للكتاني ١/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٩.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٩.

(٦) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٩.

(٧) انظر: معجم البلدان «شط»، ومجموعة الوثائق السياسية، لحميد الله، ص٥٣٢-٥٣٣، وانظر: أيضًا إقطاع خالد بن الوليد لبني مَشْجَعة في: مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٩٣؛ وإقطاع عُمر بن الخطاب للرجل الذي كان يفتلي الخيل بالبصرة في الكتاب نفسه، ص٤٤٨-٤٤٩.

من هذه الكتب نسخة تصدُّق الأرقم بن أبي الأرقم بداره التي كانت تُدعى دارَ الإسلام، وهي الدار التي كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يمكث فيها في أول الإسلام، وفيها أسلم خلقٌ من الأولين، وفي الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما قضى الأرقم في ربعه ما حازَ الصَّفا، إنها محرَّمةٌ بمكانها من الحرم؛ لا تُباع، ولا تورَّث»[١].

وأوقف عُمر ما ملك من أموال خيبر في ثَـمْغ، وجعل أمرها إلى حفصة ما عاشت، تُنفق ثمرَه حيث أراها الله، فإن توفيت فإنه إلى ذي الرأي من أهلها، على أن لا يُشترى أصلُه أبدًا، ولا يُوهب، ولا حرجَ أن يأكل وليُّه غيرَ متموِّلٍ منه مالًا[٢].

ووقَفَ عليٌّ بن أبي طالب لسنتين من خلافته عَيْنَ أبي نَيْزَر والبُغَيْبِغة، وكتب: «هذا ما تصدَّق به عبدُ الله عليٌّ أمير المؤمنين: تصدَّق بالضَّيعتيْن المعروفتين بعين أبي نيزر، والبغيبغة؛ على فقراء أهل المدينة وابن السبيل؛ ليقيَ اللهُ بهما وجهَه حرَّ النار يوم القيامة؛ لا تُباعا ولا تورثا[٣] حتى يرثَهما الله، وهو خير الوارثين؛ إلا أن يحتاج إليهما الحَسَن والحُسين، فهما طَلْقٌ لهما، ليس لأحد غيرهما»[٤].

ومهما يكن من أمر؛ فإنَّا نجد في كتب الفقه والأموال هذه ـ وهي الكتب المرويَّة في المصادر الموثوقة غالبًا ـ نجد فيها من صفات اللغة والفنِّ ما يجعلنا نطمئنُّ إلى أشباهٍ لها من الكتب في أغراضٍ أخرى.

---

(١) الطبقات الكبير ٣/ ٢٢٤.

(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٩٦، وما فيها من المصادر.

(٣) كذا، ولعله حذف النون منهما على إضمار «أن».

(٤) تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، للخُزاعيّ، علي بن محمد بن سُعود ١/ ٥٦٨، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢/ ١٤١٩هـ.

[١١] تَوْقِيعَاتُ الصَّحَابَة

التوقيعُ فنٌّ قديم، فقد رُوي عن الإسكندر أنه كان يوقِّع في شأن ما يُرفَع إليه من الكتب، وروي ذلك عن بعض أكاسرة الفُرس وملوك الصين(١)، وهذا كلُّه مما يحتملُه العقلُ في كل أمةٍ كاتبة؛ فإنَّ صاحب الأمر فيها، قد يصل كلامَه بالكلام الذي أُنْهِي إليه، ليكون ذلك أقوى في معرفة الأمر، وأوثقَ في التحقق من أنه منه، وأشدَّ اقتصادًا في الوقت والورق أو غيره مما يُكتب عليه(٢).

وقد اختُلف في ضبط مصطلح (التوقيع)، فمِن ذاهبٍ إلى أنه ما يُوقِّعه ذوو الشأن في أسفل الكتاب الـمُنْهَى إليهم، أو على ظهره، أو في عُرْضه؛ بإيجاب ما يُسأل عنه، أو منْعِه(٣). ومن ذاهبٍ إلى إطلاقه على كل ما هو موجَزٌ بليغٌ مما يكتبه الأمراء أو نحوُهم تعقيبًا على ما يرد إليهم من الكتب(٤).

وبالمعنى الثاني روَوْا للصحابة شيئًا من هذه التوقيعات، وكان الأَوْلى أن تكون دراسةُ هذا الفَنِّ في معرض الكلام على الإيجاز، وليس هنا حيث نتناولُ الأغراضَ

---

(١) انظر: خاصُّ الخاصّ، للثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ص٨٤، تحقيق حسين الأمين، مكتبة الحياة، بيروت.

(٢) وقد وقع خلاف في أوليَّة التوقيعات، وهل أخذها العرب عن الفرس؟ ولكنْ هذا كلُّه مدفوعٌ بالشواهد الكثيرة المنقولة في هذا الجزء التي تثبت قِدَمَ العرب في إنشاء هذا الفنّ، انظر أيضًا: أدب السياسة في العصر الأموي، للدكتور أحمد الحوفي ص٣٩٧.

(٣) انظر: الاقتضاب في شرح أدب الكُتّاب، للبطليوسي، أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد ١/ ١٩٥ تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م، وانظر: الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر، ص٥٣.

(٤) انظر: فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، للدكتور حمد بن ناصر الدخيل، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدبها، المجلد ١٣، العدد ٢٢، وقد نقلوا في الدلالة على وجازة التوقيع قول جعفر بن يحيى لكُتَّابه: «إن استطعتم أن يكون كلامُكم كلُّه مثل التوقيع فافعلوا» البيان والتبيين ١/ ١١٥.

والمعاني؛ إذ التوقيعات لا تخوضُ في معنًى واحد، أو معنى مشترك، ولكن لمَّا كان للقوم منذ قديم وَلَعٌ بإفراد توقيعات الكاتبين، أفردتُها كما فعلوا جَرْيًا على طريقتهم[1].

فمن توقيعات الصحابة ما رواه الثعالبيُّ في (خاصِّ الخاصّ) أنَّ خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكرٍ من دُومة الجندل يستأمره في أمر العدوِّ، فوقَّع إليه: «ادنُ من الموت، توهبْ لك الحياة»[2].

وهي عبارةٌ جامعةٌ مجيبةٌ للذي أراد خالدٌ أن يسأل عنه، وللذي أراد أبو بكرٍ أن يُجيبَ به وزيادة. وكأنَّ أبا بكرٍ أراد تفويض الأمر إلى خالد على ما تقتضيه الأحوال في ظل فلسفة هذه العبارة الحاثَّةِ على الإقدام والشجاعة والتفاني، إن كان الجيش يريد العيشة الكريمة حقًّا، واستئصالَ شأفة العدو؛ كيما لا يبقى خائفًا محاذرًا من شروره وغوائله. ولعل هذه الكلمة الجليلة من أبي بكر طبعت أثرًا لا يُمحى في نفس خالدٍ فصار يُضمِّن معناها في طَيَّات كتبه، كما رأينا قبلُ من أقواله إلى أعدائه: جئتكم بقومٍ يُحِبُّون الموتَ كما تُحبُّون الحياة، أو كما تُحبُّون شُرْبَ الخَمْر[3].

ولخالد بن الوليد كتابٌ أرسله إلى أبي بكر يُخبره باستنفار الروم وتجميعها له وهو بتيماء سنة ثلاث عشرة، فكتب إليه أبو بكر: «أقدِمْ ولا تُحْجِم، واستنصر الله»[4]. فلما سار إليهم تفرَّقوا وأَعْرَوْا منازلَهم، وكتب خالدٌ إليه بذلك، فكتب إليه أبو بكر: «أَقْدِمْ ولا تقتحمنَّ حتى لا تُؤتى من خلفك»[5].

---

(١) انظر مثلًا: العقد الفريد ٤/ ٢٥٦.

(٢) خاصُّ الخاصّ، للثعالبي، ص٨٦.

(٣) انظرهما في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٨٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٨٩.

وعن سفيان بن عُيينة قال: كتب سعد بن أبي وقَّاص إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو على الكوفة، يستأذنه في بناء منزلٍ يسكنه، فوقَّع في كتابه: «ابنِ ما يستُرك من الشمس، ويُكِنُّك من الغيث؛ فإن الدنيا دارُ قُلْعَة»(١).

وكَتَبَ عُمر إلى عمرو بن العاص وهو على مصر، وقد اشتكى إليه شيئًا من الرعيَّة: «كُنْ لرعيَّتك كما تُحبُّ أن يكونَ لك أميرُك»(٢).

وكتب أبو هريرة إلى عمر بن الخطاب يسأله عن الجمعة وهو بالبحرين، فكتب عُمر إليه: «جَمِّعوا حيث ما كنتم»(٣).

بيد أنَّ من أبلغ التوقيعات ما روي أنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب لأبي موسى في شأن كاتبه النصراني فقال: لا تُكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تأمنوهم إذ خوَّنهم الله، ولا تُدنوهم إذ أقصاهم الله، فكتب إليه أبو موسى: لا قِوام للبصرة إلا به. فوقَّع إليه عُمر: «مات النصرانيُّ والسلام». يعني هَبْ أنه قد مات، فما كنت تكون صانعًا حينئذ فاصنعه الساعة، واستغنِ عنه بغيره(٤).

ومن توقيعات عثمان أنه كتب في رجلٍ شكا له عَيْلة: «قد أمَرْنا لك بما يُقيمك، وليس في مال الله فضلٌ للمُسرف»(٥).

---

(١) المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكرٍ الدينوري، أحمد بن مروان بن محمد بن محمد المالكي ٢/ ٣٧٧، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت ١٤١٩هـ، ودارُ قُلْعة: أي: انقلاع «لسان العرب: قلع».

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧٨.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٥١١.

(٤) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ١/ ٦٧٦، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت.

(٥) العقد الفريد ٤/ ٢٥٦.

على أن من أخصر التوقيعات وأنفذها أن عليّ بن أبي طالب سأله سلمان الفارسيُّ: كيف يُحاسَبُ الناس يوم القيامة؟ فوقَّع في كتابه: «يُحاسَبون كما يُرزَقون»[1]. ووقَّع في كتابٍ لصعصعة بن صُوحان، وكان سأله عن شيء: «قِيمةُ كلِّ امرئ ما يُحسن»[2]. وهي من أحكم الكلمات التي يُنتفع بها في الدنيا، على ما فيها من الإيجاز والقِصَر.

ويُروي أن الحَسَنَ بن عليٍّ كتب إلى معاوية، فأغلظ له؛ فوقَّع معاويةُ إليه: «ليتَ طولَ حلمنا عنك، لا يدعو جهلَ غيرنا إليك»[3].

ومن طريف التوقيعات أن ربيعة بن عَسَل اليربوعيّ سأل معاوية أن يُعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر ألف جذع، فوقَّع إليه معاوية: «أدَارُكَ في البصرة، أم البصرةُ في دارك!»[4].

فمثل هذه التوقيعات المنتخبة كالتي يرويها ابنُ عبد ربِّه، مبتورةُ الأصل غالبًا، وليس بين أيدينا ما يُعيننا على إثباتها أو نفيها، ولكن كان نقلُها هنا ليستتمَّ أمرُ القول في كتابة الصحابة.

---

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٥٦.

(٢) العقد الفريد ٤/ ٢٥٧.

(٣) خاص الخاص، للثعالبي، ص٨٦.

(٤) العقد الفريد ٤/ ٢٥٧.

[١٢] سُنَنُ الصَّحابة في الكِتَابة(١)

(حث الإسلام على الكتابة) للصحابة ميراثٌ عظيمٌ وتاريخٌ قديمٌ في الكتابة، منذ عهد النبي صَلَّىٰٱللَّٰهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بل قبل ذلك في الجاهلية من قبل أن يكونوا صحابة؛ فقد قَدِمَ النبيُّ صَلَّىٰٱللَّٰهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المدينةَ وبها أحدَ عشرَ رجلًا يكتبون(٢). هذا سوى مَنْ كانوا يكتبون بمكة من الصحابة قبل الإسلام، كأبي بكرٍ وعُمر وعثمان رَضِيَٱللَّٰهُعَنۡهُمۡ(٣). وقد أحصى بعضُ الباحثين عددَ الصحابة الذين يُحسنون الكتابةَ بُعيد الهجرة فوجدهم يقتربون من مئة رجل وامرأة، أغلبهم من الرجال(٤)، ثم زاد ذلك العددُ مع تقادم الإسلام في الجزيرة، وحثُّ القرآنِ على القراءة ـ التي تستلزم معرفةَ الكتابة ـ في أول آيةٍ منه، ثم حثُّه على كتابة الدَّيْن في أطول آيةٍ منه(٥)؛ وجَعْلِ النبي الله صَلَّىٰٱللَّٰهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فداءَ مَنْ لم يجد فداءً من أسرى بَدْرٍ أن يُعلِّمَ أولادَ الأنصار الكتابةَ(٦). وقد أمر النبيُّ صَلَّىٰٱللَّٰهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كاتبًا مُجيدًا هو عبد الله بن سعيد بن العاصي أن يُعلِّم الناسَ بالمدينة الكتابة(٧). وعن عُبادة بن الصامت قال: عَلَّمْتُ ناسًا من أهل الصُّفَّة الكتابةَ والقرآن، وفي تعليم النساء الكتابةَ عن الشِّفَاء أم سليمان بنت أبي حَثْمَة، قالت: دخل عليَّ النبي صَلَّىٰٱللَّٰهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأنا عند حفصة، فقال: «**ألا تُعلِّمين هذه رُقْيَة النملة كما عَلَّمْتِها الكتابة؟**»(٨).

---

(١) أخَّرتُ هذا المبحث ـ وإن كان يحوي بعض المقدمات في تاريخ الكتابة ـ لما له من تعلق بالأمثلة والشواهد التي مرَّتْ من قبلُ في هذا الفصل.

(٢) هم: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ورافع بن مالك، وأُسَيْد بن حُضَيْر، وكعب بن عديٍّ البلوي حليف الأنصار، وبشير بن سعد، وسعد بن الربيع، وأوس بن خولي، وعبد الله بن أُبيّ المنافق، انظر: تاريخ الترسُّل النثري عند العرب في صدر الإسلام ٢/ ٢٤.

(٣) انظر: العقد الفريد ٤/ ٢١٢.

(٤) انظر: تاريخ الترسُّل النثري عند العرب في صدر الإسلام ٢/ ٢٥.

(٥) هي الآية ٢٨٢ من سورة «البقرة».

(٦) انظر: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لأحمد عبد الرحمن البنّا الشهير بالسَّاعاتي ١٤/ ١٠١، دار إحياء التراث العربي، القاهرة.

(٧) الاستيعاب، لابن عبد البر، ص٩٢٠، وانظر: التراتيب الإدارية، للكتّاني ١/ ٤٨.

(٨) انظر: التراتيب الإدارية ١/ ٥٠-٥٥، وفيه التفصيل في تعليم النساء الكتابة. والنَّملة: شيء في الجسد كالقَرْح=

(*كُتّاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ*)

أمَّا أشرفُ بُغيةٍ نالها الكُتَّاب على مرِّ العصور فكانت كتابةَ الوحي على عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد اختصَّ الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عددًا من الصحابة بهذه المنزلة، أشهرُهم: عثمانُ بن عفَّان، وعليُّ بن أبي طالب، وأُبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت ـ وكان زيدٌ ألزمَ الصحابة لكتابة الوحي ـ فإن لم يحضُروا كَتَبَ الوحيَ مَنْ حَضَر من الكَتَبَة من هؤلاء: معاوية بن أبي سفيان، والعلاءِ بن الحضرميّ، وحنظلةَ بن الرَّبيع(١).

أمَّا كُتَّابُه مطلقًا فكثيرٌ، نحوٌ من خمسين رجلًا، منهم سوى مَنْ ذكرنا: عامر بن فُهَير، وعبدُ الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شمَّاس، وخالد بن سعيد بن العاص، وشُرَحبيل بن حَسَنَة، والزُّبير بن العوَّام، ومُعَيْقيب بن أبي فاطمة السَّدوسيّ، والمغيرةُ بن شعبة، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وجُهَيْم بن الصَّلْت، وعبد الله بن رواحة، ومحمد بن مَسْلمة الأنصاريُّ، ونفرٌ غيرُهم(٢). وكان حنظلة بن الربيع بن صَيْفيٍّ، ابن أخي أكثم بن صيفي؛ يخلُف كلَّ كاتب، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضع عنده خاتمه(٣)، وكان يُسمَّى بحنظلة الكاتب، وسبب ذلك كما حكى الواقدي أنه كَتَبَ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرةً كتابًا، فسُمِّي بذلك (الكاتب)(٤).

= وجمعها نَمْل، وقيل: قُروح في الجنب وغيره. وقال أبو عُبيدٍ في حديث النبي ﷺ أنه قال للشفاء: عَلِّمِي حفصةَ رُقْية النملة. قالوا: هي شيء كانت تستعمِله النساء، يَعْلَم كلُّ مَنْ سمِعه أنه كلام لا يضرُّ ولا ينفَع، ورُقْية النملة التي كانت تُعْرَف بينهنّ أن يُقال: العَرُوس تحْتَفِل، وتَخْتضب وتَكْتَحِل، وكلَّ شيء تَفْتَعِل، غير أن لا تَعْصِيَ الرجل؛ قال: ويروى عوض تحْتَفِل: تنتعِل، وعوض تَخْتَضِب: تَقْتال، فأراد النبيﷺ بهذا المقال تأنيبَ حفصة لأنه ألقى إليها سرًّا فأفشَتْه، انظر: «لسان العرب: نمل».

(١) انظر: التراتيب الإدارية، للكتاني ١/ ١١٤–١١٥.

(٢) انظر: التراتيب الإدارية ١١٥–١١٧، وانظر: كُتَّابَ الرسائل للنبي ﷺ في: الطبقات الكبير١/ ٢٢٩–٢٤٨، وانظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١٧٣.

(٣) انظر: العقد الفريد ٤/ ٢١٦.

(٤) انظر: الطبقات الكبير ٦/ ١٢٧، وفي حنظلة تقول امرأتُه ترثيه:

تَعَجَّبَ الدَّهرُ لَمحزونَةٍ ... تبكي على ذي شَيْبةٍ شاحبِ
إنْ تسأليني اليومَ ما شَفَّني ... أُخبِرْكَ قولًا ليس بالكاذبِ
إنَّ سوادَ العين أودى به ... حُزْنٌ على حنظلةَ الكاتبِ =

وقد وضع بعض العلماء تصانيف في كُتّاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصحابة كالقُضاعيّ وعُمر بن شبّة[1]. ووضع ابنُ حديدة الأنصاريُّ كتابَه المعروف (المصباح المُضيّ في كُتّاب النبي الأُمّيّ ورسلِه إلى ملوك الأرض من عربيٍّ وعَجميّ)، جعل البابَ الأول منه في كُتّابه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ [2]. وحديثًا صنّفَ محمد مصطفى الأعظمي كتابًا سمّاه كُتّاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]، وهناك (كُتّاب الوحي) لأحمد عبد الرحمن عيسى[4].

(كَلَفُ الصحابة بالكتابة)

فإذا ذهبتْ بنا الأيامُ إلى عصر الخلفاء الراشدين فقد يكفينا مثالًا على كَلَف الصحابة بالكتابة والاستكتاب[5]، ما جرى بين سعدٍ وعُمر في معركة القادسية من تداول الكتب؛ وكان عمرُ يستحثُّ سعدًا في كتبه على أن يكتب إليه من مثل قوله: «واكتُبْ إليَّ أين بلغك

= انظر: التعازي والمراثي، للمبرّد، أبي العباس محمد بن يزيد، ص٥٣-٥٤، حققه وقدم له محمد الديباجي، دار صادر، بيروت، ط٢/ ١٤١٢هـ.

(١) انظر: التراتيب الإدارية ١/ ١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر: المصباح المُضيّ في كُتّاب النبي الأُمّيّ ورسلِه إلى ملوك الأرض من عربيٍّ وعَجميّ، لابن حديدة، أبي عبد الله محمد بن علي بن أحمد الأنصاري ٢٧-١٩١، صححه وعلق عليه محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت، ط٢/ ١٤٠٥هـ.

(٣) انظر: كُتّاب النبيّ ﷺ، للدكتور محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢/ ١٣٩٨هـ، وقد بلغ بهم ثمانيةً وأربعين كاتبًا.

(٤) انظر ذكره في: معجم ما أُلِّف عن رسول الله ﷺ، للدكتورصلاح الدين المنجد، ص١٦٠، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١/ ١٤٠٢هـ.

(٥) هذا فيما سوى حديث النبي ﷺ، فإنهم كانوا يكرهون كتابتَه في أول الإسلام لكيلا يُضاهئون به المصاحف، أو لكيلا ينكبُّون على غير كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، أو لئلا يعتمدوا على الكتاب ويتركوا الحفظ، أو لأسبابٍ غير هذه، ولهم في هذا أخبارٌ نقلها الخطيبُ البغداديُّ في «تقييد العلم»، منها ما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنّا لا نكتب في الصحف إلا الرسائلَ والقرآن»، انظر: تقييد العلم، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، ص٤٣، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ط٢/ ١٩٧٤م. على أنّه قد أذن النبيُّ ﷺ لبعض الصحابة في الكتابة، ممن كان ضعيف الحفظ، أو لأسبابٍ غير ذلك، انظر: تفصيل القول في: تقييد العلم، ص٦٤، وما بعدها.

جمعُهم... فإنه قد منعني من بعض ما أردتُ الكتابَ به قلةُ علمي بما هجمتم عليه»[1]، وفي آخر: «واكتب إليَّ في كل يوم»[2]. وكان سعدٌ يكتب إليه في شأنٍ ما فيقول: «ومتى ما يبلغنا ذلك نكتبْ به»[3].

لقد اشتدَّ الكتابُ في زمن الصحابة، حتى لقد ثبت أن سعد بن أبي وقاص كان يبعث بالكتب إلى الرايات من جيشه[4]. وقد كان يكفيه أن يُخبرهم بما يشاء بنفسه شِفاهًا أو يُرسل رسولًا، ولكنها الكتابةُ التي استشرتْ، واستمرأها القوم، وكان من أسباب غزارة الكتابة في عصر الصحابة أمرُهم بتعليمها[5]، واستقدامُهم المعلِّمين لها[6].

(حوامل الكتابة)

أمَّا فيمَ كانوا يكتبون؟[7] فقد بلغَنَا أنهم كانوا يكتبون في الأَدَم[8]، والرِّقاع، والطوامير، والسِّجِلَّاتِ[9]، والصُّحُف[10]، بل كانوا ربما يكتبون في الجبال[11]، وكانوا يَسِمُون بالكتابة أفخاذَ الخيل، وقد كانت تكفيهم في ذلك الإشارة[12].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩١.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٥.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٥.
(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٢.
(٥) انظر: مقالة عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وعلِّموا صبيانكم الكتابة» في: مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٨٦.
(٦) انظر: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي ١٥/ ٣٠١، ساعدت على طبعه جامعة بغداد، ط٢/ ١٤١٣هـ.
(٧) سمَّى ديروش Francois Derche ما يُكتب فيه من المخطوطات «حوامل الكتابة»، وقد ارتضيتُ مصطلحَه، انظر: المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، لفرانسوا ديروش، ص٦٥، نقله إلى العربية وقدم له أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ط٢/ ١٤٣١هـ.
(٨) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ٣٣١.
(٩) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦٤.
(١٠) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٥٢.
(١١) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص١٧.
(١٢) عن السائب قال: رأيت خيلًا عند عمر بن الخطاب رَحِمَهُ اللَّهُ، موسومةً في أفخاذها: «حَبِيسٌ في سبيل الله» الطبقات الكبير ٣/ ٢٨٥.

بيد أن التفرقة واجبةٌ بين الكتابة عند الصحابة بمعنى (معرفةِ) الكتابة وإقامة الحروف على الطِّرْس، وإحسان الخطّ، وبين الكتابة بمعنى (إنشاء) الكتابة ونَظْمِ الجُمَل؛ فالذي يعنينا في دراسة الأدب الثاني، وإن كان الأولُ السبيلَ إليه. فعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: إنما تعلَّمْتُ **المعجمَ** بعد وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]. يعني الكتابة؛ فهذا من الأول.

أما الكتابةُ بمعنى (الإنشاء)[2]، فقد ظهرتْ مقدِّماتُها في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أيدي كُتَّابه من الصَّحابة. ولعل أخطرَ الأخبار في بدايات الكاتب المُنْشِئ لا الكاتب الرَّاقمِ الذي يكتبُ ما يُملَى[3] عليه فحسب؛ ما رواه ابنُ سعدٍ في (الطَّبَقات الكبير) عن مالك ابن أنسٍ، قال: بلغني أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُتِب إليه كتابٌ، فقال: «مَنْ يُجيبُ؟»، فقال ابن الأرقم: أنا. فأجاب عنه، ثم أُتي به إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعجَبَه وأَنْفَذَه[4].

فهذا الخبر أصلٌ في نشأة الكتابة الديوانية في الإسلام، وقد يسوغ لنا أن نعُدَّ عبد الله بن الأرقم الكاتبَ الدِّيوانيَّ الأوَّلَ في الإسلام، أما إذا عددنا كِتاب أبي بكرٍ لسُراقة بن مالك بأمْر رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وهما مهاجريْن ـ ليكونَ بينه وبين النبيِّ آية[5]؛ فإنه سيكون أقدمَ كتابٍ في الإسلام ـ فيما نعلم ـ كتبَ به كاتبٌ لذي سُلطانٍ أو ولاية أو وَحْي.

---

(١) الطبقات الكبير ٤/ ١٠٥.

(٢) رأى القلقشنديُّ أن «ديوان» الرسائل نشأ منذ عهد الرسول ﷺ، انظر: صُبح الأعشى ١/ ٩١، ولكن الثابتُ أن ديوان الرسائل بصورته المنظَّمة قد نشأ في أثناء خلافة معاوية، انظر: في النثر العربي، للدكتور محمد يونس عبد العال، ص١٧٦، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، القاهرة، ط١/ ١٩٩٦م.

(٣) جاء في الكتاب العزيز: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِٱلْعَدْلِ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، من أَمَلَّ، وهي لغة الحجاز، بمعنى أملى، وفي التنزيل أيضًا: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥)، من أملى؛ وكلتاهما بمعنى، انظر: «لسان العرب: ملل».

(٤) الطبقات الكبير ٦/ ٧٣.

(٥) انظر: السيرة النبويَّة، لابن هشام ١/ ٤٨٩.

وثَمَّة أخبارٌ أخرى شبيهةٌ بتلك، كالكتاب الذي خَطَّه بيده لرسول الله ﷺ خالدُ بن سعيد: «هذا كتابٌ من محمد رسول الله إلى المؤمنين: إنَّ عِضَاهَ وَجٍّ وصيدَه لا يُعضَد. فمن وُجد يفعل ذلك فإنه يُؤخذ فيُبلَّغُ النبيّ. وهذا أمْرُ النبي محمد بن عبد الله رسولِ الله»[1]، ثم كَتَبَ خالدُ بن سعيد في عقبه مضيفًا شارحًا: «وكتب خالد بن سعيد بأمْر النبي محمد ابن عبد الله، فلا يتعدَّيَنَّه أحدٌ فيظلمَ نفسه فيما أمر به محمدٌ رسولُ الله»[2].

فهذا كتابٌ نرى فيه مشاركةَ الكاتب في نسيجه؛ كأنَّ النبي ﷺ أعلمَه بما يبتغي، ثم ترك الكلامَ له والعبارةَ عنه بما يراه، دلَّ على ذلك قولُه: «هذا أمْر النبي محمد...»، ثم قولُه: «وكَتَبَ... بأمر النبي محمد... فيما أمر به محمد...»، وفي الكتاب آخرِه خاصَّةً نستشعر قَلَقَ الكاتب من التقصير في أداء المعنى الذي قد حُمِّلَه.

وقريبٌ من هذه الكتب ما جاء في آخر عهد النبي ﷺ لأهل أَيْلة: «هذا كتابُ جُهْيم بن الصَّلْت وشُرَحْبيل بن حَسَنة بإذنِ رسول الله»[3]؛ كأنما أَوْلاهما رسولُ الله ﷺ المُرادَ والمعاني، فصاغاها بألفاظهما، وكتباها. فهذا الإذنُ بالكتابة عن صاحب الأمر، والتصريحُ بالإنشاء منه.

ومن ثَمين الأخبار ما رَوى الطبريُّ من طريق الواقدي، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، قال: «دعا أبو بكرٍ عثمان خاليًا، فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهِد أبو بكر ابن أبي قُحافة إلى المسلمين، أما بعد»، قال: ثم أُغميَ عليه، فذُهب عنه، فكتب عثمان: «أما بعد، فإني قد استخلفْتُ عليكم عمرَ بن الخطاب، ولم آلُكم خيرًا منه». ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر، وقال: أراكَ خِفْتَ أن يقتتل الناسُ إن افتُلتتْ نفسي في غَشْيَتي! قال: نعم. قال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله. وأقرَّها أبو بكر رضي الله عنه من هذا الموضع»[4].

---

(١) الطبقات الكبير ١/ ٢٤٦.

(٢) الطبقات الكبير ١/ ٢٤٦.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص١١٧-١١٨.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٢٩.

ولاشك عندي أن عثمان كان يعلم ويعي صاحبَ عهد أبي بكر، ولا شكَّ أن أبا بكرٍ أدلى إليه بذلك، ولكن بقيتْ ألفاظُ العبارة، فلما خاف عثمانُ موتَ صاحبها الذي دعاه إلى كتابتها، كتب المعنى بعبارته هو، وما كان له أن يفعل لولا أنه يعلم رضا أبي بكر عمَّا كتب، وإقرارَه إيَّاه لو رجع إليه رُوحُه.

وروى صاحب (مروج الذهب) مما نعُدُّه في هذا الوادي، أنَّ عليَّ بن أبي طالبٍ قال لصَعْصَعْة بن صُوحان: «عزمتُ عليك يا صعصعة إلّا كتبتَ الكتاب بيديْك، وتوجَّهتَ به إلى معاوية، واجعل صدر الكتاب تحذيرًا وتخويفًا، وعجُزَه استتابةً واستنابة. وليكنْ فاتحةُ الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية، سلامٌ عليك، أما بعد، ثم اكتب ما أشرتَ به عليَّ. واجعل عنوانَ الكتاب: ألا إلى الله تصير الأمور»[1]. كأنَّ الخليفة يُعلِّم كاتبَه كيف يُنشئ عنه، وماذا يُنشئ عنه.

إلّا أننا لن نغالي فنجعلَ تلك الكتابات كتاباتٍ ديوانيةً بحتةً تواطَأَ عليها خلفاءُ الصحابة وأمراؤهم فرتَّبوا لها الديوان والكَتَبَة، كلا، وكلا لن نُقصيَها أيضًا ونحذفَها من تاريخ الإنشاء عند العرب. بل إنا لنُراها بُذورًا طيبةً أثمرت عمَّا قريبٍ ـ ضمن أسبابٍ أخرى ـ كتابةً إنشائيَّةً واسعةً مُرتَّبة.

(القوالب، وتجهيز الكتب)

ذلك، ومن مواريث الصحابة في الكتابة أنهم كانوا يبعثون الكتب الكثيرةَ في الأقطار على صورةٍ واحدة، يُغيِّرون في الأسماء فحسب، مثاله أنَّ عمر بن الخطاب كتب لأهل الجابية الصُّلح، لكل كُورةٍ كتابًا واحدًا على كتاب لُدٍّ، ما خلا كتابَه لأهل إيلياء، فإنه قد غيَّر في صورته[2].

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي٢/ ٣٠، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، كتاب التحرير، القاهرة ١٣٨٦هـ.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك٣/ ٦٠٨-٦٠٩.

وكان أبو بكر يكتب الكتبَ إلى الأجناد والعُمّال في الرِّدَّة بنسخة واحدة[١]، وكتب عُمر ابن الخطاب إلى أمراء الأجناد بالشام بتولية يزيد بن أبي سفيان نسخةً واحدة[٢]، وكتَبَ خالد ابن الوليد إلى جميع ملوك الفُرس بنسخةٍ واحدة[٣]، وكتَبَ عليٌّ إلى عُمّاله في هروب بعض المفسدين في الأرض نسخةً واحدة[٤]، وكتب حُسين بن عليٍّ إلى رؤوس الأخماس بالبصرة وإلى الأشراف بنسخةٍ واحدةٍ، وكانوا ستةَ نفر[٥].

إنَّ في هذا لأَمارةً على إعداد الكُتُب وتجهيزها سلفًا، وضبْط ألفاظها، ولا سيَّما العهود؛ لما يترتَّب عليها من الذِّمَّة في الأموال والدماء والصُّلح. ومما يدلُّ على الإعداد والتجهيز دلالةً قاطعةً أمثالُ ما يُروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال فيما رواه إبراهيم بن يزيد: إذا عاهدتم قومًا فأبرئوا إليهم من مَعَرَّة الجيوش. قال الراوي: فكانوا يكتبون في الصُّلح لَمَنْ عاهدوا: «ونبرأ إليكم من مَعَرَّة الجيوش»[٦]. ومثلُه أن عُمّال الخراج اصطلحوا فكتبوا للخراج نسخةً واحدةً عُرِفتْ بـ(براءة الخراج)[٧]. فهذا وشَبَهُهُ مما يدخل في حَيِّز ما يمكن أن نُسمِّيَه بـ(قوالب الكُتُب).

ونجد في كتب الأمان خصوصًا أنها كادت أن تكون على قالَبٍ واحدٍ حِيطةً من أُمراء الصحابة وحَذَرًا، إلماعًا إلى نظامٍ دقيقٍ كانت الدولةُ ترعاه وتنتهجُه في مثل تلك الشؤون الخطيرة، غير أن هذا لم يكن ليؤدي إلى الجمود أو ترك الاجتهاد والابتداع في الألفاظ والكتابة، كلا بل كانوا يحرصون على أن يتضمَّن العهدُ عناصر محدَّدة، وأن يُنصَّ فيه ظاهرًا على جزاء الغدر إن كان من المعاهَد غَدْر[٨].

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٥٨.
(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٩٢.
(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٨٥.
(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١١٦.
(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٥٧.
(٦) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٩-٥٩٠.
(٧) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧١.
(٨) انظر: مجموعةً مجتمعةً من العهود والأمانات في: جمهرة رسائل العرب ١/ ٢٤٣-٢٤٩.

(التشارك في الكتابة)

ومما يؤثَر عنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أصول كتابتهم أن الكتاب الواحد قد يُحرِّره[1] غيرُ صحابيٍّ منهم، اثنان فأكثر؛ وهذا من عجيب ما بلَغَنا عنهم في أمر الكتابة، فممَّا كتبه اثنان كتابُ أبي عُبيدة ومعاذ بن جبل إلى عُمر بعد وفاة أبي بكر ينصحانه ويُذكِّرانه[2].

ومما كتبه الجمعُ الكثيرُ من الصحابة اتَّفقوا عليه، مارواه الطبريُّ أنه «لـمَّا رأى الناسُ ما صنع عثمان كتب مَنْ بالمدينة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مَنْ بالآفاق منهم، وكانوا قد تفرَّقوا في الثغور...»[3]. بل إنه قد ورد في زمن الصحابة تفرقةٌ بين معنى (الكتاب) ومعنى (الصحيفة)؛ إذ الصحيفةُ تكون مكتوبةً من «الرجل والاثنين والأربعة»[4].

كذا وردَت تلك الرواية دلالةً على التعدُّد وانتفاء الوَحدة[5].

والظاهرُ أن هذا التفريق في المصطلح بين الصحيفة والكتاب لم يُكتب له الذيوع والانتشار، فقد رأيناهم يقولون (الصحيفة) وهي لم يكتبها إلا كاتبٌ واحدٌ فقط[6].

(ذكر اسم الكاتب)

ومن ديوانيَّة الكتابة في تراثهم الذي نُقل إلينا أنهم كانوا كثيرًا ما يذكرون اسم كاتب الكتاب في آخره، وخاصَّةً في كُتُب العهود والمواثيق والإقطاع وما يماثلها.

---

(١) التحرير مصطلح كتابيٌّ قديم، جاء في اللسان: وتحريرُ الكتابة: إقامة حروفها وإصلاح السَّقَطِ. وتَحْرِيرُ الحساب: إثباته مستوياً لا غَلَثَ فيه ولا سَقَطَ ولا مَحْوَ، انظر: «لسان العرب: حرر».

(٢) انظر: فتوح الشام، للأزديّ، ص١٠٠.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٧٦٣.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٥٢.

(٥) وعلى هذا وردَت التسمية في كتاب القضيَّة بين علي ومعاوية إذ ورد فيها: «أنَّا على ما في هذه الصحيفة» انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٣-٥٤.

(٦) انظر: مثلاً صحيفة معاوية إلى الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦٢.

وكتابةُ اسم الكاتب عملٌ قديمٌ عَمِلَه الصحابةُ منذ عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسُنَّةٌ قديمةٌ من سُنن الكتابة، فقد روى البَلاذُريُّ في (فتوح البلدان) أنَّ أول من قال: «وكتب فلانُ بنُ فلان» أُبيُّ بن كعب الأنصاري. وكان أُبيٌّ أولَ من كتب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقدِمَه إلى المدينة[(١)]، فكانوا يكتبون في آخر الكتاب مثلًا: «وكتب خالد بن سعيد»[(٢)]، «وكتب مُعَيْقِيب»[(٣)]، ونحوَ ذلك.

وليس يخفى أن الكاتب في عُظْم هذه الكتب إنما هو ناسخٌ خاطٌّ لِما يُمَلُّ عليه فحسب، لا كاتبٌ مُنْشِئ، وما الكاتبُ المنشئُ إلا صاحبَ الكتاب الذي ورد اسمُه في عُنوانه.

وكتابةُ اسم كاتب الكتاب في آخره نوعٌ من التوثيق لهذا الكتاب؛ فإنه إذا عُرف الكاتبُ عُرف خَطُّه، وإذا عُرف الكاتبُ والخطُّ قلَّ احتمالُ الوضع[(٤)].

(الإشهاد على الكتب)

ومن تراثهم أنهم كانوا يُشهدون على الكُتُب، وخاصَّةً الكتب الخطيرةُ الشأن، وكانوا يكتبون أسماء الشهود في آخرها، فيقولون مثلًا كما في عهد عمرو بن العاص إلى أهلَ مصر: «شهِد الزُّبير، وعبدُ الله ومحمدٌ ابناه»[(٥)].

---

(١) انظر: الإصابة ١/ ٢٧.

(٢) الطبقات الكبير ١/ ٢٤٦.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٩٧.

(٤) انظر: تاريخ الترسُّل النثري عند العرب في صدر الإسلام، للدكتور محمود المقداد، ص٧٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٠٩، وقد روي كتابٌ للنبي ﷺ ذُكر فيه أسماء الشهود في وسَطه لا في آخره، وهو كتابه ﷺ إلى بني كلب: «هذا كتابٌ من محمد... بمحضر شهود من المسلمين: سعد بن عُبادة، وعبد الله ابن أُنيس، ودِحية بن خليفة الكلبي، عليهم الحمولةُ الراعية...» إلخ مجموعة الوثائق السياسية، ص٢٩٧، ولم يوجد لهذا أثرٌ عند الصحابة فيما بعدُ فيما وقفتُ عليه من الكتب.

وقد يزيد عددُ الشهود بازدياد خطر الكتاب، رأينا ذلك في كتاب القضيَّة بين عليٍّ ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ إذ بلغ عدد الشهود من الفريقين عشرين رجلًا، عشرةً من كل فريق[1]، وغالتْ الروايةُ في (صُبْح الأعشى) فبلغتْ بهم ستين رجلًا، ثلاثين من كل فريق[2].

وكثيرًا ما كان أحدُ الشهود هو الكاتبَ، مثلُ ما نقرأ في آخر أمان عُمر بن الخطاب لأهل إيلياء: «شهد على ذلك خالدُ بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكَتَب»[3]؛ وكما في بعض العهود التي كتبها خالد بن الوليد لأهل الذِّمَّة: «شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وكَتَب»[4]. ولقد كان الشاهدُ الكاتبُ هذا يؤخِّر اسمه في الكتابة حتى يجاور اسمُه لفظة «وكَتَب»، حتى لو كان أفضل منزلةً ممن سبقَه، وهذا نوعٌ من النظام الذي اتَّبعوه في نِساخة الكتب، نَدَر أن يحيدوا عنه كهذا الذي في كتاب عبد الله بن مسعود للفاذوسفان وأهل إصبهان، فإنَّ فيه: «وكَتَبَ وشَهِد عبدُ الله بن قيس، وعبد الله بن ورقاء، وعصمة بن عبد الله»[5]؛ فإنه قدَّم لفظةَ (الكتابة).

ومما تفرَّدوا به وابتدعوه في الإنشاء أنهم قد يُشهِدون شُهودَ كتابٍ على كتابٍ آخرَ إذا كان مستخرَجًا منه، ففي كتاب (براءة الخراج) الذي تواضعوا عليه ـ وهو مستخرَجٌ من صُلح خالدٍ لأهل الخراج، مؤسَّسٌ عليه ـ كُتب: «براءةٌ لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد، وقد قبضْتُ الذي صالحهم عليه خالد. وخالدٌ والمسلمون لكم يدٌ على مَنْ بدَّل صُلْحَ خالد، ما أقررتم بالجزية وكففتم، أمانُكم أمانٌ، وصُلْحُكم صُلح. نحن لكم على الوفاء»[6].

(١) انظرهم في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٢.
(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد ١٤/ ٨٢، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٠هـ.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦٠٩.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٦٩.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٤١.
(٦) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧١.

قال الراوي ـ وهذا موطن الشاهد ـ: «وأشهَدوا لهم النفر من الصحابة الذين كان خالدٌ أشهدهم: هشامًا، والقعقاع، وجابر بن طارق، وجريرًا، وبشيرًا، وحنظلة، وأزداد، والحجَّاج ابن ذي العنق، ومالك بن يزيد»[١]، أي كتبوا في البراءة أسماء هؤلاء الشاهدين وإن لم يحضروا الكتابةَ في تلك الحال.

ومن نوادرهم في الإشهاد أنهم ربما لا يُشهِدون أحدًا من البشر، بل يُشهدون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحدَه، وذلك كالذي أعطى أبو عُبيدةَ أهلَ بعلبكَّ من الأمان[٢]، وكالذي أعطى عياضُ ابن غُنْم أهل الرَّقَّة وأسقفَّ الرُّها من الأمان؛ كاتبين في آخر تلك الكتب: «شهد الله، وكفى بالله شهيدًا»[٣].

(تاريخ الكتب)

ثم إنهم كانوا يؤرِّخون تلك الكتب، وقد اشتُهر أنَّ عمر بن الخطاب هو أول مَنْ وضع التأريخ بالهجرة المحمدية على صاحبها أفضلُ الصلاة والسلام، وأنَّ توقيت ذلك سنة ستَّ عشرة، ومما جاء في هذا من الأخبار أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عُمر: «إنه تأتينا منك كُتُبٌ ليس لها تاريخ. فجَمَع عُمر الناس للمشورة، فوضعوا التاريخ لهجرة المدينة، وكان في سنة ستَّ عشرة»[٤]، هذا ما اشتُهر، ولكني وجدتُ كتبًا من كتب الصحابة مؤرَّخةً لعهد أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. ففي كتاب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا أنه شهد عليه فلانٌ وفلانٌ وحنظلةُ ابن الربيع، وكَتَب «سنة اثنتي عشرة في صفر»[٥]، وفي معاهدة خالدٍ أهلَ الحيرة أن العهد مكتوبٌ «في ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة»[٦].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧١.

(٢) جمهرة رسائل العرب ١/ ١٦٠.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٩٤-٤٩٥.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٢١.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٦٩.

(٦) مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٨٠.

فعلى ذلك يكون التاريخ موضوعًا ومعروفًا قبل زمان عمر بن الخطاب وقبل سنة ست عشرةَ بسنين، بل قد ذهب بعضُهم إلى أن النبي ﷺ هو مَنْ أمر به، وهو مَنْ أمر أن يكون ابتداؤه بهجرته ﷺ، وأنه أَمَرَ عليًّا أن يكتب في كتابه لنصارى نجران: أنه كُتب لخمسٍ من الهجرة[(١)].

ومذْ ذاك صار الصحابة يؤرِّخون الكتب في العهود والفتوح وغيرها، ففي بعض الكتب أنه أُرِّخ «في سنة سبع عشرة للهجرة»[(٢)]، وفي كتاب الأمان الذي كتبه النعمان بن مقرِّن لأهل ماه بهراذان: «وكتب في المحرَّم سنة تسع عشرة»[(٣)].

ولهم بعضُ ألفاظٍ أخرى يستعملونها في معنى الهجرة، كما أرَّخ عبدُ الله بنُ أبي رافع عهدَ عليٍّ بن أبي طالب الذي جدَّده للنجرانيين، بقوله: «وكتبَ عبد الله بن أبي رافعٍ، لعشرٍ خلون من جُمادى الآخرة سنة سبعٍ وثلاثين منذ ولَج رسول الله المدينة»[(٤)].

ومن طرائف التاريخ في كتب الصحابة أن عُمر أرَّخ مرَّةً لنصارى نجران فكتب في متن الكتاب: «فإن ذمتي بريئة ممن وجدناه ـ بعد عشرٍ تبْقى من شهر الصوم من النصارى بنجران...»[(٥)]. فأرَّخ لهم بما يعرفون من التاريخ في ديانتهم؛ هذا إذا وقفنا جملةَ الاعتراض عند كلمة «النصارى» مثلما ضبطَها محمد حميدُ الله، أما إذا جعلنا نهاية الجملة الاعتراضية عند كلمة «الصوم»، فإن حرف الجرِّ في قوله: «من النصارى» يكون متعلقًا بالفعل «وجدناه»، ولا حُجَّة فيه على النُّدرة حينئذٍ.

---

(١) انظر: تفصيل ذلك والأقوال فيه في: التراتيب الإدارية، للكتَّاني ١/ ١٨٠-١٨٣.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٩٧.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٤١.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٩٩.

(٥) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٩٢.

(خَتم الكتب)

ومن سُننهم أنهم كانوا يختمون الكتب، والخَتْمُ نوعان: ختم الكتاب من داخله، كعهد أبي بكر إلى عمر بالخلافة، وفي خبره أن أبا بكرٍ أمر بالكتاب فختَمَه[١]. وهذا الختم ختمُ توثيق بلا شك. والنوع الثاني خَتْمٌ من الخارج، بأن يُطوى الكتابُ، ويُلصق طرفاه بالشَّمع أو الطين الأحمر، ثُم يُطْبَع بالختم عليه، ثم يُترَكُ حتى يجفَّ، فإذا فُضَّ الكتابُ من قبل أن يصل إلى صاحبه عُرِف[٢]. ومثال هذا النوع كتاب أبي بكر الصدِّيق إلى العامَّة في أيَّام الرِّدَّة مَنْ أقام منهم على إسلامه أو رجع عنه، قال الراوي: ثم طوى الكتابَ، وختمَه، ودفعه إلى خالد، وأمره أن يَعمل بما فيه[٣]. وفي خبرٍ آخر أنَّ أبا بكرٍ كتب إلى الأشعث بن قيس في أيام الرِّدَّة أيضًا، قال الراوي: ثم طوى الكتابَ وعَنْوَنَ خَتْمَه[٤]. أي: كتب في خَتْمِه عُنوانَه لئلّا يُفَضّ؛ فهذا من نادر الخبر، وهذا خَتْمُ حفظٍ للكتاب حتى يؤدَّى إلى مُنتهاه.

ومن الأخبار التي تُروى في هذا الشأن أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من اتخذ ديوان الخاتم، وأول من خَزَمَ الكتب حتى لا تُفضّ، وكان سببُ ذلك -كما عند الطبري- أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمئة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد بن سُميَّة وهو على العراق، ففضَّ عمرٌو الكتاب وصيَّر المئة مئتين، فلما رفع زيادٌ حسابَه أنكرها معاوية، فأخذ عَمْرًا بردِّها وحبَسَه، فأدَّاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير؛ فأحدث معاوية عند ذلك ديوانَ الخاتم، وخَزْمَ الكتب، ولم تكن تُخْزَم[٥].

(١) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ١٨٣.

(٢) انظر: الأختام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي في الشام، مقالة للدكتور جاسم محمد عيسى الجبوري، مجلة العرب، جـ ٧و٨، محرم وصفر ١٤٣٥هـ، ص٥٦٧، دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، الرياض.

(٣) انظر: كتاب الردَّة، المنسوب للواقدي، ص٧٢.

(٤) انظر: كتاب الردَّة، المنسوب للواقدي، ص١٩٢.

(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٠.

وعند الطبري أيضًا أن معاوية قد أرسل إلى الحسن بن عليٍّ بصحيفةٍ بيضاء، مختومٍ على أسفلها، وكتب إليه أن «اشترط في هذه الصحيفة التي ختمتُ أسفلَها ما شئتَ، فهو لك»[1].

كما أرسل معاويةُ إلى قيس بن سعدٍ والي مصر من قِبل عليٍّ بسِجِلٍّ قد خُتم عليه في أسفله، فقال: «اكتب في هذا السجلّ ما شئت، فهو لك»[2].

(نقش الخواتم)

ألا إن ههنا فنًّا صغيرًا آخر يحسن بنا أن نقف عليه عند الصحابة، لم أُفرده في الفنون وحدَه، ولكنّي لم أشأ أن أتركَه أو أُغفلَه دون ذكر؛ فرُبَّةَ يفتحُ بابًا من الدراسة في أدب الصحابة أو غيرهم لا ندري الآن ما سَعتُه؛ إنه فنُّ (نَقْش الخواتم).

ولنقش الخواتم تعلقٌ ما بفنٍّ عُني به اليونان منذ القِدَم، هو فن الأبيجراما Epigram. والأبيجراما: لفظةٌ مستمدَّةٌ من اللغة اليونانية القديمة، وكانت تعني عندهم الكتابةَ المنقوشةَ على الأحجار وشواهد القبور ونحوها، ثم تطوَّر هذا المعنى بعد ذلك[3].

وهذا الفنُّ من فنون الكتابة كان مقصودًا لذاته، فهو ألصقُ بالفنيَّة من سواه، وكان الصحابيُّ من ذوي الخاتم ينقُشُ في خاتمه من العبارة ما يراه خُلاصةً لحاله، أو طريقةً لحياته، أو إشارةً إلى منهاجه في تدبُّر الأمور وتدبيرِها.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦٤.

(٣) فصار يطلق على العبارة الموجزة البليغة الساخرة، انظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، لمجدي وهبة وكامل المهندس، ص١٥٣، بيروت، ط٢/ ١٩٨٤م. وانظر فيما آل إليه هذا المعنى في تاريخ الأدب فيما بعد، مقالةَ الدكتورة نجوى محمود صابر، بعنوان: المفارقة في أدب طه حسين: دراسات في جنة الشوك، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، عدد ٥٣ سنة ٢٠٠٤م، ص٧٣.

فقد رُوي أن نقش خاتم أبي بكر كان: «نِعْم اللهُ القادر»[1]. وهو نقشٌ يرمز إلى إيمان أبي بكرٍ الخالص بقوَّة الله العظيم الجبَّار المتعال، وهو ما ظهر أثرُه جليًّا في عزيمة أبي بكرٍ وعملِهِ لياليَ حروب الردَّة، وقد قصد أبو بكرٍ أن ينقش على خاتمه هذه الكلمة كيما يعلم الذي تُرسَلُ إليه تلك الكتبُ المختومة أن أبا بكرٍ لا يستمدُّ القوةَ إلا من الله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل: كان ختم أبي بكر: «عبدٌ ذليلٌ لربٍّ جليل»، وهذا رواه الختلي في (الديباج)[2]، وإسناده ضعيفٌ أو مظلمٌ كما قال ابنُ كثير[3].

كما رُوي عن عمر بن الخطاب أن نقش خاتمه كان: «كفى بالموت واعظًا يا عُمر»[4]، وهو اختصارٌ مُجْزٍ عن زُهد عُمر في حياته.

أمَّا عُثمان فكان اليقينُ عنوانَ نقش خاتمه المرقوم فيه: «آمنتُ بالله مُخلصًا»، وقيل: «آمنتُ بالله الذي خلق فسوَّى»، وقيل: «لتُبْصِرُنَّ أو لتَندمُنّ»[5].

وكان خاتم عليٍّ منقوشًا فيه: «الله الملك»[6]، أو «الملك لله»[7]، أو «لله الملك»[8]، وليس بعيدًا أن يكون هذا الاختلافُ في الروايتين الأُخريين ناشئًا بسبب ترتيب نقش

(١) شرح معاني الآثار، للطحاوي أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة ٤/ ٢٦٤، تحقيق محمد زهري النجار دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٣٩٩م، والعقد الفريد ٥/ ١٧.

(٢) كتاب الديباج، للختلي، أبي القاسم بن إبراهيم بن سنين، ص٧٠،تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، بيروت، ط١/ ١٩٩٤م.

(٣) انظر: كنز العُمَّال في سنن الأقوال والأفعال، للمتقي الهندي٥/ ٦٣٧، وقد ورد في هذا الخبر الضعيف من نقوش خواتم الصحابة ما يلي: نقش خاتم عُمر: الله المعين لمن صَبر. نقش خاتم عثمان: اللهم فأحيني سعيدًا وأمتْني شهيدًا. نقش خاتم عليّ: الملك لله الواحد القهَّار.

(٤) معرفة الصحابة لأبي نُعيم، ص٥٥.

(٥) معرفة الصحابة لأبي نُعيم، ص٦٤.

(٦) معرفة الصحابة لأبي نُعيم، ص٩٠.

(٧) كَنز العُمَّال ٦/ ٦٨٧.

(٨) شرح معاني الآثار ٤/ ٢٦٤.

الكلمتين في الختم، فقد تكون إحداهما كُتبت فوق الأخرى، وهم كانوا يبدؤون الكتابة في الأختام من أسفلها إلى أعلاها أحيانًا، مثل ختم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث نُقش فيه ثلاثة أسطرٍ: «محمدٌ» سطر، و«رسول» سطر، و«الله» سطر. قيل: تُقرأ من أسفلَ إلى أعلى: «محمدٌ» آخر الأسطر، و«رسولٌ» في الوسط، و«الله» فوق؛ ليكون «الله» عَزَّ وَجَلَّ هو الأعلى(١).

وهذا ـ إن صحَّ ـ منهجٌ اتُّبع فيما بعد في كتابة أمشاق الخطِّ العربيِّ وتكويناته الفنيَّة المشتملةِ على لفظ (الله) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلعلَّ هاديَهم إلى هذا نقوشُ مثلِ تلك الخواتيم العتيقة.

ذلك، ولما كان أبو عُبيدة على ولاية الخراج ناسب أن يكون نقشُ خاتمه: «الخمسُ لله»(٢)، وقيل بل كان نقشُ ذلك الخاتم: «الوفاء عزيز»(٣).

وكان نقشُ خاتم عبد الله بن عُمر انقيادًا كاملًا لله رب العالمين، فقد كتب فيه: «عبدُ لله»(٤)، وهو صورةُ حياة ابن عمر حقًّا الذي ما فتئ مقتفيًا سيرةَ محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طيلةَ حياته. وجعل الحَسَنُ بن عليٍّ نقشَ خاتمه: «علمتَ فاعمل»(٥).

ورأى أسامةُ بن زيد أن يجعل نقش خاتمه منقبتَه الأولى في الحياة الدنيا، بل في الآخرة، فقد كتب فيه: «حِبُّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٦).

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر ١٠/ ٣٢٩.

(٢) المصنف، لعبد الرزّاق ١/ ٣٤٨.

(٣) المستدرك، على الصحيحين، للحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله ٣/ ٢٩٩ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ.

(٤) معرفة الصحابة لأبي نُعيم، ص١٧٠٧.

(٥) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر أبي عُمر يوسف بن عبد الله النَّمَري القرطبي ٢/ ٢٤، تحقيق فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، ط/ ١٤٢٤هـ.

(٦) المستدرك، للحاكم ٣/ ٦٨٩.

ذلك، ومن طريف ما أُثر عن الصحابة في نقوش خواتمهم أنهم ربما لا يكتفون بنقش الحروف فحسب، بل إنهم قد يمزجونها ببعض التصاوير والرسوم، فقد رُوي مثلًا أن نقشَ خاتم حذيفة: كُركيَّان[1] متقابلان وبينهما: «الحمدُ لله»[2].

وقد نزعم أن هذا المزْجَ من مبكِّر الصلة بين فنَّي التصوير والكتابة في تاريخ الفنون الإسلامية، وأنه ـ وإن كان أمثالُ هذا من النَّزْر القليل ـ لا يَخْلُق بنا أن نعدوَه من دون أن نُنبِّهَ عليه.

ولعل من إتمام القول في شأن خواتم الصحابة، أنْ نقُصَّ روايةَ بعضِ ما نُقش فيها من الصور من غير الكتابة، ولا ندري أكتفى الصحابةُ بهذه الصور التي حُكِيتْ لنا في خواتمهم أم مزجوا بها شيئًا من الكتابة؟ فمِن ذلك أنهم رَوَوْا أنَّ نقشَ خاتم النُّعمان بن مُقرِّنٍ كان أَيِّلًا[3]، وأن نقش خاتمِ عِمران بن حُصين كان رجلًا متقلِّدًا بسيف، وأن نقش خاتم أنس بن مالكٍ أسدٌ رابضٌ حولَه فرائس، وأنَّ نقش خاتم ابنِ مسعودٍ إمَّا شجرةٌ، وإمَّا شيءٌ من ذبابتين[4].

ذلك، وإنَّ هذه التدابير من الختم والخزْم والشهود والكاتب والتاريخ ونحوها، إنما كانت تُتَّخذ لكي تُحفظ الكتبُ، وكي تؤدى إلى جهتها على صورتها التي أنشأها أصحابُها عليها.

---

(١) الكُرْكِيُّ طائرٌ يُكْنَى أبا العَيزار؛ وهو طائر طويل العنق تراه أبدًا في الماء الضَّحْضاح، يسمى السَّبَيْطَر «لسان العرب: عزر».
(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٢٥٦٠٧.
(٣) في الأصل المنقول عنه وهو شرح معاني الآثار ٤/ ٢٦٣: إبِلًا، والظاهر أنه تصحيف، لأن الإبل اسم جمعٍ لا واحد له من لفظه، ولعل الأيِّل قابضًا إحدى يديه باسطًا الأخرى.
(٤) انظر: شرح معاني الآثار، للطحاوي ٤/ ٢٦٣.

(الرُّسُل بالكتب)

زدْ على هذه التدابير الحافظة سبيلًا آخر للحفظ اتخذوه، كي يضمنوا سلامةَ الكتاب وهو في الطريق إلى جهته، ذلك هو اختيار حامل الكتاب والرسولِ به. فمن عناية الرُّواة لتلك الكتب أنهم طفقوا يذكرون منذ قديمٍ اسمَ حامله، كالكتاب الذي كتبه أبو بكرٍ إلى ملوك اليمن وأهل مكة يستنفرهم إلى الجهاد، وأرسل به أنسَ بن مالك الأنصاريّ[1]، وذكروا أن أبا بكر أرسل أبا سعيدٍ الخُدْريَّ بكتابه إلى خالد بن الوليد ومَنْ معه باليمامة يُسيِّرهم إلى العراق[2]. وإذا نحن عرفنا قَدْرَ الكتاب وخطرَ ما فيه، عرفنا لم اختير الرسول به على هذا القدر الكبير، قَدْرِ أنسٍ أو أبي سعيدٍ الخُدْريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولم يقتصر عملُ الرسول بالكتاب في زمن الصحابة على الحَمْل فقط، بل زاد الصحابةُ في عَمَلِه، فجعلوا من الرسول بالكتاب شارحًا له ومُتمِّمًا له أيضًا، مثاله أن أبا عُبيدة كتب إلى عُمر يُخبره بتجميع الروم للمسلمين بالشأم، وأرسل بالكتاب سفيانَ بن عوف بن مَعْقِل، وكتب إلى عُمر فيه: «وقد بعثتُ إليك رجلًا عنده علمُ ما قِبَلنا، فسلْه عما بدا لك؛ فإنه بذلك عليم، وهو عندنا أمين»[3]. وقد فعل عُمر فسأله، فجاوبه الرسول، فكأنَّ هذا العِلْمَ الذي قصده أبو عُبيدة من أسرار الحرب التي لا يحسُن ذكرُها، ويُخافُ كتابتُها، وحين تكون الحال على هذا النحو، فإن صدور الرجال أوعى لها من ظهور الصُّحُف.

ومن عادتهم أنهم لم يكونوا يتحرَّجون أن يكون الرسول على غير ملَّة الإسلام، وخاصَّةً إذا كان المكتوب إلى قومٍ ليسوا بمؤمنين، فإن الثقة منهم بابن ملَّتهم تكون أشدَّ من الثقة بغيره، وقد كتب عمرو بن العاص لأهل إيلياء كتابًا، وسرَّح به مع (فيح)

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٩٦.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٧٨.

(٣) فتوح الشام، للأزدي، ص١٥٧.

نصرانيٌّ على ملَّتهم، وقال له: عجِّل عليَّ؛ فإني أنتظرك[1]. بل إنَّ أبا عُبيدة بعث كتابًا مع نبطيٍّ من النصارى إلى عمر بن الخطاب، يستأمنه فيه على خبر تجميع الروم للمسلمين بالشام؛ فلم يبرح عُمرُ ـ وقد رآه عاقلًا ـ حتى جعله يُسلم[2].

(حفظ الكتب)

ومما يُروى في حفظ أدب الصحابة الكتابيِّ استنساخُ رسائلهم من كتابٍ إلى كتاب، فعن ابن أبي سبرة، أن عبد المجيد بن سهيل أخبره أنه انتسخ رسالة عثمان الطويلة التي كتب بها إلى المسلمين في الموسم؛ انتسخها من عكرمة[3].

وكانوا ربما يُعجبون ببعض كتب الصحابة التي برع في إنشائها أصحابُها، فيحفظونها في صدورهم، حدَّثَ الحُصين بن يزيد بن عبد الله بن سعد بن نُفيلٍ قال: أخذتُ كتابًا كان سُليمان ابن صُرَدٍ كتب به إلى سعد بن حُذيفة بن اليمان بالمدائن، فقرأتُه زمان وليَ سُليمان، فلما قرأتُه أعجبني، فتعلَّمْتُه فما نَسيتُه، ثم ساق الكتابَ بأحرُفه[4]، والتعلُّم هنا: الحفظُ التامُّ الواعي.

ومما يُروى في حفظ العهود والكتب أن عمر بن الخطاب كانت عنده نسخ العهود والمواثيق ملءَ صُندوق[5]. ولم يكن حفظ هذه الكتب ترفًا من قِبَل الفاروق عُمر، بل كان لما تحويه من حقوقٍ تجب للمسلمين أو تجبُ عليهم.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٧٥، وثمة خبر في تاريخ الطبري أن أميرَ المؤمنين عليًّا جاءه «فيج» ـ بالجيم الموحَّدة التحتانية ـ بكتابٍ في يديه من قبل قرظة بن كعب الأنصاري. وفسَّر المحقق «فيجًا»؛ بأنه رسول السلطان على رِجْلِه، فارسيٌّ معرَّب، انظر: تارخ الرسل والملوك هامش ٥/ ١١٧؛ فلعله تصحيف وأنه صاحبنا، أو رجلٌ آخر بالاسم نفسه.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص١٢٦-١٢٧.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك٤/ ٤٠٧.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٥٥.

(٥) مجموعة الوثائق السياسية، ص٢٤.

(العقوبة على اللحن)

ذلك، ومن تراثهم في مجال الأدب الكتابي أنهم كانوا يعاقبون على اللحن في خطِّ الكتاب، رُويَ أن الحُصين بن الحُرِّ كتب كتابًا إلى عُمر، فلُحِن في حرفٍ منه، فكتب إليه عمر أن «قَنِّعْ كاتبَك سوطًا»[1]، كأنما جعل عمرُ جزاء اللَّحنة بسوطٍ، تأديبًا للكاتب، وهذا ـ لا مراء ـ تأسيسٌ لرُقيٍّ كبيرٍ في الكتابة والأداء ظهر أثرُه فيما بعد.

ورووا أن كاتبًا لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب: «مِنْ أبو موسى...»، فكتب إليه عمر: «إذا أتاك كتابي هذا فاضرب كاتبَك سوطًا، واعزلْه عن عملك»[2]؛ فجعل العقوبة: غلطةً بسوط، والعزلَ عن العمل. وهي عقوبةٌ مغلَّظَةٌ من غير شك.

(أخبار في شؤون الكتابة)

ثُمَّةَ قد يروي بعضُ الكُتَّاب ومَنْ ألَّف في صَنْعة الكتابة أخبارًا عن الصحابة في شؤون الكتابة والدواة والقلم، نحن في شكٍّ منها، كحديث وضع القلم على الأُذُن، فإنه أذكَرُ للمُمْلي وأقضى للحاجة، عن زيد بن ثابت[3]؛ وكخبر تتْريب الكتب عن عمر بن الخطاب، وفيه أنه قال: «ترِّبوا الكتاب». وتتريب الكتاب يكون بإلقاء الرمل عليه،

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١٦-٢١٧، وانظر: الخصائص، لأبي الفتح، عثمان بن جنّي الموصلي ٢/ ٨، دار الكتب المصرية، القاهرة.

(٢) فتوح البلدان، للبلاذري ٢/ ٤٢٤، ومع هذا فقد روى ابنُ قتيبة قال: «وربما كان للرجل الاسم والكُنية، فغلبتْ الكُنيةُ على الاسم؛ فلم يُعرف إلا بها، كأبي سفيان، وأبي طالبٍ، وأبي ذرٍّ، وأبي هريرة. ولذلك كانوا يكتبون: «علي بن ابو طالب»، و«معاوية بن ابو سفيان»؛ لأن الكنية بكمالها صارتْ اسمًا، وحظُّ كلِّ حرفٍ الرفعُ ما لم ينصبْه أو يجرَّه حرفٌ من الأدوات أو الأفعال. فكأنه حين كُنِّي قيل: أبو طالب، ثم تُرِكَ ذلك كهيئته، وجُعل الاسمان واحدًا»، تأويل مُشْكل القرآن، لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ص٢٥٧، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ومعنى هذا أنهم إن كتبوها على هذه الصورة ينطقونها ـ لابد ـ على مقتضاها من النحو، ألا تراه قد قال: «يكتبون»، ولم يقل: «ينطقون». ولعل إجازتهم ذلك ثم عقوبتَهم على نحوه، أنهم كانوا يأمنون اللحن في الزمن القديم، أو يأمنونه من أنفسهم.

(٣) انظر: العقد الفريد ٤/ ٢١٦.

وفيه معنيان: أحدهما التبرك لنُجح المقاصد، والآخر لتجفيف المكتوب بطرح التراب عليه(١).

ومع ذلك فإننا نقبل من هذه الأخبار ما كان على نظير ما رُوي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصيَّته لكُتَّابه: «إنَّ القوَّةَ على العمل أن لا تؤخِّروا عملَ اليوم لغدٍ؛ فإنكم إذا فعلتم تذاءبتْ عليكم الأعمال، فلا تدرونَ بأيِّها تبدؤون، وأيَّها تأخذون»(٢).

---

(١) انظر: في هذا ونحوه، التراتيب الإدارية ١/ ١٢٤-١٣٦، وتاريخ الترسل عند العرب في صدر الإسلام ص٣١٩-٣٢٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٦/ ١٧٩-١٨٠.

[١٣] بِنَاءُ كُتُبِ الصَّحَابَةِ

(الوَحدة، والطول والقِصَر)

بُنيتْ كُتُبُ الصحابة على موضوعٍ واحدٍ في سوادها الأعظم، كما رأينا فيما مرَّ من الأمثلة؛ وإذا اختلفت فصول القول فيها، فإنها تجتمع في الغاية على موضوعها الذي أُنشئت من أجله، سواءٌ أكان ذلك في السياسة أم الجهاد أم القضاء أم الأموال أم كتب الإخوان أم سواها. والسبب في هذه الوَحدة الموضوعية أن الكتب في أساسها نفعيَّةُ الغرض[١]، يَقصد بها الكاتب إلى أمرٍ بعينه يبتغي إنجازَه، أو التوجيهَ إليه، أو النهي عنه، أو ما شابَه أو قارَب. ومجالُ التفنُّن فيها وزخرفةُ القول أقلُّ من غيره[٢]؛ إذ يَخشى صاحبُ الكتابة أن يَشتبه القول على المرسَل إليه، أو يَنقُص المعنى، أو ينحرفَ، أو يزيد؛ إذا هو عمد إلى المجازات أو التشابيهِ فأدخلها في كتابه؛ ولا يكاد يفعل ذلك في كتابه إلا إن أَمِن مكرَ اللُّغة، واطمأنَّ إلى فَهْم المتلقِّي كتابَه، وإلّا أن يكون الـمَثَلُ أو التشبيهُ أو الاستعارةُ مقصودًا لذاته، لا يُعبِّر عنه غيرُه أحسنَ منه، وهذا ما يُفسِّر وقوعَ بعض الصورة والمحسِّنات في الكتب التي أنشأتها الصحابة. تلك المحسِّنات التي صارتْ مذهبًا عُرف به الكُتَّاب فيما بعد.

ولما كان الأمر كذلك، غَلَبَ على النوع المكتوب من نثر الصحابة القِصَرُ، أو قُل التوسُّطُ النازعُ إلى القِصَر. وإنَّ نظرةً راجعةً إلى أمثلة الكتب المارَّة بنا قبلُ تشفعُ لهذا وتؤيِّده، وتُغني عن إعادة المثال في هذا الموضع، ومع ذلك سوف نقتصر في هذا الموضع على ما خرج عن الأصل، فطال جِدًّا أو قَصُر جدًّا؛ فإن في إثبات كلاهما ما يُعزِّز الأصل ويُقرُّه، ويَدُلُّ عليه.

---

(١) انظر: في نفعية الأدب الفصل الذي كتبه روجر فَوْلَر Roger Fowler عن «الأدب» في: موسوعة الأدب والنقد، الجزء الأول: الأدب والنقد والتاريخ الأدبي، تقديم وترجمة وتعليق أستاذنا الدكتور عبد الحميد شيحة، ص٥٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩م.

(٢) انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف، ص٩٨.

أما موجز الكتب أو قصيرها، فالحريُّ بآخذه ـ إذا لم يظهر في الكتاب حدودُه: فاتحتُه وخاتمتُه ـ أن يكون على حذر؛ فإن القِصَر فيه قد يكون نقصًا من قبل الرواية؛ لأن بعض الرواة يكتفي بالشاهد الذي يشهد للسياق الذي أورده فيه، قصةً كان أو أدبًا، أو سيرةً أو فقهًا أو نسَبًا، ثم يضرب صفحًا عن بقية الكتاب أولِه أو آخرِه، أو أولِه وآخرِه. خذ الطبريّ مثَلًا فيما رواه مختصرًا من كُتُبٍ بين سعد بن أبي وقاص وعمر بن الخطاب، فقد كَتب سعدٌ إلى عمر بما فَتَحَ اللهُ على المسلمين، فكَتب إليه عمر: «قِفْ، ولا تطلبوا غير ذلك». فكتب إليه سعد: «إنما هي سُرْبةٌ أدركناها، والأرضُ بين أيدينا». فكتب إليه عمر: «قِفْ مكانك ولا تُتْبعهم، واتخذ للمسلمين دارَ هجرةٍ ومنزل جهاد، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحرًا»[١].

وفي تاريخ الطبري أيضًا عن عُمر أنه كتب إلى عُتبة بن غزْوان في شأن بناء البصرة: «اجمع للناس موضعًا واحدًا، ولا تُفرِّقهم»[٢].

فهذا وتلك كُتُبٌ يُظَنُّ بها الانبتار، إمّا من أولها وإمّا من آخرها، وإمّا منهما معًا؛ فهي ليست محكومةً ببداية معروفة، ولا بنهايةٍ منصوصة، ولا بلفظة (أما بعد) التي عندها يُشرَع في الغرض. فليس يصحُّ لنا أن نستشهد بأمثال هذه الكتب في باب الإيجاز إلا أن تَقِفَنا على جليَّة أمرها روايةٌ أخرى أتمُّ وأوفى.

ولكننا لا نعدِم في كتب الصحابة كتبًا وجيزةً أوجزَ ما يكون، مع أنَّ لها فاتحةً وختامًا أو ما يُشعر به، وهي مع هذا بضعُ كلماتٍ قد يعدُّها العادُّ عَدًّا، ككتاب عليٍّ إلى دهاقين مَرْوٍ وأساورتها، وقد قدم عليه ماهويْه مُقِرًّا بالصُّلح في أعقاب الجمَل: «بسم الله الرحمن الرحيم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن ماهويه أبراز مَرْزبان مَرْوٍ جاءني، وإني رضِيت عنه»[٣].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٧٩.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩١.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٧.

وكتابِ عمر بن الخطاب إلى عثمان بن حُنَيْف في إقطاع جرير بن عبد الله أرضًا: «أما بعدُ، فأقطِعْ جرير ابن عبد الله قَدْرَ ما يقوتُه، لا وَكْسَ ولا شَطَط»(١).

ولكنَّ أعجبَ كتاب وقف عليه الطبريُّ معقِّبًا ـ وقلَّما كان هو أو رواتُه يفعلون ـ كتابُ عُمر إلى المغيرة بن شُعبة أمير البصرة، الذي قال فيه الطبريُّ مقرِّظًا: وإنه لأوجزُ كتابٍ كَتَبَ به أحدٌ من الناس؛ أربعُ كَلِم، عَزَلَ فيها، وعاتب، واستحثَّ، وأَمَر: «أما بعدُ، فإنه قد بلغني نَبَأٌ عظيم، فبعثْتُ أبا موسى أميرًا، فسلِّم إليه ما في يدِكَ، والعَجَل»(٢).

خلا أن كتب الصحابة لم تكن كلُّها قصارًا، بل إنَّ فيها ما هو الطويل، ككتاب القضيَّة الشهير بين عَليٍّ ومعاوية، فإنَّ فيه من التوثيق والتوكيد ما زاد في ألفاظه فصارَ إلى الطول أقرب(٣).

وثَمَّة كتابٌ من عُمر إلى أبي عُبيدة طويلٌ في (فتوح الشام) للأزديّ، جعَله طويلًا نقلُ عُمر أجزاءً من كتاب أبي عُبيدة الواردِ إليه في كتابه هذا، ثم تعليقه عليها وكأنه يُحاوره(٤).

بيد أنَّ أطولَ كتب الصحابة طُرًّا، وأكثرَها كَلِمًا، وأطنبَها إطنابًا؛ كتابُ عثمان بن عفان إلى أهل الموسم يستنصرهم، سنة خمسٍ وثلاثين، سنةَ قُتل. وقد أمر ابنَ عباسٍ أن يُحُجَّ بالناس في تلك السنة، وأن يقرأه عليهم(٥).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٩، وانظر: أيضًا كتاب عثمان بن عفان إلى من انتدب إلى الأندلس في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٧١.

(٣) انظره في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٣-٥٤.

(٤) انظر: فتوح الشام، للأزدي، ص١٨٢-١٨٣، وانظر: أيضًا كتابًا لعُمر إلى عمرو بن العاص فيه طول في: الطبقات الكبير٥/ ٦٨-٦٩، وكتابًا لعائشة أم المؤمنين كتبت به إلى أهل الكوفة سنة ستٍّ وثلاثين في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٧٢-٤٧٤.

(٥) انظر: الكتاب، في تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٧-٤١١.

والكتابُ جعَلَه طويلًا استشهادُ عثمانُ فيه بالآيات الكثيرة المتتابعة، آياتٍ جاوزتْ العشرين من سورٍ شتَّى. هذا في المطلع، أما في متن الكتاب نفسِه فقد ضَمَّن من كتاب الله العظيم واقتبسَ مَرَّاتٍ أخرى كثيرة. ثم بنى كتابَه على طريقة التفصيل في الرَّدِّ على الخصوم بـ(قالوا وقلتُ)، و(إمَّا وأمَّا)، عارضًا حُجَجَهم بـ(إمَّا وقالوا)، ثم مفنِّدًا إيَّاها ومُسْقِطَها بـ(أمَّا وقلتُ)، وهو ما زاد في طول الكتاب طولًا. كأنَّ الخليفةَ ذا النورين يُحيل الأمة إلى عقولها بعد أن نفض عنها غبارَ الشُّبهة لتحكم بينه وبين هؤلاء[1].

والكتاب في طوله يُداني كتابَ عبد الحميد بن يحيى الكاتب إلى أهل صناعة الكتابة[2]، وهو الذي قال كُرد علي في شأن صاحبه: «وهو أول من أطالَ الرسائل، ولم يُعْهَد مثلُ تطويله في أهل القرون الأولى، اللهم إلا ما كان من رسالة علي بن أبي طالب إلى الأشتر النَّخَعيّ، وهي في مطالب إدارية عظيمة، هذا إذا صَحَّت نِسبتُها إلى أمير المؤمنين»[3].

نعم إن هناك فرقًا بين غرضي الكتابين، وبين أسلوبيْهما، ولكنَّا إذا أردنا الحديثَ عن الطول في الكتب، فليس يسعنا إغفالُ كتاب عثمان إلى الأمة، وخصوصًا إذ استصحبنا أنَّ كتاب عليٍّ إلى الأشتر النخعيِّ مشكوكٌ في صحته.

(عناصر الكُتُب)

هذا، وإذا نظرنا في داخل كُتُبِ الصحابة نفسها، فإنا نجدها مبنيَّةً من عناصر مختلفةٍ من كتابٍ إلى كتاب، فتزيد في بعضٍ، وتنقص بعض، وهذه العناصر هي: (البسملةُ، وعنوانُ الكتاب، والحَمْدُ، والتسليمُ، والصلاةُ على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتشهُّد، وأمَّا بعدُ، ثم غرضُ الكتاب، ثم الخاتمة).

---

(١) انظر: الكتاب، بطوله في تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٧-٤١١.

(٢) انظر: تفصيل الكلام على كتاب عبد الحميد في: عناصر الشعر في نثر عبد الحميد، للدكتور سعيد حسين منصور، دار الوفاء، الإسكندرية.

(٣) أمراء البيان، لمحمد كرد علي ١/ ٢٠، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧م.

(البسملة)

أمّا البسملةُ، فهي أصلٌ في كتب الإسلام، وقد نُقلت روايتُها في صَدارة كثيرٍ من كتب الصحابة على ما مضى بنا في العرض لأصناف الكتب.

وفي طبقات ابن سعدٍ الكبير[1] خبرٌ نادرٌ يؤرِّخُ للبسملة في الكُتب، وكيف انتهت إلى صيغتها الإسلاميَّة المعروفة التي نكتبها؛ فعن الشعبيِّ قال: كان رسول الله ﷺ يكتب كما تكتب قريش: «باسمك اللهمَّ» حتى نزلت عليه: ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود:٤١]، فكتب: «بسم الله» حتى نزلت عليه: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ [الإسراء:١١٠]، فكتب: «بسم الله الرحمن» حتى نزلت عليه: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل:٣٠]، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»[2].

ومع ذلك فالأغلب في كتب الصحابة أنها لم تكن تبدأ بالبسملة إلا في كتب العهود والوصايا المكتوبة؛ فهي يغلب عليها أن تكون مبدوءةً بها، ولعل السبب في هذا أنَّ هذه الكتب عُرْضةٌ للعَرْض والإخراج والمداولة، فتكون البسملة كالبَرَكة في أولها، وهذا أثرٌ قديمٌ منذ الجاهلية في أمثال هذه الكتب، رأيناه في كتاب الصُّلح الذي عقَدَه النبي ﷺ مع المشركين يوم الحديبية[3]، ورأيناه في فاتحة دستور المدينة الذي وضعه رسول الله ﷺ بعد الهجرة الميمونة[4]. ولعل من الأسباب أيضًا أن تلك كانت كتبًا مصوغةً على تمهُّل

(١) لابن سعدٍ كتابٌ في الطبقات آخر أسماه: الطبقات الصغير، ظُنَّ فُقدانُه. وقد وجده وأخرجه الدكتور بشار عواد معروف. انظر: مقدمة الكتاب، ص٨، تحقيق بشار عواد معروف ومحمد زاهد جول، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١/ ٢٠٠٩م، وهذا ما جعلنا ننص في كل موضعٍ ذُكر فيه «الطبقات» على أنه الكبير؛ لئلا يظن ظانٌّ أنه هذا.

(٢) الطبقات الكبير ١/ ٢٧٧.

(٣) انظر: خبره في السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٣١٧.

(٤) انظر: هذا الكتاب العظيم الفاتح في: مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص٥٧-٦٤.

وسكينةٍ حيث انطفأت نار الحرب، وأُغمدتْ السيوفُ في أجفانها، فلا بأس حينئذٍ وقد اتجهت الأفئدة والأبصارُ إلى الكتاب من التوسُّع في عناصره واستيفاء أركانه وحدوده.

(العنوان)

وسوى ما قدَّمنا عن البسملة فإنهم كانوا يبدؤون الكتب بعناوينها في جُلِّ الكتب، حتى تلك الكُتب التي تُنقل إلينا مبدوءةً بـ(أما بعد)، فإن السياق يقتضي أن تكون مبتدأةً بالعنوان قبلها غالبًا.

والمقصود بالعنوان[1] في الكتب القديمة هو قولُ الكاتب: من فلانٍ إلى فلان، أومن فلانٍ لفلانٍ، بالحرفين: إلى أو اللام[2]، والدليل على أن مقصودهم بالعنوان هو هذا، ما جاء في كتابٍ بعثه معاوية إلى عليّ بن أبي طالب. وفي الخبر: «فدفع إليه طومارًا مختومًا، **عنوانُه: من معاوية إلى عليّ**»[3].

والغاية من ذكر العنوان في الكتاب توثيقُه ونسبةُ ما فيه. ومما يدل على عنايتهم به أنهم لا يتركونه ولو ذكروه مختصرًا، ففي كتاب إغاثة من خالد بن الوليد إلى عياض بن غُنم، كتَب خالدٌ إليه: «من خالدٍ إلى عياض، إيَّاك أُريد»[4]. وكأنه خشي إن كتب اسميْ أبويْهما أن يُدركه الوقتُ فيفوتَ عياضًا المَدَد.

---

(١) للعنوان ذكرٌ في الشعر القديم من قبل عهد الصحابة، كقول الأخنسُ بن شهاب التغلبي:

لابنة حِطَّان بن عوفٍ منازلٌ   كما رقَّش العُنوانَ في الخطِّ كاتبُ

انظر: المفضَّليَّات، ص٢٠٤، وقد جاء في لسان العرب «عنن»: عَنَّ الكِتابَ يَعُنُّه عَنًّا وعَنَّنه: كَعَنْوَنَه، وعَنْوَنْتُه وعَلْوَنْتُه بمعنى واحد، مشتق من المَعْنى. وقال اللحياني: عَنَّنْتُ الكتابَ تَعْنينًا وعَنَّيْتُه تَعْنِيَةً إذا عَنْوَنْتَه، أبدلوا من إحدى النونات ياء، وسُمي عُنوانًا لأنه يَعُنُّ الكِتابَ من ناحِيتيه، وأصله عُنَّانٌ، فلما كثرت النونات قلبت إحداها واوًا، ومن قال عُلْوانُ الكتاب جعل النون لامًا لأنه أخف وأظهر من النون.

(٢) أمثلة «إلى» متكاثرة، وانظر من أمثلة اللام مثلًا: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٢٥، والطبقات الكبير ٦/ ٢٢، ٣/ ٢٨٨.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٤٤.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧٧.

والأصل أنهم كانوا يستهلُّون العنوان بالكاتب الـمُرْسِل أولًا، إلّا أن يكون المرسَلُ إليه الكتابُ عظيمَ الشأن، نبيًّا[1] كان أو خليفةً[2] أو أميرًا[3]، فإنهم كانوا يستفتحون بأسمائهم.

أمَّا ابن عمر فتشدَّد في هذه المسألة فرأى أنه يُبدأ بالـمُرْسِل أبدًا، وإن عَظُمَ شأنُ المرسَلِ إليه، أو كبُرت سِنُّه، أو ارتفعتْ رُتبتُه. وكان يوصي غِلْمانَه إذا كتبوا إليه بهذا الأمر، ويوكِّده فيهم. فهذا من ابن عُمر رأيٌ نقديٌّ قديمٌ نادرٌ، حريٌّ أن يُذكر فيُشارَ إليه؛ ففي الطبقات -وما أكثرَ ما في الطبقات من النوادر! - أن ابن سعدٍ روى عن نافع عن ابن عُمر أنه كان يقول لغِلْمانه: «إذا كتبتم إليَّ فابدؤوا بأنفسكم». قال نافعٌ تعقيبًا على هذه الرواية: وكان إذا كتبَ لم يبدأ بأحدٍ قَبْلَه[4].

وفي روايةٍ أخرى رواها ابنُ سعد عن نافعٍ أيضًا -ونافعٌ تلميذُ ابن عمر، وأخصُّ الناس به - قال: «كان ابن عمر يكتب إلى مملوكيه بخيْبر يأمرهم أن يبدؤوا بأنفسهم إذا كتبوا إليه»[5]. فهذا إذن أمرٌ مما كان يهتمُّ له ابنُ عمر؛ لعله رأى فيه التواضع فأوجبه على نفسه ومَواليه. وكان يعمل بمقتضاه حتى مع الفاروق أبيه، روى ميمون بنُ مِهْران قال: كان عبدُ الله بن عُمر إذا كتب إلى أبيه كتب: «من عبد الله بن عُمر إلى عُمر بن الخطاب»[6].

(١) انظر: مثلًا كتاب خالد بن الوليد إلى النبي ﷺ في: مجموعة الوثائق السياسية، ص١٦٥.

(٢) انظر: مثلًا كتابًا لزيد بن ثابت إلى معاوية، حيث قدم معاوية، انظره في: الأدب المفرد، للبخاري، ص٣٨٣.

(٣) انظر: مثلًا كتاب سليمان بن صُرَد الصحابي إلى الأمير عبد الله بن يزيد، وهو ليس صحابيًّا؛ فقد افتتح الكتاب باسم الأمير، انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٩٣، وهو أقلُّ منه عند المسلمين شأنًا.

(٤) انظر: الطبقات الكبير ٤/ ١٤٢.

(٥) تاريخ تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٤٢.

(٦) الطبقات الكبير ٤/ ١٤٣.

ولعلَّ بعضَ الوشاة غاظه ذلك من طريقة ابن عُمر فسعى بالإثم بينه وبين عبد الملك بن مروان في خلافته، وكان ابنُ عمر لـمَّا يزل عند رأيه هذا لم يُبدِّلْه، كلا ولا تزحزح عنه، فعن حبيب بن أبي مرزوقٍ قال: بلغني أن عبد الله بن عُمر كتب إلى عبد الملك مروان، وهو يومئذٍ خليفة: «من عبد الله بن عُمر إلى عبد الملك بن مروان»، فقال مَنْ حولَ عبد الملك: بدأ باسمه قبلَ اسمك. فقال عبد الملك: إنَّ هذا من أبي عبد الرحمن كثير![1].

وثمة خبرٌ آخر عن ابن عُمر له دلالتان. فعن ابن عون عن محمد قال: كتب إنسانٌ عند ابن عمر: «بسم الله الرحمن الرحيم لفلان» فقال: مَهْ؛ إن اسمَ الله هو له»[2]. دلالته الأولى أن يكون كَرِه تقديمَ المكتوب إليه، وأن في البداية بـ(مِنْ) خروجًا من هذا، أما دلالتُه الأخرى فأن يكون كَرِه التعدية إلى المكتوب إليه باللام، ورآها واجبةً في العنوان بإلى، والدلالة الأولى أقربُ؛ للذي رُوي عن ابن عُمر في هذا الشأن.

ومما لا يُعد غريبًا ما نقله الجَهْشياريَّ في كتابه (الوزراء) أنَّ ابن عمر أراد أن يكتب إلى معاوية في حاجةٍ لـمَّا استُجمع عليه، فكتب: «إلى معاوية بن أبي سفيان من عبد الله بن عمر»[3]. فحتى في هذا الكتاب رَوَوْا أن ابن عمر أراد أن يَبدأ بنفسه كذلك، ولكنهم لم يزالوا به حتى ثَنَوْه عنه، ففي (السنن الكبرى) للبيهقي، عن نافع أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كتبَ مرَّةً إلى معاوية، فأراد أن يبدأ بنفسه، فلم يزالوا به حتى كتب: «إلى معاوية من عبد الله بن عمر»[4]. فهو على مذهبه حتى مع هذا التقديم الذي حُمل عليه.

(١) الطبقات الكبير ٤/ ١٤٣.

(٢) الطبقات الكبير ٤/ ١٥١.

(٣) كتاب الوزراء والكتاب، للجهشياري، ص٢٥.

(٤) انظر: سنن البيهقي ١٠/ ١٣٠.

كذلك نقل الجَهْشِياريُّ أن العرب كانت إذا كتبت إلى أحدٍ، شريفًا كان أو مشروفًا، بدأ الكاتبُ بنفسه إلى المكتوب إليه. ثم قال: وقد حُكي أن العلاء بن الحضرميَّ كتب إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من العلاء بن الحضرمي إلى محمدٍ رسول الله»، وكان عاملَه على البحرين. قال: وعلى ذلك جرى الأمرُ إلى أيام معاوية، فأراد عبد الله بن عُمر أن يكتب إليه؛ فذكر الرواية السابقةَ عن ابن عمر[1].

فهذا ـ وإن صحَّ عن العلاء بن الحضرمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2] ـ فإن الحُكم بإطلاقه غيرُ ثابت؛ فقد وجدنا من الصحابة مَنْ كان إذا كتب إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأ بذكر اسم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعظيمًا له وتبجيلًا، ككتاب خالد بن الوليد من أرض بلحارث بن كعب: «لمحمد النبي رسول الله، من خالد بن الوليد»[3]، بل إن عمر بن الخطاب حين أراد يُبالغ في تكريم زيد بن ثابتٍ كتب إليه: «لزيد بن ثابت من عبد الله عُمر أمير المؤمنين»[4]، وعن خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت نفسَه كتب إلى معاوية فبدأ به، وكتب: «لعبد الله معاوية»[5].

فيكون هذا الأمر أصلًا قديمًا من أصول الكتابة لدى الصحابة من لدن عصر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس ابتداؤه في زمن معاوية كما قال الجهشياري. وعلى كلٍّ فالصحابة هم أصحابُ ابتداعِه، وأوَّلُ مَنْ أتاه.

ومن أطرف ما يُروى عن الصحابة في تاريخ فن الكتابة أنَّ منهم مَنْ كتب كتابًا ليس فيه إلا عنوانٌ فحسب، لحاجةٍ في نفس كاتبه، وهو معاويةُ بن أبي سفيان -وكان

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب، للجهشياري، ص٢٥.
(٢) انظر: خبره بإسناد منقطع في: السنن الكبرى، للبيهقي ١٠/ ١٣٠.
(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٦٥.
(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص٥١٤.
(٥) الطبقات الكبير٦/ ٢٢.

معاوية داهيةً من دواهي العرب ـ فقد روى الطبري أنه لما كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر، «دعا معاويةُ برجُلٍ من بني عبس... فدفع إليه طومارًا مختومًا، عنوانه: من معاوية إلى عليّ. فقال: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول، وسرَّح رسولَ عليٍّ، وخرجا فقدما المدينة في ربيعٍ الأول لغُرّته، فلما دخلا المدينة رفع العبسيُّ الطومار كما أمره، وخرج الناسُ ينظرون إليه فتفرَّقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض، ومضى حتى يدخل على عليٍّ، فدفع إليه الطومار، ففضَّ خاتَمَه فلم يجد في جوفه كتابة، فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمِنٌ أنا؟ قال: نعم إن الرسل آمنةٌ لا تُقتل. قال: ورائي أني تركت قومًا لا يرضون إلا بالقَوَد. قال: ممَّن؟ قال: مِنْ خَيْط نَفْسِك»[1].

ونحن نخرج من قصة هذا الكتاب بفائدةٍ، أن العنوان قد يُكتب على الكتاب من خارجه مثلما نصنع اليوم في كتُبنا التي نكتب على أظْرُفها. لقد أراد معاوية أن يكون كتابه بعنوانٍ فقط، وأن يكون هذا العنوان من خارجٍ ليرى الناسُ تقديم نفسه فيه، فيعلموا أنه غيرُ راضٍ بخلافة عليّ، وأنه لا شكَّ مناوئه، ثم إذا دخل الرسول بالكتاب على عليٍّ فرآه فارغًا غاظه وأغضبه من حيث ظَنَّ الناسُ أن في الكتاب تهديدًا وإيعادًا من معاوية لعليّ، وليس في الكتاب من ذلك شيء. وبذا يكون معاوية قد استغلَّ العنوان أيّما استغلال، بل لعله خيرُ من استغلَّ العنوان في تاريخ الكتابة في العصر القديم.

ومن تدبير معاوية، ومن حيلته، أنه اختار لكتابه الفارغ إلا من العنوان هذا أن يكون طومارًا. والطومار: هو الورقة الكبيرة التي عَرضُها ذراعٌ كاملٌ لم يُقطَع منه شيء[2]. وقد ابتغى معاويةُ من هذا الاختيار أمرين: أن يرى الكتابَ العددُ الكبيرُ من

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٤٤.

(٢) انظر: تاريخ الخط العربي وآدابه، لمحمد طاهر الكردي، ص٩٤، مكتبة الهلال، ط١/ ١٩٣٩م.

الناس فيُشتَهرَ ويَذيعَ صِيتُه. وأن يظنَّ هؤلاء الناسُ أنَّ في هذا الكتاب الكبير كلامًا كثيرًا طويلًا، فيضربَ كلٌّ راءٍ منهم بسهمٍ في تخمين ما نُسخ فيه، فيقعَ فيهم الشَّتاتُ واللَّغَط.

وهذا الذي صنعه معاويةُ بن أبي سفيان لَمِنْ جديد الصحابة الذي ابتدعوه في تاريخ فنِّ الكتابة.

(العنوان في العهود والوصايا)

ذلك، وما خالفت به كتبُ العهود وكتبُ الوصايا في البناء بقيَّةَ الكتب، أنَّ عنوانها في الغالب يبدأ بكلمة «هذا»، كعنوان صلح عمرو بن العاص أهلَ مصر بعد البسملة: «هذا ما أعطى عمرُو بن العاص أهلَ مصر من الأمان...»[1]، وعنوان عهد خالد بن الوليد إلى بعض العجم: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ من خالد بن الوليد لزاذ بن بُهيش، وصلوبا بن نسطونا: لكم الذمة، وعليكم الجزية...»[2]؛ وكالعنوان في وصية عبد الله بن مسعود: «هذا ما أوصى به عبد الله بن مسعود...»[3].

ومما يدل على تمييز العنوان واستقلاله في هذين النوعين، أنهم قد يعيدون بعض الألفاظ الواردة في العنوان في أول الكتاب مرَّةً أخرى؛ كتكرار لفظة «أعطى» في كتاب الأمان الذي كتبه عمر بن الخطاب لأهل إيلياء، حيث كتب فيه: «**هذا ما أعطى** عبدُ الله عمرُ أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: **أعطاهم** أمانًا لأنفسهم وأموالهم...»[4]. وكمصالحة العلاء بن الحضرميِّ أهل البحرين إذ كتب مكرِّرًا كلمة «الصلح»: «هذا **ما صالح** عليه العلاء بن الحضرميّ أهلَ البحرين: **صالحَهم** على أن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٠٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٦٨.

(٣) الطبقات الكبير ٣/ ١٤٦.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦٠٩.

يكْفونا العمل، ويقاسمونا التمر...»[1]؛ وكوصية علي بن أبي طالب لابنه الحسن: «هذا ما أوصى عليٌّ بن أبي طالب: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له...»[2].

(التسليم، والحمد، والصلاة على النبي)

حتى إذا فرغ الصحابةُ من كتابة العنوان سلَّموا على الـمُكاتَبِ، أو حمدوا الله عَزَّوَجَلَّ، أو صلَّوْا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تركوا ذلك كلَّه فتخلَّصوا إلى الغرض من كتابهم بـ (أمَّا بعد)، أو خاضوا في الكتاب خوضًا من غيرها.

أمَّا السلام فهو قديمٌ في الكتب منذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو إسلاميُّ النَّشأة لم يكن للجاهليين عهدٌ به، حتى لو لم تبلغنا كتبُهم لنحكم عليها؛ لأن ابن سعد قد روى في (الطبقات) أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى بُديل وبُسرٍ وسرواتِ بن عمرو: «أما بعد، فإني لم آثَم بإلِّكم...» الكتاب، قال ابن سعدٍ بعدَه: «ولم يَكتب فيها السلام (أي: في الرُّقعة أو الفاتحة)؛ لأنه كتب بها إليهم قبلَ أن ينزل عَلَيْهِ السَّلَامُ»[3].

ويكاد السلام أن يكون قرينًا دائمًا بالحمد بعده، وتلك سُنَّةٌ نبويَّةٌ في الكتب أيضًا[4]، ومثاله كتابُ خالد بن الوليد إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كتب فيهِ بعد عنوانه: «السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد...»[5].

---

(١) فتوح البلدان، للبَلاذري، ص٩٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٤٧.

(٣) الطبقات الكبير ١/ ٢٣٥.

(٤) انظر: الكتب التي ابتعث بها النبي ﷺ إلى الملوك والقبائل في: مجموعة الوثائق السياسية لعهدَيْ النبوة والخلافة الراشدة، ص٩٩، وما بعدها.

(٥) مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٦٥-١٦٦.

فهذا سلامٌ تامٌّ متضمِّنٌ الدعاءَ بالرحمة والبركة، تعظيمًا لمقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

على أن سلامَهم يأتي في الأعمِّ الأغلب مختصَرًا، مقتصِرًا على كلمة السلام فحسب ككتاب خالدٍ نفسه إلى مَنْ بأرض الشام من المؤمنين والمسلمين: «... سلامٌ عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو»(١)، ومثله كتاب عمر بن الخطاب إلى أهل رُعاش(٢)، وكتابُه إلى النعمان بن مقرِّن(٣)، وكتاب عثمان بن عفان إلى الوليد بن عقبة(٤)، وغيرُها من الكتب(٥).

أما إن كان السلام مشترِكًا بين قومٍ مسلمين وغير مسلمين، فقد رأينا منه كتابين للصحابة، أحدهما لأبي بكر كتب فيه: «من أبي بكر خليفة رسول الله، إلى مَنْ بَلَغَه كتابي هذا من عامَّةٍ وخاصَّة، أقام على إسلامه أو رجع عنه، سلامٌ على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو»(٦). وكان هذا في حرب الرِّدَّة، وفيه الدلالة على أن السلام المقترنَ باتباع الهدى ليس مختصًّا بغير المسلمين وحدَهم، بل قد يشمل بعض المسلمين ممن يُخاف عليه الرِّدَّةُ كذلك. والثاني كتابُ عليٍّ إلى مَنْ يُقرَأ عليه كتابُه من المؤمنين والمسلمين والنصارى والمرتدِّين: «سلام عليكم وعلى من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه والبعث بعد الموت وأوفى بعهد الله ولم يكن من الخائنين، أما بعد...»(٧). فسلَّم على كل فئةٍ بما يليق بها من الصيغة، ولم يحمد الله في كتابه، وهذا من نادر المرَّات التي لا يقترنُ فيها السلامُ بالحمد في كُتُبهم.

---

(١) فتوح الشام، للأزديّ، ص٧١.

(٢) كتاب الأموال، لابن زنجويه ١/ ٢٧٩-٢٨٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١١٥.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٩٧.

(٥) انظر: مثلاً الطبقات الكبير، ٥/ ٦٧.

(٦) تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٢٥٠.

(٧) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢٦.

ولم يأتِ الحمد فريدًا فيما وجدناه من الكتب من غير تسليم. أما كتاب عُمر إلى عمرو ابن العاص المرويُّ مبدوءًا بقول عُمر: «الحمد لله على إحسانه إلينا، وإيَّاك والتغرير بنفسك أو بأحد من المسلمين»(١)، فإنه ليس حمدًا ليكون مقدِّمةً للكتاب، بل إن مقدِّمة الكتاب أسقطها الراوي، وهذا الحمد إنما هو أولُ متن الكتاب بعد المقدِّمة.

وإغفالُهم لمثل هذا الحمد جاء اقتداءً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكتاب، قال الحافظ ابن حَجَر: «لم تجرِ العادةُ الشرعية ولا العُرْفيَّةُ بابتداء المراسلات بالحمد، وقد جمعتُ كتبَه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الملوك وغيرهم، فلم يقع في شيءٍ منها البداءة بالحمد، بل بالسملة»(٢)، ومن الواضح أنه يقصد الحمد فريدًا في أول الكتاب غيرَ مقترنٍ بغيره.

ومما يُروى في تاريخ الكتابة أنَّ هارون الرشيد كان أولَ من زاد الصلاةَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوائل الكتب(٣). وقد وجدتُ في (النجوم الزاهرة) لابن تغري بَرْدي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ أنَّ عليًّا صنع ذلك في كتابه بتولية قيس بن سعد بن عُبادة على مصر، على هذا النحو: «... سلامٌ عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأصلِّي على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعد»(٤)، ولم أجد زيادة الصلاة على النبي في رواية الطبري للكتاب(٥)؛ فلعل صاحب (النجوم) نقلها من كتابٍ آخر. إلا أننا نُقدِّم روايةَ الطبري، وهو المتقدِّم، على رواية ابن تغري بردي المتوفى في القرن التاسع(٦)، إلى أن يظهر لنا شيءٌ جديدٌ أو روايةٌ أخرى في أمر هذه الزيادة.

---

(١) الطبقات الكبير ٥/ ٦٤.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي ٨/ ٢٢٠، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩ هـ، وانظر: انظر: التراتيب الإدارية، للكتاني١/ ١٤٠.

(٣) انظر: الكامل، لابن الأثير٥/ ٣١٥.

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي ١/ ٩٧ دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١/ ١٣٤٨ هـ.

(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٨.

(٦) توفي ابن تغري بردي سنة ٨٧٤هـ.

(التشهُّد في الوصايا)

وههنا يجدر بي أن أشير إلى أن الظاهر من الأخبار عن الوصايا المكتوبة خاصَّةً، أن التشهُّد كان ركنًا من أركانها، فقد روى ابنُ سعد عن هشام بن عروة أن عمر بن الخطاب لم يتشهَّد في وصيَّته[1]. وعنه أن عثمان بن عفَّان لم يتشهَّد في وصيَّته[2]؛ فكأن الشهادة كانت عنصرًا من عناصر الوصية عندهم. آيةٌ على ذلك ذِكْرُها في كتاب وصيَّةِ عليٍّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

(أما بعد)

أمَّا (أمَّا بعدُ) فهي الأصل الذي لم يكد يتخلف عن كتبهم، ولسنا في حاجةٍ إلى ضرب المثال عليه؛ فإن عَوْدًا إلى ما سلف من شواهد الكتب في هذا الباب يقطعُ بثبوت هذا الحكم ويُقرُّه ويُصدِّقُه.

وما تتخلَّف فيه (أمَّا بعدُ) فهو واقعٌ في بعض كتب العهود أو الصدقة غالبًا.

فأمَّا كتب الصَّدَقة فليس المقصود بها المكاتبةُ إلى أحدٍ من الناس، بل المقصود بيانُ دين الله تعالى في الفريضة، أشبهتْ الكتبَ بمعناها اللاحق المؤلَّفةَ في موضوعٍ بعينه، ولعلنا هنا نُسجِّل هذه البدايات للتأليف ووضع الكتب في الأغراض المستقلَّة. فمن مثال كتب الصدقة تلك كتابُ عمر بن الخطاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. في أربعٍ وعشرين من الإبل، فدونها الغَنْم، في كل خمسٍ شاة...» إلخ[4]، كأنه متنٌ تعليميٌّ لم يخاطَب به مخاطَبٌ بعينه، بل هو للأمةِ كلِّها، مَنْ عاش منهم في عهد عُمر، ومَنْ سيأتي بعده.

---

(١) الطبقات الكبير ٣/ ٣٣١.

(٢) الطبقات الكبير ٣/ ٥٧.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٤٧.

(٤) الموطأ، للإمام مالك بن أنس الأصبحي ١/ ٢١٩-٢٢٠، صححه ورقمه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.

وأمَّا تخلُّفها عن بعض كتب العهود، فكعهود أبي بكر إلى أمراء الأجناد[1]، وهي شبيهةٌ بمراسيم التولية الصادرة عن الخليفة أو الـمَلِك، كأنها ليست مرسلَةً إلى أحد، وإنما هي (إعلامٌ) بأمر الخليفة بتولية فلان من الناس لا أكثر، وصورةُ عهد أبي بكر إلى أولئك الأمراء كانت: «هذا عهدٌ من أبي بكرٍ خليفة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفلانٍ حين بعثه لقتال مَنْ رجع عن الإسلام. وعَهِدَ إليه أن يتقيَ الله...» إلخ، كأن أبا بكرٍ استعاض بالواو الاستئنافية عن (أما بعدُ) في قوله: «وعَهِدَ إليه».

وفي غير هذين النوعين من الكُتُب فإنَّ إسقاط (أمَّا بعد) منها قليلٌ بل نادر، وهم في مثل هذه الحال يضعون موضعَها ما يقوم بمقامها في معنى الفصل والتخلُّص والتنبيه إلى ابتداء غرض الكتاب كلفظة (ألا) التي للتنبيه في بعض كتب أبي بكرٍ مثلًا[2].

وما عدا ذلك فإنَّ (أمَّا بعدُ) ملتزَمةٌ ظاهرةٌ في جميع الكتب يكاد الرواةُ لا يسقطونها وإن أسقطوا البسملة والعنوانَ والتسليمَ وغيرَها من المقدِّمة، كأنهم يَدُلُّون بها على مَطلع بُغية الكاتب، فتراهم يقولون: وكتب فلانٌ إلى فلانٍ: «أمَّا بعدُ...» ثم يوردون الكتاب؛ إشارةً إلى حذف المقدِّمات قبلها من روايتهم.

(تكرار أما بعد)

وللصحابة في (أمَّا بعدُ) استعمالٌ آخرُ غيرُ التخلُّص من العنوان والمقدِّمة، هو الفصل بين الفِقَر وتمييزُ فصول الكتب، فتراهم قد يكرِّرونها غيرَ مرَّةٍ في كتابٍ واحد، فعل ذلك عمر بن الخطاب فكرَّرها مرَّتين في كتابه إلى أهل رُعاشٍ لإجلائهم[3]، وقد كان كتب إليهم قبلُ كتابًا كرَّرها فيه ثلاثَ مرَّات، فيه: «... سلامٌ عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، **أمَّا بعد**، فإنكم زعمتم أنكم مسلمون ثم ارتددتم بعد،

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٥٠.

(٢) انظر: كتابه إلى عامة بني أسد في: الردّة، للواقدي، ص٧١، ومجموعة الوثائق السياسية، ص٣٤٧.

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص١٩٣-١٩٤.

وإنه من يتب منكم ويُصلح لا يضُرُّه ارتدادُه... أمَّا بعدُ، فإن يَعْلى كتب يعتذر أن يكون أكْرَهَ أحدًا منكم على الإسلام وعذَّبه عليه... أمَّا بعدُ، فقد أمرتُ يَعْلى يأخذ منكم نصفَ ما عملتم من الأرض...»[1].

وهذا التكرار أثرٌ نبويٌّ كريمٌ صَنَعَه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتابه إلى بُديل[2]، وفي كتابه إلى أهل هَجَر[3]، وفي كتابه إلى بني جَنْبَة من اليهود[4].

ومن الدليل على أنَّ هذه الكلمة كانت تُكرَّرُ للتمييز بين فصول الكُتب منذ عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما رواه البخاريُّ في (الأدب الـمُفْرَد) عن هشام بن عُروة قال: «رأيت رسائلَ من رسائل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلما انقضتْ قصةٌ قال: أما بعد»[5]. وقصةٌ: أي معنى، أو معاني متَّصلة.

ومثلما كانوا يلتزمون هذه الكلمة في الكتب، كانوا يلتزمونها بلفظَيْها، فلا يزيدون ولا ينقصُون، هذا حكمٌ مطلقٌ في جميع المواضع[6].

(الخاتمة)

حتى إذا انتهى الصحابةُ إلى ما قصدوا إليه من الغرَض في كتبهم ختموا؛ فمنهم مَنْ كان يختم بالتسليم وحدَه، ككتاب خالد إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي آخره: «والسلام عليكَ يا رسولَ الله»[7].

---

(١) كتاب الأموال، لابن زنجويه ١/ ٢٧٩-٢٨٠.
(٢) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٥.
(٣) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٨.
(٤) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٩.
(٥) الأدب المفرد، للبخاري، ص٣٨٣.
(٦) ولا حُجة ولا سَنَد في اقتصار بعض المتأخرين على الظرف وحده دون «أمَّا» قبله، انظر: تفصيل المسألة في: التراتيب الإدارية، للكتاني ١/ ١٤١-١٤٢.
(٧) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٦٦، وانظر: مثله كتابًا لمعاوية في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٩، وكتابًا آخر لعمرو بن العاص في الكتاب نفسه ٥/ ٩٩.

ومنهم مَنْ كان يجعل آخرَ كتابه آيةً قبل السلام، كقول سليمان بن صُرَد في خاتمة كتابه: «ربَّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، والسلام عليك»[1]. وقد يشفعون السلامَ بالدعاء قبله في الخاتمة، كقول خالد بن الوليد في مقطع كتابه إلى المسلمين بالشام يخبرهم بمسيره إليهم: «عَصَمَنا الله وإياكم بالإيمان، وثبَّتْنا وإياكم على الإسلام، ورزقنا وإياكم حُسْنَ ثواب المجاهدين، والسلام عليكم»[2]، أو كدعاء أبي بكرٍ لأبي عُبيدة في آخر كتابه إليه: «أراد الله بنا وبك سبيلَ الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[3]، أو كدعاء عثمان بن عفان في كتابه الأطول الذي بعثه إلى المسلمين ليُقرأ عليهم بالموسم: «وأنا أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يغفر لي ولكم، وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير، ويُكَرِّه إليها الفسق، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيُّها المؤمنون والمسلمون»[4].

ومنهم مَنْ كان يختم بآيةٍ لا يجعل بعدها شيئًا، كالذي كتب عليٌّ بن أبي طالب في آخر بعض كتبه: «... استعنَّا عليه، وجعلْنا اللهَ بيننا وبينه، وكفى بالله نصيرًا»[5].

وقد يختم بعضُ الصحابة كتابَهم بدعاءٍ فقط، وهذا من نادر قديمِ الكتب، كدعاء أبي عُبيدة لعمر بن الخطاب في آخر كتاب منه إليه: «كفانا الله وإياك والمؤمنين مكيدة كل كائد، وحَسَدَ كل حاسد، ونصر الله أهل دينه نصرًا عزيزًا، وفتحًا يسيرًا، وجعل لهم من لدُنْه سلطانًا نصيرًا»[6]. وردَّ عُمر عليه بالدعاء في آخر الكتاب أيضًا، كأنه يكافئه بدعائه دعاءً أطولَ منه، وأحسنَ منه، يعلِّمه إيَّاه بقوله: «فقل إذا أنتَ لقِيتهم: اللهم إنك

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٩٣.

(٢) فتوح الشام، للأزديّ، ص٧١.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٩٣.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤١١.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢٦، والآية هي الخامسة والأربعون من سورة «النساء».

(٦) فتوح الشام، للأزديّ، ص١٢٦.

الناصرُ لدينك، والمعزُّ لأوليائك قديمًا وحديثًا، اللهمَّ فتولَّ نصرهم، وأظهر فَلَحَهم[1]، ولا تَكِلْهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، وكن الصانعَ لهم، والدافعَ عنهم برحمتك، إنك الوليُّ الحميد»[2].

وما عدا ذلك فإنهم يختمون الكتاب بمتنه نفسه، أو أن الرواة كانوا يُسقطون بعض الخواتيم مثلَ إسقاطهم كثيرًا من فواتح الكتب.

(صيغٌ بنائية)

ومما يجدر التنبيه له في البناء أيضًا أنْ ثَمَّةَ جملةٌ تتكرّر كثيرًا في مكاتيب الصحابة، كأنها قالَبٌ مُنتظِمٌ منتظَرٌ في عموم تلك الكتب، وهي جملة الشرط المصوغةُ على هذا النحو: «فإذا أتاك كتابي هذا فافعل كذا وكذا». نعم، ربما لا يُعَدُّ هذا من صميم هيكل الكتب، ولكنه لما صار كثيرًا مُردَّدًا عندهم أضحى كتلك الصُّوَى المرصودة المعروفةِ في كتُبهم، مِثْلُه مِثْلُ العنوان والتسليم والبسملة، ومما ورد عندَهم من ألفاظ هذه اللازمة قولُ أبي بكر في كتابه إلى عكرمة: «فإذا قرأتَ كتابي هذا، فَسِرْ إلى زياد بن لبيد...»[3]، وقوله في كتابٍ آخر إليه: «فإذا قرأت كتابي فَسِرْ إلى أهل دباء»[4]، وقول عمر بن الخطاب في كتابٍ إلى أبي عُبيدة: «فإن أتاك كتابي هذا وأنتم الغالبون، فكثيرًا ما نَذْكُر ربَّنا بالإحسان إلينا وإليكم»[5]، أو كقول أبي عُبيدة لـمَيْسَرة: «فإذا أتاك رسولي هذا فأقبل إليّ»[6].

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها بالجيم بالموحَّدة التحتانية؛ لتتابع الكتب على ذلك، وكلتا الكلمتين بمعنى. فالفَلْجُ: الظَّفَر والفوز «لسان العرب: فلج»، والفَلَحُ: الفوز والنجاة «لسان العرب: فلح».

(٢) فتوح الشام، للأزديّ، ص١٢٨.

(٣) كتاب الردّة، للواقدي، ص١٩٨.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص ٣٥٦.

(٥) فتوح الشام، للأزديّ، ص١٢٧.

(٦) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٤٢.

ذلك في بناء الكتب الذَّاهبة، أما الكتب الراجعة جوابًا عن كتابٍ آتٍ، فقد يُضَمِّنونها من الألفاظ جملةً تفيد وصول الكتاب إليهم، وقراءتَهم إيَّاه، وفَهْمَهم ما جاء فيه.

فأما القراءةُ فكقول المنذر بن ساوَى في كتابٍ له إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما بعد يا رسول الله، فإني قرأتُ كتابَك على أهل بحرين...»[1]، وقولِ معاوية لقيس بن سعد: «أما بعد، فقد قرأتُ كتابَك، فلم أرَكَ تدنو...»[2]. وكتاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب: «أما بعد، قرأتُ كتابَ أمير المؤمنين، وما عصَّبني فيه من اللائمة...»[3].

وأما الفَهم، فككتاب الحسين بن عليٍّ إلى ملإٍ من المؤمنين والمسلمين قال فيه: «وقد فهمتُ كل الذي اقتصصتم وذكرتم»[4].

وقول سليمان بن صُرَد في كتابه إلى الأمير عبد الله بن زيد: «فقد قرأنا كتابَك وفهمنا ما نويت»[5].

على أنني أحبُّ أن أختم هذا الموضع من البناء بذكر مثالين من الكتب كادا أن يكونا شاملَيْن للعناصر السالفة كلِّها، هما كتابُ عمر في القضاء[6]. وكتابٌ له آخر بعث به إلى النعمان بن مقرِّن؛ حوى من العناصر: البسملةَ، والعنوانَ، والسلامَ، والحمدَ، وأما بعدُ، وجملتَهم: «فإذا أتاك كتابي»، وختامَهم بالسلام بعد تتمَّة الغرض.

وهذه صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرِّن، سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فإنه قد بلغني أن

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص١٤٨.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥١.
(٣) الطبقات الكبير ٥/ ٦٧.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٥٣.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٩٢.
(٦) انظره في: مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٢٧-٤٢٩.

جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمَّعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرًا فتؤذيَهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرَهم، ولا تدخلنَّهم غَيْضَةً[1]؛ فإن رجلًا من المسلمين أحبُّ إلي من مئة ألف دينار. والسلام عليك»[2].

(١) الغَيْضَة: مَغِيضُ ماء يجتمع فيَنْبت فيه الشجر، وجمعها غِياضٌ وأغْياض «لسان العرب: غيض».
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١١٥.

البَابُ الثَّاني

خَصَائِصُ نَثْرِ الصَّحَابَة

- الفصل الأول: مَصَادِرُ نَثْرِ الصَّحَابَة.
- الفصل الثاني: العَقْلُ والاحْتِجَاج.
- الفصل الثالث: الظَّواهِرُ اللُّغَويةِ.
- الفصل الرابع: الصُّورة الفنية.
- الفصل الخامس: التَّجويدُ والصِّناعَة.

الفصل الأول[1]

مصادر نثر الصحابة

يمتاح الباحثُ في نثر الصحابة من مصادر مختلفةٍ جودةً واعتمادًا، وأصالةً ومَشْربًا. فليس كل كتابٍ روى نثرَهم يُوثَق فيه، وليس كل كتابٍ هو الأصل في هذا النثر، ولا هو أصلُ النصّ الذي أوردَه على كل حال، بل الأمرُ في هذا مفتقرٌ إلى مزيد من التنقيب والتقصّي والبحث. ولعله من المناسب أنَّ نشير هنا إلى أن كتبًا كثيرةً قد تُورِد نصًّا، وأصلُها جميعًا كتابٌ واحد نقلتْ عنه، هو المفيد في ذكر الرواية، وما سواه تابعٌ له، لا يُضيف شيئًا إلى التوثيق، إلا أشياء قليلة، كجودة الضبط، وسلامة الألفاظ؛ إذ لعله نقل عن نسخةٍ جيدة من نُسَخ الكتاب الأصل الذي هو الأصل في الرواية؛ ومع ذلك فلا عبرةَ حينئذٍ بكثرة الكتب من حيثُ الرواية، بل العبرةُ بهذا الكتاب فحسب، وإنَّ هذا لمما يلتبس على طائفةٍ ممن يشتغلون بالتحقيق، تُوهمهم الكثرةُ بالقوة والصِّحة، وهي ليست في شيءٍ من ذلك من حيث هي، إلا أن يكون النصُّ في أصله سليمًا معافًى، فتزيده كثرةُ الرواية سلامةً وعافية. وإنَّ نصًّا لم يردْ إلا في كتابٍ واحدٍ موثوقٍ فيه، خيرٌ من نصٍّ ورد في عشرات الكتب المتأخِّرة، التي لا زمام لها ولا إسناد، ولا يُعرف إلى أيٍّ وردت، ولا عن أيٍّ صدرَتْ.

أمرٌ آخر يجدرُ التنويه به، هو أن كتب الأدب ليست الأصلَ في رواية ما مرَّ بنا من نثر الصحابة ـ وهي لم تكن كذلك أصلًا في رواية كثيرٍ من الأدب لذلك العصر ـ بل كان الأصلُ في هذا النثر كتبَ الأخبار والتاريخ، وإنَّ هذا لمن المفارقات العجيبة التي لا يلتفتُ إليها كثيرٌ من المختصِّين.

---

(١) من المعتاد أن تكون دراسة «المصادر» في أوائل البحوث، ولكن لما كان للحديث هنا تعلقٌ كبيرٌ بما مرَّ من الشواهد والأمثلة رأيت أن أجعلها في هذا الموضع، ومن المعتاد أن تكون دراسة «البناء» مجاورةً لدراسة نظيراتها من العناصر الفنية؛ ولكن لما كان تأخير بناء الخطبة، وبناء الرسالة، وبناء القصة؛ إلى هذا الموضع، يُشتِّت القارئ؛ رأيت أن أجعل بناء كل فنٍّ من الفنون معه.

على أنه ليس من غرض هذه الدراسة بحثُ قضية المصادر، ومناقشتُها مصدرًا مصدرًا؛ فإنَّ هذا مما يحتاج إلى دراسة وافيةٍ مستقلَّة، بل إلى غير دراسة.

وسوف نقتصر في هذا الموضع على المصادر الأصولِ التي عليها المعوَّل في رواية نثر الصحابة، والمصادر المستبعدة، ثم نلوي بالحديث على ثلاثٍ من القضايا المتعلِّقة بتلك المصادر: قضيةِ أداء النَّصّ، وقضيةِ تصرُّف الرواة فيه، وقضيةِ الانتحال والتزوير.

[١] المَصادِرُ الأُصولُ والمُستبعَدَة

(درجات المصادر)

سبق منذ قليلٍ القولُ إنه ليست كتبُ الأدب الأصلَ في إيراد نثر الصحابة، بل الأصلُ فيها كتبُ التاريخ خصوصًا، يتلوها مجموعةٌ من الكتب سوف نذكرها، وإنَّ أخطرَ كتابَيْن من كتب التاريخ، وأرواهُما لفنون نثر الصحابة؛ هما: كتاب (تاريخ الرُّسُل والملوك)(١)، لمحمد بن جريرٍ الطبريّ، المتوفَّى سنة عشرٍ وثلاثمئة؛ وكتابُ (الطَّبقات الكبير)(٢)، لمحمد ابن سعدٍ الواقديّ، المتوفَّى بعد مئتين وثلاثين سنةً من الهجرة النبوية. فهذان الكتابان يبقيان في الدرجة العليا من إيراد نثر الصحابة: أصالةً، واستيفاءً، وصِحَّة.

ثم يأتي بعدهما في درجةٍ تاليةٍ كتبٌ أخرى: (فُتوح الشام)(٣)، لمحمد بن عبد الله الأزديّ، المتوفَّى سنة إحدى وثلاثين ومئتين، و(أنسابُ الأشراف) لأحمد بن يحيى بن جابرٍ البَلاذُريّ، المتوفَّى تسعٍ وسبعين ومئتين، و(كتابُ الرِّدَّة) المنسوبُ لمحمد بن عمر

---

(١) تعدُّ المادَّةُ التاريخية التي أتى بها الطبري في تاريخه من أوثق المادة؛ لأنه ـ بصفته المحدِّث الدقيق ـ حاول انتقاءها وتنخُّلَها جُهْدَ طاقته، وكان يوردها دومًا بنصوصها عن أصحابها الرواة الأوّلين، انظر: التاريخ العربي والمؤرّخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، لشاكر مصطفى ١/ ٢٤١-٢٤٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣/ ١٩٨٣م.

(٢) عُني ابنُ سعدٍ بالصحابة وأحوالهم أيَّما عناية، وعنايته ليست مقصورةً على الرجال فحسب، فقد خصَّص الجزء الثاني من طبقاته للصحابيات والتابعيات وحدَهنّ، انظر: التاريخ العربي والمؤرخون ١/ ١٦٧. وابنُ سعد أمينٌ في إيراد الرواية، ولا يتدخَّل فيها، انظر: المغازي الأولى ومؤلفوها، ليوسف هوروفتس ص١٣٠، ترجمة حسين نصار، المركز القومي للترجمة عن طبعةٍ قديمة كما أشاروا، القاهرة ٢٠١٠م.

(٣) يُنسب إلى الواقدي كتابٌ بهذا العنوان لا يصح له، يقول مارسدن جونز محقق «المغازي» للواقدي: «أما فتوح الشام وفتوح العراق فقد فُقد ولم يُعثر على أثرٍ له. وما يتداوله الناس اليوم باسم فتوح الشام وفتوح العراق وغيرها ليست له، إذ إنها متأخرة عنه»، انظر: مقدمة كتاب المغازي، للواقدي ١/ ١٦، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣/ ١٤٠٤هـ، ويُلحظ على كتب الفتوح المنسوبة إلى الواقدي، ومنها «فتوح الشام» أنها تحمل الطابع الأسطوري الذي لا يعرفه الواقدي، كما أن فيها إشارات إلى رجالٍ من القرنين السادس والسابع، مثل سيدي أبي مدين، وسيدي أبي الحجاج الأقصري، انظر: التاريخ العربي والمؤرخون ١/ ١٦٤.

الواقديِّ[1]، المتوفَّى سنة سبعٍ ومئتين، و(تاريخ المدينة) لعُمر بن شَبَّةَ، المتوفَّى سنة اثنتين وستين ومئتين، وكذا كُتُبُ الأموال والـخَراج، وقد استوفى ما فيها محمد حَميد الله الحَيْدَر آباديُّ[2] في (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبويِّ والخلافة الراشدة).

وتأتي كتب الحديث والآثار مفيدةً فيما يُروى من نصوص النثر القصيرة، ولا سيَّما في (الكتاب المصنَّف) لعبد الرزَّاق بن همَّام الصنعاني المتوفى سنة ست وعشرين ومئة، و(الكتاب المصنَّف) لابن أبي شيبة المتوفى سنة خمس وثلاثين ومئتين، والصحيحين، للبخاريِّ المتوفى سنة ست وخمسين ومئتين، ومسلمٍ المتوفى إحدى وستين ومئتين. وكتب الزُّهد، كـ(الزُّهد) لعبد الله بن المبارك المَرْوزي المتوفى سنة إحدى وثمانين ومئة، و(الزُّهد) للإمام أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى سنة إحدى وأربعين ومئتين، ولكنَّ هذه الكتبَ لم تكن تهتمُّ لما طال من النصوص إلا فيما ندر إنْ كان سياق الاستشهاد يستلزمه.

أما كتب الصحابة المترجِمةُ لهم، كـ(معرفة الصحابة) لأبي نُعيم أحمد بن عبد الله ابن أحمد الأصبهاني، المتوفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة، و(معرفة الصحابة) لابن مَنْدَه أبي عبد الله محمد ابن إسحاق بن يحيى الأصبهاني، المتوفى سنة خمسٍ وتسعين وثلاثمئة، و(الاستيعاب) لابن عبد البر أبي عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، المتوفى سنة ثلاثٍ وستين وأربعمئة، و(أُسْد الغابة) لعز الدين ابن الأثير علي بن محمد الجزري، المتوفى سنة

---

(١) رجَّحتُ نسبة هذا الكتاب إلى ابن أعثم الكوفي، ت ٣١٤هـ، وما الواقدي إلا مصدرًا من مصادره، ولا يمنع أن يكون للواقدي كتابٌ آخر في الرِّدَّة غيرُ هذا، انظر: تفصيل القول في هذه النسبة في: المراثي النبوية في أشعار الصحابة: توثيقٌ ودراسة، ص١٣٤.

(٢) توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٤٢٣هـ، وهو هندي مولود بمدينة حيدر آباد سنة ١٣٢٦هـ، تعلَّم بموطنه، ثم ارتحل لنيل درجة الدكتوراه في جامعة السوربون، ثم درَّس بها فيما بعد، وهو أحدُ أعلام العلماء المسلمين في العصر الحديث، له عشراتُ الكتب والأبحاث والتحقيقات المهمَّة باللغات المختلفة، من أشهرها هذه الوثائق التي هي في الأصل أطروحته لدرجة الدكتوراه، انظر: مساهمات الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي في التحقيق العلمي، للدكتور جمال الدين الفاروقي، مقالة بمجلة الداعي الصادرة عن دار العلوم ديوبند، العدد ١١ السنة ٣٣، ذو القعدة ١٤٣٠هـ.

ثلاثين وستمئة، و(الإصابة) لابن حجر أحمد ابن عليٍّ العسقلاني، المتوفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمئة؛ فإنها كانت تُورد من الأخبار ما يدل على صحابة الرجل، أو على عدم صُحبته، وما سواه من الأخبار تختصر فيه، أو تجتزئ، أو تُومئ. إلا أنها قد تُفيض في ذكر خلفاء الصحابة، وأمرائهم، ونقبائهم، والمبشَّرين منهم بالجنة. وهذه الكتب تعتمد في الأصل على كتب السير والأنساب والتاريخ، وعلى كتب الحديث؛ فكثيرٌ مما ورد فيها مذكورٌ في تلك الكتب. يُضاف إلى هذا أن المتأخر من تلك الكتب كان ينقل عن المتقدِّم منها. غير أنَّ فيهَا نقولًا من كتبٍ قديمةٍ مفقودةٍ لم تصل إلينا، وهي في مثل هذه النقولات في غاية النفع(١).

ثم تلي تلك الكتبَ درجةً كتبٌ أخرى يُستأنس بها في الرواية، ولا يُوثَق بما جاءَ فيها تمامَ الثقة، ولكنها ـ مع ذلك ـ مما لا يُستغنى عنه في دراسة الأدب، مِنْ مِثْل (البيان والتبيين) لأبي عثمان عمرو بن بحرٍ الجاحظ، المتوفى سنة خمسٍ وخمسين ومئتين، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدِّينَوريّ، المتوفى سنة ست وسبعين ومئتين، و(العِقْد الفريد) لابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، المتوفى سنة ثمانٍ وعشرين وثلاثمئة، و(مَجْمَع الأمثال) للميدانيّ أحمد ابن محمد بن أحمد، المتوفى سنة ثماني عشرة وخمسمئة، و(نثر الدُّر) للآبِّيّ أبي سعدٍ منصور بن الحسين الرَّازي، المتوفَّى سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة. وسببُ نزول هذه الكتب من جهة الرواية أنَّ فيها أخبارًا كثيرةً مبتورةَ الإسناد، منقطعةَ النسبة، وسبب عدم استبعادها أنها أصلٌ في فنون كاملة قلَّما توجدُ في غيرها من الكتب، كالأمثال عند الميداني، والجوابات عند أحمد بن عبد ربه وأبي سعدٍ الآبِّي، وإنَّ فيها من ألوان النثر فنونًا أخرى من خطب أو رسائل أو مراثي أو جدل، ولكنها لا تبلغ رُتْبَةَ المصادر الأصول المذكورة قبل.

---

(١) انظر: مثلًا نقولات ابن حجرٍ في الإصابة عن كتاب «الردة» لوثيمة بن موسى بن الفرات المتوفى سنة سبع وثلاثين ومئتين، وقد أحصاها المستشرق هونرباخ في الإصابة فألفاها تزيد على عشرة مواضع ومئة موضع. وبعض هذه المواضع نصوصٌ نادرةٌ للصحابة لا تجدها في كتابٍ غيره، وكتاب وثيمة مفقود لم يصل إلينا، انظر: تاريخ التراث العربي، للدكتور فؤاد سزكين «التدوين التاريخي» المجلد الأول ٢/ ٥٠، ترجمة الدكتور محمد فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤١١هـ.

وهذه الكتب كما يتبيَّن الغالبُ عليها أنها من كتب الأدب، وهي مع ذلك لا تبلغ درجة ما مضى من كتب التاريخ في الثقة والاعتماد والسَّعة.

(المصادر المستبعَدة)

ذلك، وقد استبعدتُ في البحث كلَّ مصدرٍ مطعونٍ في رواياته من قِبَل أهل العلم، مع أنَّ حاجَتنا إلى مثله ليستْ شديدة، ككتاب (نهج البلاغة) المنسوبةِ أقوالُه وخُطَبُه إلى أمير المؤمنين عليّ، وكتابِ (الإمامة والسياسة) المنسوبِ إلى ابن قُتيبة الدِّينوريّ؛ وسبيلُ هذا الاستبعاد أنَّ فيما صحَّ من نثر الصحابة -فيما رأيناه منه- غُنْيَةً عما لم يصحَّ منه وكفاية؛ إذ هو نثرٌ ذو مقدارٍ ضخمٍ شامل، وأمثلتُه كثيرةٌ متوافرة، حتى مَنْ استبعدنا طائفةً من نصوص نثره باستبعاد كتاب (نهج البلاغة)، وهو علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فبحثُنا هذا شاهدٌ على وجود أمثلةٍ كثيرةٍ من نثره مما لم يرد في كتاب (النَّهج)، بل ورد في كتبٍ أخرى غيرِه أكبرَ أصالةً منه، وهذه الأمثلة مع ذلك كافيةٌ في الدلالة على نثر عليٍّ، وتَصُوُّرِ أغراضِه وفُنونه. ومثلُ هذا يُقال عن سواه من الصحابة، خاصَّةً أولئك القوم الذين عاشوا حتى أدركوا الفتنة، فوُضع عليهم من جرَّائها نثرٌ زائفٌ من رسائل وجَدَلٍ وخطابة.

زِدْ على هذا أن القِطَعَ النثريَّة الضعيفة المستبعَدة لا تحمل كبير جدوى لهذا النثر، ولا تُضيف إليه جديدًا يُؤبَه له من حيث الفنونُ أو الفنّ، بل هي على النقيض قد تنزل بقيمته وتَنْحطّ، علاوةً على ما فيها من التدليس على الصحابة، والإفسادِ في تاريخ العرب الأدبيّ، وخاصَّةً تاريخهم الذي اشتبك في صدر الإسلام بعد وفاة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا رجعْنا الحديثَ على مُستبعَد تلك المصادر قلنا: إنَّ كتابًا كـ(ـنهج البلاغة) قد طعنَ فيه العلماءُ منذ قديمٍ، ووهَّنوه، ونالوا من ثِقَته، وقد اختلفوا في جامعه، فرجَّح بعضُهم أنه الشريف المرتضَى، علي بن الحُسين بن موسى، المتوفى سنة ست وثلاثين

وأربعمئة، وقيل: أخوه الشريف الرّضي. قال الذهبي وهو يُترجم للمرتضى: "قلت: هو جامع كتاب (نهج البلاغة)، المنسوبة ألفاظُه إلى الإمام عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولا أسانيد لذلك، وبعضها باطل، وفيه حق، ولكنْ فيه موضوعاتٌ حاشا الإمام من النطق بها، ولكن أين المصنف؟!»(١).

وقال في موضعٍ آخر: «ومَنْ طالع (نهجَ البلاغة) جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ ففيه السَّبُّ الصُّراح، والحطُّ على السيِّدين أبي بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وفيه من التناقض، والأشياء الركيكة، والعبارات التي مَنْ له معرفة بنفَس القُرَشيين الصحابة، وبنفَس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين؛ جزم بأن الكتاب أكثرُه باطل»(٢).

وإلى مثل هذا ذهب ابن تيمية من قبلُ فقال في شأن هذا الكتاب: «وأهل العلم يعلمون أن أكثر خُطب هذا الكتاب مفتراةٌ على عليّ، ولهذا لا يوجد غالبها في كتاب متقدِّم، ولا لها إسنادٌ معروف، فهذا الذي نقلها من أين نقلها؟ ولكن هذه الخطب بمنزلة من يدَّعي أنه علويٌّ أو عباسيٌّ ولا نعلمُ أحدًا مِنْ سلفه ادَّعى ذلك قط، ولا ادَّعى ذلك له، فيُعلم كذبه؛ فإن النَّسَب يكون معروفًا من أصله حتى يتصل بفرعه، وكذلك المنقولات لا بد أن تكون ثابتةً معروفة عمَّن نُقل عنه حتى تتصل بنا... وفي هذه الخطب أمورٌ كثيرة قد علمنا يقينًا من عليٍّ ما يناقضها»(٣). وقال في موضعٍ آخر: «... وإلا فليُبيِّن الناقل لها في أي كتابٍ ذُكر ذلك؟ ومَنْ الذي نقله عن عليّ؟ وما إسناده؟ وإلّا فالدعوى المجرَّدة لا يعجز عنها أحد. ومَنْ كان له خبرة بمعرفة طريقة أهل الحديث، ومعرفة الآثار والمنقول

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ١٧/ ٥٨٩، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/ ١٤٠٣هـ.

(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ٥/ ١٥٢، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م.

(٣) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرّاني ٧/ ٦١، تحقيق محمد رشاد سالم، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

بالأسانيد، وتبيُّن صدقها من كذبها؛ عَلِمَ أن هؤلاء الذين ينقلون مثلَ هذا عن عليٍّ من أبعد الناس عن المنقولات، والتمييزِ بين صدقها وكذبها»[١].

وقد ذهب هذا المذهبَ الدكتور شوقي ضيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فرأى أنَّ ما يُنسَب إلى عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتاب (نهج البلاغة) «أكثرُه مصنوعٌ ومحمولٌ عليه». ثم نقل أسماء بعض العلماء الذين شكُّوا في نسبته إليه، كابن خَلِّكان، واليافعيِّ في (مرآة الجنَّان)، وابن العماد في (شذرات الذهب)، والذهبيِّ في (ميزان الاعتدال)، وابن حجرٍ في (لسان الميزان). على أنه مال مع النجاشيِّ صاحب كتاب (الرجال) ـ وهو أحد مؤرِّخي الشيعة ـ إلى ترجيح أنَّ واضعَه الشريف الرضي، وليس أخاه المرتضى؛ محتجًّا بأن الشريف الرضي قد نصَّ على ذلك في تفسيره، وفي كتابه (مجازات الآثار النبوية)، واعتراف ابن أبي الحديد شارح النَّهج نفسِه بهذه النسبة[٢]. ثم قال بعد أن استنكر ما فيه من السجع الذي يُثبت كَذِبَ نسبته إلى عليّ: «ومعنى هذا كله أنه لا يصح الاعتماد على هذا الكتاب في تصوُّر خطابة عليّ، وأنه ينبغي الرجوع إلى المصادر الأولى...»[٣].

أما كتابُ (الإمامة والسياسة) المنسوب إلى ابن قتيبة، ففيه كثيرٌ من النصوص المنسوبة إلى الصحابة، وقد نقلَ عنه بعضُ المتأخرين[٤]. غير أنَّ العلماء تشكَّكوا في نسبته إلى ابن قتيبة، «وأولُ من أعلن ذلك وعلَّله هو غانيغوس المجريطي في صدر كتابه عن الأندلس سنة ١٨٨١م[٥]، ثم تبعه دوزي وآخرون. وأوجه الشك في نسبته كثيرة:

---

(١) منهاج السنة النبوية ٨/ ٤٥.

(٢) انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف، ص٦١-٦٢.

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص٦٢.

(٤) مثل أحمد زكي صفوت في جمهرتَيْه: الرسائل والخطب، وانظر أمثلةً أخرى لمن نقلوا عنه في: كتاب الإمامة والسياسة في ميزان التحقيق العلمي، للدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، ص١٠، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط١/ ١٤٠٥هـ.

(٥) يذهب الدكتور عبد الله عسيلان إلى أن القاضي ابن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ لعله هو أول مَنْ شكَّ في نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة، ثم لم يُتابعه على ذلك أحد حتى عصر المستشرقين، انظر: كتاب الإمامة والسياسة في ميزان=

١- فلم يذكر أحدٌ من مترجمي ابن قتيبة هذا الكتاب له.
٢- وذُكر في الكتاب أنه استمدَّ عددًا من معلوماته ممن حضر فتح الأندلس، وقد كانْ هذا الفتح سنة [٩٢]، وميلادُ ابن قتيبة سنة ٢١٣.
٣- وفي الكتاب جهلٌ تاريخي لا يمكن أن يفوتَ ابن قتيبة، كاعتباره أبا العباس والسفاح شخصيتين، وجعله الرشيد خلَفًا للمهدي، وذكره أن ابنه عبدَ الله دسَّ له السم، وليس للمهدي ابنٌ بهذا الاسم.
٤- في الكتاب عنايةٌ بأخبار الأندلس لا يعرفها ابن قتيبة وغيره في العراق لعهودهم.
٥- شيوخُ ابن قتيبة الذي يرِدون عادةً في كتبه عنهم لا ذكر لهم أبدًا في هذا الكتاب.
٦- المؤلفُ مالكيُّ الهوى والمذهب، وابن قتيبة حنفيّ.

وأخيرًا فإنَّ أسلوب الكتاب مغايرٌ لمألوف أسلوب ابن قتيبة، فيه عنايةٌ بالقصص والرواية.

ويُرجِّحُ مرغليوث أن يكون مؤلف الكتاب من أهل القرن الثالث، وعصر ما بعد الرشيد، يوم اهتمَّ الناسُ بالإمامة وكيفية انتقالها وشروطها، ولكن يظهر أن عهده متأخرٌ عن ذلك أيضًا .. وقد يكون لأكثر من مؤلف واحد، لأنَّ ثمة اختلافًا بين قسميْ الكتاب. وقد يكون صاحبُه إنما قصد إلى القصص والرواية الشعبية، ففيه موادُّ خرافية، وذِكْرٌ لبعض الرسائل والخطب والحوار الموضوع الذي يصعب القبول بأصالة أخذه كوثائق (كذا) ونصوصٍ سياسية .. وإذا كان هذا النوع من العرض التاريخي يجعل الكتابة حيَّةً.. إلا أنه في الوقت نفسه يمنعها أن تكون مصدرًا للمعرفة العلمية»[1].

= التحقيق العلمي، ص٢٢، ولديَّ شكٌّ بالغٌ ـ بمقارنة الأسباب التي انتهى إليها شاكر مصطفى بالأسباب التي انتهى إليها الدكتور عبد الله عسيلان ـ أن الدكتور عُسيلان قد نظر في كتاب شاكر مصطفى، وأفاد منه، ونقل منه عباراتٍ برُمَّتها، مع تبديل طفيف لبعض المفردات بما يُرادفها، وتغيير في ترتيب الأسباب، ولا سيما أنَّ كتاب شاكر مصطفى متقدِّمٌ عليه؛ فهل أخذ منه، أم أنَّ كلاهما قد أخذ من كتابٍ ثالثٍ؟ العلم عند الله عَزَّوَجَلَّ.
(١) التاريخ العربي والمؤرّخون، لشاكر مصطفى ١/ ٢٤١-٢٤٢.

فإذا ما عدنا مرةً أخرى لنستعرضَ فنونَ النثر على المصادر، كيما نستبيَن أصالتَها ومَبْلَغ حِوايتها، من خلال ما وقفنا عليه من النصوص في هذا البحث، أمكننا تصنيفُها وتصويرُ قيمتها على النحو التالي:

أولًا: الخطابة: كان الطبريُّ فيها مقدَّمًا، فقد اشتمل تاريخُه على معظم خُطَب الصحابة، ثم يأتي بعده ابنُ سعدٍ في (طبقاته الكبير). ثم يأتي بعدهما كتبٌ مختصَّةٌ بخطابةٍ بعينها، كـ(فتوح الشام) للأزديّ في خطب الفتوح التي كانت جهة الشام، و(تاريخ المدينة) لعُمر بن شبَّةَ في خطب الوفود، وهو أجود المصادر فيها، غير أنَّ روايتَه خطبةَ ثابت بن قيسٍ التي ردَّ فيها على وفد بني تميمٍ؛ تبدو ناقصةً، لعله لسقطٍ وقعَ في الأصل[1].

والفنُّ الآخر الكبيرُ هو **الكتابة**، والطبريُّ أصلٌ فيها كذلك، يليه ما وردَ في كُتُب الأموال والخراج، كـ(ـالأموال) لابن زِنْجَوَيه، و(الخراج) لأبي يوسُف؛ وما ورد في (فتوح الشامِ) للأزديِّ، و(أنسابِ الأشراف) للبَلاذُريّ، وقد جمعَ هذا جميعَه وما يُشبهه أو يُقاربه محمد حميد الله في (مجموعة الوثائق السياسية).

أمَّا **القصص** فقد كان ابنُ سعدٍ فيها مبرَّزًا، وكان حريصًا على سَوْقها في كتابه، وخاصَّةً قصةَ إسلام الصحابة.

وهو المبرَّزُ أيضًا في **المراثي النثرية**، وفي فَنِّ **وصف النبيّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومن منهجه أنه يذكر في الترجمة من آثار الصحابة وأقوالهم ما لم يهتمَّ لذكره غيرُه، كالأدعية، ونقش الخواتم، وخُصوصيَّة كل امرئ منهم في الكتابة إن كان ذا خُصوصيَّة.

وأمَّا **الوصايا**، فالطبريُّ وابنُ سعدٍ والأزديُّ في (الفتوح).

---

(١) انظر: تاريخ المدينة، لعمر بن شبَّة ٢/ ٥٢٨.

والجدلُ موردُهُ الأكبرُ تاريخُ الطبري، وله أمثلةٌ صالحةٌ في فتوح الأزديِّ كذلك.

ثم تأتي الأجوبةُ ـ وهو فنٌّ صغيرٌ ـ في (الطبقات الكبير) لابن سعد، و(نثر الدُّرّ) للآبّي، و(العِقْد الفريد) لابن عبد ربه، وفي كتاب (الأجوبة المُسْكتة) لابن أبي عَوْن.

وباستعراض ما مرَّ يظهر لنا تقدُّم كتب التاريخ على ما سواها في إيراد هذا النثر، بل إنَّ كتابَيْن ككتابَيْ الطبريِّ وابن سعد يكادُ أن يكون عليهما مَدَارُ نثر الصحابة.

[٢] أداءُ النَّصّ

(نِسبة النّص)

كان الرواةُ يؤدُّون النَّصَّ فينسبونه إلى صاحبه نسبةً واضحةً لا لَبْسَ فيها، مثلَما يبينُ في هذا البحث في عشرات من الأمثلة، فتراهم يقولون مثلًا: كتبَ فلانٌ، أو خطَبَ فلانٌ، أو قال فلان، أو نحو ذلك من طُرُق التحمُّل المصحِّحة، أي التي تُصحِّحُ نسبةَ النص إلى صاحبه، هذا هو الأصلُ في رواية نثر الصحابة؛ أن ينسبوه نسبةً صريحةً إلى إنسانٍ بعينه.

غير أنك قد تُصادف الرواةَ ينسبون نَصًّا: كتابًا أو خُطبة أو غيرَهما، إلى اثنين من الصحابة معًا، كنسبتهم وصيةً إلى أبي عُبيدة ومعاذ بن جبلٍ كتبا بها إلى عمر بن الخطاب ينصحانه[١]، أو كنسبتهم دعاءً لحُذيفة وسَلْمانَ معًا، فيقولون: «**وقال كلٌّ واحدٍ منهما**: اللهم ربَّ السماء وما أظلَّتْ، والأرضِ وما أقلَّتْ...» إلخ[٢].

وهذا وأمثالُه لا يُشكل في عموم الرواية؛ ذلك أنَّ الكتاب لرجلٍ صحابيٍّ لا ريب ـ وإن كنا لا نعرفُ أيَّ الرجلين هو ـ إنما المشكِل أن يكون أحدُ الرجلين صحابيًّا، والآخرُ غيرَ صحابيّ، كما في نسبة خُطبةٍ إلى شُرَحْبيل بن السِّمط[٣] وابنِه ـ واسمه السِّمط بن شرحبيل، وهو ليس من الصحابة ـ وقد جاء في الرواية أنهما قاما في بني معاوية في أيام الرِّدَّة «**فقالا**: والله إنَّ هذا لَقبيحٌ بأقوامٍ أحرار التنقُّل»[٤]؛ فهذا يُشكل عند الحكم عليه: أهو من أدب الصحابة أم لا؟

(١) انظر: فتوح الشام، للأزديّ، ص١٠٠.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤١.
(٣) انظر: ترجمتَه في: الإصابة ٣/ ٣٢٩.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٣٤.

وأشدُّ إشكالًا منه أن يُنسب نصٌّ إلى جمعٍ فيهم صحابةٌ، لا يُدرى عددُهم، ولا مقدارُ ما قالوا، ولا يُدرى أأنشؤوه هم أم أنشأه غيرُهم، والمثال على هذا ما رُوي في نسخة (براءة الخراج) التي كان يكتب بها عُمَّال الخراج، وكان فيهم صحابة[1].

إنَّ النسبةَ إلى غير واحدٍ من الصحابة ليست إلا تورُّعًا من الراوي وهو يعطي الرواية، أو جودةَ ضبطٍ منه لطريق الرواية؛ ذلك أن الناقل حينئذٍ لا يدري أيَّ هؤلاء صاحب النص، فنسَبَه إليهم جميعًا، خيفة أن يلحقه إثمُ نسبة قولٍ إلى غير قائله، ولو كان قولًا يسيرًا.

ذلك، ومن النادر أن يُنصَّ على أسماء الجماعة القائلين إذا كثُروا، فمن هذا ما روى الطبري أن القبائل ليلةَ القادسية قام فيها رجالٌ فخطبوا؛ فقام قيس بن عبد يغوث، والأشعثُ بن قيس، وعمرُو بن معد يكرب، وابنُ ذي السهمين الخثعميّ، وابنُ ذي البُرْدين الهلالي، فقالوا: «لا يكوننَّ هؤلاء أحدُّ في أمر الله منكم»[2]، أي قال كلُّ واحدٍ منهم لقبيلته، فهذه ليست خُطبةً واحدةً، بل هي روايةٌ بالمعنى لفحوى خُطَب هؤلاء جميعًا، ولا يمكن أن نعدَّ أمثالها نصًّا يُعتدُّ به في الاستشهاد لنثر الصحابة.

(ضبط رواية النثر)

ومن حرص الرواة على ضبط رواية هذا النثر، والحفاظ عليه؛ ما بلغَنا عنهم من أمر انتساخ بعض الكتُب أو بعض الخُطَب، خوفًا من أن تضيع بموت النَّقَلَة، أو بتغيُّر أحوالهم لكبر سِنٍّ أو احتراق كُتُبٍ أو نحوهما من العوارض، فقد انتسخَ عبدُ المجيد بن سُهيل رسالةَ عثمان الطويلة التي كتب بها وأرسلها مع ابن عباسٍ إلى المسلمين بالموسم؛ انتسخها من راويها عكرمة[3]، فلعله فَعَل هذا للذي علِم من طولها، وأنها مما يعِزُّ على

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٧١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٦٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٧.

العقول حفظُ مِثْلِه. وجاء عن الحُصين بن يزيد بن عبد الله بن سعيد بن نفيل أنه قال: «أخذتُ كتابًا كان سُليمانُ بنُ صُرَدٍ كتب به إلى سعد بن حُذيفة بن اليمان بالمدائن، فقرأْتُه زمانَ وليَ سُليمان، قال: فلما قرأْتُه أعجبني، فتعلَّمْتُه فما نسِيتُه»[1]، يعني أنه حفِظَه.

(ألفاظ التوثُّق)

ومما يُروى عنهم في الضبط ألفاظٌ كانوا يطلقونها دلالةً على التوثُّق وضبطِ الحَرْف، كقول حبيب بن أوسٍ في قصة إسلام عمرو بن العاص: «حدَّثني عمرو بن العاص مِنْ فِيه إلى أُذُني»[2]. وفي كلمةٍ لأبي بكر قالها حال وفاته رواها الطبري فقال: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، قال: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكير، قال: حدَّثنا الليثُ بن سعد قال: حدثنا علوان يبلُغُ به أبا بكر، ثم ذكر الرواية، وقال في آخرها: قال لي يونس: قال لنا يحيى: ثم قَدِم علينا علوان بعد وفاة الليث، فسألتُه عن هذا الحديث، فحدَّثني به كما حدَّثني الليثُ بن سعدٍ حرفًا حرفًا؛ وأخبرني أنه هو حدَّث الليث بن سعد[3]، فهذا كله أمَارَةُ توثيقٍ لرواية الليث عن شيخه الذي حدَّث بالحديث كرَّةً أخرى مثلما حدَّث به الليث بن سعد عنه.

وفي شَبَهِ هذا من الرواية ما يجعلنا نطمئنُّ إلى كثيرٍ مما يُروى من ألفاظ نصوص نثر الصحابة.

(رواية بعض الصحابة عن بعض)

ويزيدُنا اطمئنانًا، أنَّ بعض هذه النصوص اتَّخذ بعضُ الصحابة من أنفسِهم رواةً له، فقد رأينا بعضًا منهم يروي عن بعضٍ، لا في مطلق الرواية فحسب، بل في غضون نثرهم هم أيضًا، وهذا من مُعْجِب الرواية، فقد روى عمر بن الخطاب في خطبة جُمعةٍ له،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٥٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٨-٢٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٣١.

خطبةَ أبي بكرٍ يومَ السقيفة، وخُطبةً أخرى لرجلٍ من الأنصار لم يُسمِّه ذلك اليوم[1].

وروى عمرُ أيضًا في الكلمة التي قالها عند وفاته حكمةً عن علي بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أصغرُ منه سنًّا، قال: «والله لَأن أكون لم أتخذ منكم رجلًا قطُّ يمنعني من الموت أحبَّ إليَّ من كذا وكذا، فيا ويحَ ابن أبي طالبٍ إذ يقول: حرَسَ امرَءًا أجلُه!»[2].

ومثل هذه الرواية إنما هي من أعالي الرواية في التوثيق، لا تبلُغُها أو تُدانيها رواية.

(مسألة أن)

ذلك، ومن المسائل المهمَّة في رواية نثر الصحابة، مسألةُ تصدير الكتب بكلمة (أنْ)، ما قد يوحِي أنَّ ما بعدها مرويٌّ بالمعنى، مثلُ ما يروى أنَّ أبا عُبيدة كتب إلى عمر بن الخطاب يسأله في قومٍ من المسلمين نفروا إليه... فكتب إليه عمر «أن أشركهم، فإنهم قد نفروا إليكم، وتفرَّقَ لهم عدوُّكم»[3]، ومثل كتابٍ منه إلى عثمان بن حُنيف وقد راجعه في إقطاعٍ لجرير، فكتب إليه عُمر: «أنْ قد صدق جريرٌ وقد أحسنتَ في مؤامرتي»[4].

فالسؤال: أيكون ما بعد (أنْ) هذه مرويًّا بالمعنى أم مرويًّا باللفظ؟ فيه تفصيل، فيُقال: ليست كلُّ روايةٍ تتصدرها (أنْ) تكون بالمعنى مطلقًا، أو باللفظ مطلقًا، والحَكَمُ في هذا دلالةُ الألفاظ وسياقُها في الكتاب نفسِه؛ فما يُروى على سبيل الحكاية، والإجمال، والاختصار، والفحوى؛ فهو روايةٌ بالمعنى. وما يُروى بالألفاظ لأصحابها، ولم تكنْ (أنْ) فيه إلا علامةً على بداية الكتاب فقط؛ فإنما هو روايةٌ بالحروف واللفظ.

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) الطبقات الكبير ٥/ ٨٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٩.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٢.

فمثلًا ما رُوي أنَّ عُمر كتب إلى سعد بن أبي وقاصٍ وإلى عُتبة بن غَزْوان «ان يتربَّعوا بالناس في كل حينِ ربيعٍ في أطيب أرضهم»[1]، فهذا ظاهرٌ فيه الإخبار بدلالة الفعل المضارع للغائبين، لا للمخاطب، فهذه روايةٌ بالمعنى، ولو كان باللفظ لقال: «أن تربَّعوا».

أمَّا كتابه الآخر إلى عُتبة بن غزوان: «ان أوفِدْ عليَّ من صُلحاء جُنْد البصرة عشرةً»[2]، فهذا يَحتمل أن يكون باللفظ وأن يكون بالمعنى. وأما كتابُه إليه: «ان: أعزِبْ الناسَ عن الظلم، واتقوا واحذروا أن يُدال عليكم لغَدْرٍ يكون منكم أو بَغْي...»[3]. فهذا لا يكون إلا باللفظ فحسب، إذ الضمائرُ فيه والخطابُ لا يدلُّ إلا عليه.

خلا أنه قد يُقال: إنَّ كلمة (أنْ) قد تُفيد أنَّ المرويَّ بعدها جزءٌ مقتَطَعٌ من كتابٍ لا يُدرى ما مقدارُه، غير أنه جزءٌ مجرَّدٌ من المقدمات في مجمل الأمر.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٧٨.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٧٨.

[٣] تَصَرُّفُ الرُّواةِ في النَّصّ

إنَّ ناظرًا في متون نثر الصحابة سيجد للرواة فيها تدخُّلًا يمكن تصنيفُه على ثلاثة أضرب: تدخُّلٌ بالحذف، وتدخُّلٌ بالاختصار، وتدخُّلٌ بالإدراج والإضافة.

(التدخُّل بالحذف)

أمَّا التدخُّلُ الذي بالحذف، فإنهم قد يحذفون النصَّ كلَّه فلا يروونه، من أمثلته ما حدَّثَ به الطبري، فقال: «وذكر هشامٌ عن أبي مخنف، قال: وحدثني يزيد بن ظبيان الهمْداني، أن محمد ابن أبي بكر كتب إلى معاوية بن أبي سفيان لما وُلِّيَ؛ **فذكر مكاتبات جرتْ بينهما كرهتُ ذكرها لما فيها مما لا يَحتمل سماعها العامَّة**»[1]، فهذا حذفٌ متعمَّدٌ من الراوي لنصوصٍ كاملة.

وقد يحذفون جزءًا من النَّصّ، كما في قصة إسلام أبي ذرّ: «فبينما أهلُ مكة في ليلة قمراء إضْحِيان، قد ضرب الله على أصمختهم، فما يطوف بالبيت غيرُ امرأتين، فأتيا عليَّ وهما يدعوان إسافًا ونائلة، فقلتُ: أنكحوا أحدَهما الأخرى. قال: فما ثناهما ذلك، فقلت ـ **وذكر كلامًا فاحشًا لم يُكَنِّ عنه** ـ»[2]، فما بين المعترضتين من كلام الراوي استبدل به كلام الصحابي الذي استشنعَ أن يرويَه، فتلك صورةٌ أخرى من صور التدخُّل بالحذف.

وكثيرًا ما تُلفي الرواة يحذفون من أوائل الكُتُب التحميدَ والتسليم، ونحوَهما من المقدمات، ثم يشرعون في الرواية بـ«أمّا بعد». وقد يُزيلون بعض الكتاب نفسه من سوى المقدمة، بادئين بموطن الشاهد فيه، لعل من هذا ما صُنِع في تاريخ الطبري في رواية بعض كُتُب أبي بكر الذي جاء على هذه الصورة: «بلغني كتابُك تُخبرني فيه مسيرَك واستنفارَك...»[3]، ولا ندري أمقدمةٌ ما قبل هذا الكتاب أم بعضُ المتن على الحقيقة.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٧.

(٢) نثر الدر ٢/ ٧٨.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٢٠.

وربما يبالغ الرواةُ فلا يروون إلا موطنَ الشاهد من الكتاب فقط، ويحذفون ما خلاه، كالذي رواه الطبري من طريق السَّريِّ أنَّ عُتبة بن غَزْوان كتب إلى عمر بن الخطاب، ووصف له منزله من الأرض، فكتب إليه عمر: «اجمع للناس موضعًا واحدًا، ولا تفرِّقهم»(١)، ولا شك أن للكتاب مقدماتٍ أو خواتيم قد حذفها الراوي.

ومن عَمَلِهم في الحذف حذفُ الآي أو حذفُ بعضها، كالكتاب الذي رواه ابن سعدٍ في (الطبقات) عن ميمون بن مِهْران، قال: «كتب ابنُ عمر إلى عبد الملك بن مروانٍ فبدأ باسمه، فكتب إليه: «أما بعد، فـ»الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه« إلى آخر الآية»(٢)؛ فلا شك أن قوله: «إلى آخر الآية» من كلام الراوي ابنِ مِهْران أو غيره، ولاشك أنَّ ابن عُمر قد كتب الآيةَ تامَّةً. وعند الطبراني أنَّ عُمر خطبَهم بالجابية فقال: «... ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإن الله جعلني له واليًا وقاسمًا. أبدأ فيه بأزواج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم المهاجرين الأولين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم فقرأ الآية كلَّها»(٣). يعني أنه قرأ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨]، الآية الثامنةَ من سورة (الحشر).

وأوضحُ من هذا، وأوغلُ منه كتابُ عثمان الطويل الذي به الآياتُ الكثيرة، إذ فيه قد حذف الراوي الآيات، ولم ينسَخْ إلا أوائلَها وأواخرها فحسبُ ليَدلَّ على ما بينهما، فرواه على هذه الصورة: «.. وقال وقولُه الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ [الحجرات:٦].إلى قوله: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات:٨].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩١.

(٢) الطبقات الكبير ٤/ ١٢٤-١٤٣.

(٣) المعجم الأوسط، للطبراني ٤/ ١٢٧.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران:٧٧]. إلى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الحجرات:٧٧]. وقال وقولُه الحق: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن:١٦]. وقال وقولُه الحق: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل:٩١]. إلى قوله: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٦].. إلخ»[١]، فقد حذف في الموضع الأول من سور الحُجُرات آيةً وبعض آية[٢]، وحذَفَ في الثاني بعضَ آية[٣]، وفي الثالث بعضَ آية[٤]، أما الموضعُ الرابع فقد حذف فيه قريبًا من ستِّ آياتٍ من سورة النحل[٥]، وقد فعل مثل ذلك في مواضع أخرى من الكتاب، فحذف من سور: النساء، والمائدة، والأنعام، وهود، ويوسف، والنور، والفتح، ولا ريب أن الخليفة عثمان قد كتب تلك الآيات تامَّةً في كتابه لتُتلى على الناس، والتصرُّفُ بالحذف إنما هو من صنعة الراوي الذي ضنَّ بكاغَده أو رِقَاعِه التي يكتب فيها؛ فلعله صنع هذا لاطمئنانه إلى حفظ الناس تلك الآيات المحذوفات.

(التدخُّل بالاختصار)

وأحيانًا يختصر الرواةُ النصوصَ بمعنى الاختصار حقًّا، وهو ذِكْرُ فحواها، والمعنى المبتغى منها. أقدمُ مَنْ صنع هذا في نثر الصحابةِ الصحابةُ أنفسُهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد تلونا كتابًا من عمر بن الخطاب جواب كتابٍ لأبي عُبيدة، يقول فيه: «... أما بعد، فقد بلغني كتابُك تذكر إعزازَ الله أهل دينه، وخِذلان أهل عداوته، وكفايته إيانا مُؤْنةَ مَنْ عادانا؛ فالحمد لله على إحسانه إلينا...»[٦].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٨.
(٢) المقصود الآيات: من ٦ إلى ٨.
(٣) آل عمران: ٧٧.
(٤) التغابن: ١٦.
(٥) هي الآيات: ٩١-٩٦.
(٦) فتوح الشام، للأزدي، ص١٤١.

ومن هذه الرواية بالمعنى للفحوى ما جاء عند الطبري أن طلحة بن عُبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تكلم في حادثة قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأنصتوا له، «فحمد الله وأثنى عليه، وذَكَر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفضلَه، والبلدَ وما استحلَّ منه، وعظَّم ما أُتي إليه، ودعا إلى الطلب بدمه، وقال: إنَّ في ذلك إعزازَ دين الله عَزَّوَجَلَّ وسلطانه...»[1]، فالراوي هنا اختزل الخطبة من أولها بلفظه هو، ثم أوردها على ألفاظها التي تلفَّظَ بها الصحابيُّ ابتداءً من قوله: «إنَّ في ذلك إعزازَ دين الله».

وقد ينتهجون نهجًا آخر في الاختصار بأن لا يُكرِّروا في الكتاب الجملَ المكرَّرة في اللفظ، بل يشيرون إلى مرَّات تكرارها بالعدد، كما في رواية ابن سعدٍ عن السائب بن يزيد قال: سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: «والله الذي لا إله إلا هو (ثلاثًا) ما من الناس أحدٌ إلا مُنِعه»[2]. وكما في الكتاب الذي أرسله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامَ الرمادة: «أما بعد، أفتراني هالكًا ومَنْ قِبَلي وتعيشَ أنتَ ومَنْ قِبَلك؟ فيا غَوْثاهُ (ثلاثًا)»[3]. فإنَّ قوليهما: (ثلاثًا) من تدخُّل الراوي في متن الرواية، وهو لو كان في عصرنا الحديث حيث توافرُ الورق وآلات الطباعة، لكُتبت الألفاظُ ثلاثَ مرات كما نطقها أصحابُها، وهذا مما ينبغي لنا أن نصنعه عند نقل هذه النصوص في كتبنا الحديثة، أو عند نقل هذه الألفاظ على الصورة التي نكتب بها كتبَنا الحديثة.

(قضية الصَّف، وعلامات الترقيم)

هذا وغيره يجرُّنا إلى الحديث عن مسألة الصَّفِّ والكتابة عمومًا عند نقل كتب المتقدِّمين إلى صورة الكتابة الحديثة؛ فإنه ثمة أشياء يجدر أن تُراعى في ذلك، أَخَصُّها ما يتَّصل بتدخُّل الرواة في نصوصها بالحذف، أو الاختصار، أو الزيادة؛ فيتعيَّن إعمالُ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٦٤.

(٢) الطبقات الكبير ٣/ ٢٧٨.

(٣) الطبقات الكبير ٣/ ٢٨٨.

علامات الترقيم ووسائل الإيضاح الحديثة، من أجل كشف ما حدث للنصّ، وما جرى فيه من التدخُّل، وما اعتراه من الزيادة أو النقص. وليس هذا من قبيل الترف أو المبالغة، بل هو من صميم التحقيق العلميِّ بنقل النَّصِّ على صورته الأولى التي بها نطق صاحبُه(١).

ولعلي أضرب مثالًا على الشَّطَط في عمليَّة نقل النصوص، وأثر الصَّفِّ في تحريفها عن الصورة التي أرادها صاحبُها، فقد قرأنا كتابًا في (مجموعة الوثائق السياسية) منقولًا عن (كتاب الردَّة للواقديّ)، والكتابُ لثُمامةَ بن أُثالٍ الحنفيِّ الصحابيّ كتبَ به إلى مسيلمة الكذَّاب الحنفيّ، وقد جاء الكتاب على هذه الصورة التي تعمَّدتُ أن أنقلها كما هي من غير تغيير: «ارجعْ ولا تدَّعِ، فإنَّك في الأمر لم تُشْرَكْ. كذبتَ على الله في وحيه، وكان هواك هوًى. ألا! وتدو مناك (وقد مناك؟) وقومك أن يمنعوك. وإن باتهم خالدٌ ينزل، فما لكَ في الجو من مصعد، وما لك في الأرض من مسلك. سحبت الذيول إلى سوءة (؟) على من يقل مثله يهلك»(٢).

والكتابُ ليس بنثرٍ أصلًا، بل هو شعر ناله من التصحيف والتحريف ما عمَّى على ناقله فنسخَه على هذهِ الصورة المشوَّهة، ثم طُبع حديثًا عليها، وقد ظُنَّ بسبب هذه الآفة ـ أعني التصحيف والتحريف ـ أنَّ الكتابَ مستعجِمٌ مغلَقٌ لا مفتاح له، وأنه نثرٌ مرسَلٌ وليس بشعر. على أن روح الشعر وإيقاعه فيه، وهذا ما حملني على الشكِّ في أمر

---

(١) وقد شكا من غياب ذلك عند العرب ابنُ رُشْد في تلخيصه لخطابة أرسطو، فقال: «ووصيَّة سادسة: وهو أنه ينبغي أن يكون الكلام المكتوب مما يسهل تفهُّم معناه عند قراءته؛ ويكون المتلو مما يسهل تفسيره. والكلام المقروء إنما يسهل تفهُّم معناه في وقت قراءته بأن تكون فيه علامات للاتصال والانفصال. وذلك شيءٌ لم يوضع بعدُ في خط لسان العرب. وهو موجود في كثيرٍ من خطوط سائر الألسنة»، تلخيص الخطابة، لابن رُشْد، أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد، ص٥٧١-٥٧٢، تحقيق وشرح الدكتور محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الثقافية، القاهرة ١٣٨٧ هـ.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص٣٤٩.

هذا الكتاب فرجعتُ إلى نسخةٍ أخرى من كتاب (الردَّة) المنسوب إلى الواقدي، أخرجها الدكتور الجبوري، فوجدتُ الكتاب على هذه الصورة المصحَّحة:

«مسيلمةَ ارجع ولا تَمْحك ... فإنك في الأمر لم تُشْركْ
كذبتَ على الله في وحيِهِ ... وكان هواكَ هوى الأنْوَكْ
ومَنَّاك قومُك أن يمنعو ... ك، وإن يأتهم خالدٌ تُتْرَكْ
فما لكَ في الجوِّ من مُصْعَد ... وما لكَ في الأرض من مَسْلكْ
سحبتَ الذيولَ إلى سَوْءةٍ ... على من يقُل مثله يهلكْ»(١)

(التدخُّل بالإضافة)

ومن أنواعِ تدخُّل الرواة في النص الإدراجُ والزيادةُ فيه. وأخفُّهُ إدراجُ لفظ القول في حشو الرواية، كأنهم خشُوا أن يُظَنَّ انقطاعُ قول صاحبِ النص، أو السبب راجعٌ في هذا إلى ما للرواية الشفوية من سيطرةٍ عليهم، فتراهم يُعيدون لفظة القول في كل حينٍ كما يصنع الساردُ الشفويّ.

ففي قصة إسلام عمرو بن العاص مثلًا نرى مثلَ هذه القطعة من النَّصّ: «... **قال:** وتفرَّقنا، فلم يكن أحدٌ أحبَّ إليَّ أن كون لقيتُه خاليًا من جعفر. **قال:** فاستقبلني في طريقٍ مرةً فنظرتُ خلفه فلم أرَ أحدًا، **قال:** فدنوتُ منه فأخذتُ بيده فقلتُ: تعلم أني أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه. **قال:** فقال: هداك اللهُ فاثبُت. **قال:** فتركني وذهب. **قال:** فأتيتُ أصحابي فكأنما شهدوه معي. **قال:** فأخذوني فألقَوْا عليَّ قطيفةً ثوبًا، **قال:** فجعلوا يَغُمُّونني...»(٢)، فألفاظُ (قال) في هذه القصة من زيادة الراوي، ولو شئتَ قراءتَها من غيرها لما ضرَّ ذلكَ النَّصّ، بل إنَّ حذفَها في صَفِّنا الحديث أوجبُ لتدفُّق القصة، وجريانِ السَّرْد.

---

(١) الردة، للواقدي، ص١١٨ تحقيق الجبوري.

(٢) الطبقات الكبير ٥/ ٥٥٢، وانظر: أمثلةً أخرى في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١٨١، والطبقات الكبير ٣/ ٢٨٨، ٣/ ٢٧٩، ٥/ ٤٨، ١٠/ ٢٣٨.

وربما لا يكتفي الرواةُ بإدراج القول على سبيل المساعدة، بل قد يُقحمون ألفاظًا أخرى من كلمتين، من مثل: «ثم قال»، «ثم تلا»(١)، ونحوها.

ولهم إدراجاتٌ أخرى تأتي على ألوانٍ، منها نسبة قولٍ في النص إلى قائله، كشعرٍ تمثَّل به عبد الله بن الزبير في بعض خُطَبه، فقال الراوي بعده مفيدًا: «والشعر لـحُصين ابن الحُمام المُرِّيّ» ثم أكمل رواية الخُطبة(٢).

ومنها إظهار الأسماء العائدة على ضمائر في النص، كما في قصة إسلام قَيْلة بنت مَخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث نلقى هذه العبارة: «حتى جاء رجلٌ وقد ارتفعت الشمس فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، وعليه تعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسمالٌ...»(٣)، فإنَّ قوله: «تعني النبي» تفسيرٌ من الراوي.

ومنها أن يأتيَ الرواة بفائدةٍ جديدةٍ على النص، كما في خطبة العباس ليلة العقبة، فقد أضاف الراوي بعد قول العباس: «يا معشر الخزرج»: «**وكانت الأوسُ والخزرجُ تُدعى الخزرج**»(٤).

أو أن يُترجم الراوي كلمةً أعجميَّة، كما في قصة عمرٍو عند النجاشي، قال النجاشيُّ: «نَخَروا ـ قال عُمير: أي تكلَّموا»(٥).

وقد يُطيل الرواةُ التدخُّل، ففي قصةٍ لحكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تحدَّثَ فيها عن حُلَّةٍ اشتراها في الجاهلية، فكتب الراوي إفادةً مقدارُها خمسة أسطر في متن القصة عن تلك الحُلَّة وتاريخها، ثم أكمل بقيَّة القصة(٦).

---

(١) الطبقات الكبير ٦/ ١٢٤.

(٢) الطبقات الكبير ٦/ ٥١٧.

(٣) الطبقات الكبير ١/ ٢٧٥-٢٧٦، وانظر: أيضًا في الكتاب نفسه ٣/ ٢٧٥.

(٤) الطبقات الكبير ٤/ ٧.

(٥) الطبقات الكبير ٥/ ٥٢.

(٦) الطبقات الكبير ٦/ ٥٤.

ومثلُ هذه الإدراجات جميعًا حقُّها أن تكون في الهامش في طباعتنا الحديثة، وحقُّها أن تُزال من النَّصّ حتى يعود صافيًا نقيًّا، بريئًا من الزيادة والحشو، مثلما أراد له صاحبُه أن يكون.

إنَّ ما مضى من تصرُّفٍ للرواة في نصوص نثر الصحابة يمكن عزوُه إلى أسباب، منها:

١- سببٌ أخلاقيّ داعيه تحرُّجُ الراوي من أن ينقل شيئًا مما شجر بين الصحابة مما تنكره القلوبُ في رأيه، أو أن ينقل شيئًا يتأثَّمُ به كبعض الألفاظ التي يراها مُقْذِعة.

٢- وسببٌ اقتصاديٌّ لتوفير ما يُكتَبُ عليه، فيحذفون ما يرونه متعارفًا عليه ولا داعي لإثباته، كالآيات ومقدِّمات الرسائل والخُطب.

٣- وسبب بلاغيٌّ داعيه الإيجاز في الرواية، كاختصار بعض المعاني الطويلة، أو إثبات فحواها فحسب.

٤- وقد يُدرجون ألفاظًا أو يُضيفون ما ليس من النصّ، إذا رأوا أنَّ هذا أبلغُ في أداء الرواية، وأوفقُ لفَهم النصّ.

[٤] الانْتِحَالُ والتَّزْوِير

الانتحالُ والتزوير آفتان ابتُليتْ بهما آدابُ الأمم جميعًا[١]، ولم يسلم منهما الأدب العربيُّ، ولا سيما الشعر في العصور العربية المتقدِّمة، كما لم يسلم منهما النثر العربيُّ منذ الجاهلية[٢].

أما النثر في صدر الإسلام، ومنه نثر الصحابة، فقد أُتيح له من أسباب الوضع والانتحال ما لم يُتَحْ لغيره، وكانت الفتنةُ أعظمَ تلك الأسباب، وكانت ثَـمَّ أسبابٌ أخرى، كالتنازُع الذي غالى فيه الشيعةُ فيمن يقوم بأمر الخلافة بعد رسول الله ﷺ: أعليٌّ أم أبو بكر؟

فمن تلك النصوص المزوَّرة مثلًا الرسالة الطويلةُ التي زعموا أنَّ أبا بكرٍ أرسلها إلى عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على لسان أبي عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]، وهي رسالةٌ مكذوبةٌ على أبي بكرٍ من غير شك؛ فهي طويلةٌ طولًا مُفْرِطًا لا يتأتَّى قطُّ لأهل ذلك العصر. وقد قال عنها أحمد زكي صفوت: «ليس عندي من ريبٍ في أنَّ هذه الرسالة موضوعةٌ مفتعلة... لما غلب عليها من الصنعة البديعية البيِّنةِ الأثر في أسلوبها، مما لم يُعرف في رسائل أبي بكر وعُمر وخُطبهما، ولا في كلام أحدٍ من أهل هذا العصر، فضلًا عما فيها من إسهابٍ مديدٍ لم يُعهد منهم»[٤].

---

(١) انظر: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، للدكتور ناصر الدين الأسد، ص٣٢١، دار الجيل، بيروت، ط٨/ ١٩٩٦م.

(٢) انظر: النثر الجاهلي بين الأصالة والانتحال، للدكتور عبد الرحمن بن عثمان الهليّل، ص٧٧-١١٢، دار المؤيد، الرياض، ط١/ ١٤١٩هـ.

(٣) لهذه الرسالة شرحٌ مخطوط، لمؤلفٍ مجهول، بمكتبة الإسكوريال، منه نسخة مصورة بمكتبة الإسكندرية، فيلم ١٤٤، مخطوطة ٣٨٥، وانظر الرسالة في: جمهرة رسائل العرب، لزكي صفوت ١/ ٨٩-١٠٩.

(٤) جمهرة رسائل العرب ١/ ٨٨.

والعلامة زكي صفوت إنما يقصد بكلامه مثلَ هذه الجملة من الرسالة: «البحر مغرقة، والبرُّ مكلفة، والجو أكلف، والليلُ أغدف، والسماءُ جلواء، والأرضُ صلعاء، والصعودُ متعذِّر، والهبوطُ متعسِّر، والحقُّ عطوفٌ رؤوف، والباطل عنوفٌ عسوف، والعُجْبُ قدَّاحةُ الشَّرر، والضِّغنُ رائدُ البوار...»[1]؛ ومثلَ هذه الجملة: «ما هذا الذي تُسوِّل لك نفسُك، ويَدْوي به قلبُك، ويلتوي عليه رأيُك، ويتخاوصُ دونه طرفُك، ويستشري به ضغنُك، ويترادف معه نفسُك، وتكثُر عنده صُعَداؤك، ولا يفيض به لسانُك»[2].

إلى ما في هذه الرسالة من المعاني التي لا تليق بمثل أبي بكر، وهو ما نكون معه بغنًى عن الاستشهاد عليه، لجلاء وَهْيه ونُكرانه.

وقد كذَّبها ابنُ أبي الحديد من قبل، ورجَّح نسبةَ صناعتِها إلى أبي حيَّان التوحيديِّ دون غيره؛ لشبَهها بكلامه، وفي ذلك يقول: «الذي يغلب على ظني أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوعٌ موضوع، وأنه من كلام أبي حيَّان التوحيدي؛ لأنه لكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبه، وقد حفظنا كلامَ عُمر ورسائلَه، وكلامَ أبي بكرٍ وخُطَبَه، فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب، ولا يسلكان هذا السبيل في كلامهما، وهذا كلامٌ عليه أثر التوليد ليس بخفى، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحْدَثين؟! ومَنْ تأمل كلام أبي حيان عرف أن هذا الكلام من ذلك المعدِن خرج، ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد المروروذيّ، وهذه عادته في كتاب (البصائر) يُسند إلى القاضي أبى حامدٍ كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه، إذا كان كارهًا لأن ينسب إليه»[3].

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١/ ٩٣.

(٢) جمهرة رسائل العرب ١/ ٩٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٠/ ٢٢٦.

وأن يُكذِّب ابنُ أبي الحديد كتابًا كهذا لهو الحجَّةُ في الأمر، ذلك أنَّ ابن الحديد قد رضي خُطبًا أخرى ضعيفةً منسوبةً إلى بعض الصحابة كعليّ، فمعنى تكذيبِه مثلَ هذا الكتاب أنه قد بلغ من الضعف والهوان مَبْلَغَه[1].

ومن أمثلة النثر المزيَّف المنحول للخليفة عمر بن الخطاب، ما نقله محمد حميد الله في (مجموعة الوثائق السياسية) من صورة عهدٍ قديم لعمر زعَمَ الآباءُ الشرقيُّون أنه كتبه لنصارى المدائن وفارس[2].

كما نقل الطبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تاريخ الرسل والملوك) كتابًا مختلَقًا موضوعًا على عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى والي مصر ابن أبي سرحٍ، يأمره فيها بقتل أناسٍ وعقوبة آخرين[3]. وهو كتابٌ مكذوبٌ لا يصح له، وقد أراد به واضعه أن يزرعَ الفتنة بين المسلمين. وقد سُئل عنه عثمانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فجعل يُقسم بالله أنه ما كَتَبَ، ولا عَلِمَ، ولا شُوور فيه. فقال عليٌّ ومحمد بن مَسْلمة: قد صدق[4].

فانظر إلى خطير أمر الكتب كيف حمل الوضَّاعين على صناعتها ونسبتها إلى الخليفة، بل كيف كانت تلك الكتبُ سببًا من أسباب الفتنة وقَتْل الخليفة.

وثمة كتابٌ من معاوية بن أبي سفيان إلى ابنه يزيد، حكم بوضعه أنيسٌ المقدسي، أوله: «أما بعدُ، فقد أدتْ ألسنةُ التصريح أذُن العناية بكَ ما فجعَ الأمل فيك، وباعَدَ الرجاء منك...»[5]؛ فقد رأى أنَّ فيه من اصطناع المجاز ما هو غير مألوفٍ في ذلك العهد،

---

(١) وقد رأى أنيس المقدسيُّ أنها «أشبه أن تكون مقامةً أو حكايةً صنفها التوحيدي أو بعضُ الأدباء ردًّا على ما ذهب إليه بعضهم من أَوَّليَّة عليٍّ بالخلافة، انظر: تطور الأساليب النثرية ١/ ١٠٣.

(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٩٥.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٦٧.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٧٤.

(٥) صبح الأعشى ٦/ ٣٨٧-٣٨٨.

وأن أكثره يجري مجرى الازدواج المتكلّف مما هو أشبه بإنشاء العصر العباسي، وما فيه من الحَمْل على يزيد، ووصْمِه بكل قبيحٍ، وهو الذي كان يُرشِّحُه للمُلْك، ثم لما في الكتاب من الهَلْهَلَة وعدم الاحتباك، فليس نسيجُه بمتانة الإنشاء في الصدر الأول[1]. ومثل هذا الكتاب غيرُ بعيدٍ أن يكون قد اخترعه خصومُ يزيد، فوضعوه على لسان معاوية.

ذلك، ومن عجيب أخبار الاختلاق ـ ومستغرَبه ـ ما زُعم من كتابٍ «اختلقه معاوية من قيس بن سعدٍ (كذا)، فقرأه على أهل الشام»[2]. وهذا الخبر عند الطبري من طريق أبي مِخْنَف، وأبو مخنفٍ: لوطُ بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سُلَيْم، كان جدُّه مخنفٌ صحابيًّا، وكان من أصحاب عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد قُتل يوم الجمل. أما أبو مِخْنَفٍ نفسُه فكان متشيِّعًا، وتشيُّعُه محلُّ إجماعٍ بين أهل السُّنة والشيعة[3]. وكان مهتمًّا بإيراد الروايات الكوفية الباقية وروايات قبائل أخرى، «وقد نجم عن ذلك أنْ ظهر أبو مخنف بميولٍ عراقية ضد الشام، وعلويَّةٍ ضد الأمويين، وقَبَليةٍ لا تنسجم مع تنوع مصادره»[4].

وأهل العلم بالحديث يردُّون روايةَ أهل البدع عندهم إذا روَوْا ما يعضُد بدعتَهم[5]، ومعلومٌ أن كلَّ ما يمسُّ معاويةَ يتمسَّكُ به الشيعة. ونعم هنالك فرقٌ بين قواعد القبول في الروايتين: رواية الحديث، ورواية الأدب أو التاريخ. ولكنَّ هذا إذا لم يكن الراوي متَّهمًا في الرواية بتُهمةٍ قادحةٍ حقًّا، كالتي ذكرنا، فلا يُقبل منه نقْلُ أخبارٍ تنتصر لمذهبه أو تعيبُ خصومَه، خاصةً إذا ضممنا إلى ذلك تفرُّدَ أبي مخنف بتلك الرواية، فإنَّ هذا مما

---

(١) انظر: تطور الأساليب النثرية ١/ ١٠٠-١٠٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٣.

(٣) انظر: مرويات أبي مِخْنَف في تاريخ الطبري، «عصر الخلافة الراشدة»: دراسة نقدية، ليحيى بن إبراهيم بن علي اليحيى، ص٤١-٤٢، دار العاصمة، الرياض.

(٤) التاريخ العربي والمؤرخون، لشاكر مصطفى، ١/ ١٧٨.

(٥) انظر: النكت على نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، ص١٣٦.

يُضعِّفُها جدًّا[١]. وخاصَّةً إذا كانت تُخالف المعقول المأثور من مثل اتهام صحابيٍّ بالتزييف والكذب، على أنَّ الكذب من الأخلاق المشينة التي يتنزَّه عنها أشرافُ القوم، فما بالُك بالصحابة، فما بالُك بالمؤتمنين على وحي الله عَزَّوَجَلَّ منهم، كمعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

إنَّ كثيرًا من الكتب والخُطب المرويَّة فيما شجر بين عليٍّ ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وما استتبع ذلك[٢]، لتستدعي نظرًا طويلًا، ونقاشًا وئيدًا، وإنَّ كثيرًا منها مكذوبٌ موضوعٌ، لا تصحُّ نسبتُه إليهما، وقد وضعه قومٌ رقيقو الدين من الطائفتين، لا يبتغون به إلا الجدال والمخاصمة[٣].

وهنالك كتبٌ أخرى وُضعت على غير هؤلاء من الصحابة، ككتابٍ وُضع على عبد الله ابن الزُّبير إلى المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة، وضعه بعضُ أهل البصرة ونسبوه إليه[٤]. ولكنَّ هذه الكتبَ ـ على كل حالٍ ـ لا تبلغ شيئًا مما وُضع على عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وآلِ بيته الكرام؛ إذ وضع على ألسنتهم ما لم يوضَع على لسان أحدٍ من الصحابة[٥].

---

(١) انظر: مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص٢٠٦-٢١٤.

(٢) مما نُسب إلى معاوية وشك الجاحظ فيه فرآه أقربَ إلى عليّ خطبةٌ في الموعظة نقلناها قبل، مطلعها: «أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهرٍ عَنود...» إلخ؛ قال عقبها الجاحظ: «وفي هذه الخطبة -أبقاك الله- ضروبٌ من العَجَب: منها أن الكلام لا يُشبه السببَ الذي من أجله دعاهم معاوية، ومنها أن هذا المذهبَ في تصنيف الناس، وفي الإخبار عمّا هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقيّة والخوف؛ أشبه بكلام عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومعانيه وحاله؛ منه بكلام معاوية. ومنها أنّا لم نجد معاوية في حالٍ من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزُّهاد، ولا يذهب مذاهب العُبَّاد. وإنما نكتب لكم ونُخبر بما سمعناه، والله أعلم بأصحاب الأخبار، وبكثير منهم»، البيان والتبيين ٢/ ٦١.

(٣) يقول الدكتور حسين نصار: «منذ قيام الفتنة كَثُرتْ المخترعات والمنحولات التي لم يستطع رجال الأدب والتاريخ تَبيُّن زيفها من صدقها إلى اليوم»، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، للدكتور حسين نصار ص٥٥، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢/ ١٩٦٦م. ثم يقول: «إذا كنا نشك بعض الشك في رسائل عثمان، فإن الشك في رسائل عليٍّ يحيط بنا من جميع الأنحاء، وقد نُسب إلى علي ما يؤلف المجلدات من رسائل وخطب، وما نستطيع أن نُثْبت له واحدةً يقينًا!»، ص٥٦. وهذه مبالغة لا ريب، ولعل الدكتور نصار يقصد بحكمه هذا ما نُسب إلى عليّ بن أبي طالب في كتاب «نهج البلاغة»؛ وإلّا فقد صحتْ لعليٍّ رسائل وخطبٌ في تاريخ الطبري وغيره، على نحو ما مرَّ بنا في مواضع مختلفة من الدراسة.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٦١٥-٦١٦.

(٥) انظر: أمثلةً من الكتب المشكوك في صحتها مما نُسب إلى عليّ بن أبي طالب مثلًا: شرح نهج البلاغة٢/ ٢٨٤، ١٦/ ١٦٧، ١٦/ ١٧٢، ١٦/ ٢٥٢، ومما نُسب إلى فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: منال الطالب: ٢/ ٥٠٧، ٢/ ٥٢٩.

الفصل الثاني

العَقْلُ والاحْتِجَاج

المقصود بالعقل هنا آثارُه، من حكمةٍ، وطريقة تفكير، ومحاجَّةٍ وجَدَل. والمحاجَّةُ أو الحِجَاجُ: «هو توجيهُ خطابٍ إلى مُتَلقٍ ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معًا»(١). إنَّ الأصلَ في النصِّ الأدبيِّ أن لا يكونَ عقليًّا خالصًا، وإلّا لاستحالَ فلسفةً أو حكمةً أو علمًا أو شيئًا من هذا القبيل. ويجبُ في الشعر أن تخفُتَ تلك الآثار، وأن لا تُورَدَ فيه إلا بمهارةٍ وحِنكة؛ فإن غابتا فَسَدَ الشعر وغاضَ ماؤه، وغدا خُطبةً مَلُوكةً، أو قولًا مستثقلًا.

أما النثرُ فإنه يقومُ في أساسه على العقل(٢)، ثم تأتي العاطفةُ عونًا له، وما أدبيَّةُ النثر إلا مزيجًا مختلِطًا من العقل والعاطفة، خصوصًا في العصور العربية المتقدِّمة التي قَرَّ بها سلطانُ الشعر؛ فليس يُتَصوَّر إنشاءُ نثرٍ في تلك الأيامِ ذي عاطفةٍ خالصة، وليس يُتَصوَّر إنشاءُ نثرٍ ذي صبغةٍ شعريَّةٍ تامَّةٍ كبعض هذا النثر الذي يُنتَج في عصرنا الأدبي الحديث، فيُطلِق عليه أصحابُه أسماءً مختلفةً، بعضُها يستعير من الشِّعر لفظةَ القصيدة؛ فقد يُسمُّون صورتَه بقصيدة النثر، وقد يخافون من الوقوع في تناقض النَّوع، فيُطلقون على صورته: النَّثيرة، وقد يسمُّونه بأسماءٍ أخرى غير ذلك(٣).

---

(١) مقالة: مدخلٌ إلى الحِجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، للدكتور محمد الولي، ص١١، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(٢) يقول حازم القرطاجنّي: «إنَّ التخييلَ هو قوامُ المعاني الشعريَّة، والإقناعَ هو قوامُ المعاني الخطابية. واستعمالُ الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغٌ، إذا كان ذلك على وجه الإلماع في الموضع بعد الموضع، كما أنَّ التخييل سائغٌ استعمالُها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع»، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجَنّي ص٣٦١، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١م.

(٣) انظر: النثيرة والقصيدة المضادَّة، لمحمد ياسر شرف، ص١٩٧، النادي الأدبي بالرياض ١٤٠١هـ وانظر: تفصيل القول في تاريخ هذا النوع في الفصل التاسع: اتخاذ النثر أداةً في مفهوم الشعر الجديد، من كتاب: الشعر العربي الحديث ١٨٠٠-١٩٧٠: تطور أشكاله و موضوعاته بتأثير الأدب الغربي، تأليف س. موريه S.Moreh، ترجمه وعلق عليه الدكتور شفيع السيد والدكتور سعد مصلوح، دار غريب، =

(أ) روافدُ العقل:

لقد أسهم في تأسيس العقل عند الصحابة أسبابٌ كثيرةٌ، أعظمها ما جاء في الدين الإسلامي الجديد من طرقٍ للاستدلال والبرهان، وإيراد الحُجَّة، ومن وسائل في الردِّ ودحْض الشُّبهه؛ فقهوا هذا من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وصُحبةِ نبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. ثمَّ تقادَمَ الزمانُ بقومٍ منهم، فعلَّمَ بعضُهمْ بعضًا.

ومن الصحابة مَنْ كان مخضرمًا ذا حكمةٍ تليدة، وتجرِبة ودرايةٍ ومعالجةٍ للأمور، تكَسَّبَها بطول العمر والخُلْطَةِ بالأُمم، ومنهم من كان على معرفةٍ بأحوال العرب، له حِذقٌ بعلومهم وأخبارِهم ومآثِرهم.

ومنهم مَنْ وَهَبَهُ الله عَزَّوَجَلَّ ذكاءً وفِطْنة، هما إلى الفطرة أقرب منهما إلى الكَسْب. فإذا انضاف هذا إلى شيءٍ مما سبق ظهرتْ الحُجَّةُ، وقَوِيَتْ الـمُنَّة، وأوتيَ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عليه بيانًا وفُرْقانًا.

ومنهم من كان يتأمَّل ويتدبَّر في الكون، وتكون جُلُّ عبادته النظرُ والاعتبار[1].

يقول قدامة بن جعفر في معرض حديثه عن العقل: «والعاقلُ أثيرٌ مكرَّمٌ، مُرأَّسٌ مقدَّمٌ عند مَنْ به من الناس إليه حاجة، وعند مَنْ لا حاجة به إليه. والعقل منه مخلوقٌ مع أول الفطرة، ومنه مستفادٌ ومكتسَبٌ بعد ذلك باقتناء العلوم الحقيقية، والتجربة الباردة، عن الفهم والرويَّة ومجاراة ذوي الآراء الوثيقة، وأهل الآداب الصحيحة»[2].

= القاهرة ٢٠٠٣م. وقد ذهب جون كوين Jean Kohen إلى أن وجود تلك القصيدة المسمَّاة في الأدب بـ«قصيدة النثر» نادرٌ، أو أنها على حدِّ تعبيره: «ظاهرةٌ استثنائية»، انظر: بناء لغة الشعر، لجون كوين ص٦٥، ترجمة الدكتور أحمد درويش، دار المعارف، ط٣/ ١٩٩٣م.

(١) كأبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، انظر: الزهد، لأحمد ٢/ ٥٦، ٦٠.

(٢) الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر، ص٤٤٢.

ألا إنه ليس من غاية البحث في هذا الموضع استقصاءُ كل ما أُثر عن الصحابة في موضوع الاحتجاج والعقل؛ فهو كثيرٌ لا يقومُ به إلا بحثٌ مستقلّ، ولكنها بعضُ الإشاراتُ التي تدلُّ على ما نحن فيه من الأمر، الهاديةُ إلى ما للصحابة من باعٍ في هذه القضيَّة.

فسوى ما قدَّمنا من أثر الإسلام، وهو الأثر الكبير الذي لا حاجةَ بنا إلى الاستشهاد عليه، إذ هو فاشٍ ظاهرٌ في نثر الصحابة؛ كان للصحابة اتصالٌ ما بثقافات بعض الأمم الأجنبية، وإنه ليس بوسعنا الآنَ الحكمُ على مدى هذا الاتصال وسَعته، فهو مما ينتظره تمحيصٌ وبحث؛ مما يُروى من ذلك أنَّ بعض الصحابة كالمغيرة بن شُعبة كان يعرف شيئًا من الفارسية، وكان بعضُهم كزيد بن ثابتٍ يُترجم عنها[1]. ووجدنا منهم مَنْ كان مطَّلعًا على شيءٍ من ديانات الأمم الأخرى، كعمر بن الخطاب في تأريخه كتابًا له إلى نصارى نجران بشهر الصوم من دينهم[2]. ووجدنا لهم معرفةً بالتاريخ لا بأس بها، ولا سيَّما تاريخَ بُلدانهم وقراهم[3].

(ب) مَظاهرُ العقل:

(الابتكار)

كان للصحابة نَظَرٌ في الأمور وتَرَوٍّ، وخيرُ الأمثلة على هذا عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد رأيناه يُحْدِثُ بعضَ المعاني، كعهده إلى الوفد الذي أتاه لبناء الكوفة، أن لا يرفعوا بُنْيانًا فوق القَدْر. قالوا: وما القَدْر؟ قال: «ما لا يُقرِّبُكم من السَّرَف، ولا يُخرجُكم من القَصْد»[4]. وهذا معنًى يُجاوز المعنى اللغويَّ للكلمة، هو من وضع عُمر[5].

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٨٨.

(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، لحميد الله، ص١٩٢، وانظر: التعليق على هذا الكتاب فيما سبق من حديث عن التأريخ في بناء كتب الصحابة.

(٣) انظر: مثلًا خطبة ظبيان بين يدي رسول الله ﷺ في: تاريخ المدينة، لعمر بن شبة ٢/ ٥٥٢، وانظر: خطبةً للحسَن بن علي في: جمهرة خطب العرب ٢/ ٧.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٤.

(٥) انظرها في: كتاب تاريخ المدينة النبوية، لابن شبَّة ٢/ ٥٥٢.

<table dir="rtl">
<tr><td colspan="3">إنَّ لكل عادةٍ عتادًا</td></tr>
<tr><td colspan="3">فعتادُ الخير الصبر</td></tr>
<tr><td colspan="3">فالصبرَ على ما أصابَك أو نابَكَ؛ يجتمع لك خشيةُ الله</td></tr>
<tr><td colspan="3">واعلم أنَّ خشية الله تجتمعُ في أمرين:</td></tr>
<tr><td colspan="2">في طاعته</td><td>واجتناب معصيته</td></tr>
<tr><td colspan="2">وإنما أطاعه مَنْ أطاعه ببُغض الدنيا وحُبِّ الآخرة</td><td>وعصاه مَنْ عصاه بحُب الدنيا وبُغض الآخرة</td></tr>
<tr><td colspan="3">وللقلوب حقائق يُنشئها الله إنشاءً</td></tr>
<tr><td colspan="2">منها السرُّ</td><td>ومنها العلانية</td></tr>
<tr><td colspan="2">وأما السرُّ فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس</td><td>فأمَّا العلانية فأن يكون حامدُه وذامُّه في الحق سواء[(١)]</td></tr>
<tr><td colspan="2">فلا تزهدْ في التحبُّب</td><td></td></tr>
<tr><td colspan="2">فإن النبيِّين قد سألوا محبَّتهم</td><td></td></tr>
<tr><td>وإنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا حَبَّبه</td><td>وإذا أبغض عبدًا بَغَّضه</td><td></td></tr>
<tr><td colspan="2">فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس</td><td></td></tr>
</table>

(١) لمَّا علم عُمر أنه لن يُفرِّع من جملة «العلانية» شيئًا قدَّمها، وأخَّر «السرّ»؛ لأن التوليدَ سيقعُ فيه حتى يسترسل الكلام من غير انقطاع، وكان حقُّه في اللفِّ والنشر التقدُّم، فقال: «منها السرُّ ومنها العلانية، فأمَّا العلانية فكذا وكذا...».

وكابتكاره بعض الحِكَم، كقولته العظيمة: «والوفاءَ الوفاءَ، فإنَّ الخطأ بالوفاء بقيَّة، وإنَّ الخطأ بالغدر الهلَكَة»[1]، فهذا معنى جديدٌ افتضَّه عُمر، وهو أثَرٌ من آثار طول النظر.

(حُسن الاستدلال)

وكحُسْن استدلاله؛ فقد رُوي أنَّ نفرًا من المسلمين أصابوا الشراب في عهده... فسُئلوا، فتأوَّلوا، وقالوا: خُيِّرْنا فاخترنا، قال: «فهل أنتم منتهون»، ولم يُعزم علينا. فكتبوا إلى عُمر، فكتب إليهم: ذلك بيننا وبينهم، «فهل أنتم منتهون» يعني: «فانتهوا»؛ ثم أقام عليهم الحَدّ[2]. فقد فَهِمَ من السؤال الأمرَ لا السؤالَ على حقيقته، وهذا من علوِّ العلم بلسان العرب، والخبرة بتصاريفه.

وكان رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يتروَّى ويستخرج من الأفعال مآلاتها، كقوله من كتابٍ له: «... وأما العدلُ فلا رخصة فيه في قريبٍ ولا بعيد، ولا في شِدَّةٍ ولا رخاء، والعدلُ وإنْ رُئيَ ليِّنًا فهو أقوى، وأطفأ للجَوْر، وأقمعُ للباطل من الجَوْر. وإن رُئيَ شديدًا، فهو أنكشُ للكفر»[3]. فتلك معانٍ لو جرَّدْتَها من اسم عُمر لربَّما تنسبُها إلى بعض أصحاب الفلسفة المشتغلين. ولكنه عمر بن الخطاب الذي لا تشغله همومُ الأمَّة عن مثل تلك المعاني، بل لعله يرى فيها هَمًّا واجبًا عليه أداؤه إلى الأُمَّة.

التقسيم

ومن العمل العقليِّ في نثرهم حُسْنُ التقسيم، وتنظيم القول؛ والحرصُ على تَعداد الجمل، كقول أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «ذِروة الإيمان اربعُ خلال: الصبر للحُكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب. ولولا ثلاثُ خلالٍ صلُح الناس: شُحٌّ مُطاع، وهوًى متَّبَع، وإعجابُ المرء بنفسه»[4].

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٢.
(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٩٦.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٥.
(٤) زوائد نسخة نُعيم بن حماد على نسخة المروزي من كتاب الزهد، لابن المبارك، ص٣١.

ومن جميل التقسيم المتبوع ببيان معناه في كل قسم، ثم المشروح بالتمثيل في آخره ليَثْبُتَ المعنى، ويستقرَّ استقرارًا لا مزيد عليه، قولُ حُذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلوب أربعة: قلبٌ أغلف، فذاك قلبُ الكافر. وقلبٌ منكوس، فذاك قلبٌ يرجع إلى الكَدَر بعد الإيمان. وقلبٌ أجردُ فيه مثلُ السراج يُزْهِر، فذاك قلبُ المؤمن. وقلبٌ مصفَّح، اجتمع فيه نفاقٌ وإيمان، فمَثَل الإيمان فيه كمَثَل بُقَيْلة يُمِدُّها الماءُ العذب، ومَثَلُ النفاق كمثل القُرْحة يُمِدُّها القَيْح والدم، وهو لأيَّتهما غلب»[1].

(التفريع)

ومن هذا العمل العقليّ تفريعُ الكلم، وتوليدُ بعضِه من بعض، والصبرُ حتى يُستوفى المعنى المرادُ أداؤه، بتسلسلٍ بارعٍ، وانتقالٍ بين طبقات المعنى بديع، كقول عمر بن الخطاب في وصيةٍ إلى سعد بن أبي وقاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «... واعلم أنَّ لكل عادةٍ عتادًا؛ فعتادُ الخير الصبر، فالصبرَ على ما أصابَك أو نابَكَ؛ يجتمع لك خشيةُ الله. واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه مَنْ أطاعه ببُغض الدنيا وحُبِّ الآخرة، وعصاه مَنْ عصاه بحب الدنيا وبُغض الآخرة. وللقلوب حقائق يُنشئها الله إنشاءً؛ منها السرُّ ومنها العلانية، فأمَّا العلانية فأن يكون حامدُه وذامُّه في الحق سواء، وأما السرُّ فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس، فلا تزهدْ في التحبُّب؛ فإن النبيِّين قد سألوا محبَّتهم، وإنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا حَبَّبه، وإذا أبغض عبدًا بَغَّضه؛ فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس»[2]. وحتى يظهر لنا الجهدُ العقليُّ في التفريع والتقسيم في هذه الوصيَّة، يمكننا تمثيلُها على هذه الصورة:

---

(١) الزهد، لابن المبارك، ص٥٠٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٣.

هذا سوى ما في الكلام نفسه من المعاني المبتكرة المستخرجة بطول النظر والتفكُّر والرويَّة، وأولئك عملٌ خالصٌ من عمل العقل.

ولعُمر بن الخطاب خطبةٌ أخرى في شَبَهٍ هذا من تقسيمات العقل، يتشعَّبُ فيها تشعُّبًا، ويتدرَّجُ بها تدرُّجًا، يقول فيها:

«وإنَّ للعدل أماراتٍ وتباشير	
فأمَّا الأمارات فالحياءُ، والسَّخاء، والهَيْن، واللِّين	وأما التباشير فالرحمة
وقد جعل الله لكل أمرٍ بابًا	ويسَّر لكل بابٍ مفتاحًا
فبابُ العدل الاعتبار	ومفتاحُه الزُّهد
له بتقديم والاعتبارُ ذكرُ الموت بتذكُّر الأموات، والاستعداد الأعمال	والزُّهد أخْذُ الحق مِنْ كل أحدٍ قِبَلَه حقٌّ، وتأديةُ الحق إلى كل أحدٍ له حق»[1]

(ج) وسائلُ الاستدلال:

وقد أُثر عن الصحابة رضوان الله عليهم مجادلاتٌ معروفة[2]، استعملوا فيها العقلَ أيَّما استعمال، وكانت لهم وسائلهم الحِجاجيَّة في دحض آراء المخالفين، أو استمالتِهم. ولعلَّ في حادثة (السقيفة) وما دار بها من الجدل خيرَ مثالٍ على نقول. وهذا ذكرٌ لبعض ما ورد فيها من الحُجج والوسائل.

تُحدِّثنا الروايةُ أنَّه لما قُبض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمعتْ الأنصارُ في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: نُولِّي هذا الأمرَ بعد محمدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ سعدَ بن عُبادة، وأخرجوا سعدًا إليهم وهو مريض، فخطَبَهم خُطبةً ذكر فيها فضلَهم وسابقتَهم إلى الإسلام، وذكر تكذيبَ

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٥.

(٢) انظر: ما سبق عرضُه من ألوان الجدل عند الصحابة في هذه الدراسة.

قوم النبي له، وتصديقَهم هم إيَّاه، وأنهم هم الذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه، وجاهدوا أعداء الله، فمات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عنهم راضٍ، ثم قال: «استبِدُّوا بهذا الأمر؛ فإنه لكم دون الناس». فأجابوه بأجمعهم أن «قد وُفقتَ في الرأي، وأصبتَ في القول، ولن نعدوَ ما رأيت، ونولِّيك هذا الأمر، فإنك فينا مَقْنَعٌ، ولِصالح المؤمنين رضا»(١).

وهنا يظهر أثرُ صلاح الخطيب(٢)، وما تعملُه منزلتُه في إقناع الناس والتأثير على العامَّة، حتى لو كان هنالك من الرأي ما هو أقوى من رأيه كما سيردُ بعد يسير؛ إذ إنَّ من أصول الخطابة ليس حملُ الناس على ما هو حقٌّ فحسب، وإلّا لاستحضروا مَنْ يُخالفهم الرأيَ في الحال، ولكنَّ المرادَ منها حقًّا هو حملُ الناس على ما يراه الخطيبُ ويرومُه(٣)، إلى أن يأتيَ مَنْ هو أقوى حُجَّةً منه، فيُبطلَ حُجَّتَه، ويصرفَ أنظار الناس إليه. وليس من ديننا أن ندعيَ أنَّ بعض الصحابة لم يُرد الحقَّ إذْ ذاك بقوله، بل هم أتقى من أن يفعلوا، وكلٌّ منهم ما نطق إلا بما يراه هو الحق، ولو قد علِم أن الله لن يُظهر الحقَّ آخرَ الأمر لَـمّا تقدَّم إلى قول ما يقول، هذا ما لا نشكُّ فيه في أصحاب محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم تُحدِّثنا الروايةُ أنَّ الأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ترادُّوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبتْ مُهاجرةُ قريشٍ فقالوا: نحن المهاجرون وصحابةُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأولون، ونحن عشيرتُهُ وأولياؤه؛ فعلامَ تُنازعوننا هذا الأمرَ بعده؟! فقالت طائفةٌ منهم: فإنا نقول إذن: منَّا أميرٌ ومنكم أمير؛ ولن نرضى بدونِ هذا الأمر أبدًا. فقال سعد بن عُبادة لمَّا سمعها: هذا أول الوَهَن.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢١٨.

(٢) ذهب أرسطو إلى أنَّ «العوامل التي تدعو إلى بعث الثقة في الخطيب ثلاثة، إذ إن هناك ثلاثة أسباب، من غير البراهين، تدفعنا إلى الثقة، هذه هي السدادُ والفضيلةُ والبرّ»، مقالة: مدخل إلى الحجاج، للدكتور محمد الولي، ص٢٨، وقد ترجم كلام أرسطو هذا عن الترجمة الفرنسية لكتاب الخطابة، لأرسطوطاليس المنشورة بباريس ٢٠٠٧م.

(٣) انظر: الخطابة، لأرسطوطاليس «تلخيص وشرح ابن سينا»، ص٢، تحقيق الدكتور محمد سليم سالم، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٩ مصورة عن ط١/ ١٩٥٤م.

ثم تذكر الروايةُ أنَّ عُمر أتاهُ الخبرُ، فأرسل إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولسنا دائبين لتحقيق هذه الرواية وما يجيء فيها، بل شأوُنا بيانُ بعض ما ورد فيها من عمل العقل في الخطابة تقول الروايةُ: فقدِم أبو بكرٍ فخطبَ في الأنصار...

وخطبةُ أبي بكرٍ هذه خطبةٌ جدليَّةٌ، مبنيَّةٌ على مقدِّماتٍ تمهِّد لنتائج أرادها أبو بكر، هذا تفصيلُ كلِّ واحدةٍ منها:

خُطبة أبي بكر	ما فيها من الحِجاج
«إنَّ الله بعث محمدًا رسولًا إلى خلقه... فعظُم على العرب أن يتركوا دينَ آبائهم، فخصَّ الله المهاجرين الأوَّلين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمواساة له، والصبر معه على شدَّة أذى قومهم لهم.	(مُقدِّماتٌ) (مقدِّمةٌ أولى) فضيلةُ اختيار الله لهم، ليكونوا هم أوَّلَ أوليائه والمؤمنين به، والمؤازرين إيَّاه.
وكلُّ الناس لهم مخالف، زارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنَف الناس عليهم، وإجماع قومهم عليهم،	(مقدِّمةٌ ثانية) فضيلةُ النُّصرة وقتَ الضعف حين يُستصعبُ النصر. وفيها (نقضُ) دعوى الأنصار السابقة التي قد يُفهم منها سَبْقُ الأنصار إلى الأمر.
أوَّلُ فهم مَنْ عبدَ الله في الأرض، وآمن بالرسول.	(مقدِّمةٌ ثالثة) الأوليَّة المطلقة في الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ (الاحتجاج بالأوَّليَّة).
وهم أولياؤهُ وعشيرتُه.	(مقدِّمةٌ رابعة) القُرْبى.
وأحقُّ الناس بهذا الأمر من بعده.	(نَتَائج) (نتيجةٌ أولى) المهاجرون الأحقُّ بالخلافة.

ولا يُنازعُهم إلا ظالم	(نتيجةٌ ثانية متولِّدةٌ من النتيجة الأولى) مُنازعُ المهاجرين في الخلافة ظالم.
وأنتم يا معشر الأنصار مَنْ لا يُنكَر فضلُهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمةُ في الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرتَه، وفيكم جُلُّ أزواجه وأصحابه،	(استمالةٌ) فيها ذكرٌ لفضائل الأنصار الكريمة؛ لحملهم على الإقرار بالنتيجة المستخرجة من الخطبة(1).
فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحدٌ بمنزلتكم	زيادةُ توكيد لسَبْق المهاجرين وتقدُّمهم، في سياق الاعتراف للأنصار بالفضل.
فنحن الأمراءُ وأنتم الوزراء، لا تُفْتاتون بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور(2)».	(النتيجة الكبرى المُبتغاةُ من الخُطبة) إمارةُ المهاجرين، ووزارةُ الأنصار.

فقام الحُبابُ بن المنذر بن الجَموح، فقال: يا معشر الأنصار، املِكُوا عليكم أمرَكم؛ فإنَّ الناس في فيئكم وفي ظِلِّكم، ولن يجترئ مجترئٌ على خلافكم، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وينتقص عليكم أمركم.

فإنْ أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنَّا أميرٌ ومنهم أمير»(3).

---

(1) لكي تتوقَّد الـحُجَّة ينبغي إشعالُها بعناصر شعريَّة أو عاطفيَّة، مقالة: مدخل إلى الحجاج، للدكتور محمد الولي، ص١٨، وانظر: تفصيل القول في أمر العاطفة في الاحتجاج: مقالة الدكتور حاتم عبيد: منزلة العواطف في نظريات الحجاج، ص٢٣٩، ضمن عدد عالم الفكر المخصَّص للحجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(2) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢١٨-٢١٩.

(3) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٠.

فلم يَحْتجَّ الحبابُ إلا بأمورٍ من أمور الدنيا، كالعِزِّ والمنعة والعدد، وهنَّ مما لا يفتُّ في عضُد الصحابة، وهذه حُجَّة ضعيفة لأنها غيرُ مسنَدةٍ بأمرٍ من أمور الدين الذي أُشربَه قلبُ الصحابة، فقام عمر بن الخطاب ليردَّ عليه وينقض حُجَّتَه، فقال:

خطبةُ عمر بن الخطاب	ما فيها من الحِجاج
«هيهاتَ لا يجتمعُ اثنان في قَرَن،	(نقضٌ ملائم) بما استقرَّت عليه تجرِبَةُ العرب التي يُعبِّر عنها مَثَلُهم هذا[1]، وهذا المثَل يحمل في طيَّاته (مقدِّمةً ونتيجةً) معًا.
والله لا ترضى العرب أن يؤمِّروكم ونبيُّها من غيركم، ولكنَّ العرب لا تمتنع أن تولي أمرها مَنْ كانت النبوةُ فيهم ووليُّ أمورهم منهم،	(احتجاجٌ قويٌّ) بالنبوة[2]، وهي من الأمور التي لا يستطيعُ إنكارَها المخاطَبون من الصحابة، بل يُسلِّمون لها[3]، وفيها أيضًا (مقدِّمةٌ ونتيجةٌ) تتوالَيان، فإذا كانت العرب لا ترضى توليةَ إلا مَنْ كانت النبوةُ فيهم، فهي لن ترضى بغير المهاجرين بدلًا.

---

(١) وهذا ما يسمِّيه أرسطو: الشهادة، قال: «والأشياء المُقْنِعة: إما قولٌ تروم منه صحةَ قولٍ آخر، وإما شهادة. والشهادة: إما شهادة قول، وإما شهادة حال. وشهادةُ القول: مثل الاستشهاد بقولِ نبيٍّ أو إمام أو حكيم أو شاعر...»، انظر: الخطابة لأرسطوطاليس، بتلخيص ابن سينا، ص٩، فالمَثَل داخلٌ في شهادات القول تلك، والمَثَل في الخطابة يقوم مقام الاستقراء المحتَجِّ به في المنطق، انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص١٠٣-١٠٤.

(٢) انظر: ما مرَّ في الهامش السابق من كلام أرسطو في الاستشهاد بقول النبيّ، مما أدخله في باب المُقْنِعات.

(٣) لأنَّ العقائد الدينية مما لا يخضع للمناقشة والحجاج، إذ النبوة وما يصدر عنها موطن تبجيل وتسليم من لدن الصحابة، انظر: الحجاج في التواصل، لفيليب بروطون Philippe Breton، ص٤٣، ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١/ ٢٠١٣م..

ولنا بذلك على مَنْ أبي من العرب الحُجَّةُ الظاهرةُ، والسلطانُ المبين.	(مقدِّمةٌ) مُعادَةٌ تُشبه ما قبلها. وفيها (التصريح بالحُجَّة) ونعتُها بالوضوح والإسفار والغَلَبة، وهي طريقةٌ من طُرق السَّيطرة على وجدان المخاطَبين.
مَنْ ذا يُنازعنا سُلطانَ محمد وإمارتَه ونحنُ أولياؤه وعشيرتُه؟!	(نتيجةٌ تسبق المقدِّمة)، وفيها (التغني بالحُجَّة) وتَرْدادُها[1]، والافتخارُ بها، وكأنها مما استقرَّ حتى لا مكان لإنكارها.
إلا مُدْلٍ بباطلٍ، أو متجانف لإثمٍ، أو متورط في هَلَكة.	ذمُّ المخالف ورميُهُ بابتغاء الباطل واقتراف الإثم وإهلاكِ الأُمَّة (وهذا قياسٌ مُضْمَرٌ)[2] يُفضي إلى نوع تهديدٍ وإخافة[3].

---

(١) هذا نوعٌ من الإطناب والبسط محمودٌ في مقام الجدل، فقد ذهب بيرلمان Perelman في كتابه، مصنف في الحجاج أو البلاغة الجديدة Traite de l' argumentation- la nouvelle rhetorique إلى «أن بعض العناصر في موضوعٍ ما تحتاج إلى الترديد والتطويل حول دلالتها وأهميتها، وذلك من أجل الزيادة في حضور هذه العناصر في ذهن السامعين للإقناع أكثر، على عكس الإيجاز الذي يكتفي بذكرها فقط؛ إذ إنه إذا كان الأسلوب السريع«الإيجاز» يصلح في الاستدلال، فإن الأسلوب البطيء «الإطناب» يُنشئ الانفعال والتأثير، انظر ترجمة قوله هذا في: الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير، لنعيمة يعمرانن ص٢٦، رسالة ماجستير بكلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، الجزائر ٢٠١٢م.

(٢) **القياس المضمر**: حذف إحدى المقدِّمتين أو النتيجة، اعتمادًا على وضوحها، أو ذكاء المخاطب، انظر: المنطق، لمحمد رضا المظفَّر، منشورات الفيروزآبادي، قُم، ط٢/ ١٤٢٤هـ، وهو مما برع فيه العرب لما بهم من الذكاء والفطنة، وحُبِّ الاختصار والإشارة والحذف. كأنه يقول هنا: الخلافةُ لنا حقٌّ شرعيٌّ، وكل حقٍّ شرعيٍّ لا يُنازعُ فيه إلا مُدْلٍ بباطلٍ، أو متجانفٌ لإثم، أو متورطٌ في هَلَكة؛ فالخلافة لنا لا يُنازعنا إياها إلا مُدلٍ بباطلٍ أو متجانفٌ لإثم... إلخ. فأسقطَ أواسط الكلام كأنه معلومٌ بالضرورة، مفهومٌ من السياق.

(٣) **بالمقارنة بين الخطبتين**: خطبة أبي بكرٍ وخطبة عُمر، تظهر لنا خطبةُ أبي بكر أقوى حُجَّةً، وأشدَّ إقناعًا؛ لما فيها من ترتيب المقدِّمات أولاً، وتجميع الأدلة قبل استصدار الحكم واستخراج النتيجة؛ فيصير الحكم سالمًا واضحًا، مبرَّأً من كل نقص. أما طريقة عمر في الاحتجاج بإيراد كل مقدمة ونتيجتها، فهي على قوتها، أدنى في الإقناع من طريقة أبي بكر، ذلك أنه يظهر الترابط والتكاثف في طريقة أبي بكر، ما يمثِّل نتيجةً هائلةً باتَّةً في نهاية الأمر.

فقام الحُبابُ بن المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال:

خطبة الحُباب وغيره	ما فيها من الحِجاج
«يا معشرَ الأنصار، املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر؛	المخالف يُسقَط في يده، ويحيد عن الموضوع بدعوته إلى صَمِّ الآذان عنه، وهذا (ضعفٌ وانكسارٌ في الجدل). وهي دعوةٌ تشتمل على (مغالطةٍ)[1] من غير شك.
فإنْ أبَوْا عليكم ما سألتموه فاجلُوهم عن هذه البلاد، وتولَّوا عليهم الأمور؛ فأنتم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم؛ فإنه بأسيافكم دانَ لهذا الدين مَنْ دانَ ممن لم يكن يدين،	(تمادٍ في الحَيْدة عن الموضوع)، ودعاءٌ إلى البغي على المخالف، وهذا مما تنكره عقول الصحابة حتى من رهط المخالف نفسه، وتلك (مغالطةٌ)[2] أخرى.
أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيْقُها المرجَّب[3].	ضربٌ للمثل في سياق حُجَّةٍ ضعيفة، لا يُنتِج كبير جدوى في نفوس أمثال هؤلاء من الناس. وهي (دعوى) أيضًا، و(خروجٌ) عن الموضوع.
أمَا والله لئن شئتم لنُعيدنَّها جَذَعة».	(خروجٌ وحَيْدةٌ تامَّة).

(١) فحوى المغالطة هنا كأنه يقول: الخلافة بها منفعة، وكل ما به منفعة يجب التمسُّك به، إذن: الخلافة يجب التمسك بها. وتلك مغالطة؛ لأن المقدِّمة الأولى يُخالَف فيها؛ ذلك أنَّ غاية الخلافة ليست المنفعةَ بل صلاحَ الأمة. وهناك مغالطة أخرى: أنه ليس كل ما به منفعة يجب التمسُّك به؛ لأنه إذا أدى إلى فسادٍ أكبر وجب تركُه؛ فسقطتْ بالمغالطة الحُجَّة.

(٢) فإنَّ الدفاع عن الدين لا يستلزم تحصيل العِوض عليه في الدنيا، بل يُكافئ الله عليه في الآخرة.

(٣) جُذَيْلُها المُحَكَّك: عَنى بالجُذَيْل ههنا الأصل من الشجرة تحتكُّ به الإبل فتشتفي به، أي قد جَرَّبتني الأُمور ولي رأيٌ وعلمٌ يُشتفى بهما ،كما تشتفي هذه الإبل الجَرْبى بهذا الجِذْل، وصَغَّره على جهة المدح. والعُذَيق تصغير عَذْق، وهي النخلةُ بحملها «لسان العرب: عذق»، والمرجَّب: ما يُدعم به. يريد أن يُعوَّل على رأيه كما تُعوِّلُ النَّخلةُ على الرُّجْبة التي عُمِدَتْ بها «لسان العرب: رجب».

فقال عُمر: إذن يقتلك الله	إعجالٌ بالردّ، وإذهابٌ لأثرٍ إن تبقّى من خُطبة الخَصم. وفيه (دَحْضٌ) وإزهاقٌ للفتنة.
قال: بل إيَّاك يقتل	اشتجارٌ في مقام الجَدَل (مما يقع)
فقال أبو عُبيدة: يا معشر الأنصار، إنكم أولُ مَنْ نَصَر وآزر، فلا تكونوا أولَ مَنْ بدَّل وغيَّر	قولةٌ مستغِلَّةٌ ضعفَ خطاب الحُباب، وما به من الوَهَن، وفيها موعظةٌ وخطابٌ للمشاعر محمودٌ في مثل هذا الموضع من الجَدَل.

فقام بشير بن سعدٍ أبو النعمان بن بشير فقال:

يا معشر الأنصار، إنَّا والله لئن كنا أُولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقةٍ في هذا الدين؛ ما أردْنا به إلا رضا ربنا، وطاعة نبيّنا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا؛ فإنَّ الله وليُّ المنة علينا بذلك. ألا إنَّ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قريش، وقومُه أحقُّ به وأولى،	(التزامُ) المحاجِّ بالحُجَّة.
وايمُ الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم	اقتناعُ المخالف و(التزامه) بالحُجَّة، ورجوعُه إلى الحق وتمسُّكُه به بعد ما تبيَّنَ له.

ثم تُحدِّثُنا الروايةُ أنَّ أبا بكرٍ، قال لهم: «هذا عمر، وهذا أبو عُبيدة، فأيّهما شئتم فبايعوا، فبايعه الصحابةُ دون غيره بإقرارٍ من أجمعِهم»(١).

إنَّ الإقناع بالنصِّ في الأدب نابعٌ لا مِنْ جميل لفظه فحسب، بل من قوَّة حُجَّته كذلك، يقول الشيخُ/ عبدُ القاهر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا رأيتَ البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرًا، أو يستجيد نثرًا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ، فيقول: حلوٌ رشيق، وحَسَنٌ أنيق، وعذْبٌ سائغ، وخلوبٌ رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجِع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغويّ، بل إلى أمرٍ يقع من المرء في فؤاده، وفضلٍ يقتدحه العقل من زناده»(٢).

إني لم أشأ التوسُّعَ في مثل هذا الباب من القول، فإنَّ التوسُّعَ فيه ينأى بنا عن المقصود من مجرَّد الإشارة إليه، وإثباتِ وجوده في نثر الصحابة، وجودًا لا يمكننا التغافلُ عنه.

(آثار الجَدَل)

لقد أدرك خصومُ الصحابة ممن وقعوا تحت طائلةِ جَدَلهم ما بلَغَ إليه الصحابةُ من مَبْلغٍ في إيراد الحُجَّة والتفكير البُرهانيّ، حتى لقد قال قائلُهم وهم يُجادلون أهلَ الشرك من الأعاجم(٣)، وهو رستمُ بعد نقاش بعض الصحابة له: «ما كنتُ أظنُّ أني أعيش حتى أسمع منكم هذا معشرَ العرب»(٤).

وقال في موضعٍ آخر وقد أخذ منه الضِّيق كلَّ مأخذ، وقد فَقَدَ صوابه الذي ما كان يُظَنُّ أن يفقِده: «أتاني صوتٌ عند الغداة، وإنما هو عمر الذي يُكلِّمُ الكلاب فيُعلمُهم (العقل)»(٥).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢١.
(٢) أسرار البلاغة، ص٥-٦.
(٣) انظر: ما مضى من الحديث عن «جدل الصحابة» في هذا البحث.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٧٤.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٢.

وقال في المقام نفسِه من الجَدَل، بعد أن حاورَهم فلم يلبثْ أن أفحموه: «أَكَلَ عُمر كبدي أحرقَ الله كَبِدَه! علَّمَ هؤلاء حتى عَلِموا»(١).

نعم، كان عُمرُ رجلًا عادلًا يغيظ أعداء الله الظالمين، وإنما الظلمُ ظُلمُ النفس بإلزامها غيرَ فطرة الله تعالى التي فَطَرَ الناسَ عليها، أما عُمر فلم يكن يفعل، بل كان ينزلُ على الحق حيث كان، وكان قُدْوَةً في هذا الشأن ومُعلِّما؛ أليس هو القائل: لا يبلُغْني أن امرأةً تجاوزتْ بصداقها صداقَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا ارتجعتُ منها. فقامت امرأةٌ فقالت: ما جعل الله ذلك لك يا ابنَ الخطَّاب؛ إن الله تعالى يقول: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء:٢٠]، فقال عُمر عليه رحمةُ الله: «لا تعجبوا من إمامٍ أخطأ، وامرأةٍ أصابتْ؛ ناضَلَتْ إمامَكم فنضَلَتْه»(٢).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٢.

(٢) نثر الدر ٣/ ٣٦، أولًا بمجاوزة صراط الله المستقيم، وقسرِها على غيغي.

الفصل الثالث

الظَّواهِرُ اللُّغَوِيَّة

يتناول هذا البحث من الحديث في الظواهر اللغوية: اللفظة والجملة، ثم الأساليبَ الشائعة في نثر الصحابة، ثم آثار الإسلام في لغة النثر وبنائه، ثم يبحث موضوعًا مهمًّا في النثر لذلك العهد، ألا وهو آثارُ الشفهيَّة والكتابة في اللغة والبناء(١).

[١] اللفظة والجملة

(الألفة والغرابة)

الأصل في لغة الصحابة أنها لغةٌ مألوفةٌ شريفة، لا تنحطُّ إلى الابتذال أبدًا؛ أنَّى، وهم أهلُ اللسان، ومعدِن الفصاحة، وأصحابُ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢). على أنَّهم قد يُغربون في اللفظ أحيانًا، ولا غروَ؛ فإن الغرابة معنى ناشئٌ في نفس المتلقي لا نفس الـمُنشئ من الأساس. والمعوَّل عليه في مقياس الغرابة هم أهل العصر أنفسُهم الذين إذا حكموا على اللفظ بالغرابة فهو حينئذٍ الغريب، وإذا نعتوه بالسَّماحة والسَّيرورة فلسنا في حِلٍّ حينها أن نَصِم صاحبَه بالإغراب والتكلُّف. وليس الأديب مسؤولًا عن جهلنا بلغة قومه، ولكنه مسؤولٌ عن إفهام قومه بلغتهم التي ينطقون بها(٣).

---

(١) عرض البحث لبعض مسائل «البناء» هنا؛ لأنه خلاصةٌ لا يمكن عرضها في مواضع البناء المتفرقة التي سبق عرضُها قبل.

(٢) يقول الجاحظ واصفًا لغة من تقدمه من العرب من الصحابة وغيرهم: «ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح، ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديئًا، ولا قولًا مستكرَهًا. وأكثرُ ما نجد ذلك في خطب المولَّدين، وفي خطب البلديِّين المتكلِّفين، ومن أهل الصنعة المتأدِّبين، وسواءٌ كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتاج التحبير والتفكير»، البيان والتبيين ٢/ ٨-٩.

(٣) ينبغي أن تُوكل غرابة الألفاظ في عصرٍ من العصور إلى أبناء ذلك العصر من الأدباء والعلماء، ليقولوا هم فيها. وليس بمَدخلٍ أن يُقال: إنَّ القدماء كانوا يعرفون اللغة كلَّها؛ فهذا غير صحيح؛ لأنَّ العلماء من القدماء كانوا يستغربون بعضَ الألفاظ، كاستغرابهم بعض ألفاظ الهُذليّين مثلًا، انظر: شعر الهذليين، للدكتور أحمد كمال زكي، ص٣٠٨-٣٢١، وبعض ألفاظِ للبيد بن ربيعة مثلًا، انظر: طبقات فحول الشعراء، للجمحيّ، محمد بن سلام ١/ ١٢٣، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، النشرة الثانية التي ارتضاها المحقق، دار المدني، القاهرة.

ومع هذا فقد صنَّف المتقدِّمون كُتبًا في الغريب: غريبِ القرآن، وغريب الحديث، يبتغون تفسيرَ ما جاء فيهما من بعيد المعاني التي تحملها ألفاظٌ قد يستغربها عامَّةُ معاصريهم، بل بعضُ أهل العلم منهم(١).

وقد تضمَّنت كتبُ غريب الحديث خصوصًا طائفةً حسنةً من غريب كلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، من حيث إن مصطلح (الحديث) منصرفٌ إلى كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلام غيره من الصحابة(٢).

كذلك أتتْ شروحٌ أخرى لغريب كلام الصحابة في ثنايا كتب شروح الحديث كفتح الباري لابن حَجَرٍ، وبعض شروح كتب السيرة كالروض الأُنُف للسُّهيليّ.

وهناك علاقةٌ بين شفويَّة الأدب ـ وأغلبُ نثر الصحابة شفويّ ـ وقلَّةِ الغريب فيه؛ ذلك أنَّ من أغراض الأدب الشفوي أنه يُلقى ليُفهمَ في التوِّ واللحظة، حيث لا سبيل للسَّامع أن يسأل عمَّا غمُض عليه منه، أو أن يؤوبَ إلى مرجعٍ إلا أن يستوقف القائلَ نفسَه ليسألَه، وهذا ما يحرصُ الخطباءُ ومشافهو الناس بالحديث على أن لا يكون.

إنه قد يُقبل من الإغراب في الشعر ما لا يُقبل منه في النثر؛ ذلك أنَّ الوزنَ والقافية قد يُلْجآن الشاعر إليه إلجاءً. أما النثر، وهو السَّعةُ في الكلام، فلا معنى للإغراب فيه إلا على سبيل التكلُّف والتعقيد.

---

(١) من كتب الغريب مثلًا: غريب الحديث، لأبي عُبيدة مَعْمر بن المثنَّى، ت ٢٠٩هـ، وغريب الحديث، لأبي عُبيدٍ القاسم بن سلّام، ت ٢٢٤هـ، وغريب الحديث، لابن قتيبة الدِّينوري، ت٢٧٦هـ، وغريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي، ت ٢٨٥هـ، وغريب الحديث، للخطَّابيّ البُستيّ، ت ٣٧٨هـ، والسَّائر في غريب الحديث، للهَرويّ، ت ٤٠١هـ، والفائق في غريب الحديث، للزمخشريّ، ت ٥٣٨هـ، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين ابن الأثير، ت ٦٣٠هـ، وهناك كتبٌ سواها، انظر: معجم المعاجم، لأحمد الشرقاوي إقبال، ص٢٣-٣٦، دار الغرب الإسلامي، ط٢/ ١٩٩٣م.

(٢) فهم يسمون ما انتهى إلى الصحابة، ولم يرتفع إسنادُه إلى النبي ﷺ؛ بالحديث الموقوف انظر: النكت على نزهة النظر في توضيح نخبة الفِكَر، ص١٥٤، وانظر: مثالًا على إيراد غريب الصحابة في كتب الحديث: غريب الحديث، لابن قُتيبة؛ ففيه إفاضة في ذكر غريب كلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فإذا شئنا سَوْقَ أمثلةٍ على هذا الغريب الذي خرج عن الأصل الثابت في نثر الصحابة، فإنه يأتي على نحوٍ من الألفاظ التالية مثلما وردتْ في كلامهم: مُتَعْتَع(١)، قَرَفَه(٢)، تُفْشَغ(٣)، أُحاح(٤)، كَرَثَه(٥)، سَجِيس(٦)، مألوسة(٧)، الخُضْخُض(٨)، تغَضْغَض(٩)، الحَبَوْكَرى(١٠)، ثُجْلَة، صَعْلَة، وَطَفٌ(١١)، مُـمَّغِط، مُكَلْثَم(١٢)، رَنَقها(١٣)،

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٥، والتَعْتَعَة: أن تُقبل بالرجل وتُدبر به، وتعنُّف عليه في ذلك «لسان العرب: تعع».

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٢، وقرفه بالشيء: رماه به «لسان العرب: قرف».

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٣، والفَشْغُ والانفِشاغُ: اتِّساعُ الشيء وانْتِشارُه «لسان العرب: فشغ».

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٢٥، والأُحاحُ والأَحِيحُ والأَحِيحَةُ: الغيظ والضِّغْنُ وحرارة الغم «لسان العرب: أحح».

(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك٥/ ٦٥، وكَرَثَه الأمرُ: ساءه واشتدَّ عليه وبَلَغَ منه المَشَقَّةَ «لسان العرب: كرث».

(٦) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٠، والسَّجَسُ بالتحريك: مصدرُ قولهم: سَجِسَ الماءُ -بكسر الجيم- يَسْجَسُ سَجَسًا: إذا تغيَّر. وقال ابن السِّكِّيت: ماءٌ سَجِسٌ وسَجيسٌ أي كَدِرٌ. ويقال: لا آتيكَ سَجِيسَ الليالي أي أبدًا. وسجيسُها: آخِرُها «لسان العرب: سجس».

(٧) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٠، والأَلْس: اختلاط العقل؛ عن أبي عُبَيد، يقال: أُلِسَ فهو مألوس. والمألوس: الضعيف العقل «لسان العرب: ألس»، وهذا من فصيح ما تنطق به العامة في لهجتنا المصرية المعاصرة، ولكنهم يُحرّكون لامَه فيقولون: الألَس.

(٨) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٧، ورجل خُضَخُض: يَتَخَضْخَضُ من السِّمَن، وقيل: هو العظيم الجَنْبَين، «لسان العرب: خضض».

(٩) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ١٢٦، والغَضْغَضَةُ: النقص «لسان العرب: غضض».

(١٠) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٤-٢٣٥، والحَبَوْكَرَى: أعظمُ الدَّواهي «لسان العرب: حبكر».

(١١) انظر: الطبقات الكبير ١/ ١٩٧، والثَّجَل: عِظَمُ البَطْن واسترخاؤه، وقيل: هو خروج الخاصرتين «لسان العرب: ثجل»، والأَصْعَلُ: الدَّقيق الرأس والعنق «لسان العرب: صعل»، والوطَفُ: كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول «لسان العرب: وطف».

(١٢) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٣٥٤، والمُمَّغِط: بتشديد الميم الثانية: المتناهي الطول «لسان العرب: مغط»، ووَجْهٌ مُكَلْثَمٌ: مُستديرٌ كثير اللحم «لسان العرب: كلثم».

(١٣) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ١٢٦، والرَّنْق: ترابٌ في الماء من القَذى ونحوه، والرَّنَقُ بالتحريك مصدر قولك رَنِقَ الماءُ: كَدِرَ «لسان العرب: رنق».

كَراكر، صِلاء، صِنَاب، صَلائق[1]، مِدْرَهُنا[2]، خَدَمَتكم[3]، غَمِقة، نَزِهة[4]، الرِّثَّة[5]، أنْغَضْتَهم[6]، الجِراع[7]، سَبَدهم، لَبَدهم[8]،الدَّوابل[9].

وهذه كلُّها ألفاظٌ من اللسان العربيّ، هي غريبةٌ في عصرنا، أو عصورٍ أخرى سلفتْ لاحقةٍ على عصر الصحابة، ولكنها مستعملةٌ في عصرهم غيرُ مستغربة.

(الألفاظ الأعجميَّة)

وقد تأتي الغرابة من أعجميَّة اللفظ، وهذا ـ على كثرة فُتوح الصحابة واختلاطهم بالأعاجم وذوي الألسنة المختلفة ـ قليل، وإن شئتَ، قلتَ: هو نادر، والسببُ أنَّ الصحابةَ لم يكونوا يعدلون بالقرآن ولا بِلُغَتِه شيئًا.

---

(١) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ٢٥٩، والكَراكر: جمع الكِرْكِرَةُ: رَحَى زَوْرِ البعير والناقةِ، وهي إحدى الثَّفِنات الخمس وقيل هو الصَّدْرُ من كل ذي خفٍّ «لسان العرب: كرر». والصِّلاءُ: بالمدِّ والكَسْرِ الشِّواءُ لأَنَّه يُصْلَى بالنَّارِ «لسان العرب: صلا». والصِّناب: الخَرْدَلُ بالزبيب «لسان العرب: صنب». والصلائق جمع صَليقة، وهي الخُبْزة الرقيقة والقطعة المُشْواة من اللحم «لسان العرب: صلق». وهذه الألفاظ مأخوذةٌ من قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني والله قد أرى تعذيرَكم وكراهيتَكم لطعامي، والله لو شئتُ لكنت أطيبه طعامًا، وأرقكم عيشًا؛ إني والله ما أجهل عن كَراكر وأسنمة، وعن صِلاءٍ وصِنابٍ وصلائق؛ ولكني وجدت الله عَزَّ وَجَلَّ عيَّر قومًا بأمر فعلوه فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ (الأحقاف: ٢٠).

(٢) انظر: الطبقات الكبير ٥/ ٤٨، ورجل مِدْرَهُ حَرْبٍ ومِدْرَهُ القوم: هو الدافعُ عنهم «لسان العرب: دره».

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٩٨، وأصل الخَدَمَة سيرٌ غليظٌ كالحلقة يُشدُّ في رُسْغ البعير، ثم يُشَدّ إليها سَرائحُ نَعْلِها «لسان العرب: خدم».

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٦١، والنَّزهة: البعيدة من الرِّيفِ. والغَمِقةُ: القريبة من المياه والخُضَر والنُّزور فإذا كانت كذلك قاربت الأَوْبِيَة والغَمَق في ذلك فساد الريح وحُمومها من كثرة الأنداء فيحصل منها الوَباء «لسان العرب: غمق».

(٥) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٣١، والرِّثَّة: الخَلَق الخَسيسُ البالي من كل شيء «لسان العرب: رثث».

(٦) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٠-٤٩١، وانغضتهم: أهجتهم وحرَّكتَهم «لسان العرب: نغض».

(٧) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٠-٤٩١، والجَرْعةُ والجَرَعةُ والجَرَعُ والأَجْرَعُ والجَرْعاء: الأَرضُ ذاتُ الحُزُونة تُشاكل الرملَ وقيل هي الرملةُ السَّهلة المستوية وقيل هي الدِّعْص لا تُنبِت شيئاً والجَرَعةُ عندهم الرَّملة العَذاة الطَّيِّبةُ المَنْبِتُ التي لا وُعُوثة فيها «لسان العرب: جرع».

(٨) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٦٠٠، والسَّبَدُ: الوَبَر، وقيل: الشعر. والعرب تقول: ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ، أي ما له وبر ولا صوف متلبِّد، يكنى بهما عن الإبل والغنم «لسان العرب: سبد».

(٩) انظر: غريب الحديث، للخطَّابي ٢/ ٥٣٥، والدَّوابل: جمع دَوْبَل، وهو ولد الخنزير والحمار، وإنما خَصَّ الصِّغَار لأن راعيها أوضعُ من راعي الكبار «لسان العرب: دبل».

فمن عزيز ما تكلَّموا به من الكلام العجميِّ، ما جاء في بعض الأخبار من استعمالهم بعض الألفاظ الفارسية، كالذي أورده الطبريُّ في تاريخه قال: كان الترجمان يوم الهرمزان المغيرةَ بن شعبة إلى أن جاء المترجم، وكان المغيرة يفقه شيئًا من الفارسية، فقال عُمر للمغيرة: قل له: مِنْ أيِّ أرضٍ أنت؟ فقال المغيرة: أَزْ كُدَامْ أرضي؟[1] فقال: مِهْرَجَاني. فقال: تكلَّم بحُجَّتك، قال: كلامُ حيٍّ أو ميت؟ قال: بل كلام حيّ، قال: قد آمَنْتَني. قال: خدعتني، إنَّ للمخدوع في الحرب حُكْمَه؛ لا والله لا أؤمِّنك حتى تُسلم، فأيقنَ أنه القتل أو الإسلام، فأسلم، ففرض له على ألفين وأنزله المدينة. وقال للمغيرة: ما أراك بها حاذقًا، ما أحسنَها منكم أحد إلا خَبٌّ[2]، وما خَبٌّ إلا دقّ. إيَّاكم وإيَّاها؛ فإنها تَنْقُض الإعراب، وأقبل زيدٌ فكلَّمه، وأخبر عُمَرَ بقوله، والهرمزانَ بقول عُمر»[3].

وقد سُقتُ هذه القصة لأدلِّل على معرفة الصحابة بلغات مجاوريهم من الأمم، وأنهم كانوا في ذلك على طبقات، منهم العارف المُلِمُّ كالمغيرة بن شعبة، ومنهم الحاذق المترجمُ كزيد ابن ثابت ـ رضي الله عن الجميع ـ.

وثمة أثرٌ خفيفٌ من آثار الفارسية نجدُه في بعض ما كَتَب الصحابةُ، كلفظة الأمان «مطرس» التي لعلهم لَقِنوها من مخالطة الأعاجم في البلاد المفتوحة؛ ثم هي من الكلمات الخطيرة في الحرب لما يترتب عليها من الأمان والعهد، وقد بلغ من خطرها أن اختصَّها عُمر بالذكر في كتابه إلى المسلمين بخانِقين[4]؛ بيد أنه أثَـرٌ لا يصل إلى حدِّ نعته بالظاهرة؛ وهو أثـرٌ عابرٌ لا خطرَ له في أدب الصحابة النثري.

(١) في الفارسية: أز: حرف جر بمعنى: مِنْ انظر: المعجم الذهبي: فارسي – عربي، للتونجي، ص٢٢، وكُدام: بمعنى: أي: المعجم الذهبي، ص٢٣٦، والمعنى: من أي أرضٍ أنت؟ ومهرجاني: نسبة إلى شهر مهر، وهو أحد شهور الخريف، وقد كان يُقام فيه عيد فصل الخريف عندهم، المعجم الذهبي، ص٢٨١، فلعله انتسب إلى بلدة كان يقام فيه هذا العيد أو نحو ذلك.

(٢) الخَبُّ: الخبيث الخدَّاع، «لسان العرب: خبب».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٨٨.

(٤) انظر: المصنف، لعبد الرزّاق ٥/ ٢٢٠-٢٢١.

والقول نفسه يُقال في بعض الألفاظ اليونانيَّة أو الرُّوميَّة الواقعة في شيءٍ من كُتُب الصحابة، كلفظة «اللُّصوت» المكرورة في عهودهم لأهل الشام والروم وقُراها المفتتحة[(١)]. واللِّصْتُ: هو اللِّص والسارق، معرَّبٌ من اليونانية[(٢)]؛ وإنه لأثرٌ نادرٌ لليونانية أن تجدَه في نثر الصحابة. ولعلَّ استعمال الصحابة تلك اللفظة كان لقُرب عرب الشام من أولئك القوم، أو لعله لقُرب مخرجها الصوتي من لفظة اللصوص العربية، ولا يمنع أن تكون الكلمة عربيَّةً أصلًا أُخذتْ، ثمَّ غُيِّر صوتُها الأخيرُ في كلامهم.

ومنها أيضًا كلمة «إصطفلينة»، وهي الجَزَرة، وكلمةُ «إرِّيس» مفرد «أرارِسة»، وهو الفلَّاح الزرَّاع؛ وكلتا الكلمتين بلغة أهل الشام، كذا يقول أصحابُ المعاجم[(٣)]؛ فلعلهما من آثار الروميَّة التي كانت حاضرةً في تلك البقاع لذلك العهد، أو مجاورةً لهم.

ولـمَّا كانتْ أمثالُ هذه الكلمات ممَّا سرى وجرى على ألسنة الناس في ذلك العهد، ولم يكن بها مِنْ ضَررٍ على اللسان العربي؛ استعملها الصحابةُ من غير غضاضة، بل عدُّوها جُزءًا من لسانهم العربيّ، ما دامتْ قد انقادتْ له، وانتسجتْ على منواله. وإنَّ لهم في كتاب الله العظيم، وفي كلامِ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوةً حسنةً؛ إذ فيهما ألفاظٌ تشبه هذه الألفاظ، هي من العربيَّة لا ريب[(٤)].

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٠٩.

(٢) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، ص٦٣٣.

(٣) انظر: لسان العرب: «اصطفل»، و«أرس»، والكلمتان من قول معاوية لملك الروم: ولأنتزعنَّك من المُلك انتزاع الإصطفلينة، ولأردنَّك إرِّيسا من الأرارسة ترعى الدَّوابل.

(٤) ينبغي الحذر الشديد عند الحكم بعدم عربيَّة الكلمة عند ورودها على لسان الفصحاء؛ فقد ثبت في كثيرٍ مما ادُّعي عجميَّتُه من الألفاظ أنه عربيُّ الأرومة فصيح، وإنما التقصير يكون من الباحث في هذا الأمر، انظر: المقدمة التي وضعها الشيخ أحمد شاكر على تحقيقه لكتاب المعرَّب، للجواليقي أبي منصور موهوب بن أحمد ابن محمد بن الخَضِر، ص١٠، دار الكتب المصرية، ط٢/ ١٣٨٩هـ.

ذلك، وألفاظ الصحابة قصيرةُ المبنى، سَلِسَةُ الصدى، لم تطُل الطول الذي يُعضل المخارج، ولم تتباعد التباعدَ الذي تضِجُّ منه الأذن.

إنَّ اعتدال الكلمة دليلٌ على قبولها وفصاحتها، ذلك أن اللذة في الأدب تُستخرج في كثير منها من تناسب الأصوات، وتقاربها، وانتظامها، وسهولتها في النطق؛ في الكلمة الواحدة، ثم في الجملة، ثم في القطعة، ثم في النَّظْم. وإن طول اللفظة الذي يشقُّ على الأعضاء ويُبهر النَّفَسَ؛ عيبٌ يشنأ جودةَ العبارة، ويُخِلُّ بالموسيقى المطلوبةِ فيها. ولسنا نعلم شيئًا من مثل هذا الطول المستكره قد وقع في نثر الصحابة.

وليس طول الألفاظ عائبَها في كل موطن؛ فإنَّ من الألفاظ الطويلة ما هو سهلٌ، حَسَنُ المخارج، مُوَقَّعُ الجَرْس، لا يُلعثم لسانًا، ولا يكُفُّ صوتًا.

وهذا النوع المقبول، بل المستجاد من الطول قد وقع قليلًا في نثر الصحابة. وهم قد سلكوا لتجويد هذه الألفاظ الطويلة مسلكًا حسنًا، اعتمد على تَكرار أصواتٍ بعينها داخل اللفظة، كما في «عُشَيْشِيَة» تصغير (عَشِيَّةٍ) على غير قياس[(١)]، في قول عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي[(٢)]: «حتى جئنا قريبًا من الحاضر عُشَيْشِيَةً مع غروب الشمس»[(٣)]، فلولا التصغير لما طالت اللفظة هذا الطول السَّمْحَ المستملَح.

وكما في تَكرار الراء والجيم في لفظة «رِجْرِجة»[(٤)]؛ والعينِ والصاد في «العُصْعُص»[(٥)]؛ والكافِ والظاء في «كَظِيظة»[(٦)]؛ والباءِ والحاء في «تَبَحْبَحْنا»[(٧)].

---

(١) انظر: لسان العرب: «عشا».

(٢) هو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، أبو محمد، له ولأبيه صحبة. أول مشاهده الحديبية ثم خيبر، وشهد الجابية مع عُمر مات سنة إحدى وسبعين وله إحدى وثمانون سنة، انظر: الإصابة ٤/ ٥٦.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٤.

(٤) الطبقات الكبير ٤/ ٣٦٢.

(٥) الطبقات الكبير ٦/ ٢٠.

(٦) الطبقات الكبير، لابن سعد ٩/ ٦.

(٧) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٤٥.

فمثل هذا التكرار إنما هو تنقُّل بين مخرجين فحسب يتناوبان على توليد صوتين مُعَادَيْن تعوَّد الإنسان أحدَهما قريبًا ثم عاد إليه؛ بخلاف ما لو كان طولُ الكلمة بأصوات مختلفة غير مكررة، إنَّ فيها جُهدًا على الناطق، وهي محتاجةٌ فوق ذلك إلى إحضار الذهن، والحذرِ من إخطاء المخرج أو الانحرافِ عنه.

(الدِّقة في استعمال اللغة)

ومما نراه من سمْتٍ في نثر الصحابة دِقَّتُهم في استعمال اللغة، ووضْعِ الألفاظ في مواضعها، والإتيان للمعنى بالكلمة الدالة عليه من غير تعميمٍ أو تشبيهٍ أو مقاربة، انظر مثلًا إلى نعْت عمر بن الخطاب أطوارَ البعير في قوله: «ألا إني قد سَنَنْتُ الإسلامَ سِنَّ البعير، يبدأ فيكون جَذَعًا، ثم ثَنيًّا، ثم رَباعيًّا، ثم سَديسًا، ثم بازلًا»[1]. وانظر إلى قول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ووطِّنوا أنفسكم على المنازَلة، والمجاوَلة، والمبارَزة، والمناضَلة، والمجالَدة، والمعانَقة، والمكادَمة، والملازَمة»[2]، فهذه درجات القتال، وأنواعه، وأسماءُ كلٍّ؛ تَشي بتمكن صاحبها الشديد من اللغة، ولا غرْوَ؛ فهؤلاء الصحابةُ في الطبقة العُليا ممن نطق باللسان العربيّ.

(طول الجملة وقِصَرها)

ذلك، والأصل في جملة النثر عند الصحابة أنها متوسطةٌ، لا هي طويلةٌ طولًا يستنفر الذِّهنَ للجمع بين مُسندَيْها، ولا هي قصيرةٌ من نحو كلمةٍ أو كلمتين. هذا حُكْمٌ متواترٌ مشهودٌ فيما مرَّ بنا من النثر. وهذا هو المعيار للمحمود من الجمل في الخطابة على الخصوص، وقد وصفها أرسطو بأنها تلك الجمل التي «يسهل النطق بها في نَفَسٍ واحد؛ لأنها لو كانت جِدَّ طويلة، مَلَّها السامع وتخلَّف عن متابعتها، وإذا جاءت جدَّ قصيرةٍ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٩٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١١، وقد مرَّ شرح معاني هذه الألفاظ من قبل في خطب الجهاد، ص٨٤.

فَجَأْته، فجعلته يضيق بها، كأنما تعثَّر في فكره، فوقف دون ما ينتظر»[1]. أما في المكتوب فإن أرسطو يفضل العبارةَ المقسَّمة المتقابلة الأجزاء، على أن يكون كلُّ جزءٍ منها غير طويل، «بحيثُ يُدركُه الطرفُ بنظرةٍ واحدة»[2].

غير أننا قد نُصادِف من جمل الصحابة خروجًا على هذا الحكم الأغلبيّ، يؤكِّده ولا يطعن فيه، أو ينقصُ منه، فرُبَّما تقعُ جملةٌ طويلةٌ أو قصيرةٌ نادرًا في نثرهم.

فمن قصير الجمل قولُ أبي بكر الصِّدِّيق في خطبته بعد البيعة: «أيها الناس، إنما أنا مثلكم ... وإنما أنا متَّبع، ولستُ بمبتدع، فإن استقمتُ فتابعوني، وإن زُغتُ فقوِّموني، الجِدَّ الجِدَّ، والوحا الوحا، والنجاءَ النجاءَ؛ فإنَّ وراءكم طالبًا حثيثًا، أجلًا مَرُّه سريع»[3].

وكان أبو بكرٍ لا يحبُّ إطالةَ الجمل، فلو احتاجَ إلى إطالتها، فإنَّ له معها حيلةً حسَنة يجعلها بها كالقصيرة، فمرَّةً يُقطِّعها حتى تغدوَ جُملًا قِصارًا كقوله: «واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم، فطاعةٌ أتيتموها، وحظٌّ ظفرتم به، وضرائب أدَّيتموها، وسلفٌ قدَّمتموه، من أيامٍ فانيةٍ لأخرى باقية، لحينِ فقركم وحاجتكم»[4].

ومرةً يَقْطع بالاستثناء طولَ جملته حتى يتمهَّل عند موضع الاستثناء الصوتُ، ويقلِّب العقلُ المعنى، كأقواله: «فإن استطعتم أن لا يمضيَ هذا الأجل إلا وأنتم في عملٍ صالحٍ فافعلوا»[5]، «ولا تَغبطوا الأحياءَ إلا بما تغبطون به الأموات»[6]، «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهه»[7].

---

(1) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٩٦.
(2) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص١١٩.
(3) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٤.
(4) تاريخ الرسل والملوك٣/ ٢٢٤.
(5) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٣-٢٢٤.
(6) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٤.
(7) تاريخ الرسل والملوك ١/ ١٢٨.

ومن قصير الجمل قولُ عمر بن الخطاب من كلمتين كلمتين: «أنا زميل محمد في غزوة قرقرة الكُدْر[1]، فوالله إني لأُرْتِع فأُشْبع، وأَسقِي فأروي، وأنـهَز اللَّفُوت، وأَزجُر العَروض، وأذُبُّ قَدْري، وأسوقُ خَطْوي، وأضم العَنود، وألحق القطوف، وأُكْثِر الزَّجر، وأُقِلُّ الضرب، وأَشهَر العصا، وأدفع باليد؛ لولا ذلك لأغدرت»[2].

ومن أقصرها أيضًا قول طلحة بن عُبيد الله من كلمتين غالبًا: «أما بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتْك الأمور، وعجَمَتك البلايا، واحتنكتْك التجارِب. وأنت وشأنَك، وأنت ورأيَك، لا ننبو في يديك، ولا نكِلُّ عليك.

إليك هذا الأمر، فمُرْنا نُطِع، وادْعُنا نُجِب، واحملنا نركب، ووَفِّدْنا نَفِد، وقُدْنا ننقدْ»[3].

أما الجمل الطويلة شيئًا ما، التي هي بين الطول والتوسُّط، فإنَّ من الأمثلة الجيِّدة عليها قولُ عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة الشورى: «... والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء أصاب غيره؛ وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرُهم

---

(١) غزوة قرقرة الكُدر، بعد بدرٍ بشهرين، وتُسمَّى غزوة السَّويق، انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٤٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٢٥-٢٢٦، ومنال الطالب، لابن الأثير٢/ ٣١١، واللفوت: الضجور التي تلتفت إلى حالبها لتعَضَّه، فينهزها بيده لتُدرّ «لسان العرب: لفت». والعَرُوض: بالفتح التي تأخذ يمينًا وشمالًا ولا تلزم المحجة. يقول: أضربه حتى يعود إلى الطريق، جعله مثلًا لحُسن سياسته للأُمة «لسان العرب: عرض». والعنود هو من الإبل: الذي لا يخالطها ولا يزال منفردًا عنها، وأراد: من خرج عن الجماعة أعدتُه إليها وعطفته عليها «لسان العرب: عند». والقَطوف من الدوابّ: البطيء «لسان العرب: قطف». واغدرت: أي: خلَّفتُ الناس وتركتُهم. وفي رواية: «لغَدَّرت»: أي: ألقيتُ الناس في الغَدَر، وهو مكانٌ كثيرُ الحجارة «لسان العرب: غدر». والحديث في حُسْن سياسة عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبعده قال الراوي: فبلغ ذلك معاوية، فقال: كان والله عالمًا برعيتهم.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٤.

شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم، فالناس تَبَعٌ لمن قام بهذا الأمر، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناسَ وكانوا فيه تَبَعًا لهم، ومن أقام بهذا الأمر تَبَعٌ لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضُوا به لهم من مكيدةٍ في حربٍ كانوا فيه تبعًا لهم»(١).

فهذا التوسط في الجمل محمودٌ على كل حال؛ إنه أخفُّ في السمع، وأسرعُ إلى الفهم، وأدنى إلى قلوب عامَّة المُصيخِين.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨١.

[٢] الأساليبُ الشَّائعة

إنَّ الحكم على أسلوب رجلٍ واحد أيسرُ وأصدقُ من الحكم على أسلوب أمَّةٍ من الناس مجتمعين، ذلك أنَّ لكل واحدٍ ما يُميّزه أو ما يختصُّ به، ولذا فإنه من الأنسب النظر إلى عموم الأساليب المتردِّدة عند دراسة نثر طائفةٍ أو جيلٍ من الناس، كالصحابة، مما يمكن أن نصطلح على تسميته بالأسلوب العامّ للعصر، أو الذوق العامِّ في صياغة النثر. ولقد رأى الدكتور شكري فيصل أنَّ «الأوتارَ التي أنشد عليها أصحابُ الآثار النثرية في الصدر الأول هيَ هيَ عند كل واحدٍ منهم، وتوشك أن تكون أساليبهم في استخدام هذه الأوتار قريبةً متشابهة، ولكن تشابهها مع ذلك لا يُخْفي الطابع الشخصي، غير أنَّ القدْر المشترك بينها كثيرًا ما يطغى على هذا العنصر الشخصيِّ ويطويه، ولقد ردَّدتْ هذه الأوتارُ أنغامَهم وأصواتَهم، وكان تشابههم في الموضوعات التي طرقوها ـ وهي كلها مما يتصل بسياسة الحكم وإدارة المجتمع وصلة ما بين الولاة والخلفاء المسلمين ـ كان تشابههم في هذا سببًا في أن تتشابه بعدُ الأصداءُ والأصواتُ التي انبعثت عنهم»(١).

فإذا ما أردنا الكلام على الأساليب الشائعة في نثر الصحابة وجدنا أكبرَها طُرًّا: التَّكرارَ، والاعتراضَ، والشَّرط؛ ثم تليها أساليبُ أخرى أقلُّ شيوعًا، منها: الالتفاتُ، والاستفهامُ، والإغراءُ والتحذيرُ، والتعليلُ والسَّببُ، والقَسَم. وهذا تفصيل القول في كلٍّ منها.

(أ) التَّكرار

أما التكرار فإنه مذهب أثيلٌ من مذاهب العرب عند التحدُّث، ولهم فيه الأفانين، وهو يأتي في الكلام «تأكيدًا له وتشييدًا من أمره، وإنما يُفعل ذلك للدلالة على العناية

---

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، للدكتور شكري فيصل، ص٣٥٤-٣٥٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦م.

بالشيء الذي كرَّرتَ فيه كلامَك؛ إمَّا مبالغةً في مدحه، أو في ذمِّه، أو غير ذلك»[1]. وهو يُفيد أيضًا متانةً في الكلام، وضَمًّا لأجزائه، وردًّ بعضه على بعض، والعنايةَ بالمكرَّر منه[2]. وقد جاء كتابُ الله جَلَّوَعَلَا به في صورٍ شتَّى، منها تكرار ألفاظ، ومنها تكرار جمل، ومنها تكرار معانٍ وقصص. والذي نعنيه من نثر الصحابة هو تكرارُ الألفاظ، أو تكرارُ ألفاظ الجمل بأعيانها.

(تكرار الألفاظ)

فأول ما يلفتُنا من تكرار الألفاظ خصوصًا تكرارُ لفظة (ألا)[3]، وهي تُستعمل عادةً للفصل والتنبيه على أوائل المعاني ورؤوس الفِقَر، كقول عُبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**ألا** إنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البَرُّ والفاجر. **ألا** وإن الآخرة وعدٌ صادق، يقضي فيها ملكٌ قادر. **ألا** وإنكم معروضون على أعمالكم، فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يرَه، ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرًّا يَرَه. **ألا** وإنَّ للدنيا بنين، وللآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ كلَّ أمٍّ يتبعُها بنوها يوم القيامة»[4].

فلو حذفت (ألا) من كلام عُبادة نزلَ الكلامُ جدًّا، وإنْ كان سيكون ذا معنى؛ ولكنه ليس المعنى، ولا المغزى الذي أراده عُبادة.

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، أبي الفتح ضياء الدين بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصليّ ٢/ ١٥٨، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ.

(٢) انظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، للدكتورسعد مصلوح، ص١٥٤، مجلس النشر العلمي، الكويت ٢٠٠٣م.

(٣) انظر: مثلًا تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٣، ٣/ ٢٢٤، ٤/ ٦٥، ٤/ ١٢٣، ٤/ ٢٤٣، ٤/ ٣٤٦، ٥/ ٥٥٤، ٦/ ١٦٦، وفتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٤-٢٧٥، ص٢٧٦، وكتاب الرِّدَّة، المنسوب للواقدي، ص٧١، ص٢٠١.

(٤) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٤-٢٧٥، والطبقات الكبير، لابن سعد ٥/ ٣٢٤، وقد نسبها فيه إلى شدَّاد بن أوس.

وقد يستخدمونها في الترتيب والموالاة مع ما فيها من معنى الفصل والتنبيه أيضًا، كقول عمر: «الا إني قد سننتُ الإسلام سِنَّ البعير، يبدأ فيكون جَذَعًا، ثم ثنيًّا، ثم رباعيًّا، ثم سديسًا، ثم بازلًا! الا فإن الإسلام قد بزل. الا إن قُريشًا يريدون أن يتَّخذوا مالَ الله معوناتٍ دون عِباده، الا فأمَّا وابنُ الخطَّاب حيٌّ فلا...»[1].

فإنك لو حذفت (ألا) من الكلام لما نقصت فيه المعاني ظاهرًا، ولكنها تنقصُ باطنًا عما يبتغيه الخليفةُ من شحذ الأذهان، وإيقاظ العقول عند كل جملة من الجمل، ومعنى من المعاني؛ للذي يحويه الكلام من علمٍ يرى عُمر وجوبَ تبليغه عليه، وحاجة الناس البليغةَ إليه.

وطالما تلتْ (ألا) هذه (إنَّ)[2]، إمَّا بالواو وإمَّا بغيرها، وربما تلتها بالفاء على نُدرة كما مرَّ في كلام عُمر الذي مضى.

أمَّا (إنَّ) المؤكِّدةُ، فهي من المكرور كثيرًا في كلامهم، وهي من معتاد كلام العرب إذا يؤكدون ما يتلوها من المعانى. وإنَّا لسنا بحاجة إلى استقراء المواضع التي أتى فيها هذا الحرف من نثر الصحابة؛ فهو لا يخرج بحالٍ عن معنى التوكيد الذي يضفيه على ما بعده مما يتعلق به من الكَلِم.

ثم تأتي مكرَّرات ذواتُ مغزًى في نثر الصحابة، لا نقول إنها تُضيف إلى المعنى الذي تكون فيه، بل هي المعنى نفسُه الذي رغب الصحابي إليه، وفيما يلي من الأمثلة ما يكشف عن هذا القصد.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٩٦-٣٩٧.

(٢) انظر: لأمثلة هذا في القرآن الكريم مثلًا: دراسات لأسلوب القرآن، لمحمد عبد الخالق عضيمة، القسم الأول ١/ ٢١٩، دار الحديث، القاهرة.

فالصحابة قد يُعيدون تثبيتًا للمُعاد في النفس، وإعلانًا عن القصد إليه، وإرادته دون سواه، حتى لا يكون ثَمَّ مدخلٌ لُمريب، أو ثغرةٌ لمتحيِّن، كقول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أراد أن يبثَّهم نيَّتَه بتولية معقل بن سنان على الحرب دون غيره، فكرَّر اسمَ «مَعْقِل» خمس مرات في كتابٍ له قصيرٍ إلى ابن عباس: «أما بعد، فابعث من قِبلك رجلًا صليبًا... فليتبعْ مَعْقِلًا، فإذا مرَّ ببلاد البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلًا، فإذا لقي معقلًا، فمعقلٌ أميرُ الفريقين، ولْيسمع من معقلٍ ولْيُطعه»[1].

وقد كان عليٌّ يكفيه الإشارة إلى «معقلٍ» بالضمير في أربعةٍ من خمسة هذه المواضع، ولكنه آثر الإظهار حتى لا يترك حُجَّةً لمحتجٍّ على ترك الأمر باختلاف جهة الضمائر، فأظهره، وكرَّره قطعًا للشك باليقين، وللريبة بالبرهان المبين. وهذا التكرار من عليٍّ يُفيد ثقةً في شخص مَعْقلٍ كذلك.

ومن الإعادة المقصودة الحَسَنة تكرار كلمة «لكيما» في كتاب عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل مصر، وهو يتحدث عن فضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأمة، في قوله: «فعلَّمهم الكتابَ والحكمةَ والفرائضَ والسُّنة **لكيما** يهتدوا، وجمَعَهم **لكيما** لا يتفرَّقوا، وزكَّاهم **لكيما** يتطَّهروا، ورفَّهم **لكيما** لا يجوروا»[2].

فتعمُّدُ عليٍّ إعادة كلمة «لكيما» بألفاظها في كل مرة دون زيادة أو نقصان؛ مقصودٌ؛ ليؤكِّد أن كل شيءٍ كان يفعله الرسول صلوات الله عليه كان لحكمة، وأن كل شيء كان ببيان من الله وهدًى، وأنه صلوات ربي وسلامه عليه على الحق، وأنه كان يُريد بهذه الأمة خيرًا؛ فما زال يكرّر «لكيما» ليُوقد معناها في النفوس، فهي فارقةٌ بين حالين: عملٍ بذله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم، وأثَرِ تركه عليهم. ولما أن كان هذا بُغيتَه من التكرار لم يُغيِّر

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢١.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٨.

«لكيما» مع النفي في قوليْه: «لكيما لا يتفرّقوا»، و«لكيما لا يجوروا»؛ وكان المعتاد أن يقول «لكيلا»، فلم يفعل لئلا يضيع منه ما أراده من المعنى، حتى لو آلَ به ذلك إلى نادرٍ من الصياغة في الجُمَل.

ومن مستجاد تكرار الألفاظ قول أبي مسعودٍ عُقبة بنِ عَمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يخطب خطبته العظيمة في السلام ودَرْء الفتنة بين المسلمين، فيكرر «هؤلاء وهؤلاء» كأدلِّ ما يكون التكرارُ وأنفعِه؛ فيقول: «... وما نعُدُّه فتحًا أن يلتقي **هؤلاء وهؤلاء، وهؤلاء وهؤلاء**، حتى إذا لم يبقَ إلا رِجْرِجةٌ من **هؤلاء وهؤلاء**؛ ظهرت إحدى الطائفتين غدًا على الأخرى»[1].

وكأنه بإشارته إلى الفريقين المقتتلين بذات اللفظة الواحدة، يُسوِّي في المزيَّة والدرجة بينهما، ويَسِمُهما بمعنى الوَحدة في الحق والفضل، وينزِع من المسلمين معنى العصبية والشقاق والفُرقة؛ إذ كيف يقتل المرءُ نفسَه؟! أو يعتدي بنفسِهِ على نفسه؟!

ومن التَّكرار المفيد ما قد تُمليه اللغةُ فيستجيبُ لها الفصيح، ذلك أنَّ اللغةَ قد يَلِدُ بعضُها بعضًا، وقد يقودُ بعضُها إلى بعض، وهو ما قد يدخل فيما يُسمِّيه بعضُ أهل البلاغة بـ(التَّعانُق)[2]؛ من نحو تكرار ثابت بن قيس خطيب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفظةَ «نحن» في قوله: «ثم كان أولَ الخلق استجابةً لله حين دعاه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **نحنُ، فنحنُ** أنصارُ رسول الله»[3].

---

(١) الطبقات الكبير ٤/ ٣٦٢.

(٢) التعانُق: اقتباسُ أوائل اللاحق من أواخر السابق، ويُسمَّى أيضًا: تشابُه الأطراف، انظر: البلاغة العربية: أُسُسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ٢/ ٥٢٦، دار القلم، دمشق، ط١/ ١٤١٦هـ.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١١٦.

فكأنَّ ثابتًا وهو يخبر عن أنفسهم بكلمة «نحن» كرَّرها مرةً أخرى في مقام المدح كأنما يمدح «نحن» لذاتها، لا يمدح ما تدل عليه من المعنى، فهي إذ أتتْ في مقام الاستجابة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلٌ للمدح، أو كأنما أحسَّ فرحًا إذ أمدَّته اللغة بها في ساعةٍ كان أحوجَ ما يكون إليها، فلا معبِّر عما يعتلجُ في نفسه في تلك اللحظة مثلُها.

ومن نحوه قول عمر بن الخطاب وقد أراد الاختصار المشوبَ بالطرافة، فكرر لفظة «عَمْرو» في كتابٍ له إلى النعمان بن بشير: «وسلْ طُليحة وعَمرًا وعَمرًا، ولا تُولِّهم شيئًا»[1]. وهو يعني عمرَو بن ثُبَيّ، وعمرو بن معد يكرب، فلما كانا معروفَيْن منحصرَيْن لم يذكر اسميْ أبويْهما حتى لا يُضيع من كتابه مزيَّة التكرار المثيرةِ هذه. وهو تكرارٌ داعيه الاختصار، على عكس ما قد يُفهم من معنى التكرار في الأصل؛ إذ التكرارُ زيادةٌ لا اختصارَ فيه، وهذا نوعٌ من الطرافة أيضًا.

ومن إرادة التملُّح والالتذاذ لِذاته تكرارُ كلمة (حَسَكَة) في قول عُمر بن الخطاب لَّما سُئل عن ميراثه وقد هلك: «ورِّثْ أمَّ حَسَكَة من ابن حَسَكَة مع ابنها حَسَكَة»[2]، ولا يبعد أن يكون هذا من مآل اللغة بعضها إلى بعض.

وقد يأتي تكرار اللفظ ابتغاءَ المدح كقول سُليمان بن صُرَد للأمير عبد الله بن يزيد: «فنِعْمَ ـ والله ـ الوالي، ونِعْمَ الأمير، ونِعْمَ أخو العشيرة أنت»[3].

أو ابتغاء التوكيد وإظهار التوكُّل في تكرار لفظ «الله» عَزَّ وَجَلَّ من قول عُمر: «فإذا أتاك كتابي هذا فَسِرْ بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله»[4].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٧.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، ص٥١٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٩٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١١٥.

وقد كان يكفيه الضميرُ عن ذكر المُظْهَر، خلا أنه آثر المظهَر لينبِّه على أنْ لا شيء إلا بأمره، وأنْ لا حول ولا قوة ولا نصر إلا به.

ومنه ابتغاء التوثيق والأَمَنَة كمثل ما يكتبون في بعض العهود: «وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله، وذِمَّةُ رسوله، وذِمَّةُ الخلفاء، وذِمَّةُ المؤمنين»[1].

ومن التَّكرار ما يعزم صاحبُه به على إلزام القوم بالمعنى، فلا يَقبل منهم سواه، كلفظة «الحق» في أول كتابٍ بعث به عثمان إلى عمال الخراج، فقال فيه: «أما بعدُ، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خُذوا الحق، وأعطوا الحقَّ به»[2].

وكتكرار شدَّاد بن أوسٍ «الحقَّ» أيضًا في مغلاق موعظةٍ له، لكي يُنبِّهَ على أنَّ الحقَّ هو الغايةُ والجزاءُ والمنتهى، فلا يَقبل الله تعالى سواه، ولا يجزي إلا به، ولا يُكافئ إلا عليه: «فاعملوا بالحق، تنـزلوا منازلَ أهل الحق، يوم لا يُقضى إلا بالحق»[3].

(تكرار الجُمل)

أما تكرار الجمل فهو عندهم أقل من تكرار الألفاظ، وهذا لا بأس به؛ فإنَّ تكرار العبارات ذات الألفاظ المتعاقبة يشي بمنزعٍ شِعْريّ، وبمقصدٍ إلى تعمُّد إنشاء القوالب التي يدور عليها النص، أو التي تكون مرتكزًا ينتهي عنده النصُّ أو ينطلق منه، وهذا غير واردٍ كثيرًا في نثر أولئك القوم، الذي هو نثرٌ عقليٌّ لا عاطفيٌّ في كثرة نصوصه الغالبة، وإن لم تكن تغيب عنه الحالة الشعورية كما سبقت الإشارةُ من قبل.

وهذا التكرار للجمل في نثر الصحابة فيما ورد فيه قد أتى لغايات، منها التعبير عن الملل من طول المدة، ثم التعبير عن الشوق إلى لقاء الله تعالى، كما في نحو قول معاوية:

---

(١) انظر: كتاب عمر لأهل إيلياء في: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦٠٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٥.

(٣) تاريخ دمشق ٢٢/ ١٣.

«وقد طالت إمرتي عليكم حتى مللتموني، وتمنيتُ فراقَكم، وتمنيتم فراقي. وإنه لا يأتيكم بعدي خيرٌ مني كما أنَّ من كان قبلي كان خيرًا مني. وقد قيل: مَنْ أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه؛ اللهم إني قد أحببتُ لقاءك فأحِبَّ لقائي»[1]. وهو تكرارٌ قائمٌ لإحداث معنى المشاكلة، فكأنَّ كلَّ صنيعٍ يَحدثُ له صدًى من صنيعٍ آخر أو جزاءٍ آخر مشابهٍ له، إمَّا أنَّه قد وقع فعلًا، أو متمنًّى وقوعُه.

ومن غايات التكرار عندهم إظهار الأسى والحسرة في مثل تكرار جملة: «إنا لله وإنا إليه راجعون» من قول عليٍّ لأهل الكوفة: «المغرور من غررتموه... لا أحرار عند النداء، ولا إخوان ثقةٍ عند النجاء؛ إنا لله وإنا إليه راجعون. ماذا مُنِيتُ بكم؟ عُمْيٌ لا تُبصرون، وبُكْمٌ لا تنطقون، وصُمٌّ لا تسمعون؛ إنا لله وإنا إليه راجعون»[2]. وكأنه يرتاحُ بعد كل ملامةٍ إلى هذه الجملة التي هي في الأصل آيةٌ من كتاب الله جل وعلا، كأنه يجد فيها عزاءه.

ومن غاياته إظهار التخشُّع والطاعة والانكسار بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، كما في الجملة المتكررة الواردة في قول عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم إنه لو اعلم انه ارضى لك عنّي ان أرميَ بنفسي من هذا الجبلِ فأتردَّى فأَسْقُط، فعلت. ولو اعلم انه ارضى لك عنّي ان أُوقد نارًا عظيمةً فأقعَ فيها، فعلت. اللهم لو اعلمُ انه ارضى لك عنّي ان أُلقيَ نفسي في الماء فأُغرِقَ نفسي، فعلت. فإني لا أُقاتل إلا اريدُ وجهَك، وأنا أرجو أن لا تخيِّبَني وأنا اريدُ وجهَك»[3]. إنه تكرارُ الإخبات والتسليم والانقيادِ لله ربِّ العالمين، فكأنه وهو في كل مرةٍ يُكرر هذه الجمل، يؤكد تلك المعاني، ويطلبُ بها رضا الله تعالى عنه.

---

(١) تاريخ دمشق ٥٩/ ٢١٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٣٤.

(٣) الطبقات الكبير ٣/ ٢٣٨.

(ب) الاعتِرَاض:

قالوا: الاعتراض أن يَعترض بين الكلام وتمامِه كلام[1]، فجعلوه نوعًا من الحشو أو الزيادة. وليس على إطلاقه؛ فإن من الاعتراض ما يكون جزءًا من المعنى يأتي ليكمِّل نقصَه، ويسدَّ ثَلَمَه، ويُوفِّيَه ويُتمِّمَه، فإن سقطَ الاعتراضُ غدا المعنى مختلًّا أو مفتقِرًا إلى تتميم الاعتراض له. ولذا قال ابنُ حِجَّة في (خزانة الأدب): إن «الاعتراض هو عبارة عن جملةٍ تعترض بين الكلامين، تُفيد زيادةً في معنى غرض المتكلم، ومنهم مَنْ سمَّاه الحشو... والفرق بينهما ظاهر، وهو أنَّ الاعتراض يُفيد زيادةً في غرض المتكلم والناظم، والحشوُ إنما يأتي لإقامة الوزن لا غير»[2].

والذي نعنيه من الاعتراض في نثر الصحابة هو ذاك الاعتراض المجُدي المفيد ـ وهو الثابت في كلامهم ـ لا الاعتراض الزائد الساقط المتكلَّف الذي وجوده كعدمه، وحاشاهم.

فمن هذا أنهم قد يعترضون لتقريع المخاطب والاستخفاف به، كقول معاوية عن عثمان: «فإنكم قد علمتم ـ إن كنتم تعلمون ـ أنَّ دمَه لم يكن يحِلُّ لكم»[3]، فإن هذا الاعتراض لو حُذف نقص المعنى، ولو أُخِّر فَقَدَ المعنى بهاءه. وقد يُقال إن في مثل اعتراض معاوية هذا محاولةَ تأثيرٍ على المخاطب لحمله على الإقرار والتسليم لما سيأتي بعده من الكَلِم.

وقد يعترضون للتسفيه والاستخفاف والإنكار، كقول معاوية أيضًا في شأن قومٍ مخالِفين: «ويأتون الناسَ ـ زعموا ـ من قِبل القرآن، فيُشبِّهون على الناس»[4].

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس، أحمد بن فارس زكريا الرازي، ص٢٤٥ تحقيق الدكتور عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط١/ ١٤١٤هـ.

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حِجَّة الحموي، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله ٢/ ٢٨٠، شرح عصام شعيتو، دار الهلال، بيروت،، ط١/ ١٩٧٨م.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٥٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٢٥.

أو يعترضون للتحذير، كقول العباس مخاطبًا الأنصارَ في العَقَبة: «فإن كنتم أهلَ قوة وجَلَدٍ وبَصَرٍ بالحرب، واستقلالٍ بعداوة العرب قاطبةً ـ فإنها سترميكم عن قوسٍ واحدةٍ ـ فارتؤوا رأيكم»(١).

ومن التحذير قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وإذا كانت بين القبائل نائرةٌ، وتداعَوْا: يا لَ فُلان يالَ فُلان ـ فإنما تلك نجوى الشيطان ـ فاضربهم بالسيف حتى يَفيؤوا»(٢).

أو يعترضون للتزهيد، كقول سعد بن أبي وقاص في القادسية: «فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة، جمع الله لكم الدنيا والآخرة ـ ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله ـ وإن تفشلوا وتهنوا وتضعفوا، تذهبْ ريحُكم»(٣).

إنَّ هذا النوع من الاعتراض مقصودٌ به إقرارُ حقيقةٍ غائبةٍ عن النفوس تلك الساعة، للذي تلقاه النفوسُ فيها من الخوف والكُرْبة، وما يُداخلُها من وساوس الشيطان وسوء الظن؛ فتنشغل عن مثل هذا المعنى الذي أحْسَنَ سعدٌ إذ أدخله في الكلام في هذا الموطن.

ومن الاعتراض الذي جاء في حاقِّ موضعه قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ماذا تنتظرون بصبركم، والجهاد على حقكم؟! الموتُ والذلُّ لكم في هذه الدنيا على غير الحق، فوالله لئن جاء الموت ـ ولَياتينَّ ـ ليفرقنَّ بيني وبينكم»(٤).

إنها الحقيقة الكبرى الراسخة في النفوس، الموت، وإن أنكرتْها؛ فإنها لا تُنكرها قلوبُها، وإن كرهتْها، فإنها تعلم أنها آتيةٌ لا محالة.

---

(١) الطبقات الكبير ٤/ ٧.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٢٩٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٧.

ومثلُه -وفيه زيادة التهويل والتخويف- قولُ عُتبة بن غَزْوان: «وقد ذُكر لي: لو أن صخرةً أُلقيتْ من شفير جهنم هوتْ سبعين خريفًا ـ ولَتمْلأُنَّه ـ أوَعجبتم؟!»[1].

وهنالك اعتراضٌ من الصحابة للتوثيق والتثبيت، كالذي جاء في كتاب القضية بين عليٍّ ومعاوية: «فما وجد الحَكَمان في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ـ **وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاصي القرشي** ـ عملا به»[2]، فالاعتراض هنا ـ بذكر اسميْ الرجلين المعروفين ـ زاد في التوكيد والإعلام، وأشْعَرَ بهيبة الكتاب وخطره وكبير ما جاء فيه.

ومن أغراض الاعتراض عندهم الاحتراس، كقول ابن الزبير في مقتل الحُسين بن عليّ: «فرأى والله أنه هو وأصحابه قليلٌ في كثير ـ **وإن كان الله عَزَّوَجَلَّ لم يُطْلع على الغيب أحدًا سواه** ـ أنه مقتول»[3]؛ ومنه قول عمر وهو يُخبر سعدًا عن أهل فارس: «أنك تقدَم على أمة عددهم كثير... وعلى بلد منيع ـ **وإن كان سهلًا** ـ كَؤُودٍ لبحوره وفيوضه ودآدئه»[4].

ومن أغراضه الثناء، كاعتراض عثمان كتابَه إلى أهل الموسم كثيرًا بنعت قول الله عَزَّوَجَلَّ بأنه الحق، وهو قوله في كتابه ستَّ مرات: «فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول ـ **وقولُه الحق** ـ ...»[5]، كأنه يجد في كلام الله عَزَّوَجَلَّ العزاءَ عما هو فيه من الضيق والتكذيب والكرب.

ومن عاديِّ الاعتراض عندهم الاعتراضُ من أجل الدعاء، من نحو دعاء أبي عُبيدة لعُمر ابن الخطاب في قوله: «أخبرك يا أمير المؤمنين ـ **أصلحك الله** ـ أنَّا قدمنا بلادَ

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٢.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٣.
(٣) جمهرة خطب العرب ٢/ ١٦٨.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٠-٤٩١.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٨.

حمص»[1]؛ وقول عبد الله بن عمر في كتاب شفاعة إلى يزيد: « فإن رأيت ـ رحمنا الله وإياك ـ أن تكتب إلى ابن زياد فتأمرَه...»[2]. أو من أجل النداء كقول أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُنبِّههم في خطبته وهو يعظهم، فيذكّرهم بعبوديَّتهم لربهم: اعتبروا ـ عبادَ الله ـ بمن مات منكم»[3]، أو كنداء عمر يعظهم أيضًا فيناديهم بمثل ذلك: «فاذكروا ـ عبادَ الله ـ بلاءَ الله عندكم...»[4]. أو من أجل القَسَم، كقول سُليمان بن صُرَد: «اجْثُوا على الرُّكَب ـ والله ـ ومدُّوا الأعناق...»[5]، أو كقول أبي سفيان بن حرب: «وقد ـ والله ـ أصبحتم بإزاء عدوٍّ كثيرٍ عددُهم...»[6].

فكل ما مضى إنها هو اعتراضاتٌ قِصار، ولكنَّ الاعتراض قد يطول في نثر الصحابة طولًا غير متوقَّع، وهذا نادر[7]، وخير مثالٍ عليه قول عمر بن الخطاب في كتابه إلى سعد بن أبي وقاص: «وإذا انتهيت إلى القادسية ـ **والقادسية بابُ فارس في الجاهلية، وهي أجمعُ تلك الأبواب لمادَّتهم، ولما يريدونه من تلك الآصُل، وهو منزلٌ رغيبٌ خصيبٌ حصينٌ دونه قناطر، وأنهارٌ ممتنعة** ـ فتكون مسالحُك[8] على أنقابها...»[9].

---

(1) فتوح الشام، للأزدي، ص١٤٦-١٤٧.
(2) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٧١.
(3) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٤.
(4) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٦-٢١٨.
(5) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٥/ ٥٥٤.
(6) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٢٠.
(7) يرى الدكتور حسين نصار أن الاعتراض الطويل يندر أن يُرى مثلُه في الأسلوب العربي الخالص، وإنما نراه في الأساليب الفارسية واليونانية، انظر: نشأة الكتابة الفنية، ص١٢٢، واعتراض عُمر في كتابه إلى سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا من هذا النادر.
(8) المَسْلَحة: قوم في عُدَّة بموضع رَصَدٍ قد وُكِّلوا به بإزاء ثَغْر، والجمع: المَسالح، «لسان العرب: سلح».
(9) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٠.

فالاعتراضُ الطويل المفصَّل هذا يريد عُمر لسعدٍ به أن يعيَ خطر القادسية، وكبيرَ منزلتها، وعظيمَ ما هو مقبلٌ عليه، ويريد أن يُوحيَ إليه بأنه قطع استرسالَ كلامه ليُخبرَه بهذا الخبر المهمّ.

(جـ) الشَّرط:

تشيع جملةُ الشرط في جملةٍ واسعةٍ من أدب الصحابة النثريّ، والشرط يمتاز بأنه أسلوب تراتُبيٌّ ينبني فيه شيءٌ على شيء، بمعنى أن نتيجته وهي جواب الشرط أو جزاؤه حادثةٌ لمقدمةٍ هي جملة الشرط الأولى[1]؛ فيكون حينئذٍ أدعى إلى التصديق به، وأذهبَ بالعقل إلى الفَهم؛ لما فيه من التجزئة والانتقال من طورٍ إلى طور.

ولعل من أشهر جمل الشرط في كتب الصحابة تلك الجملة الأثيرة عندهم: «فإذا قرأتَ كتابي هذا ـ أو فإذا أتاك كتابي هذا ـ فافعل كذا وكذا»[2].

وتحضر جملةُ الشرط في الوصايا ولا سيما وصايا الموت حضورًا كبيرًا، كهذه الجمل السبع من وصية الفاروق عُمر لابنه عبد الله: «يا بُني، إذا حضرتني الوفاة فاحرِفْني... فإذا قُبضْتُ فأغمضني، واقصدوا في دفني؛ فإنه إن لم يكن لي عند الله خيرٌ وسَّعَ لي فيها مَدَّ بصري، وإن كنت على غير ذلك ضيَّقها عليَّ... وإذا خرجتم بي فأسرعوا المشي؛ فإنه إن لم يكن لي عند الله خيرٌ قدمتموني إلى ما هو خير، وإن كنتُ على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شرًّا تحملونه»[3].

---

(١) قال ابن يعيش: «واعلم أن كل واحدٍ من الشرط والجزاء جملةٌ فعليةٌ تامّة، فلما دخل عليهما حرفُ الشرط ربطهما، وجعلهما كجملةٍ واحدةٍ في افتقار كل واحدةٍ من الجملتين إلى الأخرى، كافتقار المبتدأ إلى الخبر، فالجملة الأولى التي هي شرطٌ، بمنزلة المبتدأ، والجملة الثانية التي هي جزاءٌ، بمنزلة الخبر»، شرح المفصَّل، لابن يعيش، أبي البقاء، يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا ٣/ ١٥١، تحقيق أحمد السيد أحمد، وإسماعيل عبد الجواد عبد الغني، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

(٢) انظر مثلًا: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١١٤، ٤/ ٣٢٦، ٤/ ٤٧٦، وفتوح الشام، للأزديّ، ص١٢٧، وكتاب الردّة، للواقدي، ص١٩٨.

(٣) الطبقات الكبير ٣/ ٣٣٣.

إن هاته الوصيةَ تكربُ أن تقوم على أسلوب الشرط، وهذا مفيدٌ في مقام الحيطة والحذر والتنبيه، وفي مقام التسليم لأمر الله، والانصياع له، والرضا بقضائه، والخوفِ من الآخرة، وعلى ذلك ينقسم الشرط عند عُمر إلى طورين: جملة الشرط؛ وعاقبتها أو جزائها. فهو في خطابه إلى ولده يتنقل من طورٍ متحقق إلى طورٍ متحقق. أما في إخباره عن مصيره عند لقاء ربه فإنه يكرر الشرط مرتين: مرةً بالرجاء، ومرةً بالخوف.

ولعل من أشهر النصوص الوارد فيها الشرط، خطبةَ أبي بكر الشهيرة من بعد الغد من متوفَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وفيها هذه الجمل: «فإن استقمتُ فتابعوني، وإن زُغْتُ فقوِّموني... ألا وإن لي شيطانًا يعتريني، فإذا غضبتُ فاجتنبوني... ألا إنكم تغدون وتروحون في أجل... فإن استطعتم أن لا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عملٍ صالحٍ، فافعلوا»[1].

لقد استعمل أبو بكر الشرط ليعبِّر عما في نفسه من سلوك مذهب الورع والحيطة والحذر، وقد أفاده الشرط في تصوير معاني نفسه أيما إفادة. على أن جملة الشرط الأولى قد تطول قبل الجزاء طولًا لا بأس به، كقول عمر بن الخطاب من خطبةٍ له: «ومن يتَّبع السُّنَّة وينتهِ إلى الشرائع، ويلزم السبيلَ النهجَ ابتغاء ما عند الله لأهل الطاعة؛ أصاب أمره وظَفِرَ بحظِّه»[2].

إنَّ تعليق الشرط على جزائه تعليقًا طويلًا كهذا يبعث الشوق في النفوس التوَّاقة إلى تبصُّر العاقبة، ويجعل تلك العاقبةَ أشدَّ رسوخًا فيها.

ومن طول جملة الشرط الأولى في الرسائل كذلك قولُ عمر بن الخطاب فيما كتب به إلى جيش سعدٍ بالقادسية: «فإنْ لاعَبَ أحدٌ منكم أحدًا من العجم بأمان أو قَرَفَه بإشارةٍ أو بلسانٍ، فكان لا يدري الأعجميُّ ما كلَّمه به وكان عندهم أمانًا؛ فأجروا له ذلك مجرى الأمان»[3].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٣-٢٢٤.
(٢) أي: تراهنتم وتراهنوا، «لسان العرب: خطر».
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٢.

وطول جملة الشرط هنا آتٍ من تعمُّد التفصيل من لدن عمر، وهو تفصيلٌ يوحي بكبير ورع الخليفة، وبَعيد خوفه من عاقبة الغدر الذميمة، ومن حرصه على الدماء وكل ما يتعلق بها.

(د) التعليل والسبب:

إن كان في بعض الشرط شيءٌ من التعليل، ذلك أن جزاء الشرط كثيرًا ما يأتي سببًا لجملته؛ فإنَّه من مناسبة القول الحديثُ عن التعليل والسبب بعد الحديث عن الشرط في هذا الموضع.

فيُقال ابتداءً إن التعليل من دَيْدَن الصحابة في الوصايا خاصّة، وقد يقع في غير الوصايا كقول النعمان بن مقرِّنٍ في خطبته: «وقد تَرَوْن من أنتم بإزائه من عدوِّكم، وما أخطرتم، وما أخطروا لكم[1]؛ فأما ما أخطروا لكم فهذه الرِّثَّة[2] وما تَرَون من هذا السواد، وأما ما أخطرتم لهم فدينكم وبَيْضتكم. ولا سواءٌ ما أخطرتم وما أخطروا؛ **فلا يكونُنَّ على دُنياهم أحمى منكم على دينكم**. واتقى الله عبدٌ صدقَ الله، وأبلى نفسَه فأحسَنَ البلاء؛ **فإنكم بين خيرين منتظرين**: إحدى الحُسنَيَيْن، من بين شهيد حي مرزوق، أو فتحٍ قريب وظفر يسير؛ **فكفى كلُّ رجلٍ ما يليه**، ولم يَكِلْ قِرْنَه إلى أخيه؛ **فيجتمع عليه قِرنُه وقِرنُ نفسه**، وذلك من الملأمة»[3].

فكل الجمل المستفتحة بالفاء ليست إلا أسبابًا لما قبلها من الجُمل، ما بين خيرٍ يحثُّهم الخطيب عليه ويرغِّبهم إليه، أو شرٍّ يُحذِّرهم منه أو يبغِّضهم فيه. وقد عملتْ الفاءُ عملًا لا بأس به في أداء مقصود الخطيب، والوصلِ بين الجمل.

---

(١) الإخطار هنا بمعنى الرهان، مأخوذة من الخطَر، وهو السبق الذي يُترامى عليه في التراهن «لسان العرب: خطر».

(٢) الرِّثَّة: الخَلَق الخَسيسُ البالي من كل شيء «لسان العرب: رثث».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٣١.

أما التعليل في الوصايا فهو كثير؛ ذلك أن الوصية قائمةٌ على الأمر والنهي، والإغراءِ والتحذير، فإن جاءت بأسبابها كانت أكملَ في النصح، وأدعى إلى التقبُّل. وكذا كان شأنُ الصحابة، عدولًا يخاطبون العقل، رحماءَ لا يقسِرون أحدًا على عمل.

وقد ينحو أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى مثل فاء النعمان بن مُقرِّن، فيجعلها صلةً بين التعليل والطلب، إذ يكررها في وصيته لعمرو بن العاص مرتين للمطلوب نفسه قائلًا له: «اتقِ الله في السر والعلن؛ فإنَّه من يتقِ الله يجعلْ له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب... فإنَّ تقوى الله خيرُ ما تواصى به عباد الله»[1].

وهذه الفاء أصلٌ في تعليل الطلب في وصايا الصحابة، استخدمها الفاروقُ في وصيةٍ من وصاياه لسعد بن أبي وقاص[2]، واستخدمها معاويةُ في وصية لعَمرو بن العاص قبل مسيره لفتح مصر[3]، ولقد أكثر منها إكثارًا وهو يوصي ابنه يزيد، من نحو أقواله في هذه الجُمَل: «يا يزيد، اتقِ الله؛ فقد وطأت لك الأمر... وأوطئهم فُرُشَك وقرِّبْهم؛ فإنَّه يُعلم حقَّك. ولا تُهنهم وتستخفَّ بحقهم؛ فيُهينوك ويستخفون بحقك... وإياك والاستبداد برأيك؛ فإنَّ الرأي ليس في صدر واحد... لا تدع لهم فيك مقالًا؛ فإنَّ الناس سِراعٌ إلى الشر... وشرِّف أهل الشام؛ فإنهم أنصارُك وحُماتُك وجُندُك... واكتُب إلى أهل الأمصار بكتابٍ تعدهم منك المعروف؛ فإنَّ ذلك يبسط آمالَهم. ووفِّد عليهم من الكُوَر كلها، فأحسن إليهم وأكرمْهم؛ فإنهم لَمِنْ وراءهم، ولا تسمعنَّ قول قارفٍ ولا ماجلٍ؛ فإني رأيتهم وزراءَ سوء»[4].

---

(١) جمهرة خطب العرب ١/ ١٨٨.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٣.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٠.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٢٩.

لكأنَّ معاوية وهو يوصي يفترض بعد كل وصية أن ابنه يسأله: لِمَ؟ فيشرع في إجابته إجابةً شافيةً يبدؤها بفاء السبب.

(هـ) الاستفهام:

انتفع الصحابةُ بالاستفهام في نثرهم في الخطب خاصَّةً، والعلَّةُ في شيوعه فيها ما في الخُطَب من مواجهة الجماهير، ومحاولة التأثير فيهم بالطرق الشتَّى، التي من أنجعها الأسئلة.

وأسئلةُ الصحابة عادةً غيرُ مقصودةٍ لذاتها، بل مقصود بها أغراضٌ أخرى سوى الاستفهام.

من أعظم هذه الأغراض الوعظ، ولعل أفضل ما يُستشهد به في ذلك تلك السؤالات الثمانية بـ(أين) المستوليةُ على إحدى خطب أبي بكرٍ الصدِّيق العظيمة، وهي سؤالاتٌ تعجُّبيةٌ تستدرُّ الدموعَ الجامدة، وترقِّق القلوبَ الغليظة، وتُعيد الإنسانَ إلى حقيقته الأولى، التي لا مفرَّ له منها. وقد جاءت تلك الأسئلةُ على هذا النحو من الخطبة: **«اعتبروا -عبادَ الله- بمن مات منكم، وتفكَّروا فيمن كان قبلكم: أين كانوا أمس؟! وأين هم اليوم؟! أين الجبَّارون؟! وأين الذين كان لهم ذِكْر القتال والغلَبَة في مواطن الحروب؟! ... وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟! ... أين الوضاء الحسنة وجوهُهم المعجبون بشبابهم؟! أين الذين بنَوْا المدائن وحصَّنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب؟! ... أين مَنْ تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟!»**(1).

إنها أسئلةٌ معروفةُ الإجابة، أجاب أبو بكرٍ عن بعضها وترك بعضًا. وهم كانوا يعرفون الإجابة: لقد فَنُوا، وفنيَت آثارُهم، وهذا ما يريد أبو بكرٍ للنفوس المصيخة إليه أن تستلهمه، ويرسَخَ في قرارها سؤالًا بعد سؤال.

---

(1) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٤-٢٢٥.

إنَّ تلك الأسئلة ليست تعجبيةً فحسب، إنها أسئلةٌ تقريريَّةٌ كذلك.

وبـ(أين) أيضًا يستحثُّ عُمر القومَ إلى الجهاد في سبيل الله، ويُغريهم بما عند الله من الأجر؛ فيسَّاءل ليحبِّبهم إلى النفير: «أين الطُّرَّاءُ المهاجرون عن موعود الله؟! ... أين عبادُ الله الصالحون؟!»(١).

وقد يُستجلَب السؤال للتبكيت والإيلام، كقول عليٍّ مقرِّعًا أهل الكوفة، مسائلًا إياهم كثيرًا بأسئلةٍ بلغت في بعض الروايات ثمانية: «**أيَّ دارٍ بعد داركم تمنعون؟! ومع أيِّ إمامٍ بعدي تُقاتلون؟! ... ما بالكم؟! ما دواؤكم؟! ما طِبُّكم؟!** القومُ رجالٌ أمثالُكم؛ **أقولًا بغير علم؟! وغفلةً من غير ورع؟! وطمعًا في غير حق؟!**»(٢).

والجواب: لا دارٌ، ولا أحد... وهو جوابٌ أقربُ الطرق إلى استخلاصه من نفوس العصاة الخاذلين، مثلُ هذه الأسئلة التعجُّبية الأَسِيَّة، أو قل: الأسيَّة المتهكِّمة.

وقد يرد السؤال في نثر الصحابة للاستعطاف والتَّحنان والتذكير بالفضل في الساعة الحاسمة، كالأسئلة التي سألها الحُسين بن عليٍّ لقاتليه قبل مقتله، عساهم يرعَوون، فقال في خطبته لهم: «ألستُ ابنَ بنت نبيِّكم ﷺ وابنَ وصيِّه وابنَ عمِّه وأولِ المؤمنين؟! ... أوَليس جعفر الشهيدُ الطيَّار ذو الجناحين عمِّي؟! أوَلم يبلغكم قولٌ مستفيضٌ فيكم أنَّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي: «هذان سيِّدا شباب أهل الجنة»؟! ... أفما في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي؟! ... فإن كنتم في شكٍّ من هذا القول؛ أفتشكُّون أثرًا ما أني ابن بنت نبيكم؟! ... أخبروني: أتطلبون بقتيل منكم قتلتُه، أو مالٍ لكم استهلكتُه، أو بقصاصٍ من جراحة؟!»(٣).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٤٥.

(٢) جمهرة خطب العرب ١/ ٤٢٦، وانظر: البيان والتبيين ٢/ ٥٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٢٤-٤٢٥.

إنَّ حُسينًا يُقلِّب الأسئلة لهم لعلَّهم أن تَلين قلوبُهم، فيؤوبوا إلى رَشَد، فتارةً يسألهم بالهمزة وليس، وتارةً يسألهم بالهمزة وما، وتارةً يسألهم بالهمزة والفعل؛ يفعل ذلك ليستحثَّ نخوتَهم من كل وجهٍ؛ بالإثبات وبالنفي.

(و) الإغراء والتحذير:

لما كان الإغراء والتحذير من أساليب الطلب، وكان النثرُ قائمًا في جملته على تحقيق منفعةٍ مكتسبة بطلب الفعل والحثِّ على إتيانه، أو طلب الكفِّ والتخويف من إتيانه؛ كان هذان الأسلوبان أثيريْن في نثر الصحابة.

فأمَّا الأغراء فقد كان بتكرار اللفظ غالبًا، كتكرار علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلمة «اللهَ الله في كذا»، في وصيته التي مات بعدها إحدى عشرة مرةً[1]. وهو تكرار بليغ موجز في مقام التذكير بالله عَزَّوَجَلَّ عند الموت.

ومنه قولُ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبته: «الجدَّ الجدَّ، والوَحَا الوَحَا، والنجاء النجاء»[2]؛ وقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه إلى سعد بن أبي وقاص: «فالصبرَ الصبرَ... والحذرَ الحذرَ»[3].

وفي كتاب آخر: «والعجلَ العجلَ» وفي آخر: «والوفاءَ الوفاءَ»[4].

وفي كتابه إلى أبي موسى، كتابِ القضاء: «الفهمَ الفهمَ»[5].

لقد كان عمر بن الخطاب مولعًا بأسلوب الإغراء في كتابته يُعيده ويُردِّدُه؛ وهو أكثر الصحابة فيما رأينا استعمالًا له.

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٤٧-١٤٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٢.

(٥) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٢٧.

وأما التحذير فقد كان بطريقة «إيَّا» غالبًا، كقول عُمير بن حَبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبنائه: «إيَّاكم ومخالطةَ السفهاء»[1]، وقول معاوية لابنه: «وإيَّاك وجفوةَ أهل الشرف»[2]. وقول عُمر في بعض وصايا الحرب: «وإيَّاكم والضحكَ». وقد يزيد عُمرُ في التحذير فيكرر اللفظ بضميرين كقوله: «وإيَّاكم وإيَّايَ ورميَ المحصنات»[3].

وربَّما حذَّروا بغيرها كقول المغيرة بن شُعبة: «... فنظَرَ قومٌ لأنفسهم قبل الندم، فقد قُمْتُ هذا المقام إرادةَ الحُجَّة والإعذار»[4]. أي: فلينظر قومٌ إلى أنفسهم قبل الندم؛ فإني أحذِّرهم مغبَّة أن لا يفعلوا، وهو من استعمال الماضي بمعنى الأمر.

(ز) القَسَم:

لم يكن أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقسمون في نثرهم بغير الله عَزَّ وَجَلَّ[5]، وكان ديدنهم الذهاب إلى لفظ المقسم به (الله) عَزَّ وَجَلَّ، من غير فعل قسم فيما وجدناه لديهم من القول، فيقولون: «والله»، وقد يقولون: «وايمُ الله».

وكم مرةٍ جعلوا القسم في مقام الاعتراض تقويةً وتوكيدًا، كقول معاذ بن جبل: «يا قُرَّاء القرآن... إن رحمة الله ـ والله ـ لا تُنالُ، وجَنَّتَه لا تُدخَل بالأمانيّ»[6]، وقولِه في تأبين أبي عُبيدة: «قد فُجعتم برجلٍ ـ والله ـ ما أزعم أني رأيتُ منكم عبدًا من عباد الله قطُّ أقل غمرًا، ولا أبرَّ صدرًا... منه»[7].

---

(١) السنن الكبرى، للبيهقي ١٠/ ٩٥.

(٢) الطبقات الكبير ٦/ ٢٩.

(٣) الطبقات الكبير ٦/ ٢٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٥/ ١٨٤.

(٥) أما في الشعر فإنهم كانوا يتَّبعون سُنَّة العرب في بعض القَسَم، انظر: المراثي النبوية في أشعار الصحابة ص٣٦٥.

(٦) فتوح الشام، للأزديّ، ص٢١٨.

(٧) فتوح الشام، للأزديّ، ص٢٦٨.

وكقول العباس بن عبد المطلب ليلةَ العَقَبة: «ومحمدٌ من أعزِّ الناس في عشيرته، يمنعه ـ والله ـ مَنْ كان منا على قوله»[1].

وقد يأتي القَسَم عاديًّا في دَرَج القول، كقول سُليمان بن صُرَد: «ومن كان إنما يريد الدنيا وحرْثَها، فوالله ما نأتي فيئًا نستفيئُه... ما خلا رضوان الله رب العالمين»[2]؛ وقول عبد الله بن رواحة في مُؤْتة: «يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون للّتي خرجتم تطلبون: الشهادة»[3].

أما قولهم «وايم الله» فهو كقول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وايمُ الله لآخذنَّ بالعفو»[4]، وقول المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وايمُ الله لقد خشيتُ أن لا أجد بُدًّا من أن يُعصَب الحكيمُ التقيُّ بذنب السفيه الجاهل»[5].

ولما كان القَسَمُ من أساليب الإقناع والتأثير في النفس كان في خطابتهم أشيعَ، وبها ألصق، وربما كرَّروه في جملةٍ من القول واحدة، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «أيها القوم، إني ـ والله ـ لقد أرى تعذيرَكم وكراهيتكم لطعامي، وإني ـ والله ـ لو شئتُ لكنتُ أطيبَكم طعامًا، وأرفغكم عيشًا، أما ـ والله ـ ما أجهل عن كَراكر وأسنمة...»[6].

ولا يقتصر الأمر في الخطابة على قَسَمٍ واحدٍ، أو قَسَمٍ واحدٍ مكرَّرٍ في جمل متوالية؛ وإنما رأينا رجلًا كعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقسم بلفظةِ قَسَمٍ واحدةٍ ثلاث مرّاتٍ متتابعات، وذلك في قوله: «واللهِ، واللهِ، واللهِ، لا يبلغني عن أحدٍ منكم حَدَثٌ أحدَثَه إلا سيَّرتُه»[7]؛ فهذا من نادر القسم.

---

(١) الطبقات الكبير، لابن سعد ٤/ ٧.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٨٥.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٣٧٥.

(٤) جمهرة خطب العرب ١/ ٢٧٢.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٨٤.

(٦) الطبقات الكبير ٣/ ٢٥٩، والكَراكر: جمع الكِرْكِرَةُ: رَحَى زَوْرِ البعير والناقةِ، وهي إحدى الثَّفِنات الخمس وقيل هو الصَّدْرُ من كل ذي خفٍّ «لسان العرب: كرر».

(٧) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٩٩.

(حـ) الالتِفَات:

أنزل المتقدِّمون الالتفات منزلًا مقدَّمًا، فمدحوه، وأشادوا به، وجعلوه من آي البلاغة، ومواطن الإحسان في القول. قال ابن الأثير: «وهذا النوع خلاصةُ علم البيان التي حولها يُدندن، وإليها تستند البلاغة... ويُسمَّى أيضًا: شجاعة العربية؛ وإنما سُمِّي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام؛ وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيرُه، ويتورَّد ما لا يتورَّدُه سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام»[(١)].

والالتفات إجمالًا: انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك[(٢)].

فمن الالتفات في نثر الصحابة قولُ عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي وهو يقصُّ خبر إحدى السَّرَايا: «ثم شددتُ في ناحية العسكر وكبَّرت، وشدَّ صاحبايَ وكبَّرا، فوالله ما كان إلا النَّجاء ممن كان فيه عندك بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم...»[(٣)]، فإنَّ قوله «عندَك» التفاتٌ من ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطب، قصد به أن يُقرِّب المخاطَب بل أن يشركه فيما كان من الأحداث في القصة، وكأن المخاطب كان واقفًا شاهدًا عليهم معه وهم يُلملمون أمتعتَهم عساهم أن ينجوا بها. هذا في الدلالة، أمَّا في نفس المتلقي فإنَّ مثلَ هذا الأسلوبِ يُحدث مفاجأةً توقظ العقل، وتنبُّهه على تغيُّر مجرى الكلام، وانتقاله من جهةٍ إلى أخرى.

---

(١) المثل السائر ٢/ ٤.

(٢) انظر: البديع، لعبد الله بن المعتز، ص٥٨، اعتنى بنشره وتعليق المقدّمة والفهارس إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٢هـ.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٥.

ومنه قول خالد بن الوليد فيما كتبه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما بعدُ يا رسولَ الله، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب... وإني قدمتُ إليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثةَ أيّام كما امرني رسولُ الله... وأنا مقيمٌ بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه... حتى يكتب إليّ رسولُ الله. والسلام عليك يا رسول الله»[1].

فهذا انتقالٌ من الخطاب إلى الغَيْبَة، ثم من الغَيْبة إلى الخطاب تأدُّبًا أن يتوجَّه إلى مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضمير المخاطب كثيرًا، وفي ضمير المخاطب ما فيه من لمح التسوية والإشعار بالندِّيَّة، فابتغى خالدٌ أن يُعظِّم هذا المقام تعظيمًا، فقلَّب الضمائر، والتفتَ عن أن يقع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كلامه إلّا الموقعَ الذي يُحبُّه ويليق به.

ومن هذا النحو -نحوِ التعظيم والإجلال- التفاتةُ أبي عُبيدة عن توجيه الخِطاب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خيفةَ أن يُفهم منه صيغةُ الأمر في قوله: «أما بعد، فإن الله ذا المنِّ... فتح على المسلمين من أرضٍ، فرأتْ طائفةٌ من المسلمين أن يُقرُّوا أهلَها على أن يؤدُّوا الجزية... ورأتْ طائفةٌ منهم أن يقتسموهم، فليكتب إلينا أميرُ المؤمنين برأيه في ذلك، أدام الله لك التوفيق في جميع الأمور»[2]. ولو كتب أبو عُبيدة: «فلتكتب إلينا يا أمير المؤمنين» لقصَّر، وما كان لأبي عُبيدة أن يفعل وأبو عبيدة أبو عبيدة، وتأمَّلْ قولَه بعدها: «أدام الله لك التوفيق»، تَرَ كيف أنَّ عُبيدة تعمَّد الالتفاتَ تعمُّدًا، وقصَد إليه قصدًا.

ومن الالتفات ما يُقصَدُ به توثيقُ المعنى ومَزِيدُ توكيده، ككتاب خالدٍ في إمارة أبي بكرٍ عهدًا لبني حنيفة فيه: «هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مُجَّاعة بن مرارة وسلمة بن

(١) مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٦٥-١٦٦.

(٢) جمهرة رسائل العرب ١/ ١٥٦.

عمير وفلانًا وفلانًا؛ قاضاهم على الصفراء والبيضاء، ونصف السبي، والحلقة والكراع، وحائطٍ من كل قرية ومزرعة؛ على ان يُسلموا. ثم انتم امنون بأمان الله، ولكم ذمة خالد ابن الوليد، وذمة أبي بكر خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذمة المسلمين على الوفاء»[1].

فانتقل من الغَيْبة في الإخبار عن العهد، إلى الخطاب بالإخبار عن الأمان، كأنهُ يزيد من طُمأنينتهم بضمانه أمانَهم بلسانه هو الماثلِ أمامَهم. وكأنه يُخبر المسلمين جميعًا: مَنْ حضَرَ منهم ومَنْ غاب؛ أنَّ أولئك القومَ في أمانه وذِمَّته.

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٩٨-٢٩٩.

[٣] آثار الإسلام في اللغة والبناء

إنه من حشو الكلام أن نقول: إن الإسلام قد أثَّر في نثر الصحابة. بل الحقُّ أن نقول: إنَّ طائفةً من فنون نثر الصحابة لم تـرَ النورَ إلا بالإسلام أصلًا، وإنَّ طائفةً أخرى ما كان لها أن تنموَ أو تزدهر إلا بهذا الدين الفاتح الجديد.

خذ الكتابة مثلًا، ذلك الفنُّ الذي وضع الإسلامُ أصولَه، وفرَّعَ فروعَه، وأقامَه على عموديٍّ من الفنِّ متين؛ وخذ الخطابةَ أيضًا تـرَ كيف زادتْ أغراضُها، وانتشرتْ ألوانُها، وكان الإسلامُ سببًا في تغيُّر منهاجها، وإصلاحِ قصدها، وتهذيبِ حواشيها ومتونها، وكانت في دولة الإسلام كالظِّل الذي لايُفارق صاحبَه حيثما حلَّ أو ارتحل.

وليس قصدُنا أن نتتبَّع كل فضيلة للإسلام في نثر الصحابة؛ فإنَّ هذا من حقه أن تُقام له دراسةٌ كاملة، بل دراساتٌ مختلفةٌ تستقصي وتجمع، وتستقرئ وتُرتِّب، ثم تُصدر أحكامًا عامَّةً شاملة، وأخرى دقيقةً مفصَّلةً ممثِّلة.

أما غايتُنا هنا فهي الوقوف على بعض أوجه استلهام الصحابة للإسلام في نثرهم، وذكْر صُوَرٍ من استمدادهم منه. وسوف نقسم الحديث في هذا الأمر قسمين: قسمٍ لكلام الله تعالى، وقسمٍ للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(آثار القرآن الكريم)

أمَّا القرآنُ فكان جُلُّ تأثُّرهم الظاهرُ به في الاقتباس منه(١)، ما بين اقتباسٍ لبعض آيةٍ إلى اقتباسٍ طويل ممتدٍّ قد يشملُ كتابًا بأجمعه.

---

(١) لا نريد هنا -كما سبقت الإشارة- استقصاءً عن روح الإسلام وما تركه من الهداية التامَّة في حياة الصحابة وأدبهم، فإنَّ هذا مما لا يقوم به هذا الموضع، ومما لا يمكن استيعابه في مثل هذا النوع من الدراسة، بل يحتاج إلى بحثٍ كاملٍ مستقلّ.

فمن الاقتباس القليل مثلًا ما ورد في كتاب أبي بكر إلى خالد بن الوليد: «واتقِ الله في أمرك، فـ» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]. جِدَّ في أمر الله ولا تنِيَنَّ...»[1]؛ وما وردَ في خطبةٍ لعمر بن الخطاب: «واعلموا أن بعضَ الشُّحِّ شُعبةٌ من النفاق، فـ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦]»[2].

وقد يزيدون إلى بضع آيات متواليات من سور مختلفات من غير تنبيهٍ ولا فصل، كالذي كتب معاذ بن جبل وهو يرثي أبا عُبيدة: «كنتَ والله -ما علمتُ- من ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٥]، ومن ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]، ومن ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٤]، ومن ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]»[3].

فهو يُثني عليه بآيات الله ثناءً ينطق بما في نفسه، بل بأحسنَ وأبلغَ منه.

وقد يزيدون على هذا القدر إلى آيات كثيرةٍ، من مثل ما جمع عثمان بن عفان من الآيات في كتابه الطويل إلى أهل الموسم، ذلك الكتاب الذي طال طولًا لا عهدَ للصحابة به من قبل، وكانت تلك الآيات سببًا أصيلًا من أسباب طوله الشديد؛ فقد بلغ مجموعَ ما حشَدَه في هذا الكتاب أربعةً وعشرين موضعًا من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا[4].

بل إنَّ من الصحابة مَنْ قد يكتب كتابًا قُرآنيًّا كلَّه أو يكاد، كذلك الكتاب الفريد الذي أرسله أبو عبيدة جوابًا عن كتاب لعُمر: «سلام الله عليك، أما بعد، فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٦٣.

(٢) جمهرة خطب العرب ١/ ٢١٤.

(٣) فتوح الشام، للأزديّ، ص٢٦٨.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٧-٤٠٩.

قال: ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٠-٢١]»[١].

ولما كانوا يستعينون بآيات القرآن كثيرًا على نحوٍ مما مرَّ، فقد كان لهم في إيرادهم الآيات في كلامهمُ الطُّرقَ المختلفة، فتارةً يذكرون أنها من كلام الله جلَّ وعلا نصًّا، وتارةً لا ينصُّون؛ وهذا ما اصطلح علماء البلاغة على تسميته بعد ذلك بـ(الاقتباس)، وهو مخصوصٌ بكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وحديث رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[٢].

فإذا هم نصُّوا عليها فإنَّ لهم عباراتٍ يوردونها قبل الاستشهاد بكلام الله تعالى، منها أن يقولوا: «قال الله»[٣]، أو يقولوا: «قال الله عَزَّوَجَلَّ»[٤]، أو يقولوا: «فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتعالى قال»[٥]. وقد يزيدون في العبارة فيقولون: «قال الله عزَّ مِنْ قائلٍ»[٦]. أو يقولون: «فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول وقوله الحق»[٧]، أو نحو ذلك من العبارة المقدِّمة للآية.

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١/ ١٨١-١٨٢.

(٢) الاقتباس: أن يُضمَّن الكلامُ شيئًا من القرآن والحديث لا على أنه منه، بغية الإيضاح ٤/ ١١٤-١١٥. والاقتباس مما يدخل في المصطلح النقدي الحديث: «التناصّ»، وهو يعني عندهم: عملية تَرحالٍ للنصوص، وتداخل نصٍّ في فضاء نصٍّ معيّن، انظر: علم النصّ، لجوليا كريسطوِيفا، ص٢١، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب ١٩٩٧م.

(٣) من خطبةٍ للحسن بن علي، انظرها في: الطبقات الكبير ٦/ ٣٨٠.

(٤) من خطبةٍ لسعد بن أبي وقاص، انظرها: في تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٦.

(٥) من كتاب لعمر بن الخطاب، انظره في: جمهرة رسائل العرب ١/ ١٨١-١٨٢.

(٦) من خطبةٍ لعلي بن أبي طالب، انظرها في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦-١٧.

(٧) من كتاب عثمان الطويل، انظره في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٠٨.

وأمَّا إذا لم ينصُّوا، فإنَّ لهم في إدراج الآية من غير تنبيهٍ على ورودها الطُرُقَ اللطيفة، والمذهبَ الجميلَ المستحسَن.

فتارةً يُدرجون الآية في دَرَج الكلام كأنها منه، وهي ـ لشُهرتها ـ معروفٌ أنها من كتاب الله سبحانه وتعالى، فكأنه قد استُعيض بهذا عن التنبيه عليها، كما في قول أبي بكر في بعض كتبه: «فابعث إليهم جُنْدًا، فأوطئهم، و ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال:٧٥]»(١).

وتارةً يجمعون بين آيتين من سورتين مختلفتين، لمناسبةٍ بينهما، أو لاشتراك لفظ، كقول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فتوجَّهوا من فَوْرِكم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين، الذين نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم، ﴿وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:١٨٧]، فـ«﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢]»(٢)؛ فهاتان آيتان من سورتين مختلفتين هما آل عِمران والبقرة على الترتيب، ناسب بينهما بلفظ الشراء، فجمع بينهما في اتِّصال واحدٍ لا فصلَ فيه، ولا تنبيه(٣).

تلك الطريقة ليست بجديدة على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد صنعها مرةً أخرى في كتابٍ له، حيث مزج آيتين من سورتين في جملةٍ واحدة في قوله: «وكانوا كالذين «**حسبوا ان لا تكون فتنةٌ فعَمُوا وصمُّوا**»، فـ«**اسمع بهم وابصر**» يوم تُخبر أعمالهم»(٤)؛ فكأنه يتحدث بألفاظ القرآن العظيم وآياته، وهذا لاشكَّ مما يُنير النص، ويُزيِّنُ الكلم، ويزيدُ في بهجته وبهائه، ويغري عمومَ الناس بالإقبال عليه، والإنصاتِ إليه، والتقبُّل لما جاء فيه.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣١٣.

(٢) جمهرة خطب العرب ١/ ٤١٨.

(٣) هذا سوى ما في الخطبة من ألفاظٍ قرآنيةٍ أخرى تُشير إلى آياتٍ أخرى من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، كقوله: «من فوركم هذا» إشارةً إلى قول الله سبحانه: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ (آل عمران:١٢٥)، وقوله: «نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم» إشارةً إلى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (آل عمران:١٨٧).

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١١٧.

وتلك طريقةٌ لا يُحسِنُها كلُّ أحدٍ إلا أن يكون عليمًا بكتاب الله جَلَّوَعَلَا، وكيف يُؤتى إليه؛ وإلّا لوقع صاحبها في نقيصة التكلُّف، ولَرُميَ بالاجتلاب والعِيّ.

أما الصحابةُ فكانوا في هذا المذهب من أهدى الناس سبيلًا، وكانت لأبي بكر منهم على الخصوص طريقتُه في سَلْك آيات كتاب الله تعالى في كلامه ـ إذا لم يتقدَّمها بألفاظ القول ـ سَلْكًا لطيفًا عجيبًا. ولعلي أن أقتصر على مثالٍ واحدٍ من كتابٍ لأبي بكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للدلالة على هذا القول، هو كتابه إلى خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فمن مسالك أبي بكرٍ لإدراج آيةٍ في هذا الكتاب أنه قد يُقدِّم بعض الآية على بعضٍ كأنها الكلام من كلامه، ثم يلتزم بسياق الآية جميعًا، فإذا سمعها السامع ظنها من كلام أبي بكرٍ المسترسلِ المتتابع، حتى إذا أيقن أنها قولُ الله اهتزَّ وفرِح، ولقي في نفسه قَبولًا، لِمَا علِمَ أنَّ ما يُتلى على قلبه الحق. فقد قدَّم أبو بكرٍ كلمة «الله» من الآية الكريمة: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [النور:٥٥]، ثم قرأ الآية بتمامها على هذا النحو من الرسالة: «أما بعد... فإن الله الذي لا إله إلا هو وَعَدَ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]، وعْدًا لا خُلْفَ له، ومقالًا لا ريبَ فيه...»[1].

هل رأيت إليه كيف أعاد كلمةَ الوعد مرةً أخرى بالمصدر كأنَّ الكلام واحدٌ، وكأنَّ الجملةَ طويلةٌ متَّصلةٌ لا انقطاع فيها، وكأن كلام الله الذي أورده أبو بكرٍ جزءٌ لا ينفصم من الجملة، لا جملةٌ قائمةٌ بذاتها، مع أنها قد قوَّتْ الكلامَ وزادتْ رونقه وبهاءه وماءَه.

---

(١) جمهرة رسائل العرب ١/ ١١٩ـ١٢٠.

وفي الكتاب نفسه سلك أبو بكرٍ حِيلةً أخرى ليُدخل كلام الله عَزَّوَجَلَّ في كلامه، هي حِيلةُ الاعتراض بين جزأين من جزأي الآية بكلامٍ من كلامه، وذلك قولُه: «انفروا -رحمكم الله في سبيل الله- ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٤١]».

ومن أعاجيب هذا المذهب كتابٌ لعلي بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نسَجَه كلَّه بآياتٍ من كتاب الله جل وعلا، من سبعة مواضع منه، وكان نسجُه متينًا مُحْكَمًا لا تُحِسُّ فيه نَكْثًا ولا ضعفًا؛ يقول فيه: «أما بعد، فقد بلغني كتابُك، وفهمت ما ذكرت من أمر الناجي وإخوان ﴿ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [محمد:١٦]، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [النمل:٢٤]، ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل:٤]، ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٤]، ووصفتَ ما بلغَ بك وبهم الأمر... فأبشر بثواب الله خير من الدنيا التي يقتُل الجُهَّالُ أنفسَهم عليها؛ فإنَّ ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٦]. وأما عدوكم الذين لقيتموهم فحسبهم بخروجهم من الهدى إلى الضلال... ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢]، ودعهم: ﴿ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٥]، فتسمع وتبصر كأنك بهم عما قليل بين أسيرٍ وقتيل...»(1).

فمثلُ هذا الكتاب الذي هو التحدُّثُ بالقرآن إنما هو -لا ريب- نوعٌ من الصَّنعة القديمة البارعة.

إنَّ مثل هذا الإدراجات من غير نصٍّ على أنَّ المنقولَ من كتاب الله جَلَّوَعَلَا؛ لَيُمَكِّنُهم من التصرف في أوائل الآيات بحذف بعض حروف الآية، أو استبدالها، أو الزيادة عليها، أو غير ذلك من التصرفات التي يقتضيها النَّظْم؛ وهو تصرُّف جائزٌ إذ ذاك لا يُسيغُ لأحدٍ

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٢١-١٢٢.

ملامةً عليهم ما داموا لم ينصُّوا على أنها من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فقد أبدل عليٌّ اللام في كلمة «لبئس» من الآية فجعلها فاءً في قوله: «فتوجَّهوا من فَوْرِكم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين، الذين نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم،﴿ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ [آل عمران:١٨٧]، ﴿وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٢]»[(١)]، وأصلُ الآية: «لَبِئْسَ».

ومن هذا حذف الفاء وإبدالها واوًا في قول أبي بكر: «فابعث إليهم جُنْدًا، فأوطئهم، و«﴿ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ ﴾ [الأنفال: ٥٧]»[(٢)]. وأصلُ الآية: «فَشَرِّد». ومثل هذا الإبدال ما ورد في خطبة لعُمر: «واعلموا أن بعضَ الشُّح شُعبةٌ من النفاق، فـ« ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [التغابن:١]»[(٣)]، فأصل الآية: «وأنفِقُوا».

ومن حذف الواو وإبدالها بـ«مِن» صنيعةُ معاذٍ في أوائل كل آية من الآيات الواردة في قوله يرثي أبا عُبيدة: «كنت والله -ما علمتُ- من ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٣٥]، ومن ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان:٦٣]، ومن ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ [الفرقان:٦٤]، ومن ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان:٦٧]»[(٤)]، وأصل الآيات: «والذاكرين»، «والذين يمشون»، «والذين يَبيتون»، «والذين إذا أنفقوا».

ومن الزيادة ما جاء في كتاب أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى خالد: «واتقِ الله في أمرك، فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]»[(٥)]؛ فقد زاد فاءً في أول الآية، وإنما هي من غير فاء.

---

(١) جمهرة خطب العرب ١/ ٤١٨.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣١٣.
(٣) جمهرة خطب العرب ١/ ٢١٤.
(٤) فتوح الشام، للأزدي، ص ٢٦٨.
(٥) تاريخ الرسل والملوك٣/ ٢٦٣.

وهذا الإدراجُ لكلام الله عَزَّوَجَلَّ في كلامهم من غير إشارة، إنما هو لاطمئنانهم إلى أنَّ القوم يُميِّزون كلامَ الله سبحانه من كلام البشر، وأنهم حالَ يستمعونه سيعرفونه؛ فصنعوا ما صنعوا من غير نصٍّ عليه لئلّا يقعوا في حبائل التحريف أو الخطأ.

على أن الصحابة لم يكونوا يقتبسون من القرآن ألفاظَه فحسب، بل إنهم قد يُضاهئون أساليبَ آياته، كقول عمر بن الخطاب: «ففرحتُ قليلًا، وحزنتُ طويلًا»[1] على نمط: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة:٨٢]، وقول أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فأقِرُّوا لنا بإعطاء الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون»[2]، نقلها من قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩]، وقول سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وأصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ، وفلانٌ وفلان، ورجالٌ من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم»[3]، أخذها من كتاب الله من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة:١٠١].

ذلك إذن ظاهرُ مجمل ما أفاده صحابةُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من كتاب الله جَلَّوَعَلَا؛ سوى ما سرى في نثرهم من روحه الكريم الطيّب الذي لولاه لما كان.

(آثار النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)

أما نَهَلُهم من معين النبوَّة العذب فإنه أوضحُ صورةً، وأمدُّ فروعًا، وأجلى بيانًا. وإجمالُ ذلك بأن نقول: لم يكن اقتباسُ الصحابة المباشرُ من الحديث كمثل اقتباسهم من القرآن، بل إنَّ الأمثلةَ على اقتباسهم من الحديث في غاية النُّدْرَة إنْ لم يكن يوجد[4]، ولكنهم على النقيض كانوا يقتفون طريقة النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومنهجَه في النثر أشدَّ مما يترسَّمون

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٤.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٤٣.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٣.

(٤) انظر: مثلًا كتابًا لخالد بن الوليد في: مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٦٥-١٦٦، وهو مع ذلك ليس نقلًا للألفاظ بمقدار ما هو نقلٌ للفحوى.

لفظَه، ولعل السبب في ذلك أنهم وجدوا القرآن قولًا مُعجِزًا فاكتفوا بالنقل عنه، ووجدوا قول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشَريًّا، ولكنه في الغاية من البلاغة، ووجدوا طريقتَه مُـمْكِنةً؛ فحاولوا مجاراتَها ومشابهتَها، ولم يحصروا أنفسَهم في مجرد نقل الألفاظ عنه.

وقد ظهرت آثارُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نثر الصحابة في صورٍ مختلفةٍ ووجوهٍ متعدِّدة. فما من ريبٍ في أن موضوعات الخطابة الإسلامية في الجهاد والسياسة والموعظة وغيرها إنْ هي إلا آثارٌ نبويَّةٌ صافيةٌ، تأسَّى فيها الصحابة بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واقتفَوْا أثره. وإنَّ عُظْمَ هذه الألوان الخطابيَّة لم يكن للصحابة عهدٌ به من قبل، وإنما شقَّ طريقَها لهم، ومهَّدَها لهم رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وإنَّ نظرًا في خطابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليُطلعنا كيف شابهتْ خُطبةُ الصحابة في بنائها ومضامينها كثيرًا من خطبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

بيد أنه ينبغي أن نُقرِّر أنَّ كتابة الصحابة قد اقتفتْ أثرَ كتابة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثرَ مما اقتفَوْا به في الخطابة؛ فقد كان للعرب الأصولُ القديمة في الخطابة من قَبل النبي صلوات الله عليه، أما الكتابة فإنها لم ترسخْ إلا في الإسلام على يدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ففي فواتح الكتب مثلًا نرى البسملةَ، والحمدلة، وذِكْرَ المرسِل والمرسَل إليه، وما إلى هذا مما يرد في المقدمة، وهذا كلُّه بنظامه وترتيبه قد أخذه الصحابةُ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير شكٍّ ولا ريبة(٢).

ومثلُ هذا يُقال في (أما بعد). أما تكرارها في حشو الكتب فإنَّ الصحابة قد أخذوه من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا؛ فقد كرَّرها ـ بأبي هو وأمّي ـ ثلاثَ مراتٍ في كتابٍ له إلى بُديل وبُسر وسرواتِ بني عمرو(٣)، وكرَّرها في كتابه إلى أهل هَجَرٍ ثلاثًا كذلك(٤)، وكرَّرها مرتين في كتابه إلى أهل جنبة(٥).

---

(١) انظر: بعض خطبه ﷺ في: جمهرة خطب العرب ١/ ١٤٧.
(٢) انظر: مجموعةً من كتبه ﷺ في: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٥-٢٤٠.
(٣) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٥.
(٤) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٨.
(٥) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٩-٢٤٠.

وكان الصحابةُ يفعلون كما فعل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من ذكر تاريخ الكِتاب[1]، وشاهده[2]، وكاتبه[3]، وقد يُشهدون الله تعالى كما كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُشهِد[4]، وقد يجعلون الكاتبَ شاهدًا كما كان يجعل[5]، وقد يختمون الكتب كما كان يفعل[6]، أو يفتتحون العهود والمواثيق بلفظة (هذا) كما كان يَفتتح[7]، وقد يذكرون جزاء الغدر والنكوصِ في العهد كما كان يذكر[8]، وكانوا يكتبون العهود أحيانًا من نُسخةٍ واحدةٍ، كما كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكتب[9].

وما كان جناسُهُم الشهيرُ في الأسماء[10] إلا اقتداءً بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في نحو قوله: «**أسلم سالَمَها الله، وغِفار غفر الله لها**»، ومن نحو قلبه اسم «**زيد الخيل**» إلى «**زيد الخير**»، وهذا يُذكِّرنا بإجابة الحكيم التي أجاب بها بلال بنُ رباحٍ لَمَّا سُئل: مَنْ صلَّى؟[11] قال: أبو بكر. قال الرجل: إنما أعني في **الخيل**. فقال بلالٌ: وأنا إنما أعني في **الخير**[12].

---

(١) انظر: التراتيب الإدارية، للكتَّاني ١/ ١٨٠-١٨٣.

(٢) انظر: في ذكر الشهود كتابَ النبي ﷺ لوفد ثمالة والحُدَّان في: الطبقات الكبير ١/ ٢٤٨.

(٣) انظر: كتبًا كثيرةً للنبي ﷺ فيها ذكر اسم الكاتب في: الطبقات الكبير ١/ ٢٢٩-٢٣٣.

(٤) جمهرة رسائل العرب ١/ ٥٣، ٥٤.

(٥) انظر: كِتاب النبي ﷺ إلى بني أسد في: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٣، وكتبًا له أخرى في: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٤.

(٦) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٤٠٨.

(٧) انظر: الطبقات الكبير ١/ ٢٣٤.

(٨) انظر: جمهرة رسائل العرب ١/ ٥٩،٥١.

(٩) انظر: مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٩٩.

(١٠) انظر: ما سيأتي من حديث عن الجناس في فصل «التجويد والصناعة» من هذا البحث.

(١١) المُصَلِّي من الخَيْل: الذي يجيء بعد السابق؛ لأن رأسَه يَلي صَلا المتقدِّم، وهو تالي السابق، وقال اللحياني: إنما سُمِّيَ مُصَلِّيًا لأنه يجيء ورأسُه على صَلا السابق، وهو مأخوذ من الصَّلَوَيْن لا محالة، وهما مُكْتَنِفا ذَنَبِ الفَرَس، فكأنه يأتي ورأسُه مع ذلك المكان. يقال: صَلَّى الفَرَسُ إذا جاء مُصَلِّيًا، «لسان العرب: صلا».

(١٢) انظر: الطبقات الكبير ٣/ ١٥٨.

[٤] آثار الشّفهيّة والكِتَابة في اللّغة والبناء

تُعد قضية الشفهيَّة من القضايا الكبرى التي يُبنَى عليها تلقّي آداب الأمم القديمة، وفهمُها، ونقدُها، وروايتُها[١]. وليس الأدبُ العربيُّ ببدْعٍ في هذا الأمر؛ فقد نشأ، بل ترعرع واشتدَّ عودُه في بيئةٍ شفهية، ثم نُقل في بعض مراحله بطريق اللسان والأذُن فحسب، ولم يُدوَّن من ذلك إلا القليلُ لأول وهلة، ثم إنَّ التدوين زاد بمرور الأيام واستشرى حتى صار أصلًا من الأصول المؤسِّسة لحضارتنا الإسلامية، وإنْ بقيتْ فيه آثارٌ غيرُ خافيةٍ شاهدةٌ على تغلغُل طبع الشفويَّة فيه، ليس فيه فحسبُ، بل في كثيرٍ من أوجه تلك الحضارة الإسلامية العظيمة[٢].

«إنَّ الانتقال من النزعة الشفاهية إلى النزعة الكتابية على مستوى الإبداع والفكر قد حدث مع نزول القرآن الكريم، وإنَّ القرآن الكريم هو النموذج الكتابيُّ الأول الذي يُفارق نماذج الشفاهية بإعجازه، وينتقل بالعقل العربي الذي يتلقاه ويتوجَّه إليه من حالِ البداوة إلى حال الحضارة، من حال الوعي بالقبيلة، إلى حال الوعي بالأمة، من حال الاستجابة العفوية إلى الطبيعة، إلى حال البناء المعقَّد للثقافة. ويكتمل معنى هذه الدلالة الرمزية حين نضع في اعتبارنا أن أول ما أُنزل من القرآن الكريم كان أمرًا بممارسة فعل القراءة الذي هو الوجهُ الآخرُ لفعل الكتابة»[٣].

---

(١) انظر: النظم الشفويّ في الشعر الجاهلي، لجيمز مونرو، ترجمة الدكتور فضل بن عمار العماري، دار الأصالة، الرياض ١٤٠٧هـ، والشفاهيَّة والكتابية، لوالتر ج. أونج، ترجمة الدكتور حسن البنا عز الدين، مراجعة الدكتور محمد عصفور، عالم المعرفة ١٨٢، الكويت ١٤١٤هـ.

(٢) لم تستوعب الثقافةُ العربيةُ الكتابةَ بصورةٍ كاملة، وكان لهذا أثرُه في نقلِ أديبٍ كـجُبْران خليل جبران المأثورات الشفاهيَّة إلى الأمريكان الكتابيِّين، انظر: الشفاهيَّة والكتابيَّة، ص٨٣.

(٣) مقالة: القلم واللسان ، للدكتور جابر عصفور، ص٧٦، مجلة العربي، الكويت، عدد ٤٣٦، مارس ١٩٩٥م.

(غلبة الطابع الشفوي على نثر الصحابة)

نعم إنَّ الأصل في أدبنا العربي القديم أنه أدبٌ شفوي، حتى إن قُدِّر له التدوينُ فيما بعد، وإنَّ الأصل في نثر الصحابة أنه نثرٌ شفويٌّ، وإن كان بعضُه مكتوبًا مع ذلك. وقد رأينا من قبل فنونَ هذا النثر، فرأيناها في أغلبها شفويةً غير مكتوبة، كالخطب، والسرد، والجدل، والأجوبة، والوصايا، وغيرِهنّ. ولم يكن للصحابة من نثرٍ مكتوبٍ سوى كتب العهود ونحوها، والرسائلِ فحسبُ، ونزرٍ من الوصايا القليلة، وحتى تلك الكتبُ لم تكن تدوَّن رأسًا من لدنْ أصحابها في حالاتٍ كثيرة، بل كانت تُملَى على كاتبٍ يكتبُها، فكانت كأنها شفويةٌ كذلك، أو قل: كانت في مرحلةٍ وسطى بين الشفويَّة والكتابيَّة، ومعلومٌ فرقُ ما بينهما، من حيث التهيؤُ والصَّنْعةُ والإبداع، وهو ما سوف نعرض لشيءٍ منه في هذا الجزء.

(حال الخطيب وحال الكاتب)

لقد وجد الباحثون أنَّ الكتابة تستغرقُ من الوقت قريبًا من عُشْر سُرعة الكلام الشفوي في العادة[1]، وهذا معناه أنَّ فرصة الخطيب في التروِّي ورجعِ النظر أقصرُ من فرصة الكاتب الذي يقعدُ لكتابته.

زِدْ على هذا أنَّ الخطيبَ مشغولٌ ـ لاشك ـ بحال المخاطَبين الـمُصْغين إليه، على خلاف الكاتب الذي يغيبُ عنه مَنْ يكتبُ إليه. وهو ما يستلزم في الخطيب هيئةً معيَّنةً وأداءً معيَّنًا[2]، وهو من غير اللازم في الكاتب.

---

(١) انظر: الشفاهية والكتابية، ص١٠٢.

(٢) يرى أونج أنه ثمَّة علاقة وطيدة بين الأنماط الشفهية الإيقاعية، وعملية التنفُّس، انظر: الشفاهية والكتابية ص٩٤.

فالكاتبُ أجمعُ للُّبِّ من الخطيب الذي ينظر إلى آثار كلماته في أعين الناظرين إليه، الحادجينَه بأبصارهم، المنتظرين هفَوَاتِه، المترقِّبين حركاته وسَكَناته. ينقل الجاحظ عن بعض أهل الهند أنَّ «أوَّل البلاغة اجتماعُ آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيبُ رابطَ الجأش، ساكن الجوارح، قليلَ اللحظ، متخيَّر اللفظ...»(١).

وللكاتب ـ علاوةً على طمأنينة نفسه ـ أن يُضرب عن كتابه، فيُمزِّقَه، أو يُزيلَ ما فيه، أو يغسلَه، أو يحكِّكه، أو يُصْلِحَ فيه(٢)؛ ولا أحدَ يدري، ولا أثرَ لصنيعته، ولا مؤونةَ عليه فيها. أمَّا الخطيب فمحسوبةٌ هِناتُه، بل مرصودة، ولا عُذر له عند الناس في معظم الأحيان إن هو أخطأ؛ بل الشماتةُ واللومُ نصيبُه، ذلك أنه في نظرهم قد ارتقى مرتقًى لم يكن أهلًا له، أو لم يكن قد تأهَّل له.

هذا كلُّه وسواه ـ وإن يكن من خارج النصّ ـ لمَّا يؤثِّر في الرسالة أو الخُطبة في الداخل من غير ما امتراء.

فمن الآثار الشفويَّة في بعض الكتب افتتاحُ عمر بن الخطاب كتابًا له إلى عتبة بن غزوان بندائه؛ حيث كتب في أوله: «يا عُتبة، إني قد استعملتُك على أرض الهند»(٣)، وكأن عُمر يُخاطب حاضرًا أمامه يُناديه، وكأنه كان يُملي على رجلٍ يكتب ولا يباشر هو الكتابةَ بنفسه.

ومن الآثار الشفويَّة كلمةُ تنبيهٍ لأبي بكرٍ في متن أحد الكتب إلى عكرمة بن أبي جهل، يأمره فيها بالنظر، كأنه يُوجِّهه كأنما يراه أمامَه، أو كأنه يتخيَّلُه واقفًا بشخصه،

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٩٢.

(٢) انظر: البرهان، ص١٩٢، وفيه ينقل عن ابن الأهتم قولَه: «إني لستُ أعجب من رجل تكلَّم بين قومٍ فأخطأ في كلامه، أو قصَّر في حُجَّته؛ لأنَّ ذا الحِجا قد تنالُه الخَجْلَة، ويُدركُه الحَصَرُ، ويعزب عنه القول؛ ولكنْ العَجَبُ ممن أخذ دواةً وقرطاسًا وخلا بفكره وعقله، كيف يعزُب عنه بابٌ من أبواب الكلام يريدُه، أو وجهٌ من أوجه المطالب يَؤمُّه».

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٣.

لا تاليًا لكتابه، فيقول: «فإذا قرأتَ كتابي هذا فَسِرْ إلى زياد بن لبيد... وانظر: لا تمرَّنَّ بحَيٍّ من أحياء العرب إلا استنهضْتهم...»[(١)]، وكان حقُّه أن يقول مثلًا: «وعليك أن لا تمرَّ...»، أو نحوًا منها؛ ولكنَّه لـمَّا تخيَّله بإزائه خاطَبَه كأنه ينظر إليه.

ولعلَّ مما قرَّب بعض الكتُب من الخطابة أن أصحابَها كتبوها لكي تُلقى على المنابر، ككتاب عليٍّ الذي أمرَ قيسَ بن سعدٍ أن يتلوَه على أهل مصر[(٢)]، ونحن نجد في هذا الأثر المكتوب ما هو أليقُ بالخطابة، كتكراره كلمة (لكيما) أربعَ مرَّاتٍ في قوله: «... بعث إليهم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلَّمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسُّنَّة، لكيما يهتدوا، وجمَعَهم لكيما لا يتفرَّقوا، وزكَّاهم لكيما يتطهَّروا، ورفَّههم لكيما لا يجوروا»[(٣)].

وقد آثَرَ أن يُعيد (لكيما) بحروفها تامَّةً مراعاةً للإيقاع الصوتيِّ حين تُلقى الخُطبةُ على القوم، وكأنَّ عليًّا يتخيَّل المخاطَبِين أمامَه وهو يخُطُّ كتابَه.

ومن الآثار الشَّاهدة على الشفويَّة في هذا الكتاب، قَطْعُه بين فقراته بـ(ألا) التي للتنبيه والفصل، وكأنه غاب عنه ما يكتب، وحضَر عندَه جَمْعُ الناس أمامَه[(٤)].

ولعلَّ مثلَ هذا الكتابِ هو ما حمل أبا هلالٍ العسكريَّ على أن لا يجد فرقًا بين خُطب العرب ورسائِلها، بل هما عنده يتعاوران، فقال: «واعلم أن الرسائل والخُطَبَ متشاكلتان في أنها كلامٌ لا يلحقه وزنٌ ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظُ الخُطباء تُشبه ألفاظ الكتَّاب في السهولة والعذوبة. وكذلك فواصل الخطب مثلُ فواصل الرسائل، ولا فرقَ بينهما إلا أنَّ الخطبة يُشافَه بها، والرسالة يُكتَبُ بها، والرسالة تُجعل خطبة، والخطبة تُجعل رسالة، في أيسر كُلفة»[(٥)].

---

(١) كتاب الردّة، للواقدي، ص١٩٨.

(٢) انظره في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٨.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٨.

(٤) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٩.

(٥) كتاب الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ص١٣٦، تحقيق علي البجاوي=

هذا في عهد متأخِّرٍ عن عهد الصحابة، عهدٍ كثُرتْ فيه الكتابة واستقرَّتْ على أصولها، فما بالُك إذنْ بعهد الصحابة، وهو العهد السَّمعيُّ، حتى فيما كان مكتوبًا على الأعمِّ الأغلب.

(سمات كتابية)

ومع هذا فإنه ثمة فروقٌ وجدناها تمتازُ بها الكتابةُ عن الخطابة لعهد الصحابة، وتُقرِّبها شيئًا ما إلى الصنعة البصريَّة لا الصفة السمعيَّة، وتباعدها ـ ولو قليلًا ـ عن ذلك العهد الذي سيطر فيه اللسانُ لا القلم، منها: طولُ الجُمل، وطولُ المقابلة، وسقوطُ الرَوابط، والحذفُ الكتابيُّ، واختصارُ كتابٍ في كتاب، والاقتباسُ والنقلُ والإحالة، التشاركُ في تحرير الكتب، والحرصُ على توثيقها بالكتابة.

(طول الجمل)

فمن هذه السِّمات الكتابيَّة طولُ الجُمَل، ذلك أن العين أقدرُ على إدراك العلاقة بين المسندَيْن إذا طال الفصلُ بينهما؛ من الأذُن، كما أن الخطيب وهو يخطب معتمدٌ على ذاكرة السامعين، لا ذاكرة الكتاب التي لا تَنْسى كالذي في حال الكاتب، فكان الأولُ حريصًا على إفهام أصحابه بأقصر الجمل، والثاني غيرَ مكترثٍ أطالتْ الجمل عنده أم قصُرت، انظر مثلًا إلى صنيعة عمر بن الخطاب في كتابٍ له إلى سعد بن أبي وقاصٍ، إذ أطال جملةً معترِضةً طولًا ما كان له أن يُطيلَه لو هو خَطَب، في قوله: «... وإذا انتهيت إلى القادسية **-والقادسية بابُ فارس في الجاهلية، وهي اجمعُ تلك الأبواب لمادَّتهم، ولما يريدونه من تلك الآصُل، وهو منزلٌ رغيبٌ خصيبٌ حصينٌ دونه قناطر، وانهارٌ ممتنعة-** فتكون مسالحُك على أنقابها...»[1].

= ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٠٦هـ.

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٠.

فإنه لو خطب لقرَّب جملة الشرط من جزائه، فقال مثلًا: «وإذا انتهيتَ إلى القادسية فلتكن مسالحُك على أنقابها، والقادسيةُ كذا وكذا»؛ أو لَبَاعَدَ بينهما بُعدًا يسيرًا، أو لأعاد جملةَ الشرط كَرَّةً أخرى عساه أن يُدْرِك ذهنَ السامع الذي كرُب يتشتَّتُ منه.

(طول المقابلة)

ومما هو داخلٌ في طول الجمل طولُ المقابلة التي يصعب على الخطيب إيرادُها في الخطب، لا لذهولٍ في المخاطبين عنها، ولكن لعُسْر استحضارها من لدُنه، كهذه المقابلة الطويلة التي أوردَها قيسُ بنُ سعدٍ في ردِّه على معاوية:

«أتسومُني الخروجَ عن طاعة أَولى الناس بالإمرة، وأقربِهم للخلافة، وأقولِهم للحق، وأهداهم سبيلًا، وأقربِهم من رسول الله ﷺ وسيلةً، وأوفرهم فضيلة.

وتأمرني بالدخول في طاعتك، أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولِهم للزُّور، وأضلِّهم سبيلًا، وأبعدِهم من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ وسيلةً، ولد ضالِّين مضلِّين من طواغيت إبليس!»[١].

فإني أزعم أن مثل هذه المقابلة تحتاج إلى تخطيطٍ ما، ونَظَرٍ بالعين ورَجْعِ بَصَر في كل عبارةٍ حتى يكتب ما يُناقضُها، وهذا مما يشقُّ على الخطيب فعلُه، وقد يُبعده عن مبتغى الخطبة.

(سقوط الروابط)

ومن السِّمات الكتابيَّة أيضًا سقوطُ الرَّوابط بين الفقرات اكتفاءً برابطة الرقعة الواحدة التي يُكتَب عليها الكِتابُ جميعًا، بخلاف الخطبة التي يكثر في ابتداء فقراتها النداءُ أو التنبيهُ أو الفصلُ أو العواطفُ أو نحوُها. من أمثلة هذه الكتب كتاب عمر بن الخطاب المشهور في القضاء، ففيه استئنافٌ لأوائل الفِقَر من غير رابطةٍ ممهِّدة، كقوله:

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٢.

«... فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحق لا نَفاذَ له. آسِ بين الناس في وجهك وعدلِك ومجلسك حتى لا يطمع شريفٌ في حَيْفِك، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عدلك.

«البيِّنة على مَنْ ادَّعى، واليمينُ على مَنْ أنكر...

«الفهمَ الفهمَ فيما تلجلجَ في صدرك...

«المسلمون عدولٌ بعضُهم على بعضٍ إلا مجلودًا في حدّ...»[1].

فهذا كلُّه مما قد يجوز في الكتابة، ولكنه سيُستهجَنُ في الخطابة.

(الحذف الكتابيّ)

ومن تلك السمات الحذفُ الكتابيّ، ككتاب خالدٍ إلى رسول الله ﷺ يُخبره عن بني الحارث بن كعب: «وإني قدمتُ إليهم فدعوتُهم إلى الإسلام ... وبعثتُ فيهم رُكْبانًا: يا بني الحارث أسلموا تَسلموا»[2]، أي رُكْبانًا ينادُون. فهذا الحذفُ ألصقُ بالكتابة منه بالخطابة، وتصوُّرُه مع ذلك في الخطابة غريب.

(اختصار كتابٍ في كتاب)

وهنالك شِيَمٌ كتابيَّة خالصةٌ، كاختصار كتابٍ في كتابٍ آخر، واختزالِه وذكرِ فحواه. كما صنع عُمر في جوابه كتابًا لأبي عُبيدة، إذ لخَّصَ معناه وأورد جُمَلًا منه، ومما جاء فيه: «أما بعد، فقد أتاني كتابُك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه من إهلاك الله للمشركين، ونصْره المؤمنين، وما صنع لأوليائه وأهل طاعته، فأحمدُ الله على حُسن صنيعه إلينا...»[3].

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٢٧-٤٢٩.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٦٥-١٦٦.

(٣) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٤٤.

أو كالتفنُّن في إيراد عبارات الكتاب الوارد بشتَّى الصور في مقام الردِّ عليه، كصنيع عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابٍ ورده من أبي عُبيدة بن الجرَّاحِ ومعاذ بن جبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وهذه مقارنةٌ بين الكتابين:

(كتاب أبي عُبيدة ومعاذ بن جبل)[1]	(كتاب عمر بن الخطاب)[2]
(١) «أما بعد، فإنا عهدناك وأمْرُ نفسك لك مُهِمّ».	«... وقد بلغني كتابكما تذكران أنكما عهدتماني وأمْرُ نفسي لي مُهِمّ، فما يُدريكما؟ وهذه تزكيةٌ منكما لي».
(٢) وإنك يا عُمر أصبحتَ وقد وليت أمر أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أحمرها وأسودها. يقعد بين يديكَ العدوُّ والصَّديق، والشَّريفُ والوضيع، ولكلٍ عليك حقٌّ، وحِصَّةٌ من العدل	وتذكران أني وليت أمر هذه الأمة، يقعد بين يديَّ الشريفُ والوضيع، والعدوُّ والصديق، والقويُّ والضعيف، ولكلٍّ حِصَّةٌ من العدل.
(٣) فانظر كيف تكون يا عُمر؟	وتسألاني: كيف أنا عند ذلك؟ وإنه لا حولَ لي ولا قوة إلا بالله.

(١) فتوح الشام، للأزديّ، ص١٠٠.

(٢) فتوح الشام، للأزديّ، ص١٠١-١٠٢، وانظر: كتابًا آخر فيه شيء من تلك التصاريف الكتابية من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبي سفيان في: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥١.

(٤) وإنَّا نُذكِّرك يومًا تُبلى فيه السَّرائر، وتُكشَف فيه العورات، وتُظهر المخبّآت، وتعنى فيه الوجوه لملكٍ قاهر، قهرهم بجبروته، والناسُ له داخرون، ينتظرون قضاءه، ويخافون عِقابه، ويرجون رحمته.	وكتبتما تُخوِّفاني يومًا هو آتٍ، وذلك باختلاف الليل والنهار، فإنهما يُبليان كل جديد، ويُقرِّبان كل بعيد، ويأتيان بكل موعودٍ حتى يأتينا بيوم القيامة، يوم تُبلى فيه السرائر، وتُكشف العورات، وتعنو فيه الوجوه لعزَّة مُلكه، قهرهم بجبروته، فالناس له داخرون يخافون عقابه، وينتظرون قضاءه، ويرجون رحمته.
(٥) وإنه بلغنا أن يكون في هذه الأمة رجالٌ يكونون إخوان العلانية، أعداء السريرة.	وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون في هذه الأمة رجالٌ يكونون إخوان العلانية، أعداء السريرة؛ فليس هذا بزمان ذلك، إنما ذلك في آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرهبة، رغبة الناس بعضهم إلى بعض، ورهبة الناس بعضهم من بعض
(٦) إنا نعوذ بالله من ذلك. فلا ينزل كتابنا منك بغير المنزلة التي أنزلناه من أنفسنا»	وتقولان: إنا نعوذ بالله أن أنزل كتابكما مني بغير المنزلة التي هي في أنفسكما فإنَّا لن نألوك خيرًا، وأعوذ بالله أن أنزل كتابكما مني على غير ذلك، وإني لا غِنى لي عنكما ولا عن رأيكما ونُصحكما. فتعاهداني رحمكما الله بكتابكما.

إنه كتابٌ جانحٌ إلى الكتابيّة، خائضٌ في غمارها كثيرًا، وهو مثالٌ جيِّدٌ على محاولة التخلُّص من تعميمات الشفويَّة، وصيغها الثابتة، وميلها إلى الاختصار[1]، فقد قرأ عُمر كتاب صاحبيْه، وعَرَفَ ما فيه، ثم ردَّ على كتابهما جملةً جملةً، مرةً بالموافقة، ومرةً بالاعتراض، ومرةً بالتصويب، كل أولئك وهو يُقلِّب الأسلوب، ويُغاير بين أوائل الفِقْرات والجُمل، فتراه يكتب إليهما تارةً: «ذكرتما»، وتارةً: «كتبتما»، وتارةً: «وتقولان»، وتارةً: «وتسألاني». وما هذا كلُّه إلا رُقيًّا بأسلوب الكتابة، وانتقالًا به من طورٍ إلى طور.

إنَّ «البِنْياتِ الشفاهيَّة» ـ كما يقول أونج ـ «تُحقق غالبًا ما هو عمليٌّ، مثلُ إراحة المتكلِّم... أما البِنْيات الكتابيَّة فأكثرُ اهتمامًا بالتركيب وتنظيم الخطاب نفسه»[2].

وإنَّ «النظامَ اللُّغويَّ الذي يسود فيه الصوتُ (لا الكتابة) يتفق مع الميول التجميعية المساعدة على الائتلاف، أكثر من اتفاقه مع الميول التحليليَّة التجزيئيَّة، التي سوف تأتي مع الكلمة المكتوبة المرئيَّة؛ لأن البصر حاسَّةٌ تجزيئيَّة. وهو يتَّفق كذلك مع النظرة الكليَّة المحافظة، المتمثِّلة في الحاضر المستقرِّ الذي يجب أن يُحتفَظ به سليمًا، وفي التعبيرات القائمة على الصيغة التي يجب أن يُحتفظَ بها دون تغيير، ومع التفكير المواقفي المرتبط بالنظرة الكليَّة أيضًا، حيث يكون الفعل الإنسانيُّ في المركز؛ أكثر من اتّفاقه مع التفكير المجرَّد»[3]. فالشفويَّة مُجْمِلة؛ أمَّا الكتابةُ فمشعِّبةٌ مفصِّلة.

إننا ونحن نقرأ كتاب عُمر السابق بإزاء كتابٍ صَبَرَ عليه صاحبُه، فأكبَّ على جُمَله وفِقْراته، يقرؤها واحدةً واحدةً، ثم إذا هو يستجمعُ جُهدَه للردِّ عليه؛ بألفاظٍ محسوبةٍ، وجُملٍ مقدَّرةٍ، وعدلٍ كاملٍ، وتواضعٍ من لدنه.

---

(١) كقولهم في مثل هذا الموضع في مقام جواب الكتاب: «وقد فهمتُ كتابَك» يكررونها في جُلِّ الكُتُب. وانظر في هذا المعنى: الشفاهيَّة والكتابيَّة، لأونج، ص٩٥.

(٢) الشفاهيَّة والكتابيَّة، ص٩٨.

(٣) الشفاهيَّة والكتابيَّة، ص١٥١.

على أن الفاروقَ لم يكن مجرَّد ناقلٍ لألفاظ الكتاب إلى كتابه فحسب، بل لقد طوَّعها على طريقته، فصرَّف ألفاظه وذهب بها كيفما أرادتْ معاني نفسِه، فثمَّة جملٌ نَقَلَها بألفاظها كما هي، من مثل قوله: «تذكران أنكما عهدتماني وأمرُ نفسي لي مُهمّ»، وقوله: «وذكرتما أنه يكون في هذه الأمة رجالٌ يكونون إخوان العلانية، أعداء السَّريرة». وثمة جملٌ خالَفَ بينها لتنزلَ على سياقه، كتقليبه هذه الجملةَ إلى التي بعدَها:

«يقعد بين يديك العدوُّ والصَّديق، والشريفُ والوضيع، ولكلٍّ عليك حقٌّ، وحِصَّةٌ من العدل».

«يقعد بين يديَّ الشريف والوضيع، والعدوُّ والصَّديق، والقويُّ والضَّعيف، ولكلٍّ حِصَّةٌ من العدل».

فقد خالَفَ بين ألفاظها، وزادَ فيها، ونَقَص.

وثمَّـةَ جملٌ في الكتاب نقل معناها ولم ينقل ألفاظها؛ كما تُظهرنا عليه المقارنة.

(التشارك في تحرير الكتب)

ثم إننا في هذا المثال نفسه نقف على شيمةٍ كتابيَّةٍ أخرى من شِيَم الكتابة، هي أن يكتب الكتابَ الواحدَ كاتبان، يحرِّرانه، ويتَّفقان على ما جاء فيه، هما أبو عُبيدة ومعاذُ بن جَبَل، ولم يكن هذان الصحابيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فريديْن فيما صَنَعا، بل صنَعَه بعدَهما صحابيَّان آخران هما طلحةُ بن عبُيد الله والزبيرُ بن العوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1].

وهذا انتقالٌ آخرُ بأسلوب النثر، وبُعْدٌ عن الشَّفويَّة فيه.

ولعلَّ قائلًا أن يقول: إن نقل الكتب في كتبٍ أخرى كمثل هذا الكتاب الذي نقل فيه عُمر كتابَ صاحبيْه؛ أمْرٌ نادرٌ لا يُعوَّل عليه في ذلك العصر. فيقال: قد وجدنا

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٧٠.

كتابًا آخر لأبي عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عمر بن الخطَّاب، ينقل فيه لا كتابًا واحدًا، بل كتابيْن معًا، أحدهما كتبتْ إليه به الرومُ فأثْبتَه في كتابه، والآخر ردُّه عليهم، وقد أثبتَه كذلك في كتابه[1].

(توثيق الكتب)

بقي أن أذكر أنَّ من السِّمات الكتابية الخالصة المفارِقة للشفوية، ما استلزمتْه طبيعةُ الكتابة لذلك العصر من تأريخٍ للكتب، وذكرٍ للكاتب والناسخ والشهود، وغيرها من الصور التوثيقيَّة التي لا عهدَ للشفويَّة بها[2].

(١) انظر: الكتاب في: فتوح الشام، للأزدي، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) وقد سبق الكلام على أمثلة هذا وشواهده فيما مضى من الحديث عن «بناء الكتب» مما لا داعي إلى إعادته في هذا الموضع.

الفصل الرابع
الصُّورة الفَنيَّة

تتسع (الصورة) في النقد الحديث لتشمل الصورةَ البيانية، والصورَ الحقيقية الموحية؛ سواء أكانت صورًا واقعيةً حيَّةً، أم صورًا نفسيَّةً، أم ألفاظًا مفردةً تنبض بالحركة والحياة[1].

والصورة بهذا المعنى الشامل هي لُبُّ الشعر على وجه الخصوص، «وهي الوسيلةُ الفنية الجوهرية لنقل التجربة في معناها الجزئي والكلي»[2]. أمَّا النثر فإنه يقترب من الصفة الشعرية باقترابه من تحقيق مفهوم الصورة كما سلف، بالإضافة إلى الإيقاع من غير شك، الذي يعمل لنقل العاطفة وتصويرها، تلك العاطفة التي ما هي إلا نتاج تجربةٍ ما، حقيقيةٍ أو تخيُّلية.

على أنه لا يمكننا القول إن نثر الصحابة قد استوفى المفهوم الشعريَّ للصورة على النحو الموسَّع هذا، ولا هو بلازمٍ استيفاؤه فيه؛ ذلك أنَّ عناصر الأدب تتكاثر وتتفاوت من نوعٍ إلى آخر. فالنثر العربيُّ القديم كانت غايتُه الإفادةَ والإقناعَ ومخاطبةَ العقول في المقام الأول، وهذا لا يعني أن خطاب القلوب كان مغفولًا عنه، ولكنه ما كان له أن يكون بمعزل عن خطاب الأفهام في كل الحالات. وفي هذا يقول حازمٌ القرطاجنِّي: «إنَّ التخييل هو قِوامُ المعاني الشعريَّة، والإقناعَ هو قِوامُ المعاني الخطابية. واستعمالُ الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغٌ، إذا كان ذلك على وجه الإلماع في الموضع بعد الموضع، كما أنَّ التخاييل سائغٌ استعمالُها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع. بل ساغ لكليهما

(١) انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٤٣٢.
(٢) انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٤١٧.

أن يُستعمل يسيرًا فيما تتقوَّم به الأخرى؛ لأن الغرضَ في الصناعتين واحد، وهو إعمالُ الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثَّر لمقتضاه»[١].

فمن أجل غلبة الطابَع العقليِّ هذا قَلَّتْ الصورةُ في نثر الصحابة إذا ما قُوبلت بالآثار الضخمة الوافرةِ التي وردَتْ إلينا منه. على أن هذا التصوير المتباعدَ في نثرهم كان يؤدي عملًا لا بأس به من تقوية الحُجَّة، وإيصال الفكرة، والتعبير عما يجيش في الصدر من المعاني ومرادات النفوس، وكانت الصورة في نثرهم كالماء العذب الذي يمدُّ الكلام بالحلاوة والطلاوة حينًا بعد حين.

لقد تنوَّعت الصور في نثر الصحابة ـ على قلّتها ـ ما بين صورٍ بيانيَّةٍ وأخرى حقيقيَّة، ولتبيان مدى انتشار هذه الصور وأنواعِها ومقدارِ كل نوعٍ؛ تتبَّعنا ما يربو على مئة موضعٍ من مواضع الصورة في هذا النثر، وهي تشمل عمومَ أنواعه ومجمل آثاره[٢].

إن الصورة في نثر الصحابة ـ استشهادًا بالمواضع الرَّابيةِ على المئة ـ قد جاءت موزَّعةً على الصور البيانية المتضمِّنة: التشبيهَ، والاستعارةَ، والمجازَ الـمُرسَل، والكنايةَ؛ وعلى الصورِ الحقيقية التي تدخل فيها الألفاظ المشعَّةُ الموحيةُ، التي تستدعي صورةً ذهنيةً، على النحو التالي:

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٣٦١.
(٢) إنَّ تَخيُّر طائفةٍ جمّةٍ شاملةٍ من الآثار للاقتراب من تصوُّر الحكم في القضايا البحثيَّة منهجٌ علميٌّ معمولٌ به في مناهج البحث الحديثة، بل القديمة؛ فمن ذا الذي يزعم مثلًا أن علماءنا في النحو والبلاغة قد حصروا كل صور القواعد، وجميعَ أفراد القضايا التي عالجوها في كتبهم؟

التشبيه	الاستعارة	المجاز المرسل	الكناية	المجموع		الصورة الحقيقية	الألفاظ المشبعة	المجموع		مجموع الجميع
٣٩	٣٦	٥	٦	٨٦		١٢	٧	١٩		١٠٥

وهذا شيءٌ من التفصيل في بيان كل نوع؛ نبدأه بالحديث في مصادر الصورة.

[١] مَصَادِرُ الصُّورَة

لو أردْنا أن نحصر مصادر الصورة في نثر الصحابة لوجدناها تجتمع في خمسة مصادر على الترتيب هي: الحيوان، والإنسان، والبيئة، والأدواتُ، ومستعمَلاتُ القوم.

(الحيوان)

أمَّا (الحيوانُ) فهو أكبر مصادر الصورة في نثرهم، ولا غرو؛ فإنَّ الحيوان كان ملازِمَهم على كل حال، فقد كانوا يركبونه، أو يستخدمونه، أو يصطادونه، أو يأكلونه، أو يُشاهدونه أمام أعينهم.

ومع أن معظمَ الصحابة أصحابَ النثر من أهل الحضر، فإنَّ الحيوان لم يكن مختَصًّا بأهل البدو وحدهم، بل كان مخالطًا لأهل الحَضَر في ذلك الوقت أيضًا. فمن ذلك أن الصحابةَ نظروا إلى ما حولهم فاقتبسوا الصورة من الخيل[١]، والفرس[٢]، ومن الجمل بذاته[٣]، أو حال كونه مُطَرَّدًا[٤]، أو من خَطْم الناقة وعينيها[٥]، ومن الأُسُود[٦]، والليوث حالَ كونها حَرِبة[٧]، ومن البَهمة[٨]، أو البهيمة عامَّة[٩]، أو قَرْنِـها[١٠].

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص٣٩١.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١٨١.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤١٨.
(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٢٥.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٨٤.
(٦) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤١٥.
(٧) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٩.
(٨) عيون الأخبار ٥/ ٢٣٤.
(٩) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٣٧.
(١٠) صفوت ١/ ٢١٥.

ونظروا إلى الضبِّ في انجحاره[1]، وإلى الذُّود[2]، وإلى بيضة الحمامة[3]، وإلى النحل حال دويّه[4]؛ فنهلوا من كلّ ذلك في صورتهم.

(الإنسان)

أما (الإنسان) فهو المصدر الثاني من المصادر المرجوعِ إليها كثرةً في نثر الصحابة، وليس هذا جديدًا فقد صنعوه من قبل في بعض فنون الشعر فقدَّموه على غيره، وجعلوه أوَّلًا[5]، ومعنى ذلك أن الصحابة نظروا إلى الإنسان مثلما نظروا إلى غيره، بل أشدَّ مما نظروا إلى غيره، ولا نُريد أن نغلوَ فندَّعي أنهم فعلوه بدافعٍ دينيٍّ، من حيث اهتمامُ الإسلام لشأن الإنسان وما ينبغي أن تكون عليه حياتُه، ولكن لعلَّ للمدنيَّة الجديدة تأثيرَها في صرف الأنظار نحو الإنسان صاحبِها الذي يدأبُ على رعايتها وتشييدها.

وقد استمدُّوا الصورةَ من شخص الإنسانِ نفسِه، ومن أبنائه[6]، ومنه وهو أصمُّ لا يتكلَّم[7]، ومنه وهو مبطون[8]، ومن الفتاة اللَّعوب المنتظرة بالزينة لغوايته[9]؛ فهذه صورٌ مختلفةٌ من صور الإنسان رأوه عليها: معافًى، ومريضًا، وأبًا حنونًا، وغَويًّا؛ ثم ما لبثوا أن حفظوها في عُقولهم؛ حتى إذا حانت لحظةُ الصورة استعادوا تلك المشاهد المُخْتَزَنَةَ كي يصبُّوها في قوالب نثرهمُ المتعدِّدة.

---

(١) صفوت ١/ ٤٢٤.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٨.
(٣) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٦.
(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤١٥.
(٥) انظر: مصادر الصورة في: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص٤١٧.
(٦) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٣.
(٧) جمهرة خطب العرب ١/ ٢٩٦.
(٨) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٣-٤٨٤.
(٩) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٦.

كذلك لم يكتفوا في تصويرهم بشخص (الإنسان)، بل استمدُّوا الصورةَ من بعض أجزاء جسده، كالرأس[1]، والجبهة[2]، والأنف[3]، والجِيد[4]، واليدين[5]، والبطن[6]، والظَّهر[7]، والرِّجْل[8]؛ لم يتركوا عضوًا ظاهرًا من جسده إلا ذكروه إذن أو كادوا.

(البيئة والكون)

ثم تأتي (البيئةُ والكون) مصدرًا ثالثًا من مصادرهم، وهذه المشاهدات هي أقربُ ما يجنح الأديبُ إليه ليصوِّر به، فهي أيسرُ ما يقع بصرُه عليه، أو هي المكان الذي يضمُّه ويعيش فيه؛ فتراهم قد صوَّروا بالشمس[9]، والقمر[10]، والسماء[11]، والسحاب[12]، والماء[13]، والبرق[14]، وصوَّروا بالفلاة[15]، والسراب[16]، وصوَّروا بالزرع[17]، وبوَرق الشجر، وأشواكه[18]، وأغصانِه[19].

(1) نثر الدُّرّ٢/ ٧٧.
(2) جمهرة خطب العرب ١/ ٢١٦.
(3) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٢.
(4) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٣.
(5) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٦.
(6) مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٠٠.
(7) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢١٠، و مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٠٠.
(8) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٧٨.
(9) الطبقات الكبير٣/ ٣٥٧.
(10) الطبقات الكبير ٣/ ٣٦٦.
(11) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٩٦.
(12) غريب الحديث، للخطَّابي ٢/ ٥٦٦.
(13) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٧.
(14) الطبقات الكبير ٦/ ٦٤.
(15) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٦٢.
(16) عيون الأخبار ٥/ ٢٣٣.
(17) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٦، والطبقات الكبير٦/ ٢٨.
(18) نثر الدُّرّ٢/ ٧٦.
(19) الطبقات الكبير ١/ ١٩٨.

(الآلات والمستعملات)

وصوَّروا بـ(الآلات والأدوات المستعملة) في بيئتهم، كالسيف[1]، والسهم[2]، والإناء[3]، والرَّحى[4]، والخَدَمة[5]، والنُّصُب[6].

ولهم مستعمَلاتٌ أخرى ومتداولات صوَّروا بها، كالأكل[7]، والهديّة[8]، والدِّرهم[9]، والحرير، والطِّيب[10]، والحجاب[11]، والقراطيس[12].

إنَّ ضبط مصادر الصورة والإمساكَ بها ليهدينا من غير ريبٍ إلى جُهد الصحابة في الإفادة من كل ما يُحيط بهم، مما قد ينفعُهم في تلوين صورهم، بَلْه إنشائها، ويهدينا في الوقت نفسه إلى خلاصةٍ من خُلاصات الفنّ: أنَّ الإنسانَ ابنُ بيئته، وأنَّ الأدبَ إنْ هو إلا صنيعةُ الإنسان الذي عاش في تلك البيئة.

---

(١) جمهرة خطب العرب ١/ ١٤٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٨٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٢.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٤٣.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٥.

(٦) نثر الدُّر ٢/ ٧٩.

(٧) جمهرة رسائل العرب ١/ ١٥٧.

(٨) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٦٥.

(٩) جمهرة خطب العرب ١/ ١٨٣.

(١٠) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٦.

(١١) جمهرة خطب العرب ١/ ٢٦٢.

(١٢) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٠.

[٢] التّشبيه

(التشبيه المفرد)

التشبيه هو الطريق الأشهرُ في التصوير عند العرب منذ القِدَم، وعلى ذلك فلا بأس أن يكون الأكثر في تكوين الصورة في نثر الصحابة. ومن سبيل الصحابة إليه أن يُشبِّهوا المشبَّه بالكلمة الواحدة التي تؤول بالخيال إلى صورةٍ أوَّليَّةٍ مفردةٍ لا تركيب فيها، ولا إيغال، ولا تعدُّد، كقول شيبة بن عثمان: «فرُفع لي شُواظٌ من نارٍ كالبرق كاد يمحشني، فوضعتُ يدي على بَصري خوفًا عليه»[١]، فهو يريد تشبيهَ شيءٍ بمثله لإيضاح الشبه فحسب، لا ليُضيف إلى التشبيه أثرًا عاطفيًّا يزيد في المعنى، فهو يريد أن يقول: إن ذلك الشُّواظ مَهيبٌ مُضيءٌ سريعٌ خاطف، يكاد يَذهب بالأبصار، كالبرق. هادينا إلى ذلك قوله في التعقيب على المشابهة: «فوضعت يدي على بصري خوفًا عليه»، ولكنه لا شك اختصر فقال بالتشبيه ما لو قاله باللفظ لأطال.

ومن هذا النحو قول النعمان بن مقرِّن في الحديث عن الدنيا: «ولم يبقَ منها إلا صُبابةٌ كصبابة الإناء»[٢]، فإنه يعني: في القِلَّة وضآلة القيمة والأثر؛ هذا هو المقصود من التشبيه في هذه الصورة عند النعمان، وهو مقصدٌ قريبٌ ظاهرٌ عند أول نظر. بل إن من الصحابة من نراه يذكر وجهَ الشبه نصًّا بعد إتمام صورته، وهذا مذهب من الإيضاح غريبٌ في إيراد الصورة عند العرب، وذلك قول جابر بن عبد الله يصف وجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين سُئل: أوجهُه مثل السيف؟ قال: مثلُ الشمس والقمر؛ مستدير»[٣].

(١) الطبقات الكبير، لابن سعد ٦/ ٦٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٢.

(٣) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٨.

(التشبيه بشيء ذي صفة)

على أن هذا المذهب من تشبيه شيءٍ بشيءٍ واحدٍ، هو أقل مذاهب الصورة عند الصحابة. وأكثرُ منه وأوغلُ في التشبيه وأمدُّ، تشبيهُ شيءٍ بشيءٍ ذي صفة، كمثل هاته التشابيه: «إن الكفرَ فلاةٌ مُضِلَّة»[١]؛ «وأقدموا عليهم إقدامَ الليوثِ الحَرِبَة»[٢]؛ «تركبُ أُولاهم أُخراهم كالإبل المطرَّدة الهِيم»[٣]؛ «فتجرجرتُم جرجرة الجمل الأشدق»[٤]؛ «كأني نُصُبٌ أحمر»[٥]؛ فهو كالدِّرهم القَسيّ، والسراب الخادع»[٦].

إنه نُموٌّ في التشبيه تُضحي به الصورةُ أكثرَ خُصوصيَّةً، وأشدَّ بيانًا، وأدخلَ في الخيال من ذلك النوع الذي سلف.

(التشبيه المرشَّح)

وثمة نوعٌ من التشبيه ثالثٌ هو أوغلُ من هذيْن، لا يُكتفى فيه بتشبيه شيءٍ بشيءٍ، ولا شيءٍ بشيءٍ ذي صفة، بل التشبيهُ فيه شيءٌ بشيءٍ له حالٌ من الأحوال أو عملٌ من العَمَل، إنه تشبيهٌ يحق أن نقول له: التشبيهَ المرشَّح قياسًا على الاستعارة المرشَّحة التي قُرِن بها ما يُلائم المشبَّهَ به[٧]، وقد سُمِّيتْ مرشَّحةً لأنَّ فيها تقويةً للاستعارة، وهذا النوع من التشبيه مثلُ ذلك؛ فإنه قد قُرِن بما يلائم المشبَّهَ به فزاد في التشبيه معنًى وجلاءً وصورةً،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٦٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٩.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٢٥.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٩.

(٥) انظر: نثر الدُّرّ ٢/ ٧٨-٧٩، والنُّصُبُ: صَنَم أو حَجَرٌ، وكانت الجاهلية تَنْصِبُه، تَذْبَحُ عنده فيَحْمَرُّ للدم «لسان العرب: نصب».

(٦) عيون الأخبار ٥/ ٢٣٣، والدرهم القسيّ: بتشديد السين وتخفيفها: الرديء «لسان العرب: قسس».

(٧) الاستعارة المرشَّحة هي التي قُرِنتْ بما يلائم المستعار منه، كقول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ (البقرة: ١٦)، فإنه استعار الاشتراء للاختيار، وقفَّاه بالربح والتجارة اللَّذين هما من متعلِّقات الاشتراء؛ فنَظَر إلى المستعار منه، انظر: بغية الإيضاح ٣/ ١٢١-١٢٢.

كقول عمرو بن العاص لأبي بكرٍ الصدِّيق لما أراد أن يُغيِّرَ عملَه: «إني سهمٌ من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامعُ لها،؛ فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلَها فارمِ به شيئًا إن جاءك من ناحيةٍ من النواحي»[١].

فهذا كله تشبيهٌ، إذ لم يُرِدْ عمرٌو تشبيهَ نفسه بالسهم فحسب، بل ذلك السهم الإسلامي المطواع في يد الخليفة، إن شاء رمى به، وإن شاء جمعه، وإن شاء قدَّمه وإن شاء أخَّرَه. ولو قد اكتفينا من التشبيه بأوله وهو مجرَّد السهم فقط، لاختلَّتْ الصورةُ جدًّا، وقصُرتْ عن أداء ما أراده عمرٌو من المعنى، ومنه تشبيهُ عَمْرٍو البحرَ وراكبَه بقوله: «هم فيه كدودٍ على عودٍ، إنْ مالَ غَرِق، وإن نجا بَرِق»[٢].

فهذه هيئةُ الناسِ في البحر على الحالين: حال الركوب بالغرق والموت، وحال النجاة بالدهشة والهَلَع؛ لا يحقُّ لأحدٍ ولا ينبغي له أن يقطع التشبيه عند أوّله، فيدَّعي أن عَمْرًا شبَّه الناسَ بالدود والمركبَ بالعُود، لا بل الحقُّ أنه شبَّهها بذلك على وجهٍ من التهويل والتخويف حالَ النجاة وحال الغرق.

ومنه قول عُمر بن الخطاب لأبي موسى: «فإيَّاك يا عبدَ الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرَّتْ بوادٍ خصيبٍ فلم يكنْ لها هَمٌّ إلا السِّمَن، وإنما حتفُها في السِّمَنْ»[٣]؛ فهذا كلُّه تشبيه مرشَّح مركَّبٌ ممدود.

ومن هذا النوع ما يكون بالتمثيل، والتمثيلُ إنما هو تشبيهٌ[٤]، ومنه قول النعمان بن مقرِّن: «مَثَلي ومَثَلُ كَسْكَر كمَثَل رجلٍ شابٍّ وإلى جنبه مُومسةٌ تلوَّنُ له وتَعطَّر»[٥]،

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٩.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٨.
(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٣٧.
(٤) أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ص٩٥ قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط١/ ١٤١٢هـ.
(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٦.

وهو من بديع الصورة لتضافر الإيقاع بها والتخيُّل. والشاهد فيما نحن فيه قولُه: «تلوَّن له وتَعطَّر»، فهي ليستْ فتاةً مومسًا فحسب، بل زادتْ على ذلك -إغراءً له- أن وضعت الزينة والعطر.

ومن جليل التشبيه قول عُمر يُشبِّه نفسَه وصاحبيْه رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر: «مَثَلي ومَثَلُ صاحبيَّ كثلاثةٍ سلكوا طريقًا، فمضى الأولُ وقد تزوَّد زادًا فبلغ، ثم اتَّبعه الآخر فسلك طريقَه، فأفضى إليه، ثم اتَّبعه الثالث، فإن لزم طريقَهما ورضيَ بزادهما لَحِقَ بهما، وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما، لم يُجامعْهما»[1]، فهذه صورةٌ تشبيهيَّةٌ عظيمةٌ طالَ فيها المشبَّهُ به وتفرَّعَ وتراكب، حتى لقد غدا صورةً حيَّةً نابضةً، مُخْبِرةً بما لم يكن للكلام أن يُخبرَه بغير الصورة.

(التشبيه المقلوب)

على أن من لطيف التشبيه عند الصحابة وغريبه ما يُطلق عليه (التشبيه المقلوب)[2]، وهو نوعٌ من المبالغة في التصوير رامٍ إلى إلباس المشبَّه كلَّ صفات المشبَّه به في وجه الشبه تامَّةً، وتفضيلِه عليه، بما يوحي بأن المشبَّه لا يوجد في صفته المرومة بالتصوير ما هو أكملُ منه، ولا ما يزيد عليه، بل إنه بالغٌ في تحقيقها المنتهى، قَمِنٌ بأن يُقاس في التصوير عليه.

من هذا النوع قول أنس بن مالك يصف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما مَسَسْتُ قطُّ حريرةً، ولا خَزَّةً؛ ألينَ من كفِّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3]، فكأن الحرير ـ وهو الذي يُضرب به المثلُ في اللِّين ـ قد تقاصر لِينُه عن لِين كفِّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحنون الطاهرة، وكأنَّ المسك والعنبر ـ وهما أطيبُ ما يكون ريحًا ـ لم يبلغا مبلغَ طِيب رائحة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦١٧.

(٢) انظر: بغية الإيضاح ٣/ ٣٨.

(٣) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٦.

ذلك، وللصحابة في الجمع بين طرفي التشبيه طُرُق، وهذا الجمع هو المسمى عند أهل البلاغة بـ(أداة التشبيه)، ولعل هذه الأداة هي السِّمةُ الكبرى الفاصلة بين التشبيه والاستعارة ثم يتلوها حذف طرَفٍ من الطرَفين. لذا لا عجب إن وجدنا من يزعم إدراجَ التشبيه البليغ -وهو الذي حُذِفتْ فيه الأداة ـ في الاستعارة[1]، ذلك أنه قد وقع فيه الإيهام بإلباس المشبَّه صفةَ المشبَّه به، فكأنها منه أو كأنه منها، أو كأنهما جزءان من شيءٍ واحد.

وهذا التشبيه المسمَّى البليغ ورد في نحو عُشْر تشبيهات الصحابة، كقول خالد بنَ الوليد: «إن الكفر فَلاةٌ مُضِلَّة»[2]، وقول عمرو بن العاص: «إني سهمٌ من سهام الإسلام»[3]، وقول أمِّ معبد تصف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غُصْنٌ بين غُصنين»[4]، وقول أبي ذرٍّ: «كان الناسُ ورقًا لا شَوْكَ فيه، فصاروا شَوْكًا لا ورقَ فيه»[5].

(أدوات التشبيه)

فإنْ هم ذكروا الأداة، وهي كلمةُ التشبيه التي قد تكون اسمًا وقد تكون حرفًا؛ فإنَّ لهم في ذلك التصاريف. والحق أنه قد كان للكاف ـ وهي الأمُّ في هذا الباب ـ الحظُّ الأوفى، على أنه قد ساواها في هذا الحظ حرفٌ آخر هو (كأنَّ)؛ فقد وردتا كلتاهما سبع مرات. على أن من اللغويين من لم يعُدَّ (كأنَّ) إلا الكافَ مضافًا إليها حرف التوكيد فقط، فكأن الكاف و(كأنَّ) أداةٌ واحدةٌ عند هؤلاء[6].

---

(١) كأبي هلالٍ العسكري، والآمدي، والخفاجي، انظر: بغية الإيضاح ٣٩٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٦٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٨٩.

(٤) الطبقات الكبير ١/ ١٩٨.

(٥) نثر الدر ٢/ ٧٦.

(٦) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد الأنصاري ٣/ ٧٢ تحقيق وشرح الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت، ط١/ ١٤٢١هـ.

فمن الكاف قول النعمان بن مقرِّن في الدُّنيا: «ولم يبقَ منها إلا صُبابةٌ كصُبابة الإناء»[١]، وقول عليّ: «تركب أولاهم أُخراهم كالإبل المطرَّدة الهِيم»[٢]، وقول أبي موسى الأشعري: «وإنَّ هذه الفتنة باقرةٌ كداءِ البطن»[٣]، وقول شيبة بن عثمان: «فرُفع لي شواظٌ كالبرق»[٤].

ومن أمثلة (كأنَّ) قول أبي ذَرٍّ: «كأنِّي نُصُبٌ أحمر»[٥]، وقول هند بن أبي هالة: «كأنَّ عنقَه جِيدُ دُمية»[٦]، وقول أبي هريرة: «كأنَّ الشمس تجري في جبهته... وكأنَّما الأرضُ تُطوى له»[٧].

ثم يليهما عددًا ما ورد مرتين، وهو ثلاثةُ أشياء: التشبيهُ بـ(المنزلة)، ومِثالاه: قولُ عُمر بن الخطاب لابنه: «فإيَّاك يا عبدَ الله أن تكون بمنزلة البهيمة...»[٨]، وقول أبي ذرّ: «فأنزلوا آلَ محمد بمنزلة الرأس من الجَسَد، بل بمنزلة العينين من الرأس»[٩]؛ والتشبيهُ بـ(مِثلٍ)، ومثالاه: قولُ جابر بن سَمُرة في تشبيه وجه النبي ﷺ: «مثل الشمس والقمر»[١٠]، وقولُه في تشبيه خاتمه: «مثل بيضة الحمامة»[١١]؛ والتشبيهُ بـ(مَثَلٍ)، ومثالاه:

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٢.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٢٥.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٣.
(٤) الطبقات الكبير٦/ ٦٤.
(٥) نثر الدُّرّ ٢/ ٧٩.
(٦) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٣.
(٧) الطبقات الكبير ١/ ٢٧٥.
(٨) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٣٧.
(٩) نثر الدُّرّ٢/ ٧٧.
(١٠) الطبقات الكبير ١/ ٣٥٨.
(١١) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٦.

قولُ النعمان بن مقرِّن: «مَثَلي ومَثَلُ كَسْكَر، كمَثَل رجلٍ شابٍّ وإلى جنبه مومسةٌ تَلوَّنُ له وتَعطَّر»[1]، وقولُ عمر بن الخطاب: «إنما مَثَلي ومَثَل صاحبيَّ كثلاثة سلكوا طريقًا، فمضى الأول وقد تزوَّد ...»إلخ[2].

ثُمة قد جاء التشبيهُ بـ(الذُّكر) مرةً واحدةً على سبيل الطرافة والنُّدرة، وهو قول أمِّ هلالٍ رضي الله عنها: «ما رأيتُ بطنَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطُّ إلا ذكرتُ القراطيسَ المُثْنيَّةَ بعضها على بعض»[3].

فإنَّ هذا التلوين في إيراد كلمة الشبه آيةٌ على التفنُّن في صناعة هذا الفنِّ العتيق، فنِّ التشبيه، وآيةٌ على حرص الصحابة على أن لا ينحصروا فيه على طريقةٍ واحدة.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٦١٧.

(٣) الطبقات الكبير ١/ ٣٦٠.

[٣] الاسْتِعارة

وأما الاستعارة فهي أثيرةٌ في النثر لدى الصحابة؛ إذ جاءت فيها يقرب من ثُلُث مواضع الصورة منه، وهذا -إذا نظرنا إلى ما في الاستعارة من الحيلة والصناعة وإلباس المشبَّه صفةَ المشبَّه به إلباسًا شديدًا يوهم بالوَحْدة في مواطن كثيرة- أمرٌ لا بُدَّ من إقراره والإشادةِ به في هذا الموضع.

(غَلَبة الاستعارة المكنيَّة)

وإذا كانت الاستعارة على قسمين: تصريحية، ومكنية[١]، وكانت المكنيَّةُ أوغلَ في الصورة من حيث إنه حُذف فيها المشبَّهُ به وهو أصلُ الصورة[٢]، ثم تُرك له لازمٌ من لوازمه تَستدلُّ الأفهامُ به عليه؛ إذا كان الأمرُ كذلك فإننا نُثبتُ ههنا أن الصحابة لم يكتفوا بالإكثار من إيراد الاستعارة فحسب، بل فضَّلوا من نوعيْها الاستعارةَ المكنيَّةَ على الخصوص، فكان استعمالُهم إياها في الصورة أكثر من استعمالهم للاستعارة التصريحية؛ بل لعلنا نقول: إن الاستعارة المكنيَّةَ كانت الأصلَ في الاستعارة لديهم.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يميلون ـ إذا هم صوَّروا ـ إلى الصورة أكثر من ميلهم إلى الأصل، فيستبعدون من الألفاظ والمعاني كلَّ ما من شأنه أن ينبِّه المستمع على الحدود الفاصلة بين المشبَّه والمشبَّه به، حتى يقع الأثر الذي يرومونه من التصوير من نفس المخاطب في موقعه الصحيح الصائب الذي أعدُّوه له.

---

(١) الاستعارة التصريحية: هي التي حُذف فيها لفظ المشبَّه، واستعير له لفظ المشبَّه به، انظر: بغية الإيضاح ٣/ ٩٠، والمكنيَّة: هي التي أُضمر فيها التشبيه في النفس، فلم يُصرَّح بشيءٍ من أركانه سوى لفظ المشبَّه، ففيها يُحذف لفظ المشبَّه به، ويُستعاض عنه بذكر لازمٍ من لوازمه يدلُّ عليه، للمبالغة، انظر: بغية الإيضاح ٣/ ١٣٢.

(٢) يرى الدكتور شوقي ضيف: أن الاستعارة المكنية «لا تقوم على التشبيه، وإنما تقوم على بَثِّ الحياة والحركة في المشبَّه لغرض المبالغة»، انظر: البلاغة تطورٌ وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف، ص١٩٤، دار المعارف، القاهرة، ط١١.

ولذا لا عجب إن ذكرنا أن الاستعارةَ - بل الصورةَ جميعًا - كانت أكثر وقوعًا في الخطابة وغيرها من الأنواع الشفوية المريدة إلى التأثير في نفوس المخاطَبين تأثيرًا مباشرًا، أمَّا الكتابة فتقلُّ فيها الصورةُ استعارةً كانت أو تشبيهًا أو ما سواهما؛ من أجل أنها ذاتُ مغزًى لا عاطفيٍّ، ولا نفسيٍّ، بل عقليٍّ ونفعيٍّ في مقامها الأول.

(الاستعارة عفوَ الخاطر)

ولو أردنا أن نضع أيدِيَنا على فَنيَّة الاستعارة في نثر الصحابة، لأمكننا تقسيمُها قسمين: قسمًا ترِدُ فيه الاستعارةُ هيِّنةً يسيرةً عفوَ الخاطر، كأنها كلامٌ من الكلام، لا يُعِدُّ لها صاحبُها عُدَّةً، ولا يُدير فيها فِكرًا ولا نظرًا؛ فهي لا تفْجَأُ الخيال، ولا تَرُوعُ السمع، ولا تستوقفُ الأفئدة؛ بل غايتُها أن تكون دليلًا من الأدلة على قِدَم الصورة في النوع وتمكُّنها منه.

فمن هذا القسم قولُ أبي عُبيدة يصف المعركةَ لعمر بن الخطاب: «وكان القتال بين الفريقين مليًّا من النهار، أهدى الله فيه الشهادةَ لرجالٍ من المسلمين»[(١)]، فهو قد شبَّهَ الشهادةَ بالهديَّة، ثم حذف المشبَّهَ به وأبقى لازمًا من لوازمه، وهو الإهداء، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، ولا يكاد قارئٌ يمرُّ بمثل هذه العبارة يقف عندها؛ لأنها صارت في العُرف -وفي مثل هذه الجملة- كالكلام الحقيقيِّ الذي لا مُجاوزة للغة فيه.

ومنه قول عليٍّ يدعو على قومٍ في خطبةٍ: «اللهمَّ فافضض خَدَمَتَهُم»[(٢)]، وأصل الخَدَمَة سيرٌ غليظٌ مثل الحلقة، يُشدُّ في رُسْغ البعير، ثم يُشَدّ إليها سَرائحُ نَعْلِها؛ شَبَّهَ اجتماعَهم وتحلُّقَهم بهذا السَّيْر، ثم حَذَف المشبَّهَ على سبيل الاستعارة التصريحية التي لا يُكترث لأمثالها في ذلك العصر.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٦٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٥.

ومن هذا القِسْم قولُ طلحة بن عُبيد الله: «أما بعد يا أميرَ المؤمنين، فقد أحكمتْك الأمور، وعَجَمَتْكَ البلايا، واحتنكَتْك التجارِب»[1]، فإنَّ هذه الأمور لا تُحْكِمُ ولا تُعْجِم ولا تَحْتَنِك بذواتها، بل شُبِّهت برجالٍ محذوفين يُحكمون ويُعجِمون ويحتنِكون، وذلك كلُّه على سبيل الاستعارة المكنية، ولكنَّ هذه الأمثلة الثلاثة مما لا يُلتفَت إليه؛ لشهرتهنَّ، وتكرُّرهنَّ، ودورانهنَّ في كلام العرب، وإنما قد يُلتفتُ إليهنَّ احتباكًا وإيقاعًا فقط، وهذا فرعٌ من الإجادة في القول ليس هذا موطنَ التفصيل فيه.

(الاستعارة المجوَّدة)

أمَّا ما ينبغي أن يُلتفَتَ إليه ـ وهو القسم الثاني من القسمين ـ وهو الاستعارةُ البارعة، التي لها يهتزُّ الوِجدان والجسَد، فهي الجديرة بالتأمُّل، الحقيقةُ بالنظر، الداخلةُ في معنى الفنِّ بأصدق الوجوه. إنها كاستعارة عُمر في قوله للنعمان بن مُقرِّن: «إن معك حَدَّ العرب ورجالَهم في الجاهلية، فأدخلْهم دون من هو دونهم في العلم بالحرب، واستعنْ بهم، واشربْ برأيهم»[2]، فإنَّ الشاهد في قوله: «واشرب برأيهم»؛ فهو مما يستوقِفُ، ومما يَفجَأ، ومما يُعجِب؛ فقد شبَّه رأيَ هؤلاء الرجال، وحاجةَ الناس إليه، بالإناء، ثم حذف المشبَّهَ به وأبقى لازمًا من لوازمه وهو فعل الشُّرب، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، كأنه يقول: إنه لا رِيَّ للناس إلا من طريق هؤلاء، ولا فوزَ لهم ولا صلاحَ ولا نصرَ إلا برأيهم. قال هذا كُلَّه وزيادةً، بكلمتين.

ومن جليلِها ورائقها قول عمر بن الخطاب أيضًا وهو يفصِّل الرأيَ في أصحاب الأرض المفتوحة: «وإن هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء، فإذا هلكنا وهلكوا أكلَ أبناؤنا أبناءهم أبدًا ما بقوا»[3]، يريد أن يبقيَهم على ما في أيديهم من الأرض ليَعملوا

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٧.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٦٦-٤٦٧.

للمسلمين. وموطنُ البراعة في الاستعارة أنه شبَّهَ هؤلاء ومجهودَهم بالثمرة المتنامية والطعامِ السهل اليسير، ثم حذف المشبَّه به، وأبقى المشبَّه، وترك ما يدل عليه وهو فعل الأكل على سبيل الاستعارة المكنيَّة.

ومن حَسَنها قولُ أبي بكر في موعظته ذاكرًا عاقبةَ الـمَلِك الذي غرَّته الدنيا: «فإذا وجَبَتْ نفسُه، ونَضَبَ عُمرُه، وضحا ظِلُّه؛ حاسبه الله فأشدَّ حسابَه، وأقلَّ عفوَه»[1]؛ فإن الشاهد المراد من عموم هذه الصورة المتوالية في قوله: «ونَضَبَ عمرُه»، شبَّه العُمُر بالإناء الـمَليء بالماء الذي يتناقص يومًا بعد يوم حتى ينضب، ثم حذف كلَّ هذا المشبَّه به، واستعار له الفعل مصوِّرًا بالاستعارة المكنيَّة، وفي هذا بَعْدُ ما فيه من الإيجاز والبلاغة. وهذه الاستعارة مما ذكره ابن المعتز في شواهده المختارةِ في كتاب (البديع)، وهو الكتاب الذي وضعه ليُثبت سبق العرب المولِّدينَ إلى ألوان فنونه[2].

ومن هذا ما يدخل في الاستعارة التمثيلية كقول أبي موسى: «خلُّوا قُريشًا إذا أبَوْا إلا الخروج من دار الهجرة، وفراق أهل العلم بالإمْرة؛ تَرْتُقْ فَتْقَها، وتَشْعَبْ صَدْعَها، فإن فعلتْ فلأنفُسها سعتْ، وإن أبتْ فعلى أنفُسها جنَتْ؛ سمنَها تُهَريقُ في أديمها»[3]، فهذه ثلاثُ استعارات: «ترتق فتقها، وتشعب صدعها، وسمنَها تُهَريق في أديمها». والمعنى المقصود من استجلاب هذه الصورة أن يترك الناسُ قريشًا وشأنها، فهي أدرى به، وهي تتحمَّلُ عاقبتَه.

ومن الاستعارة التمثيلية قولُ عمر بن الخطاب وهو ينهر قومَه بني عديٍّ إذ سألوه أن يُقدِّم نفسه في العطاء على آل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «بَخٍ بَخٍ بني عديّ! أردتُم

---

(١) عيون الأخبار ٥/ ٢٣٣.

(٢) انظر: كتاب البديع، لعبد الله بن المعتز، ص٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٣-٤٨٤.

الأكل على ظهري، وأن أُذهِبَ حسناتي لكم»[1]. فما أجودها من استعارة مُطْلِعةٍ على صورة الخِزي والعار والخُسران لمن يفعل ذلك، كيف أن قومه يجعلون ظهرَه مَطيَّةً لطعامهم، فما أحقر الصنيعة! وما أذلَّ الغاية! وكيف أنهم ـ وهو الذي انثنى لهم ـ لا يأبهون له، ولا لشرفه وتعَبِه وكرامته.

على أن من أطول الاستعارات ومُفصَّلِها قولَ النعمان بن مُقرِّن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قد علمتُم ما أعزَّكم الله به من هذا الدين، وما وعدَكم من الظهور، وقد أنجز لكم هواديَ ما وعدكم وصُدُورَه؛ وإنما بقيتْ أعْجَازُه وأكَارعُه»[2]. والجودةُ ههنا، والإشارةُ إلى قصد الاستعارة، تكمنان في قوله: «أعْجَازه وأكَارِعُه»، فلو كان لم يذْكرهما، لما فطِنَّا إلى ما في «الهوادي والصدور» من الاستعارة؛ ذلك أنهما من الشائع المستعمل في الكلام عندهم للدلالة على أوائل الأمر وبداياته، فكأنَّهما صارا لفظين (دارجين) في المعنى، فلما أراد إحياءهما بالصورة أردفهما بالأَعجاز والأكارع؛ ليدُلَّ على أصل المجاز في القول، عندها سيبتهجُ العقل؛ إذ تُعيدُه اللغةُ إلى روح الأشياء وقد خالَها ميِّتةً، وتُشعره بنبضها وقد ظنَّها رميما.

ومن طويل الاستعارات أيضًا، ومتتابعها في معنى مستعارٍ له واحد؛ وهو قدوم الموت؛ قولُ عبد الله بن الزبير وهو يخطبُ القومَ المحاصرين معه بالحَرَم: «أيها الناس، إنَّ الموت قد تغشَّاكم سَحابُه، وأحدَقَ بكم رَبَابُه[3]، واجتمعَ بعد تفرُّق، وارجَحَنَّ بعد تمشُّق[4]، ورَجَس نحوَكم رعدُه، وهو مُفْرِغٌ عليكم وَدْقَه»[5].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٠١.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٣١.

(٣) الرَّباب: جمع رَبابة: السحابةُ التي قد ركب بعضُها بعضًا «لسان العرب: ربب».

(٤) الوَدْقُ: المطرُ كلُّه: شديدُه وهيِّنُه «لسان العرب: ودق».

(٥) العقد الفريد ٥/ ١٥٥، وغريب الحديث، للخطَّابي ٢/ ٥٦٦.

فهو قد استعار صورةَ السحاب في تكوُّنه واجتماع نُتَفه، ثم تكاثُفِه، وثِقَله، ثم رعَدِه وإنذاره بما سيكون من المطر؛ أيِّ مطرٍ كان: شديده أو هيِّنه، دلَّ على ذلك بكلمة (الودق)[1]، وكأنَّه يقول: إن الموتَ آتٍ إليكم لا محالة، بلينٍ أو بِشدَّة، فانتظروه، ولا تهربوا منه، فقد أحكم قبضتَه، وأحاط بكم. وهو بهذه الصورة المتوالية الأجزاء ينقل لهم هول الموقف، ويُيئِسُهم من الحياة، حتى يُبلِيَ كلٌّ منهم البلاء الذي ليس بعده.

(استعارتان مكررتان في نثر الصحابة)

لقد حَرَصَ الصحابة على تصوير معنيَيْن من المعاني الخطيرة في نثرهم، بل في حياتهم؛ بالاستعارة غيرَ مَرَّة، هما معنيا: الفتنة والدُّنيا.

(الاستعارة للفتنة)

أمَّا الفتنة فقد شخَّصها أبو موسى الأشعريُّ فجعلها كالمرأة الصمَّاء التي لا تسمع ولا تعقل، فقال مرَّةً: «فإنها فتنةٌ صَمَّاء»[2]، ووصفها في أخرى بأنها باقرةٌ تضرب وتقتل، فقال: «وإن هذه الفتنة باقرةٌ كداء البطن»[3].

ولسعيد بن العاص صورةٌ ممتدَّةٌ يُشبِّه بها الفتنة، وكان سعيدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن اعتزل الفتنة فقال: «ألا إنَّ الفتنة قد أطلعتْ خَطْمَها وعينيْها، ووالله لأضربنَّ وجهها حتى أقمعَها أو تُعْيِيَني»[4]، وهي صورةٌ استعاريةٌ طويلةٌ موغلةٌ في الدعوى، متَّخِذةٌ من التشخيص مَرْكبًا ذلولًا لها.

---

(١) الوَدْقُ: المطرُ كلُّه: شديدُه وهيِّنُه «لسان العرب: ودق».

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٢.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٨٣-٤٨٤.

(٤) جمهرة خطب العرب ١/ ٢٧٨.

ولعثمان بن عفان صورةٌ ليست ببعيدٍ من صورة سعيد، بيد أنها أقصرُ منها، يقول فيها: «إنَّ الفتنة قد أخرجتْ خَطْمَها وعينيْها، فلم يبقَ إلا أن تَثِب»[1]، وهي صورةٌ متحرِّكة، بل وثَّابةٌ كما ترى.

ولعله ليس بنا حاجةٌ إلى التعليق على تعمُّد الصحابة تصويرَ الفتنة بهذه الصور الذميمة المخوِّفة، فقد اكتووا بنارها، ووطئتهم بخُفِّها، حتى أهلكت منهم ومن قَرْنهم خلقًا لا يُعدُّون كثرةً، ولا يُطاوَلون فضلًا؛ في مدَّةٍ يسيرةٍ من الزمن.

(الاستعارة للدنيا)

وأما المعنى الآخر الذي استعاروا له غير مرةٍ، فهو الدنيا؛ إذ ظلُّوا يخافونها ويُحذِّرون الناسَ منها، وقد وقعت لنا بِضْعُ استعاراتٍ لهم فيها هي من قبيل (التشخيص)، والتشخيص ضربٌ من الاستعارة، وهو «يُعدُّ من أقوى أركان الصورة الشعرية وأعمدتِها»[2]، وقد أشار إليه عبدُ القاهر فقال: فإنك ترى بالاستعارة «الجمادَ حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخُرْسَ مُبينةً... إنْ شئتَ أرتْك المعانيَ اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطَّفَتْ الأوصافَ الجُسمانية حتى تعودَ رُوحانية لا تنالُها إلا الظُّنون»[3].

من هذا الضرب تشخيصُ عثمان للدنيا بالمرأة التي لا تترك إلا مَنْ تركها في قوله: «واعلموا أنها غيرُ تاركةٍ إلا مَنْ تركها»[4]؛ وتشخيص الحُسين لها بالمرأة الغادرة المتغيِّرة الـمُتنكِّرة للفضل في قوله: «إنَّ الدنيا قد تغيَّرتْ وتنكَّرت»[5].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٨٤.

(٢) انظر: فصل التشخيص من كتاب: قضايا في النقد والشعر، للدكتور يوسف حسين بكار، ص٣٤، دار الأندلس، بيروت، ط١/ ١٤٠٤هـ.

(٣) أسرار البلاغة، ص٤٣.

(٤) جمهرة خطب العرب ١/ ٢٧١.

(٥) تاريخ الرسل والملوك٥/ ٤٠٣-٤٠٤.

وجعل لها قومٌ أبناءً مغترِّين بها، منتسبين إليها، محبِّين إيَّاها، كقول عُبادة بن الصَّامت: «ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ كل أُمٍّ يتبعُها بنوها يوم القيامة»[1]، وزاد أبو بكرٍ فجعل لها مع الأبناء إخوةً في قوله: «أين أبناءُ الدنيا وإخوانُها؟»[2].

لقد عاش أولئك الصحابة الكرامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ زاهدين في هذه الحياة الدنيا، مستنقصين إيَّاها، ينتظرون انقضاءها، آملين الأجرَ العظيم، ورحمةَ ربهم في الآخرة.

(١) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٤، والطبقات الكبير، لا بن سعد ٥/ ٣٢٤، وقد نسبت فيه إلى شدَّاد بن أوس.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٣.

[٤] المَجَازُ المُرْسَل

إنَّ الصورةَ فيما مضى إنما هي الصورةُ في المجاز إذا كانت علاقتُه التشبيه، وهو الاستعارة حينئذٍ، أما إن كانت له علاقاتٌ أخرى غيرُ علاقة التشبيه، وهو المجازُ المرسَل ـ وهو لم يرد إلا قليلًا في نثر الصحابة، في خمسة مواضع من المئة المذكورة ـ فإنَّ منه ما يكون صورةً، ومنه ما لا يدخلُ في الصورة، ولعلَّ أحدًا لم يأبه للتفريق في المجاز المرسل ـ حين دراسة الصورة ـ بين هذين: ما يدخل منه في الصورة وما لا يدخلُ منه فيها، بل إنه قد يُدخَل ضمن أبواب (البيان) المعدَّة لدراسة الصورة من غير تنبيهٍ، كأنه كالتشبيه والاستعارة بإطلاق، وكأنَّ المجازَ المرسَلَ كلَّه بعلاقاته إنما هو من الصور البيانية الخالصة.

وقد ظهرتْ بوادر الإحساس بالفرق قديمًا عند بعض البلاغيين حين رأوا أن «صور المجاز الذي يكون النقل فيه معتمدًا على غير التشبيه، أقل في الناحية البلاغية والجمالية من الاستعارة، بل من الطباق والجناس والمقابلة؛ لأنها داخلةٌ في البديع دونه»[(١)]. واضطربت أقوال بعضهم في صرف بعض استعمالات هذا النوع بين الحقيقة والمجاز، كالزمخشري، والآمدي في شرحهم لبعض الأمثلة[(٢)].

وقد حاول المتأخرون من البلاغيين «تحديد علاقة الملابسة هذه التي لم يحاول عبد القاهر أن يحدِّدها في علاقات معينة، ولكن محاولاتهم في جملتها لم تصل إلى حقيقةٍ فيها قدر من الصلابة يصح أن تقف عندها، وإنما كانت كلها ناقصة، فالخطيب يذكر ثماني علاقات، وابن الأثير يذكر عن أبي حامد الغزالي أربع عشرة علاقةً أو قِسْمًا، ويرى ابن الأثير أن أكثرها يدخل بعضُها في بعضٍ، وهو مصيب. ويذكر السيوطيُّ والزركشيُّ غيرَ

---

(١) التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، للدكتور محمد محمد أبو موسى، ص٣٤٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢/ ١٤٠٠هـ.

(٢) انظرها في: التصوير البياني، للدكتور محمد محمد أبو موسى، ص٣٤٧.

هذا وذاك، ويشير بهاءُ الدين السبكي إلى أنها عند بعضهم تزيد على ثلاثين علاقة»[1]. وهذا الاختلاف بينهم راجعٌ إلى أن هذه الملابسة بين المعنى والقرينة «أشمل من أن تتحدد في علاقات جزئيَّةٍ معيَّنة»[2].

فالمجاز المرسل مما يحتاج إلى إعادة تفكيك، ثم تصنيفٍ من جديدٍ على أبواب البلاغة العربية، لا أن يُضمَّ بكل يُسرٍ إلى أبواب المجاز بمسوغٍ ضعيفٍ، هو مسوِّغُ (العلاقات).

(ما يدخل منه في الصورة)

فمما يدخلُ من المجاز المرسل في الصورة جملةُ: «وضحا ظلُّه» في قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فإذا وَجَبَتْ نفسُه... وضحا ظِلُّه؛ حاسَبَه الله فأشدَّ حسابَه...»[3]، يريد بالظلِّ هنا الإنسانَ نفسَه، فإنَّ الظِّلَّ مسبَّبٌ عنه، والإنسانُ هو مسبِّبُه، فالعلاقة المسبِّبية. ومعنى ضحا ظلُّه: أي مات. يُقال: ضحا الظِّلُّ إذا صار شمسًا[4]؛ فهذا لا شكَّ من الصورة، بل هو من الصورة الجيِّدة، التي تُلقي المعنى في نفس الإنسان إلقاءً صادقًا يعيشُه ويُحسُّ به.

(ما لا يدخل منه في الصورة)

أما ما لا يدخل من المجاز المرسل في الصورة فكقول معاوية يتهدَّد ملك الروم بجيشٍ يجتمع فيه مع عليّ: «ولأكوننَّ مقدِّمتَه إليك»[5]؛ فهذا لا يدخل في الصورة إلا إذا عددناه في الصورة الحقيقية، أما الصورُ البيانية فلا، بل ليس لمثل هذا من الأمر في اسم (المجاز) إلا معنى (التجوُّزِ) اللغويِّ فحسب، أي انصراف جهة الكلام من الكلمة الأصل إلى كلمةٍ أخرى حلَّتْ محلَّها، وهذا بحثٌ لغويٌّ لا علاقة له بموضوع (الصورة).

---

(١) التصوير البياني، ص٣٤٥.

(٢) التصوير البياني، ص٣٨٥.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٤٣-٤٤.

(٤) لسان العرب: ضحا.

(٥) غريب الحديث، للخطَّابي ٢/ ٥٣٥، وهو يعني: مقدِّمة جيشه، حذف الجيش، وأبقى قائدَه وهو عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو جزءٌ من الجيش، فالعلاقة هنا الجُزئيَّة.

ومن هذا أيضًا قول عمر بن الخطاب: «فلا يلومنَّ رجلٌ إلا مناخَ راحلته»[1].

وقولُ أسماء بنت أبي بكر وهي تدعو لولدها عبد الله بن الزبير: «اللهم ارحم ذلك السجودَ والنحيب، والظمأ في تلك الهواجر»[2]؛ فأينَ الصورةُ هنا؟ إنه خطابٌ على الحقيقة، أعني الحقيقةَ في مذهب الصورة لا في مذهب المجاز[3]؛ فإنه ليس ثمة صورةٌ متخيَّلةٌ هنا. إلا أن تكون صورةً حقيقيةً ذهنيَّةً كما سبق ـ وهذه سوف تأتي ـ وهذا ما لم يُرده أهلُ البلاغة حين أدخلوا المجازَ في الأبواب البيانية؛ إنهم لم يريدوا أن يقولوا إنَّ المجازَ كلَّه صورةٌ كالتشبيه والاستعارةِ بنوعيها، بل أرادوا أن يقولوا إنَّ المجازَ شيءٌ لم يقع على حقيقة لفظه، بل تجاوزها إلى معنًى آخر.

---

(١) المعجم الأوسط، للطبراني ٤/ ١٢٧، والمجاز أنه أراد بقوله: مناخ راحلته: نفسَه، فالإنسان هو الذي يُنيخ راحلتَه في أيِّ الأماكن والمحالِّ شاء، فإذا نظرنا إلى الإناخة بوصفها مصدرًا فإنها تكون سببًا عن مسبِّبها الإنسان، فالعلاقة المسبَّبيَّة. أما إذا نظرنا إليها بوصفها في الجملة اسمَ مكانٍ؛ فالعلاقة حينئذٍ تكون المحليَّة، كما يطلق عليها أرباب البلاغة، مأخوذة من «المَحلِّ» الذي يحُل الإنسان فيه، وانظر: في هذه العلاقة وعلاقات المجاز: بغية الإيضاح ٣/ ٨٧.

(٢) تاريخ دمشق ٢٨/ ٢٣٥، تريد: صاحبَ السجود والنحيب والظمأ، المسبِّب لها، فالعلاقة المسبِّبية.

(٣) انظر: ما سيأتي قريبًا من الكلام على الصورة الحقيقية.

[٥] الكِنايَة

إنَّ ما مرَّ من الصُّوَر إنما هي صُوَرٌ لا تُبنى على الحقيقة، بل تُبنى على المجاز والتشبيه والتخيُّل. وثَمة صورةٌ وَسَطٌ، يصحُّ أن نحملها على الحقيقة وعلى التخيُّل أيضًا، فهي صورةٌ واقعةٌ بين الصورتين: البيانية والحقيقية، تلك هي الكناية.

والكنايةُ: «لفظٌ أريد به لازمُ معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ»(١).

وبهذا الحدِّ تقف الكناية وسطًا بين الصور المجازية والصور الحقيقية، ممتازةً عن النوعين باكتنافها في طيَّات صورتها سمةً بلاغيَّةً خطيرةً، هي الإقناع؛ ذلك أن صاحب الكناية «لا يأتيك بالدعوى إلا ومعها دليلُها»(٢)؛ «وكل عاقل يعلم -إذا رجع إلى نفسه- أنَّ إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابَها بما هو شاهدٌ في وجودها؛ آكدُ وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتَها هكذا ساذَجًا غُفْلًا؛ وذلك أنك لا تدَّعي شاهدَ الصفة ودليلَها إلا والأمرُ ظاهرٌ معروف، وبحيث لا يُشكُّ فيه، ولا يُظنُّ بالمخبِر التجوُّزُ والغلط»(٣).

والكنايةُ في نثر الصحابة منها ما هو معتادٌ لا صنعة فيه، كقول معاوية يوصي ولدَه يزيد: «وشمِّر إزارَك»(٤)، فهذه كنايةٌ قديمة معروفةٌ عند العرب(٥). وليس معنى قدمها واعتيادِها أن نستخفَّ بها ولا نأبهَ لها، كلا بل هي جيدةٌ حسنةٌ في مواضعها، ولكنها لا تُحدِث جديدًا عند من يبحث في موضوع الصورة إلا بمقدار ما تُذكِّره بأمثالها من كلام العرب، فلا أصالة فيها تُنسَبُ ـ والحالُ هذه ـ إلى صاحبها.

---

(١) بغية الإيضاح ٢/ ١٥٠.

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها، للدكتور فضل حسن عباس ٢/ ٦٥، دار الفرقان للنشر والتوزيع عمَّان، ط٧/ ١٤١٢هـ.

(٣) دلائل الإعجاز، ص٤٣١.

(٤) الطبقات الكبير ٦/ ٢٩.

(٥) انظر: أساس البلاغة، للزمخشري، جار الله محمود بن عمر «مادة: شمر»، دار الشعب ١٩٦٠م.

ومن أمثلة هذا النوع من الكنايات المستعملة قولُ خالد بن الوليد يحكي عن رسول الله ﷺ: «ودافعتْه قريشٌ بالراح يوم الحُديبية»[1]. فهو كنايةٌ حسَنةٌ ترسم صورةً بليغةً عن المنع والصدِّ والإصرار عليه من قِبَلهم، وعن محاولة الرسول ﷺ الحثيثةِ للمضيِّ قُدُمًا في أمره، لعله أن يجد إلى أمره سبيلًا.

أما كناياتٌ أخرى فيهنَّ أثرُ الصنعة، فكقول حكيم بن حزام رضي الله عنه في شأن عمَّته خديجة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، وقد سُئل: أيهما كان أسنّ: رسول الله أو خديجة؟ فقال: «كانت خديجةُ أسنَّ منه بخمسَ عشرةَ سنَّة؛ لقد حُرِّمتْ على عمتي الصلاة قبل أن يُولد رسول الله ﷺ»[2].

فهذه كنايةٌ بديعةٌ بليغةٌ تحمل معانيَ التخلُّص والأدبَ والحياء، والكنايةَ عما يُستحَى من القول فيه، فهو قد أراد أن يقول: حاضتْ، فكنَّى عن ذلك بالصلاة، ولم تكن الصلاةُ قد فُرضتْ بعد، ولا كان الإسلام قد جاء! ولو قد فُرضتْ الصلاة وقتَها لحرُمتْ عليها حالَها تلك، ولكنَّ حَكيمًا -كما قال الراوي- أحبَّ أن يتكلَّم بما تكلَّم به أهلُ الإسلام[3]، وتناسى أن الصلاةَ لم تُفرض إلا بعد، ولم يُرد إشغال السائل إلا بقولٍ هو أقربُ إليه وإلى مبتغاه من معرفة السِّنّ؛ من أن يرُدَّه إلى طويلٍ من الإجابة. ولا شك أن في هذا صورةً متخيَّلةً للإسلام لو كان قد بزغ نجمُه في وقتٍ قبل وقته الذي بزغ فيه.

تلك الكناية، وهي تحمل صُوَرًا يصحُّ أن تقع حقًّا، ولكنْ ما لهذا أرادها أصحابُها، إنما أرداوا ما وراء تلك الصور من المغزى، وما توحيه أو تُؤدِّيه، أو تدُلُّ عليه.

---

(١) الطبقات الكبير ٥/ ٢٦.

(٢) الطبقات الكبير ١٠/ ١٦.

(٣) انظر: الطبقات الكبير ١٠/ ١٦، وانظر: في بلاغة مثل هذا النوع من الكنايات: الأسلوب الكنائي: نشأته، تطوره، بلاغته، لمحمود السيد شيخون، ص٩٢، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١/ ١٣٩٨هـ.

[٧] الصُّوَرُ الحقيقيَّة

أمَّا صورًا أخرى أرادها أصحابُها أن تكون على حقيقتها، لا استعارةَ فيها ولا تشبيهَ ولا كناية؛ فإنها إلى الرسم أقربُ منها إلى التصوير الفوتوغرافيِّ الجافِّ الجامد، الذي لا مجال للتصرُّف في صورته، بل إن المصوِّرَ في هذا النوع من الصور إنما هو كالرَّسَّام الذي تُسيطر عليه من المشهد أشياءُ بعينها، أو الذي تطغى عليه رؤيتُه، فلا يرى من الواقع إلا أشياءَ بعينها؛ إنه فنانٌ لا ناقل، فنانٌ يُعبِّرُ بالألفاظ لا بالريشة عمَّا يُحِسّ.

إنَّ المذاهب الأدبية الحديثة لا تلتزم في الصورة «ضرورةَ أن تكون الألفاظُ أو العبارات مجازيَّةً؛ فقد تكون العباراتُ حقيقيَّةَ الاستعمال، وتكون مع ذلك دقيقةَ التَّصوير، دالَّةً على خيال خِصْب»[(١)]. بل لقد ذهب بعض الباحثين إلى «أن كلَّ ملفوظ ـ مهما تكن صيغتُه ـ قابلٌ لاكتساب مدى استعاريّ»[(٢)]. وهذا النوع من الصورة «ترفِده دائمًا قدرةٌ على الملاحظة والتركيب، أي جَمْعِ العديد من الملاحظات الجزئيَّة في الحياة، ثم تركيبِها في صورة فنيَّة متكاملة»[(٣)].

إنَّ التصوير الفنيّ في الأدب إذ يُصوِّر الحقيقة، لا ينقلها كما هي، بل ينقلها مثلما تختلط بمشاعر الأديب وكيانه، فقد يقتصر على جزءٍ من أجزاء الصورة لأنه أثار إعجابَه، وقد يُضخِّم جزءًا على غيره لأنه هو الذي فَجَأه أو أذهلَه، وقد ينتقي أجزاءً منها لأنه يراها دون غيرها أغنى دلالةً على مراده.

---

(١) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٤٣٢، وانظر: أيضًا شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، للدكتور أحمد كمال زكي، ص٢٧٣، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٩هـ.

(٢) النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، للدكتور محمد الناصر العجيمي، ص٦٥٧، كلية الآداب، سوسة ط١/ ١٩٩٨م.

(٣) الأدب وفنونه، للدكتور محمد مندور، ص٩٠، مطبوعات معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦١م.

فمن أمثلة التضخيم قولُ عمرو بن العاص يُصوِّر البحر لعُمر: «يا أميرَ المؤمنين، إن البحر خَلْقٌ عظيم، يركبه خَلْقٌ صغير، إن رَكُنَ خَرَّق القلوب، وإن تحرَّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقينُ قِلَّة، والشكُّ كثرة؛ ليس إلا السماءُ والماء»[1].

كذا نظر عمرٌو إلى البحر فصوَّره بما انطبع منه من الأوصاف في نفسه، ولم يَصِفْه وصفَ جغرافيٍّ أو وصفَ ملّاح، بل وصْف هلِعٍ خائفٍ مُرْتابٍ، معظِّمٍ لشأنه؛ وإنَّ التقابلات التي أحدَثها عمرٌو في وصفه هي الظِّلُّ في الصورة الذي يتحرَّك في نفسه، فثمة خلقٌ صغيرٌ ضعيفٌ ضئيلٌ يتجرَّأ أو يُخاطر فيركب هذا البحر العظيم المَهُولَ الـمُهْلِك، الذي إن سكنَ هالَ القلوبَ سكونُه، أو تحرَّك حيَّرَ العقولَ اضطرابُه، فهو يُذهِب اليقين ويُنقصه، ويجلِبُ الشكَّ وينمِّيه، ثم يختم عمرٌو صورتَه بهذه اللقطة النهائية التي تُوئِس القلبَ، وتقتلُ الأمل: «ليس إلا السماءُ والماء» فلا مفرَّ، ولا مَنْجى ولا مَهْرَب، إنه الطريق الواحدُ ذو اللون الواحد، والنهايةِ الجازمة.

إنَّ العاطفة الصادقةَ هي التي تستدعي خواصَّ الصورة الأدبيَّة التي تصلحُ للتعبير عنها[2]، أو فلنقلْ: إنَّ الصورةَ الأدبيَّةَ إنما هي صورةٌ للعاطفة من الأساس. وإنَّ «مقياسَ الصورة الأدبية هو قدرتُها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانةٍ ودِقَّة...»[3].

وإن شاء رسامٌ أن يُعبِّر عن قول عمرٍو: «ليس إلا السماء والماء» بصورةٍ في مَرْسَمه على وقع عاطفةٍ كعاطفة عمرٍو؛ أمكنه الرَّسم، وما إخاله بالغًا ما بلَغَ عمرٌو من (الصُّورة).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٥٨.

(٢) انظر: أصول النقد الأدبي، لأحمد الشايب، ص٢٤٢-٢٤٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٠/ ١٩٩٤م.

(٣) أصول النقد الأدبي، ص٢٤٩-٢٥٠.

وثمة صورةٌ أخرى من صور عمرو، ولكنها صورةٌ ملوَّنةٌ رقصتْ فيها ريشةُ خياله، فأبدعتْها واحدةً من قِطَع الفنِّ الجميل، ساطعةً غنيَّةً مُزدانةً بألوانها؛ إنها خاتمةُ كتابه إلى عُمر بن الخطَّاب في وصف مصر حيث يقول: «فبينا هي بريَّةٌ غبراء، إذ هي لُجَّةٌ زرقاء، إذ هي سُنْدُسيَّةٌ خضراء، إذ هي ديباجةٌ رقْشاء، إذ هي دُرَّةٌ بيضاء، إذ هي حُلَّةٌ سوداء؛ فتبارك الله أحسنُ الخالقين»(١).

لقد كان التنقُّلُ بين الألوان سريعًا وخاطفًا في صورة عَمرو، ولكنه كان محدَّدًا واضحًا مرتَّبًا، وكان للضوء في هذا العمل تأثيرٌ كبيرٌ في ازدهاء ألوانه وزَهائها وحرارتها، فكأنما كان عَمرٌو يرسم ألفاظَه تحت نور الشمس.

ولنا في وصْف سعدٍ للقادسية مَثَلٌ آخر على الصورة الحقيقية(٢)، وكذا في تفصيل عليٍّ لألوان الضرب وما تبثُّه من مشاهد القتال المتنوِّعة(٣)، وتمثيل أنس بن مالك لفروسيَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشجاعته بهذه الصورة البطولية: «لقد كان فزَعٌ بالمدينة، فانطلق أهل المدينة نحوَ الصوت، فإذا هم قد تلقَّوا رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فرسٍ عُرْيٍ لأبي طلحة، ما عليه سرجٌ، وعليه السيف، قال: وقد كان سبقهم إلى الصوت، قال: فجعل يقول: يا أيها الناس لم تُراعوا، لم تُراعوا، مرتين»(٤).

تلك صورةُ الفارس القادم على قومه بالظَّفَر والفوز، أو الآيِب من معركةٍ قُدِّر له فيها النصر، وها هو يعود إليهم بالبُشرى والراحة والأمان، على فَرَسٍ عُرْيٍ لا يعنيه إسراجُه، إذ لم يكن يشغَل إسراجُه بالَه وقتَ وقوع الكرب، بل هو أول ما وقعت عليه

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص٥٠٠.

(٢) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٩٢.

(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٥، وذلك قوله: «إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعنٍ دَرَّاكٍ يخرج منهم النَّسَم، وضربٍ يُفلَق منه الهام، ويُطيح بالعظام، وتَسقط منه المعاصم والأكُفّ، وحتى تُصدع جباهُهم بعُمُد الحديد، وتنتشرَ حواجبُهم على الصدور والأذقان. أين أهلُ الصبر وطُلَّاب الأجر؟!».

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ١٨١.

عيناه وقتَ الهَوْل فامتطاه، غيرَ آبهٍ لصاحبه، ليس معه سوى السيف، ما معه من درعٍ ولا سلاحٍ ولا لأْمةٍ، وإنَّ نسبةَ الفرَس إلى صاحبه أبي طلحة ليزيد في غَناء الصورة وفي معناها؛ فهو إمعان في الصدق، وإلماعٌ إلى سرعة الاستجابة وغليانِ الحماسة في نفس القائد البطل محمدٍ ﷺ.

إن الصورة الحقيقية بابٌ واسعٌ من أبواب التصوير في الأدب، نستطيع من خلاله الاطِّلاعَ على زوايا أخرى مهمَّةٍ من زوايا الفنّ؛ ربما لا تستطيعُ الصورةُ البيانيَّةُ إطلاعَنا عليها.

(الألفاظ المشعَّة المُصوِّرة)

ألا إنَّ ثمَّةَ لونًا من التصوير آخر ينبغي أن نُشير إليه، هو ما تُشِعُّه بعضُ الألفاظ المفردة من الصورة، لما فيها من الأصوات والجَرْس، وما تبثُّه من ظلال المعاني، «بحيث توحي اللفظةُ في موقعها وقرائنِها بأجواءٍ نفسيَّةٍ رحيبةٍ، تُعبِّر عما يُقصِّرُ التعبيرُ عنه، وتُفيد ما لا تُفيد في أصلها الوضعيِّ النفعي»(١). وهذه الألفاظُ غالبًا ما تكون مُنْبنيةً على التَّكرار، أو مؤلَّفةً من أصواتٍ غِرابٍ تستثيرُ الخيال، أو تستدعي الصور إلى الذِّهن.

فإنَّ كلمة «تَبَحْبَحْنا» مثلًا من قول المثنى بن حارثة الشَّيباني: «فإنا قد تَبَحْبَحْنا ريف فارس»(٢)؛ إنَّ فيها صورةً للسَّعة والاطمئنان والسهولةِ في الأمر، استشعرناه من سَعة الكلمة، وسماحة الحاء، وقلقلة الباء المُشْبِهةِ قرعَ الطبول وقتَ الفرح بالفتح.

---

(١) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٣٩٦-٣٩٧. ويشرحُها باحثٌ آخر بقوله: «الألفاظ الموحية: استدعاء الكلمة خلال تلقيها لمعانٍ إضافية إلى معناها الحرفيّ، وبعبارةٍ أخرى: أن يستدعي دالٌّ واحدٌ أكثرَ من مدلولٍ في سياق معين، كألفاظ: الخرير، والدندنة، والأزيز»، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، لمحمد الولي، ص١٨٤، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٠م. على أنه «لم تُدرس خصائص هذه الكلمات في العربية دراسةً منهجيَّةً يُعتدُّ بها، على حين يُعنى بهذه الدراسة النقادُ في الغرب، ولها في نتاج كتابهم وشعرائهم أثرٌ عظيم»، النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٤٣٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٤٥.

وإنَّ في كلمة «الخُضْخُض» من قول ابن عبَّاسٍ يصفُ رجُلًا، ويقارنه برجل: «ولم يكن كالضَّيِّق الخُضْخُض الحَصِر»(١)؛ صورةً للضِّيق والخواء في خاءيْها وضاديْها، و«للاشمئزاز والتقزُّز»(٢) يوحيها صوتُ الخاء على الخصوص؛ على طولٍ في اللفظةِ وعِظَم، كأنه الطول الذي لا ينفع، والعِظَمُ الذي لا يُرتجى من ورائه شيءٌ؛ من حيث إنه لا غَناء فيه ولا سَعَة.

ومثلُ ذلك يُقال في «رِجْرِجَةٍ» من قول أبي مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفتنة: «حتى إذا لم يبقَ إلا رِجْرِجة من هؤلاء وهؤلاء ظهرتْ إحدى الطائفتين غدًا على الأخرى»(٣)؛ والرِّجرجة: بقيَّةُ الماء في الحوض، وبقية الحوض كدرةٌ خاثرة. شبَّه بها الرِّذال من الأتباع في أنهم لا يُغنون عن المتبوع شيئًا كما لا تُغني هي عن الشارب(٤)، فكأنما اهتزَّ الحوضُ هزًّا شديدًا بفعل فاعل، فلم يبقَ فيه إلا قليلُ ماءٍ لـمَّا يزلْ يترجرج ويهيم بعد، كأنه المرهَقُ الخاثرُ الضعيف.

وقل نحوًا من ذلك في كلمة «تضعضع» من قول أبي بكر: «أين الذين كان لهم ذكرُ القتال والغلَبة في مواطن الحروب؟ قد تَضَعْضَعَ بهم الدهرُ، وصاروا رميمًا»(٥). والضَّعْضَعةُ: الهدمُ حتى الأرض، وتَضَعْضَعَتْ أركانُه: اتَّضعتْ(٦).

وفيه معنى الانكسارِ والذلَّة والتدرُّج في ذلك، والإصرارُ والمثابرة عليه، كالهادم الذي يهدم بناءً لا يتركه حتى يسويَه بالأرض. وكذا يفعل الدهر بمن يتعلق به، يُهلكه ويزولُ عنه.

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٧، ورجل خُضخُض: يَتَخَضْخَضُ من السِّمَن، وقيل: هو العظيمُ الجَنْبَين «لسان العرب: خضض».

(٢) خصائص الحروف العربية، لحسن عباس، ص١٧٤، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٨م.

(٣) الطبقات الكبير ٤/ ٣٦٣.

(٤) لسان العرب: رجج.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٥.

(٦) لسان العرب: ضعع.

وفي صوت العين مرارةٌ، وقد استعمله العرب في «كثير من معاني الغلظة، والفجاجة»[1]؛ فكأنَّ الدهر وهو يتهدَّم بهم، يقسو عليهم، ويُعنِّفهم لما اجترحوه من تعلقهم به.

فتلك إذن صورةٌ متكاثفةٌ منحتْناها لفظةٌ واحدةٌ، بأصواتها وانبساطها وتعرُّجها، فكأنَّ اجتماع العين مع الضاد وتكرُّرَهما فَعَلا مفعول الرسم في تصوير مشهد البناء المتهدِّم الذي يهوي عليه بمعوله الدَّهرُ شيئًا فشيئًا، حتى يذرَه كأنْ لم يكن.

وكلمةِ «مُتَعْتَعٍ» من قول عُمر: «وإنَّ الله قد ألزمني دفعَ الدعاء عنه، فأنهوا شِكاتَكم إلينا؛ فمن لم يستطع فإلى من يُبلِّغُناها نأخذْ له الحقَّ غير مُتَعْتَع»[2]. والتَعْتَعَة: أن تُقبل بالرَّجُل وتُدبر به، وتعنِّف عليه في ذلك[3].

أي أنَّ الحقَّ عند عُمر واضحٌ لا لبس فيه، شبَّهه بالرجل القويِّ الصلب، الذي لا يقدر على هزِّه بَلْهَ تعنيفه وجَبْذِه أحد، فهو عزيزٌ مُهابٌ صلدٌ. إنها لفظةٌ واحدةٌ موحيةٌ بصورةٍ مركَّبةٍ كاملة.

أمَّا الأصوات الغريبة فمن نحو قول عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولا تُكْثروا ولا تُطيلوا فتُفْشَغَ بكم الأمور»[4]، فإن الفَشْغَ يذهب بنا إلى صورةٍ معروفةٍ ذِهْنًا، دالَّةٍ على الصعوبة والاتِّساع والألم[5].

---

(١) خصائص الحروف العربية، لحسن عباس، ص٢١٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، للطبري٣/ ٤٨٥، والتَعْتَعَة: أن تُقبل بالرَّجُل وتُدبر به، وتعنِّف عليه في ذلك «لسان العرب: تعع»، وهي لفظةٌ تُوحي بصورةٍ مركَّبةٍ كاملة.

(٣) لسان العرب: تعع.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٣.

(٥) الفَشْغُ والانفِشاغُ: اتِّساعُ الشيء وانْتِشارُه «انظر: لسان العرب: فشغ».

لقد كانت الألفاظ في العهود القديمة صورًا فطريَّةً نابضة[1]، وكانت توحي بها لم تعد توحيه ألفاظُ الأدب في الأزمنة المتأخرة؛ حيث فَقَدَ الإنسانُ، «وبخاصَّة في العصور الحديثة، قوَّةَ هذه الإشعاعات الفطريَّة للألفاظ اللغويَّة عن طريق التجريد»[2]، تجريدِ الألفاظ من الصورة[3].

(١) يذكر العقاد أن «المجاز قد انتقل في اللغة العربية من الكتابة الهيروغليفية إلى الكتابة بالحروف الأبجدية، وهذا هو المثال الصالح لتقريب المعنى الذي نريده حين نقول: إن المجاز العربي يصور لنا المعانيَ المجردة -مباشرة- من وراء تصوير الأشباه والأشكال. كان الكاتب القديم في عهود الكتابة الأولى قبل اختراع الأبجدية، يريد أن يكتب «يمشي» فيرسم على الصخر أو الورق صورةَ إنسان يمشي على قدميه ويبدو عليه أنه يتحرك في مشيته، ثم تطورت الكتابة فانتقلت الصورة إلى مقطعٍ صوتي يؤخذ من الصورة، ويُستخدم في الدلالة على الأصوات التي تشبهه، ثم انتقلت من المقطع الصوتي إلى حرفٍ واحد تجتمع منه حروف الأبجدية، وهذه هي الكتابة في مرحلتها الأخيرة» اللغة الشاعرة، لعباس محمود العقاد، ص٣٧-٣٨، منشورات كتاب المجلة العربية، الرياض ١٤٣٥هـ، ولا شك أن الإنسان في أطوار هذا الانتقال كان تخيُّله للكلمة أقوى وأقربُ إلى الصورة كلما قدُم الزمن.

(٢) النقد الأدبي الحديث، للدكتور غنيمي هلال، ص٣٤٢-٣٤٥.

(٣) انظر: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص٤١٦.

الفصل الخامس

التّجويدُ والصّناعة

ظهرت آثار صناعة الصحابة في النثر في أربعة مواضع: في الطباق والمقابلة، والجناس، والسجع، والتعادل النغميّ. وهذا تفصيلُ كلٍّ منها:

[١] الطّباقُ والمُقَابَلة

الطباقُ: الجمع بين متضادَّين، أي معنييْن متقابلَيْن في الجملة. والمقابلَةُ: أن يُؤتى بمعنييْن متوافقيْن أو معانٍ متوافقة، ثم بما يُقابلها على الترتيب[(١)].

وهذا الفنُّ سمةٌ ظاهرةٌ من سِمات نثر الصحابة، وعلامةٌ واضحةٌ من علامات كلامهم، وأصلٌ من الأصول التي إليها ارتكنوا، وعليها عوَّلوا في التعبير عمَّا يجيش بصدورهم، أو يجول بأفكارهم. وسبب ذُيوعه أنهم لم يزالوا ينظرون إلى الأمور بنظرَيْن ثابتيْن: فثَمَّة حقٌّ وثَمَّة باطلٌ، وثمَّة دنيا وثمَّة آخرة، وثمَّة جنةٌ وثمَّة نار.

إنَّ مرجع انتشار التقابُل في أدب الصحابة النثري مرجعٌ إسلاميٌّ من غير شك[(٢)]، فقد شقَّ لهم الإسلام في هذه الحياة طريقين لا ثالثَ لهما، فإمَّا هدايةٌ، وإمَّا ضلال، وإمَّا إيمانٌ وإمَّا كُفر، وإما بصيرةٌ وإمَّا عَمَى، كذا آمنوا، أو كذا صاروا مؤمنين، فلما مازج الإيمانُ قلوبَهم رأوا حقائقَ الأمور كأنما يرَوْنَ ضوء الشمس.

---

(١) بغية الإيضاح ٤/ ١١-١٢.

(٢) انظر: أنموذجًا على انتشار التقابُل في شعر الصحابة أيضًا في: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، ص٣٦٩.

(الطباق)

فمن الطباق في معنى العزَّة بالإسلام مثلًا قولُ عمر بن الخطاب لعُتْبة بن غزْوان: «وقد صحبتَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعززْتَ به بعد الذِّلَّة، وقويتَ به بعد الضعف»[1]، فهذان طباقان. ومنه في معنى المآل إلى القرآن، وأن ما أحياه هو الحيُّ، وما أماته هو الميّت قولُ عليّ بن أبي طالب في طباقٍ واحدٍ عن الحَكَمين: «وأحْيَيَا ما أمات القرآن»[2]. ومنه في حقائق القلوب قولُ عمر: «وللقلوب حقائق يُنشئها اللهُ إنشاءً: منها السِّرُّ، ومنها العلانية»[3].

وقد يُطيل الصحابةُ في جَمْع المتناقضات في كلمةٍ واحدة، كقول أبي بكرٍ الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم إنك خلقتنا ولم نكُ شيئًا، ثم بعثْتَ إلينا رسولًا... فهديتنا وكنا ضُلَّالًا، وحبَّبتَ إلينا الإيمانَ وكنا كفَّارًا، وجمعتنا وكنا أشتاتًا، وقوَّيتنا وكنا ضِعافًا»[4].

وكقول رِبْعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في طباقاتٍ متوالية: «واللهُ جاء بنا لنخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام»[5].

ومع أن الطباق أقلُّ في نثرهم من المقابلة فإنَّهم قد يحتالون له وهم يوردونه حِيلًا فنيَّةً مبتكَرة، كصنيع أبي ذرٍّ في طباقه الذي لعله لم يُصْنَع مثلُه قطُّ قبل ذلك العصر: «الصاحبُ الصَّالحُ خيرٌ من الوَحْدة، والوَحْدةُ خيرٌ من صاحب السوء. ومُمْلي الخير خيرٌ من السَّاكت، والسَّاكتُ خيرٌ من مُمْلي الشَّرّ. والأمانةُ خيرٌ من الخاتم، والخاتمُ خيرٌ من ظنِّ السوء»[6].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٣.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٧٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٤.

(٤) جمهرة خطب العرب ١/ ١٩٩.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٢٠.

(٦) المصنف، لابن أبي شيبة رقم ٣٥٥٢٨.

فتلك كلماتٌ يلد آخرُها أولَها، ويؤدي بعضُها إلى بعض، وتُرَدُّ أعجازُها بالطباق على صدورها؛ فالمعاني في هذه الجمل ثلاثُ منازل، أولُها نقيضُ آخرها، وأوسطُها كقائم الميزان بينهما، ولو أردنا بيان ذلك فأعَدْنا ترتيبَ الجمل لجاءت هكذا: الصاحب الصَّالحُ خيرٌ من صاحب السوء، والوحدةُ وسَطٌ بينهما، وهي خيرٌ دون خيرٍ وشرٌّ دون شرّ. ومُمْلي الخير خيرٌ من مُمْلي الشرِّ، والسكوتُ وسَطٌ بينهما، وهو خيرٌ دون خيرٍ وشرٌ دون شرّ. والخاتم ضمانٌ بين الثقة وسوء الظنّ. فهذا التوسُّطُ بين جَناحي الطباق ممَّا أحدَثَه الصحابةُ ـ زَعْمًا ـ في هذا الفنّ، وممَّا جدَّدوه فيه في أغلبِ الظَّنّ(١).

(المقابلة)

هذا في الطباق، أمَّا المقابلة فإنها أشدُّ انتشارًا في نثر القوم، وأوسعُ ذكرًا، وبها يظهر مذهبُهم، وتتجلَّى طريقتُهم في الحياة.

فمن المقابلات بين الخير والشرِّ، وما سَيَجْني صاحبُهما من العاقبة، قولُ أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما أنكرتم من زمانكم فيما غيَّرتم من أعمالكم، إن يكُ خيرًا فواهًا واها، وإن يكُ شرًّا فآهًا آها»(٢).

فالأُوليان للتعجُّب والبِشْر، والأُخريان للتوجُّع والحسْرة. ومن المقابلات بين الحق والباطل وحاليْ المرء معهما، قولُ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن أفضل الناس عند الله عَزَّ وَجَلَّ مَنْ كان العملُ بالحق أحبَّ إليه وإنْ نقصَه وكرثَه؛ من الباطل وإن حَنَّ إليه وزادَه»(٣). ومن المقابلة بين الطاعة والمعصية، والدنيا والآخرة، قول عُمر بن الخطاب: "وإنما أطاعه مَنْ أطاعه ببُغض الدنيا وحُبِّ الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبُغض الآخرة"(٤).

---

(١) ولعلَّ أسلوب التدلّي بالقول من أعلاه إلى أسفله كان من طريقة أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد رُوي عنه أنه قال: «ذو الدرهمين يوم القيامة أشدُّ حسابًا من ذي الدرهم»، انظر: المصنف، لابن أبي شيبة رقم ٣٥٨٢٩.

(٢) غريب الحديث، للخطَّابي ٢/ ٣٤٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٦٩.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٣.

ومن المقابلة بين المنكر والمعروف في هذه الدنيا، قولُ سليمان بن صُرد: «فإن الدنيا دارٌ قد أدبر منها ما كان معروفًا، وأقبل منها ما كان منْكَرًا»(١).

ومن المقابلة بينها وبين الآخرة قولُ عُمر: «فإن الدنيا تنفد، والآخرةُ تَبقى»(٢)؛ وقولُه في المقابلة بين الفرح القليل والحُزن الطويل إذا هو قد ضيّع الأمانة: «ففرحتُ قليلًا، وحزنتُ طويلًا»(٣).

إن من بلاغة التقابُل وسِرِّ إقناعه أنَّ له الطابع المنطقيَّ في الحجة؛ لأن وضْع نتيجتين متضادتين في المنطق متجاورتين، يُيسِّر الحكم بأنَّ إحداهما ضارَّةٌ أو خاطئة(٤).

لقد بلغ من إيثار بعض الصحابة للمقابلة أنهم قد يُفيضون فيها، فيُطيلون في الجمع بين تلك المتناقضات، حتى يتجلَّى ما بين الطريقين من البَوْن الشاسع: طريقِ الحق والهدى والنور، وطريق الزَّيْغ والضلال والباطل. فمن ذلك قولُ علي بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإيمانُ يبدو نقطةً بيضاء في القلب، كلما ازداد الإيمانُ ازداد البياض، فإذا استُكمل الإيمان ابيضَّ القلب كلُّه. وإنَّ النفاق ليبدو نقطةً سوداء في القلب، كلما ازداد النفاق ازداد السواد، فإذا استُكمل النفاقُ اسودَّ القلبُ كلُّه.

وايمُ الله لو شققتم عن قلب مؤمنٍ لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود»(٥). فهذا حديثٌ كلُّه من المقابلة.

ومنه ما صنع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبته الأولى إذ يقول في جملة طويلةٍ جامعةٍ بين كثيرٍ من المتناقضات: "اعلموا أنَّ أكيس الكيْس التقوى، وأن أحمق الحُمق الفجور، وأن

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٥٥.
(٢) جمهرة رسائل العرب ١/ ٢٢٢.
(٣) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٨٤.
(٤) انظر: النقد الأدبي الحديث، لغنيمي هلال، ص١٢٠.
(٥) الزهد، لابن المبارك، ص٥٠٤-٥٠٥.

أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القويُّ حتى آخذ الحق منه. أيُّها الناس إنما أنا متَّبعٌ ولستُ بمبتدع، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن زُغتُ فقوِّموني»[1].

أفرأيتَ إلى أبي بكر كيف سخَّر التقابُلَ لمآربه الجميلة، وكيف لم يجد من الفنون فنًّا -ليُبلِغ تلك المآربَ إلى الناس- خيرًا من هذا الفنّ.

(١) الطبقات الكبير ٣/ ١٦٧.

[٢] الجِناس

الجناسُ: تشابُه لفظين في النُّطق، واختلافُهما في المعنى(١). وقد أُولع المتأخِّرون به ولعًا شديدًا، وشقَّقوا منه أنواعًا كثيرة(٢). على أنهم لم يكونوا مولعين به وحدَه، بل بغيره من ألوان علم البديع كذلك(٣). ولا يمكننا أن نُحمِّلَ الصحابة مؤونةَ ما اقترفه المتأخِّرون، ولا أن نَحْمِلَهم على مثل هذه الزخارف اللفظية، بل إنْ شئت فقُل: الألاعيب والحِيَل التي غدتْ غايةً في نفسها، لا غايةَ لهم أخرى وراءها.

ومع هذا فإن الجناس قد وقع في نثر الصحابة بنوعيْه الكبيرَيْن: تامِّهِ وغيرِ تامِّه، ثم إنَّهم تفنَّنوا فيه تفنُّنًا لم يَـجُرْ على المعنى، كلا، بل كان جناسُهم معنًى من المعنى، بل لعلهم أحدثوا فيه ما لم يُحدثْه المتأخِّرون بعد.

(الجناس التام)

وقد اشترط أربابُ البلاغة في الجناس حتى يكون تامًّا أن يتفق اللفظان في أربعة أشياء: في أنواع الحروف، وأعدادِها، وهيئاتها، وترتيبِها(٤)، أي أن يتفقا في ذلك، ويختلفا في المعنى، وهذا عزيزٌ لدخوله الشديد في الصَّنعة، حتى لقد ذهب ابنُ الأثير إلى أنه لم يوجد في القرآن إلا مرةً واحدة(٥). فمن أمثلته النادرة ما ورد في طُرَّة كتاب عُمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص الذي يقول فيه: «من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

(١) انظر: بغية الإيضاح، لعبد المتعال الصعيدي ٤/ ٦٩.

(٢) انظر مثلًا: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الأصبع المصري، ص١٠٢-١١٠، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، القاهرة ١٣٨٣هـ.

(٣) انظر: البحث البلاغي عند العرب: تأصيل وتقييم، للدكتور شفيع السيد، ص٢١٨-٢١٩، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٤) انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٦٩.

(٥) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (الروم: ٥٥)، انظر: المثل السائر ٢/ ٢٤٦، وليس كما أطلقه، فقد ورد أيضًا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٤٣-٤٤).

إلى **العاصي ابن العاصي، سلامٌ عليك**»[١]. فهذا جناسٌ في غاية الكمال من أداء المعنى المعبِّر عن النفس، وفي غاية الإفادة بما أراد عُمر أن يُبلِّغَه لعَمرو، وفي غاية الإدهاش حين يصل القارئ إلى العاصي الثانية، فيعلم أن «العاصيَ» الأولى ليستْ على ظاهرها، بل المرادُ بها ما وراءها، وإنْ هي إلا نعتٌ غُلِّفتْ به كلمةٌ أخرى وراءها، هي عمرو. إنَّ من شأن الجناس الكامل أن يَفجأك من حيث لا تدري، فتستفيق؛ أو يوهمَك بضياع المعنى وهو ماثلٌ بين يديك، أو كما قال الشيخُ الجرجاني: «كأنه يخدعُك عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهمُك، كأنه لم يَزِدْك، وقد أحسنَ الزيادةَ ووفَّاها»[٢].

(الجناس المحرَّف)

ثم يَرِدُ بعد التامِّ في الشَّبَه اللفظي بين الكلمتين الجناسُ المحرَّف، وهو ما تختلف فيه هيئاتُ الحروف فحسب[٣]، وهو قريبٌ من التامِّ في حمْل السامع على التريُّث ورجْع البصر إلى الكلمتين مرَّةً أخرى، عساه أن يستنبط ما بينهما من الصِّلة، بعد أن التذَّ بما بينهما من الجرْس. ومثال هذا النوع ما رُوي أنَّ ابن عُمر كان إذا صنع طعامًا فمرَّ به رجلٌ له هيئةٌ لم يَدْعُهُ ودعاه بنوه أو بنو أخيه، وإذا مرَّ إنسانٌ مسكينٌ دعاه ولم يدعوه، فقال: «**يَدعُون من لا يشتهيه، ويَدَعُون من يشتهيه**»[٤].

(الجناس المضارع)

ثم بعده في قُرب اللفظَيْن من بعضهما صوتًا ومخرجًا، وهيئةً وحروفًا، ما أطلقوا عليه الجناسَ المضارع، وهو الذي يختلف فيه حرفان، ولكنهما متقاربان في المخرج[٥]، كقول عمرو بن العاص وقد سُئل وهو يُحتضَر: كيف تجدك؟ فكان مما قال: «أذوبُ

---

(١) الطبقات الكبير ٣/ ٢٨٨.

(٢) أسرار البلاغة، للجرجاني، ص٨.

(٣) انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٧١.

(٤) الطبقات الكبير ٤/ ١٣٩.

(٥) انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٧٤.

ولا اثوب»[1]، فإن الذَّال والثاء مخرجُهما واحدٌ ولكنهما مختلفان في بعض الصفة، ومع أن هاتين الكلمتين متجانستين لفظًا إنهما لمتباعدتان معنًى، فهو يقصُّ كيف يجد نفسَه تذهب منه ولا يجد له مرجعًا، حكايةَ الموت، فجمع في جمال مجانسته بين التشابُه والتقابُل أو المفارقة.

ومن بليغ هذا الجناس المضارع، ومن بارِعه قولُ أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما أنكرتم من زمانكم فيما غيَّرتم من أعمالكم، إن يكُ خيرًا **فواهًا واها**، وإن يكُ شرًّا **فآهًا آها**»[2]، فإن «واهًا» كلمةٌ تُقال للتمنِّي في الخير والتعجُّب له، و«آهًا» كلمةٌ للتوجُّع، وهما صورتان عن صوتَيْن جعلوهما أسماء أفعالٍ دالَّيْن على معنييْن متباعديْن، ولكن أراد أبو الدرداء بالجمع بينهما في جملةٍ واحدةٍ إحداثَ الدَّهشة من شدَّة القرب بينهما في الصوت، وشدَّة البُعد في المعنى. نعم إن جمال هذا التعبير مستخرَجٌ لا من الجناس فحسب، بل منه ومن المطابقة كذلك. ولكنْ الطرافةُ ههنا أن يقصد الصحابيُّ إلى التنبيه على ما تبثُّه هاتان الكلمتان من إشاراتٍ إذا هو جمعهما معًا على هذا النحو من السَّرْد.

إنَّ بعض جمال الجناس راجعٌ إلى «التجاوب الموسيقيّ الصادر من تماثل الكلمات تماثلًا كاملًا أو ناقصًا، فيُطربُ الأذن، ويُونق النفس، ويهزُّ أوتار القلوب. ويُلاحظ أن التناغُم هنا أوسعُ وأشملُ منه في السجع؛ لأنَّه في الجناس لا بد أن يصدر عن عدَّة حروف، فيكون أشبهَ شيءٍ بتختٍ موسيقيٍّ تامٍّ مختلف الأدوات، متناسقِ الأصوات»[3].

(١) الطبقات الكبير ٥/ ٨١.

(٢) غريب الحديث، للخطّابي ٢/ ٣٣٨.

(٣) فن الجناس، لعلي الجندي، ص٢٩، دار الفكر العربي، القاهرة.

(الجناس اللاحق)

أما إن تباعدتْ اللفظتان مخرجًا، وتقاربتا فيما سوى ذلك، فهو عندهم الجناسُ اللاحق[1]، كقول عُمر بن الخطاب: «إلا أن تُوافقوا غَيضًا من فَيض»[2]، وقول أمِّ مَعبدٍ في صفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وسيمٌ قسيم»[3]،

وإن أثر الإيقاع فيهما بَيِّنٌ لا يُخطئه سَمْع.

(القول في جناس التصحيف أو الخط)

ومنه في نثرهم - أي: من اللاحق - ولكنهم أسمَوْه بجناس التصحيف أو جناس الخطِّ، وهو الذي يدخله الاختلافُ بين صورة الحروف من حيثُ النَّقْط؛ قولُ حكيم ابن حزامٍ: «كنتُ أُعالجُ البَزَّ والبُرَّ في الجاهلية»[4]، وقول علي بن أبي طالب: «ومن لم يحفل بمن هو أجمع، واحدٌ واجدٌ من هؤلاء»[5]، وقولُ عمر بن الخطاب: «ومن استوجب التغيير فغيِّروا عليه، ولا تُعيِّروا أحدًا فيفشوَ فيكم البلاء»[6].

فهذا كلُّه داخلٌ في اللاحق، ولا معنى لتسميته بجناس التصحيف أو جناس الخط إلا على جهة التزيُّد، ذلك أن هذه الصناعات اللفظية إنْ كُنَّا نريد منها معنًى، أو نبتغي فائدةً، فإنهما لا يكونان إلا مسموعَيْن لا مكتوبَيْن، هذا في العهد القديم عهدِ الصحابة، وإنما تكون البلاغةُ في الجناس من جهة إيقاعه وصوتِه، لا من جهة صورتِه ورَسْمِه. فإذا تحقَّق الإيقاعُ المرجوُّ في الجناس الذي سمَّوه جناسَ التصحيف، كان بليغًا، وتسميتُه باللاحق حينئذٍ أولى، فإنَّه لا عبرةَ لدينا بالخطِّ كما تقرَّر.

---

(١) انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٧٤.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٩٠.

(٣) الطبقات الكبير ١/ ٩٧.

(٤) الطبقات الكبير ٦/ ٥٣.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤.

(٦) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٩٧.

وما الذي يجعل البليغ ـ حتى في العصور المتأخِّرة ـ يلجأ إلى مثل هذا الإيهام في الخط ولو على سبيل التوسُّع في البديع؟ أليس التصحيف خطأً وعِيًّا؟ وهل التصحيف في أصله إلا جهلٌ من قِبَل الناسخ لا يدَ لصاحبِه فيه؟ إنَّ هذا النوع المفتعلَ من قِبَل المنظِّرين المتأخِّرين لا يتعمَّد مثالَه مَنْ كان ذا قَدَمٍ راسخةٍ في البيان العربي"[1].

لقد كان الصحابةُ يجنحون إلى الجناس أحيانًا اجتناءً لثمراتٍ بلاغيَّةٍ، وما كان لهم أن يُلبِّسوا في القول على الناس، كيفَ، والبيانُ هو البيانُ، والبيانُ ليس الإغماض، انظر إلى نحو قول سعد بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما أسلمتُ راغمتْني أمِّي، فكانت تلقاني مرَّةً بالبِشر، ومرَّةً بالبُسر»[2]، أيكون هذا من قبيل التمويه؟ أنَّى، ولم يكن لهم عهدٌ بكتابة مثل هذا إذْ ذاك بل كانوا يستمعونه؟ لقد أراد سعدٌ الإطرافَ والموازنةَ في اللفظ والصوت، حتى يُعْمِل المستمعُ عقلَه في إدراك الفرق الشديد بين المعنييْن اللذين حدَّدَهما سعدٌ في كلمته بالجناسِ والمشابهة.

إنَّ جمال الجناس ههنا راجعٌ إلى "هذا التلاعب الأخَّاذ الذي يلجأ إليه المجنِّس... لاختلاب الأذهان، واختداع الأفكار، فبينما هو يُريك أنه سيعرض عليك معنًى مكرَّرًا، ولفظًا مردَّدًا لا تجني منه غير التطويل والانقباض والسآمة؛ إذا هو يروغ منك فيجلو عليك معنى مستحدثًا يُغاير ما سبقه كلَّ المغايرة... فتأخذك الدهشةُ لهذه المفاجأة السارَّة اللذيذة، التي أجْدت عليك جديدًا مفيدًا لم يقع في حسابك. ولا ريبة أن كل طريف يفجأ النفس، ويباين ما كانت تنتظره؛ تتنزَّى له، وتتفتَّحُ، وتستقبله بالبِشْر والفَرَح»[3].

---

(١) ومن عَجَبٍ أن يُفرط بعضُهم فيدعي أنَّ عليَّ بن أبي طالب هو أولُ من وضع جناس التصحيف، انظر: التراتيب الإدارية، للكتَّاني ٢/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) غريب الحديث، للخطابي ٢/ ٢٢٢، والبُسْر: القطوب والتعبيس، ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (المدثر: ٢٢). «لسان العرب: بسر».

(٣) فن الجناس، لعلي الجندي، ص٢٩-٣٠.

إنَّ صنعة الصحابيِّ تلك فنٌّ من فنون الصناعة الحميدة، المطلوبةِ في الأدب الذي يعكف صاحبُه عليه فيجوِّدُه، حتى يخرجَ كأنه عفوُ الخاطر، وشتَّانَ ما بين أدبيْن: أدبٍ أحسَنَ صاحبُه الصناعةَ فيه، فأخفى آثارَها وأظهرَ جمالَه، وأدبٍ غلبتْ الصناعةُ صاحبَه، فظهرتْ هي وعزَب عنه جمالُه.

من تلك الصناعة الحميدة ما رُوي من قول أبي هريرة لابنته: «يا بُنيَّة، لا تلبسي **الذَّهب؛ إني أخشى عليكِ اللَّهب، ولا تلبسي الحرير، إني أخشى عليكِ الحريق**»[(١)]، أليس هذا تعمُّدًا للجناس؟ أليس هو تنبيهًا -بالجرْس- على قلّة الفرق بين الفعل والمآل بقلّة الصوت الفارق؟ فكأنَّ أبا هريرة يقول: إن مَنْ يصبرُ قليلًا على هذه الـمُتَع لا يكون من المعذَّبين؛ فمن صبر نفسَه قليلًا عن (الذهب) في الدنيا، لم ينلْه (اللَّهَبُ) في الآخرة، بل وجد فيها ذَهَبًا؛ ومن صبر نفسَه عن (الحرير) في الدنيا، لم ينلْه (الحريق) في الآخرة، بل وجد فيها حريرًا، فكأنَّ الجزاء من جنس العمل، وكأنَّ حرفيْن، أو كأنَّ صوتين من أصوات الكلمتين تعمَّد الصحابيُّ المخالفةَ بينهما أحدَثا من المعاني ما لعلَّه لا يُحدِثُه كثيرُ الكَلِم.

(جناس الاشتقاق)

إنَّ فنًّا آخر أبدَعَه الصحابةُ في الجناس، أدخله أصحابُ البلاغة في الجناس مرَّة، وألحقوه به أخرى، هو من جناس الاشتقاق على مصطلحهم، وهو أخْذُ لفظٍ من آخرَ لمناسبةٍ بينهما في المعنى[(٢)]. وإنما أخرجوه وجعلوه ملحَقًا لا تفاق المعنى، وهم قد أوجبوا في الجناس اختلافَه. ومَنْ أخرجه منهم أسماه (الترديد)[(٣)]، وهو نوعُ تكرارٍ للأصوات كما ترى، وفي الجناس كله نوعُ تكرارٍ للأصوات يُحدِثُ جرسًا لا يخفى؛ فلا بأس حينئذٍ من إدخاله في الجناس من حيث إنه جناسُ معنًى لا جناسُ لفظ. فمن مثاله قولُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعلموا

(١) الزهد، للإمام أحمد ٢/ ٩٥.
(٢) بغية الإيضاح ٤/ ٧٥.
(٣) المثل السائر ٢/ ٢٥٣.

أن أكيسَ الكَيْس التقوى، وأنَّ أعجزَ العجز الفجور»[1]، ومنه قول عُمَر ـ وهو من أندر أمثلة الجناس الشديدِ المجوَّدة: «واكتفِ بما يكفيكَ من الكَفاف»[2]، والشاهد في كلمتيه الأُوليين، أما ثالثتهما فإنها تُحْدِثُ بهما - مع تكرُّر الكافات المهموسة الرَّخيمة ـ أثَرًا موسيقيًّا بالغًا موائمًا لأداء المعنى المرجوِّ في الوصيَّة والنُّصح.

(جناس لمح الأصل)

مع ذلك، ليس المقصودُ بما أبدَعَه الصحابةُ في هذا النوع الاشتقاقي من الجناس ما سبق، بل إنَّ لهم فنًّا آخر منه أكثروا فيه وأفاضوا، هو ما يصحُّ أن نُسمِّيَه -تمييزًا له- (بجناس لمح الأصل)، وقد شاعَ في كلامهم شيوعًا يحملنا على عَدِّه خاصَّةً من خصائصهم في النثر[3].

من هذا الجناس أنَّ عمر بن الخطاب قدِمَ عليه رسولٌ بكتابٍ من قبل الجيش، فلما رآه عُمر قال له: ما اسمُك؟ قال: قريب، قال: ابنُ مَنْ؟ قال: ابنُ ظَفَر؛ فتفاءل إلى ذلك، وقال: «ظَفَرٌ قريبٌ إن شاء الله»[4]، فهذا لمحٌ لأصل الاسم، وتفاؤلٌ به، وهو فرعٌ من جناس الاشتقاق من غير شك، روَوْه، ولكنهم لم يتوسَّعوا فيه فيما بعد.

منه كذلك -أعني التفاؤل بالأسماء- قولُ عمر بن الخطاب وقد قدِم عليه بالأخماس سِمَاكُ بن مَخْرَمة، وسِمَاكُ بن عُبيد، وسِماكُ بن خَرَشة، في وفود من وفود أهل الكوفة، فنسَبَهم، فانتسبَ له سِماكٌ وسِماكٌ وسِماك، فقال: «بارك الله فيكم؛ اللهمَّ اسْمُك بهم الإسلام»[5].

---

(١) نثر الدُّر ١/ ٢٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨٥.

(٣) انظر: شيئًا من أخبار «التفاؤل بالأسماء» في: العقد الفريد ٢/ ١٣٧.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٣.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٤٩.

وعلى النقيض منه في التشاؤمُ بالضَّرر ما رُوي عن عمرو بن العاص في شأن الفتنة أيَّامَ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه مرَّ به ومعه ابناه راكب، فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة، فقال عمرٌو: ما اسمك؟ قال: حصيرة. قال عمرو: حُصر الرجل، فما الخبر؟ قال: تركتُ الرجل ـ يعني عثمان ـ محصورًا. ثم مكثوا أيَّامًا فمرَّ بهم راكبٌ، فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. قال عمرو: ما اسمُك؟ قال: قتَّال. قال عمرو: قُتِل الرجل، فما الخبر؟ قال: قُتِلَ الرجل. ثم مكثوا أيَّامًا فمرَّ بهم راكبٌ، فقالوا: من أين؟ قال: من المدينة. قال عمرو: ما اسمُك؟ قال حرب. قال عمرو: يكون حرب[1].

«ولما قال خالدٌ لرسول أهل الحيرة: ما اسمك؟ قال: مُرَّة. قال: خُذ الكتاب فأْتِ به أهلَ فارس لعلَّ الله أن يُمِرَّ عليهم عيْشَهم، أو يُسْلموا، أو يُنيبوا. وقال لرسول صلوبا: ما اسمُك؟ قال: هزقيل. قال: فخذِ الكتاب؛ وقال: اللهم أزهق نفوسَهم!»[2].

كذا وردت الرواية عند الطبري بحروفها، وكأنه ساق خَبرَيْ خالدٍ مجموعَيْن من غير فصلٍ بالإسناد بينهما، ومن غير تعقيبٍ؛ لَمَّا علم باستقرار هذه النهجِ من صنيع الصحابة: أن يتفاءلوا بالأسماء المُلقاة على أسماعهم، لامحين أصولَها الأولى، فيجانسوا بينها وبين ما يبتغونه من المعنى، بطريق الاشتقاق والمشاكهة.

---

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٥٨-٥٥٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٣٦٩.

[٣] السَّجْع

السجعُ توافق فاصلتيْ جملتين من النثر فصاعدًا في حرفهما الأخير(١). وهو فروعٌ وفنون تزيد بزيادة جُمَلِه، وزيادة التوافق في الحروف المجاورة والوزن. وقد أكثرَ فيه المتأخِّرون، وجعلوا له أنواعًا، وفتَّقوا له الأسماء، حتى لقد غدا في ذوقهم سمةً لازمةً فيما ينشئونه من النثر.

والأصلُ في نثر الصحابة أنه نثرٌ مرسَلٌ غير مسجوع، ومعنى الإرسال أن لا يُتَعمَّد السجعُ حتى إن وقع. أمَّا تعمُّدُه، فهو مذهبٌ قليلٌ وجودُه في نثرهم، وهو مع قِلَّته دالٌ على صنعةٍ لا تخفى حقيقِ إثباتُها والوقوفُ على آثارها فيه.

(السجع عفوَ الخاطر)

ولم نُدخل السجعَ الذي يأتي عفوَ الخاطر عندهم في باب السجع ذي الصَّنْعة، ذلك أنَّ الأصلَ في السجع القصدُ، وجمعُ العقل، والاحتشادُ له، وهذا ـ مع ما فيه من تخلُّف القصديَّة ـ لا يُخرجُه من حيِّز الفنِّ(٢)؛ فإنَّ في مثله من الجرس والصدى المنعش ما لا تخطئه أذن.

من هذا النوع غير المقصود لذاته قولُ معاوية ينصح ولَدَه: «إني قد كفيْتُك الرحلة والتَّرحال، ووطَّأتُ لك الأشياء، وذلَّلْتُ لك الأعداء»(٣)؛ وقولُ عُمر في كتابه إلى سعد: «قِفْ مكانَك، ولا تطلبوا غيرَ ذلك»(٤)، فهذا سجعٌ وُلد على لسان صاحبُه من غير أن يأبَه له.

---

(١) انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٨١.

(٢) انظر: كلام ريفاتير Michael Riffaterre عن «القصدية» من مقالة له بعنوان: معايير لتحليل الأسلوب، مترجمة ضمن: اتجاهات البحث الأسلوبي، للدكتور شكري محمد عيَّاد، ص١٢٤-١٢٥.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٢٢.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص٤١٥.

(سجع الضمائر والحروف)

ومن هذا النحو سجعٌ قد نُسمِّيه بسجع الضمائر والحروف، وهو سجعٌ تنتهي فاصلتُه إلى نحو واو الجمع ونونه، أو ياء الجمع ونونه، أو ما شابه؛ من غير نظرٍ إلى أصل الكلمة مجرَّدةً عن هذه الأحرف الزيادات. وهذا النوعُ منه متعمَّدٌ ومنه غيرُ متعمَّد.

فمن غير المتعمَّد قولُ الأشعث بن قيس: «لله دَرُّ بن أسد، أيَّ فريٍّ يفرُون... وإنهم ليُقتَلون ويُقاتلون، وأنتم جُثاةٌ على الرُّكَب تنظرون»[1]، فإنَّ خطيب القوم لم ينظر إلى الراء في «يَفْرُون»، ولا إلى اللام في «يُقاتَلون»، ولا إلى الراء في «تنظرون»؛ ذلك أنَّ سجْعَه كان على الواو والنون عفوَ الخاطر، ولم يكن سجعًا متعمدًا؛ لأنه لو تعمَّده لنظر إلى الحرف الذي قبله.

وكقول عمر بن الخطاب في كتابٍ له إلى أهل البصرة: «فإني قد بعثت أبا موسى أميرًا عليكم، ليأخذ لضعيفكم من قويكم، وليقاتل بكم عدوكم، وليدفع عن ذمتكم، وليُحصي لكم فَيْئكم، ثم ليقسمه بينكم، وليُنقِّيَ لكم طُرُقكم»[2]، فهذا سجعٌ لم يتعمَّده عُمر، بل دعاه إليه خطابُ الجماعة من القوم.

ولكنَّ من الصحابة من تعمَّد السجع بهذه الأحرف وهذه الضمائر من غير نظرٍ إلى الحروف التي تنتهي إليها الكلمة قبلهنّ، مثلِ قول ثابت بن قيسٍ خطيب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يفاخر بني تميمٍ أمامَه: «الحمد لله الذي السماوات والأرضُ خَلْقُه، قضى فيهنَّ أمرَه، ووسِع كلَّ شيءٍ عِلْمُه، فلم يكُ شيءٌ إلا مِنْ فضله»[3].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٣٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٤/ ٧١.

(٣) الطبقات الكبير ٤/ ٣٤٦.

فهو لم يلتفت إلى الحروف قبل الهاء فحسب، بل لم يلتفتْ إلى حركات تلك الحروف المتخالفة كذلك. وكان همُّه أن يبنيَ سجعَه على ضمير الهاء وحدَه.

ونظر الزُّبيرُ إلى حركات ما قبل هاء التأنيث فكأنه أراد توحيدَها، ولم ينظر إلى الحروف قبلَها كذلك حين قال: «... لكان الموتُ من الإمارة نجاة، والفرارُ من الولاية عِصْمَة، ولكنْ لله علينا إجابةُ الدعوة، وإظهارُ السُّنَّة، لئلا نموت ميتةً عُمِّيَّة، ولا نَعمى عمى الجاهلية»(١).

فلعلك رأيت في المثالين كيف جنح الصحابيان إلى سكون الهاء؛ كي يظهر الصوتُ في الفاصلة موقَّعًا على وتيرةٍ واحدة.

ومن الضمائر التي يتعمَّدون إيرادها في فاصلة السجع ضمير الجمع الواوُ المتاخمُ لحرف النون، كقول عثمان بن عفان: «... عيَّابون طعَّانون، يُرونكم ما تُحبُّون، ويُسرُّون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون»(٢)، وإنَّ في قوله: «يقولون لكم وتقولون» لدليلًا على تعمُّد السجع؛ إذ لو لم يكن قد تعمَّده لقال: «يقولون لكم وتقولون لهم».

ومنها ميم الجمع مع تاء المخاطَب، كقول أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فلقد أُتيتم، صُبِّحتم أو مُسِّيتم»(٣).

ومنهم من جعل ألف الإطلاق فاصلةً في مقام السجع، كقول سُليمان بن صُرَد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وإن للدنيا تُجَّارا، وللآخرة تُجَّارا، فأمَّا تاجر الآخرة فساعٍ إليها، مُنْتصبٌ بتَطلابها، لا يشتري بها ثمنا، لا يُرى إلا قائمًا وقاعدا، وراكعًا وساجدا»(٤).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٣٨.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٤٣.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٨٨.

فما مرَّ كلُّه من ميسور السجع وقريبِه، لا كبيرَ صنعةٍ فيه، ولا كبير جَرْسٍ فيه؛ فقد اعتادت الأذنُ سماع تلك الأحرف، إذ هي كثيرةُ التردادِ في الكلام، بل لا يكاد يخلو كلامٌ منها.

(السجع اليسير)

أمَّا السجع بغير تلك الأحرف، وهو السجعُ الأصيل، فله أَضْرُبٌ في نثر الصحابة، فبعضُه خفيفٌ يكاد يخفى إن لم تراجعه الأذن، فتتروَّى لديه يسيرا، كقول النعمان بن مُقرِّن: «مَثَلي ومَثَلُ عَسكَر، كمَثَل رجلٍ شابٍّ وإلى جنبه مومسةٌ تَلوَّنُ له وتعطَّر»[1]، فإن السجع بالرَّاءين يكاد يخفى إلا على أُذُنٍ واعيةٍ تُمسك بالنغمة الأولى في فاصلة السجع، فتسكن عندها هُنَيْهةً[2]، كيما تعطي الكلامَ حقَّه من النَّبر، أما وصْلُ الكلام وتحريك الراء من «كسكرٍ» فإنه يُودِي بالنَّغَمة التي تُحْدثها السجعة، ويُذهِبُ كلَّ أثرٍ لزينة الصوت فيها.

(السجع بفاصلتين)

ومن أضْرُبه أنهم قد يسجعون سجعةً واحدةً يُحسِّنون بها النَّظم، ولا يتركون سبيلًا إلى ظنِّ شُبهة التكلُّف، كما في قول عُمر: «إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال، وصرَّفَ لكم الأقوال»[3]، وقول علي بن أبي طالب: «وإني والله ما ألوم نفسي على التقصير، وإني لـمُقاساة الحرب جِدُّ خبير»[4].

(السجع بثلاث فواصل)

وقد يكرِّرون حرف الفاصلة ثلاث مرَّاتٍ، موغلين في السجع شيئًا ما، كقول سلمان الفارسيّ: «فليكنْ كلامُك ذِكْرا، وصمتُك فِكْرا، ونظَرُك عِبَرا»[5].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٦.

(٢) سكون أعجاز الفواصل واجبٌ في السجع عند اختلاف الحركات الإعرابية، مستحسنٌ عند اتفاقها، انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٨٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ١/ ٢٢٣.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٠٨.

(٥) جمهرة خطب العرب ١/ ٢٨٦.

(السجع بأربع)

وقد يُكرِّرونه أربعًا فيوغلون إيغالاً أشدّ، كقول الحُسين بن عليّ: «اللهم إنك ترى ولا تُرى، وأنتَ بالمنظر الأعلى، وإن لك الآخرةَ والأولى، وإنا نعوذ بك من أن نَذِلَّ ونَخزى»[(١)]، وقولِ عُمر: «اللهم توفَّني مع الأبرار، ولا تُخلِّفني في الأشرار، وقني عذابَ النار، وألحقني بالأخيار»[(٢)].

(السجع بخمس)

بل قد يُوغلون فيجعلونه على خمسٍ من الفواصل، كقول معاوية: «العقل والحِلْم أفضلُ ما أُعطيَ العبد؛ فإذا ذُكِّر ذَكَر، وإذا أُعطي شكَر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا غضِب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساءَ استغفر»[(٣)].

(السجع بستّ)

بل قد يبلغون به بالمقابلة والتكرار ستَّ فواصل، كقول أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من الناس مفاتيحُ للخير، ومغاليقُ للشر، ولهم بذلك أجر، ومن الناس مفاتيحُ للشر، ومغاليقُ للخير، وعليهم بذلك إصْر»[(٤)].

(السجع بسبع)

بل جعلوه سبعًا -وهذا غايةُ ما وجدتُه لديهم- كقول سلمان وحذيفة: «اللهم ربَّ السماء وما أظلَّتْ، وربَّ الأرض وما أقلَّتْ، والريحِ وما ذرتْ، والنجومِ وما هوتْ، والبحارِ وما جرتْ، والشياطينِ وما أضلَّتْ، والخصاصِ وما أجنَّتْ...»[(٥)].

---

(١) الطبقات الكبير، لابن سعد ٦/ ٤١٣.

(٢) الطبقات الكبير ٣/ ٣٠٧.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٦.

(٤) الزهد، لابن المبارك، ص٣٣٢.

(٥) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤١.

(المعنى مقدمٌ على السجع عند الصحابة)

وآيةٌ لنا على أنَّ الصحابة إنها كانوا يقودون السجع وليس هو يقودهم، أي أنهم كانوا يُخْضعونه لمعانيهم، ويأبَوْنَ أن يخضعوا هم لألفاظه؛ ما مرَّ من مثالٍ لسجع معاوية الخُماسيّ؛ إذ جاءت إحدى الفواصل فيه على غير حرف فاصلة السجع الرَّاء، وهو قوله: «وإذا غضب كظم»[(١)]، ولم يَشغَل معاويةَ أن يُقالَ: كسَرَ نغمةَ سجعه. ومثلُه عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سجعةٍ ثُلاثيةٍ داخلتْها فاصلةٌ من غير جنسها في قوله: «ألا إن الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منه البَرُّ والفاجر، ألا وإن الآخرةَ وعْدٌ صادق، يحكم فيه مِلِكٌ قادر»[(٢)].

فإنَّ القاف لاشك دليلٌ على أَبَهِ الصحابة للمعنى من قَبْل أَبَهِهم للزِّينة.

إنَّ الطريقَ إلى المستحسَن من التجنيس والسجع هو أن لا يكون المتكلِّمُ قد قاد المعنى إليهما، «بل قادَه المعنى إليهما، وعثَرَ به عليهما؛ حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع، لدخَلَ من عُقوق المعنى وإدخال الوَحْشةِ عليه، في شبيهٍ بما يُنسَب إليه المتكلِّف للتجنيس المستكْرَهِ، والسَّجع النافر. ولن تجدَ أيمنَ طائرًا، وأحسنَ أولًا وآخرًا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلبَ للاستحسان؛ من أن تُرسِل المعانيَ على سجيَّتها، وتدَعَها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإذا هي تُركتْ وما تُريد لم تكتسِ إلا ما يليق بها، ولم تلبس من الـمَعارض إلا ما يزينُها. فأمّا أن تضع في نفسك أنه لا بُدَّ من أن تُجنِّس أو تسجع بلفظيْن مخصوصيْن، فهو الذي أنتَ منه بعَرَض الاستكراه، وعلى خطرٍ من الخطأ والوقوع في الذَّمّ»[(٣)].

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٦.

(٢) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٤-٢٧٥، والطبقات الكبير، لابن سعد ٥/ ٣٢٤، وقد نسبها فيه إلى شدَّاد بن أوس.

(٣) أسرار البلاغة، للشيخ عبد القاهر الجرجاني، ص١٤.

(السجع الداخلي)

ومن عَمَل الصحابة في السجع أنهم ربما لا يكتفون بتكرار الفاصلة في آخر الجملة، بل يكررون حرف السجع في داخلها أيضًا، فيزيدون في موسيقا الكَلِم، من مثل قول أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فما بالكم **تجمعون** ما لا **تأكلون**، **وتبنون** ما لا **تسكنون**، **وتأملون** ما لا **تُدركون**؟!»(١)؛ وهذه صنعةٌ يسيرةٌ، ولكنها مُضيفةٌ إلى موسيقى العبارة ما يناسب غَرَضَ التذكير من الـمَدِّ والإبطاء في النطق.

ومن مثل سجع عمر بن الخطاب بهذه التاءات المتعاقبات: «إنه ليس لك من الدنيا إلا ما **أعطيتَ فأمضيت**، أو **لبستَ فأفنيت**، أو **أكلتَ فأبليت**»(٢). وهنَّ فاءاتٌ موحياتٌ بالسُّرعة، والفناءِ، وضآلةِ مُتَعِ الدُّنيا.

(تعاقب السجع)

ومن عَمَلهم في السجع جَمْعُهم غيرَ سجعةٍ في مقامٍ واحد، كما صنع عمرو بن العاص وهو يقول في ذيل وصيّته: «اللهم إنك أمرتَنا فركبنا، ونهَيْتَنا فأضعنا، فلا بريءٌ فأعتذر، ولا عزيزٌ فأنتصر»(٣)؛ وكقول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قطعةٍ من صدر خطبةٍ له كلُّها سجع: «أما بعدُ، فإنَّ لكل شيءٍ آفة، وإنَّ لكل نعمةٍ عاهة، وإنَّ آفةَ هذه الأُمَّة، وعاهةَ هذه النعمة؛ عيَّابون طعَّانون، يُرونكم ماتُحبون، ويُسرون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون»(٤).

وأشدُّ من ذلك وأوفى، وألصقُ بالصناعة، قولُ أبي الدراداء ـ وكان أبو الدرداء معدودًا في الـحُكماء: «فما بالُكم تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون

---

(١) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٢.

(٣) الطبقات الكبير ٥/ ٨١.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٣٨.

ما لا تُدركون؟! وقد كان مَنْ كان قبلكم جمعوا كثيرا، وبَنَوْا شديدا، وأمَّلوا بعيدا، وماتوا قريبا؛ فأصبحتْ أعمالُهم بورا، ومساكنُهم قبورا، وأملُهم غرورا»[١]؛ فأيُّ إحسانٍ في التنويع على نغمة السجع هذا، وأيُّ اقتدارٍ على اجتلاب الفواصل الـمُفْلِقة، الآخذةِ بالألباب والأسماعِ في مقام الوعظ!

(السجع المرصَّع)

ومن السجع في نثر الصحابة ما أسماه المتأخِّرون بـالسجع المرصَّع، وهو اتفاق الألفاظ المتقابلة في جملتيْ السجع وزنًا وعجُزا[٢]. فمنه قول أبي الدرداء الذي مرَّ آنفًا؛ فإنَّ الجمل في قوله: «تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأمُلون ما لا تُدركون» على وزنٍ واحدٍ وقافيةٍ واحدٍ، في كلِّ لفظةٍ متقابلةٍ من ألفاظها، وكأنَّ كل واحدةٍ منها قد وضعت في قالبٍ واحد يطابق نظيرتَها في الجملتين الأُخْرَيين.

(السجعُ المتوازي)

ومن السجع عندهم ما يُسمَّى بالسجع المتوازي، وهو أقلُّ موسيقيَّةً من الترصيع، بيد أنه صادحُ الموسيقى على ذلك. والسجعُ المتوازي يكون باتفاق الفاصلتين وزنًا وتقفيةً، مع اختلاف ما قبلهما في الأمرين[٣]. كقول أبي الدرداء: «ويلٌ للقلب النَّخيب، والجوف الرَّغيب، ولا يُبالي إلا بقول الطَّبيب»[٤]، فإن النخيب، والرغيب، والطبيب؛ على وزنٍ واحدٍ، وقافيةٍ واحدة، وما قبلهما غير متفقٍ لا وزنًا ولا قافيةً.

---

(١) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٢) ويسمى الترصيع أيضًا، انظر: البلاغة العربية، لحبنكة الميداني ٢/ ٥٠٥.

(٣) انظر: البلاغة العربية، للميداني ٢/ ٥٠٥-٥٠٦.

(٤) غريب الحديث، للخطَّابي ٢/ ٣٣٥.

(المُنكَر من السجع)

إنَّ فيما مضى من الأمثلة حُجَّةً على وجود السجع في نثر الصحابة، وعلى معرفتهم به، وعلى تعمُّدِهم إيَّاه أحيانًا[1]. ولا تناقُضَ بين هذا وبين ما ورد من آثارٍ نبويةٍ أو آثارٍ عن بعض الصحابة في إنكار السجع؛ فإن ذلك الإنكارَ كان متوجِّهًا إمَّا إلى السجع المتكلَّف الذي يُشبه سجعَ الكُهَّان، كما حقَّ بذلك الأثرُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]؛ وإمَّا إلى السجع المتكلَّف الذي يُقصَد به التنميقُ في غير موضعه، وقد وردت فيه الكراهةُ عن عُمر[3]؛ وإمَّا إلى السجع المتكلَّف الذي لا يليق بمثل بصاحبه أن ينطق به، كالذي ورد من نهي معاوية لابن الزبير عن سجعٍ غيرِ لائقٍ به[4]، وإلّا فقد كان الصحابة أصحابُ هذا النهي ممن يسجعون[5].

---

(١) ولعل فيما مضى خيرَ إجابةٍ عمَّا ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف رَحِمَهُ اللهُ في قوله: «وإذا نظرنا فيما أُثر من خطب عن أبي بكرٍ الصدّيق، ومن تبعه من الخلفاء الراشدين؛ وجدناهم يقتدون بالرسول في خطابتهم؛ فهم لا يستخدمون السجع فيها»، انظر: الفنُّ ومذاهبه في النثر العربي، ص٨٥؛ فإن النفيَ على إطلاقه غيرُ دقيق.

(٢) عن أبي أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى أن دِيَةَ جنينها غُرّة: عبدٌ أو أمة، وقضى بديَة المرأة على عاقلتها وورارثها وولدها ومن معهم، فقال حمل بن النابغة الهُذَلي: يا رسول الله، كيف أغرمَ من لا شَرِب ولا أكَل، ولا نطقَ ولا استهلّ؟ فمثل ذلك يُطَلّ! فقال رسول الله ﷺ: «**إنما هذا من إخوان الكُهّان**»، صحيح مسلم ٥/ ١١٠ من أجل سجعه.

(٣) كتب الحَكم بن عمرو التغلبي إلى عمر بالفتح من قِبَل مُكْران، وبعث بالأخماس مع صحار العبدي، واستأمره في الفِيَلة، فقدم صحار على عُمر بالخبر والمغانم، فسأله عمر عن مكران -وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه- فقال: يا أمير المؤمنين، أرضٌ سهلها جبل، وماؤها وَشَل، وتمرها دَقَل، وعدوُّها بَطَل. وخيرها قليل، وشرُّها طويل، والكثير بها قليل، والقليلُ بها ضائع، وما وراءها شرٌّ منها. فقال: أسجَّاعٌ أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر، قال: لا، والله لا يغزوها جيشٌ لي ما أُطِعْتُ، تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٨٢.

(٤) عن حميد بن أبي البختري قال: ذكر معاوية لابن الزبير بيعة يزيد، فقال ابن الزبير: إني أناديك ولا أُناجيك، إن أخاك من صدَقك، فانظر قبل أن تُقدم، وتَفَكّرْ قبل أن تندم، فان النظر قبل التقدُّم، والتفكُّر قبل التندم. فضحِك معاوية ثم قال: تعلمتَ أبا بكر السَّجاعة عند الكبر، إن في دون ما سجعتَ به على أخيك ما يكفيك، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير، البيان والتبيين ١/ ٣٠١.

(٥) وكان النبي ﷺ يستخدم السجع في بعض أحاديثه كقوله: «**يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناسُ نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»، انظر: السنن الكبرى، للبيهقي ٢/ ٥٠٢.

ومهما يكنْ من أمر، فإن إنكار مثل هذه الأنواع السجعيَّةِ المتكلَّفة من قِبَل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ أرسى قواعد مدرسة النثر المرسَلِ المنطلِق، الذي إن ورَدَ فيه السجعُ كان خِدْمةً له، وزينةً وبهاءً، ولم يكن نقصًا به ولا عيبًا ولا إزراءً.

[٤] التَّعَادُلُ النَّغَميّ

يتوافرُ التعادلُ النغَميُّ[١] في نثر الصحابة في ثلاثة أشياء: في الموازنةِ، والمماثلةِ، والانسجام.

(الموازنة)

فالموازنةُ أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية. فإن كان ما في إحدى الجملتين من الألفاظ، أو أكثر ما فيها، مثلَ ما يُقابلُه من الأخرى في الوزن خُصَّ باسم (المماثلة)[٢].

وللكلام إذ تكون فيه الموازنةُ «طلاوةٌ ورونق، وسببُه الاعتدال؛ لأنه مطلوبٌ في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلةً وقعتْ من النفس موقع الاستحسان، وهذا لا مراء فيه لوضوحه»[٣]. قال ابن الأثير: «وأمثال هذا في القرآن كثير، بل معظم آياته جاريةٌ على هذا النهج، حتى إنه لا تخلو منه سورةٌ من السور، ولقد تصفَّحْتُه فوجدتُ لا يكاد يخرج منه شيءٌ عن السجع والموازنة»[٤].

ويصحُّ أن يَدخل في الموازنة كلُّ ما مرَّ بنا في الحديث عن السجع مما أطلقنا عليه (سجع الضمائر والحروف) مما كانت كلماتُ فواصلِه متفقةً في الوزن؛ إذا لم نعُدَّ تلك الضمائر والحروف قوافيَ سجعيَّة، كقول ثابتٍ الخطيب: «الحمدُ لله الذي السماواتُ والأرض خَلْقُه،

---

(١) يقول ابن خَلَف مشيرًا إلى مثل هذا التعادل والتساوي: «نظم الكلام هو تأليفُه على وضع الاتساق، وتساوي الكلام، واعتدال الفصول والأجزاء؛ لأن الكلام قد يؤلف مخلَّطًا غير متناسب، ولا مقسَّم؛ فلا يستحق اسمَ النظم، وإنما يستحق هذا الاسم إذا كان مرصوفًا، مرتَّبًا، ذاهبًا في مذهب الانتظام وموازنة الأقسام»، موادُّ البيان، لعلي بن خلف، ص٢٠٤، تحقيق الدكتور حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس ١٩٨٢م.

(٢) انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٨٧.

(٣) المثل السائر ١/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) المثل السائر ١/ ٢٨٠.

قضى فيهما أمرَه، ووَسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْمُه، فلم يكُ شيءٌ إلا من فضله»[1]، فإنَّ كلمات الفواصل كلَّها تبدأ بمتحرِّكٍ ثم ساكنٍ ثم متحركٍ ثم ساكن، هكذا (/ ٥/ ٥). وقول أبي بكر الصدِّيق: «ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا امرأة، ولا تَقْعَروا نخلًا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرةً مُثْمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكَلة»[2]، فإنَّ كلمات الفواصل: امرأة، ومُثمرة، ومأكلة؛ موزونةٌ كلُّها على متحركٍ فساكنٍ فمتحركٍ فمتحركٍ فساكن، هكذا (/ ٥// ٥).

(المماثلة)

ومثلُ هذا يُقال في المماثلة، فإنَّ قول أبي الدرداء: «فما بالُكم تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تُدْركون»[3]، جميعُه على وزن (تفعلون ما لا تفعلون) كلمةً فكلمة. ومثل ذلك أو قريبٌ منه قول عثمان بن عفان: «يُرونكم ما تُحبُّون، ويُسِرُّون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون»[4]، فإنَّ وزن (يفعلون) غالبٌ على ثلاث هذه الجُمَل، فمُنْتِجٌ إيقاعًا متعادلًا مُنغَّما.

ومن أمثلة المماثلة التامَّة قولُ أبي بكر الصدّيق في عهده بالخلافة إلى عمر: «... حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب»[5]، فكلها على وزن (يفعل الفاعل) من غير اختلاف، وهي جملٌ متعادلةُ المقابِلات، موقَّعةٌ متساوية.

(الانسجام)

هذا في الموازنة والمماثلة، أمَّا (الانسجام) فمعناه «أن يكون الكلامُ في مفرداته وجُمَله مُنْسابًا انسيابَ الماء في مجاريه السَّهلة، مُتحدِّرًا ليِّنًا بسبب التلاؤم بين كلماته وجُمَله،

---

(١) الطبقات الكبير ٤/ ٣٤٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، للطبري ٣/ ٢٢٧.

(٣) فتوح الشام، للأزدي، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٣٨.

(٥) الطبقات الكبير ٣/ ١٨٣.

وعُذوبة ألفاظه، وجمال تموُّجات فِقْراته، وخلوِّه من التعقيد والتنافر، وخلوِّه من كل ما يندُّ عن النُّطق، وينفر منه السَّمع. وإذا قويَ الانسجامُ في النثر جاءتْ قراءتُه موزونةً دون ترقُّب ولا قَصْدٍ ولا تكلُّف»(١).

هذا الانسجام إنما هو النَّغمةُ السَّائدةُ في نثر الصحابة في سواده الأعظم، فإنك لا ترى فيه خروجًا على هذا الاعتدال الصوتي، أو هذا التوازن، أو هذا التدفُّق الفطريّ ذي النَّسَقِ المسترسلِ المتشابه، الذي يأخذ بعضه برقاب بعض، بل تنتقل موسيقاه بين ألفاظه انتقالًا سهلًا مليحًا، لا وعورةَ فيه ولا عُسْر، ولا فُجاءةَ فيه ولا اعوجاج، ولا انقطاعَ فيه ولا بَهَر.

إنَّ مثل هذا التوازن الدفَّاق الذي يجري رَهْوًا، يُلتمَسُ في نحو قول سليمان بن صُرَد: «وإنَّ للدنيا تُجَّارا/ وللآخرة تُجَّارا/ فأمَّا تاجرُ الآخرة فساعٍ إليها/ مُنْتَصِبٌ بتَطلابها/ لا يشتري بها ثَمَنا/ ولا يُرى إلا قائمًا وقاعدًا/ وراكعًا وساجدا/ لا يطلب ذهبًا ولا فضَّة/ ولا دُنيا ولا لذَّة/ وأمَّا تاجر الدنيا فمُكِبٌّ عليها/ راتعٌ فيها/ لا يبتغي بها بدلا/ فعليكم رحمكم الله في هذا الوجْه بطول الصلاة في جوف الليل/ وبذكر الله كثيرًا على كلِّ حال/ »(٢).

إنها موسيقى مختلفةٌ عن الازدواج والمماثلة، هي أوسعُ منهما، هي موسيقى النظم كلِّه، لا موسيقى الجملة والجملتين، هي موسيقى تدور في فَلَكها الجملُ الموسيقيةُ الصغيرةُ كالسَّجع والترصيع والمجانسة، فإنْ هُنَّ غِبْنَ عنها لم تختلف تلك النغمة القويَّة، ولا ذلك اللَّحْنُ الثَّابت، وإنْ هُنَّ حضرْنَ جَرَيْنَ فيها كما يجري بهنَّ ذلك اللَّحْن.

---

(١) البلاغة العربية، لحبنَّكة الميداني ٢/ ٥١٨، وقد أخذ الشيخُ حبنَّكة غالبًا هذا المعنى من ابن أبي الأصبع المصريّ إذ يقول في تعريف الانسجام: «هو أن يأتي كلامُ المتكلِّم متحدِّرًا كتحدُّر الماء المنسجم، سهولةَ سبكٍ، وعذوبة ألفاظٍ؛ حتى يكون للجملة من المنثور، والبيت من الموزون وقعٌ في النفوس وتأثيرٌ في القلوب ما ليس لغيره...»، تحرير التحبير، لابن أبي الأصبع، ص٤٢٩.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٥٨٨.

إن «نَظْم اللسان في حقيقته نَظْمٌ لما تجيش به الضمائر، وتَغلي به القرائح. والنَّمطُ السَّويُّ من هذا النظم ما كان نقيًّا نقاء هذه الخواطر الدَّافقة في القلوب، متلاحقًا تلاحق الأفكار الملتهبة في الرؤوس، متجانسًا تجانُس الأنباض المهتاجة في الصدور، سخيًّا خصبًا سخاءَ وخصوبةَ هذه النفوس؛ لأن كلام كلٍّ منا صحيفةُ لُبِّه»[1].

واسمعْ إلى هذه النغمة الهادئة الوادعة، ذاتِ الجُمَل المتوازنة المتَّسِقة في قول عُمر: «يا عُتْبة/ إني قد استعملتُك على أرض الهند/ وهي حَوْمَةٌ من حَوْمَة العدوّ/ وأرجو أن يكفيَك الله ما حَوْلَها/ وأن يُعينَك عليها/ وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرميّ/ أن يُـمِدَّكَ بعَرْفَجَةَ بن هَرْثَمة/ وهو ذو مجاهدةٍ للعدوِّ ومُكايدة/ فإذا قدِم عليك فاستشرْه وقرِّبْه/ وادعُ إلى الله/ فمَنْ أجابكَ فاقبل منه/ ومَنْ أبى فالجزية عن صَغارٍ وذِلَّة/ وإلا فالسيف في غير هَوَادَة/ »[2].

إنَّ كل جملة من جُمل هذه القطعة، هي في ذاتها جملةٌ موسيقيةٌ تامّة، يستقرُّ الصوتُ في آخرها من غير اضطراب أو انتظارٍ أو قلَق، وهي جُمَلٌ تحمل في طيَّاتها وزنًا ما، ونغمًا ساريًا يشيع فيها كلِّها من أوّلها إلى آخرها، إنه النغَمُ المسترسل، النغَمُ الذي يُعرَف بخفاء ضدِّه الـمُعْوَجّ، النغَمُ الذي يظلُّ منطلِقًا على سجيَّته، حتى إذا ما شاء صاحبُه إنهاءه، أنهاهُ بقرارٍ في آخره، تطمئنُّ إليه الأُذُنُ والفؤادُ والنفس.

وإذا ما شاء الصحابيُّ أن يصعدَ بهذا النَّغم ليُعليَ وتيرةَ الصوت فَعَل، فَعَلَ وهو مُدْرِكٌ أنْ ليس له أن ينزل باللَّحن وهو قد اختار له العلوَّ من قبل، فربَّما يُقصِّر في الجمل، ويتابعُ المعنى، ويزيدُ في المتعاطفات، من مثل قول طلحة بن عُبيد الله من خُطبةٍ له باهرة: «أما بعد يا أمير المؤمنين/ فقد أحْكَمَتْك الأمور/ وعَجَمَتْك البلايا/ واحتنكتْك

(١) دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، للدكتور محمد محمد أبو موسى، ص٢٧٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ط/ ١٤٢٩هـ.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٥٩٣.

التَّجارِب/ وأنتَ وشأنَك/ وأنتَ ورأيَك/ لا نَنْبُوا في يديك/ ولا نكلُّ عليك/ إليك هذا الأمر/ فَـمُرْنا نُطِع/ وادعُنا نُجِب/ واحملنا نركب/ ووفِّدْنا نَفِد/ وقُدْنا ننْقَد/ فإنك وليُّ هذا الأمر/ وقد بلوتَ وجرَّبتَ واختبرت/ فلم ينكشف شيءٌ من عواقب قضاءِ الله لك إلا عن خيار/ ». ثم جلس[(١)].

هل رأيتَ إلى الأديب كيف نزل بالنغم من أعلاه إلى أسفله نُزولاً سَمْحًا رَخْوًا؛ حيثُ أطال الجملةَ في آخر الخطبة بعد أن كان قد بناها على كلمتيْن كلمتيْن، فجعلها تمتدُّ إلى أربعٍ في قوله: «فإنك وليُّ هذا الأمر»، ثمّ أربعٍ في قوله: «وقد بلوتَ وجرَّبتَ واختبرت»، ثم جُملةٍ طويلةٍ خاتمةٍ موحيةٍ بانقضائها؛ هذا كلُّه لكي يتمَّ له اللحنُ، ولا ينتهي به نهايةً مفاجِئة[(٢)].

مرَّ تحمدالله

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٢٤.

(٢) وهذا قريبٌ مما يُطلَق عليه في البلاغة: الانتهاء، وهو قاعدة القصيدة أو الخُطبة، وآخر ما يبقى في الأسماع منها، انظر: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، للدكتور أحمد مطلوب، ص١١١.

الخاتمة

أراد هذا البحث أن يُجلِّيَ نثرَ الصحابة، بأن يستقرئ نصوصَه، ثم يتبيَّنَ ما صحَّ من تلك النصوص أولًا، وما لم ينله الضعفُ أو يُصِبْه القدح، وهو مقدار كبيرٌ ضخم؛ ثم ينتقيَ من هذا الذي لم ينلْه قدحٌ ما يصلحُ للدلالة على غيره، فيدرسَه، ويُحلِّل مضامينه، ويُفصِّلَ ما فيها من العناصر الفنيَّة، وما يتعلَّق بها من القضايا؛ بُغية الوصول إلى صورة كاملةٍ تنضوي تحت لوائها فروعُ هذا النثر، من حيث الأغراضُ، والخصائص.

وقد كثُرتْ النتائجُ في غضون السير بين دروب الدراسة، ولكن لعلنا نثبت هنا بعض النتائج الكبيرة متواليةً:

- للصحابة نثرٌ فنيٌّ به عناصر مختلفةٌ من عناصر الفنِّ في البناء أو الشكل أو العاطفة أو المضمون، وكثير من هذا النثر كان (مقصودًا) لذاته، والقصديةُ شرطٌ قَبْليٌّ من شروط الفَنّ.

- هذا النثر منه ما هو امتدادٌ لبعض الفنون الجاهلية كالخطابة والأمثال والوصايا، ومنه ما هو جديدٌ أحدثه الإسلام كفنِّ الكتابة الكبير. وحتى هذا الذي ورثوه عن الجاهلية، أدخلوا فيه من روح الإسلام وأصوله وصوره ما لم يكن للجاهلية سابقُ عهدٍ به.

- وقد أثَّر النبي ﷺ في نثر الصحابة في بنائه وهيكله، ولم يقتبسوا في عموم هذا النثر من ألفاظه في حدود ما وقف عليه البحث. أما القرآن الكريم فقد اقتبسوا من ألفاظه، وأدرجوا آياته في نثرهم بشتى صور الإدراج، ولهم في هذا الباعُ الطويل، والطريقةُ المستجِدَّة. على أن روح الإسلام، ومنهاجَه، وطريقتَه لم تكن تُفارق نثر الصحابة في مختلف أغراضه وصُوَره في معظم الأمر.

- وقد صاغ الصحابة نثرهم في أنواعٍ أدبية كبرى، هي: الخطابةُ والكتابة، وفي أخرى أقلَّ منهما من حيث الاتساعُ والمادة، هي: السردُ، والوصايا، والجدل، ووصف الأناسيّ، والأمثالُ، والمراثي، والأجوبة. وكلُّ تلك أنواعٌ شفويَّة.

- فالغالب على نثر الصحابة أنه نثرٌ شفويٌّ، حتى فيما كُتب منه، فإنه يغلب عليه طابع الشفوية، إلا في بعض المواطن التي بدأت تظهر فيها بوادرُ الخصائص الكتابيَّة.

- أما الخطابة، فقد خلصتْ الدراسةُ إلى أنها تقع في خمسة أقسامٍ شاملة، هي: خُطَبُ الصحابة في حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخُطَبُهم في السياسة والحُكْم، وخُطَبُهم في الجهاد والقتال والفتنة، وخُطَبُ النظر والتأمُّل، وخُطَبُ الرِّثاء والزُّهد؛ ولم تجد الدراسةُ سوى نَزْرٍ يسيرٍ من خطب النكاح المروية عن الصحابة.

- وأما كتابتُهم، فقد خلصتْ الدراسة إلى تقسيمها على هذا النحو: أقدم الكتب وهي التي كُتبتْ في حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كتب السياسة والحكم، كتب الجهاد، كتب الفتنة والخوارج، الوصايا المكتوبة، كتب القضاء والعدل، كتب العمران، الكتب الإخوانية، كتب فروع الشريعة، كتب الأموال، توقيعات الصحابة.

- ووجدتْ الدراسةُ سُننًا للصحابة في الخطابة والكتابة من خارج النص، ولكنها مؤثّرةٌ من غير شكٍّ في إبلاغ النصّ. وهي من جديد ما أبدعه الصحابة في التاريخ الأدبي للنثر.

- فأما الخطابة السياسية، وكذا الكتب السياسية، والخطابةُ في الجهاد، وكذا كتب الجهاد، وخطب الشُّكر، وخطبُ المواعظ والزُّهد، ومثلُها كتب القضاء والعدل، وكتبُ العُمران، والكتب الإخوانية؛ فإنها لمن الجديد في النثر الذي وضعه أو رفع قواعده الصحابة.

- وتُعدُّ (قصةُ الإسلام) التي يرويها الصحابة عن أنفسهم، إحدى بدايات أدب السيرة الذاتية في تاريخ الأدب العربي.

- وقد أدرك الصحابة أصولًا لفنِّ الجدل تمتاح كثيرًا مما أحدثه الإسلام في الأدب والحضارة لذلك العصر، وتستند استنادًا كبيرًا إلى فطرتهم، وذكائهم، وتجارِبهم.

- أما في بعض عناصر الفنّ، فقد بُنيتْ لغةُ النثر من ألفاظٍ سهلةٍ سمحة قَلَّ فيها الغريب، ثم من جملٍ متوسطة الطول غالبًا. وشاعتْ لديهم بضعة أساليب، هي: التكرارُ والاعتراض والشرط خصوصًا، ثم تلتْها أساليب أقلُّ شيوعًا منها، هي: الالتفاتُ، والاستفهام، والإغراء والتحذير، والتعليل والسبب، والقَسَم.

- وقد حاولتْ الدراسة استكشاف الصورة في نثر الصحابة، فانتخبت ما يربو على مئة صورةٍ بقليل - والصورة بطبعها قليلةٌ في النثر القديم ولا سيما نثر الصحابة منه- علَّها أن تقف على ألوان الصورة الواردة في هذا النثر؛ لتقارن بينها، وتتبيَّنَها، فكان التشبيهُ هو الأغلب، ثم الاستعارة، ثم الكناية، ثم المجاز المرسل، وهو نادرٌ في نثر الصحابة. هذا في الصور البيانية، أما الصور الحقيقية - وهي لها ما لها من الإيحاء واستدعاء المعاني النفسية - فقد جاءت اثنتي عشرةَ مرَّةً، وجاءت الألفاظ المشعَّةُ المصوِّرةُ التي تستدعي صُوَرًا مختلفةً سبع مرات من المئة محل الدراسة، وكلا العددين جيدٌ بالنظر إلى مجموع ما ورد من الصور التي اخترناها للدراسة في نثر الصحابة.

- هذه الصور المختلفة امتاحت في تشكيلها من مصادر متباينة، جاء على رأسها الحيوانُ الذي كان يلازمهم على كل حال، ثم الإنسان الذي هو باني الحضارة الجديدة، ثم البيئة المحيطة والكون، وهي من معتاد المصادر في الصور، ثم الآلات والأدوات التي كانوا يستعملونها.

- وقد صور الصحابة بصورٍ شتى من التشبيه، فاستعملوا التشبيه المفرد -وهو أقل التشابيه عندهم - والتشبيهَ بشيء ذي صفة، والتشبيه المرشَّح، والمقلوب، والبليغ. كما قد لونوا في أدوات التشبيه أيضًا، بالحروف وببعض الكلمات.

- وقد غلبت الاستعارة المكنية على الصورة في نثر الصحابة، وهو ما يدل على حُبٍّ للإيغال في التصوير عندهم إذا هم صوَّروا.

- وتكرَّرت بسببٍ من الأحداث التي اجتاحت المسلمين في زمن الصحابة، استعارتان لمعنيين من المعاني التي كانت تشغل بال الصحابة، هما الاستعارة للفتنة، والاستعارة للدنيا.

- كما ظهرتْ بعض الصور الحقيقية المركَّبةُ القائمة على الوصف المتخيَّر لأجزاءٍ من الموصوف، أو أحوالٍ من أحواله، وهو وصفٌ ممدودةٌ أصوله بعواطف شتَّى من أعماق النفس.

- إنَّ التقابل سمةٌ أصيلة من سمات نثر الصحابة.

- وإنَّ للجناس حضورًا كبيرًا في نثر أولئك القوم، فقد لوَّنوا نثرَهم بألوان شتى من ألوان الجناس؛ وكانتْ لهم خصوصيَّةٌ بادية بجناس (لمح الأصل) الاشتقاقيِّ منه.

- ظهر السجع في نثر الصحابة، وقد تفنَّنوا فيه بعض التفنُّن، حتى لقد بلغ مدى السجع عندهم سبعَ فواصلَ كاملة، وظهر عندهم السجع الداخلي، على أنَّ السجع عندهم على كل أحواله كان خاضعًا للمعنى، ولم يكن ليقدَّم عليه في كل ما وقفنا عليه من الصور والأمثلة. ثم إنه لم يكن عندهم ما ينكَر من السجع، مما وردتْ فيه بعضُ الآثار.

- لنثر الصحابة موسيقى لا تخفى على أذن، كانت آلات توقيعها: الموازنة، والمماثلةُ، والانسجام ـ إضافةً إلى ما مرَّ من الجناس والسجع ـ غير أنَّ الانسجام على خصوصه كان النغمةَ الموسيقية السائدةَ في طيَّات نثر الصحابة.

تلك بعض نتائج هذه الدراسة، أمَّا ما عَنَّ لها من اقتراحاتٍ أو توصيات فهي كالآتي:

- توكيد ضرورة تفنيد المصادر عند دراسة الأدب في عصر الصحابة، وأن تُستبعد النصوص المشكوك فيها أو المطعون فيها، عند إطلاق الأحكام الأدبية عليه.

- ينبغي البحث عن أدب أولئك القوم، وأدبِ تلك العصور المتقدِّمة؛ في كل كتب التراث الإسلامي، وينبغي أن لا يقتصر البحثُ في كتب الأدب.

- أقترح تسمية الأدب في ذلك العصر الذي تلا وفاة النبي ﷺ بـ(أدب عصر الصحابة) حتى مقتل عبد الله بن الزُّبير سنة ٧٣هـ، وهي السنة التي استتبَّ فيها الحُكْمُ لبني أمَّية، وهذه التسمية أولى من التسميات الأخرى وأشمل؛ ولقد كان المحرَّكَ للأحداث فيها قيادةً وتوجيهًا ـ حتى فيما تأخَّر منها ـ نَفَرٌ من رجالات الصحابة رضي الله عنهم.

- هنالك أدباء من الصحابة جديرون بجمع نثرهم ودراسته، من هؤلاء: سُليمان بن صُرَد، وأبو الدَّرْداء، وشدَّادُ بن أوس، وطلحةُ بن عبيد الله، وعُبادة بن الصامت، وعمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

- فنُّ نقش الخواتم، فنٌّ ظهر في نثر الصحابة بصورةٍ لا بأس بها، وهو فنٌّ جديرٌ بالدراسة في تاريخ الأدب، مِثْلُه مِثْلُ المَثَل والحكمة.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المخطوطة:

رسالة أبي بكر الصديق إلى علي بن أبي طالب لهذه الرسالة شرحٌ مخطوط، لمؤلفٍ مجهول، مكتبة الإسكوريـال، منه نسخة مصورة بمكتبة الإسكندرية، فيلم ١٤٤، مخطوطة [٣٨٥].

ثانياً: المصادر المطبوعة(١):

١ ـ الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون، إبراهيم بن محمد بن أحمد، دراسة وتحقيق مي أحمد يوسف، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٦م.

٢ ـ الأدب المفرد، للبخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجُعفي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٣ ـ الأذكياء، لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن محمد بن علي، تحقيق وتعليق عادل عبد المنعم أبو العباس، مكتبة القرآن، القاهرة ١٤٠٨هـ.

٤ ـ أساس البلاغة، للزمخشري، جار الله محمود بن عمر، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٠م.

٥ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البرّ، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النَّمَريّ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة.

٦ ـ أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط١/ ١٤١٢هـ.

٧ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، لنور الدين علي بن محمد بن سلطان المشهور بالملّا علي القاري، تحقيق محمد الصباغ، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩١هـ.

---

(١) أهملتُ ذكر كلمة «دون تاريخ» فيما لم يرد له تاريخ طباعة.

٨ـ أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لشيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري، تحقيق الدكتور محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ.

٩ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١/ ١٤١٢هـ.

١٠ ـ الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي القرشي، دار البشير، عَمَّان.

١١ ـ الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين بن محمد ، طبعة الساسي، بتصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم بمصر.

١٢ ـ الاقتضاب في شرح أدب الكُتَّاب، للبطليوسي، أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م.

١٣ ـ الاكتفا، للكَلاعيّ أبي الربيع سليمان بن موسى الأندلسي، تحقيق الدكتور محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت ١٤١٧هـ.

١٤ ـ الأمالي، لأبي عليٍّ القالي، إسماعيل بن عيذون بن هارون ، دار الكتب المصرية.

١٥ ـ أنساب الأشراف، للبَلاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر، الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩م.

١٦ ـ أنساب الأشراف، للبَلاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت، ط١/ ١٤١٧هـ.

١٧ ـ البديع، لعبد الله بن المعتز، اعتنى بنشره وتعليق المقدّمة والفهارس إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٢هـ.

١٨ ـ البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٧م.

١٩ ـ بُغية الرائد لما تضمَّنه حديث أمِّ زرعٍ من الفوائد، للقاضي عياض بن موسى البَحْصَلي، تحقيق صلاح الدين الإدلبي ومحمد الحسن أجانف ومحمد عبد السلام الشرقاوي، وزارة الأوقاف المغربية ١٣٩٥هـ.

١٩ ـ بهجة المَجالس وأُنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النَّمَري القرطبي، تحقيق الدكتور محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/ ١٩٨١م.

٢٠ ـ البيان والتبيين، للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، بتحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٧/ ١٤١٨هـ.

٢١ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمد مرتضى الزَّبيدي، مطبعة الحكومة بالكويت.

٢٢ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبيّ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ١٤٢٤هـ.

٢٣ ـ تاريخ الرسل والملوك، للطبري، أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٦.

٢٤ ـ تاريخ المدينة النبوية، لابن شبَّة، أبي زيد عُمر بن شبَّة بن عُبيدة النُميريّ الأنصاريّ، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دون دار نشر.

٢٥ ـ تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، دار صادر، بيروت.

٢٦ ـ تاريخ خليفة بن خياط، لأبي عمر خليفة بن خياط الليثي العُصْفُري، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار القلم ومؤسسة الرسالة، دمشق وبيروت، ط١/ ١٣٩٧هـ.

٢٧ ـ تاريخ مدينة دمشق، للحافظ ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، تحقيق عمر بن عرامة الغمروي، دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ.

٢٨ ـ تأويل مُشْكل القرآن، لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة.
٢٩ ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الأصبع المصري، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، القاهرة ١٣٨٣هـ.
٣٠ ـ تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، للخُزاعيّ، علي بن محمد بن سُعود، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢/ ١٤١٩هـ.
٣١ ـ تقييد العلم، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ط٢/ ١٩٧٤م.
٣٢ ـ ثمرات الأوراق، لابن حِجة الحموي، أبي بكر بن علي بن محمد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٦هـ.
٣٣ ـ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر أبي عُمر يوسف بن عبد الله النَّمَري القرطبي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، ط/ ١٤٢٤هـ.
٣٤ ـ الحيوان، للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ١٤١٦هـ.
٣٥ ـ خاصُّ الخاصّ، للثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، تحقيق حسين الأمين، مكتبة الحياة، بيروت.
٣٦ ـ الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١م.
٣٧ ـ الخراج، لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩هـ.

٣٨ ـ خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حِجَّة الحموي، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله، شرح عصام شعيتو، دار الهلال، بيروت، ط١/ ١٩٧٨م.
٣٩ ـ الخصائص، لأبي الفتح، عثمان بن جنّي الموصلي، دار الكتب المصرية، القاهرة.
٤٠ ـ الخطابة، بالترجمة العربية القديمة، لأرسطوطاليس، حققه وعلّق عليه عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت ١٩٧٩م.
٤١ ـ الخطابة، لأرسطوطاليس، بتلخيص ابن رُشْد، أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد تحقيق وشرح الدكتور محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الثقافية، القاهرة ١٣٨٧هـ.
٤٢ ـ الخطابة، لأرسطوطاليس، بتلخيص ابن سينا، أبي علي الحسين بن عبد الله بن الحسن، تحقيق الدكتور محمد سليم سالم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٩م، مصورة عن الطبعة الأولى ١٩٥٤م.
٤٣ ـ دِرَّة الضَّرع لحديث أم زرع، للرافعي، محمد بن عبد الكريم بن الفضل القزويني، تحقيق مشهور حسن سلمان، دار ابن حزم، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ.
٤٤ ـ دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣/ ١٤١٣هـ.
٤٥ ـ الروض الأُنُف، للسهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن الخطيب، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
٤٦ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان، أبي حاتم، محمد بن حبان البُستي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٧هـ.
٤٧ ـ الزهد، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق الدكتور محمد جلال شرف، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية ١٩٨٤م.

٤٨ ـ السُّنَّة، لابن أبي عاصم، أبي بكر أحمد بن عمرو، تحقيق الدكتور باسم بن يوسف الجوابرة، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١/ ١٤١٩هـ.

٤٩ ـ السنن الكبرى، للبيهقي، أبي بكر أحمد بن الحسين بن عليّ، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدِّكَّن، ط١/ ١٣٤٤هـ.

٥٠ ـ السنن الكبرى، للنَّسائي، أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب، تحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١١ هـ.

٥١ ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١/ ١٤٠٣هـ.

٥٢ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِمْيَرِيّ، المصريّ، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١/ ١٣٧٥هـ.

٥٣ ـ شرح السِّيَر الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء محمد بن أحمد السَّرَخْسي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجّد، معهد المخطوطات العربية، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية ١٩٧١م.

٥٤ ـ شرح المفصَّل، لابن يعيش، أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا، تحقيق أحمد السيد أحمد، وإسماعيل عبد الجواد عبد الغني، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٥٥ ـ شرح معاني الآثار، للطحاوي أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة، تحقيق محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٣٩٩م.

٥٦ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٥٧ ـ شمائل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، للترمذي أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق الشيخ ماهر ياسين الفحل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ٢٠٠٠م.

٥٨ ـ الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس، أحمد بن فارس زكريا الرازي، تحقيق الدكتور عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط١/ ١٤١٤هـ.

٥٩ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي، أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٠هـ.

٦٠ ـ صحيح البخاري = الجامع الصحيح، للبخاري، أبي عبدالله محمد بن إسماعيل الجُعفي، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣/ ١٤٠٧هـ.

٦١ ـ صحيح مسلم = الجامع الصحيح، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل، بيروت.

٦٢ ـ الطبقات الصغير، لابن سعد، محمد بن منيع الزهري، تحقيق بشار عواد معروف ومحمد زاهد جول، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١/ ٢٠٠٩م.

٦٣ ـ الطبقات الكبير، لابن سعد، محمد بن منيع الزهري، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١/ ١٤٢١هـ.

٦٤ ـ طبقات فحول الشعراء، للجمحيّ، محمد بن سلام، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، النشرة الثانية التي ارتضاها المحقق، دار المدني، القاهرة.

٦٥ ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٥٩هـ.

٦٦ ـ عيون الأخبار، لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ.

٦٧ ـ غريب الحديث، لابن قُتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط١/ ١٣٩٧هـ.
٦٨ ـ غريب الحديث، للخطَّابي، أبي سليمان حمْد بن محمد بن إبراهيم البُستي، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى بمكة حرسها الله ١٤٠٢هـ.
٦٩ ـ غياث الأمم في التياث الظُلَم، لإمام الحرمين الجويني، أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف، تحقيق الدكتور مصطفى حلمي والدكتور فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١/ ١٤٠٠هـ.
٧٠ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩ هـ.
٧١ ـ الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لأحمد عبد الرحمن البنّا الشهير بالسَّاعاتي، دار إحياء التراث العربي، القاهرة.
٧٢ ـ فتوح البلدان، للبَلاذُري أحمد بن يحيى بن جابر، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة.
٧٣ ـ فتوح الشام، للأزديّ، أبي إسماعيل محمد بن عبد الله البصري، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠م.
٧٤ ـ فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، تحقيق: محمد الحجيري، دار الفكر، بيروت، ط١/ ١٤١٦هـ.
٧٥ ـ الفتوح، لأحمد بن أعثم الكوفي، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ.
٧٦ ـ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عُبيد، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد قطامش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣/ ١٩٨٣م.
٧٧ ـ الفهرست، لمحمد بن إسحاق النديم، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٣٩١هـ.

٧٨ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير عز الدين علي بن محمد بن محمد الجزَري، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣/ ١٤١٨هـ.

٧٩ـ كتاب الأموال، لابن زنجويه، أبي أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة الخُراساني، تحقيق الدكتور شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط/ ١٤٠٦هـ.

٨٠ـ كتاب الديباج، للختلي، أبي القاسم بن إبراهيم بن سنين، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، بيروت، ط١/ ١٩٩٤م.

٨١ـ كتاب الرِّدَّة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنّى بن حارثة الشَّيبانيّ، للواقديّ، محمد بن عمر بن واقد ـ كذا نسبه المحقق ـ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ١٤١٠هـ.

٨٢ـ كتاب الزهد، لعبد الله بن المبارك المَرْوَزي، تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٣ـ كتاب الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٠٦هـ.

٨٤ـ الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة، أبي بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي، حققه وقدم نصوصه وخرج أحاديثه محمد عوامة، دار قرطبة، بيروت، ط١/ ١٤٢٧هـ.

٨٥ـ كتاب المغازي، للواقدي، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣/ ١٤٠٤هـ.

٨٦ـ كتاب الوزراء والكتاب، للجهشياري، أبي عبد الله محمد بن عبدوس، حققه ووضع فهارسه مصطفى السَّقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١/ ١٣٥٧هـ.

٨٧ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث، بيروت.
٨٨ ـ كنز العُمّال في سنن الأقوال والأفعال، للبرهان فوري، علاء الدين عليّ بن حسام الدين المتقي الهندي، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥/ ١٤٠١هـ.
٨٩ ـ الكنى والأسماء، للدُّولابيّ، أبي بِشْر محمد بن أحمد بن حماد، تحقيق أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم، بيروت ١٤٢١ هـ.
٩٠ ـ لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم بن علي، تحقيق عبد الله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف.
٩١ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، أبي الفتح نصر الله ضياء الدين ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصليّ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ.
٩٢ ـ المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكرٍ الدينوري، أحمد بن مروان بن محمد بن محمد المالكي، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت ١٤١٩هـ.
٩٣ ـ مجمع الأمثال، للميداني، أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط٢/ ١٤٠٧هـ.
٩٤ ـ محاسن الوسائل في معرفة الأوائل، لمحمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي، تحقيق محمد التونجي، دار النفائس، بيروت، ط١/ ٢٠١٢م.
٩٥ ـ المحبَّر، لمحمد بن حبيب البغدادي، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٩٦ ـ المدوَّنة الكبرى، للإمام مالك بن أنس الأصبحيّ، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمي، بيروت.

٩٧ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، كتاب التحرير، القاهرة ١٣٨٦هـ.
٩٨ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ.
٩٩ ـ المسند، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢٠هـ.
١٠٠ ـ المصباح المُضيّ في كُتَّاب النبي الأُمِّيّ ورسلِه إلى ملوك الأرض من عربيٍّ وعَجميّ، لابن حديدة، أبي عبد الله محمد بن علي بن أحمد الأنصاري، صححه وعلق عليه محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت، ط٢/ ١٤٠٥هـ.
١٠١ ـ المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همَّام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢/ ١٤٠٣.
١٠٢ ـ معجم ابن الأعرابي، لأبي سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١/ ١٤١٨هـ)
١٠٣ ـ المعجم الأوسط، للطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد، تحقيق طارق بن عوض الله ابن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥هـ.
١٠٤ ـ معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠٥ ـ المعرَّب، للجواليقي أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخَضِر، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب المصرية، ط٢/ ١٣٨٩هـ.
١٠٦ ـ معرفة الصحابة، لأبي نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، تحقيق عادل العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١/ ١٤١٩هـ.

١٠٧ـ المغازي، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣/ ١٤٠٤هـ.
١٠٨ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد الأنصاري، تحقيق وشرح الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت، ط١/ ١٤٢١هـ.
١٠٩ـ المفضَّليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبِّي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط٥.
١١٠ـ منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لابن الأثير، أبي السعادات المبارك بن محمد، تحقيق الدكتور محمد محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢/ ١٤١٧هـ.
١١١ـ المنتخب من كتاب أزواج النبي، للزبير بن بكار القرشي، تحقيق سكينة الشهابي، بيروت، ط١/ ١٤٠٣هـ.
١١٢ـ المَنْزَع البديع في تجنيس أساليب التجنيس، للسجلماسي، أبي محمد القاسم محمد بن عبد العزيز الأنصاري، تقديم وتحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط١/ ١٤٠١هـ.
١١٣ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجَنِّي، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨١م.
١١٤ـ منهاج السنة النبوية، لابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحرّاني، تحقيق محمد رشاد سالم، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
١١٥ـ موادُّ البيان، لعلي بن خلف، تحقيق الدكتور حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس ١٩٨٢م.
١١٦ـ الموطأ، للإمام مالك بن أنس الأصبحيّ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.

١١٧ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م.
١١٨ـ نثر الدُّرّ، للآبي، أبي سعد منصور بن الحسين، تحقيق محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١م.
١١٩ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١/ ١٣٤٨هـ.
١٢٠ـ النكت على نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، لابن حجر، بقلم علي حسن عبد الحميد، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١/ ١٤١٣هـ.
١٢١ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجَزَري، تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.
١٢٢ـ الوصايا للسجستاني، أبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان، تحقيق عبد المنعم عامر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦١م.

ثالثاً: المَرَاجِع:

١ ـ اتجاهات البحث الأسلوبي، للدكتورشكري محمد عيَّاد، دار العلوم، الرياض، ط١/ ١٤٠٥هـ.
٢ ـ أدب السياسة في العصر الأموي، للدكتور أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٥.
٣ ـ الأدب في عصر النبوة والراشدين، للدكتورصلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٧هـ.
٤ ـ الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: كتاب النثر، للدكتور مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٣/ ١٤١٤هـ.

٥ ـ الأدب وفنونه، للدكتور محمد مندور، مطبوعات معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦١م.
٦ ـ الأسلوب والخطابة، لمحمد لطفي جمعة، مراجعة رابح لطفي جمعة، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٩م.
٧ـ أصول النقد الأدبي، لأحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٠/ ١٩٩٤م.
٨ ـ الأمثال العربية القديمة، لرودلف زلهايم، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٤هـ.
٩ ـ الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، للدكتور عبد المجيد قطامش، دار الفكر، دمشق، ط١/ ١٤٠٨هـ.
١٠ ـ الأمثال العربية والعصر الجاهلي: دراسة تحليلية، للدكتور محمد توفيق أبو علي، دار النفائس، بيروت، ط١/ ١٤٠٨هـ.
١١ـ أمراء البيان، لمحمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧م.
١٢ ـ الإنسان في الشعر الجاهلي، لعبد الغني أحمد زيتوني، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ط١/ ١٤٢١هـ.
١٣ـ البحث البلاغي عند العرب: تأصيل وتقييم، للدكتور شفيع السيد، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٤ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة ١٤٢٠هـ.
١٥ـ البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط١/ ١٤١٦هـ.
١٦ـ البلاغة تطورٌ وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١١.

١٧ ـ البلاغة فنونها وأفنانها، للدكتورفضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان، ط٧/ ١٤١٢هـ.
١٨ ـ بناء لغة الشعر، لجون كوين، ترجمة الدكتور أحمد درويـش، دار المعارف، ط٣/ ١٩٩٣م.
١٩ ـ بنية النصّ السردي من منظور النقد الأدبي، للدكتورحميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢/ ١٩٩٣م.
٢٠ـ تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، للدكتورشوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٧.
٢١ ـ تاريخ التراث العربي، للدكتورفؤاد سزكين، ترجمة الدكتور محمد فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤١١هـ.
٢٢ ـ تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، للدكتورمحمود المقداد، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/ ١٩٩٣م.
٢٣ـ تاريخ الخط العربي وآدابه، لمحمد طاهر الكردي، مكتبة الهلال، ط١/ ١٩٣٩م.
٢٤ـ التاريخ العربي والمؤرّخون: دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، لشاكر مصطفى، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣/ ١٩٨٣م.
٢٥ـ التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العليَّة، للكتاني، أبي الإسعاد عبد الحي بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي، المطبعة الأهلية بدرب الفاسي، الرباط ١٣٤٦هـ.
٢٦ ـ تصحيح الكتب، لأحمد محمد شاكر، اعتنى به وعلق عليه وأضاف إليه عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢/ ١٤١٥هـ.
٢٧ ـ التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان، للدكتورمحمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢/ ١٤٠٠هـ.

٢٨ـ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، لأنيس المقدسي، من منشورات الدائرة العربية في جامعة بيروت الأمريكية، بيروت ١٩٣٥م.

٢٩ـ جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٠ ـ جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.

٣١ـ الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، للدكتور محمد خير هيكل، دار البيارق، بيروت، ط٢/ ١٤١٧هـ.

٣٢ ـ الحجاج في التواصل، لفيليب بروطون، ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١/ ٢٠١٣م.

٣٣ ـ حضارة العرب، لجوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

٣٤ ـ خصائص الحروف العربية، لحسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٨م.

٣٥ ـ خطاب الحكاية، لجيرار جنيت، ترجمة: محمد معتصم، وعبد الجليل الأزدي، وعمر حلي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٢/ ١٩٩٧م.

٣٦ ـ دراسات في الأدب العربي، لغوستاف فون غرنباوم، ترجمة أنيس فريحة، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٩م.

٣٧ ـ دراسات لأسلوب القرآن، لمحمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة.

٣٨ ـ دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، للدكتور محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط/ ١٤٢٩هـ.

٣٩ ـ السرديَّة العربية، للدكتورعبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١/ ١٩٩٢م.
٤٠ ـ السير الذاتية في الأدب العربي، لتهاني شاكر عبد الفتاح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/ ٢٠٠٢م.
٤١ ـ السيرة: تاريخٌ وفن، للدكتورماهر حسن فهمي، مكتبة النهضة المصرية، ط١/ ١٩٧٠م.
٤٢ ـ الشعر العربي الحديث ١٨٠٠-١٩٧٠: تطور أشكاله و موضوعاته بتأثير الأدب الغربي ، تأليف س. موريه، ترجمه وعلق عليه الدكتور شفيع السيد والدكتورسعد مصلوح، دار غريب، القاهرة ٢٠٠٣م.
٤٣ـ شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي، للدكتور أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٩هـ.
٤٤ ـ الشفاهيَّة والكتابية، لوالتر ج. أونج ، ترجمة الدكتورحسن البنا عز الدين، مراجعة الدكتورمحمد عصفور، عالم المعرفة ١٨٢ ، الكويت ١٤١٤هـ.
٤٥ ـ صناجة الطرب في تقدمات العرب، تأليف نوفل أفندي بن نعمة الله الطرابلُسي، مطبعة الأمريكان، بيروت.
٤٦ ـ الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، لمحمد الولي، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٠م.
٤٧ ـ عبقريَّة الصِّدّيق، للأستاذ عباس محمود العقّاد، دار المعارف بالقاهرة، ط١٥/ ١٩٨٩م.
٤٨ ـ علم النصّ، لجوليا كريسطيفا، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب ١٩٩٧م.

٤٩ ـ عناصر الشعر في نثر عبد الحميد، لأستاذنا الدكتورسعيد حسين منصور، دار الوفاء، الإسكندرية.

٥٠ ـ فن الجناس، لعلي الجندي، دار الفكر العربي، القاهرة.

٥١ ـ فن الخطابة، للدكتور أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠١م.

٥٢ـ الفن العسكري الإسلامي: أصوله ومصادره، للعميد الركن الدكتور ياسين سويد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط١/ ١٤٠٩هـ.

٥٣ ـ الفنّ القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري، للدكتورراكان الصفدي، منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق ٢٠١١م.

٥٤ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتورشوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١١.

٥٦ ـ في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، للدكتورسعد مصلوح، مجلس النشر العلمي، الكويت ٢٠٠٣م.

٥٧ ـ في النثر العربي، للدكتور محمد يونس عبد العال، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، القاهرة، ط١/ ١٩٩٦م.

٥٨ ـ قصة الحضارة، لوِل ديورانت، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت.

٥٩ ـ القصة القصيرة: النظرية والتقنية، لإنريكي أندرسون إمبرت، ترجمة علي إبراهيم منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م.

٦٠ ـ القِيَم الخُلُقيَّة في الخطابة العربية من الجاهلية حتى بداية القرن الثالث الهجري، للدكتورسعيد حسين منصور، منشورات جامعة بنغازي.

٦١ ـ كتاب، الإمامة والسياسة، في ميزان التحقيق العلمي، للدكتورعبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط١/ ١٤٠٥هـ.

٦٢ ـ كُتَّاب النبيّ ﷺ، للدكتور محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢/ ١٣٩٨هـ.
٦٣ ـ كتاب علم الأدب، الجزء الثاني: في علم الخطابة، تأليف الأب لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط٣/ ١٩٢٦م.
٦٤ ـ اللغة الشاعرة، لعباس محمود العقاد، منشورات كتاب المجلة العربية، الرياض ١٤٣٥هـ.
٦٥ ـ المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، للدكتور شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦م.
٦٦ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبويّ والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، ط٧/ ١٤٢٢هـ.
٦٧ ـ المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، لفرانسوا ديروش، نقله إلى العربية وقدم له أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ط٢/ ١٤٣١هـ.
٦٨ـ المدرسة العسكرية الإسلامية، لمحمد فرج، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢.
٦٩ ـ مرويات أبي مِخْنَف في تاريخ الطبري، عصر الخلافة الراشدة: دراسة نقدية، ليحيى ابن إبراهيم بن علي اليحيى، دار العاصمة، الرياض.
٧٠ ـ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، للدكتور ناصر الدين الأسد، دار الجيل، بيروت، ط٨/ ١٩٩٦م.
٧١ ـ المصطلحات الأدبية الحديثة، للدكتور محمد عناني، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، القاهرة، ط٢/ ٢٠٠٣م.
٧٢ ـ المعجم الذهبي: فارسي ـ عربي، لمحمد التونجي، المستشارية الثقافية الإيرانية، دمشق ١٩٩٣م.

٧٣ ـ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، لمجدي وهبة وكامل المهندس، بيروت، ط٢/ ١٩٨٤م.

٧٤ـ معجم المعاجم، لأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، ط٢/ ١٩٩٣م.

٧٤ ـ معجم ما أُلِّف عن رسول الله ﷺ، للدكتورصلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١/ ١٤٠٢هـ.

٧٥ ـ معجم مصطلحات النقد العربي القديم، للدكتورأحمد مطلوب، مكتبة لبنان، بيروت، ط١/ ٢٠٠١م.

٧٦ ـ المغازي الأولى ومؤلفوها، ليوسف هوروفتس، ترجمة حسين نصار، المركز القومي للترجمة عن طبعةٍ قديمة كما أشاروا، القاهرة ٢٠١٠م.

٧٧ـ المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتورجواد علي، ساعدت على طبعه جامعة بغداد، ط٢/ ١٤١٣هـ.

٧٨ ـ المنطق، لمحمد رضا المظفَّر، منشورات الفيروزآبادي، قُم، ط٢/ ١٤٢٤هـ.

٧٩ ـ موسوعة الأدب والنقد، الجزء الأول: الأدب والنقد والتاريخ الأدبي، تقديم وترجمة وتعليق أستاذنا الدكتور عبد الحميد شيحة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩م.

٨٠ ـ النثر الجاهلي بين الأصالة والانتحال، للدكتورعبد الرحمن بن عثمان الهليّل، دار المؤيد، الرياض، ط١/ ١٤١٩هـ.

٨١ ـ النثر الفني في القرن الرابع، للدكتور زكي مبارك، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٢.

٨٢ ـ النثيرة والقصيدة المضادَّة، لمحمد ياسر شرف، النادي الأدبي بالرياض ١٤٠١هـ.

٨٣ ـ نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، للدكتورحسين نصار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢/ ١٩٦٦م.

٨٤ـ النظم الشفويّ في الشعر الجاهلي، لجيمز مونرو، ترجمة الدكتور فضل بن عمار العماري، دار الأصالة، الرياض ١٤٠٧هـ.
٨٥ـ النقد الأدبي الحديث ، للدكتور محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٦م.
٨٦ـ النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، للدكتور محمد الناصر العجيمي، كلية الآداب، سوسة ط١/ ١٩٩٨م.
٨٧ ـ النقد الفني، لجيروم ستولنيتز، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠١٣م.
٨٩ـ نقد النثر في القرنين الرابع والخامس الهجريين، لفاطمة عبد الله الوهيبي، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط١/ ١٤١١هـ.
٩٠ ـ نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي، لنبيل خالد رباح أبو علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.
٩١ـ الوصف في الشعر العربي: الجزء الأول: في العصر الجاهلي، لعبد العظيم علي قناوي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١/ ١٣٦٨هـ.

رابعًا: الرّسائلُ العلميّة:

١ ـ الحِجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير، لنعيمة يعمرانن، رسالة ماجستير بكلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، الجزائر ٢٠١٢م.
٢ ـ الخطب السياسية في العصر الأموي: دراسةٌ نحوية نصِّيّة، لمحمد ماهر محمد عبد الرحمن، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة دمياط ١٤٣٥هـ.
٣ ـ الدستور في البلاد الإسلامية ومشكلاته في ضوء الإسلام، لتوفيق بن عبد العزيز السديري، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الإسلامية، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٧هـ.

٤ ـ رثاء الذات في الشعر الجاهلي: دراسة أسلوبية، لمحمد رمضان زامل، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠٥م.

٥ ـ المراثي النبوية في أشعار الصحابة: توثيق ودراسة، لمحمد شمس كامل عُقاب، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١٠م.

خامساً: الدّوريّات:

١ ـ مجلة الداعي الصادرة عن دار العلوم ديوبند، العدد (١١ السنة ٣٣)، ذو القعدة ١٤٣٠هـ، مقالة: مساهمات الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي في التحقيق العلمي، للدكتور جمال الدين الفاروقي.

٢ ـ مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدبها، المجلد[١٣]، العدد [٢٢] مقالة: فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، للدكتور أحمد بن ناصر الدخيل.

٣ ـ مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، عدد [٥٣] سنة ٢٠٠٤م، ص[٧٣] مقالة: المفارقة في أدب طه حسين: دراسات في جنة الشوك، للدكتورة نجوى محمود صابر.

٤ ـ مجلة العربي، الكويت، عدد[٤٣٦]، مارس ١٩٩٥م ص[٧٦] مقالة: القلم واللسان، للدكتور جابر عصفور.

٥ ـ مجلة العرب، جـ٧و٨، محرم وصفر ١٤٣٥هـ، ص[٥٦٧]، دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، الرياض، مقالة: الأختام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي في الشام، للدكتور جاسم محمد عيسى الجبوري.

Thesis abstract

The Literary Structure in the Sahaba Prose (The Prophet's Companions' Prose): An Analytical Study

The Prophet's Sahaba (Companions) had a great heritage of prose literature. The prose literature here refers to this literary genre which includes some artistic elements. The contents and the elements of this prose need to be studied and analyzed،as well as its issues،either verbal or written issues its sources and the impact of Islam on it. For this reason،the title of this study is **«The Literary Structure in the Sahaba Prose (The Prophet's Companions' Prose): An Analytical Study».**

One of the biggest scientific problems of this prose is filtering its sources، and then studying the credible ones. In this study،I worked tirelessly to select the authentic texts،excluding any suspicious one.

We can say that the Prophet's Companions' prose includes two types: oral and written texts. Furthermore، there are other verbal types، such as: narratives، wills، debates، human description، proverbs، prose elegies and answers.

Regarding the rhetoric، we can find the Companions' speeches during the Prophet's life، the political speeches، the Jihad and battles speeches، the reflection speeches،and the austerity and elegy speeches. In their speeches،they had some traditions which we mention it in our study.

Concerning the written texts، there are: the oldest books،the political and the authority book، the Jihad texts، the Fitna (civil strife) and Khawārij books، the written wills،the judiciary and justice books،the urbanism on books، the jurisprudence books، the funds books، the companions' signatures. In their written texts، they had also some traditions which we

mention in our study،including another exquisite art،which is the rings engraving.

The study tackles in detail the structure elements in the: rhetorical art،written texts،narratives. It also deals with argument and reasoning signs، defining their sources، figures and technics. In addition، the study shows the language characteristics، such as: words،sentences، common styles. It reveals the images sources، manifesting their technics، the most important of which are: similarity، metaphor، metonymy،real images، and the common words. It also refers to the improvement elements in the prose، so it studies the antithesis and the contrast، which are two bases of the prose،as well as the paronomasia and the rhymed prose، which are represented in the prose in three forms: equilibrium،assimilation and harmony.

In the conclusion of the thesis، I present the results and the recommendations.

الفهرس

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

تم بحمد الله

نثر الصحابة
أغراضه وخصائصه

نثر الصحابة لم يوفَّ حقَّه المرجوَّ له، بينا وُفِّيَ نثر غيرهم ممن لحقهم حقَّه أو كاد

فعزَّ عليَّ أن يُترك نثر هؤلاء القوم الذين كانت تتنزَّل عليهم الآيات المعجزات، والذين كانوا يستمعون إلى رسول الله صلى عليه وسلم المؤيَّدِ بالوحي،

ويدرسون في مدرسته وهو أفصحُ العرب، والذين هم قريبو عهدٍ بأصول أدبنا الجاهلية، ذلك الأدب المتين المنقَّى.

كلُّ أولئك داعيَ حقٍّ إلى الاهتمام لدراسة هذا النثر دراسةً متأنِّيةً مستقصية، لا دراسةً عجلةً، خابطةً فيه خبطَ عشواء، تنقر هنا قليلًا، وهنالك قليلًا،

تخلطُ ما صحَّ منه بما لم يصحَّ منه، فتفسد من الأدب، وتظلم التاريخَ والرجال والعصرَ،

بقصدٍ أو بغير قصد، ولكنَّ الظلم في نهاية مطافه قد وقع، وعند الله عز وجل تُختَبرُ النوايا.

محمد شمس عقاب

الأمل للطبع والنشر والتوزيع
01000282166 - 01120774990
www.alamal-publications.com
Daralamal2014@gmail.com
Daralamal2014